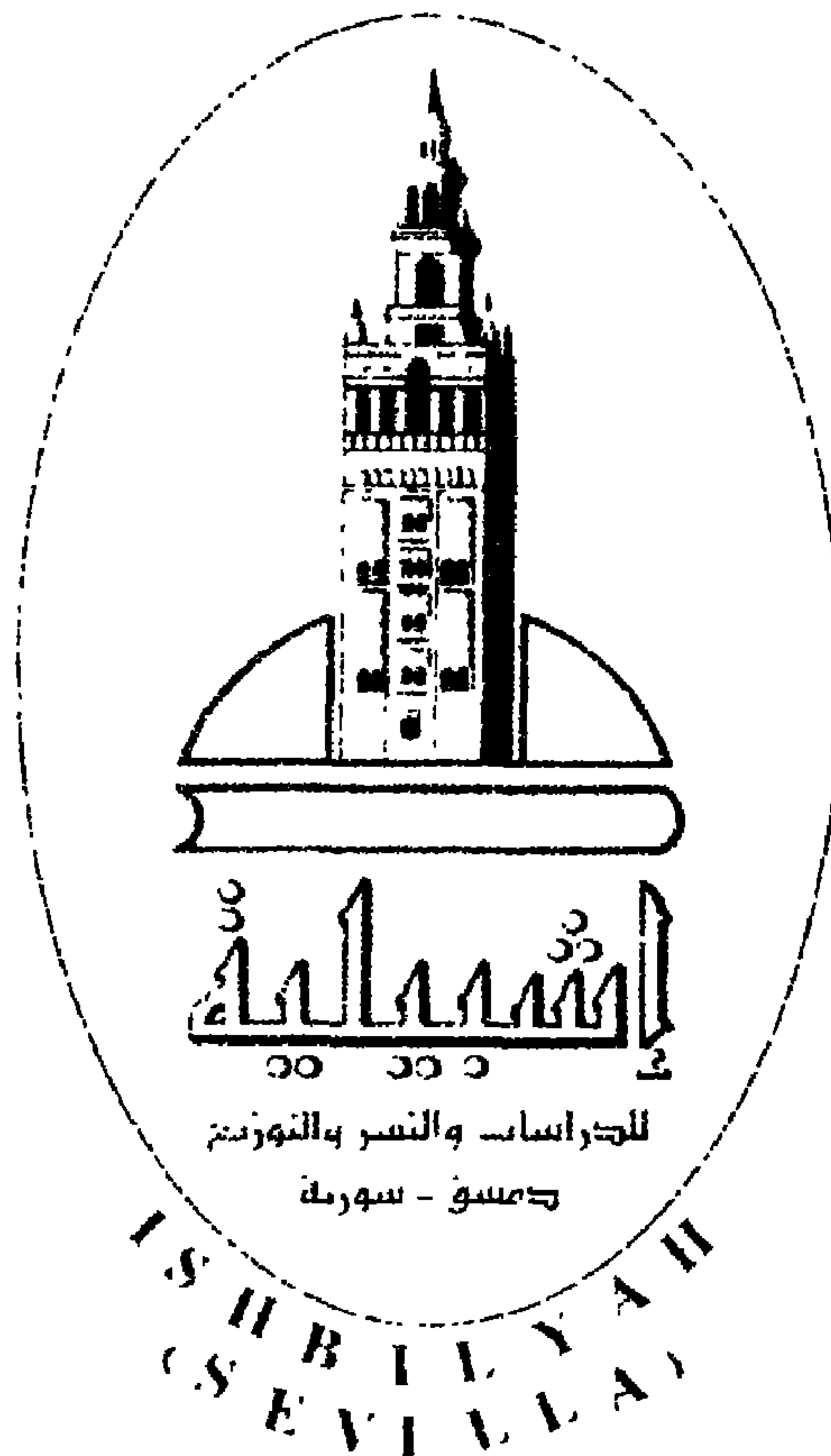


دراسات تاريخية

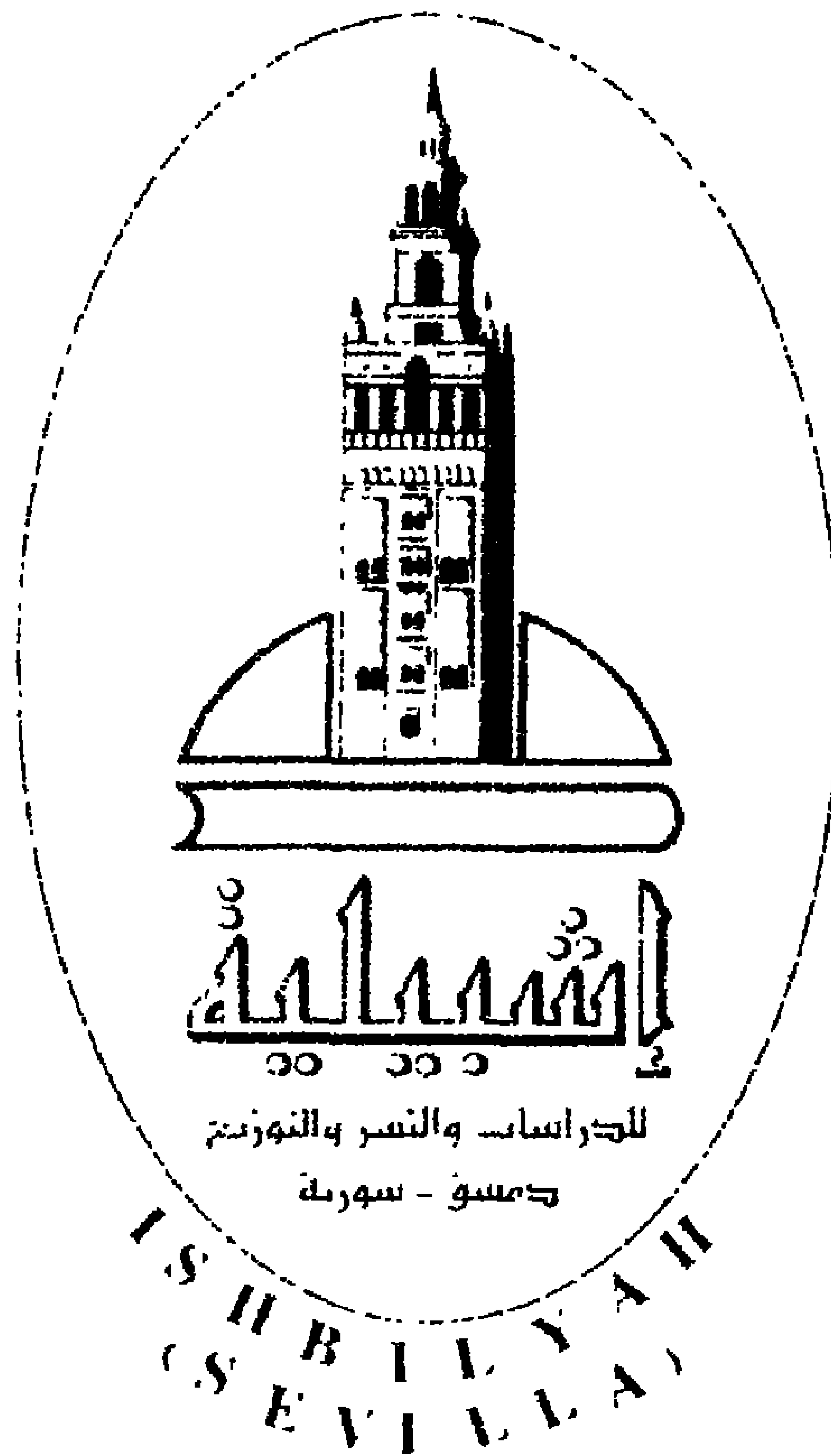
مجلة علمية فصلية محكمة



إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية



Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS P O Box 4363, SYRIA



Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS P O Box 4363, SYRIA

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

العددان : التاسع والعاشر – محرم ١٤٠٣ هـ / تشرين اول (اكتوبر) ١٩٨٢

ثمن العدد

سورية	٦٠٠	ق.س.	
لبنـــان	٨٠٠	ق.ل.	
الـكويت	٧٠٠	ف.ك.	
البحرين	١ر٠٠	دينار بحراني	
ليبيـــا	١ر٢٠٠	دينار ليبي	
تـونس	١ر٠٠	دينار تونسي	
المغـرب	١٤ر٠٠	دينار مغربي	
قطـــر	٩ر٠٠	ريال قطري	
السعودية	٨ر٥٠	ريال سعودي	

الاشتراكات ـ يرسل طلـب الاشتراك الـى ادارة المجلـة

المراسلات: باسم لجنة كتابة تاريخ العرب
جامعة دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

في هـذا العـدد

صفحة

تنويه

- الاراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها
- ترتيب البحوث يخضع لضرورات فنيـة

جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة

١٢٧٣ ـ ١٢٧٧ / ١٨٥٧ ـ ١٨٦١

من خلال الوثائق الشرعية

د. عبدالكريم رافق

كلية الاداب ـ جامعة دمشق

٤ ـ مظاهر اقتصادية :

سنستعرض ، في هذا المجال ، من خلال ما ورد في الوثائق الشرعية ، مراكز الفعاليات الاقتصادية في غزة ، ونماذج من النشاطات الاقتصادية ، مثل مقومات الثروة والدخل ، وعمليات البيع والشراء ، والديون ، واسعار السلع والعقارات والمقارنة بينها ، وكذلك الاقتصاد في الريف ، والعلاقة بينه وبين المدينة . وننهي البحث بدراسة عن المقاييس ، والمكاييل ، والاوزان ، والنقود في لواء غزة .

وقد حفلت غزة ، بدليل اسماء الخانات والاسواق فيها ، بفعاليات اقتصادية مختلفة ، على مر العصور ، ولا عجب في ذلك ، لانها كانت على الطريق التجاري البري

---

* هذه الدراسة مبنية على سجل وحيد يعود لمحكمة غزة في الفترة موضوع البحث ، محفوظ في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ، ويتالف من ٤٥٩ صفحة من القطع الكبير ، ويضم حوالي ٣٧٤٥ وثيقة. وتسهيلا للبحث فقد اشرنا ، حيث دعت الحاجة الى الرموز المتعارف عليها للاشهر القمرية في التاريخ الهجري ، وما يقابلها في التاريخ الميلادي .

* اعد البحث للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، الذي انعقد في الجامعة الاردنية في الفترة مابين ٤ ـ ٩ جمادي الثانية ١٤٠٠هـ / ١٩ ـ ٢٤ نيسان ١٩٨٠ م ، وتركزت ابحاثه على فلسطين عبر التاريخ .

وقد نشر القسم الاول من البحث (المظاهر العمرانية والاجتماعية) في العدد الثامن من هذه المجلة (رجب ١٤٠٢ هـ / نيسان ١٨٢ م) ، وهذا هو القسم الثاني منه .

الوحيد الذي يربط بين بلاد الشام ، وما اتصل بها من تجارة الاناضول والعراق وفارس وما وراءها ، ومصر ، كما ان قافلة الحج الشامي ، وهي بالضرورة قافلة تجارة ايضا ، كثيرا ما سلكت الطريق الغزاوي ، في طريق عودتها ، حين كانت محملة بالبضائع من الحجاز . وأم غزة ، كذلك ، عدد من الحجاج ، قاصدين العقبة ، للالتحاق بقافلة الحج المصري . يضاف الى ذلك موقع غزة ، في وسط منطقة زراعية غنية ، قريبة من البحر ومن البادية ، مما يجعلها سوقا لمنطقة واسعة تحيط بها . وكان لهذا الموقع التجاري الهام ، وتنوع الفعاليات الاقتصادية ، المحلية والدولية ، في غزة ، اثره الكبير في اشتهارها عبر العصور .

وقد ذكرت وثائق غزة الشرعية عددا من الخانات فيها تدل اسماؤها على انواع السلع التي تعاطتها . واشهر هذه الخانات ، بدليل ان جميع من زار غزة ذكره أول ما ذكر ، خان الزيت ، الواقع داخل غزة ، بمحلة الخضر ، بخط حمام السمرة . وكان من اوقاف آل رضوان ، الذين اشتهروا في حكم غزة ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر . وجاء في كتاب (بيديكر) ان خان الزيت يقع الى الجنوب الغربي من الجامع الكبير ، وان حارة الزيتون تقع الى الجنوب الغربي من هذا الخان . ولا أدل على اشتهار الزيت والزيتون في منطقة غزة من تسمية خان الزيت ومحلة الزيتون باسميهما . وهناك خان الكتان ، ويقع داخل المدينة بمحلة البرجلية . وتسمى الخط ، حيث وجد ، باسمه (خط خان الكتان) ، نظرا لاهميته في تلك المنطقة . وذكر خان زاوية الهنود ، داخل غزة ، بسوق الفخار . ويقع هذا السوق بمحلة ابرجلية ، وتسمى خط باسمه (خط سوق الفخار) . ويبدو أن هذا الخان كان لصيقا بزاوية الهنود ، مما جعله يعرف بها ، وقد ذكر (غات) زاوية الهنود ضمن قائمة الخانات ، مما يعني انها استخدمت خانا ، ولا ندري ما اذا كانت الزاوية قد استخدمت خانا في الفترة التي كتب فيها (غات) ، في عام ١٨٨٧ ، ام أن الخان الملاصق للزاوية الحق بها وتسمى باسمها ، أم أن (غات) قد اشار خطأ الى الزاوية على انها الخان . وقدميزت الوثائق الشرعية ، في فترة دراستنا ، بين زاوية الهنود وخان زاوية الهنود .

ووجد في غزة خان الجمالي ، نسبة الى الحاج علي الجمالي ، بمحلة الزيتون ، بخط الخضر . وقد اشار اليه (غات)(١) باسم خان الجمالة . واذا كانت نسبة الجمالي تدل على تعاطي امور الجمال فربما استخدم الخان لايواء الجمال ، التي نقلت عليها البضائع من غزة واليها . ونظرا لكثرة الجمالة ، فقد عرفت حارة باسمهم ، وهي حارة الجمالة ، بمحلة التفاح . ومن خانات غزة خان القهوة بمحلة السجاعية ، في سوقها . والجدير بالذكر ان قافلة الحج الشامي حملت القهوة (البن) من

الحجاز ، التي اتاها من اليمن وغيرها ، الى الشام . ويبدو ان خان القهوة هـذا كان لخزن القهوة وبيعها ، لا استهلاكها . ووجدت في غزه مقاه (قهوات) تقدم القهوة للجالسين . وهناك خط في غزة عرف بخط القهوة ، في محلة حكر التفاح . كما وجد جامع ، ولعله في محلة حكر التفاح ، عرف بجامع القهوة ، مما يدل على اشتهار القهوة التي عرف الجامع بها . وهناك خط آخر ، يدعى خط القهوة ، بمحلة البرجلية ، وربما كانا خطا واحدا مر بمحلتي حكر التفاح والبرجلية .

وذكر (غات)(٢) خان الغلة ، وخان المعارف ، ووكالات ابو شعبان ، وابـو خضرة ، وعلي ساق الله في غزة . واستخدام التعبير المصري « وكالة » للاشارة الى الخان دليل على الاثر المصري في المفردات السائدة في غزة . ولم تشر الوثائق الشرعية، في فترة دراستنا ، الى هـذه الاماكن ، اما لانـه لم تعرض في محكمة غزة قضايا تستدعي ذكرها ، او لانها ، كلها أو بعضها ، وجدت في فتـرة الخمس والعشرين سنة التي فصلت بين فترة دراستنا والفترة التي كتب فيها (غات) وربمـا كانت تسميات قديمة لبعض الاماكن وقد تبدلت آنذاك .

ووجدت في غزة اسواق متخصصة ببيع منتجات معينة ، بعضها من الانتاج المحلي والبعض مستورد من ريف غزة أو من الخارج . وكان للسوق قصبة ، اي ساحة ، تطل عليها الدكاكين . ومن هذه الاسواق سوق الفخار ، بخط الفخار ، بمحلة البرجلية . واشير اليه احيانا باسم سـوق الفواخرية . وبيعت في هـذا السوق المنتجات الفخارية ، التي صنعت في غزة في أمكنة سميت بالفواخير . وذكرت الوثائق وجود خط ، بمجلة البرجلية ، عـرف بخط الفواخير . حيـث تواجدت الفواخير بكثرة ، بعضها بجانب البعض ، كما في المثال التالي : « المشتري الحـاج سلمان بن المرحوم اسماعيل الرايع البايع علي بن خليل القعوة المبيع ١٢ قيراط من أصل كامل في جميع الفاخورة الكاينة بمدينة غزة بمحلة البرجلية بخط الفواخير التي حدها قبلة فاخورة احمد عطا الله وتمامه فاخورة ابراهيم الشويكي ومن يشركه وتمامه حاكورة ابراهيم العيد وشرقا المسطاح التابع لها الداخل في المبيـع ومنـه التوصل وشمالا المشتري ومن يشركه وغربا كذلك المشتري الثمن ١٠٨٠ قرشا»(٣).

ولا نعلم اذا كان خط الفخار ، بمحلة البرجلية ، هو نفسه خط الفواخير ، ولكن مما لا شك فيه أن سوق الفخار ضم دكاكين بيع الفخار ، في حين صنع الفخار في الفواخير التي تجمعت في محلتين : فيمحلة البرجلية ، بخط الفواخير ، الذي يبدو انه امتد داخل غزة وظاهرها ، وفي محلة الدرج ، بخط مسجد الشيخظريف ، وكذلك في ظاهر هذه المحلة . واشتملت الفاخورة على دواليب خشبية ، لصنع

الفخار ، ومسطاح ، وهو عبارة عن ساحة واسعة مكشوفة لتجفيف الفخار فيها بعد صنعه . ويبدو ان غزة اشتهرت بصناعة الفخار نظرا لكثرة الفواخير فيها ، وتخصيص سوق لبيع منتجاتها . كما انها صدرت الفخار الى مناطق اخرى . وذكر ، مثلا . تحميل الفخار على جمال ، ونقله الى القدس . واستمرت صناعة الفخار فيها رائجة ، كما يبدو ، الى درجة ان مصطفى الدباغ ذكر ان أحد أحياء غزة عرف بالفواخير ، ولكنه لم يعين تاريخ ذلك .

ونظرا للحاجة الى الخبرة في صناعة الفخار ، وربما حرص اصحاب هذه الصناعة على حصرها باسرهم ، فاننا نلاحظ تخصص اسر معينة بها . ومن الاسر التي ذكرتها الوثائق في هذا المجال اسرة قعوة ، التي امتلك عدد من افرادها الفواخير، ومنهم خليل بن قعوة ، واحمد قعوة ، وعلي بن خليل قعوة ، وموسى بن خليل قعوة. ومن الذين امتلكوا الفواخير ، او اجزاء منها ، من غير هؤلاء ، ابراهيم الشويكي . خلف الاقرع ، محمد فلفل ، عبد ربه بن الحاج محمد الغداوي ، الحاج عبد الفتاح ابن مصطفى المشهراوي ، الحاج سلمان بن المرحوم اسماعيل الرايع ، ابراهيم بن أحمد الزنوتي ، أبو عبيد الازعر ، والحرمة امون بنت صالح دغمش . ولا نعلم اذا كانت الحرمة امون مجرد مالكة ، بطريقة الشراء أو الارث ، لفاخورة كاملة ، أو جزء منها ، أم انها عملت فيها أيضا . وتدل كثرة المتعاملين بالفواخير ، ملكا أو صناعة أو تسويقا ، على أن هذه الصناعة كانت رائجة .

ووجد في غزة سوق الاسكافية (الذين يعملون بصنع الاحذية) ، بمحلة الدجاعية ، وتسمى الخط ، حيث موقع هذا السوق ، بخط الاسكافية (او السكافية) . وليس من الضروري ان يقتصر أي سوق حصرا على مهنة معينة ، وان يكن اتخذ اسمها . ففي خط الاسكافية ، مثلا ، ذكر لدكان صباغة . وفي غزة سوق الصوافين ، بمحلة السجاعية ، وسوق الغزل ، بمحلة السجاعية أيضا ، حيث تسمى خط باسمه (خط سوق الغزل) ، وسوق العطارين داخل غزة . ولم يعين مكان وجود السوق الاخير بالضبط ، ولكن ذاكر ان ظهر هذا السوق كان مواجه الصبانة (ولعلها الصبانة ، اي المصبنة ، الرضوانية ، التي ذاكرت بكثرةفيالوثائق) . ولم يذكر (غات) ، في قائمة الاسواق التي ذكرها في عام ١٨٨٧ ، الاسواق المذكورة سابقا . ولا يعني هذا انها لم تعد موجودة في زمنه . وربما لم تثر اهتمامه ، أو ان اسمها تبدل ، أو ادمج بغيره ، أو انها لم تعد مشهورة بالنسبة لاسواق اخرى .

وذكرت الوثائق ، سوق السراجين ، بمحلة الزيتون ، وسوق الخضر ، داخل غزة . ولم يعين مكان وجوده بالتفصيل ، ولعله كان بمحلة الخضر . والملاحظ

انه حين يشتهر سوق ما فان الوثائق لا تشير الى موقعه بالتفصيل ، مثل سوق السجاعية ، الذي غالبا ما اشارت اليه بالسوق داخل غزة . ووجد سوق للحمير ، وسمي خط باسمه (خط سوق الحمير) ، وكان بظاهر غزة ، الى الجنوب الغربي منها . وهناك سوق المسلخ ، داخل غزة ، بمحلة البرجلية ، كما يعتقد ، وربما بيعت في هذا السوق ذبائح المسلخ ، او انه سمي بذلك لوقوعه قرب المسلخ . اما المسلخ نفسه فكان بظاهر غزة ، بضريبة المسيل ، ويؤدي اليه زقاق عرف بزقاق المسلخ . وذكرت الوثائق خط النحاسين ، داخل غزة ، دون ان تذكر المحلة التي وجد فيها ، ولعل التسمية جاءت من كثرة النحاسين في هذا الخط .

ويبدو ان السوق الرئيسي في غزة ، الذي لم يتخصص بسلعة معينة ، ولم يحدد بخط معين ، كان سوق السجاعية . واشتهرت ساحته ، المعروفة بالقصبة ، التي تطل عليها الدكاكين . والى جانب القصبة وجد ، بسوق السجاعية ، خط عرف بخط البازار ، مما يعني ان هذا السوق كان متشعبا . واشارت الوثائق الى السوق الفوقاني بمدينة غزة ، وكانت له قصبة . ولا نعلم سبب تسميته بالفوقاني ، وبالنسبة لاي موقع سمي بذلك . ولعله تسمى بذلك لكونه يقع شمالي سوق السجاعية ، او ربما كان جزءا من سوق كبير اطلق على قسمه الاعلى تعبير السوق الفوقاني .

وكثرت في غزة أماكن الصباغة ، وتوزعت في انحاء متعددة من المدينة لتلبية حاجات المواطنين . واشير الى هذه الاماكن أحيانا ، بالمصبغة ، واحيانا اخرى بدكان الصباغة ، وتصعب معرفة وجه الاختلاف بين التعبيرين . ويبدو ان لا فرق بينهما لانهما استخدما بمعنى واحد . ووجدت مصبغة في خط الاسكافية ، بمحلة السجاعية ، واخرى في خط جامع ابن عثمان ، بالمحلة ذاتها . وقد اوقف المصبغة الاولى صاحبها ، احمد بن علي المشهرواي ، على سبيل الى جانبها ، وكانت المصبغة الثانية وقفا على جامع ابن عثمان . وذكرت مصبغتان اخريان بمحلة السجاعية : تملك احداهما عبد الرحمن زموا ومن يشركه ، وملك الاخرى عبد الرحمن زموا أيضا ، ونازعه في ملكية جزء منها السيدان يوسف السقا واخاه علي .

وذكرت صبانتان (مصبنتان) في غزة : الصبانة الرضوانية داخل غزة ، وصبانة بمحلة البرجلية ، بخط بني عامر . ولا يوجد دليل قاطع على ان الصبانة الثانية كانت غير الاولى . ووجدت مشعرة في غزة ، ويبدو انها مكان لغزل شعر الماعز . واشارت الوثائق الى عدد من المعاصر في غزة ، ولكنها لم تذكر تخصص كل منها ، باستثناء واحدة بمحلة البرجلية ، بخط مسجد الشيخ عياد . وقد اشتملت

على حاملين وفرن ومعجن واحواض وشمعة لتثبيت الاحجار ، وهي معدة لطحن السمسم ، وقد اشترى ثلثيها في ٢٥ جمادى الثاني ١٢٧٣/٢٠ شباط ١٨٥٧ ، السيد خليل بن المرحوم السيد محمد ابي خضرة من صاحبيها بالتساوي الحاج احمد بن المرحوم الحاج خليل العشي والخواجة نقولا ولد جبران الطويل النصراني . واذا صح القول ان معصرة الزيت عرفت باستمرار « بالبد » ، الذي اشارت اليه الوثائق في اماكن كثيرة ، فان المعاصر ، التي ورد ذكرها في الوثائق ، ولم تعين هويتها ، كانت اما لطحن السمسم ، الذي استخرج منه زيت السيرج ، كما في المثال السابق ، أو لعصر العنب لاستخراج الدبس . والمعاصر التي اشارت اليها الوثائق هي التالية : معصرةاولاد الغزالي بمحلة السجاعية ، ومعصرة بدوي حتحت بمحلة السجاعية ، بخط الست رقية ، ومعصرة اولاد حتحت بمحلة السجاعية ،بخط جامع ابن عثمان ، ومعصرة اولاد مكي بمحلة الخضر ، بخط معصرة اولاد مكي ، ومعصرة اولاد القهوجي بمحلة البرجلية ، بخط سوق الحمام ، ومعصرة الحاج حسن بن المرحوم الحاج احمد البورنة (كتبت احيانا البورنو أو البورنوا) ، بمحلة الزيتون ، بخط الشيخ عطية .

وقد ذكر عدد من البدود التي يعتقد انها اختصت بعصر الزيت . وضم البد المسطاح ، وهي الارض المكشوفة ، حيث يجمع الزيتون قبل عصره ، وحيث رصت وجففت بقايا الزيتون المعصور لتستخدم كوقود . وهناك بد لاولاد شرير بمحلة الزيتون ، وبد آخر بمحلة الزيتون ، بخط البطل ، امتلك بعضه ، أو كله ، آل مرتجا . واشير الى خربة البد بمحلة الزيتون ، بخط ساقية القيدة ، والى خربة بد آخر بمحلة الزيتون عرف ببد زايد ، والى خربة بد ثالثة بمحلة الزيتون ، بخط البطل . وليس غريبا ان جميع هذه البدود قد وجدت بمحلة الزيتون التي اقترن اسمها بهذا الانتاج . وهناك بد بنزلة المشاهرة بظاهر غزة ، وبد آخر ،بظاهر غزة أيضا ، من الجهة القبلية ، بجانب « حارت الزيتون » ، بخط البطل .

واشارت الوثائق الى خربة طاحون بمحلة الزيتون ، اشترى حوالي ثلثيها نصار بن الحاج سليمان يسين من اولاد الطحان . وهناك اشارة الى فرن بمحلة البرجلية ، بخط مسجد الشيخ عياد ، وكان في وقف الشيخ ذكري .

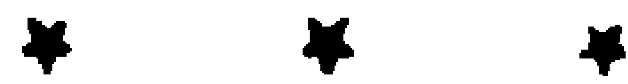
ولم تشر الوثائق الشرعية الى طوائف حرفية في غزة ، في فترة دراستنا . وليس ذلك بسبب عدم وجود هذه الطوائف ، بل ربما لان المحكمة الشرعية لم تعد آنذاك المرجع المسؤول عن النظر فيها ، بدليل ان واجبات قاضي غزة التي ذكر بها عند تعيينه لم تنص على النظر في قضايا الطوائف . والجدير بالذكر ان قضاةدمشق ،

في الفترة ذاتها ، لم ينظروا في قضايا الطوائف الحرفية ، خلافا لما كان عليه الامر في القرون السابقة ، ابان الحكم العثماني ، وعهد الى مجالس اخرى بالنظر فيهما . ومع ذلك وجدت اشارات الى وجود حرفيين في غزة ، مثل محمد بن قبيل ، دقاق البارود المصري ، وخليل بن ابراهيم البلعاوي الحداد ، الذي ذكر بمناسبة بيع دكانه المعدة للحدادة بمحلة الخضر ، بسوق الخضر . كما جاء ذكر داود ولد مسعود النحاس الذمي ، ورمضان البيطار ، الذي اشترى من الخواجه سالم البصلة خمسة عشر الف مسمار . وورد اسم الحاج مصطفى قصاب باشي الحج الشريف . وذكر الصوافون بغزة ، وانهم ارباب خبرة ودراية بصناعة الصوف وشرائه .

وهناك قاعات اعدت للحياكة في غزة ، منها واحدة بمحلة السجاعية ، بخط مسجد علي المغربي ، واخرى امتلكها محمد الاقرع ومن يشركه بمحلة البرجلية ،بخط بني عامر . وذكرت « القاعة المعدة للحياكة سابقا » ، بمحلة السجاعية ، بخط الحمام .



وفي اطار علاقات غزة التجارية مع العالم الخارجي ذكر استيراد الذرة من الاسكندرية اليها ، عن طريق البحر . وكانت الذرة معبأة بأكياس ، داخل كل كيس ٢٣ ربعا . وكان لتجار غزة وكلاء في الاسكندرية . كما انه تم استيراد الصوف من جدة الى غزة ، بواسطة امين التجار في السويس ، واسمه جريس الظهر . وكان مصدر الصوف في جدة السيد يوسف بناجه ، وله امين ، اي وكيل ، في غزة ، اسمه السيد احمد يوسف السقا . وكان السيد احمد هذا امينا ، في الوقت ذاته ، لتجار آخرين . وكان الصوف موجها ، في الاصل ، الى الحاج عمر زعيتر بنابلس . ولكن هذا اذن لوكيله ، السيد احمد يوسف السقا ، ببيعه في غزة . وورد ذكر شراء خيول وبواريد من مصر وجلبها الى غزة . وبالمقابل ، صدر الفخار من غزة الى القدس .



ويلاحظ في العمليات التجارية في غزة انتشار الديون بشكل كبير ، ودراسة هذه الظاهرة تلقي ضوءا هاما على البنية الاجتماعية والاقتصادية في غزة وريفها ، اذ يقتضي ذلك معرفة هوية المدينين والدائنين ومهنتهم ، على حد سواء ، ومقدار مداخيلهم . ويقودنا ذلك الى معرفة انواع الثروة ، وتوزعها بين الناس ، وكيفية توظيف الرساميل ، والعقلية التجارية التي حركت ذلك . واهم مصدر لمعرفة هذه

التفاصيل هو ضبوط تركات ، اي مخلفات ، المتوفين . ولابد من الاشارة هنا الى انه ليس من الضروري أن تسجل كل تركة في سجل الوثائق الشرعية ، اي ان عددا من التركات لم يسجل بسبب عدم وجود خلاف حولها يستدعي عرضها على القاضي. كما أن ضبط التركة لا يجري مباشرة بعد وفاة صاحبها بدليل ان حسين بن حمودة الدباغة توفي في شهر ذي القعدة ١٢٧٣/حزيران – تموز ١٨٥٧ ، في حين ان تاريخ ضبط متروكاته وبيعها ، كان في ٥ ربيع الاول ١٢٧٤/٢٤ تشرين الاول ١٨٥٧ . ويبدو أن هذا التأخير كان بسبب ثروته الكبيرة ، وضرورة حصرها ، وجمع ما أمكن من الديون التي كانت له بذمة الناس . ونجد ، بالمقابل ، ان التركة البسيطة ، التي لا مشكلة تقتضي تأخير ضبطها ، سجلت بعد وفاة صاحبها بوقت قصير ، مثل تركة مصطفى افندي اسطنبلي ، اون باشي كرنتينة غزة ، المتوفى بخان يونس في ١٠ رجب ١٢٧٦/٢ شباط ١٨٦٠ ، والتي سجلت في سجل محكمةغزةبتاريخ ٢٣ رجب ١٢٧٦/١٥ شباط ١٨٦٠ . ولم يشر ضبط التركة في الغالب ، الى تاريخ الوفاة ، او الى مكان سكن المتوفى ، أوعمله . ويمكن استنتاج مهنته من تفاصيل الادوات التي وجدت في دكانه ، ومن طبيعة الاعمال التي قام بها .

ونعرض فيما يلي نموذجا لهذه التركات يتمثل في ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة الحداد : « بيان ضبط تركه ابراهيم ابو ريالة الحداد المنحصر ارثه في اولاده عبد القادر واحمد وعزيزة وشنن القاصرين عن درجة البلوغ ومحمد وعبد ربه وخديجة البالغين وفي زوجتيه هما الحرمة زينب بنت خليل ابو حمار وفاطمة البكرالقاصرة بنت محمد كشكوا وذلك بحضور ومعرفة كل واحد من محمد البالغ المذكور الاصيل عن نفسه والمنصوب الان من قبل مولانا الحاكم الشرعي على اخوته القاصرينالمذكورين وبحضور عبد ربه ومحمد بن خليل ابو حمار الوكيل الشرعي عن اخته الحرمة زينب الزوجة المذكورة بشهادة وتعريف كل واحد من عبد الهادي الحداد وعبد ربه المذكور وبحضور محمد كشكوا ولي الزوجة الثانية وبحضور محمد الوصي وكيل خديجة البالغة بشهادة وتعريف كل واحد من محمد بن شاهين الخزامي وحسين بن نصار أبو تريا التعريف الشرعي وهو هذا كما يأتي بيانه بالمفردات .

ثمن عدة الدكان على عبد ربه ابن المتوفى ، ٧٠٠ (قرش) ، دين ثابت قبل جبر العقاد الخاني بموجب سند ، ١٣٠٠ ، دين قبل سعودي واخيه طالب العقاد بموجب سند ، ٩٨٠ ، دين قبل ابراهيم عبد الدايم الخاني بموجب سند ، ٥٢٠ ، دين قبل الحاج حسن الراعي بموجب سند ، ١٣٥ ، دين قبل سعد الدين مرتجا بموجب (فراغ) ، ١٣٥ ، المجموع ٣٧٧٠ .

مصارف نافذة : تجهيز وتكفين ومصارف ، ١٥٠ ، مؤخر الزوجة ، ٢٠٠ ، رسم التركة ، ١٠٠ ، كتاب ، ٣٠ ، رسلية ، ٦ ، المجموع ٤٨٦ . الباقي ٣٢٨٤ .
خص الزوجة الحرمة زينب بحق قيراط ونصف قيراط ، ٢٠٥ر٥ (٥ تساوي نصف قرش أي ٢٠ مصرية) ، خص الزوجة الشابة فاطمة القاصرة بحق قيراط ونصف قيراط ، ٢٠٥ر٥ ، خص ولده عبد ربه البالغ استحقاقه ، ٥٢٢ر١٥ ، (١٥ مصرية من اربعين مصرية) ، خص ولده محمد البالغ بحق استحقاقه ، ٥٢٢ر١٥ ، خص عبد القادر القاصر بحق حصته ، ٥٢٢ر١٥ ، خص أحمد القاصر بحق حصته ، ٥٢٢ر١٥ ، خص عزيزة القاصرة ، ٢٦١ر٧ (أي سبع مصريات) ، خص شنن القاصرة ، ٢٦١ر٧ ، خص خديجة البالغة ، ٢٦١ر٧ ، (المجموع) ٣٢٨٤ تحريرا في غرة رجب ١٢٧٣/ (٢٥ شباط ١٨٥٧) .

ثم قضى مولانا الحاكم الشرعي لرسم طعام وشراب واكسوة عزيزة وشنن في كل يوم عشرة قروش فضة واذن لوصيها المذكور في انفاق ذلك عليهما مياومة وقبل منه ذلك غرة رجب ٧٣ .

الشهود : عبد الهادي الحداد ، محمد شاهين الخزامي ، حسين نصار ابو تريا ، نصر الله محمد المغير ، محمد ابو حمار ، السيد حسين ابو سيدو ، يوسف الكاتب ، الفقير علي م (اي علي الجاعوني كاتب المحكمة الذي انتدب من قبل القاضي لضبط التركة وتوزيعها) » .

ولم تتعرض التركة الى العقارات التي خلفها المتوفى ابراهيم ابو ريالة الحداد. ونستدل عليها(٤) من بيع الزوجة فاطمة القاصرة الى بقية الورثة حصتها ومقدراها قيراط ونصف قيراط مما يلي : جميع الدكان بخط النحاسين ، جميع الدار ،بمحلة الزيتون ، بخط مسجد الشمعة ، جميع الحاكورة ، بمدينة غزة ، بخط الكمالية . وقبضت عن حصتها هذه ٥٠٠ قرش . وهذا يعني ان ثمن كامل عقارات ابراهيم ابو ريالة الحداد يعادل ٧٩٢٨ قرشا . وبذلك يكون مجمل ثروته ، المنقولة وغير المنقولة ، ١١٢١٢ قرشا .

ومما يسترعي الانتباه ، اول شيء ، في تركة ابراهيم ابو ريالة الحداد ، وفي ضبوط التركات بصورة عامة ، ان الدولة لم تتقاض ضريبة على التركات . اما رسم التركة ، الذي اشير اليه احيانا برسم جناب الافندي (اي القاضي) ، فكان اجر القاضي . وهذا الرسم زهيد القيمة ، بلغ في ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة ، الذي بلغت ثروته المنقولة ٣٧٧٠ قرشا ، مائة قرش ، اي بنسبة ٢٦ بالالف منها . ومن

دراسة رسوم التركات الاخرى يتبين ان نسبة الرسم تراوحت بين ١٠و ٢٦ بالالف. ولم تتبين لنا قاعدة ثابتة لحساب نسبة الرسم ، الذي اختلفت من تركة الى اخرى .

ونلاحظ كذلك في ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة ان ضبط التركة وتوزيعهاتناول فقط الثروة المنقولة ، ولم يتطرق ، في هذه الثروة ، الى محتويات الدار التي كانت تباع في العادة في تصفية التركات . أما الثروة غير المنقولة فلم يتعرض لها ضبط التركة ، وبقيت مشاعا الى ان رغب احد الورثة بالحصول على حصته منها . والغالب في ضبوط التركات عدم ذكر الثروة غير المنقولة التي خلفها المتوفى الا في الحالات التي فاقت فيها قيمة ديونه مجموع ثروته فيعمد عندئذ الى بيع العقارات لتغطية كامل الديون ، او جزء منها ، اذا لم يف ثمنها بمبالغ الديون المترتبة على المتوفى . ومما يجدر ذكره ان وثائق غزة الشرعية اشارت الى متروكات المتوفى ، التي توزعها ورثته ، بالمنقول ، وهذا لا يشمل الممتلكات غير المنقولة « ما عدا العقار والجدار فانه باق بينهما على حاله وكل منهما له ان يتصرف فيه بقدر استحقاقه »(٥) .

ويلاحظ أيضا في تركة ابراهيم ابو ريالة ان نسبة الاموال المنقولة الى غير المنقولة (٣٢٨٤ قرشا الى ٧٩٢٨ قرشا) بلغت ٤١ر٤١ بالمئة ، وهي نسبة من السيولة المادية لابأس بها من مجموع الثروة . واذا صح ان ابراهيم ابو ريالة كان حدادا ، بدليل ان كلمة « الحداد » ، كما يبدو ، لقب مهنته ، وليست نسبته ، وكذلك بدليل انواع الادوات المتعلقة بمهنة الحدادة التي وجدت في دكانه ، فان رأسمال هذا الحداد ، البالغ ٧٠٠ قرش ، وهو ثمن عدة الدكان ، والذي يمكن اعتباره نواة الثروة ، يشكل توظيفا ضئيلا ، ولكن مربحا جدا ، للمال ، بالنسبة لكامل الثروة التي بلغ مجموعها ١١٢١٢ قرشا ، اي ان نسبة الربح بلغت حوالي ٧ر١٥٠١ بالمئة ، دون أن تدخل فيها نفقات معيشته وأسرته . ومما يدل على ان ثروة ابراهيم ابو ريالة غير المنقولة كانت بكاملها من املاكه الخاصة ، ولم تكن جزءا من مشاع ، ان زوجته فاطمة القاصرة حين اخذت حصتها البالغة قيراطا ونصف القيراط احتسبت على اساس كامل العقارات التي ملكها زوجها ، وكان من الممكن الوصول الى قناعة اضافية بأن هذه الثروة غير المنقولة جناها ابراهيم ابو ريالة بنفسه ولم يرثها عن احد ، فيما لو كانت وثائق غزة الشرعية اكثر تفصيلا ، اي ان تذكر ، كما فعلت وثائق دمشق مثلا في الفترة ذاتها ، ان العقارات حصل عليها صاحبها بطريق الشراء لا الارث .

ان الثروة التي جمعها ابراهيم ابو ريالة الحداد ليست معيارا لحجم ثروات الحرفيين الاخرين . فثروات هؤلاء كما تظهر ضبوط تركات الحرفيين ، لم تبلغ حدود

ثروة الحداد أبو ريالة . مثلا ، ثروة مصطفى المناخلي ، الذي كانت حرفته صنع المناخل وما يتعلق بها ، بلغت ٦٩٧ قرشا . وترتب على التركة ٥ر١٣٤ قرشا من المصاريف ، فيكون باقي الثروة ٥ر٥٦٢ قرشا(٦) . أما اسعد الخاني الاسكافي فلم يخلف سوى داره التي بيعت ب ١٢٠٠ قرش ، في حين بلغت ديونه ٢٤٦٢ قرشا . وقد وزع ثمن الدار ، بعد اقتطاع مبلغ ٥ر٤٧ قرشا مقابل رسوم ومصاريف المتوفى، على أصحاب الديون . والذي حصل من هؤلاء على كامل حصته من الدين كان السيد خليل الشوى ، لان الدار كانت مرهونة لديه ، بطريق بيع الوعد ، لقاء مبلغ قدره ٥ر٤٥٧ قرشا(٧) . وقدرت ثروة سالم الطحان ب ١٧٠٦ قروش ، وبلغت ديونه ٥٤٠ قرشا . فوزعت الثروة على أصحاب الديون بنسب متفاوتة(٨) .

ويمكن تفسير ثروة ابراهيم ابو ريالة بالديون التي عقدها ، والتي لم تبرز في تركات الحرفيين الاخرين ، بل على العكس كانوا ضحيتها لانهم اغرقوا بالديون ، وما تضمنته من نسبة مرتفعة من الفائدة ، التي يبدو ان الدائنين تقاضوها ، مما ضاعفها عدة مرات . ولم تشر الوثائق الشرعية بالنص الى الفائدة أو نسبتها ، في قضايا الدين ، لانها غير مقبولة شرعا ، ولكن اشير اليها احيانا ، بصورة غير مباشرة، باصطلاح « مرابحة المال بالفائدة » ، كما في المثال التالي :بيان الذي قبضته الحرمة فاطمة بنت محمد الادهم من تركة ولديها عبد الخالق واحمد من يد شعبان بن الحاج أحمد بسيسه ٢٠٠٠ درهم بالاضافة الى ١٠٠٠ مرابحة المال بالمعاملة وذلك عما خص عبد الخالق واخيه ، فاصبح المجموع ٤٠٠٠ . ومات عبد الخالق عن القدر المذكور وعنه ورثته والدته واخته شقيقته واخته لابيه واخوته لامه (٩) . ولا نعلم مقدار الفترة التي تمت فيها المرابحة ، ولكن نسبة المرابحة التي بلغت الثلث ، تعتبر فائدة كبيرة . مهما كانت الظروف . وهناك مثال آخر يؤكد الفائدة ونسبتها المرتفعة ورد في ضبط عبد الله بن علي الجبالي(١٠) . فقد ذكر ان له جملة من الديون بلغت ٢٠٢٨٦ قرشا (من أصل ثروته البالغة ٢٢٢٦٣ قرشا) . واخذ هذه الديون ، بذمة علي ابن بدر شعث ، بلغ مقداره ٣٢٥٠ قرشا . وحين حساب ما تبقى من الثروة للورثة نقص مبلغ الدين هذا ، الذي بذمة علي بن بدر شعث ، من ٣٢٥٠ الى ٥٥٣ قرشا ، لانه « صار دفعه قبل وفا الاجل وقطع زيادة الربح على قدر المدة » . ولا توجد هنا ايضا اشارة الى نسبة الفائدة ، او مدة وفاء الدين ، سواء الفعلية منها ،التي دفع مبلغ الـ ٥٥٣ قرشا على اساسها ، أو النظرية ، التي توقع ان يصل اجمالي المبلغ فيها الى ٣٢٥٠ قرشا . ولكن يلاحظ ان مبلغ الـ ٥٥٣ قرشا ، الذي دفعه علي ابن بدر شعث ، لا بد وانه اكثر من اساس المبلغ الذي استدانه ، لانه يتضمن بعض الفائدة عن الفترة منذ استلامه المبلغ من الدائن وحتى وفاء الدين ، وعلى هذا ، فان مقدار الدين ، الذي كان أقل من ٥٥٣ قرشا ، كان

مقدرا له ان يبلغ ٣٢٥٠ قرشا ، فيما لو استكمل كامل مدة اجل الدين ، وهذا دليل على فائدة مرتفعة جدا ،اي ان المبلغ الاساسي كان مقدرا له ان يتضاعف ست مرات تقريبا .

ومن ثلاث واربعين تركة لرجال ، وردت تفاصيلها تامة في سجل وثائق غزة الشرعية (توجد ضبوط تركات أخرى لم تستكمل في السجل) ، نجد أن خمس تركات بلغت النفقات المترتبة على اصحابها أكثر من الثروة التي جمعوها ، من أموال منقولة وغير منقولة ، لذا اعتبرت هذه التركات مثقلة بالديون . ودفعت نسبة معينة من الديون لاصحابها ، في هذه الحالات ، بقدر ما سمحت به الثروة . وقد بلغت هذه النسبة ، مثلا ، في تركة صالح الدويري ، خمسين قرشا لكل مائة قرش من الديون . وفي حال عجز التركة عن مبلغ معين ، واقتدار الورثة على دفعه ، قسط المبلغ على الورثة ، كل على قدر حصته ، لصالح ارباب الديون .

وادنى ثروة وردت في ضبوط التركات كانت لمحمد المصري ، سواق ساقية حمام السمرة بغزة (لعله كان يعنى بدفع المواد المتراكمة في ساقيتها ، وبالتالي تنظيفها) ، اذ بلغت ٥١ قرشا . وقد استهلكت بكاملها في مصاريف الوفاة ، وكان اولاد محمد المصري غائبين في مصر .

ويلاحظ في التركات ان الثروات الكبيرة جمعت عادة من التجارة والزراعة وتوظيف المال في الديون ، وحتى من الاستدانة وتوظيف المال المستدان في اعمال رابحة . وسنستعرض أكبر ثلاث ثروات بين التركات . وكان أقلها ثروة درويش السيروان ، الذي تعاطى تجارة الاقمشة ، وعمل بالزراعة . وبلغ مجموع ثروته المنقولة ٣٦٣٥٨ قرشا ، منها ٧٢٨٦ قيمة موجودات دكانه ، و ٢٥٨٤ مجموع النقود المختلفة ، التي وجدت بالدكان ، و ٢٦٤٨٨ ثمن حبوب وحيوانات مختلفة .. وبلغت مصاريفه ٢٤٨٥١ قرشا ، منها ٢١٧٨١ قيمة ديون ترتبت عليه . وبذلك بقي من تروته ١١٥٠٧ قروش . ولم يتعرض ضبط التركة الى الممتلكات غير المنقولة . ومما يلفت الانتباه ان نسبة الديون الى مقدار الثروة (٢١٧٨١ الى ٣٦٣٥٨) بلغت حوالي ٦٠ بالمئة ، مما يدل على أهمية السيولة المالية وعدم اللجوء الى تخبئة المال على مقياس كبير ، وتعطيل الفعاليات الاقتصادية بالتالي . كما انه يدل على عقلية تجارية ناشطة عمدت الى الاستدانة وتوظيف المال بشكل مربح . ونستدل من ذلك ايضا أن الربح من المتاجرة فاق الربح الناتج عن فائدة الديون ، على كبر هذه الفائدة .

وفاقت ثروة درويش السيروان في الاهمية ثروة السيد عبد القادر بن صالح الشوى ، اذ بلغت ٤٨٣٥٨ قرشا ، منها ١٩٠٠٧ وجدت نقدا بصندوقه ، و ١٢٣٠٠

قيمة ديون (منها ٦٩٩٤ بذمة اهالي قرية حتا) و٨٦٥٠ ثمن حنطة وذرة وشعير . وبلغت مصاريفه ١١٩٦٤ قرشا ، منها ٧٠٨٥ ديون عليه للافراد ، و ٢٥٣١ قرشا مطلوبة منه للميري ، بمقابل زراعته في قريتي بيت طيما وبربر . وبلغ باقي ثروته ٣٦٣٩٣ قرشا(١١) ومن جديد ، نلاحظ أن الديون كونت نسبة كبيرة من توظيف المال ، بلغت ٤ر٢٥ بالمئة من أصل الثروة . ويمكن القول أن ثروة عبد القادر الشوى بنيت بمعظمها على سيولة نقدية بلغ مجموعها ٤٠٩٢٣ قرشا ، منها ١٢٣٠٠ ديون عقدها، و ١٩٠٠٧ وجدت نقدافي صندوقه ، و ٧٠٨٥ ديون استدانها ، و ٢٥٣١بذمته للميري ، وجميع ذلك من أصل ثروته البالغة ٤٨٣٥٨ ، اي بنسبة ٦ر٨٤ بالمئة . في حين ان الواردات الزراعية بلغت حوالي سدس ثروته فقط .

واكبر ثروة بين التركات في سجل غزة خصت السيد حسين بن السيد حمودة الدباغة . وكان تاجر أقمشة في الاساس ، ووظف بعض امواله في الريف . وقد بلغت ثروته ٦٥٠٨٦ قرشا ، منها ٥ر٣٦٠٨١ قيمة موجوداته (بما فيها ١٤٠٥٠ ثمن بقر في قرية دير سنيد وغيرها) ، والباقي ، وبلغ ٥ر٢٩٠٠٤ ديون بذمة الناس . وكانت مصاريفه ٣٧٨٠ قرشا ، فيكون باقي التركة ٦١٣٠٦ قروش وزعت على الورثة(١٢) .

ويلاحظ أن نسبة الديون التي كانت للسيد حسين الدباغة بذمة الآخرين بلغت ٥ر٤٤ بالمئة من ثروته . واذا ما قارنا ذلك مع نسبة الديون التي عقدها كل من درويش السيروان وعبد القادر الشوى ، وعدد كبير اخر من أصحاب التركات في غزة ، تبين لنا الطابع الراسمالي لثروة معظم الاغنياء في غزة ، ممن ذكرت اسماؤهم في الوثائق الشرعية . ولكثرة ماشاع أمر الدين بين الناس غصت صفحات الوثائق الشرعية بتعابير « دين » و « ديون » و « ديانة » . وشاع كذلك استخدام تعبير « ان بذمته مبلغ كذا » بطريق الدين الشرعي .

ويلاحظ على الديون ، في غزة ، انها فردية ، بمعنى أن الدائن فرد ، وليس مجموعة افراد أو شركاء . ومعظم الذين استدانوا كانوا افرادا في الغالب . واختلف أمر ذلك في الريف ، حيث اعطيت الديون ، من قبل أفراد في غزة ، الى بعض سكان قرية ما ،أو كلهم ، بصورة جماعية . وكانت مسؤولية هؤلاء في وفاء الدين جماعية ايضا ، مما يدل على حاجة سكان الريف الجماعية للاستدانة ، وعلى اعمالهم الزراعية المشتركة ، ربما لانهم عملوا في الارض ولم يملكوها ، وعلى عدم ملاءة احدهم للاستدانة بمفرده . ولم نعثر على أمثلة على استدانةالمالمنالدولة . وقد عمد بعض

الاغنياء ، كما في مثال عبد القادر الشوى ، الى تأخير دفع مال الميري للدولة ، وتوظيف ذلك في اعمالهم ،وكأنه دين ، رغما عن الدولة ، ولكن بدون فائدة . وهناك أمثلة عن ديون بذمة الافراد لجوامع غزة ، مثلا ، ورد في تركة عبد القادر الشوى دين بذمته الى مسجد السيد هاشم ، وقدره ٨٧٫٥ قرشا(١٣) . وورد في تركة حسن دلول وجود دين مقداره ٢٧٩٫٥ قرشا ، ثابت عليه لجهة جامع الخضر بشهادة محمد دزويش وسلامة الهليس(١٤) . والسؤال الهام الذي يطرح هنا : هل هذا الدين استدانة من مال الوقف ولفائدته ، أم أن الدين الذي كان بذمة هؤلاء الافراد للجوامع هو لقاء مال الحكر المترتب على بعض ممتلكاتهم لفائدة هذه الجوامع .

وعمد معظم الناس الى الاستدانة والادانة في آن معا . وغالبا ماكانت الديون زهيدة جدا ، اذ بلغت قرشا في اكثر من حالة . وهذا يدل على القيمة الشرائية للقرش ، وفي الوقت نفسه على قلة الدخل ، مما يعزز أهمية المبالغ الصغيرة ، وعلى اهتمام المحكمة بالنظر في اقل الديون . ونستشف من ذلك ايضا درجة عالية من الالتزام بالحقوق المالية مهما صغرت . وكثرة المداينة دليل على حاجة الناس اليها ، وعلى أن الدين كان أمرا عاديا ولا غضاضة اجتماعية فيه ، كما انه كان وسيلة من وسائل توظيف المال والربح بأقل جهد . وتقيد الناس بوفاء الديون ، الا في الحالات التي ثبت فيها الافلاس (وفي هذه الحالات كان مجموع الثروة يقسط على الدائنين ويلتزم الورثة بوفاء الدين) ، يدل على مستوى متميز في العلاقات العامة ، وعلى احترام الالتزامات المالية ، وعلى فعالية القضاء في جعل الناس يحترمون عقود الدين، لذلك قلما لجأ اصحاب الديون الى القضاء لاستيفائهم ديونهم الا في حالات قليلة ، مثل حل تركة أو افلاس صاحبها .

ونلاحظ من ضبوط التركات ان اسماء الدائنين لم تقتصر على أفراد معينين ، أي ان الدائنين لم يكونوا قلة من المحترفين ، كما انهم لم يقتصروا على أسر معينة . وشيوع الدين دليل على أن عددا كبيرا من الناس قد تعاطوه . ولم تكن للديون حدود مذهبية ، فقد استدان المسيحيون من المسلمين ، كما استدان هؤلاء من أولئك . ولجأ المسيحيون ، في الديون التي عقدوها فيما بينهم ، الى المحكمة الشرعة للفصل في الخلافات التي وقعت بينهم . ولكن المبالغ التي التزم بها المسيحيون ، كدائنين ومدينين ، اذا ماقيست بالديون بين المسلمين ، بدليل ماورد في ضبوط التركات التي درسناها ، كانت متواضعة الى حد كبير . وربما دل ذلك على عدم ثرائهم ، أو عدم رغبتهم بالمغامرة بالمال ، واكتفائهم بما هم عليه . وحضر المسيحيون البيع العلني لتركات المسلمين ، واشتروا منها .

واشتهرت النساء كدائنات ، وقلما ذكرن كمستدينات من الرجال ، اذ كن يستدن من بعضهن . ومن دراسة ضبوط التركات نجد أن الرجل استدان ، أول الامر ، من زوجته ، أو زوجاته ، ومن بناته ، مثلما استدان من ابنائه ، كما انه استدان من نساء اخريات . وتألفت ثروة النساء ، في الغالب ، من حلي متنوعة ، بالدرجة الاولى ، ومن نقود ، على اختلاف انواعها . ومصادر ثرائهن ، في الغالب ، كان ارثا ، أو وصية ، أو مؤخر مهر . ولابد انهن عملن في بعض الاعمال ، مثل الزراعة ، وصناعة الالبان ، وقطف القطن وغزل خيوطه . ووظفت النساء المال في الديون ، وشراء العقارات ، واحيانا شراء الماشية .

ومن دراسة ثمانية ضبوط كاملة لتركات نساء توفين في غزة ، يتبين لنا ان ثروة اغناهن ، وهي زينب الرملي ، ويبدو أنها لم تكن متزوجة ، قد بلغت ٣٣٢٦٧ قرشا ، من ذلك ٩٣٥٢ قيمة حليها وانواع النقود التي وجدت لديها ، و ١٦٠٠٠ قرش دين عقدته لشخص واحد ، و ٥٠٠٠ قيمة حصص في عقارات ، ويعادل ذلك ٣٠٣٥٢ قرشا . والمبلغ المتبقي من مجموع الثروة هو ثمن امتعة وممتلكات شخصية . والشخص المدين للسيدة زينب كان السيد احمد عودة ، ولا نعرف أكثر من ذلك عنه . وكان للسيدة زينب معتوقتان اوصت لهما ببعض المال ، وهما الحاجة حليمة ومحبوبة .

وتجاوز سكان غزة نطاق مدينتهم في عقد الديون ، فاستدان منهم الريفيون ، وقلما حدث العكس . ويدل هذا على تدفق رأس المال من المدينة الى الريف ، وتبعية الريف المالية للمدينة ، وعلى نمو الثروة في غزة عن طريق استثمار الريف . واعطي الدين لقرية بكاملها أو لجماعة منها . والى جانب الديون ، وظف سكان غزة جانبا من مالهم في الزراعة ، أو في تربية الحيوانات في الريف .

ووصف الدين في الوثائق الشرعية بانه دين شرعي . وتم بموجب سند . واذا ما دعت الحاجة فان صحة السند أو عدمها يثبتها الشهود ، وتدعم باليمين . واقتضى الامر ، في بعض الاحيان ، ايداع رهن لقاء الدين ، كأن ترهن حلي أو عقار مثلا . ولجيء احيانا الى كفالة شخص لاخر لتأمين وفاء الدين . ولم يكن الدين باستمرار نقداً ، اي مالا يقدم للغير ، بل احيانا ، ثمن محاصيل ، او حيوانات ، او غيرها ترتبت بذمة شخص ، أو مجموعة أشخاص ، وخاصة في الريف ، واعتبر هذا الثمن دينا شرعيا . وكثيرا ماذكر أن فلانا بذمته مبلغ من المال الى شخص آخر . وكلمة « بذمته » لاتشير دائما الى الدين الا اذا اقترنت بالعبارة التالية « بطريق الدين الشرعي » . وقد تعني ، بمفردها ، ان اصل مال الذمة ارث ، أو

مهر ، أوقرض . ووصف القرض ، أحيانا ، بانه قرض شرعي . ولاندري اذا كـان القرض الشرعي تضمن فائدة . واستخدمت كلمـة « القـرض » مرادفة لكلمـة « القرضة » ، كان يقال ان فلانا له بذمة فلان قرضة شرعية ، أو ان يذكـر انـه وجدت في دكانه دراهم قرضة .

وحدد لوفاء الدين موعداول، او مؤجل ، فيتاريخ معين ،كغرة شهر ، أو يوم في شهر ، حدد على أساس رؤية هلال الشهر الذي يستحق فيه وفاء الديـن . ويقتضي ذلك شهود اثبات لرؤية الهلال . وحين عجز شخص عن الوفاء بالدين . وثبت انه معسر ، قسط المبلغ ، او الغي جزء منه . وطبيعي انه اذا كان للمدين عقار بيع لوفاء الدين . ولجيء في وفاء الدين الى نوع من بيع العقار ، تضمن مايشبه الرهن والفائدة ، كان يعد مشتري العقار بائعه ، الذي قبض الثمن ، انه ان جاءه خـلال مدة معينة بنظير الثمن رد له المبيع . واباح البائع للمشتري ، في هذه الحال ، الانتفاع بالعقار ، سكنا أو تأجيرا ، أو ثمرا ؛ مادام الثمن باق بذمته . وطبيعي ان هذا الانتفاع هو نوع من انواع الفائدة . وسمي هذا النوع من البيع « بيـع وعد بالاباحة »(١٥) .



ومنمظاهر الحياة الاقتصادية الاوقاف ، من حيث ان مواردها استخدمـت لاعاشة عدد كبير من السكان ، ارتبطوا اما بخدمتها ، او باقتسام مواردها ، حسب نوعيـة الوقف ، خيريا كان أم أهليا (ذريا) . كما ان الفائض من واردات الاوقـاف الخيرية وظف ، عادة ، في شراء عقـارات باسم الوقف . ونظرا لكثـرة الجوامـع ، والاماكن العـامة الخيرية الاخرى ، مثـل الزوايا والسبل والحمامات ، في غـزة ، والعقارات التي اوقفت عليها ، والموارد التي اغدقت عليها ، فقد شغلت الاوقاف حيزا كبيرا من الثروة الاقتصادية .

واسـتخدمت كلمة « الحكر » للدلالـة على اجرة الاراضي الموقوفة والمؤجـرة ، والفعل منها « استحكر » ، أي استأجر ارض الوقف . وعرف ناظر الوقف ، الذي اجر الوقف « بالمحكر » . كما عرف مستأجر الوقف « بالمستحكر » . والشرط في الحكر « ان يكون فيه الحظ والمصلحة لجهة الوقف » ، وأن يكون مساويا لحكر مثل الوقف ، اي ليس فيه غبن للوقف . واستدعي ، عادة ، الشهود لاثبات ذلك .

واشهر وقف اهلي في غزة ، في فترة داستنا ، هو الوقف الرضواني ، نسبة الى الامير رضوان بن الامير مصطفى ابي شاهين ، الذي اشتهر في غزة في النصف الثاني من القرن السادس عشر . وكانت لهذا الوقف مقاطعات حتى داخل مدينة حلب الشهباء وفي ضواحيها . وعين افراد آل رضوان ، وآل وفا العلمي ، وآل رباح الحسيني ، ابان فترة دراستنا ، نظارا على وقف آل رضوان . ويلي هذا الوقف في الاهمية وقف حسين باشا ابن مكي ، الذي كان حاكما على غزة ، ثم نقل منها واليا على دمشق في عام ١٧٥٧ . وعين افراد من اسرة مكي نظارا على هذا الوقف . وكثيرا ما كان الناظر هو نفسه المتكلم ، او المتولي ، على الوقف . وذكرت الوثائق وظيفتي مشارف اول ومشارف ثان على الوقف ، الى جانب الناظر . وعينت المراة ناظرة ومتولية على الوقف .

وكانت عمليات الايقاف ناشطة في غزة ، في فترة دراستنا ، من قبل الرجال والنساء على حد سواء ، ومالت كفتها لصالح الاوقاف الاهلية او الذرية . ولهذا الامر دلالته لانه يضمن بقاء الثروة في عقب الواقف ، واستفادة هذا العقب منها ما دام قائما . والمعروف في العهد العثماني ، وخاصة منذ القرن الثامن عشر ، حين كثرت مصادرة الدولة للاغنياء ، ان عمد هؤلاء الى تحويل ممتلكاتهم الى وقف اهلي ، خشية مصادرة الدولة لها . وهكذا اوقف السيد حسين بن حمودة الدباغة ، صاحب اكبر ثروة منقولة ، كما راينا ، ما ملكه من العقارات على ذريته ، وذلك قبل شهرين من وفاته . وجاز ان يوقف شخص بالوكالة عن آخر ، وبالاشتراك معه كما اوقفت الحصص الشائعة وقفا اهليا .

والملاحظ في الاوقاف الاهلية في غزة ان النساء اوقفنها مثلما فعل الرجال ، ولكن اختلفت هوية المستفيدين منها ، بالنسبة للذكور والاناث من الذرية ، من وقف الى آخر . وقد حصرت الاستفادة ، في الوقف الاهلي ، أولا بالواقف وحده ، طيلة حياته . ثم توزع وارد الوقف بين ورثة الواقف ، بعد وفاته ، وفق ترتيب معين اختاره الواقف واثبته في شرط الوقف . ففي احدى الحالات ، نص الواقف ان يوقف الوقف ، بعد مماته ، على اولاده واولاد اولاده (الخ) وذريتهم ، للذكر مثل حظ الانثيين . وفي حالات اخرى ، نص على ان يوقف الوقف ، بعد وفاة صاحبه ، على اولاده ذكورا واناثا ، بالفريضة الشرعية بينهم . وافادت الانثى منهم ، مدة حياتها ، فاذا ماتت انتقل نصيبها لاختها الثانية ، وهكذا كل واحدة منهن ترث الاخرى الى ان يتوفين ، ثم من بعد ذلك على اولاد اولاده الذكور دون الاناث . وفي حالة اخرى ، اوقف الوقف على اولاد الظهور دون البطون ، واذا ماتت الانثى عن

اولاد من ذرية احد الواقفيـن الذكور انتقل نصيبها لهم ، واذا ماتت عن أولاد من غير اولاد الواقف رجع نصيبها للوقف . ولكن اذا انقرض اولاد الظهور انتقل الوقف الى اولاد البطون . واذا انقرضت ذرية الواقف ، مـن اولاد الذكور ثم اولاد الاناث ، تحول الوقف الى الحرمين المكي والمدني . واذا تعذر ذلك تحـول للفقراء والمساكين من اهالي غزة . وفي حالات اخرى ، اعطيت الاولوية ، بعد انقراض ذرية الواقف ، الى مسجد عمرو هاشم في غزة ، او الى فقراء غزة . ولم تتمتع ذرية الواقف ، عادة ، بكامل واردات الوقف ، لان جانبا منها رصد ، في الغالب ، على ، عمارة الوقف ، او على قراءات دينية في امكنة معينة. واشير الى حصص الورثة بالسهم وليس بالقيراط.



ويمكننا التعرف على جوانب متعددة من مستوى المعيشة في غزة ، في فترة دراستنا ، بعقد مقارنة بين وسطي اسعار العقارات ، واسعار الحاجيات ، واثمان الحبوب والحيوانات ، ومقادير الثروات ، بصورة عامة .

ولا نجـد في الوثائق معلومات كثيرة عن ايجار العقارات ، ربما لان الاتجاه الغالب كان نحو ملكية العقار من قبل شاغله ، او ان عقود الايجار لم تثر خلافات حولها استدعت عرضها على القاضي . وفي احدى الحالات اجر نصف دار ، ثمنـه ٣٦٠٠ قرش ، بستين قرشا في السـنة ، اي ان نسبة الاجرة الى ثمن المأجور كانت بحدود ١ر٦٦ بالمئة . وبلغت اجرة دكان ٧٥ قرشا في السـنة ، ولكن ثمن الدكان غير معروف ، ولا يمكن اجراء مقارنة بينها وبين الدار السابقة .

وقد لاحظنا سابقا ان اسعار الدور في غزة تراوحت بين ٥٥٠ و ٢٤٠٠٠ قرش. ولم ندخل هنا أعلى سعر لدار ورد ذكره في الوثائق والبالغ ٣٣٦٠٠ قرش لانه كان استثناء ، ولم ترد اسعار بينه وبين الرقم السابق . ولو اخذنا عينة من عشر دور ، ذات مواصفات مختلفة ،ولكنها تمثل نماذج شائعة ، وتقع في خطـوط ومحلات مختلفة في غزة ، لوجدنا أن وسطي ثمن الدار هو ٣١٠٠ قرش . واذا اجرينا دراسة مماثلة بالنسبة للدكاكين لوجدنا ان وسطي ثمن الدكان حوالي ٢٢٥٠ قرشا . وعلى هذا ، فان الغزي المتوسط الحال بحاجة الى ٥٣٥٠ قرشا لشراء دار ودكان . ولم تكن ادوات العمل في الدكان مرتفعة الاسعار ، مثلا ، بلغ ثمن عدة دكان ابراهيم ابو ريالة الحداد ٧٠٠ قرش ، وبلغ ثمن عدة نول للحياكة ٢٤٠ قرشا . وليتزوج الغزي متوسط الحال كان بحاجة الى مهر يبلغ وسطيه ١٤٩٠ قرشا ، وذلك بالاستناد الى عينة من عشرة عقود زواج ، خمسة منها بامراة بالغ ، وخمسة بقاصر .

واذا ما درسنا عينة من عشر تركات لغزيين توفوا ، في فترة دراستنا ، وحسبنا ما بقي من تركتهم بعد اقتطاع ما ترتب عليهم من مصاريف ، لوجدنا ان وسطي باقي التركة هو ٧٢٥٣ قرشا . ونستنتج من ذلك ان الفائض بين ما جناه الغزي المتوسط في حياته وما انفقه على المتطلبات الاساسية في حياته ، من دار ودكان وزواج ، هو ٤١٣ قرشا . ويصعب ان نستشف الربح أو الخسارة في هذا المبلغ ، اذ يجب ان ناخذ بعين الاعتبار الجهد الذي بذله اثناء حياته وطبيعة عمله ، وكذلك الاسرة التي بناها. ولو استعرضنا قائمة تركات الرجال المتوفين في غزة ، على مدى اربع سنوات (١٢٧٣ ــ ١٢٧٧ هـ) ، لوجدنا ان سبعة متوفين من اصل ثلاثة واربعين فاقت ديونهم ثرواتهم ، وربما امكننا الاستنتاج ان حوالي سدس السكان كانوا معسرين . لـــذا ، فالغزي المتوسط الذي وفر مبلغا قدره ٤١٣ قرشا كان من ضمن خمسة الاسداس من السكان غير المعسرين .

واذا اخذنا عينة من اسعار السلع المختلفة في غزة لامكننا التعرف على قيمة الانتاج ومعرفة تكاليف المعيشة بالنسبة لغيرها . ففي مجال المواد الغذائية كان وسطي سعر ربع (١٦) الحنطة اربعة قروش ، وربع الشعير ثلاثة ، وربع العدس اربعة وربع الذرة اربعة ، ورطل السمنة خمسة وعشرين ، ورطل الزبيب ثمانية ، ورطل اللوز الناشف خمسة ، ورطل العسل ثلاثة وعشرين ، ورطل الفول خمسة ، ورطل الدخان عشرة . وثمن جرة البرغل عشرة ، وجرة الشعيرية ثمانية عشر ، وجرة السيرج سبعين ، وجرة الزيت خمسين . وفي مجال الادوات المنزلية والملابس ، وهي مستعملة في الغالب ، لان اسعارها مبنية على بيع التركات ، فقد بلغ متوسط سعر الفراش خمسة وستين قرشا ، واللحاف الاطلس سبعين والمخدة ثمانية ، والطراحة خمسة وستين ، ومنقل الحديد ستة عشر ، والطنجرة النحاس المتوسطة اربعة وخمسين ، والصحن النحاس المتوسط خمسة عشر ، والصحن الرملي ، الذي غلب فيه الرمل على النحاس ، ثمانية ونصف ، والعباية الغزاوية ستين ، والفروة ستة عشر ، والجبة الجوخ ، وهي مستوردة المادة وربما الصنع ، مائة وثمانين والقنباز الابيض ثلاثين ، وكمر الصوف خمسة وعشرين ، والطربوش (وهو مستورد) اربعين ، والطربوش المغربي ستين . وبالنسبة للمواد النسيجية كان سعر رطل الغزل الأبيض اثنين واربعين ، والاسود ستة وثلاثين ، والصوف سبعة ونصف ، وذراع الشيت قرشا ونصف ، وذراع الخام قرشا وربع . وبيعت جارية سمراء بـ ٢٥٠٠ قرش .

وكان متوسط ثمن عجل البقر خمسمائة قرش ، والبقرة ثلاثمائة ، والجمل ستمائة ، والحمار مائتين ، والثور مائة وخمسين . وبلغ وسطي ثمن الفرد الطبنجة ثلاثين قرشا ، والبارودة خمسين قرشا ، والسيف عشرين .

ويصعب الحكم على هذه الاسعار كما هي . ولو قارناها باسعار السلع ذاتها في فترات سابقة او لاحقة ، واخذنا بعين الاعتبار التبدلات في سعر القرش وقوته الشرائية لامكننا معرفة نسبة الغلاء او الرخص في فترة معينة . ومع ذلك يبدو ، من مقارنة اسعار هذه السلع واسعار العقارات ، ان تكاليف الحياة الاساسية ، من سكن وشراء مكان عمل ، او استئجارهما ، وكذلك الزواج ، كانت متدنية بالنسبة لاسعار السلع . فاجرة نصف الدار ، التي سبق ذكرها ، والتي بلغت ستين قرشا في السنة ، في حين كان ثمن هذا النصف ٣٦٠٠ قرش ، واجرة الدكان التي بلغت خمسة وسبعين قرشا تبدو بخسة جدا اذا ما قورنت بسعر جرة زيت بيعت بخمسين قرشا ، رغم اشتهار الزيت وكثرته في منطقة غزة . ونستدل من ذلك على أن الذين تعاطوا الزراعة ، وهم الجزء الاكبر من سكان غزة ، كانوا في وضع احسن من غيرهم ، مثل أصحاب العقارات . وارتفاع أسعار الحيوانات المستخدمة في الزراعة والنقل (مثلا ، سعر جمل فاق سعر دار صغيرة) ، دليل على اهمية هذه الحيوانات بالنسبة للعاملين في الزراعة ، سواء في المدينة أم الريف ، ومن هنا الحرص عليها ، وكذلك سرقتها باستمرار ، ورفع الدعاوى الى المحكمة للنظر في ذلك . وارتفاع سعر الجمال يفسر الحالة المادية الحسنة للبدو ، والتي تمثلت بشراء احد امرائهم لاغلى دار في غزة ودفعه اعلى مهر على الاطلاق عند زواجه .



وتميز الريف التابع لغزة بحياة اقتصادية غلبت عليها الزراعة المتنوعة تبعا لتنوع الاراضي . فهناك البساتين والحواكير ، وتقع اما في المدينة أو القرية ، أو بجوارها المباشر . وتكثر فيها عادة السواقي لتزويدها بالمياه . وفي حين كان البستان متنوع الاشجار المثمرة والازهار ، ضمت الحاكورة اشجارا مثمرة متنوعة ، وخص فيها الصبر ، كما في العبارة التالية : « جميع صبر واشجار الحاكورة » . وقد تكون الحاكورة مقتصرة على اشجار التين او الصبر . وكثرت الكروم خارج غزة والقرى ، وزاد عددها على عدد الحواكير ، وتداخلت معها في احيان كثيرة . واذا لم يشر صراحة الى ان الكرم هو كرم زيتون ، فانه يضم اشجارا اقل تنوعا من الحاكورة ، يغلب عليها شجر التين والكرمة والزيتون مجتمعين . واختلط بالكروم نوع آخر من الاراضي عرف بالمارس (جمعها موارس) ، وتعني الارض المعدة للحرث والزرع ، واشير اليها انها ارض كشف ، اي بدون اشجار . والمتعارف عليه ، كما ذكر لي ، ان المارس يمثل مساحة ارض مزروعة يحرثها زوج بقر في مدة تتراوح بين خمسة وعشرة ايام . واطلق ، احيانا ، تعبير « مارس » على الكرم ، كما في

العبارة التالية : « الكـرم الكائن بأرض غـزة المعروف بالمارس الشمالي بضريبة الرنجس .. والكرم المعروف بمارس جنيد الشمالي » .

وجزئت اراضي الريف ، على انواعها ، اصطلاحا ، الى مناطق عرفت واحدتها بالضريبة . وحددت الاراضي بالنسبة اليها ، ولا نعلم معنى الضريبة بالضبط ، ولعلها وحدة ضريبية لتسهيل جباية الضرائب عنها . وكان لكل ضريبة اسم خـاص بها ، تماما كما كان للبستان او الحاكورة ، او الكرم ، او الساقية ، اسم خاص به ، كما في المثال التالي : « جميع الكرم الكاين بأرض بيت لاهيا بضريبة عياضة المعروف بكرم مهابة » . وذكر كرم الدخاخين وكرم الدلقوم بارض القرية ذاتها ولكن بضريبة اخرى .

وتخللت الاراضي الزراعية ، وخاصة منها البساتين والحواكير ، داخـل غزة والقرى ، وفي اطرافها ، السواقي لريها . ووصفت احدى السواقي ، المـوجودة بمحلة السجاعية ، بخط بوابت ابي بكر ، المعروفة بسـاقية البهجة ، بانها اشتملت على « بير ماء وبركة معدة لجمع المـاء ودولاب واخشاب وبايكة بثلاثة قناطر من الحجر وبيت مسقفين بالخشب وساحة سماوية ومن داخلها حوش مغروس بـه شجر نخل » . وخص شجر النخل بوجوده في السـواقي . وبيعت السـاقية كاية سلعة اخرى ، ولم تشر الوثائق فيما اذا كانت الساقية تسقي الارض القائمة عليها فقط ام تباع مياهها للاراضي الاخرى .

واحـاطت بهذه الاراضي الزراعية ، وتخللتها احيانا ، اراض رملية ، اشـير اليها بغليظ الرمل ، كما في المثال التالي : « الكرم بارض بيت لاهيا بضريبة الاجابر الذي حـده قبلة غليظ الرمل » ، او المثـال الآخر : « الكرم الكاين بارض غـزة بضريبة البصاصي المعروف بكرم الخاني .. حده شرقا كرم ورثة حمد العكة وتمامه غليظ الرمل .. وغربا غليظ الرمل ». وامتدت الكروم ، في الواقع حتى ساحل البحر .

وتنوعت ملكية الاراضي وطرق التصرف بها ، فقد يباع كرم بكامله ، اي بارضه وشجره ، او قراريط منه ، او يباع شجره فقط ، كليا او جزئيا ، وينطبق ذلك على الحاكورة وغيرها من الاراضي المشـجرة . وبيعت السـاقية ايضا ، كليـا او جزئيا . ويلاحظ ان السواقي كانت تكثر في مناطق معينة ، قرب بعضها البعض ، نظرا لتوافر الماء في تلك المنطقة ، كما في المثال التالي : « المبيع اربعة قراريط ونصف القيراط في جميع الساقية الكاينة داخل قرية دير البلح المعروفة بساقية القاعود

التي حدها قبلة الطريق السالك وفيها الباب وشرقا حاكورة ورثة المرحوم ابو سمرة وشمالا ساقية الفاخورة بيد ابو بشير وغربا ساقية خبيزة بيد ابن جمعان البدوي ومن يشركه بثمن قدره ٤٠٠٠ قرش » .

ويلاحظ ان معظم البساتين والحواكير والكروم والسواقي ، التي ورد ذكرها في الوثائق الشرعية ، تملكها افراد ، مسلمون ومسيحيون ، اقاموا في غزة او في القرى التابعة لها . وكان بعضها وقفا خيريا او اهليا . ولم يرد ما يفيد بتملك الدولة لهذه الاراضي الزراعية ، اي ما يثبت ان بعضها على الاقل كان ارضا اميرية (ميرية). وذكر ان مشايخ قرية سمسم الاربعة تسلم كل منهم الربع في ارض البلد وتعهد بادراتها بالحرث والزرع وبدفع ما عليها لجهة مال الميري من مال وغلال وغيره ما عدا الزيتية فانها تخرج من ريع زيتون البلد عن الجميع منهم . ويبدو ان اراضي هذه القرية كانت من املاك الدولة . وجاء في ضبط تركة عبد القادر الشوى ان بذمته الى جهة الميري على شده (ذكرتها الوثيقة « شدده ») بقرية بيت طيما وقرية برير ، بالاشتراك مع آخرين ،مبلغا قدره ٢٥٣١ قرشا ، مقدرةعلى الواردات من الحنطة والشعير والذرة . ولم تشر الوثيقة فيما اذا كانتالاراضي التي استغلوها هي أراضي الدولة ام انه ترتب على وارداتهم منها هذا المقدار من الضرائب للدولة . والشداد ، في الشام ، هو الذي يستغل الارض . ولا يملكها ، ويستخدم فيها اناسا بالاجرة ، كما أنه يدفع ربع الغلال للمرابعين الذين يعملون معه . وعرف الذي حرث وزرع الارض في منطقة غزة بالحراث . وفي احدى الحالات اتفق صاحب ارض مع آخر ان يرسل هذا جماله واربعة حراثين ، ويقدم صاحب الارض حراثين اثنين والبذار من الشعير ، ويكون الزرع بينهما مناصفة . وفي وقت الحصاد يأخذ صاحب الارض البذار الذي وضعه من أصل المحصول ، ثم يقسم الباقي مناصفة .

وقد استدان القرويون المال من سكان غزة لتمويل اعمالهم . كما وظف سكان غزة اموالهم في الريف ، سواء في الزراعة ام شراء الحيوانات . ونظرا لاهمية الحيوانات في الزراعة فقد كانت مثار خلافات وتقاض ، كما سبق ، وعرفتبصفات خاصة ، مثل الجمل الاشقع الاصفر ، والثور الاسود المكوي .

وتملك القرويون في مناطق غير مناطقهم بواسطة الشراء او الارث ، واكثر ما تملكوا في غزة . حيث عرفوا بنسبتهم القروية ، مثل الجبالي (نسبة الى جباليا) . والحانوني (نسبة الى بيت حانون) ، والمجدلي او المجدلاوي (نسبة الى المجدل) ، والعبساني (نسبة الى عبسان) ، والسنيداوي (نسبة الى دير سنيد) . وتشير هذه النسبة الى اقامة اصحابها في غزة ، اي الى هجرة من الريف الى المدينة . وليس

من دليل ، من خلال الوثائق ، على حجم هذه الهجرة ، او اسبابها ، او الفترات التي نشطت فيها او تضاءلت . ورغم ان نسبة الغزاويين الذين تملكوا في الريف ، او وظفوا اموالهم فيه ، كانت كبيرة ، فلم يترتب على ذلك هجرة الغزاويين الى الريف . ووجدت في الريف اراض موقوفة على اماكن في غزة ، بنوعيها الخيري والاهلي ، وقلما حدث العكس ، اي ان توقف الاراضي والعقارات في غزة على أماكن في الريف .

وقد اسهم البدو ، في ريف غزة ، بدور اقتصادي متنوع وهام . واشارت الوثائق الى نقلهم المؤن ، من شعير وحنطة ، من اشوان (جمع شونة) الميري في غزة الى بندر معان ، لتمويل قافلة الحج الشامي . وكان شيخ مشايخ عربان بلاد غزة الصف القبلي والصف الشمالي مسؤولا امام الدولة ، ممثلة بشخص ناظر اشوان الميري بغزة ، رستم آغا ، ومن بعده محمد آغا البربار ، في فترة دراستنا ، وكذلك بشخص مأمور حملة الحج الشريف (لعله الموظف الذي يرافق المؤن ، او ربما امير الحج الشامي الذي تسلمها) ، عن نقل المؤن الى بندر معان لاحتياجات قافلة الحج . وعهد شيخ المشايخ الى العربان التابعين له بنقل هذه المؤن ، التي بلغت كل سنة عدة آلاف من الكيلات من الشعير ، بصورة خاصة ، الذي وصف بأنه نظيف وخال من التراب والحصا ، واقل من ذلك من الحنطة . وعبئت هذه الحبوب داخل خيش ذي عرى ، ونقلت على ظهور الجمال . وجرى اقرار شيخ مشايخ العربان ، أو شيخ عربان آخر من غير هؤلاء ، بتسلم ذلك في محكمة غزة الشرعية . ونقل الشعير والحنطة بكميات كبيرة من لواء غزة لسد احتياجات قافلة الحج الشامي دليل على توافر وجودة هذه الاصناف فيها .

وباستثناء ما يمكن ان يستنتج من معلومات حول الزراعة في لواء غزة ، من خلال ما زرع في البساتين والحواكير والكروم والموارس ، فلم ترد معلومات في الوثائق عن نوعية المنتجات الزراعية وكمياتها السنوية . واقتصرت المعلومات على ذكر كميات محددة منها ، وجدت في تركات المتوفين ، وعلى اسعارها .



وفيما يتعلق بالمقاييس ، والمكاييل ، والاوزان ، والنقود ، في لواء غزة ، فقد وجدت عدة انواع من كل منها . فبالنسبة للمقاييس استخدم ما سمي « ذراع البنا » (البناء) ، لقياس الاراضي داخل المدينة ، وكذلك ساحات الدور والاحواش. ويلاحظ ان المساحة الفارغة هي التي قيست ، وليس القسم المبنى . وقسم الذراع

الى اربعة وعشرين قيراطا ، وذكر من اقسامه النصف والربع ، وما عداها ذكر بالقراريط ، كما في الامثلة التالية : « قطعة ارض .. مساحتها شرقا بغرب ثلاثة اذرع وثلاثة قراريط من ذراع البنا كل ذلك فارغا بذراع البنا » (١٧) . وايضا « ساحة سماوية (في دار) بها بئر معد لخزين الاغلال التي ذرعها من الجهة القبلية شرقا بغرب اربعة اذرع وربع ومن الجهة الشرقية قبلة بشمال خمسة اذرع وعشرين قيراط من ذراع ومن الجهة الغربية قبلة بشمال خمسة اذرع كل ذلك فارغا بذارع البنا » (١٨). وذكر استخدام الذراع الاسلامبولي ، في غزة ، في الفترة نفسها ، لقياس مساحة الساحة السماوية في احدى الدور (١٩) . ولا ندري اذا كان الذراع الاسلامبولي هو نفسه ذراع البنـا . ويلاحظ في الامثلة التي استخدم فيها ذراع البنا ان اطول جهة فيها لم تتجاوز احد عشر ذراعا واجزاء الذراع ، في حين ان الذراع الاسلامبولي ، في المثال السابق ، استخدم في قياس ساحة سماوية بلغ طول جهتها الشرقيـة ، قبله بشمال ، ستة وعشرين ذراعا ونصف ذراع وربعذراع وبلغ وسطها عشرة اذرع ، كل ذلك فارغا بالذراع الاسلامبولي . والذي يثير الاهتمام ويطرح امكانية التمييز بين الذراعين انهما استخدما في الوثائق في حوالي الوقت نفسـه ، وفي صفحتين متعاقبتين (٤٣ و ٤٤) .

ولم يرد من ذكر لذراع البنا في كتاب « المكاييل والاوزان الاسلامية » لمؤلفـه فالتر هنتس (٢٠) . وقد ذكر هنتس (ص ٨٩) ذراع المساحة ، التي كانت تساوي ٦٦ر٥ سم ، والذراع المعمارية (ص ٩٠) ، المعادلة لذراع النجار ، والتي عادلت ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في مصر ٧٥ سم . اما الذراع الاستانبولية ، فقد ذكر هنتس (ص ٨٤) ، انها استخدمت في مصر لقياس الاقمشة ، وان طولها ، في القرن التاسع عشر ، كان ٦٨ر٥٧٩ سم . ولا يمكن الاخذ بأي من هذه التفسيرات، بالنسبة لغزة ، الا بحذر شديد ، لانها تأثرت بمصر كما بالمناطق المجاورة من بلاد الشام . والجدير بالذكر ان الذراع النجاري استخدم في دمشق ، في الفترة نفسها تقريبا ، لقياس قطعة ارض خالية من البناء داخل دمشق(٢١) . وجاء في كتـاب (بيديكر) (٢٢) ان الذراع المستخدمة ، ويقصـد في سورية وفلسطين ، في حوالي ١٨٩٠ ، اكان طولها ٦٧ر٧٥ سم .

واستخدمت القصبة في غزة ، في فترة دراستنا ، لقياس الاراضي ، سـواء اكانت حواكير ام اراضي زراعية . وذكرت اجزاء القصبة بأنهـا النصف والثلث والربـع ، وكان نـوع القصب المستخدم هو القصب الحاكمي . واستخـدم ، في الوثائق ، تعبير « تقصيب الارض » ، نسبة لاستخدام القصب في قياسها ، وحين

تقاس قطعة ارض ، او ساحة دار ، أو أي عقار ، سواء بالذراع او القصبة ، يبدأ القياس من الجهة القبلية ، مثلما يبدأ تحديد العقار من الجهة القبلية . وذلك ، كما يبدو ، للتبرك ، نظرا للاهمية الدينية للقبلة في التوجه نحو الاماكن المقدسة .

واستخدمت كلمتا « الدراع » و « الفصبة » ، في غزة ، في مجالات ومعاني اخرى . فالذراع ، او الدراع ، أو الدرع ، كما ورد احيانا ، قيس به القماش على انواعه . والذراع المستخدمة كانت من الحديد ، ولا نعلم طولها . ووجد في تركة بائع اقمشة ذراعان من الحديد قدر ثمنهما بثلاثة قروش ، وفي مناسبة اخرى بأربعة قروش . ولا نعلم اذا كان ذراع البنا او الذراع الاسلامبولي من الحديد ايضا . واستخدمت كلمة « قصبة » أيضا للتدليل على اداة التدخين ، كأن يقال « قصبة دخان » .

واستخدم القيراط لتقسيم الكل الى أجزاء بلغت أربعة وعشرين قيراطا . ومثلما قسم الذراع ، مثلا ، الى قراريط قسم العقار كذلك . وجزىء القيراط الى نصف وثلث وربع ، والى اجزاء اصغر من ذلك ، مثل ، الثمن والسدس والخمس ، وقسمت هذه بدورها الى اجزاء اصغر منها . واستخدم السهم للدلالة ، عادة ، على حصة في ارث اهلي ، كما في المثال التالي : « السيدة الحاجة عالمة بنت المرحوم بهرام بيك آل رضوان لها في جميع ريع الوقف الرضواني سهما كاملا من تسعة اسهم ونصف كونها من الذرية »(٢٣) . ولا نعلم بدقة مجموع الاسهم ، الذي شكل السهم جزءا منه ، وهل هو بعدد مجموع الورثة في مثال الارث .

وفي التعامل الزراعي في دمشق ، مثلا ، اعتبر السهم جزءا من مائة سهم ، وفي بعض مناطق الشام حاليا يقسم العقار الى ٢٤٠٠ سهم . ورغم ان وثائق غزةاشارت الى حدود كل عقار ، حين بيعه او وقفه ، وذكرت حصصه بالقراريط ، واحيانا قاست بعضه أو كله بالذراع ، فانها لم تذكر كلمة « فدان » في قياس الاراضي . وشاع في دمشق ، مثلا ، نوعان من الفدان : الروماني والخطاط .

وتنوعت المكاييل ، في غزة ومنطقتها ، في فترة دراستنا . فمنها الكيلة ، التي كيلت بها الحنطة والشعير . فقد نقل ، مثلا ، من شونة غزة في شوال ١٢٧٣/حزيران ١٨٥٧ ، الى بندر معان ، لتموين الحج الشامي ، ١٨٦٤٠ كيلة شعير بالكيل المجيدي . ونقل من شونة غزة ، في جمادى الاول ١٢٧٦/كانون الاول ١٨٥٩ ، ١٠٩٩١ كيلة حنطة ، و ٢٢٩٩٢ر٢٥ كيلة شعير ، الى بندر معان للغرض نفسه ، مما يدل على ان الكميات الكبيرة كانت تقاس بالكيلة . وفي وثيقة اخرى وصفت

الكيلة بانها مجيدي . ويبدو ان التسمية نسبة الى السلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١) ، وهذا يعني ان الكيلة المجيدية ، أو الكيل المجيدي ، استخدما في عهده . ولا ندري ماذا كان وزن الكيلة أو الكيل المجيدي ، فيما اذا عبئت قمحا ، أو شعيرا ، او بمادة اخرى ، لان هذه المواد يختلف وزنها من مادة الى اخرى . وذكر هنتس (ص ٧٣) انه اصبح للكيلة في تركيا ، بعد عام ١٨٤١ ، قيمة موحدة تساوي ٢٧ر٣٥ لترا ،وهذا ما يعادل ٢٥ر٦٥٦ كغ من الحنطة . اما كيلة الشعير ، فيعتقد هنتس (ص ٧٢) انها وزنت ٢٢ر٢٥ كغ . وقد جاء في كتاب (بيديكر)(٢٤) ، في حوالي ١٨٩٠ ، ان الكيلة في سورية عادلت مدين ، اي ٣٦ لترا ، وهذا ما يعادل ٢٦ر١٨٧ كـغ .

وذكرت الوثائق نصف كيلة ، ولكننا لم نجد اشارة الى ربع كيلة . وهناك اشارة الى ان الكيلة قسمت الى أربع وعشرين وحدة ، كما ورد ، مثلا ، حين تقدير ضرائب الميري في غلال الحنطة والشعير والذرة ، وقد اشارت الوثيقة الى هذه الوحدة بحرف (ط) ، وهذا الحرف يشار به ، عادة ، الى كل من القيراط والرطل . ومن جمع اعداد هذه الوحدات من الحبوب ، نلاحظ ان كل اربع وعشرين وحدة ، اي (ط) ، اعتبرت كيلة ، اضيف عددها الى عدد الكيلات بجانبها . وهكذا ، فمن الممكن ان الكيلة قسمت الى اربعة وعشرين قيراطا ، او انها قسمت الى اربعة وعشرين رطلا . ونحتاج الى امثلة اخرى لنتمكن من الاخذ بتفسير او آخر .

ان حصر الكيلة بالكيل المجيدي يعني ان هناك انواعا اخرى من الكيل ، يفترض ان تختلف احجامها ، وبالتالي اوزانها ، لذا فالكيلة حجم نسبي ، والكيل متعدد الحجوم . ووجدت اختلافات في المقادير ، وبالتالي في الـوزن ، حتى ضمن الكيل من نوع معين . مثلا ، هناك كيل مجيدي مسح ، أي علـى مستوى الاطـراف . وهناك كيل عرم من غير هز ولا لبد . ونتسـاءل فيما اذا كان الكيل العرم من غير هز يضم اكبر كمية ممكنة ، والمفترض ان الكيل العرم بعد الهز يستوعب كمية اكبر .

وذكر المد كمكيال في غزة ومنطقتها ، وقدر بأنه يساوي نصف كيلة . وكان المد في غزة ، مثل الكيلة ، مجيديا ، كما ورد ذلك في المثالين التاليين : « قبض وتسلم ووصله .. من محمد آغا الحلبي مأمور حملة الحاج الشريف الشامي ثمانية وعشرون الف مد وستماية مد شعير بالمد المجيدي كيل عرم من غير هز ولا لبد عنها اربعة عشر الف كيلة شعير وثلاثماية كيلة مجيدي داخل الف وماية وثمانية وثلاثون زوج خيش اسود ونصف زوج خيش » . و « قبض وتسلم ووصله من شونة زخاير الميري

بمدينة غزة تسعة وثلاثون الف واثنتين وسبعون مد شعير مجيدي عنها تسعة عشر الف وخمسماية وستة وثلاثون كيل شعير بالمد المجيدي » . ويلاحظ من المثال الاول ان زوج الخيش الاسود استوعب ٥٦ر١٢ كيلة مجيدية من الشعير ، أو ١٢ر٢٥ مدا مجيديا من الشعير ، وهو ما يفترض ان يكون قد حمل على ظهر جمل واحد . واذا كان المد المجيدي في غزة معادلا للمد المصري ، الذي قدر في عام ١٢٥٦/١٨٤٠ — ١٨٤١ ، بانه يعادل رطلا وسبع وثلث سبع رطل ، فان زوج الخيش الاسود استوعب ٤٦ر٣٩ رطلا من الشعير بالرطل المصري . والى جانب الخيش الاسود استخدم الخيش الاسمر . ويبدو انه كان اكثر استيعابا من الخيش الاسود . فقد وضعت ٥١٧٠ كيلة مجيدي من الشعير داخل ٣٦٩ زوج اسمر جديد بعراها وخوايطها ، اي ان الزوج من هذا الخيش استوعب ١٠ر١٤ كيلة مجيدي من الشعير . ومع ذلك ، فلم يستخدم الخيش ، سواء منه الاسود أم الاسمر ، كمكيال بحد ذاته .

وعملية الكيل لم تكن منحصرة بالكيلة ، لان اي مكيال آخر وجب كيل محتواه ، فالحنطة ، مثلا ، كيلت ، الى جانب الكيلة ، بالصاع ، او بالربع ، ولكل منهما حجم معين يكال بكيل معين ، كأن يقال « صاع بكيل قرية المغار » ، او ربع « بكيل السوق » . وهذا يعني ان هناك صاعا يكال بغير كيل قرية المغار ، وربما يكال بغير كيل السوق ، مثلما كيلت الكيلة بغير الكيل المجيدي .

وقد استخدم الصاع في منطقة غزة كمكيال ، وكانت تكال به انواع الحبوب ، وحتى الزيتون . وذكر هنتس (ص ٦٣) ، ان الصاع عادل ٢٤ر٣ كغ . ولكنه لم يعين المكان والزمان حيث بلغ وزنه ذلك المقدار .

وكان الربع اكثر شيوعا من الصاع في كيل الحبوب في منطقة غزة . والتسمية نسبة الى ربع المد(٢٥) ، اي ان وزن الربع ، الذي ساوى ٥ر٤ لترا ، عادل ٢٧٣ر٣كغ ويجب ان نأخذ هذا بتحفظ بالنسبة لانواع الحبوب ، التي اختلفت احجامها ، وبالتالي اوزانها . واذا ما قارنا بين سعر ربع من الحنطة وسعر صاع منها ، في فترة واحدة ، لوجدنا ان سعر ربع الحنطة راوح بين ثلاثة وخمسة قروش ، حسب نوع الحنطة ونظافتها (مقدار الحصا والتراب فيها) ، والسعر الوسطي اربعة قروش ، في حين ان سعر صاع الحنطة كان حوالي عشرة قروش ، مما يدل على ان الصاع اكبر من الربع ، وربما بلغ ضعفه او اكثر . وطبيعي ان المقارنة بين اسعار الربع والصاع والمكاييل الاخرى ، للتوصل الى مقارنة بين احجام هذه

المكاييل ، يجب ان تتم بحذر وبدقة كبيرة ، نظرا لاختلاف نوعية كل سلعة ، ونظافتها، ومواصفاتها الاخرى ، كأن يكون العدس ، مثلا ، صحيحا أو مجروشا ، وان تكون الحنطة معروقه او عادية . وكذلك يجب الاخذ بعين الاعتبار ان تكون المقارنة في الاسعار في موسم واحد يتساوى فيه العرض والطلب ، بالنسبة لمختلف انواع الحبوب المراد مقارنة اسعارها .

وكان هناك كيالة محترفون يتقاضون اجورا على كيل الحبوب . وتقاضى كيال الشعير ، مثلا ، خمسة وعشرين قرشا على كيل الف ربع من الشعير ، علما بأن وسطي ثمن ربع الشعير كان ثلاثة قروش . ولا نعلم ان كان هناك كيالون لكل مادة ، كما قد توحي بهعبارة « كيال الشعير » .

ومن المكاييل الاخرى « الحمل » ، وهو ما يحمل على ظهر حيوان النقل . ولم ترد معلومات كثيرة حول الحيوان ، الذي حملت عليه الاحمال عادة . فقد عهد الى مشايخ البدو بنقل كميات كبيرة من كيلات الشعير والحنطة من شونة غزة الى بندر معان ، والمفهوم انها نقلت على الجمال ، وان الخيش الاسود او الاسمر استخدم لنقلها . وكانت الاشارة الى « زوج الخيش » ، مما يعني ان كل زوج وضع على ظهر جمل ، ولكن « الحمل » كمكيال أمر آخر . فقد اشارت الوثائق ، مثلا ، الى حملين من الحنطة ، يضمان اربعة وستين ربعا ، سعرهما ٣٢٠ قرشا ، بذمة مصطفى سلمان للمتوفى عبد القادر بن صالح الشوى(٢٦) . وهذا يعني ان حمل الحنطةتألف من اثنين وثلاثين ربعا ، وان سعر الربع خمسة قروش . واشير في تركة اخرى ، بعد عام من تركة الشوى، الى حملين من الحنطة ضما اربعة وستين ربعا ، بسعر ستة قروش للربع . واذا اعتبرنا ان الربع وزن ٣ر٢٧٣ كغ ، فان وزن حمل الحنطة عادل ٧٣٦ر١٠٤ كغ . ونظرا لان حمل الجمل قد قدره (هنتس ، ص ٢٧) ب ٢٥٠ كغ ، فان هذا الحمل الذي عادل ٣٢ ربعا ، يبدو انه حمل على حيوان اضعف من الجمل ، مثل البغل أو الحمار .

واستخدم الحمل كمكيال بالنسبة لغير الحبوب ، مثلا ، جاء ذكر حمل ملح بيع بخمسين قرشا ، واحمال صوف استوردت من جدة ، بطريق السويس ، الى غزة . وبلغ عدد هذه الاحمال ٢٢ حملا ، وزنها ٢٢٧ رطلا ، اي ما يعادل ٣١٨ر١٠ رطلا للحمل الواحد ، وبيع الرطل منها في غزة بسعر ٥ر٧ قرشا . وذكر الكيس كمكيال ، بمناسبة استيراد عدد من اكياس الذرة من الاسكندرية الى غزة ، وداخل كل كيس ١٣ ربعا من الذرة ، اي ما يعادل ٥٤٩ر٤٢ كغ .

وذكرت الطبة كمكيال ، بالنسبة للحبوب ، واختلف مقدارها حسب الكيل الذي كيلت به ، مثلا ، تواسط الحاضرون الصلح على ان يدفع المدعى عليه محمد ابن الحاج عودة الله ، من اهل قرية تل الترمس ، الى المدعي خليل بن علي القاطوع ، من اهالي قرية الشيخ مونس ، ثماني طبات ذرة بكيل قرية تل الترمس . ومعنى ذلك ان الطبة يمكن ان تقاس بكيل آخر . ولم نجد ما يساعد على التعريف بالطبة ونسبتها الى الكيلة ، او الصاع ، أو الربع . ولكنها تدل ، من معناها ، على أن الكيل الذي كيلت به كان يفرغ على الارض ، أي « يطب » على وجهه ، لافراغ محتوياته ، والكمية تكون « طبة » . وتصف الطبة الى جانب اختها ، ثم تعد فرادى ، ويكون مجموعها ، مثلا ، ثماني طبات .

واستخدمت الجرة كمكيال ، بالنسبة لعدد من الحبوب والسوائل . وكان سعر جرة الشعيرية ، مثلا ، في حوالي رجب ١٢٧٥/شباط ١٨٥٩ ، ١٧ر٥ قرشا ، وجرة البرغل ١٠ ، وجرة المفتول (برغل مفتول مع طحين) ١٦ر٢٥ . وكانت قيمة جرة السيرج ، في غرة جمادى الثانية ١٢٧٦/٢٦ كانون الاول ١٨٥٩ ، ٧٠ قرشا . وبلغت قيمة جرة الزيت ، في التاريخ السابق ، ٦٣ قرشا ، وبيعت جرة زيت ونصف رطل زيت ، في التاريخ نفسه (وفي التركة نفسها) بسعر ٦٦ر٥ قرشا ، مما يعني ان سعر رطل الزيت بلغ سبعة قروش ، وان جرة الزيت وسعت تسعة أرطال .

وذكرت الوثائق عددا من الاوزان استخدمت في غزة ومنطقتها ، وكان ابرزها ، واكثرها استخداما ، الرطل . وورد ذكر نصف الرطل ، وتلته الاوقية (جمعت اواق) ، ثم الدرهم . وذكرت احدى الوثائق « درهمين حرير » ، في تركة احد المتوفين ، مما يدل على أهمية هذه الكمية الصغيرة . ووجد ميزان خاص لوزن الحرير ، عرف بميزان الحرير . ولم يرد في الوثائق ما يفيد عدد الاواق في الرطل ، او عدد الدراهم في الاوقية . والمعروف آنذاك في مصر(٢٧) ان كل ١٢ اوقية عادلت رطلا ، وان الاوقية تالفت من ١٢ درهما . ونظرا لاختلاف هذه القيم ، في الزمان والمكان ، يصعب علينا معرفة ماذا كانت تعادل في غزة في فترة دراستنا .

واستخدم المثقال ، عادة ، لوزن الذهب واللؤلؤ . وبلغ وزنه في مصر ، في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، درهما ونصف . وفي عام ١٢٥٦/١٨٤٠ — ١٨٤١ قدر بدرهم وثلاثة اسباع الدرهم ، وبذلك يساوي الدرهم سبعة اعشار المثقال ، اي ان كل عشرة دراهم تساوي سبعة مثاقيل . وقسم المثقال ، في مصر ،

الى عدد من الحبات بلغ عددها ستة آلاف حبة . واستخدم الدرهم ، عادة ، لوزن الفضة .

وذكرت الوثائق انواعا كثيرة من النقود الفضية والذهبية ، وغيرها ، المتداولة في غزة ، واسعارها ، في فترة دراستنا . واستخدم تعبير « دراهم » للدلالة على النقود بصورة عامة ، كمانقول « بها امتعته ودراهمه » . وقصد بالدراهم ، احيانا ، القروش ، كما في التعبير التالي ، الذي ورد في ضبط احدى التركات : « دراهم نقدي بيد السيد محمد عابدين ، ٩ر٥ قرشا » .

وكانت الوحدة النقدية الاكثر تداولا هي القرش (كتب احيانا الغرش) الفضة الاسدي . اما انواع العملات الاخرى ، من محلية واجنبية ، فضية وذهبية ، قديمة وحديثة ، فكانت موجودة بوفرة ، ولكنها كانت اقل تداولا ، وعمد الى تخزينها ، واكثر ما ورد ذكرها في التركات . وتسمية القرش بالاسدي مشتقة من اصل هولاندي ، حيث ظهرت صورة الاسد على العملة الهولاندية(٣٠) وقد استخدم نوعان من القرش في غزة ومنطقتها : قرش اسدي صاغ وقرش جرك . وكلاهما من الفضة . وجاء في كتاب (بيديكر)(٣١) ان القرش الصاغ تعاملت به خزينة الدولة ، في حين استخدم القرش الجرك في التجارة والشؤون العامة ، وان الفرق بينهما بنسبة ٢٠ الى ١٨ . وقد اشارت وثائق دمشق الشرعية ، في فترة دراستنا ، وفي معاملات البيع والشراء بين الافراد ، الى « قرش فضة صاغ ميرية » ، مما يدل على القيمة الرسمية لهذا القرش . وبالنسبة للوثائق الشرعية في غزة فالتعبير الذي شاع استخدامه فيها ، في قضايا البيع والشراء ، هو قرش اسدي ، او قرش . ولا ندري هل الاشارة هنا الى القرش الصاغ الرسمي (الميري) او الى القرش الشائع الجرك . ومما يجعلنا نميل الى الاخذ بالمعنى الثاني ما ورد في احدى القضايا ، في سجل محكمة غزة ، من ان امراة قبضت من زوجها مبلغا قدره من المعاملة الجرك او الجارية تسعة آلاف قرش وستماية قرش يعدل كل قرش اربعين فضة مصرية . وجاء في وثيقة اخرى ان الثمن بلغ ١٥٠٠ غرش اسدي عملة جرك ، وفي مناسبة ثانية ان الثمن بلغ ٨٥٠ غرش جرك مقبوضة بالحضرة . ونستشف من هذا ان القرش الجرك كان شائع الاستخدام في غزة .

وتقسيم القرش الى اربعين (قطعة) فضية مصرية (اختصرت احيانا الى فضة او مصرية) سهل امور التعامل النقدي كثيرا . واشير الى قطعة الفضة ، في غير غزة ، باسم « بارة » احيانا . ففي قضايا الطلاق ونفقة العدة ، والحضانة ، وفرض رسوم

الطعام والشراب للمطلقة ، او للقاصرين ، استخدمت قطع الفضة المصرية لتحديد المبلغ الذي تراوح بين ٣٠ و ٨٠ قطعة فضة مصرية يوميا . ولم تكن هـذه القطع مـن الفضة الصرف اذ خلطت بالنحاس . واطلق علـى قطعة الفضة المصرية ، في الاصل ، اصطلاح « نصف فضة » . ونظرا لتدني قيمتها وجد منها قطع بخمسة ، وعشرة ، وعشربن فضة . واشير ، في كتابة الارقام ، الى اجزاء القرش باشارات متعارف عليها . فالنصف علامته (ـ) ، والثلث (ر) ، والربع (/) ، والنصف والربع معا (ـِ) . واشير الى عدد قطع الفضة المصرية ، خارج هـذه النسب ، كما يلي : (٥) ، اي خمس قطـع فضـة مصرية . مثـلا ، عشرة قروش ، ونصف قرش ، وخمس قطع فضـة مصرية (مصاري) ، تكتب كالتالي (٥ ـ ١٠) .

ومن قطع النقود الفضية التي ورد ذكرهـا في وثائق غزة الشرعيـة الريـال المجيدي . الذي اختصر احيانا الى المجيـدي . والتسمية نسبة الى السلطـان العثماني عبـد المجيـد . ومن اقسام الريال المجيدي نصف المجيدي وربع المجيدي وكلمة « ريال » مشتقة ، في الاساس ، من الريال الاسباني . وقدر الكرملي(٣٢) الريال المجيـدي على انه يساوي ٨٠٠ بارة ، أو عشرين غرشا تركيا صاغا ، او ثلاثة وعشرين غرشا تركيا شركا (اي جرك) . وذكر ايضا ان وزن الريال المجيـدي ١٢٥ قيراطا (٥) . و كان سعره في دمشق ، في فترة دراستنا ، ٥ر٢٢ قرشا (٦) .

واشارت وثائق غزة الى نقد عرف بالفرنك ، وجـاء في كتاب (بيديكر) انه مـن الفضة ، وكان سعره في دمشق ، في فترة دراستنا ، اربعـة قروش وخمسة مصاري . واستخدمت العملة المصرية الفضية من القروش في غزة في فتـرة دراستنا . فقـد شريت دار في غزة بهذا النوع مـن القروش المصرية . وذكر الكرملي ان القرش المصري عملة فضية ، وان وزنه هو ٥ر٧ من القراريط .

وشاع في غزة استخدام ريال فرانسة عامود . وكان سعره ٣٢ قرشا . واذا كان مخزوقا فسعره ٥ر٣١ قرشا . وهذا الريال هو ، في الاساس ، ريال ماريا تيريز . واشير اليه بلقب ابو مدفع ، في غير غزة . اما في دمشق فأشير اليه بعامود ، وكان سعره فيها ، في فترة دراستنا ، ٧٥ر٢٧ قرشا . ووجد ريال فرانسة شوشه . واشارت وثائق دمشق المعاصرة اليه باسم ريال شوشه او شوشه ، واختلف سعره ، في دمشق ، بين عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هجرية ، اذ هبط من ٥ر٢٦ قرشا الى ٧٥ر٢٥ قرشا .

واستخدم في غزة ريال سينكو (وذكر ايضا باسم سينكوا ، وسنكو ، وشنكو) ، والكلمة مشتقة من الكلمة الايطالية خمسة . وكان سعره في غزة ٢٦ قرشا . وسعره في دمشق في ١٢٧٤ هـ ٢٥ر٢٤ قرشا ، وفي ١٢٧٦ هـ ٥٠ر٢٤ قرشا . وفي غزة ايضا ريال منون ، وسعره ٢١ قرشا ، ومنه نصف منون ، وسعره ٥ر١٠ قرشا . ولا نعلم وجه التسمية . وفيها كذلك نقد من نوع ناقشلي ، والتسمية لنقش عليه وربما هو نفسه منقشلي ، الذي كان سعره ٤ قروش . ووجد نقد مفرد . وسعره ٥ر٣ قروش . ونقد بوزلي ، اشار اليه الكرملي باسم بوزلك . ووجد نقد من نوع نصف وزري ، وسعره ٣ قروش ، ونقد نافلي ، وسعره ٧٥ر٤ قروش ، وربع زريفة ، استخدمت لتحميل الحلق بها ، ولعلها من الذهب (٣٣) . ونقد حميدي . وغازي قديم ، وسعره ٥ر٤ قروش . ويبدو أن هذا الغازي كان من الفضة لان الغازي القديم الوازن من الذهب كان سعره في دمشق ، آنذاك ، ٣٧ قرشا .

ووجد في غزة ، في فترة دراستنا ، نقد نحاسي عرف بالفنس ، وقد ذكره (بيديكر) (٣٤) في كتابه . وعرف هذا النقد في دمشق وكان سعره فيها ، في عامي ١٢٧٤ ، و ١٢٧٦ هـ ، ٥ر١٩ قرشا . ووجد نقد نحاسي آخر في غزة ، اعتبر قديما ، في الوثائق ، وهو الزلطة . والتسمية من السلافية Zoloto, Zolata وكانت تساوي ثلاثين بارة ، أو ثلاثة ارباع القرش .

وكثرت انواع النقود الذهبية ، العثمانية والاوربية ، في غزة في فترة دراستنا ، ومن هذه النقود العثمانية الجهادي ، ومن انواعه جهادي قديم ، وسعره ١٠٥ قروش ، وجهادي به نقص ، وسعره حوالي ١٠٩ قروش . ولا ندري ماذا كان الجهادي ، الذي به نقص ، نوعا من العملة ، أم ان الجهادي ، في هذا المثال بالذات ، كان ناقصا قليلا . ووجد جهادي يابس ، وكذلك نصف جهادي جديد ، سعره ٤٠ قرشا . وقد ذكر الكرملي (٣٥) أن تسمية هذا النقد بالجهادي ، نسبة الى الجهاد ، واشار الى وجود جهادي من الفضة ، وكان سعر الجهادي الصحيح الوازن في دمشق ، في عام ١٢٧٦ هـ ، ١١٢ قرشا ، ونصف جهادي طري ٥٠ قرشا ، ونصف جهادي يابس ٣٩ قرشا . واختلفت تسميات الجهادي هذه في دمشق ، في فترة دراستنا ، عن تسمياته واسعاره فيها في عام ١٨٣٩ ، وما حول ذلك ، حين اشير فيها الى جهادي قديم وجهادي جديد .

ومن النقود الذهبية في غزة المحبوب ، ولعله مختصر من زر محبوب ، والتسمية مشتقة من كلمة « زر » الفارسية ، وتعني الذهب ، وكلمة « محبوب » العربية . واشارت وثائق غزة الى تداول محبوب اسلامبولي فيها . ووجدت ، في غزة ،

قطعة نصف محبوب ، وسعرها ٢٠ قرشا . ووجد نقد ذهبي باسم خيري ، وسعره ٣٠ قرشا . ووجدت خيريات نواقص ، سعر واحدتها ٤ر٢٩ قرشا . وكان في التداول قطعة ربع خيري ، وسعرها حوالي ٧ قروش . واشارت وثائق غزة الى نقد خيري قديم . ولم يرد ذكر الخيري بين فئات العاملة في دمشق في قائمتين من عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هـ . ووجدت في مصر ، حوالي فترة دراستنا ، خيرية مصرية .

واشارت وثائق غزة الى نقد ذهبي من نوع ربع عدلي ، وسعره ٦ قروش . وقد وجد نقد عادلي في دمشق في حوالي ١٨٣٩ ، ولم يرد له ذكر فيها ، في عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هـ . ووجد في غزة ايضا نقد فندقلي ذهبي . ويقول الكرملي (٣٦) . ان هذا النقد هو نفسه البندقلي ، نسبة الى البندقية . وكان سعر قطعة فندقلي صحيح في غزة ٦٠ قرشا . ووجد منه نصف فندقلي وربع فندقلي . وهذه الاخيرة كانت اكثر شيوعا ، وسعرها ١٥ قرشا . ووجد ربع فندقلي سادة ، سعره ١١ قرشا . ولم يرد ذكر الفندقلي في دمشق في قائمتين من عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هـ . ووجد في غزة ما عرف بنصف جنزيرة ، ولعلها من الذهب ، وسعرها ٢٠ قرشا .

واستخدمت في غزة ، في فترة دراستنا ، عدة ليرات ذهبية ، منها الليرة المجيدية ، نسبة الى السلطان عبد المجيد ، وسعرها ١٢٠ قرشا . وكان سعرها في دمشق في ١٢٧٤ هـ ١١١ قرشا ، وفي ١٢٧٦ هـ ٥ر١١١ قرشا . ووجدت الليرة المسكوبية ، وسعرها ١٣٠ قرشا ، في حين كان سعرها في دمشق في ١٢٧٤ هـ ٥ر٩٧ قرشا ، وفي ١٢٧٦ هـ ١٠٠ قرش . ووجد كذلك ليرة بنيتوا أو بنيته ، وسعرها ١٠٥ قروش ، ونقد ذهبي عرفت وحدته باسم مجر (جمعها مجرات) ، وسعرها ١٢٠ قرشا ، ولعله ليرة ، لانه ذكر بين الليرات الاخرى . وورد ذكر مجر شباك ، وسعره ٦٠ قرشا . ووجد المجر في دمشق في عام ١٢٧٦ هـ وسعره ٥ر٥٦ قرشا . والملاحظ ان وثائق دمشق ، المعاصرة لفترة دراستنا ، اشارت الى ليرات ذهبية اخرى لم يرد ذكرها في سجل غزة ، مثل الفرنساوية (سعرها ٥ر٩٥ قرشا في ١٢٧٤ و ٥ر٩٨ في ١٢٧٦ هـ) ، والانكليزية (سعرها ١٢٠ في ١٢٧٤ هـ و ١٢٤ في ١٢٧٦ هـ) والمصرية (سعرها ١٢٥ في ١٢٧٤ هـ و ١٢٦ في ١٢٧٦ هـ) ، وليرة ممدوحي (سعرها ٨٠ في ١٢٧٧ هـ) ، ودبلون (سعرها ٤٠٠ قرش في ١٢٧٦ هـ) ، وقرانيصة (سعرها واحد في ١٢٧٤ هـ و ١٢٧٦ هـ ، ومقداره ٥ر٥٧) ، وقرانيصة مربع (سعرها ٢٥٠ قرشا في ١٢٧٦ هـ) .

الحواشي :

(١) و (٢) Gatt, P. 153

(٣) سجل غزة ، ص ٤٣٤ ، ١٢ جا ٧٧/ (٢٦ تشرين الثاني ٦٠) .

(٤) سجل غزة ، ص ١٧ ، ختام ج ٧٣/ (٢٤ شباط ٥٧) .

(٥) سجل غزة ، ص ١٤٦ ، ٢٦ ذ ٧٤/(٧ اب ٥٨) .

(٦) سجل غزة ، ص ٢٤٦ ، ٤ ص ٧٦/ (٢ أيلول ٥٩) .

(٧) سجل غزة ، ص ٤٢٨ ، ٢٩ ر ٧٧/ (١٤ تشرين الثاني ٦٠) .

(٨) سجل غزة ، ص ٣٠٧ ، ٣ ب ٧٦ / (٢٦ كانون الثاني ٦) .

(٩) سجل غزة ، ص ٤٤١ ، ٤ ج ٧٧/ (١٨ كانون الاول ٦٠) .

(١٠) سجل غزة ، ص ٣١٧ ، ٣ ش ٧٦/ (٢٥ شباط ٦٠) .

(١١) سجل غزة ، ص ٩٧ ، ٥ جا ٧٤/ (٢٢ كانون الاول ٥٧) . (اختلاف الجمع بقرش يفسر بحذف الكسور) .

(١٢) سجل غزة ، ص ٦٢ ، ٥را ٧٤/ (٢٤ تشرين الاول ٥٧) .

(١٣) سجل غزة ، ص ٩٨ ، ٥ جا ٧٤ / (٢٢ كانون الاول ٥٧) .

(١٤) سجل غزة ، ص ١٠١ ، غرة ج ٧٤ / (١٧ كانون الثاني ٥٨) .

(١٥) سجل غزة ، ص ٣٣٦ ، ٤ ل ٧٦ / (٢٥ نيسان ٦٠) . وانظر فيما سبق القسم الاول من البحث في (دراسات تاريخية) ، العدد الثامن ، ص ٢٥ .

(١٦) انظر حول الربع فيما يلي ، ص ٣١ .

(١٧) سجل غزة ، ص ٢٦٢ ، ٧ را ٧٦/ (٤ تشرين الاول ٥٩) .

(١٨) سجل غزة ، ص ٣١ ، ٣ ن ٧٣ / (٢٧ نيسان ٥٧) ، وانظر ايضا : سجل غزة ، ص ٤٤ ، ١٤ ذ ٧٣/ (٥ اب ٥٧) ، ص ٩٢ ، ١٧ ر ٧٤ (٥ كانون الاول ٥٨) ، ص ٤٣٢ ، ١٠ جا ٧٧/ (٢٤ تشرين الثاني ٦٠) .

(١٩) سجل غزة ، ص ٤٣ ، ١٢ ذ ٧٣ / (٤ اب ٥٧) .

(٢٠) ترجمه عن الالمانية الدكتور كامل العسلي ، وهو من منشورات الجامعة الاردنية ، بدون تاريخ.

(٢١) سجلات محاكم دمشق الشرعية ، سجل رقم ٤٧٥ ، ص ١٠٧ ، ٢٢ ربيع الاول ١٢٧١/ (١٣ كانون الاول ١٨٥٤) .

(٢٢) Baedeker, p. XXX

(٢٣) سجل غزة ، ص ٤٤٧ ، ٢١ م ٧٧/ (٩ اب ٦٠) .

(٢٤) Baedeker, P. XXX

(٢٥) Baedeker, P. XXX

(٢٦) سجل غزة ، ص ٩٧ ، ٥ جا ٧٤/ (٢٢ كانون الاول ٥٧) .

(٢٧) انظر : هنتس ، ص ١٩ ـ ٢٠ ، ٣٠ ـ ٣٧ ، وانظر :
E. W. Lane, **An Account of the manners and customs of the modern Egyjptians,** 5th ed., London, 1860, p. 572.

(٢٨) انظر Lane, P. 572

(٢٩) الذهبي ، نشر الكرملي ، ص ٧٦ .

(٣٠) Raymond, 1, 20; H. Bowen and H. A. R. Gibb, **Islamic Society and the West,** Vol. 1, in 2 parts, 1951, 1957, ii, 50.

(٣١) Baedeker, p. XVIII-XIX.

(٣٢) انظر : الكرملي ، ص ١٧٤

(٣٣) سجل غزة ، ص ٤٢٧، ٢٨ و ٢٨ ٧٧/ (١٣ ١٣ تشرين الثاني ٦٠) ، ص ٣٤٨ ، ١٣ ذا ٧٦/ (٢ حزيران ٦٠) ، وقد اشير اليها انها من الذهب وعرفت في دمشق في حوالي عام ١٨٣٩، انظر :
Jean-Paul Pascual, « Une neige à Damas au XIXe Siècle », **Bulletin d'Etudes Orientales** , t. XXVIII (1975), pp. 57-81, voir p. 60.

(٣٤) Baedeker, P. XXIX

(٣٥) ص١٧٢ .

(٣٦) ص ٢٣.

رُوسيَة القَيْصَرِيَّة والمَشْرِقُ العَرَبِيّ

د . خيرية قاسمية

جامعة دمشق ـ قسم التاريخ

يشغل الوطن العربي مكانة هامة على الخريطة العالمية ، استراتيجيا واقتصاديا، وهذا ما جعله منذ القديم ميدان معارك وصراع دبلوماسي بين القوى الكبرى ، وخاصة في أحوال الضعف والتفكك . وفي العصر الحديث ، ومنذ ضعف الدولة المسيطرة على الوطن العربي سياسيا ، اي الدولة العثمانية ، تأثر هذا الوطن من مداخلات ومساومات الدول الاوربية الكبرى التي اشتد الصراع فيما بينها لتأمين مصالحها في الدولة العثمانية ، ولتقسيم ممتلكاتها ، منذ نهاية القرن الثامن عشر ، واصبحت الاجزاء الافريقية والاسيوية من الوطن العربي موضع التنافس بين تلك الدول للحصول على النفوذ وخلق مواقع للسيطرة عن طريق التساوم والتعويض المتقابل . وتم التفاهم على اقتسام الأجزاء العربية في افريقية واحتلالها قبل الاسيوية ، وجرى ذلك تحت ظروف اقل تعقيدا .

وقد كان لمعظم الدول الغربية الكبرى في المشرق العربي العثماني مطالب متداخلة ومصالح معقدة ، واتبعت اساليب مختلفة للتدخل ، ساهمت فيها الهيئات الدبلوماسية واصحاب المصالح الاقتصادية والارساليات التبشيرية ، والبعثات العسكرية والثقافية ، لتوسيع نفوذ الدول الكبرى وتقويته ماديا ومعنويا ، ولتمهيد السبيل للاحتلال السياسي والعسكري ، وتفوقت مصالح بريطانية بسبب اعتمادها على قوتها البحرية واهتمامها بالمرور الى الهند ، وتمسكت فرنسة بادعاءاتها التقليدية في سورية ، وابدت الولايات المتحدة قدرا ملحوظا من الاهتمام الدبلوماسي والثقافي والتجاري في سواحل البحر المتوسط العربية . واخذت المانيا ، بعد ظهورها كقوة كبرى في اوربة ، باتباع ((سياسة الزحف نحو المشرق)) ، لتلعب دورا هاما في المنطقة عن طريق مكانتها في الدولة العثمانية . ان هذه العوامل ، التي جذبت القوى الكبرى نحو المشرق العربي العثماني وحوض البحر المتوسط ، هي

نفسها التي دفعت روسية القيصرية الى التطلع للمناطق الواقعة في جنوبها واعتبارها مجال اطماعها التوسعية . ومنذ ان حصلت روسية على منفذ الى البحر الاسود ، في الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، دخلت موجة الصراع المتداخل للوصول الى البحار الدافئة عن طريق السيطرة على شرقي المتوسط . وشكلت السياسة الدينية جزءا من دبلوماسية روسية القيصرية الخارجية ، وقدمت الولايات العربية في شرقي المتوسط (سورية وفلسطين) فرصة ممتازة لاستخدام هذه السياسة ، واصطدمت بالتالي بمقاومة الدول الكبيرة الاخرى .

وحافظت الدولة العثمانية على ممتلكاتها العربية في المشرق ، لا بفضل قوتها بل بفضل تضارب مصالح الدول الكبرى وتناقض مواقفها ، الى ان جاءت الحرب العالمية الاولى لتغير موازين القوى في المنطقة ولتؤدي بالتالي الى تقهقر الوطن العربي امام التحديات الغربية العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية .

صراع القوى بين الدولتين ، العثمانية والروسية :

توافقت القرون الاربعة ، منذ ان اصبحت روسية دولة قوية في شرقي اوروبة، مع اربعة قرون من الحكم العثماني للمشرق العربي . لذا لا يمكن فهم علاقة روسية القيصرية بالمنطقة العربية الا من خلال دراسة تطور العلاقة بين الدولتين الكبيرتين ، وهي علاقة كان يحكمها اعتباران هامان :

الاعتبار الاول **سياسي استراتيجي** ، فبحكم التجاور كان الصدام محتما بين الدولتين ولم يتجاهل السلاطين العثمانيون ، حتى في اوج قوتهم ، ظهور روسية كقوة منافسة ، وراقبوا ببعض القلق التهديد المحتمل للمطامع الروسية . ووجدت بين الطرفين مشاكل اقليمية واقتصادية وعنصرية ودينية حددت علاقاتهما السياسية منذ البداية(١) . وفي عام ١٥٧٠ بدات المواجهة الاولى بين جيشي الدولتين وكانت سابقة لصدامات تالية . وتكررت حالات الحرب بين الدولتين في عهد اسرة رومانوف (١٦١٣ — ١٩١٧) بحيث بدت وكأنها تسيطر على مجمل العلاقات بينهما . وكانت حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦) مثلا كلاسيكيا على ذلك ، رغم ان روسية اتبعت في بعض الاحيان سبيلا اخر ، هو دعم الدولة العثمانية (كما حدث في عامي ١٧٩٨ و ١٨٣٣) ، بأمل الحصول على نفوذ غير مباشر في الدولة العثمانية ، من خلال التحالف ، وليس العداء .

ويعود جوهر الصراع بين الدولتين الى محاولات روسية منذ القرن السابع عشر دفع حدودها باتجاه الشرق والجنوب للخروج من وضع الدولة القارية البرية،

اي الوضع الذي املته الشروط الطبيعية . وقد ركز قياصرة روسية ، بعد بطرس الاكبر (١٦٨٢ ــ ١٧٢٥) ، جهودهم على الطريق البحري الجنوبي (ازوف ــ البحر الاسود ــ المتوسط) ، الذي يؤمن مياها دافئة مفتوحة طوال العام . ونظرا لان الدولة العثمانية كانت تسيطر استراتيجيا على منفذ روسية الوحيد نحو البحر المتوسط عبر المضائق ، التي وصفها نقولا الاول (١٨٢٥ ــ ١٨٥٥) بأنها « بوابات بيتنا » ، اصبح الشغل الشاغل لسياسة روسية الخارجية تأمين المرور الحر غير المعوق عبر البوسفور والدردنيل(٢) . وهيأت روسية بذلك المسرح « للمسالة الشرقية » ولدور الدولة العثمانية كرجل اوروبة المريض في القرن التاسع‌عشر(٣) .

كان يمكن في كثير الاحيان حسم الصراع ، لو انه اقتصر على الدولتين ذاتي العلاقة . الا انه بعد توسع روسية ، منذ نهاية القرن الثامن عشر ، اخذ هذا الصراع يشكل خطرا على مصالح الدول الاوربية الكبرى ، التي راقبت ، باهتمام شديد ، كل سعي توسعي من جانب روسية لمواجهته عند الضرورة(٤) . وتدخلت انجلترة في كثير من الاحيان بالنيابة عن اوربة لحفظ توازن القوى في المشرق العثماني ، الذي يعني دعم وجود الدولة العثمانية والدفاع عن سلامة اراضيها وعن اشرافها الفعال على المضائق . ونجحت انجلترة بسبب تفوقها البحري في شرقي المتوسط ، في حصر روسية داخل البحر الاسود وفي اغلاق المضائق في وجهها ، كما ارغمتها على التخلي عن مكتسباتها الاقليمية . وعن دعاويها « بتحرير القسطنطينية » . ولقد فكر موجهو الاستراتيجية الروسية في بعض الاحيان ، بالتخلي عن هدف المضائق والتوجه جنوبا عبر القفقاس نحو المواني الدافئة على الخليج العربي . فسعوا الى قهر الامبراطورية الايرانية ليتمكنوا من الاشراف المباشر على الخليج ، وهو امر لم تكن انجلترة لتسمح به لانه يتحدى مركزها في الهند(٥) . واصبح الخيار الوحيد امام روسية للتوسع الاقليمي هو التطلع نحو اوربا الوسطى والبلقان او نحو الصين واليابان . وخلال سنوات الصراع بين روسية والدولة العثمانية لم يكن المشرق العربي هدفا بحد ذاته بل اكان يدخل في اطار استراتيجيتها كدولة كبرى .

الاعتبار الثاني ديني ، فالسيطرة على المضائق كانت تحمل معنى اخر اكثر من الاهمية الاستراتيجية ، هو زعامة روسية لقضية الكنيسة الارثوذكسية(٦) . فقد كان من العوامل الهامة التي دفعت روسية الى التطلع نحو الدولة العثمانية كون الاخيرة دولة اسلامية تحكم شعوبا مسيحية(٧) ، توضعت في رقعة جغرافية هي مركز الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية ، التي تعتبر روسية نفسها وريثة لها . وبذلك لعب الشعور الديني ، بالاضافة الى العامل الاستراتيجي ، دورا رئيسيا في صياغة العمل والفكر السياسيين لدولة روسية القيصرية تجاه الدولة‌العثمانية(٨)

وكانت الكنيسة الارثوذكسية الروسية قد نشأت في ظل امبراطورية بيزنطة ، وخضعت منذ القرن العاشر الميلادي ، أي منذ أن عمد امير موسكو في القسطنطينية ، لسلطة البطريرك « المسكوني » في عاصمة بيزنطة . وكان معظم رجال الدين في الكنيسة الروسية من اليونانيين المعجبين ببيزنطة ، وبعد سقوط الامبراطورية البيزنطية استقلت الكنيسة الروسية عمليا ، ووجد رجال الدين اليونانيون داخل الكنيسة الروسية في أمراء روسية الاقوياء حماة للعقيدة الارثوذكسية وورثة للامبراطورية البيزنطية . واعتبرت موسكو بعد انشاء بطريركيتها ١٥٨٩ « روما ثالثة »(٨) ، وورثت الكنيسة الروسية مظاهر الطقوس البيزنطية ، تماما كما ورث البلاط الروسي مظاهر البلاط البيزنطي ، واصبح « ارث بيزنطة » بذلك مسألة اساسية بالنسبة لتطور الدولة الروسية(٩) .

وبالرغم من المكانة التي احتلها القيصر في العالم الارثوذكسي ، حافظ البطريرك المسكوني في الاستانة — وهو يوناني — على زعامته للكنيسة الارثوذكسية (١٠) . وقد اقتنع الروس في بادىء الامر بهذا الوضع على امل الافادة من مكانة البطريرك المسكوني الخاصة لدى الدوائر الحاكمة العثمانية(١١) ، ولكن مع تردي العلاقات الروسية — العثمانية ، اخذت الشكوك تساور الروس من سيطرة رجال الدين على « الحضرة » البطربركية في الاستانة (القسطنطينية) بالاضافة الى كل توابعها . واصبح الاستيلاء على البطريركية « المسكونية » بالنسبة لروسية مطمحا هاما ، لان ذلك يخدم سياستها بشأن الجامعة السلافية والجامعة الارثوذكسية ويمنحها السلطة الدينية على الكنائس المستقلة ذاتيا ونستطيع بفضل قوتها ان تحول تلك السلطة الى سلطة مادية تخولها التدخل في الشؤون الداخلية للدول الارثوذكسية »(١٢) . ولذا عمل رجال الدين اليونانيون في ابرشيات الاستانة على مقاومة مطامع روسية ، واصبح هناك نوع من التحالف الخفي بين الاتراك العثمانيين ورجال الدين اليونانيين ، وتمسكت السلطات العثمانية برجال الدين هؤلاء لمواجهة ادعاءات روسية بحلول الاكليركية الروسية محل اليونانية بحيث تصبح السيدة العليا للارثوذكسية ، وتشكل بالتالي دولة داخل دولة ، في حين كان رجال الدين اليونانيون يصبحون رعايا عثمانيين مجرد دخولهم في خدمة الابرشيات العثمانية(١٣) .

الا ان الاراضي المقدسة ، التي ترتبط مواقعها بالكتاب المقدس ، ظلت هي الاقرب الى قلب الشعب الروسي المؤمن من « البطريركية المسكونية » ، نظرا لتعلق الروس العاطفي بالاراضي المقدسة . وقد تدفق آلاف الحجاج من الفلاحين الروس البسطاء نحو الاراضي المقدسة ، كغيرهم من حجاج اوروبة ، حتى قبل تاسيس الدولة الروسية الحديثة(١٤) . وحتى نهاية القرن الثامن عشر لم يرافق

ذلك اهتمام روسي رسمي واضح في المشرق العربي ، او حتى في فلسطين كأرض مقدسة . وكان الدعم المادي الروسي المحدود للكنائس الارثوذكسية في بطريركيات الشرق هو التعبير الوحيد الذي تمارسه روسية في تعاطفها مع مسيحيي الشرق الارثوذكسي . ومنذ مطلع القرن التاسع عشر سعت الدبلوماسية الروسية لاستخدام السياسة الكنسية في سورية – وفلسطين بشكل خاص – لارساء نوع من الوجود الروسي الارثوذكسي ، ولدعم مصالح روسية كدولة كبرى في شرقي المتوسط(١٥) .

٢ – الشواغل الروسية المبكرة بالمشرق العربي حتى نهاية القرن الثامن عشر :

حين تصادمت مصالح الدولتين العثمانية والروسية منذ نهاية القرن السادس عشر ، لم يدخل المشرق العربي في اطار موجة التوسع الروسي . هذا مع ان الاراضي المقدسة كانت تحتل مكانا متميزا في التفكير الروسي الديني ؛ كما ان بطاركة المشرق الارثوذكسي بدأوا يتجهون بانظارهم نحو موسكو منذ ان اخذت تظهر بمظهر الدولة الكبيرة ، وبخاصة لطلب المعونة المادية(١٦) ، وكان يقابل ذلك زيارة عدد من الروس للبلاد المقدسة . والاقامة مدة في سورية لدراسة الطقوس الشرقية الارثوذكسية والمقابلة بينها وبين الطقوس « المسكوبية » . وقد قام بطريركا القدس وانطاكية (اليونانيان) بدور هام في تطور الكنيسة الروسية في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وكانت الهبات الروسية هي المصدر الرئيسي لدخل البطريركيتين دون ان تحاول روسية ممارسة اي نوع من النفوذ والتأثير على اعمالهما . ويمكن اعتبار معاهدة (كارلوتز Carlovitz ١٦٩٩) بداية تحول في سياسة الحكومة الروسية تجاه الشرق الارثوذكسي ، فقد اصر بطرس الاكبر على اضافة القضايا الدينية الى جدول اعمال مؤتمر الصلح ، ومنح السلطان العثماني ضمانات محددة للحجاج الروس المتوجهين الى الاراضي المقدسة(١٧) .

وقد ادى تصاعد العداء بين روسية والدولة العثمانية في القرن الثامن عشر الى تردد السلطة الاكليركية اليونانية ، التي بلغت مركزا متميزا في الاستانة ، في ابقاء الصلة الوثيقة مع القيصر خشية اثارة استياء السلطان(١٨) . ومع ذلك استمر الحجاج الروس بزيارة الاراضي المقدسة ، واستمر الدعم الروسي المادي للكنائس الارثوذكسية في بطريركيتي القدس وانطاكية ، ولكن هذا الدعم لم يسنده او يرافقه ، اهتمام بالعقيدة الارثوذكسية بين العرب المسيحيين ، او مواجهة النشاطات الارسالية الاجنبية ، او الاشراف على طرق استخدام المعونات الروسية ، وظلت بيد الاكليركية اليونانية التي اثبتت عدم كفاءتها وفسادها ، واستئثارها وطمعها

وعدم اهتمامها بمصالح العرب الارثوذكس ، كفتح المدارس وبناء الكنائس(١٨) . ولم يمنع هذا الوضع المبعوث الروسي لدى الباب العالي من تقديم الاحتجاج مرارا بسبب الانتهاكات الكاثوليكية لحقوق الارثوذاكس ، وكررت روسية تحذيراتها من المصاعب التي يلاقيها حجاجها في الاراضي المقدسة ، لعدم وجود حماية لهم فيها(١٩)

وقد أصبح الساحل السوري حقل صراع بين روسية والدولة العثمانية في سبعينات القرن الثامن عشر . ولم يكن ذلك لاسباب دينية ، بل لان شرقي المتوسط غدا منطقة مجابهة بحرية خلال مرحلة هامة من الحرب الروسية العثمانية، ففي حزيران ١٧٧٢ تقدمت بعض القطع البحرية الروسية ، بعد ضرب القوات العثمانية في معركة تشسينا ، لدعم علي بك المملوكي الذي انفصل عن الدولة العثمانية واستقل بمصر وضاهر العمر الذي بسط سيطرته على معظم فلسطين في ثورتهما ضد السلطان ، وتمكنت من محاصرة ميناء صيدا وطرد الاسطول العثماني منه ، ثم تقدمت على طول الساحل وبلغت ميناء بيروت وحطمت السفن العثمانية الراسية فيه(٢٠) . وعادت القطع البحرية الروسية ، من قاعدتها في جزيرة باروس ، الى بيروت في اذار ١٧٧٣ وذلك لمساعدة الامير يوسف الشهابي ، احد زعماء جبل لبنان المتنفذين ، بعد خلافه مع احمد الجزار ، الذي كان يتولى حماية بيروت على راس مجموعة من الجند العثماني ، وضربت السفن الروسية المدينة وصدعت أسوارها ، وظلت بيروت تحت السيطرة الروسية من تشرين اول ١٧٧٣ حتى شباط ١٧٧٤(٢١) . وقد سمحت معاهدة كوتشوك كينارجه Kucuk Kaynarja ١٧٧٤ بانشاء كنيسة ارثوذكسية جديدة في الاستانة ، يتولى تمثيلها دبلوماسيا المبعوث الروسي لدى الباب العالي ، وعلى أساس هذا الشرط المحدد حاولت الدبلوماسية الروسية فيما بعد الادعاء بالحماية الفعلية على الكنيسة الارثوذكسية بكاملها في الدولة العثمانية(٢٢) . والملاحظ ان الحكومة الروسية لم تتمسك في مطالبها الاقليمية ، بالساحل السوري ، رغم أن دعم الثورة المحلية فيه ، واحتلال بيروت قد ساهما الى حد ما في هزيمة الدولة العثمانية ، فقد كان هدف كاترين موجها نحو الاستانة والمضائق ، ولم يبرز الاهتمام بالمشرق العربي الا في القرن التالي.

٣ ــ تزايد الاهتمام الروسي بالمشرق العربي في النصف الاول من القرن التاسع عشر :

تضافرت عدة عوامل منذ اوائل القرن التاسع عشر لازدياد التاثير الروسي في الدولة العثمانية وبالتالي لتمهيد الطريق للتغلغل الروسي في سورية ــ فلسطين . هذه العوامل هي : الثورة اليونانية ضد الحكم العثماني ١٨٢١ ــ ١٨٢٥ ودعم روسية

للثوار بحجة حماية المسيحية الارثوذكسية ، والحرب الروسية التركية ١٨٢٨ ـ ١٨٢٩ ، وهي التي انتهت بارغام الدولة العثمانية في معاهدة ادرنه على قبول المطلب الروسي بحماية المسيحيين الارثوذكس في الولايات العثمانية واقرار الدولة العثمانية بفتح المضائق للشعوب الصديقة ، وتقدم جيش محمد علي في سورية وما اعقبه من عقد تحالف دفاعي بين الدولتين في تموز ١٨٣٣ ،(معاهدة هنكار اسكله سي Hunkar Iskelesi ، التي خولت روسية وضعا متميزا في تقرير سياسة الدولة العثمانية الخارجية لانها منحتها الحق بافضلية التدخل في المضائق (٢٣) ، وهو الامر الذي اثار قلق الدبلوماسية الاوربية الحريصة على التوازن في المنطقة . فسعت الى سلب روسية ثمار انتصارها .

وقد شهدت فترة حكم ابراهيم باشا في سورية ـ فاسطين تدفقا هائلا للارساليات الكاثوليكية والبروتستنتيه التي تسابقت في مجالات النشاط الديني والثقافي (فتح المدارس ، انشاء المطابع ، نشر الكتب وخاصة الكتب المقدسة)(٢٤) . وظهرت انجلترة وبروسية على مسرح المشرق العربي لاول مرة لتمثيل المصالح البروتستنتية ، تماما كما كانت فرنسة تمثل المصالح الكاثوليكية ، وانضمت الولايات المتحدة اليهما في لعبة « الاستعمار الانجيلي » وكان الاهتمام الديني احد جوانب المطامح الاوربية التجارية والسياسية في شرقي المتوسط والمتركز على سورية ـ فلسطين(٢٥) . ونشط الدبلوماسيون الاوربيون في المشرق العربي لتعزيز نفوذ الدول الاوربية ، واصبحت فلسطين في تلك الفترة مقرا لعدد كبير من ممثلي الدول الكبرى من رجال الدين او الدبلوماسيين(٢٦) . وكانت النتيجة الطبيعية هي الصراع من اجل السيطرة والنفوذ ، وبدات حجة حماية الاماكن المقدسة والحجاج اكبر ضمان لتحقيق الفوز .

اخذت روسية ترقب بحذر اعمال الدبلوماسيين الاوربيين في المشرق العربي وسعت لتعزيز مواقعها لمواجهة نفوذ الدول الاوربية في المنطقة فارتأت ، اولا ، ضرورة تقوية التمثيل الدبلوماسي في سورية وفلسطين ، وكانت الخدمات القنصلية الروسية قد بدات منذ عام ١٨٢٠ في يافا (اهم ميناء لاستقبال الحجاج الروس) ثم في حلب ، واللاذقية وبيروت ، وصيدا ، (وجميعها كانت تتبع لقنصلية الاسكندرية) . وفي عام ١٨٣٩ نقلت قنصلية يافا الى بيروت واصبحت بذلك القنصلية الروسية الاولى في سورية ، وتشمل صلاحياتها فلسطين بكاملها . وشغل منصب القنصلية (بازيلي) ، وهو روسي من عائلة يونانية في الاستانة وعلى معرفة واسعة بالاوضاع المحلية ، وعين وكيل قنصل له في القدس(٢٧).

سعت الدبلوماسية الروسية ، ثانيا ، الى تعزيز توجهاتها من خلال الدين(٢٨)، واعتمد المخططون والمنفذون لسياسة روسية الخارجية في المشرق العربي على الشعور الديني التقليدي لدى الشعب الروسي ، الذي كان يمجد رسالة روسية المسيحية في العالم المسيحي بوجه عام . ولم يكن صدفة ازدياد عدد الحجاج الروس الى الاراضي المقدسة منذ ثلاثينات القرن الماضي ، كذلك ازدياد الهبات المالية والتزيينات المرسلة الى الكنائس الارثوذكسية في الشرق . وكانت تلك الكنائس قد عانت خسارة فائقة في دخلها بعد الثورة اليونانية .ووجدت الدولة الارثوذكسية الكبرى في هذا الوضع فرصة لاظهار كرمها وزيادة دعمها المادي(٢٩) .

وخلال بروز مسألة التدخل الاوروبي بكل دوافعها الخفية في سورية عام ١٨٣٨ وزيادة النشاط الكاثوليكي والبروتستنتي في المنطقة ، وجدت الحكومة الروسية الارثوذكسية ، واثر تراجع مركز روسية الدبلوماسي ، وجدت الحكومة الروسية والمجمع المقدس الروسي Synod ضرورة تبني سياسة مشابهة لسياسة منافسيهم الغربيين (٣٠) . وفي عام ١٨٣٨ قدم فلسطين (مورافييف Muraviev) احد اعضاء المجلس الاستشاري في المجمع المقدس ، وكان يعمل من موقعه على الدعوة الى الاهتمام بالاراضي المقدسة وشؤون الحجاج الروس . واقترح (مورافييف) في كتاب مفصل قدمه الى القيصر ، ان يمارس القيصر حماية خاصة على الاماكن المقدسة الارثوذكسية (ولكن ليس على السكان الارثوذكس) ، وان تنشأ ارسالية في القدس تكون مركز نشاط ديني ودبلوماسي تدعمها ماديا معونات روسية . ولم تقم وزارة الخارجية الروسية بانشاء الارسالية ، الا انها تدخلت لدى السلطات العثمانية لوضع حد للنزاع حول الاماكن المقدسة وحماية الحجاج ، واصدرت تعليماتها الى (بازيلي) ،القنصل العام في بيروت ، والخبير بالقضايا المحلية ، بتوطيد صلاته مع السلطات الكنسية في سورية وفلسطين . والاهتمام بمصالح الكنيسة الشرقية ، واوكلت اليه مهمة اعادة تجديد ديرين يونانيين (سان كاترين في سيناء وسان تيودور في القدس) ، لاستخدامهما كداري ضيافة للحجاج الروس تحت رعاية الاكليركية اليونانية(٣١) .

واثارت نشاطات القنصل الروسي العام مخاوف القنصل البريطاني في القدس وشغلت حيزا كبيرا من مراسلاته ، ومن مراسلات السفير البريطاني ، في الاستانة . ولخصت هذه المراسلات هدف روسية بانه اخضاع الكنائس الشرقية ووضع المسيحيين الشرقيين تحت حمايتها ، ومناهضة عمل الارساليات الاجنبية ، هذا مع ان الكنيسة الروسية لم يكن باستطاعتها ممارسة اي نفوذ على الاكليركية اليونانية .

ويمكن القول انه في مطلع الاربعينات اخذت العناصر القوية في دوائرالخارجية، او المجمع المقدس في روسية ، تبدي اهتماما بالاراضي المقدسة ، ولم تعد افواج الحجاج تشمل الفلاحين البسطاء وخدمهم بل اصبح من بينهم عدد من النبلاء والجنود والبحارة ورجال الدين والادباء (٣٣) ، واصبحت الدوائر الحكوميةوالكنسية اكثر استجابة لتوصيات ومقترحات الحجاج المتنورين وغيرهم ،الذين رغبوا باحياء العقيدة الارثوذكسية في الاراضي المقدسة وبالاشراف الروسي على انفاق الاموال الروسية ، لوضع حد لفساد الاكليركية اليونانية وعدم كفاءتها في هذا المجال ، كما طالبوا بالوقوف في وجه مساعي الدول الاخرى لكسب التفوق ، مع ذلك لم تكن هناك سياسة ثابتة ، ولم تكن وزارة الخارجية سوى قناة لايصال الهبات المادية الى فلسطين .

ولم يقتصر الاهتمام الروسي على الاراضي المقدسة ، بل اصبح هناك اهتمام بالعرب وحضارتهم بشكل عام ، ونشطت حركة الاستشراق(٣٤) في الاوساط العلمية ، وعمل الرحالة العلماء الذين زاروا الشرق على تعزيز علاقة روسيةبالمنطقة العربية وزيادة التعرف عليها ، ومن هؤلاء (كافالفسكي) مهندس المناجم الذي وضع كتابا عن مصر والسودان ، وكان محمد علي قد استدعاه على رأس بعثة استكشاف الى شرقي السودان فعثر على مناجم الذهب وكشف عن بعض منابع النيل(٣٥) .

وبعد ابرام معاهدة لندن ١٨٤٠ ، وانفتاح باب واسع لنفوذ الدول الكبرى ونشاطات ارسالياتها في سورية وفلسطين(٣٦) ، وقع حادثان لفتا انظار الحكومة الروسية الى ضرورة مواجهة نشاط البروتستنتية والكاثوليكية من اجل تعزيز مكانة روسية في المنطقة ، الاول ، هو انشاء الاسقفية البروتستنتية في القدس ١٨٤١(٣٧) ، بمبادرة بروسية وانجليزية ، والتي عززت النشاط البروتستنتي في المشرق كله ودعمت النفوذين الانجليزي والبروسي ، والثاني ، هو اصدار البابا بيوس التاسع اذنا باعادة انشاء البطريركية اللاتينية في القدس ١٨٤٧ في محاولة من الكنيسة الكاثوليكية لاسترجاع مكانتها في الاراضي المقدسة(٣٨) .

وقد اصبح (نسلرود) ، وزير الخارجية الروسي ، اكثر اقتناعا بضرورة استخدام الكنيسة الارثوذكسية لاغراض سياسية بحته(٣٩) ، واكان قد تقدم منذ ١٨٤١ بمذكرة الى المجمع المقدس وضع فيها اسس سياسة ارثوذكسية اكثر فعالية اكد فيها على اهمية انتقال بطريرك القدس اليوناني من الاستانة الى القدس للعناية برعاياه(٤٠) ، وبين الحاجة الى وجود ارسالية روسية في الاراضي المقدسة ،

تتبع رجال الدين اليونان ويساعدهم رجال الدين الروس . ومهام الارسالية ، بنظره تتيح لها التدخل في قضايا الكنيسة « اليونانية » نظرا لطبيعتها الدينية ، والاشراف على المعونات التي تأتي من روسية .

قررت وزارة الخارجية ، قبل تنفيذ توصيات (نسلرود) ، القيام بتفحص شؤون الشرق « المسيحي » عن قرب ، ولم يعهد بالمهمة الى دبلوماسي بل الى أحد رجال الدين المثقفين العارفين بالمنطقة ، ووقع الاختيار على ارشمندريت هو (بورفيري او سبنسكي Porfiri Uspinski (٤١) ، وكان مسؤولا امام وزارة الخارجية وهي التي صاغت له مهمته ، وتتلخص في التعرف على اوضاع الكنيسة الارثوذكسية في الشرق وكسب ود المواطنين الارثوذكس والتحقق من حاجات الطائفة الارثوذكسية(٤٢) . وكانت اهم النتائج التي توصل اليها (اوسبنسكي) في جولته (١٨٤٣ ــ ١٨٤٤) هو تدني مستوى الاكليركية اليونانية من جهة ، والتعاطف مع الاغلبية المحلية من رجال الدين والعامة الارثوذكس(٤٣) .

وقد اثار (اوسبنسكي) في جولته شكوك رجال الدين اليونان لانه تدخل في عملية انتخاب بطريرك القدس الجديد ، وكان العرف يخول بطريرك القدس المقيم في الاستانة تحت حماية البطريرك المسكوني حق تعيين خلف له ، الا انه تقرر عندئذ بتأثير النفوذ الروسي ان يجري الانتخاب في القدس من قبل « اخوة القبر المقدس » ومع ان البطريرك الجديد (اكيرلس) كان يونانيا ، ولم يعقب انتخابه اي تفوق روسي الا ان عام ١٨٤٤ كان يمثل بداية النزاع بين العرب واليونان من اجل الحصول على مشاركة اوسع في شؤون البطريركية ووضع حد لتفوق الاكليركية اليونانية ، هذا النزاع الذي سيزداد حدة ووضوحا مع نمو الشعور القومي وازدياد التباعد عن الطبقة الدينية اليونانية(٤٤) ، وسيصبح قضية عامة تصدق على معظم الشرق العربي وليس فلسطين وحدها .

وقدم (اوسبنسكي) في المذكرة التي رفعها الى السفير الروسي في الاستانة ، مقترحات عملية من اجل التدخل الروسي الفعال في كنيسة القدس الارثوذكسية اهمها : ارسال مجموعة من رجال الدين الروس المثقفين برئاسة اسقف ، واقامة مدرسة روسية لتعليم ابناء البلاد ، ولتعليم رجال الدين الروس اللغة العربية لترجمة الكتب الروسية وتوزيعها على المواطنين الارثوذكس في سورية وفلسطين ومصر ، وانشاء مراكز روسية خيرية تتيح لرجال الدين الروس كسب السكان المحليين(٤٦) وطبقا لمذكرة (اوسبنسكي) فان هذه المهام هي نواة الارسالية الروسية التي سيتركز نشاطها في القدس ، نظرا لاهميتها الحساسة ، وليس في الاستانة اوبيروت

وبمعنى آخر فان هذه المقترحات تبدو وكأنها رسمت لايجاد نظائر ارثوذكسية روسية للمؤسسات البروتستنتية والكاثوليكية العاملة في الشرق ، او على الاقل لكبح نموها . وكان على روسية ان تقدم على مباراة الدول الاوربية(٤٧) لتأييد مركزها في الشرق .

وقد اخذت وزارة الخارجية الروسية مذكرة (اوسبنسكي) بعين الاعتبار على ضوء التقارير الدبلوماسية التي اكدت ، من جهة - فقدان الاكليركية اليونانية تاثيرها على المواطنين العرب لجهلها وعدم اهتمامها ، وكشفت ، من جهة اخرى ، عن استخدام الارساليات الاجنبية ، البروتستنتية والكاثوليكية على السواء ، كل اساليب الاغراء لتحويل المواطنين الارثوذكس عن العقيدة الارثوذكسية(٤٨) ، وهو الامر الذي اثار مرارا احتجاج وكلاء روسية الدبلوماسيين(٤٩) ، كما دفع بطريركية انطاكية الى ارسال وفد الى روسية لطلب الدعم المادي والمعنوي من اجل مواجهة اخطار الارساليات الكاثوليكية والبروتستنتية(٥٠) وهكذا اصبح مستقبل تأسيس ارسالية دينية بيد الدبلوماسية الروسية ولم يكن (نسلرود) ارساليا ، بل كانت اهدافه الاوسع سياسية ، اي تعزيز النفوذ الروسي وكسب تعاطف الارثوذكس المواطنين ومنافسة او احباط الخطط الفرنسية والبريطانية ، وفي عام ١٨٤٧ اتخذت وزارة الخارجية الروسية قرارها بايفاد ارسالية دينية الى الاراضي المقدسة ، رسمت سياسة روسية الجديدة تجاه « الشرق الارثوذكسي » .

وقد عهدت السلطات الحكومية الروسية الى (اوسبنسكي) ، نظرا لتجربته ومعرفته الواسعتين ، مهمة رئاسة الارسالية الدينية التي وصلت القدس في ١٨ شباط ١٨٤٨ واعتبر اوسبنسكي نفسه وكيلا دبلوماسيا للامبراطورية الروسية ، ووضع في خططه العملية ، التي لم تتحقق جميعا ، الاساس لسياسة المستقبل(٥١) وتجاوز القيود التي فرضتها وزارة الخارجية ، وتنقل بين الاديرة المجاورة واجرى بحوثا في المكتبات ، وعمل في الوثائق والمخطوطات واودع بعضها في سان بطرسبرغ . وباموال روسية اشترت بطريركية القدس عدة مواقع في القدس وما جاورها (كثير من هذه المواقع اختارها اوسبنسكي لعلاقتها بالكتاب المقدس) ، وقد تم الشراء باسم رعايا عثمانيين(٥٢) . واستطاعت الارسالية الروسية ، رغم قصر فترةنشاطها (١٨٤٨ — ١٨٥٤) ، من وضع سابقة للنشاطات الروسية المقبلة الاكثر فعالية بعد حرب القرم وخاصة في مجال العمل الثقافي الروسي في فلسطين وفي الشرق الارثوذكسي الذي ازدهر في نهاية القرن(٥٣) . ولكنها فشلت في المهمة التي حددتها وزارة الخارجية باعلاء هيبة كنيسة القدس واصلاح احوال رجال الدين الذين يتولون الاشراف على المسيحيين الارثوذكس في الشرق ، وتعزيز مكانة الكنيسة الروسية والحكومة الروسية في نظر المسيحيين الشرقيين . كذلك لم يتوصل (اوسبنسكي)

الى حل مسألة الاشراف على رعاية الحجاج الروس وانفاق الهبات الروسية التي ظلت بيد الاكليركية اليونانية رغم الشكاوي المتكررة(٥٤) . وقد استطاع اوسبنسكي منذ زيارته الاستطلاعية قبل اربع سنوات ، كشف خفايا البطريركية في القدس . وخاصة ظاهرة تغلب العنصر اليوناني على طبقة رجال الدين وعلى اخوة القبرالمقدس مع ان غالبية سكان الابرشيات هم من العرب الارثوذكس (٥٥) . وشعر (اوسبنسكي) بتعاطف خاص نحوهم ، وساءه اهمال تعلمهم وعمل جهودا خاصة بالتعاون مع بطريرك القدس كيرلس الثاني ، لاصلاح مدرسة البطريركية وانشاء معهد لاهوتي لتدريب رجال الدين ، وتأسيس دار طباعة صغيرة اخرجت بعض الكتب الدينية بالعربية لتوزيعها على الكنائس والمدارس . وقدم المعونة المادية لرجال الدين العرب من اموال الارسالية ، وعين بعضهم في مناصب دينية في المناطق النائية(٥٦) . وساعد (اوسبنسكي) بذلك على تغذية الشعور العربي المتميز لدى الارثوذكس العرب ، والذي بلغ في النهاية مرحلة التباعد النهائي عن الاكليركية اليونانية . وربما كان هذا اعظم ما حققته الارسالية الروسية الاولى في القدس .

٤ ـ روسية القيصرية تعيد النظر في سياستها في الشرق الارثوذكسي بعد هزيمة القرم :

أدى تنافس الدول الكبرى ، واختلاف مواقفهم من الدولة العثمانية الى تفجر حرب القرم ١٨٥٣ ـ ١٨٥٦ ، ولم يكن النزاع بين رجال الدين الارثوذكس والكاثوليك حول الاماكن المقدسة في فلسطين ، سوى المبرر العلني لكشف هذا التنافس ، وهو الامر الذي زاد مرارة المواجهة السياسية بين الدولتين الحاميتين لكل من الكنيسة الارثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية . وربما كان التزعم الروسي لقضية الكنيسة الارثوذكسية هو الذي دفع دولتي الغرب الاوربي ، فرنسة وانجلترة الوقوف مع الدولة العثمانية . ووفقا لمعاهدة باريس ١٨٥٦ اغلق الطريق في وجه روسية الى الاستانة عبر اوروبة ، كما حرمت من دعواها كحامية للمسيحيين في الدولة العثمانية (٥٧) .

وقد اساءت الهزيمة العسكرية الى هيبة روسية كقوة حربية ، والى دورها في العلاقات الدولية ،كما وجهت ضربة قوية لمكانتها في « الشرق الارثوذكسي » ، وطرحت عدة اقتراحات لاستعادة مركز روسية المتفوق في الدولة العثمانية ، منها تأسيس جمعية فلسطينية ، واكاديمية شرقية في اوديسا لتدريب الطلاب للعمل في الشرق ، وارساليات في اثينا والاستانة ومصر . ولاقى اقتراح تجديد ارسالية

القدس تأييدا كبيرا بعد ان وضعت حرب القرم نهاية لارسالية اوسبنسكي واوصى « المجمع المقدس » تعيين الاسقف سيريل نوموف Naumov لهذه المهمة ، وهو اول مبعوث روسي للشرق العربي الارثوذكسي . وحدد وزير الخارجية غورتشاكوف Gorchakov في تقريره الى القيصر (٥٨) ، مهمة الارسالية بأنه ترسيخ النفوذ الروسي في الشرق من خلال الكنيسة ، حتى لاتتراجع مكانة روسية بنظر الارثوذكس الذين لازالوا يتطلعون الى روسية . واكد التقرير على الدعم الذي يجب ان يقدم للعرب الارثوذكس ، وهذا يمثل تغيرا في تفكير روسية الدبلوماسي ، فقد نقلت الاهتمام من رجال الدين اليونان الى العرب الارثوذكس لتعلي هيبتها في نظرهم ولتمنع تحولهم عن العقيدة الارثوذكسية ، وكان غورتشاكوف اكثر تصميما من سلفه لتأكيد الوجود الروسي في القدس واقل حرصا على مراعاة الاكليركية اليونانية (٥٩) وتبنى بذلك مبدأ اوسبنسكي بجعل الافضلية في المساعدة الروسية للارثوذكس العرب . وركزت تعليمات القيصر الى الاسقف نوموف على ضرورة الاهتمام « برجال الدين البائسين » لاستمالتهم ، ومنحهم فرصة تلقي العلم في روسية . وعهد اليه بتوسيع نفوذه الى بطريركتي الاسكندرية وانطاكية ، وكلف بتجديد المدارس في الثانية ، واكمال بناء المدارس اليونانية والعربية في بطريركية القدس ، وتوزيع الكتب والهبات وانشاء مطبعة عربية لنشر الكتب العربية ، هذا بالاضافة الى رعاية شؤون الحجاج الروس ، واقامة شعائر دينية مهيبة في الاماكن المقدسة (٦٠) وفي عام ١٨٥٨ صدر مرسوم القيصر بانشاء الارسالية ، وكانت بصورتها الثانية مظهرا جديدا في تاريخ العلاقات الروسية مع الكنيسة الارثوذكسية الشرقية .

وكان في روسية من يعتقد بأن اعادة مكانة روسية في الشرق الارثوذكسي وتعزيزها أمر لايمكن تحقيقه بوسائل الارسالية المتواضعة ، ذلك ان هزيمة القرم لم تحبط فقط الاهداف الروسية ، بل هددت نشاط روسية في البحر الاسود ، ولتعويض هذه الخسارة عمل الدوق الاكبر كونستانتين على توسيع البحرية الروسية التجارية بانشاء « الشركة الروسية للملاحة البخارية والتجارة » . Russian Company of steam navigation and trade التي تتمتع برعاية امبراطورية وتدعمها الحكومة ماديا ، وانشئت لغرض سياسي اكثر من الربح التجاري ، ووضعت خطة لافتتاح خط ملاحي بين اوديسا والموانيء السورية هدفه الرئيسي نقل الحجاج(٦١) وقبل ان تصل الارسالية الروسية الدينية الثانية الى فلسطين بعث الدوق كونستانتين في عام ١٨٥٧ بوريس منصوروف Boris Mansurov كممثل للشركة لتقصي الاوضاع في الشرق ودراسة امكانيات العمل . وطبع منصوروف تقريره في كتاب عنوانه « الحجاج الارثوذكس الى فلسطين » ، اصبح دليلا للاراضي المقدسة

واكد تقرير منصورروف تقارير القناصل الدبلوماسيين ونتائج اوسبسنكي ، حول الحاجة الى عمل روسي اكثر فعالية ، بعد ان اصحبت سورية ـ فلسطين ارض صراع للمطامح الاوربية ، غابت عنها روسية تماما ، حيث تعمل البعثات الدبلوماسية الغربية على تقديم المساعدة المادية والحماية السياسية لمسيحي الشرق مما يدفع الارثوذكس الى التحول للكاثوليكية والبروتستانتية من أجل الحصول على المساعدات المادية والتعليم والحماية ، ويلحظ التقرير ان فلسطين تزخر بالاديرة والمستشفيات والمدارس ودور الضيافة والارساليات الكاثوليكية في حين تفتقر روسية الى مثيلاتها ، ويرى ان تعمل روسيه في المجالات التي تجني منها الدول الكبرى كثيرا من الفوائد وهي مجالات يتجلى فيها السلطة والمال والورع الديني . وعرضت شركة الملاحة تولي مهمة تقديم عدد من المتطوعين لترسيخ نفوذ روسية في الشرق بأسلوب غير سياسي وبدعم خفي من الحكومة لان التدخل الروسي المباشر في الشرق يبدو ، في نظر الشركة ، متعذرا في الوقت الراهن .

وهكذا تداخلت الدوافع السياسية والدينية والتجارية ، وتحقق لكل المهتمين بقضايا الشرق ان العمل الروسي لايزال دون المستوى المطلوب ، وان على روسيه ان تعمل على تحسين صورتها واعادة تأكيد وجودها في المشرق الارثوذكسي دون الخضوع للاكليركية اليونانية ، وان تقوم بانشاء الكنائس وارسال الاطباء وتقديم العون المادي لرجال الدين العرب .

وعادت روسية الى مسرح الاحداث في المشرق العربي منذ أواخر الخمسينات بعد ان ازداد نفوذ الدول الاوربية على حساب تراجع النفوذ الروسي ، وخلال احداث ١٨٦٠ في لبنان رست في ميناء بيروت عدة سفن روسية وجرت مراسيم دينية على ظهر احدى السفن حضرها القنصل الروسي العام في بيروت ، كما تلقت بطريركية انطاكية عقب احداث ١٨٦٠ في دمشق تعويضات مالية من السلطات العثمانية ساهم فيها بعض الافراد الروس بمن فيهم القيصرة(٦٣) ، كذلك شاركت روسية في اللجنة الدولية التي جاءت للتحقيق في احداث ١٨٦٠ وللبحث في تنظيم الاوضاع في لبنان . وقد اقترح المبعوث الروسي في اللجنة تعيين قائمقام ارثوذكسي بالاضافة الى القائمقامين الماروني والدرزي ، ومع انه لم يؤخذ بالاقتراح الروسي ، الا انه حين اقر نظام جبل لبنان المستقل ذاتيا اخذ ببعض المقترحات الروسية بشأن تمثيل الطائفة الارثوذكسية(٦٤) .

ولم يعد القناصل ووكلاء القناصل الروس منذ مطلع الستينات يمثلون وحدهم المصالح الروسية في سورية وفلسطين ، بل اصبح يمثلها ايضا ارسالية دينية رسمية ،

« ولجنة فلسطين » شبه الرسمية التي اسستها شركة كونستانتين . وقام منصوروف بوصفه مديرا اداريا لهذه اللجنة بوضع خطة لعملها المستقبلي تقضي بانشاء مراكز في القدس واماكن اخرى من الاراضي المقدسة ، ترتدي طابع العمل الخيري او مهمة رعاية الحجاج ولكنها تعمل في الوقت نفسه كمؤسسات تجارية . او قنصلية ، ونظمت حملة لجمع الهبات التطوعيةفي روسية قوبلت بنجاح مشجع(٦٥) وقد زار الدوق كونستانتين الاراضي المقدسة في عام ١٨٦٤ ، واعقب ذلك تعيين وكيل قنصلي للجنة فلسطين في القدس ، ومن خلاله ازدادت السيطرة الروسية على رعاية الحجاج ، كما تم شراء قطعة ارض باسم رعايا عثمانيين ، خارج اسوار القدس باتجاه مدينة يافا خصصت لاقامة مجمع روسي مساحته ٣٠ هكتارا (احتوى المجمع فيما بعد عددا من المنشات الروسية : كاتدرائية ومقرا للارسالية واخر للقنصلية بالاضافة الى مستشفى وداري ضيافة للحجاج ، وخانات وصهاريج لجمع المياه) (٦٦)

وكان نوموف ، الاسقف الروسي ، قد تابع خلال اقامته في القدس عمل الارسالية الدينية الاولى ، التعليمية والخيرية ، فانشأ مستشفى ومنح المدارس الخاصة الموجودة في بطريركيتي القدس وانطاكية بعض المعونة ، ولكنه احجم عن فتح مدارس جديدة ، مع انه اشترى ارضا قرب بيروت بهدف انشاء مدرسة عربية ـ روسية ، وارسل الهبات للاديرة والكنائس ، وتوصل الى اتفاق مع فرنسة لاصلاح قبة كنيسة القيامة ، وكان ذلك خطوة هامة نحو تهدئة انقسامات حرب القرم (٦٧) . وقد ادى هذا النشاط الى تزايد شكوك الاكليريكية اليونانية بعد ان اخذت اموال الكنائس الروسية تتجه الى ارسالية القدس (الروسية) بدلا من بطريركية القدس (اليونانية) .

وقد ظل نشاط الارسالية الدينية محدودا لعدم وجود تنسيق بينها وبين لجنة فلسطين ، الى ان عين ارشمندرت انتونين كابوشتين Antonin Kapustin رئيسا للارسالية في عام ١٨٦٩ ، ورغم انتقاص صلاحيات ونفوذ الارسالية بعد الحاقها عمليا بلجنة فلسطين التي اصبحت احدى دوائر وزارة الخارجية برئاسة منصوروف(٦٨) ، ورغم استمرار التنافس بين المؤسستين الروسيتين واستمرار الخلاف بينهما وبين البطريركية ، وهي تعقيدات اعاقت الجهد التعاوني لدعم واحياء العقيدة الارثوذكسية ، رغم ذلك فقد شهدت السنوات العشر التي سبقت تفجر الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ نشاطا روسيا ملحوظا في فلسطين ، واعتبر كابوشتين نفسه ممثل روسية الحقيقي لانه كان يتلقى دعما مباشرا من ايجناتيف Ignativ المبعوث الروسي في الاستانة (٦٩) ، بدأ كابوشتين خطة واسعة

لشراء الاراضي في فلسطين من اجل عمليات البناء مستعينا ببعض الرعايا العثمانيين لتسجيل هذه الاراضي وخلال اقامته في القدس استكملت المشتريات خارج اسوار القدس لاقامة المجمع الروسي ، بالاضافة الى قطعة ارض في عين كارم لانشاء المستوطنة الروسية . واخرى في بيت جالا لانشاء مدرسة داخلية للبنات الارثوذكس (وهي اول مدرسة روسية في سورية) ، كما بدأ انشاء دار ضيافة للحجاج على قطعة ارض قرب الخليل ، وتم الحصول على ممتلكات اخرى في يافا والرملة وحيفا والناصرة لانشاء دور ضيافة للحجاج(٧٠) ، هذا بالاضافة الى اقامة كنائس ضخمة منها كنيسة الصعود وبرج الحرس على جبل الزيتون وكنيسة يافا . وأولت الارسالية النشاط التعليمي في بطريركيتي القدس وانطاكية اهمية كبرى ، وبعد ازدياد التباعد والتوتر بين المواطنين والاكليركية اليونانية . ونصاعد الرأي العربي الارثوذكسي الواعي لمشاركة اكبر في شؤون البطريركية(٧١) ، كان عليها ن تحسن وضع رجال الدين من العرب وتهتم بتعليم الاطفال بموافقة او عدم موافقة الاكليركية اليونانية ، مع التركيز على جعل مبادىء الكنيسة الارثوذكسية هي الموضوع الرئيسي للتعليم .

٥ ـ « جمعية فلسطين الامبراطورية » : خطة جديدة للعمل الروسي في الشرق:

لم يكن الاهتمام الروسي المتزايد بالشرق الارثوذكسي بوجه عام وبفلسطين بوجه خاص يوازي النشاطات الكاثوليكية والبروتستنتية ، ولم يرض ولاة الامر انفسهم في روسية بنتائج الاعمال التي انجزت ، وعزي الفشل الى معارضة السلطات العثمانية والاكليركية اليونانية (٧٢) من جهة . والى عدم اتفاق الراي بين الروس انفسهم . وتعدد الاجهزة الروسية وعدم التنسيق بينها . ويلاحظ أن الاهتمام الروسي بالشرق العربي الارثوذكسي لم يثر في روسية ذلك الاهتمام الذي كان يثيره العالم السلافي ، وحتى الاهتمام بالعرب الارثوذكس كان الى حد ما جزءاً من فكرة الجامعة السلافية التي تبحث عن تحرير جميع السلاف الارثوذكس من السيطرة الاجنبية سواء التركية العثمانية أو الكنيسة اليونانية(٧٣) . الا ان من ذهب الى الشرق من دعاة فكرة الوحدة السلافية كان يعود وفي جعبته خطة لدعم الارثوذكسية في المشرق تتلخص بانشاء جمعية خاصة تشيد المدارس والمستشفيات والكنائس وتربط نفسها بقضية العرب الارثوذكس .

وكان من بين الذين درسوا المشكلة على الطبيعة ، وابدوا عدم الرضا عن عمل الاجهزة الروسية في فلسطين ، وعدم قدرتها على كبح النشاط الكاثوليكي والبروتستنتي ، فاسيل خيتروفو Vazili Khitrovo الذي ادرك غايات الحكومة

الروسية ، ولكنه لم يكتف بمظاهرها الضئيلة ، وعليه فقد كانت السياسة الوطنية الروسية في نظر خيتروفو متعلقة بالسياسة الدينية وتابعة لها (٧٤) . قام خيتروفو بزيارات متعددة للاراضي المقدسة ، في وقت كانت روسية قد فقدت بعد مؤتمر برلين ١٨٧٨ مجال نفوذها في البلقان ومكانتها بين الشعوب السلافية ، ونشر دراساته التفصيلية عام ١٨٨٠ في كتاب « الارثوذكسية في الاراضي المقدسة » اعطى فيه صورة عن اوضاع السكان العرب الارثوذكس وعلاقتهم برجال الدين اليونانيين كما اعاد تقييم العمل الروسي ومقارنته بعمل الارساليات الكاثوليكية والبروتستنتية، ودعا الى تحديد مصالح روسية في فلسطين ، والى زيادة مكانتها ونشر نفوذها بين السكان المحليين (٧٦) ولم يختلف تشخيص خيتروفو عن وصف اوسبنسكي أو منصوروف الا انه اقترح انشاء جهاز روسي جديد على شاكلة صندوق استكشاف فلسطين (٧٧) لدراسة الاراضي المقدسة ، ونشر المعلومات عنها في روسية بالاضافة الى رعاية شؤون الحجاج الروس في فلسطين وكل ما يتعلق بالوجود الروسي فيها . ووجد خيتروفو في الدوق الاكبر سرجي Sergei (عم القيصر) ، راعيا وحليفا . وكان الاخير قد ذهب الى الاراضي المقدسة حاجا في عام ١٨٨١ .

وصدرت موافقة وزارة الخارجية على انشاء جمعية فلسطين الارثوذكسية الامبراطورية في ايار ١٨٨٢ (٧٨) برئاسة الدوق سرجي ، ومقرها سان بطرسبرغ ، باعتبارها مؤسسة ذات طابع علمي احساني محض تتمتع برعاية امبراطورية ، ولكنها غير مسؤولة امام وزارة الخارجية او المجمع المقدس ، وفتحت عضوية الجمعية لجمع المهتمين بالاماكن المقدسة على ان يكون اعضاء الشرف فيها من العائلة الامبراطورية ، وانشىء للجمعية فروع في مدن الامبراطورية الروسية (بلغ عددها عام ١٩٠٢ ثلاثة واربعين في جميع انحاء روسية تضم ١٣٠٠ عضو) ، واعتمدت الجمعية في مواردها المالية على التبرعات والهبات وعلى مساعدة المجمع المقدس . وتولى خيتروفو سكرتيرية الجمعية حتى وفاته ١٩٠٣ ، وبأمر من القيصر نقلت الى المؤسسة الجديدة كل مهام وممتلكات « لجنة فلسطين » ، ومنذ عام ١٨٩٥ امتدت اعمال الجمعية الى سائر انحاء سورية مع احتفاظها باسمها الاصلي . وطبقا لنظام الجمعية حددت اغراضها في جمع المعلومات المتعلقة بالاماكن المقدسة في الشرق ودراستها ونشرها في روسية ورعاية الحجاج، وانشاء المدارس والمستشفيات ودور الضيافة ومنح المساعدات المادية للسكان المحليين وللكنائس ولرجال الدين ، ونصت المادة التاسعة من النظام على ان الجمعية سوف تنسق نشاطاتها وفق توجيهات الارسالية والقنصلية الروسيتين في القدس .

ولم تكن هذه الاهداف جديدة سوى في تركيزها على الدراسة العلمية للاراضي

المقدسة ، وكان ذلك بدافع منافســة المؤسسات الكاثوليكية والبروتستنتية واستطاعت الجمعية الروسية مجاراة عمل « صندوق استكشاف فلسطين » باجر. الحفريات الاثرية ، وجالت بعثاتها العلمية في جميع انحاء سورية وفلسطين للكشف عن الاثار المسيحية والبيزنطية ، كما اجرت دراسات عديدة للابنية الاثرية وللمواقع القديمــة وللمخطوطات ، ونشرت خلاصــة اعمالهــا في مجمــوعة بلغــت ثلاثــ وستين مجلدا من المجلدات العلمية الجادة باسم مجموعة فلسطين الارثوذكسيــ Provoslavng Palestinski Sbornik (٧٩) ، وهي تشمل مصادر اولية عر الاراضي المقدسة ومعالمها الدينية خلال فترة الحكم البيزنطي والعهد الاسلامي ، كم تشمل مذكرات الحجاج الروس واليونان والرحالة الذين زاروا المنطقة . مع مقالات حول النشاط الروسي المبكر في المنطقة ، وتعد المجموعة من اكثر المصادر دقة فــي تحليل جوانب النشاط الروسي في الاراضي المقدسة . وبدات الجمعية منذ ١٨٨٥ باصدار دورية لتغطية جميع نشاطاتها بما فيها التقارير السنوية عن ميزانيةالجمعي والاحصاءات الكاملة لاعداد الحجاج ومرضى المستشفيات والطلاب والمــدارس ومقالات عن المشاكل التي كانت تواجهها الجمعية ، وجمعت اعدادالدورية فيمجموع اخرى بعنوان : Soobschchenia Imperatoskogo Provoslavnogo Pakistnkogo وتشكل المجموعتان المصدر الرئيسي لجميع اوجه نشاط روسية القيصرية في سوري ولبنان(٨٠) وقد تم تحت اشراف الجمعية اصدار تقارير واخبار مبسطة ومرفقــة بالصور والايضاحات لنشرها على مستوى شعبي ، بالاضافة الى كتب « مرشدة » للحجاج مع صور وشروح . وكان هدف المطبوعات الشعبية نشر المعلومات الموثقة عن الاراضي المقدسة وحث الاتقياء على التبرع . ولا شك ان عمل الجمعية العلمي كان امرا يدعو للتقدير ، الا انه لم يعرف كثيرا خارج روسية بسبب عائق اللغة .

وقد ابدت الجمعية اهتماما بشؤون الحجاج ورعايتهم واستضافتهم ، وكان عددهم السنوي قد بلغ ٣٠٠٠ زائر عام ١٨٨٠ ، وفي نهاية القرن قارب العدد ٩٠٠٠ . ويعود سبب الزيادة الى جهود الجمعية لدى شركات النقل الحديدية والبخارية لتخفيف اجور النقل(٨١) . وكان وكلاء الجمعية الروس يتولون رعايــة شؤون الحجاج المادية منذ وصولهم الى يافا ، وخلال اقامتهم في فلسطين ، في حين كانت الارسالية الدينية تتولى رعايتهم الروحية . وشملت الرعاية اقامة دور الضيافة ، وتأمين الخدمات الطبية ، ولهذا الغرض اقيم مستشفى في القدس ، ومستوصفات في المدن الاخرى التي توجد فيها دور ضيافة للحجاج ، وشملت الخدمات الطبيــة المجانية الطلاب في المدارس الروسية والمواطنين الارثوذكس(٨٢) .

وجاءت نشاطات الجمعية من اجل « دعم العقيدة الارثوذكسية » مكملــة

لعمل الارسالية الثانية وكانت تشمل بناء عدد من الكنائس وتجديد غيرها (اكنيسة الجثمانية على منحدرات جبل الزيتون) وهي عملية بداها نوموف وازدهرت خلال اقامة كابوشتين وكلاهما كان يتلقى هبات خاصة لشراء الاراضي وانشاء الكنائس والاديرة والمدارس(٨٣) . وبارك البطاركة « اليونان » ما قامت به « الجمعية » لاظهار اهتمامهم بمكانة وهيبة الكنيسة الارثوذكسية .

الا ان مساندة « الجمعية » لمحاولات رجال الدين العرب من اجل التحرر من سيطرة الاكليريكية اليونانية ، لاقى مقاومة اعنف ، ذلك ان شكوك الاخيرة كانت في ازدياد منذ عهد الارسالية الاولى تخوفا من دوافع روسية السياسية ، واستياء من الدعم الروسي المعنوي والمادي للحركة الارثوذكسية في مقاومتها للسيطرة اليونانية وفي سعيها لاستعادة الكنيسة الارثوذكسية صبغتها الوطنية(٨٤) ، وزاد في استياء الاكليريكية اليونانية تناقص دخلها السابق من رعاية الحجاج الروس ، ورفض الروس ارسال الاموال الى المدارس والكنائس من خلال البطريركية ، رغم أن البطريركية ظلت تعتمد على مصادر روسية مادية اخرى .

وفي الواقع لم يكن هدف روسية انشاء كنيسة روسية في سورية وفلسطين خارج الكنيسة المحلية ، او الاستيلاء على البطريركية في القدس وانطاكية ، بل كان هدفها تشجيع محاولات الاغلبية الارثوذكسية العربية للتخلص من الرياسة الروحية اليونانية ، واستبدالها بعناصر وطنية ، وهي حركة كانت دليلا واضحا على شعور قومي متنام . ولم تعد تكتفي بتنازلات طفيفة بل كان هدفها النهائي تعريب كامل للكنيسة . وكان مقدرا لهذه الحركة ان تحدث ان عاجلا او اجلا بسبب جهل وتعسف هذه الرياسة وتخليها عن مسؤوليتها الرعوية ورفضها تقديم اي تنازل يمس بتفوقها وسيطرتها (٨٥) ، وجاءت جهود روسية لتجعل الخلاف بين العرب والاكليريكية اليونانية نزاعا محتما ومحدداً ، وخاصة لدى الجيل الارثوذكسي الناشىء الذي شعر بمرارة الوضع المؤسف للطائفة الارثوذكسية وادرك فساد الهيئة الاكليريكية التي تسيطر عليها ، واستخف برياستها الروحية وطالب باصلاح جذري للاوضاع(٨٦) ومع ان محاولات نزع بطريركية القدس لم يكتب لها النجاح نظرا لعنف المعارضة(٨٧) اليونانية ، فقد تم انتخاب بطريرك يوناني له ميول روسية ، وهو نيكوديموس Nicodemos وكان قبل انتخابه ممثلا عن مجمع القدس في روسية ، وتشير المنشآت الضخمة الروسية من كنائس واديرة ودور ضيافة الى ان البطريرك لم يعد قادرا على الاستغناء عن المساعدة الروسية(٨٨) .

ولم يكن صدفة انه بعد ثلاث سنوات على نشاط جمعية فلسطين الارثوذكسية

الامبراطورية في سورية تم انتخاب رجل دين عربي لبطريركية انطاكية خلفا للبطريرك اليوناني بعد وفاته ١٨٩٩ ، وهو أول عربي يشغل كرسي البطريركية في التاريخ الحديث . وكان النفوذ الروسي وراء هذه الانتخابات (٨٩) واكدت شكوك الاكليريكية اليونانية في خطط روسية ضد التفوق اليوناني في البطريركيات الشرقية . ورغم استقالة الاساقفة اليونان في مجمع البطريركية ورفض البطاركة الثلاثة انتخابه طبقا للاعراف المتبعة ، فقد ادار بطريرك انطاكية العربي (ملاتيوس دوماني) في دمشق اموابرشيته بحرية معتمداً على مساندة جمعية فلسطين والقنصل الروسي . وقد ظل الدعم الروسي للمطالب العربية حتى عام ١٩١٤ وكان عاملا هاما في دفع الحركة الارثوذكسية الوطنية ، الا ان بعض الروس قد اقلقهم الاتجاه العنيف الذي اتخذته الحركة بعد اعلان الدستور العثماني ١٩٠٨ حين تجاوزت المطالب العربية مسألة المشاركة الاوسع في شؤون البطريركية الى استعادة الحقوق القومية التي اغتصبها اليونان(٩٠) . وقد دفع الدعم الروسي للحركة الارثوذكسية الوطنية ، الاكليريكية اليونانية ، للتقرب من ممثلي بريطانية في المنطقة من اجل التدخل لدى الباب العالي لوقف انتشار الروس في سورية — فلسطين(٩١) .

وبسبب معارضة الاكليريكية اليونانية لنشاط جمعية فلسطين في المجال الديني ، انصرفت الى حقل التعليم من اجل تقوية العقيدة الارثوذكسية لدى الناشئين ، وكانت روسية قد طرقت ميدان التعليم في وقت متأخر لمواجهة نشاط الارساليات البروتستنتية والكاثوليكية التربوي ، وبعد ان توجه اكثير من ابناء الطائفة الارثوذكسية الى مدارس تلك الارساليات للاستفادة من الفرص التعليمية التي تقدمها . ويلاحظ انه منذ اربعينات القرن الماضي كانت اعداد مدارس الكنيسة الارثوذكسية الابتدائية في ازدياد في المدن الرئيسية في سورية وفلسطين، كما انتشرت المدارس الارثوذكسية في القرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وجميعها كانت تتلقى مساعدات روسية دون اشراف فعلي(٩٢) ، وتمتعت بموافقةالبطريركية ورعايتها في القدس وانطاكية ، واعتمدت على كوادر محلية ، وخاصة بعضالشبان الارثوذكس الذين ذهبوا الى روسية قبل منتصف القرن للبحث عن الثروة او العلم(٩٣) .

وقد دفع نجاح التجارب السابقة ، وازدياد نشاط الارساليات الاجنبية ، « جمعية فلسطين » الى طرق مجال التعليم ، ولم يقتصر الامر على منح المدارس الارثوذكسية المحلية الدعم المالي بل تجاوزه الى انشاء المدارس الابتدائية التي عمل فيها معلمون روس او معلمون من العرب الارثوذكس تدرب معظمهم في روسية ؛ واستطاعت الجمعية رغم كل العوائق تطوير نظام تعليمي للعرب الارثوذكس بدأ في

فلسطين (وخاصة في منطقة الجليل) ، ثم امتد الى خارج الاراضي المقدسة بعد عام ١٨٩٥ وتولت الجمعيـة تمويل وادارة مدارس بطريركية انطاكية (في دمشق وحمص وحماة وطرابلس واللاذقية) ،وبلغ عدد المدارس الروسية في عام ١٩١٣ ، مايقرب من ١٠٠ مدرسة فيها مايقاب ١٢٫٠٠٠ طالب وطالبة (٩٤) ومعظم تلك المدارس في سورية ولبنان ، اما في فلسطين فلم يتجاوز عددها ٢٥ مدرسة منها اربع في منطقة القدس (٩٥) . وجميع المدارس مجانية ابتدائية عدا مدرستين الاولى مدرسة البنات الداخليـة في بيت جالا ، ومدرسة البنين في الناصرة ، واصحبتا معهدين لتدريب المعلمين والمعلمات . وقد عهد خيتروفو(عقل الجمعية وروحها المحـركة) الى اسكندر كزما .. مدير مدرسة الناصرة للبنين (وهـو دمشقي درس في اكاديمية موسكو اللاهوتية) ، عهد اليه بمهمة الاشراف على المدارس الارثوذكسية ، وكان يتبع مباشرة القنصل العام في بيروت ويساعده مفتشان روسيان الاول مركزه طرابلس للاشراف على مدارس المنطقة الشمالية واخر في دمشق للاشرف على مدارس المنطقة الجنوبية . واعترفت الحكومة العثمانية عام ١٩٠٢ بالمدارس الروسية (٩٦) .

واستطاعت الجمعية ، غم حداثة عهدها في ميدان التعليم ، ان تجاري المؤسسات البروتستنتية والكاثوليكية وان تتفوق عليها في مدرستي تدريب المعلمين،واستمالت ابناء الطائفة الارثوذكسية ، وانسحب كثير من الطلبـة الارثوذكس مـن المدارس الكاثوليكية والبروتستنتية للالتحاق بالمدارس الارثوذكسية الجدبدة (٩٧) ، وشعر الروس بوجه عام بحماس اولياء الامور للتعليم (٩٨) ، وقد شرح احد خريجي المدارس الروسية ، وهو اسعد داغر (٩٩) ، العوامل التي مكنت المدارس الروسية من الانتشار ومنها قدرة ونفوذ« جمعية فلسطينالامبراطورية » نظرا لانها تتمتع برعايةامبراطورية، ومجانية التعليم بالقياس الى الارساليات الانجايكية والكاثوليكية ، وهو أمر مغر للاهالي بارسال أولادهم تخلصا من نفقات التعايم واثمان الكتب . يضاف الى ذلك توفير تربية دينية تقليدية للناشئة تمكنهم من التعرف على اسس المذهب الارثوذكسي ، وهـو الامر الذي كان يوافق ميول السواد الاعظم من ابناء الطائفـة الارثوذكسية الذين كانوا هدفا للجمعيات الاجنبية ، كذلك فقد سنت الجمعية لمدارسها قوانين غاية في الدقة روعيت فيها صحة الطلاب الجسدية ونشاطهم العقلي .

واعترضت تطبيق المشروع الروسي التربوي عدة عقبات اذ لم تكن الجمعية بمواردها المالية قادرة على تلبية الحاجة الفعلية في البطريركية، ولم تستطع انشاء مدارس تدريب في سورية ولبنان ، عدا معهدي الناصرة وبيت جالا ، لتخريج العدد الكافي من المؤهلين لمواجهة حاجات التوسع في المدارس خارج فلسطين ، كذلك لم

تستطع انشاء مدارس ثانوية لاستيعاب الطلاب بعد انتهاء المرحلة الابتدائية ، ولم تضع خطة لانشاء كلية جامعة في بيروت على شاكلة الكلية البروتستنتية واليسوعية(١٠٠). وكذلك فقد عانت مدارس الجمعية من نقص الكوادر العلمية ، ولم يتوفر عدد كاف من المدرسين الروس الراغبين بالعمل خارج بلادهم ، او من المدرسين العرب ذوي الكفاءة . هذا بالاضافة الى اختلاف الغاية من العمل التربوي لدى الجهات الروسية المسؤولة : ففي حين كانت « الجعية تنتظر من اعمالها التربوية نتائج دينية وتهتم بسلامة العقيدة الارثوذكسية وتعليم اللغة الروسية ، كان ارباب السياسة الروسية يرجون منها نتائج سياسية ، ويرون في المدارس الروسية ادوات لنشر النفوذ الروسي(١٠١) . ولم ترق لبعض موظفي وزارة الخارجية الروسية الروح التقليدية التي تبنتها الجمعية في التعليم ، وطالبوا بتغيير وتطوير المناهج بشكل يتلاءم مع تبدل ظروف الحياة . وايد تلك المطالب العديد من اولياء امور الطلاب في سورية فلسطين ، وهدفت تلك المطالب الى ادخال « العلوم المفيدة » واللغتين الانجليزية والفرنسية الى جانب تعليم اللغة الروسية والمواد الدينية ، اعتقادا بان هذا التغيير يساعد على ايجاد فرص عمل افضل (١٠٢) .

وبسبب عجز الجمعية المالي ، قبلت مساعدة وزارة الخارجية واشرافها (١٠٣) وقبلت ان تغير مناهجها التعليمية (١٠٤) . وتقدمت بمنهاج جديد يتم فيه تعليم مواد غير تقليدية والاقلال من الاهتمام باللغة الروسية والمواد الدينية ، مع اختيار احدى اللغتين الانجليزية او الفرنسية . ولم يكن هذا المنهاج مطابقا للاهداف الاولى لجمعية فلسطين الارثوذكسية (١٠٥) ، وكانت الجمعية على وشك الاخذ بالاراء الاصلاحية حين جاءت الحرب ووضعت حدا لنشاطها (١٠٦) .

وبوجه عام ، فانه رغم المشكلات التي واجهت النشاط التربوي الروسي . فقد بذل الروس جهدهم في فلسطين مدة اربع وثلاثين سنة وفي سورية مدة تسع عشرة سنة من اجل خلق تقليد تربوي متين مستخدمين الامكانات المحددة التي توفرت لديهم ، وكان لهذا الجهد عدة نتائج .

اولا : انتشرت المعرفة باللغة والثقافة الروسيتين ، فاللغة الروسية كانت تدرس في مدارس الجمعية(وكان امرا مألوفا لدى جميع المؤسسات التعليمية الاجنبية العاملة في سورية وفلسطين أن تدرس بلغتها الخاصة) . وكانت معرفة اللغة الروسية تتيح للطلاب فرصة متابعة تعليمهم في المدارس الثانوية في الناصرة وبيت جالا ، حيث كانت معرفة اللغة الروسية شرطا اساسيا للانتساب الى هاتين المدرستين ، ومع ان عدد طلاب وطالبات المدرستين لم يكن كبيرا لكنهم ربما كانوا اكثر تأثرا من غيرهم

بالثقافة الروسية ، كذلك كانت معرفة اللغة الروسية تتيح للطلاب المتفوقين فرصة تلقي المنح لمتابعة الدراسة في روسية . وقد اصبح بعض خريجي مدارس الجمعية قادرين على قراءة امهات الادب الروسي باللغة الاصلية ، وترجموا مؤلفات بوشكين وتولستوي وتشيخوف وتورغنيف وغوغول وغوركي الى العربية (١٠٧) ، وانتقل بعضهم الى روسية وساهموا في حركة الاستشراق (١٠٨) وازداد بذلك الاهتمام العربي بالحياة السياسية والادبية الروسية ازديادا ملحوظا .

ثانيا : حرصت «الجمعية» في مدارسها على ان تولي اللغة العربية اهتماما كبيرا واعتمدت في ذلك على خدمات العرب المدربين في روسية ، وعلى من لديهم خبرة في التعليم واتقان للعربية ، ومنذ نهاية القرن التاسع عشر انتجت الطابع عددا من الكتب المدرسية بالعربية في الادب واللغة(١٠٩) ، بالاضافة الى الكتب المترجمة عن الروسية . واصبحت تراثا مشتركا بين المسلمين والمسيحيين ، (وهذا تقليد كانت تتبعه الارساليات الاجنبية الاخرى في المدارس التي ترعاها بالاضافة الى ادبها الديني الخاص) . ومع انه لايوجد دليل مقنع على ان الروس قد استخدموا المدارس لاثارة الوعي القومي العربي ضد الاكليركية اليونانية او ضد السلطات العثمانية ، الا ان المدارس الروسية كان لها تأثير على اليقظة القومية بمعنى اخر هو التزامها بتدرس اللغة العربية والادب العربي ، وخريجو تلك المدارس هم الذين تولوا بعد الحرب تدريس العربية في المدارس وخاصة في منطقة الانتداب (١١٠) البريطاني .

ثالثا : كان من نتائج العمل التربوي الروسي ان خلق شعورا بالود نحو روسية لدى عدد من العرب الارثوذكس وغرس في نفوسهم احتراما لحضارتها .

وقد تجلى هذا الموقف المتعاطف بعد هزيمة روسية في حربها مع اليابان ١٩٠٤ ــ ١٩٠٥ . ومع ان الهزيمة التي الحقتها دولة اسيوية بدولة اوروبية كان لها انعكاساتها في العالم المشرقي بوجه عام ، وفي المشرق العربي بوجه خاص ، لانها ولدت الثقة بامكانية التخلص من السيطرة الاجنبية (١١١) . الا ان العرب الارثوذكس نظروا الى الهزيمة الروسية من زاوية اخرى ، باعتبار ان روسية كانت الحامية الكبرى للارثوذكسية . ولكن تعاطف العرب الارثوذكس مع روسية امتزج بشعور الاعجاب بالنصر الياباني على دولة اوروبية كبرى ، ولم ينف الشعور الاول وجود الشعور الثاني (١١٢) . وحاول بعض الكتاب العرب الارثوذكس في سورية البحث عن اسباب الهزيمة الروسية وعزوها الى الفساد والطغيان ورحبوا بثورة ١٩٠٥ التي رأوا فيها ثورة فرنسية اخرى بعد قرون طويلة من الديكتاتورية والاضطهاد (١١٤) .

وبعد مرور ربع قرن على عمل « الجمعية » في الشرق العربي ، لخصت رسالة النسر الموجهة الى الجمعية بمناسبة الاحتفال بيوبيلها الفضي ، منجزات الجمعية بالارقام المجردة : فممتلكات الجمعية قدرت بمليوني (روبل) ؛ وهي تشمل ثماني دور نسبافة للحجاج فيمراكز مختلفة قادرة على استيعاب عشرة آلاف حاج ، واربع كنائس، ومستشفى في القدس وست مستوصفات في اماكن اخرى ، ومايزيد عن مائة مدرسة تضم حوالي ۱۲٫۰۰۰ طالب وطالبة ، وجميع الممتلكات الروسية هي في فلسطين ؛ عدا المدارس ، فأغلبيتهـا في سورية ولبنان (١١٥) .

وقد اثارت نشاطات الجمعية مخاوف الارساليات الكاثوليكية والبروتستنتية ، واتهم الفرنسيون الجمعية بانها تخطط للاستيلاء على بطريركتي القدس وانطاكية واغراق الاراضي المقدسة بالرهبان والروبلات (١١٦) ، وكتب احد الاباء اليسوعيين في عام ١٨٩٨ (١١٧) « ان موظفي روسيه يعملون عملهم من مدة طويلة ، بين الارثوذكس حتى يمكن ان نعتبر اليوم انهم فازوا بالنصر ، وها ان قيصر روسية كان ان يصبح الها في نظر روم سورية » . وزاد نشاط الجمعية وتوسعها التدريجي في سورية ولبنان من حذر ويقظة الهيئات الدبلوماسية الانجليزية العاملة في الشرق ، واحتوت تقاريرها من القدس ودمشق وبيروت والاستانة تفصيلات ووقائع واحصاءات دقيقة عن عمل الجمعية (١١٨) ؛ ووجد المراقبون الانجليز في الشرق بوجه عام ، ان جهود روسيه لدعم ورعاية الكنيسة الارثوذكسية قد منحها تفوقا سياسيا قد يدفعها للمطالبة بحماية الاماكن المقدسة ، خاصة بعد ان بدأ النفوذ البريطاني بالتراجع (١٩٩) . وخشي هؤلاء المراقبون ان تصبح انجلترة خارج التنافس الروسي الفرنسي فيالمنطقة، بعد ان ازداد عدد المؤسسات الدينية والخيرية والتعليمية الخاصة بالجمعيات الروسية والفرنسية (١٢٠) .

٦ ـ تطورات اخيرة في علاقات روسية القيصرية بالمشرق العربي .

ادت محاولة المانية لاثبات وجودها على البوسفور منذ نهاية القرن التاسع عشر الى احتمال اثاره الصراع على النفوذ في المشرق العثماني بين الدول الاوروبية التي كانت تدعي لها حقوقا تقليدية في المنطقة (١٢١) ، وعارضت روسية مشروع انشاء خط حديد بغداد ، وادعت ان أي امتداد لخط اناضوليا نحو سورية سوف يتعارض مع تطلع روسيه للوصول الى الاسكندرية عبر ارمينيا ، وهو ما يتيح للبضائع الروسية امكانية الوصول طوال السنة الى ميناء على بحر دافىء (١٢٢) . ووقفت انجلترة في وجه المزاحمة الروسية في التجارة والمواصلات بعد ان افتتحت شركةالملاحة

والتجارة الروسية خطا ملاحيا منتظما بين اوديسا وموانى الخليج العربي ، ووصلت (كورنيلوف) اول سفينة للشركة الى البصرة عام ١٩٠١ (١٢٣) .

ولكن ازدياد النفوذ الالماني ، اقتصاديا ودبلوماسيا ، في الدولة العثمانية كان احد العوامل التي ادت الى تغير السياسة التقلبدية للبلدين ، اي انجلترة وروسية ، تجاه بعضهما ، لان هذا النفوذ اعتبر تهديدا لمصالحهما في الشرق ، وتم بذلك عقد الاتفاق الروسي الانجليزي ١٩٠٧ ، ثم جاءت التطورات التالية حين نجحت المانية في جر الدولة العثمانية الى الحرب في تشرين ثاني ١٩١٤ ضد دول الحلفاء واغلقت بذلك طريق امدادهم الرئيسي نحو روسية ، التي اصبحت بالتالي حليفة لانجلترة ضد الدولة العثمانية والمانية معا(١٢٤) . واصبح الوصول الحر الى البحر المتوسط احد العوامل البارزة التي دفعت روسيه لدخول الحرب .

وقد تحققت انجلترة من اهمية المضائق بالنسبة لروسية ووعدت بتقرير مصيرها وفقا لمصالح روسية ويمثل الاتفاق السري في ٤ آذار ـ ١٠ نيسان ١٩١٥ بين دول الحلفاء انقلابا جذريا للسياسة الانجلو فرنسية التقليدية تجاه روسيه فقد قبلتا دعاوي روسية التي قدمها وزير الخارجية سازونوف Sazonov الى السفيرين الانجليزي والفرنسي في روسية وتتلخص هذه الدعاوى بالحاق الاستانه وشواطىء البوسفور والدردنيل وبحر مرمرة (١٢٥) . وقبل وزير الخارجية الروسي بدعاوى فرنسة في سورية بحجة ان ماتدعيه الاخيرة من مصالح تقليدية فيها هي اقوى من مصالح روسية ، الا انه نظرا لارتباطات روسية الروحية بالاماكن المقدسة ، لم يكن سازونوف على استعداد لتسليم الاشراف عليها لفرنسة(١٢٦) . ووسعت اتفاقية سايكس ـ بيكو في ايار ١٩١٦ شروط التفاهم الفرنسي الانجليزي الروسي الذي تم التوصل له ربيع ١٩١٥ ، وقد نصت الاتفاقية على اقتسام المشرق العربي (الاقاليم الاسوية من الدولة العثمانية عدا الجزيرة العربية) بين فرنسة وانجلترة واقامة نظام دولي لمعظم فلسطين (وهو النظام الذي قبلته روسيه) ، وخصت روسيه بالاقاليم التركية من الدولة العثمانية ولم تتمسك بأي جزء من المشرق العربي . وهكذا اوشكت الحكومة القيصرية على الخروج من الحرب بمكتسبات اقليمية في الدولة العثمانية وكادت تحقق اهدافها التقليدية بالاستيلاء على المضائق والوصول الحر الى المتوسط ، وتردد الحديث في روسية عن احتمال القيام بالمراسيم الارثوذكسية في سانتا صوفيا (١٢٧). وكشفت حكومة البولشفيك في بتروغراد الوثائق السرية لاتفاقات الحكومة القيصرية واعلنت تخليها عن كل الدعاوي الاقليمية للحكومة السابقة ، وكان امام الحكومة الجديدة مشاكل اكثر الحاحا من احتلال الاستانة ، كذلك لم تشغلها مسألة الاماكن المقدسة .

وكانت قضايا الشرق ونضال التحرر الوطني لشعوبه قد اثارت اهتمام لينين حتى قبل الثورة (١٢٨) .

خاتمة :

تركزت الاهداف الروسية السياسية لمدة طويلة على الاستانة والمضائق . ولكن منذ اربعينيات القرن التاسع عشر قدمت مناطق الشرق العربي ، وخاصة سورية وفلسطين ، مناسبة امام الدبلوماسية الروسية والكنيسة الارثوذكسية الروسية لارساء نوع من الوجود الروسي الارثوذكسي في الشرق . ولقد اعتقد موجهو السياسة الخارجية في روسيه القيصرية انه بذلك يمكن دعم مكانة روسية كدولة كبرى ، واعتمدوا على الشعور الديني التقليدي لدى الشعب الروسي ، الذي كان يمجدرسالة روسية المسيحية في العالم الارثوذكسي بوجه عام (١٢٩) ، كما ان رجال الكنيسة الروس اعتقدوا ان نشاطهم في سورية وفلسطين يدعم العقيدةالارثوذكسية بين العرب ويوقف التحول نحو الكاثوليكية او البروتستنتية ، ويواجه نشاط الارساليات الاجنبية للطائفتين . وهكذا كان الاهتمام الروسي بالمشرق العربي يمثل الاهتمام بالعقيدة الارثوذكسية من جهة ومن جهة إخرى يمثل المصالح الروسية في شرقي المتوسط (١٣٠) .

وقد ادت محاولة روسية لارساء هذا الوجود الروسي الارثوذكسي الى نتيجتين:
النتيجة الاولى في تأثيرها على العرب الارثوذكس الذين تطلعوا الى روسية وتعلقوا بها باعتبارها الدولة الارثوذكسية الكبرى ، وليس من اجل المساعدة المادية فقط ؛ واقيم نوع من الصلة الروحية والثقافية بين روسيه القيصرية والعرب الارثوذكس ، دون ان يعني ذلك الترحيب او الرغبة بالحماية الروسية . وقد ظل اهتمام روسية بالعرب الارثوذكس احد مظاهر الدبلوماسية الدولية (١٣١) ، ولم تكن على استعداد كدولة كبرى ، لوضع مصالح هؤلاء فوق مصالحها القومية (١٣٢) . كذلك لم يكن اهتمام رجال الكنيسة الروس بالعرب الارثوذكس لكونهم عربا بل بصفتهم ارثوذكس ؛ وحتى اولئك الذين تعاطفوا مع مساعي الكنائس الشرقية للتخلص من سيطرة رجال الدين اليونان لم تكن لهم معرفة كافية بالعرب (١٣٣) .

النتيجة الثانية : انها عززت الى حد ما مكانة روسية في منطقة الشرق العربي ودخلت بذلك اكبر دولة ارثوذكسية في صراع مع الدول الاوروبية الاخرى . ومع ان محاولة روسية لاثبات جودها كانت ضئيلة بالقياس لمحالات الدول الاخرى ،

واقتصرت على النشاط التعليمي ورعاية الحجاج ، وكان ينقصها وحدة الراي والهدف بين الدبلوماسيين ورجال الكنيسة ، وتم الكثير من اعمالها بمبادرات فردية ، فقد أقلق ازدياد النشاط الروسي كلا من فرنسة وانجلترة . واعتبرت روسية منذ اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين منافسا خطرا لهما في سورية وفلسطين . وتوصلت بعض الافتراضات الخاطئة الى ان نشاط الجمعية الامبراطورية هو مقدمة للسيطرة السياسية ، ان لم يكن للاحتلال التام . واتجه الدبلوماسيون الانجليز الى المبالغة حول المغزى السياسي للتحراكات الروسية في المجالين الديني والتعليمي(١٣٤) . الا ان المفاوضات التي تمت بين انجلترة وفرنسة وروسية بعد نشوب الحرب لتوزيع مناطق النفوذ ، او ماسمي بالدعاوي الاقليمية في الدولة العثمانية ، هي دليل واضح على ان المخاوف التي صورت قبل الحرب عن الاطماع الروسية في الشرق العربي كانت مبالغا فيها . واثبتت ان الاهتمام الروسي بالارثوذكسية في سورية وفلسطين لم يترجم الى محاولة « للضم » السياسي ، فقد سمحت روسية لحليفتها بالتصرف بمصير سورية ولبنان ، واكتفت بالنسبة لفلسطين بوضعها تحت ادارة دولية ، وتخلت روسية القيصرية عن حماسها العاطفي للعقيدة الارثوذكسية مقابل تحقيق اغراض سياسة في المضائق والاستانة .



الحواشي :

(١) Tibawi, A. L., Russian Cultural penetration of syria - Palestine in the ninteenth century, royal **Central Asian Journal,** vol. 53, 1966, (part I), P. 166.

(٢) Kliemann, A. S., **soviet Russia and the Middle East,** studies in International affairs, John Hopkins university, 1970, P. 27.

(٣) Spector, I., **The soviet union and the Moslem world, 1917-1956.** washington, university of washington press, N. D., P. 2

(٤) نجيب عزوري ، يقظة الامة العربيـة ، ص٨٢ ـ ص ٨٥ تعريب احمد بو ملحم بيروت ١٩٧٩ عن كتاب ،

Azuri, N., **Le reveil de la nation Arabe,** Paris 1905, N. D., P. 2.

(٥) Kliemann, P. 31.

(٦) كانت الكنيسة الارثوذكسية منذ بداية نشأتها ، وقبل انفصالها عن كنيسة روما في القرن الحادي عشر ، تنقسم الى اربعة بطـريركيات : القسطنطينية ، الاسكندرية ، انطاكية والقـدس ، واعتبرت جميعها مستقلة ومتساوية في المرتبة . الا ان بطريركية القسطنطينية بفضل موقعهاكمركز للامبراطورية البيزنطية ، فاقت غيرها بالسلطة والمكانة ، وكان جميع رجال الدين فيها يونانييـن وقـد دعيـت بالبطريركيـة « المسكونية » أي العـالميـة لانهـا « تملك حـق السيطـرة الدينية والقيادة علـى الثلاث الاخـرى ، وتمتـد سلطتهـا علـى الكنـائس ذات الادارة الذاتية في الصرب واليونان ورومانية وروسية . وتمتد سلطة بطريركية انطاكية على كل سوريـة والعراق (ومقر البطريرك في دمشق) ، وتشرف بطريركية القدس على فلسطين حتى حدودهـا الطبيعية وتتبع مصر باكملها بطريركية الاسكندرية . وينتخب البطاركة من قبل المجامع المحليـة المؤلفة من كبار رجال الدين ووجهاء الابرشية ويثبتون من قبل البطاركة الاخرين ، اما البطريرك المسكوني فينتخب من قبل مجمع القسطنطينية بالاضافة الى البطريركيات الاخرى .
عزوري ، ص ٨٦ ، وايضا مجلة المشرق ، مجلد ١١ ، ١٩٠٨ ص ٢٢٣ مقال الكنيسة الشرقيـة الارثوذكسية للاب فرنيس تورنبيز اليسوعي .

(٧) لن يعالج هذا البحث توسع النفوذ الروسي لدى مسيحيي البلقان الذين تربطهم بسكان روسيه اواصر العرق والدين .

(٨) Tibawi, (Part I) P. 174.

(٨مكرر) الغى بطرس الاكبر فيما بعد البطريركية وجعلها تحت اشراف المجمع المقدس Synod الذي يراسه الوكيل الاعظم يعينه القيصر وبذلك اصبحت الكنيسة احد اجهزة الدولة .

(٩) Hopwood, D., **The Russian Presence in Syria and Palestine, 1843 - 1914 : Church and Politics in the near East,** Oxford 1969 P. 10.

وبذكر نجيب عزوري في كتابه يقظة الامة العربية (المشار اليه سابقا ص ٨٣) ان قدسية روسيه في نظر رجال الدين الارثوذكس كانت في « تجسيدها للارثوذكسية ، الدين الحقيقي الذي يجب ان يهيمن على كل الارض من اجل اتمام نبوءة الانجيل عندما يتحدث عن راع واحد وقطيع واحد والقيصر الابيض ابن الشمس هو القائد المنظور لهذا الدين العالمي » .

(١٠) منح محمد الفاتح ، بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ ، البطريرك المسكوني الرئاسة الدينية والمدنية لطائفة الارثوذكس (الملة) ، واصبح البطريرك المسكوني يتمتع بمركز رسمي في الدولة ، ويمارس سلطة اكبر من زملائه البطاركة في الاقاليم . عزوري ، المصدر السابق ، ص ٨٦

(١١) Hopwood, P. 4

(١٢) عزوري ، ص ٨٧ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٩١ .

(١٤) Hopwood, P. 10.

(١٥) Persen, W., Russian activity in the Middle East before world war I (A research note): Report on corrent research on the Middle East; 1956, Middle East institute, washington, D. C. 1956-8, P. 39.

(١٦) مجلة المشرق ، جزء ٣٣ ، ١٩٣٥ مقال « آخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى » ، ١٨٩٥ — ١٩١٤ استنادا الى وثائق غير منشورة بقلم الكسيس بوكوليوبسكي والاب جبرائيل لوفنك اليسوعي ، ص ٥٧٤ ويذكر المقال انه في رحلة البطريرك مكاريوس ١٦٥٢ — ١٦٥٩ التي نشرت مرارا دليل على ماكانت تتحف به روسية احبار الارثوذكس من هدايا واعانات .

(١٧) Hopwood, P. 5.

(١٨) Ibid, P. 3.

(١٨ مكرر) كانت ابرشيات انطاكية والقدس ، سواء كانت مطرانيات او اسقفيات ، تضم في منتصف القرن التاسع عشر مايزيد عن ٣٠٠,٠٠٠ من العرب الارثوذكس ، واكبر تجمع لهم في القدس والقرى التي حولها. وكان كبار رجال الدين في ابرشيات البطريركتين من اصل يوناني يجهلون اللغة العربية، ولايبذلون جهدا لتعلمها ، وقد ابعد رجال الدين العرب عن الاعمال الهامة وكلفوا باعمال ثانوية ، بينما اقتصرت المهام المربحة والفخرية على رجال الدين اليونان ، وجمعوا ثروات طائلة بينما رزحت الابرشيات تحت الديون . عزوري ص ٨٩ .

(١٩) Hopwood P. 13.

(٢٠) عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٣٠٨ ، ٣٥٦ .

(٢١) Persen, W., The Russian Occupation of Beirut 1772 - 1774, **Royal Central Asian Journal**. July - Oct. 1955, P. 283.

(٢٢) يذكر المؤلف ان العلم الروسي رفع خلال تلك الفترة ببيروت ، كما علقت صورة الامبراطورة كاترين على بوابة المدينة الرئيسية ، وأجبر المارة على تقديم فروض الاحترام لها .
Tibawi, (Part I) P. 167.

(٢٣) Spector, P. 4
وفقا للسياسة الجديدة التي وضعها وزير الخارجية الروسي نسلرود Nesselrode تخلت روسية مرحليا عن هدف احتلال الاستانة واخراج الاتراك العثمانيين من اوروبة . وذلك لابقاء الدولة العثمانية « جارة ضعيفة تابعة » .

(٢٤) Kedourie , E., Religion and Politics : The Diaries of Khalil sakakini, st, Antony's Papers, No.4, Middle Eastern Affairs, Oxford 1958, P. 80.

(٢٥) Stavrou, T. G., Russian interest in the levant 1843-1848, Porfirri Uspenskii and establishment of the first Russian ecclesiastical Mission in Jerusalem, Middle East Journal 1963, Vol. 17, P. 91.

(٢٦) كانت انجلترة اول دولة اوروبية تنجح في تأسيس قنصلية في القدس ١٨٣٨ وتنشط لحماية اليهود

(٢٧) شغل بازيلي منصب القنصل العام حتى ١٨٥٣ ووضع كتابه (سورية وفلسطين تحت الحكم التركي تاريخيا وسياسيا) في عام ١٨٦٢ وقدم فيه وصفا لتاريخ وثقافة البلدين واطلع غوغول خلال اقامته في بيروت ضيفا على صديقه بازيلي على مخطوط الكتاب وكتب عنه بان « الكتاب سيعرض على اوربة الشرق بشكله الحقيقي ، معارف نادرة واهتمام شديد : بونداريفسكي ، سياستان ازاء العالم العربي ، مترجم ، ص ٣٦٤

(٢٨) Stavrou, P. 91

(٢٩) Tibawi (Part I) PP. 167 - 68

(٣٠) Stavrou, P. 96.

(٣١) Ibid, P. 97.

(٣٢) Tibawi, (Part I). PP. 168 - 69.
نقلا عن رسالتين من القنصل يونغ الى لورد بالمرستون بتاريخ ١٨٣٩/٣/١٤ و ١٨٣٩/١٠/٢١ . F. O. 78/368. ورسالة اخرى بتاريخ ١٨٤٠/١/٢٩ برقم F. O. 78/413

(٣٣) في عام ١٨٤٠ جاء بازيلي نفسه للاحتفال بعيد الفصح في القدس . وكان في مقدمة الحجاج العديد من الجنود السابقين يرتدون البستهم الرسمية واوسمتهم ، ساروا عبر الشوارع الضيقة في مدينة القدس نحو كنيسة القيامة . ويدعي القنصل البريطاني في رسالة له الى بالمرستون في ١٨٤٠/٤/٢٨ F.O.78/413 انه سمع بعض الحجاج وهم يفاخرون بان الوقت قد حان لتقع الاراضي المقدسة بيد الحكومة الروسية . Ibid, (Part I), P. 169

(٣٤) حذت روسية حذو الدول الاوربية الاخرى لتوثيق معرفتها بكل ما يتعلق بالشرق العربي من علم وحضارة ولغة ، واخذت حركة الاستشراق نهجا علميا على اثر تطبيق النظام الجامعي ١٨٠٤ وادراج اللغات السامية ومنها العربية في مناهج المعاهد العليا وكانت جامعة خاركوف هي اول جامعة اخذت في تطبيق النظام الجامعي بتدريس العربية منذ اربعينات القرن الماضي . وقد عاون على تدريس اللغة العربية في معاهد روسية بعض العرب ، كان اولهم الشيخ محمد عياد الطنطاوي ١٨١٠ – ١٨٦١ الذي استدعاه القيصر ١٨٤٠ للتعليم في مدرسة الالسن التابعة لوزارة الخارجية انظر نجيب العقيقي ، المستشرقون ، الجزء الثالث دار المعارف القاهرة سنة ١٩٦٩ ص ، ٩١٥ وما بعدها .

(٣٥) المصدر السابق ص ٩٢١ .

(٣٦) مجلة المقتبس مجلد ٧ ، جزء ٢ ، ص ١٦٢ مقال اوروبة في سورية بقلم (وطني) .

(٣٧) مجلة المشرق جزء ٢٠ ، ١٩٢٢ ص ٨٧١ مقال الارثوذكسية والانغليكانية .

(٣٨) توقفت البطريركية عن الوجود الفعلي ١٢٩١ أي منذ سقوط عكا اخر معقل صليبي .
Tibawi, Part I. P. 187

(٣٩) Stavrou, P. 97

(٤٠) منذ ان احدثت بطريركية القدس في القرن الرابع كان البطريرك ينتخب من بين افراد اخوية القبر المقدس وهي طريقة رهبانية من رجال الدين اليونان يتولون الاشراف على خدمات القبر المقدس ورعاية الحجاج ، وكان البطريرك ينتخب منها بغض النظر عن جنسه ، وبعد الفتح العربي اصبحت القاعدة انتخاب بطاركة من العرب وفي العهد العثماني منح بطريرك الاستانة المسؤولية على بطريركية القدس وجرت العادة بان يعين بطريرك يوناني للقدس تكون اقامته في مجمع البطريرك المسكوني ، ونادرا ما شاهدته القدس في بطريركيتها . Kedourie, P. 81

(٤١) Kedourie, P. 83

(٤٢) Tibawi, Prt 1, P. 170.

(٤٣) Ibid, P. 171

(٤٤) Hopwood, P., the resurrection of our Eastem brethren (Ignatev); Russian and Orthodox arab nationalism in Jerusalem in Ma'oz M., Studies on Palestine during the ottoman Period, Jerusalem 1975, PP. 399-400.

(٤٥) مجلة الهلال ج ٧ مجلد ٢٢ ، ١٩١٤ جرجي زيدان ، فلسطين تاريخها وآثارها وسائر احوالها الاجتماعية والاقتصادية والعلمية من رحلة الى البلاد ، ص ٥١٥

(٤٦) Stavrou, P. 100.

(٤٧) مجلة المقتبس مقال اوروبة في سورية ، مصدر سابق ، ص ١٩٦ .

(٤٨) خلال جولة اوسبنسكي ١٨٤٤ جرت بعض التطورات التي اثارت استياء روسية بطريقة غير مباشرة وتمثلت في محاولات الارساليات الامريكية والانجليزية تحويل الارثوذكس تدريجيا نحو البروتستنتية وقد عمدت الارسالية الامريكية في بيروت (برئاسة ايلي سميث) تحويل جماعة من الارثوذكس من سكان حاصبيا جنوب لبنان الى البروتستنتية ومنع المتوحولين نوعا من الحماية من القنصلية البريطانية في دمشق و بيروت وكذلك قام الاسقف الانغليكاني في القدس (صموئل غوبات) بنقل جهوده الارسالية من اليهود الى الارثوذكس

Tibowi, A. L., American interest in syria 1800-1901- history of educational literary and religions work (claredon Press, oxford 1966) P.108 f.

Tibowi, Russian cultural Penetration, Ibid. P. 172

(٤٩) نقلا عن رسالة من وزير الخارجية Aberdeen الى القنصل العام في بيروت Hugh-Rose بتاريخ ١٨٤٤/٩/١٩ برقم F.O. 78/575.

(٥٠) اسد رستم ، كنيسة مدينة الله انيتوخس الثالث العظيم، بيروت دون تاريخ ، ص ١٩١ – ١٩٢ وردت في المقال المشار اليه سابقا

Tibowi, **Russian Cultural Penetration,** P. 168 .

(٥١) Stavrou, P. 104

(٥٢) نقلا عن التقارير القنصلية البريطانية في القدس ، Tibawi, Ibid, P. 174.

(٥٣) Stavrou, P. 101

(٥٤) Tibawi, **Ibid.** P. 173.

(٥٥) Kadourie, PP. 82 - 83

(٥٦) Stavrou, P. 104.

ورد في مذكرات اوسبنسكي قوله « لقد وجدالله مناسبا ان يجعل مني رائدا للتعليم الروحي لشعبين اورثوذكسيين هما العرب والبلغار » .

(٥٧) عزوري ص ٨٦

(٥٨) Hopwood, **The Russian Presence... Ibid,** P. 51

(٥٩) Tibawi, **Russian cultural Penetration...**, part I. P. 174

(٦٠) Hopwood, **Ibid,** P. 53

(٦١) Tibawi, Ibid, P. 175

نقلا عن رسالة من سان بطرسبرغ ١٨٥٨/٣/١٣ من السفير Wodehowe الى وزير الخارجية Malmesbury رقم F.O./65/516 ينقل فيها ترجمة لمقتطفات من تقرير الدوق عن ادارة الاسطول الروسي

(٦٢) Hopwood, Ibid, P. 58

(٦٣) Hopwood, Ibid, P. 68

(٦٤) Loc cit.

(٦٥) Tibawi, Ibid, P. 176

(٦٦) نقلا عن تقرير القنصل البريطاني ١ يناير ١٨٦١ (فن) Finn الى اللورد روسل Russel برقم F.O. 78/588 بان التكاليف المقدرة للمشروع هو مليون جنيه استرليني Ibid; P. 177

(٦٧) Hopwood, Ibid, P. 55

(٦٨) Tibawi, Ibid P. 177

(٦٩) Hopwood, The Resurrection of our Eastern Brethren, Ibid, P. 401.

(٧٠) Tibawi, Ibid P. 178

حتى عام ١٨٧٢ كان انتونين قد اشترى ١٣ موقعا في فلسطين .

(٧١) تصاعد الخلاف بين العرب الارثوذكس والاكليريكية اليونانية بعد عزل المجمع المقدس البطريرك سيريل الذي كان يؤيده العرب ويدعمه الروس ١٨٧٢ ، وينعيين بطريرك جديد (بروكوبيوس Prokopios زاد الاستياء العربي واصبح الموقف العربي مهددا ،حتى استجابت الاستانة للمطالب العربية بوضع دستور جديد للبطريركية يعد بمنح العرب دورا اكبر في انتخاب البطريرك ، مع ذلك فقد استمر الاستياء العربي ودعم ا لقنصل الروسي الاحتجاج العربي الا ان ابجناتيف (الممثل الروسي في الاستانة) احجم عن دعم المطالب العربية المتطرفة
Hopwood, Ibid PP. 401 - 404

(٧٢) المشرق ، مقال ، آخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى ، مصدر سابق ، ص ٥٧٥

(٧٣) دعاة الجامعة السلافية في اوساط المجمع والحكومة في روسية هم الذين نادوا باستخدام الشعور القومي والديني لدى الشعوب السلافية الاخرى من اجل تحريرها واعتبروا ذلك حجر الزاوية لاستيلاء روسية نهائيا على الاستانة وبالتالي تجزئة الدولة العثمانية . وقد عبر دوستوفسكي عن هذه المشاعر في مقال له نشر في اذار ١٨٧٧ تحت عنوان « مرة اخرى حول موضوع الاستانة ، عاجلا او اجلا يجب ان تكون لنا » لخص فيه الدوافع الكامنة وراء التوسع الروسي باتجاه الاستانة ، فحكام روسية بالاضافة الى الاعتبارات الاستراتيجية والاقتصادية يصمدون التوسع الروسي ، ينظر دوستوفسكي ، الى ما يشبه « الرسالة » لتحقيق وحدة الارثوذكسية المسيحية ، ولم تكن الاستانة الا رمزا للتطلع نحو الاراضي المقدسة .

(٧٤) المشرق ، مقال « اخر مظهر لسياسة روسيةالدينية في الشرق الادنى » ، مصدر سابق ص ٥٧٥

(٧٥) عزوري ص ٨٦

(٧٦) Kedourie, P. 84

(٧٧) هي جمعية انجليزية اسست ١٨٦٥ باسم Palestine Exploration fund. تحت رعاية الملكة بغرض ظاهري هو الدراسة العلمية للاراضي المقدسة وكانت تخفي وراءها اطماعا سياسية .

(٧٨) في ذلك العام قامت الحكومة الروسية بالاحتجاج على الاحتلال البريطاني بمصر نظرا لان الوجود البريطاني يهدد طريقها عبر القناة نحو الشرق الاقصى ويعيق صلاتها الاقتصادية بالمشرق العربي . Hopwood, Russian Presence..., P. 96

(٧٩) Persen, P. 39

(٨٠) Ibid, P. 40

وتتوفر بعض اعداد المجموعتين في المجمع الروسي القديم في القدس (المسكوبية) وهو في الجانب المحتل من المدينة

(٨١) Tibawi, Ibid, P. 180.

(٨٢) مجلة المقتبس ، مقال « اوروبة في سورية » ص ١٦٧

(٨٣) اميل الغوري ، فلسطين عبر ستين عاما ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٤

(٨٤) Tibawi, Ibid, 184.

(٨٥) Kedourie, P. 84

(٨٦) تبدو وجهة نظر هذا الجيل في مذكرات خليل السكاكيني (كذا انا يادنيا) القدس ١٩٥٦ . ولم تقتصر ثورته على رجال الدين بل على الطقوس والتقاليد البالية . Kedourie, P. 86

(٨٧) في عام ١٨٩٣ كتب سليم شحادة (ترجمان القنصلية الروسية في بيروت ومدير المدرسة الروسية فيها كتابه « لمحة تاريخية في اخوية القبر المقدس اليونانية » وهو محاولة جريئة لاثبات ان بطريركية القدس لها طابع عربي ، وقد نشر الكتاب بتشجيع روسي ومنعت البطريركية تداوله.
Hopwood, The Resurrection..., Ibid, P. 404

(٨٨) Tibawi, Ibid, P. 311.

(٨٩) في مقال مجلة المشرق « آخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى (المشار له سابقا) ص ٥٨٣ الى انه خلال ازمة البطريركية ١٨٩٨/١٨٩٩ كانت السفارة الروسية لدى الباب العالي تعضد حق الطائفة الارثوذكسية الوطنية في سورية وتضع تحت تصرف قنصل دمشق مبالغ كبيرة في سبيل مساعدة المطارنة الوطنيين في ذلك الانتخاب ، تقوم بذلك لحساب جمعية فلسطين ويشير المقال نفسه ، ص ٥٧٦ ــ ٥٧٧ الى ان الجمعية قامت بمنح ناظم باشا والي دمشق وسام النسر الابيض عام ١٩٠٠ ويتساءل « هل من علاقة بين هذا الوسام الكبير الممنوح الى والي دمشق ونجاح السياسة الروسية في انتخاب بطريرك عربي الاصل في ١٨٩٩) .

(٩٠) اميل الغوري ، ص ١٥ . بعد اعلان الدستور ، وجد ابناء الطائفة الارثوذكسية في بطريركيةالقدس فرصة لاستئناف النشاط والتشدد في وجوبتحقيق المطالب العربية ، وقدم البطريرك بعض التنازلات الا ان اخوية القبر المقدس قامتبعزله ، وادى ذلك الى قيام ابناء الطائفة بمظاهرات عنيفة ضد الاجانب واحتلوا دار البطريركيةوالكنائس والاديرة وفرضوا عليها اللغة العربية، ووجدت الحركة الارثوذكسية العربية تاييدا صادقا من المسلمين في القدس والاستانة باعتبارها حركة وطنية ، واضطرت السلطات العثمانية ا لى ايفاد لجنة تحقيق واعيد البطريرك ووعد بانشاء مجلس مختلط .

(٩١) شكا احد رجال الدين اليونان الى القنصل البريطاني في القدس منا لتاثير الروسي فيفلسطين قائلا بان « نهاية ذلك هو استبعاد الطبقةالدينية اليونانية حراس الاماكن المقدسة واصحاب الحق فيها واستبدال منافسيهم بهم » .
نقلا عن رسالة القنصل البريطاني مور Moore الى السفير في الاستانة White بتاريخ ١٨١٩/٤/٣ رقم F.O./195/1648 وقد وجد ممثل السفارة البريطانية في الاستانة اذار ١٨٩٩ لدى مراجعة الباب العالي ان « الضغط الروسي كان قويا الى حد يصعبمقاومته» من رسالة السفير اوكونور O'conor الىوزير الخارجية سالسبري Salisbury رقم F. O. 78/4992 Tibawi, Ibid, P. 311

(٩٢) Tibawi, Ibid, P. 181
مثال ذلك جهود كابوشتين في مجال تعليم البنات في بيت جالا .

(٩٣) من بين هؤلاء سليم نوفل وهو من دمشق وكانترجمان الارسالية الروسية الاول ١٨٤٨ وبتوجيه من بطريرك انطاكية اصبح مدرس العربية في سان بطرسبرغ ، ثم عين في وزارة الخارجية الروسية بعد حصوله على الجنسية الروسية.فيليب حتى ، تاريخ دراسة المشرقيات في اوروبة الهلال ، مجلد ٣٣ ، ١٩٢٤ - ١٩٢٥ ، ص ٤٠٨

(٩٤) مجلة المشرق مقال « اخر مظهر لسياسةروسيةالدينية في الشرق الادنى » ، (مصدر سابق) ص ٥٧٦

(٩٥) تعزى قلة عدد المدارس في فلسطين الى معارضة الاكليريكية اليونانية ، والى ان البطريركية في القدس قد سعت الى تلبية الحاجات المحلية في مجال التعليم لمواجهة النشاط الروسي .

(٩٦) مجلة المشرق . مقال « اخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى » ص ٥٧٦ -٥١٧

(٩٧) Tibawi, Ibid, P. 315
وفي حوار جرى بين مديرة مدرسة البنات الروسية في الناصرة وبين مدير المدرسة الكاثوليكية قالت : « حين لم تكن مدرستنا موجودة اينكان اطفالنا الارثوذكس ؟ الم يكونوا في مدرستك ؟ » .

(٩٨) يصف ميخائيل نعيمة في مذكراته التي كتبها بعد خمسين عاما (سبعون ، بيروت ١٩٦٢) الترحيب بافتتاح المدرسة الروسية في قريةبسكنتا ، وكان نعيمة قد درس فيها ثم انتقل الى مدرسة الناصرة وتابع دراسته في روسيا ، في المدرسة اللاهوتية في بولتافا - اوكرانيا بين ١٩٠٦ - ١٩١١ قبل ان يهاجر الى امريكا .

(٩٩) المقتطف ، اكتوبر ١٩٠١ ، ص ٩٠١ – ٩٠٤ .

(١٠٠) Tibawi, Ibid, Part II, P. 318

(١٠١) المشرق ، مقال « اخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى » (مصدر سابق) ص ٥٧٦

(١٠٢) المصدر نفسه ص ٥٧٧ ، ص ٥٨١ .

(١٠٣) ادى توسع اعمال الجمعية الامبراطورية الى ازدياد تبعاتها المالية ، ففي عام ١٨٨٥ – ١٨٨٦ حين كانت النشاطات لازالت مقتصرة على فلسطين ، انفقت الجمعية ١٣٥٠٠٠ روبل من اجل « دعم الارثوذكسية ووصل هذا المبلغ ٦٥٠٠٠٠ روبل عام ١٨٩٥ – ١٨٩٦ حين بدأ توسيع النشاط في سورية ولبنان . وفي مطلع القرن العشرين عانت الجمعية من تناقص دخلها بسبب عدة ظروف اولها وفاة سكرتيرها الفعال خيتروفو ، تم اغتيال رئيسها الدوق سرجي خلال ثورة ١٩٠٥ ، والاحداث الداخلية التي اعقبت هزيمة الحرب مع اليابان وثورة ١٩٠٥ ، وقد قدم القيصر قروضا طويلة الاجل للحفاظ على مهام الجمعية وخاصة التعليمية ، كما اخذت الجمعية تعتمد على دعم مالي حكومي منتظم ، المقتبس ، مقال اوروبة في سورية ص ١٦٨ .

(١٠٤) المشرق ، مقال « اخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى » (مصدر سابق) ص ٥٨٣ ينقل كاتب المقال تقريرا بعث به القنصل الروسي في دمشق الامير شاكوفسكي الى السفير الروسي في الاستانة في ١٩٠٩/١٢/١٨ يوجه فيه نقدا لنظريات « الجمعية » في التعليم ، ويعزو اسباب الازمة التي تواجهها المدارس الروسية الى « الجمود مدة ٢٥ سنة في عصر كل ما فيه تتحرك وتتحرك بسرعة » .

(١٠٥) كان اكبر مثال على التغيرات التي ادخلت في مناهج التعليم ماحدث في مدرسة الناصرة البنين، فقد غدت مناهجها تحتوي ، بالاضافة الى التعليم الديني واللغة العربية واليونانية والروسية والتركية الرياضيات والتاريخ والجغرافيا والغناء والموسيقى والتدريب المهني والعلوم واللغتين الانجليزية والفرنسية ، دريك هوبود ،« المجهود التعليمي الروسي في سورية من عام ١٩١٤؟» بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، ١١/٢٧ – ١٩٧٨/١٢/٣ .

(١٠٦) بنشوب الحرب توقفت الامدادات المالية عن الجمعية ووضعت جميع مؤسساتها ومدارسها تحت اشراف عثماني ، وامرت السلطات العثمانية جميع الروس بالعودة الى مجمع القدس وسمح للقناصل والرهبان بالمغادرة ، وطبعت الجمعية اخر تقرير لها ١٩١٦ وتلاشت جميع مشاريع الجمعية بتلاشي روسية الارثوذكسية القيصرية .

(١٠٧) بوندار يفسكي ، ص ٦٦ ٢

(١٠٨) من بين هؤلاء ، سليم نوفل ١٨٢٨ – ١٩٠٢ (اشير اليه سابقا) وميخائيل يوسف عطايا ١٨٥٢ – ١٩٢٤ وهو من دمشق وعلم العربية في كلية لازاريف وشارك في ترجمة منتخبات مدرسية في الادب العربي وله معجم عربي روسي ، وبندلي جوزي ١٨٧١ – ١٩٤٢ من القدس وتخصص في قازان باللغات السامية والدراسات الشرقية وتولى التدريس في معهد الرهبان ثم في جامعة قازان ثم في باكو وعده المستشرقون الروس من مراجعهم ، ومن مؤلفاته تعليم اللغة الروسية لاولاد العرب ،

وتاج العروس في معرفة لغة الروس . وكلثوم عوده التي كانت مدرسة في المدرسة الروسية في الناصرة وذهبت الى روسيا في عام ١٩١٤ ومنعتها ظروف الحرب من العودة وعملت في روسيا مع كراتشكوفسكي في دفع حركة الاستشراق الروسي . العقيقي ، المستشرقون ، مصدر سابق ، الجزء الثالث ، ص ٩١٥ وما بعدها

(١٠٩) من بين مؤلفي الكتب المدرسية كان خليل بيدس مفتش المدارس الارثوذكسية التابعةلجمعية فلسطين في حمص .

(١١٠) Tibawi, Ibid. P. 317

(١١١) كان اوضح تعبير عن هذا الاعجاب كتاب مصطفى كامل الشمس المشرقة مقدرا جهود اليابان كبلد شرقي للتخلص من تهديد فرضه العالم الغربي ، كما ان الشاعر حافظ ابراهيم استخلص الدرس نفسه من هذه الحرب .

(١١٢) Hopwood, The Russian..., Ibid, PP. 125 - 127

(١١٣) من هؤلاء يعقوب صروف ، اسد رستم ، فارس الخوري ، خليل سعاده .

(١١٤) الف الكاتب الشهير امين الريحاني ملحمته المعروفة « الثورة » بتاثير من الثورة الروسية ١٩٠٥ ، بوندارفسكي ص ٢٦٦

(١١٥) Tibawi, Ibid, P. 320

(١١٦) Hopwood, Ibid, P. 121

(١١٧) هو الاب جوزيف برنيه اليسوعي وكانمتصلا بارثوذكس حمص وعكار . المشرق مقال اخر مظهر لسياسة روسية الدينية (مصدر سابق)ص ٥٨٤

(١١٨) Tibawi, Ibid, P. 319

(١١٩) رسالة السفير البريطاني في الاستانه Salisbury ١٨٩٨/١٢/٣ برقم F.O./78/4920

(١٢٠) Tibawi, Ibid, P. 312

(١٢١) Spector, P. 10

(١٢٢) حول قضية سكة حديد بغداد وذيولها : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٩٦ — ص ٢٠٠

(١٢٣) موندار يفسكي ، ص ٢٦٦

(١٢٤) Ibid, P. 11

(١٢٥) Kliemann, P. 33

(١٢٦) Hopwood, **Ibid**, P. 133

(١٢٧) **Ibid**, P. 134

(١٢٨) بونداريفسكي ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩ وفي كتاب لينين « الامبريالية اعلى مراحل الاستعمار » جمع كل الحقائق عن المحاولات الانجليزية والالمانية والفرنسية للاستيلاء على الاراضي العربية وكشف عن خصائص السياسة الاستعمارية ،

(١٢٩) Stavrou, P. 91

(١٣٠) Persen, P. 39

(١٣١) Hopwood, **Ibid**, P. 217

(١٣٢) **Ibid**, P. 109

(١٣٣) **Ibid**, P. 100

(١٣٤) Tibawi, **Ibid**, P. 323



الأمير حسين بن فخر الدين المعني
حياته وآثاره

د. محمد عدنان البخيت
الجامعة الاردنية ـ قسم التاريخ

يلاحظ الدارس لتاريخ بلاد الشام في مطلع القرن السابع عشر الميلادي ظاهرتين متمازجتين . الاولى تتمثل بظهور القوى المحلية والموزعة في الارياف والبادية مابين جناحين متخاصمين : الجناح القيسي الذي كان بداءة بزعامة الاسرة الغزاوية في لواء عجلون ثم تحولت هذه الزعامة الى الاسرة المعنية الدرزية في الشوف ، والجناح الثاني الذي يعرف باليمنية بزعامة آل سيفا في منطقة عكار وطرابلس الشام ، تلك الاسرة التركمانية الاصل السنية المذهب ، التي عرفت بولائها المستمر للدولة العثمانية

اما الظاهرة الثانية التي تستلفت نظر الدارس فتمثلت بتفسخ القوة العسكرية النظامية العثمانية ، الموزعة في مختلف القلاع والابراج والحصون في بلاد الشام . ونتيجة لانعدام الضبط والربط ، وللظروف الاقتصادية المتردية التي تركت آثارها على افراد تلك القوة ، فان بعض عناصرها بدأ بالهروب من الخدمة النظامية والالتحاق بقوى الحركة الجلالية الخارجة على الدولة العثمانية في بلاد الاناضول ، أو الانضمام الى زعامات الاسر المحلية لتخدم لديها بصفة مرتزقة . زيادة على ذلك ، فان الغالبية العظمى من العناصر التي لم تهرب ، انقسمت على نفسها الى فئات متناحرة ، رأى قسم منها ان يناصر الجناح اليميني ، وآثرت الفئات الاخرى ان تأخذ عى عاتقها الالتزام بالجناح القيسي .

وبالرغم من تلك الظروف السيئة المليئة بالتفسخ والعداء بين جميع القوى ، سواء العسكرية أو المحلية ، كما ذكرنا آنفا ، الا ان عدداً من المصاهرات قد تمت بين الاسرتين المتنازعتين ، الاسرة المعنية والاسرة السيفية ، وذلك في مطلع القرن السابع عشر الميلادي . ومع أن الهدف من وراء تلك المصاهرات كان سياسيا ، الا انها على ما يظهر لم تنجح في تحقيق الغاية من وراءها وهي تحسين العلاقات بينهما . فهذا زعيم الاسرة المعنية وكبيرها ـ الامير فخر الدين ـ يعقد قرانه على ابنة الامير علي بن سيفا شقيق يوسف باشا سيفا . ويثمر هذا الزواج ولدين : الاول الامير

حسين الذي ولد ، كما يذكر المؤرخ احمد بن محمد الصفدي (ت ١٠٣٤ هـ/١٦٢٤ م) في الرابع عشر من شهر ذي الحجة ختام سنة ١٠٣٠ هـ/٢٩ تشرين الاول ١٦٢١ م ، والثاني شقيقه حسن الذي كان ميلاده في ليلة السادس من شهر ربيع الثاني سنة ١٠٣٣ هـ / ٢٦ كانون الثاني ١٦٢٤ م(١) .

كان الامير فخر الدين يحاول الحصول على مناصب رفيعة لابنه الامير حسين وهو مازال طفلا في المهد . فلم يترك فرصة لتقديمه الى المسؤولين العثمانيين الا واغتنمها(٢) . وقد اثمرت هذه الجهود وعادت على الامير حسين بالنفع الذي كان يرجوه له أبوه ، ففي سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م مر ببيروت خليل باشا(٣) (ت ١٠٣٩ ـ٤٠ هـ/١٦٢٩ ـ ٣٠ م) قائد الاسطول العثماني آنذاك « فأرسل اليه فخر الدين ولده الامير حسين وكان عمره آنذاك أقل من سنة .. وخلع عليه الوزير خليل باشا واعطاه عرضا بسنجقية عجلون وقدم اليه خدمة العرض الف غرش »(٤) . ان فخر الدين ، بلا شك ، كان يسعى في الحصول على هذا اللواء لابنه الطفل ، لتصفية الاسرة الغزاوية زعيمة الجناح القيسي لتؤول هذه الزعامة اليه .

في هذه الاثناء ورد أمر الى والي الشام باناطة سنجق عجلون بالامير احمد بن حمدان الغزاوي . ولكن الوالي الذي كان ، على الارجح ، متواطئا مع فخر الدين ماطل بتنفيذ هذا الامر ، بحجة قرب خروج قافلة الحج الشريف الى مكة المكرمة ، وان الامير احمد لن يتمكن من توفير الحماية الكافية لها ضد اية محاولة محتملة لهجوم القبائل البدوية عليها وهي في طريقها الى مكة المكرمة .

لقد استطاع الوالي بمماطلته تلك ان يكسب عنصر الزمن للامير فخر الدين ، ففي أثناء ذلك ارسل فخر الدين احد مماليكه ، المعروف باسم محمد اغا أبو شاهين، الى الحاج درويش واكيل فخر الدين « الذي أوقفه في الباب العالي لقضاء مصالحه يستعجله في الحصول على هذا الحكم ، وذلك بتقرير السنجق الى الامير حسين»(٥).

وتكللت جهود الحاج درويش بالنجاح . ففي شهر ذي الحجة ١٠٣١ هـ/ تشرين أول ١٦٢٢ م ، وصل محمد اغا أبو شاهين من الباب العالي يحمل معه حكما شريفا وخلعا سنية بسنجقية عجلون للامير حسين . ومن الطريف بالذكر ان الامير احمد الغزاوي قصد عون الامير فخر الدين ليسانده لدى العثمانيين من أجل الحصول على سنجق عجلون ، فاذا بالامير فخر الدين يفاجئه بأمر اناطة هذا السنجق بابنه الطفل حسين . « وكان جواب الامير احمد السمع والطاعة لله ولرسوله ولولي الامر ... وقال أنا أولا وآخرا منك واليك وبسنجق وبغير سنجق محسوب عليك »(٦) .

لقد تكلف الامير فخر الدين في الحصول على حكم السنجق للامير حسين مبلغ عشرة آلاف قرش اضافة الى الفائدة المترتبة عليها وقدرها خمسة آلاف قرش(٧) . كما وانه كان من الطبيعي عند وصول هذا الحكم أن يخبر فخر الدين والي الشام بذلك . وهذا الامر اقتضى منه أن يدفع ايضا مبالغ اضافية ، منها ثلاثة آلاف قرش للوالي نفسه وخمسمائة اخرى لمساعده (كتخداالوالي) . وزيادة على ذلك دفع مبلغ الف قرش للدفترار والكتبة في دمشق . ولم يكن هذا الامر ليمر دون ان يدفع مبلغ ثلاثة آلاف قرش أخرى لزعماء الانكشارية في دمشق من امثال : الحاج كيوان وطريفي بلوكباش وغيرهم(٨) . ولم تذهب هذه المبالغ سدى ، فحال تسلم جميع هؤلاء الزعماء للمبالغ المدفوعة اليهم خرجوا لمقابلة قافلة الحاج الشريف على شكل ما يسمى « بالجردة » . وارسلوا في طلب الامير فخر الدين ليلحق بهم . فما كان منه الا أن لبى دعوتهم ، واجتمعوا مع امير قافلة الحاج الشامي في ذاك العام عثمان بك وبأعيان الحجاج في محطة القطرانة . ومن الجدير بالذكر ان عددا من زعماء العشائر والقوى المحلية في بلاد الشام ، ومن بينهم الامير احمد بن حمدان الغزاوي نفسه ، خرجوا برفقة فخر الدين لملاقاة الحجاج(٩) .

طلب الامير فخر الدين المعني من الامير احمد الغزاوي القيام بضبط السنجق له نيابة عن الامير حسين ، وذلك بمقابل ان يتكفل له بدفع كافة المبالغ التي انفقها في الحصول على السنجق ، مضافا اليها كلفة الجردة التي كانت تربو على ثلاثين ألف قرش في ذلك العام . ولكن الامير احمد اعتذر عن ذلك العرض . عندئذ كلف الامير فخر الدين مملوكه محمداغا أبو شاهين ، المشار اليه سابقا ، ان يكون نائبا عن الامير حسين . « ووصاه على مراعاة اهالي البلاد ومداراتهم لانهم خارجون من تحت ظلم وغلاء ولكنهم لم يعرفوا حق مراعاتهم »(١٠) .

في أعقاب انتصار الامير فخر الدين في معركة عنجر سنة ١٠٣٣ هـ/١٦٢٣ م على اعدائه من الجناح اليمني ، ومن يساندهم من انكشارية دمشق الشام ، قام والي دمشق الشام ، رغم مشاركته في هذه المعركة ضد الامير فخر الدين ، باعادة تقرير السنجق على الامير حسين(١١) . وهذا التصرف جاء ، على الاغلب ، نتيجة لما لقيه الوالي من الاحترام والاكرام على يد الامير فخر الدين خاصة وابناء البيت المعني عامة(١٢) .

بالرغم من جهود الامير فخر الدين الحثيثة لاضعاف الاسرة الغزاوية ،وابعادها عن ساحة السياسة المحلية في بلاد الشام ، الا أن النجاح لم يكن دائما حليفه . فالاسرة الغزاوية لم تكف عن المطالبة والسعي للحصول على سنجقية لواء عجلون ،

وذلك على الرغم من قبول الامير احمد بالامر الواقع . ففي سنة ١٠٣٣ م/١٦٢٣ م قام الامير بشير عم الامير أحمد بالهجوم على قلعة عجلون واحتلها وطرد منها حاميتها من جنود الامير فخر الدين . وبذلك استعاد سنجق عجلون للاسرة الغزاوية .

كان لهذا العمل أثره الكبير في نفس الامير فخر الدين . فأعد قوة قوامها سبعة آلاف فرد لاستعادة عجلون . وفي الوقت ذاته كان الامير بشير قد لجأ الى تكليف الوسطاء للتدخل بينه وبين فخر الدين من أجل تخفيف غضب الامير وتحويله عن مهاجمة عجلون . فأوفد عددا من مشايخ جبل عجلون الى الامير فخر الدين لرأب هذا الصدع . فاشترط الامير من أجل المصالحة قدوم الامير بشير عليه ، فان فعل يعينه قائمقام لولده حسين ، وان لم يفعل ، فانه عازم على السير اليه . الا أن الامير بشير اعتذر عن الذهاب الى فخر الدين ، وارسل الوسطاء مرة ثانية محملين بالهدايا الى الامير فخر الدين ، فقبل الاخير وساطتهم وعين بشيراً قائمقام للامير حسين . ومن الارجح ان الامير فخر الدين كان قد قبل بهذا الحل تحاشيا للاصطدام مرة ثانية مع والي الشام مصطفى باشا ، بعد اصطدامه معه سابقا في معركة عنجر . لاسيما وان الوالي كان في ذلك الوقت قد خرج من دمشق الى البجة في جنوبي حوران لنصرة الامير بشير تأهبا للمشاركة في صد اي عمل عسكري سيقوم به الامير فخر الدين المعني ضد الاسرة الغزاوية بزعامة الامير بشير(١٣) .

ان الاخبار المتوفرة لدينا عن الامير حسين في مرحلة صباه تكاد تكون معدومة ، نظرا لصمت المصادر التاريخية عنه خلال تلك المرحلة من عمره . وجل ما نعرفه عنه انه عندما شرع والي الشام كجك احمد باشا(١٤) ، تنفيذا لاوامر السلطان مرادالرابع في سنة ١٠٤٣ هـ/١٦٣٣ م ، بتصفية فخر الدين المعني ، ووضع حد لوجوده كقوة محلية متنفذة ، أمر فخر الدين ولده حسين وكاخيته (وكيله) ابو نوفل نادر الخازن مع ثلاثة آلاف من المقاتلين بالاعتصام في قلعة المرقب بالقرب من اللاذقية(١٥) . وقد تمكن قبطان البحر العثماني المعروف باسم جعفر باشا(١٦) (ت ١٠٤٥ هـ/١٦٣٥ م) من القاء القبض على الامير حسين مع كاخيته وارسلهما الى الوزير العثماني المقيم آنذاك في حلب ، ولقد استبقى الوزير العثماني الامير حسين على قيدالحياة وارسله الى القسطنطينية ، وكان عمره حينذاك ثلاثة عشرة عاما(١٧) ، بينما تمكن ابو نوفل من الهرب من حلب والعودة من جديد الى بلاد كسروان .

وكان من المتوقع ان يصفح السلطان مراد الرابع عن الامير فخر الدين وعن اولاده وأفراد اسرته الذين رافقوه في الاسر الى القسطنطينية . الا أن فرار الامير ملحم ابن الامير يونس المعني ، ابن اخ الامير فخر الدين ، وشنه الغارات على

منافسي البيت المعني من اليمانية من جهة ، وعلى العساكر العثمانية في ولاية الشام من جهة ثانية ، اثارت حفيظة السلطان واوغرت صدره . فأمر السلطان في ٤ شوال سنة ١٠٤٥ هـ/١٣ نيسان ١٦٣٥ م(١٨) بقتل فخر الدين واولاده وافراد اسرته . الا أن الامير حسين كان قد نجا من ذلك الحكم(١٩) . ويفسر المرادي ذلك بما يلي :

« وأما المترجم (حسين) فلكونه صغيرا رشيدا فالحا ابقوه في سراي القلعة كعاداتهم وعدل عن مذهب اسلافه وتبع منهج الاسلام »(٢٠) .

ان تلك الضربة التي نزلت بالاسرة المعنية تركت اثرا حزينا في نفس الامير حسين ، كما وانها تمثل نقطة تحول في حياته كما سنرى فيما بعد . وربما كان في الشعار الذي نقشه على خاتمه ما يفسر لنا بعضا من جوانب حياته النفسيةوانعكاس ذلك على مسلكه الاداري ، اذ كان ينص على ان : « اغنى الغنى في ترك المنى »(٢١) . والى مثل هذا الزهد والتواضع اشار صديقه وتلميذه مؤرخ البلاط العثماني مصطفى نعيمة بن محمد اغا ابن كوجك أغا (١٦٦٥ – ١٧١٦) في كتابه المعروف باسم **روضة الحسين في خلاصة اخبار الخافقين** .

مما لاشك فيه ان الامير حسين قد اثبت كفاءة نادرة أتاحت له التقدم فيمراتب الادارة العثمانية . ففي مطلع حياته عمل في ما كان يعرف بـ (خاصه أوده سي) في القصر السلطاني . وترقى بعد ذلك في المناصب فعمل امين سر (سر كاتب) للسلطان محمد الرابع (١٠٥٨ هـ/١٦٤٩ م – ١٠٩٩ هـ/١٦٨٧ م) . ثم تولى فيما بعد وظيفة كتخدا الخزينة السلطانية (نائب رئيس المالية السلطانية) وكانت هذهالوظيفة من المناصب الرفيعة في القصر السلطاني . ان تولي الامير حسين تلك الرتب الرفيعة جلب لهالشهرة ولفتاليه الانظار . ففي ٦ رجب ١٠٦١ هـ/٣٠ نيسان ١٦٥٦ م ،اصبح رئيس الحرس السلطاني(٢٢) قابجي باشا Kapicibashi . ويذكر المرادي ان الوزارة كانت قد عرضت عليه واعتذر عنها(٢٣) .

ولقد بلغ الامير حسين منزلة خاصة في نفس السلطان محمد الرابع . ففي سنة ١٠٦٦ هـ/١٦٥٦م اوفده السلطان سفيرا (ألجي) عنه الى دلهي موفدا الى سلطان المغول شاه جهان (١٠٣٧ هـ/١٦٢٨ م – ١٠٦٨ هـ/١٦٥٧ م) . والجدير بالذكر ان تلك السفارة كانت ردا على سفارة ارسلها السلطان شاه جهان الى السلطان محمد الرابع . ولقد اشارت المصادر المتوفرة لدينا عن هذه السفارة(٢٤) كما وأشار اليها ايضا الامير حسين نفسه في كتابه التمييز . حيث يذكر ذلك بشكل مقتضب ، وعلى النحو التالي : « ... وكفى بالمرء حرصا على الدنيا ركوبه البحر

لاجل تجارة . قيل لي ما رأيت من عجائب بحر الهند وكنت توجهت مأمورا برسالة الملك فقلت خلاصي منه »(٢٥) . الا أن المصادر المتوفرة لدينا لم تزودنا بالغاية من وراء تلك السفارة ولا عن النتائج التي تمخضت عنها . ولكن على ما يبدو انها لم تكلل بالنجاح . ومما تجدر الاشارة اليه ان الامير حسين بن فخر الدين كان قد رافق السفير الهندي في طريق عودته الى بلاده ، فوصلا البصرة ، ومن هناك سافرا بحرا الى الهند . وكان وصولهما اليها بعيد وفاة السلطان شاه جهان ، ليجدا أن الصراع قد تفجر بين أبنائه كل يحاول الفوز بالحكم لنفسه . فما كان من الامير حسين الا الاسراع في العودة الى القسطنطينية ، حاملا معه رسالة شكر ومجاملة من الامير مراد بخش ابن السلطان شاه جهان الى السلطان العثماني(٢٦) . والارجح انه في طريق عودته كان قد مر ببلاد الشام ، وليس كما يذكر المرادي انه اكان قد غادر الى الهند من صيدا . وبهذا الخصوص يقول المرادي ما يلي : « فلما سمع بوصوله قريبه الامير احمد بن معن حاكم بلادهم اذ ذاك واقاربه بني شهاب امراء وادي التيم ... ذهبوا لاستقباله واجتمعوا به في حاصبيا ثم عرضوا عليه حكومة بلادهم وكلفوه أن يصير حاكما عليهم فقال لهم كيف بعد خدمة الدولة والسلطان والرتب السامية السلطانية أصير حاكما على بلاد الدروز بعد ان استظليت بظل الدولة وارتضعت افاويق نعمتها وشملتني ببرها وهبتها ، فهذا امر محال »(٢٧) .

وكما أشرنا سابقا ان سفره كان أولا الى الهند عن طريق البصرة وذلك سنة ١٠٦٦ هـ/١٦٥٦ م . وكانت وفاة ابن عمه الامير ملحم بن يونس بن معن في سنة ١٠٦٩ هـ/١٦ ايلول ١٦٥٨ م ، حيث ترك من بعده ولدين : قرقماش الذي قتل سنة ١٠٧٣ هـ/١٦٦٢ م ، واحمد الذي يذكره المحبي(٢٨) بقوله : « واما احمد فانه الان باق وهو امير بلادهم » ، مما يرجح القول بأن لقاء الامير حسين مع الامير احمد كان في طريق عودة الاول من بلاد الهند ، أو في احدى رحلات الامير حسين الى خارج القسطنطينية ان كان قد رحل . كما وانه لا يعقل ان يكون جواب الامير حسين بالصيغة التي اوردها لنا المرادي الذي لم يذكر لنا مصدر روايته ولا سندها وخاصة عندما يقول « ... اصير حاكما على بلاد الدروز » .

من الواضح لنا ان علاقة الامير حسين ، بعد عودته من سفره ذاك ، لم تكن ودية مع الصدر الاعظم الجديد محمد كوبريلي(٢٩) (١٦٥٦ – ١٦٦١ م) ، اذ انه لم يسند اليه أي منصب ، مما حدا بالامير حسين الى الانصراف الى حياة المطالعة والتأليف ، وساعده على ذلك وجود مكتبة غنية لديه احتوت على نوادر المؤلفات ، أشار لبعضها المؤرخ نعيمة نفسه الذي كان قد اتصل آنذاك بحسين واخذ عنه واعجب به(٣٠) .

ومن حسن حظ الامير حسين ان الصدر الاعظم لم يتعرض لاملاكه ولم يصادر موجوداته ، فكانت توفر له دخلا ضمن له الانصراف للبحث والتأليف الى حين وفاته . لقد انتقلت تركته هذه فيما بعد الى زوجته التي اقترنت بأحد رجال الاسباهية ، الذي كان يعرف باسم صالح ، ولكن بعد زواجه من ارملة حسين ، اصبح يعرف باسم معن اوغلو(٣١) .

ويذكر المؤرخ نعيمة الذي كان وثيق الصلة بالامير حسين خلال اواخر سني عمره ، ان وفاة الامير حسين كانت سنة ١١٠٢ هـ/١٦٩٠ م(٣٢) . ومثل هذا التاريخ يورده ايضا محمد ثريا(٣٣) . اما المرادي فيذكر ان وفاته كانت سنة ١١٠٩ هـ/١٦٩٧ ، حيث يقول « ولم يزل في قسطنطينية له الشهرة بين رؤسائها حتى انتقل الى رحمة مولاه وكانت وفاته بها سنة تسع ومائة والف عن نيف وسبعين »(٣٤) . والتحقق من تاريخ الوفاة مهم جدا وذلك للتأكد من صحة الرواية التي اوردها البطريرك اسطفان الدويهي والتي نقلها عنه من بعده بعض المؤرخين اللبنانيين . واهمية هذهالرواية تدور حول الدور الذي قام به الامير حسين في تقرير شخص الحاكم على الشوف من البيت الشهابي ، بعد انقراض البيت المعني في الشوف وانتقال الحكم الى اصهاره من الاسرة الشهابية . فمن المعروف ان الامير أحمد ، آخر حاكم من البيت المعني ، كان قد توفي في ١٥ ايلول سنة ١٦٩٧ م ، وبعد ذلك يقول الدويهي ــ وهو معاصر لهذا الحدث (ت سنة ١٧١٤) ــ ما يلي : « واجتمعوا اعيان بلاد الشوف من أمراء ومقدمين ومشايخ فاختاروا الامير بشير ابن الشهاب يتأمر على الجميع »(٣٥) وارسل الوالي بذلك الى القسطنطينية ، فجاء الجواب في اواخر السنة المذكورة على غير ما قرر « الاعيان » حيث يذكر الدويهي مرة اخرى ما يلي : « ورد الامر من الباب الاعلى بأن الامير حيدر ابن موسى الشهابي يكون محافظ المقاطعات التي كانت بيد الامير أحمد بن معن لكونه ابن بنته ، وكان ذلك على يد الامير حسين ابن فخر الدين امير الشوف وان الامير بشير يكون وكيله في الحكم لكونه قاصر ابن اثنتي عشرة سنة »(٣٦) .

فاذا كان الامير حسين قد توفي سنة ١١٠٢ هـ/١٦٩٠ م فمعنى ذلك انه لم يكن له دور يذكر في أمر تقرير اختيار الشخص الشهابي لوراثة الحكم . اما اذا كان قد توفي سنة ١١٠٩هـ/١٦٩٧ م وهي سنة وفاة الامير احمد ، فهذا يعني انه كان قد استشير في هذا الامر وهو على فراش الموت ، كل هذا يدعو لاعادة النظر في رواية نعيمة ومن اخذ عنه من المؤرخين فيما بعد .

ان اهمية الامير حسين بن فخر الدين ، في رأينا ، لم تكن فقط في المناصب

التي اسندت اليه ، بل ايضا في المعلومات التاريخية التي اخذها ورواها عنهمشافهة المؤرخ نعيمة . ومما يزيد في اهميته الاثر القيم الذي خلفه لنا من بعده الا وهو كتاب **التمييـز** .

يذكر نعيمة في تاريخه انه اخذ شفاها عن الامير حسين معظم اخباره عن عهدي السلطانين ابراهيم وولده السلطان محمد الرابع(٣٧) . الا أن المؤرخ الامريكي (Lewis V. Thomas) الذي درس نعيمة دراسة وافية لا يرى ان اعتماد نعيمة على الامير حسين كان على الصورة التي ذكرها نعيمة نفسه ، بل يعتقد ان اعتماده على الامير حسين كان محدودا الى درجة بعيدة(٣٨) . والجدير بالذكر ان نعيمة عندما ذكر أخبار الامير فخر الدين فانه اوردها بما يتفق مع وجهة النظر العثمانية الرسمية في اعتبار فخر الدين عاصيا وخارجا على السلطة الشرعية ، وانه نال عقابه الـذي يستحقه من الموت(٣٩) .

كان المرحوم عيسى اسكندر المعلوف من اوائل الذين اشاروا لكتاب **التمييز** الذي الفه الامير حسين بن فخر الدين المعني ، ولكن لم يقدر له الاطلاع على نسخ الكتاب بل كان جل ما رآه مختصرا له باسم (منتخبات من كتاب التمييز) محفوظة في الخزانة الملكية بالقاهرة وتقع في ثمان وعشرين صفحة بقطع الثمن . ومنالاشارات التي يوردها الاستاذ المعلوف يتضح لنا انه لم يطلع على نص كامل لهذا العمل(٤٠) .

الا انه لحسن الحظ تيسر لي أن اجمع صورا شمسية لعدد من نسخ هـذا الكتاب(٤١) الذي الفه الامير حسين معن زاده . ولقد اشار نعيمة الى هذا المؤلف واطنب في الثناء عليه بل زيادة على ذلك يذكر انه بناء على تكليف من حسين نفسـه قام نعيمة بنفسه باستنساخ عدد من النسخ لهذا الكتاب ، نسخة منها قدمت للوزير الاعظم حسين كوبريلي(٤٢) . ومما يلفت النظر ان جميع النسخ المتوافرة لدينا مكتوبة بخط في غاية الجمال والاناقة والوضوح . ومن اقدم النسخ الموجودة لدينا صورة عن نسخة محفوظة في مكتبة جامعة (ييل) بالولايات المتحدة الامريكية ، وهي من ضمن مجموعة (لاندبرغ)(٤٣) ، عدد اوراقها مائتان وست وعشرون ورقة ، وعلى الارجح انها نسخة المؤلف ، حيث جاء في نهايتها : « وقد وقع الفراغ من جمعه وتحريره وتسطيره في اواسط شهر ذي الحجة لسنة سبع وتسعين والف ، والحمد لله رب العالمين » . فاذا كان هذا تاريخ الفراغ من تأليف الكتاب فيعني ذلك انه فرغ منـه في مطلع شهر تشرين الثاني لعام ١٦٨٦ ، وهذا يشير بوضوح الى انه كان قد انجز هذا العمل بعد عودته من سفارته حيث وجد لديه الوقت الكافي للتفرغ لهذا العمل ، لاسيما انه لم يسند اليه عمل رسمي في عهد اسرة كوبريلي كما اشرنا .

ونجد أن المؤلف قسم كتابه هذا الى ستة وعشرين بابا ، ألحق بكل باب منها فصلا . ويستهل كل باب بعنوان « باب في مدح كذا » ثم يتبع ذلك بفصل يذكر فيه « ومما قيل فيه » ولقد جاءت أبوابه وفصوله على النحو التالي :

١ ـ باب في مدح العقل
فصل ومما قيل في العقل

٢ ـ باب في مدح العلم
فصل ومما قيل فيه

٣ ـ باب في مدح الحلم
فصل ومما قيل في الحلم

٤ ـ باب في مدح الحياء
فصل ومما قيل في الحياء

٥ ـ باب في مدح الصبر
فصل ومما قيل في الصبر

٦ ـ باب في مدح المشورة
فصل ومما قيل في المشورة

٧ ـ باب في مدح الشجاعة
فصل ومما قيل في الشجاعة

٨ ـ باب في مدح الادب
فصل ومما قيل في الادب

٩ ـ باب في مدح الصمت .
فصل ومما قيل في الصمت

١٠ ـ باب في مدح الفقر
فصل ومما قيل في الفقر

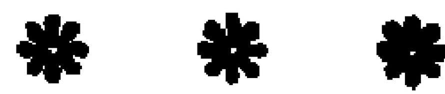
١١ ـ باب في مدح الغنى
فصل ومما قيل في الغنى

١٢ ـ باب في مدح القناعة
فصل ومما قيل في القناعة

٢٦ ـ بـاب في مـدح المـوت
فصل وممـا قيل في حـق المـوت

وعند تقصي أسماء المصادر التي رجع اليها ، نجد أنه اعتمد كثيرا فياقتباساته على القرآن الكريم وكتب التفسير ، هذا بجانب افادته من صحاح وأسانيد الحديث النبوي الشريف . وبهذا الصدد تجب الاشارة للمكانة الكبيرة التي افردها في كتابه للاقوال المنسوبة للامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه كما جاءت في كتاب نهج البلاغة . ولا شك أن كتاب التمييز يدل على أن صاحبه كان ذا اطلاع واسع على دواوين الشعر العربي والفارسي ، كما يظهر من كثرة استشهاداته الشعرية . وان كثرة الشواهد الشعرية التي ترجع في نسبتها لشعراء العربية من المتقدمين والمتأخرين تعزز هذا الراي ، ولم تقتصر مصادره على القرآن الكريم وديوان الشعر العربي بل تعدتها الى كتب الانساب وطبقات الرجال والمجاميع الادبية والمعاجم اللغوية ، وكتب الطب . ومما يستلفت النظر أن صاحب التمييز قد استفاد كثيرا من كتاب (احياء علوم الدين) .

والجدير بالذكر أن نعيمة يشير الى كتاب اخر من تاليف حسين بن فخر الدين يتناول الترجمة لعلماء عصره(٤٤) . لكن الفهارس المتوافرة لدينا لا تشير لمثل هـذا الكتاب ، الذي ان وجد ، أو اذا تيسر لاحد الباحثين استكشافه من احدى خزائن المخطوطات المغمورة أو المشهورة ، فانه سيكون من المصادر المهمة التي تزودنـا بتراجم لاعيان القرن السابع عشر الميلادي .



الحواشي

(١) يذكر الخالدي الصفدي : ان الامير علي بن فخر الدين كان قد تزوج في سنة ١٠٢٩ هـ / ١٦١٩ م شقيقة الامير حسن بن سيفا ، كما وان الامير بلك (بلغ) ابن الامير يوسف باشا سيفا كان قد تزوج في نفس العام من كريمة فخر الدين المعني . ويذكر عيسى اسكندر المعلوف : بان الامير فخر الدين كان قد تزوج مرتين من آل سيفا وان يوسف باشا قد تزوج ابنة فخر الدين نفسه ، حول هذه المصاهرات راجع احمد بن محمد الخالدي الصفدي ، تاريخ الامير فخر الدين المعني، نشره الدكتور اسد رستم والدكتور فؤاد افرام البستاني ، تحت عنوان : لبنان في عهد الامير فخر الدين المعني الثاني ، الطبعة الثانية ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٦٩ م ، ص ١٠٥ ، ص ١٦٦ ، اسطفان الدويهي (ت ١٧٠٤ م) ، تاريخ الازمنة ، نشره الاب فرديناند توتل اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت، ١٩٥١ ، ص ٣١٢ طنوس الشدياق (ت ١٨٥٩ م) ، كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان ، ٢م ، حققه فؤاد افرام البستاني ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٠ م ، م١ ، ص ٢٧٩ ، عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ١٦٩ — ١٧٠ ، ص ١٧٩ . حول فخر الدين انظر :
Kamal Salibi « Fakhr al-Din al-Ma'ni » E.I.2 vol. I, pp. 749-51.

(٢) في صفر سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م مر ببيروت عائداً من الاسكندرية علي باشا الجتنشجي آغا الينكجرية سابقا ، وكان قد عين واليا على مصر واعترضت العسكر في مصر على تعيينه فعاد الى القسطنطينية عن طريق بيروت فاستقبله نبها كل من الامير حسين وحاكم بيروت الامير منذر « وانزلاه هو وعياله وثقله في مكان واكرماه ، فاعطى للامير حسين خنجرا مرصعا » ، الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١٦٠ ، الشدياق ، المرجع ذاته م١ ، ص ٢٧٨ ، يذكر المؤرخ المصري احمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري ، (ت ١١٥٠ هـ / ١٧٣٥ م) عن تولية علي باشا الجتنشجي على مصر ما يلي : « فلما بلغ اهل مصر تكدر عيشهم واجتمعوا مع بعضهم البعض في امر ذلك الوزير وقالوا : كل سبعين يوما باشا ، فهذا مضر بالعسكر والرعية والتقادم ، وهذا لانقدر عليه » وكتبوا بذلك الى السلطان يطلبون ابقاء الوالي مصطفى باشا فوافق السلطان بعد تدخل شيخ الاسلام ، ولقد اخطر الوالي علي باشا باعتراض العسكر على تعيينه ، فعاد الى القسطنطينية ، وفي طريق عودته مر ببيروت، انظر ، اوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العيني، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٠ ، والملاحظ ان المحقق قرأ اسمه كما يلي علي باشا النشنشجي .

(٣) حول حياة خليل باشا والمناصب التي تولاها كالصدارة العظمى وامارة الاسطول ، راجع محمد ثريا ، سجلّ عثماني ياخود تذكره مشاهير عثمانية ، نسخة مصورة عن طبعة اسطنبول ، ١٣١١ هـ ، اعيد تصويرها في مؤسسة .
Gregg International Publishers Limited, Hants, 1971, vol. II, p. 286.
ويصفه الخالدي الصفدي بقوله : « قبودان الاغربة السلطانية » المصدر ذاته ، ص ١١٠ .

(٤) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١١٠ ، الشدياق ، المرجع ذاته ، م١ ، ص ٢٦٦ .

(٥) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١١٢.

(٦) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ١١٩ .

(٧) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١١٧ ، الشدياق ، المرجع ذاته ، م ١ ، ص ٢٦٨ .

(٨) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ،: ص ١١٧ ـ ١١٨ ، حول حياة ودور الحاج كيوان بن عبد الله « احد كبراء اجناد الشام » الذي طمنه الامير فخر الدين سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م ثم أجهز عليه رجال فخر الدين ، راجع محمد امين بن فضل الله المحبي ، (ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م) ، خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤م ، نصوير دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٠ ، م٣ ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٣ ، كذلك انظر دراسة نوفان رجا الحمود ، العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . دار الافاق ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٧ .

(٩) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١١٨ ـ ١١٩ ، اما القطرانة فهي محطة على الطريق السلطاني وكانت احدى منازل الحاج ، تقع شرقي الكرك . امر السلطان سليمان القانوني سنة ٩٦٧ هـ / ١٥٥٩ م ببناء قلعة فيها ، وشحنها بالمؤن ، ويورد لنا ابراهيم بن عبد الرحمن الحياري المدني (ت ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢ م) عند مروره بها سنة ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩ م ، وصفا مفصلا لبركتها ، انظر تحفة الادباء وسلوة الغرباء ، م١ ، تحقيق رجاء محمود السامرائي ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ٨٥ انظر كذلك الغزى ، المصدر ذاته ، م٣ ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(١٠) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١٢٠ الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٣١٤ ، الشدياق ، المرجع ذاته ، م١ ، ص ١٧٠ ، المعلوف ، المرجع ذاته ، ص ١٨٢ .

(١١) تاريخ التقرير ١٠ رجب ١٠٣٢ هـ / ١٠ أيار ١٦٢٣ م ، الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١٢٣ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ، ص ١٣٧ ، الشدياق المرجع ذاته ، م١ ص ٢٦٩ ، ص ٢٧٧ .

(١٢) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١٥٥ .

(١٣) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ٢٠٣ ، ص ٢٠٥ ، الشدياق المرجع ذاته ، م١ ، ص٢٨٧، اما البجة فيعرفها شهاب الدين ياقوت الحموي على « انها قرية كانت على باب دمشق / معجم البلدان ، م٦ ، تحقيق فردناند وستنفلد ليبرج ، ١٨٧٠ ، أعيد تصويره بطهران سنة ١٩٦٥ ، م١، ٤٩٦ . يذكر السيد محمد عارف بن السيد احمد المنير الحسني (ت ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م) ان النهر الذي يخرج من الزيريب اسمه البجنة (على الاغلب أن الاسم هو البجة لان المحقق ذكر انه غير متاكد من قراءة الاسم) « ماؤه ردىء وفيه سمك كثيـر من ياكل منه يصب بالحمى »، السعادة الابدية في السكة الحجازية الحديدية، حقق النص العربي وترجمه الى اللغة الانجليزية Jacob M. Landau ونشره تحت عنوان :
The Hejaz railway and Muslim Pilgrimage: A case of Ottoman Political Propaganda, Wayna State University Press, Detroit, 1971, p. 275.

(١٤) حول حياة الوالي كوجك أحمد باشا (ت١٠٤٦ هـ / ١٦٣٦ م) ، الارنودي الاصل ، وحول المناصب التي تولاها ، راجع المحبي ، المصدر ذاته ، م١ ص ٣٨٥ — ٣٨٨ .

(١٥) الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٣٢٧ ، الشدياق المرجع ذاته ، م ١ ، ص ٧٠ ، والاحظ ان آل سيفا كانوا قد تخلوا عن قلعة المرقب ، سنة ١٠٣٥ هـ / ١٦٢٤م ، لفخر الدين المعني ، استرضاء له من جهة ومن أجل ان يمنع عنهم والي طرابلس الشام آنذاك من جهة الثانية ، الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٣٢١ ، المعلوف ، المرجع ذاته ، ص ١٨٨ ، والمرقب قلعة حصينة بالقرب من البحر الابيض المتوسط (بحر الروم) كانت في العهد المملوكي تشكل عملا من نيابة طرابلس الشام ، ولي عليها الامير فخر الدين الشيخ أبو نادر الخازن وذلك سنة ١٦١٧ ، انظر أحمد بن علي القلقشندي ، (ت ٨٢١ هـ/١٤١٧ م) صبح الاعشى في صناعة الانشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، م٤ ، ص ٤٥ ا— ١٤٦ ، م ٧، ص ١٧٦ ، الشدياق ، المرجع ذاته ، م١ : ص ٦٩ .

(١٦) حول جعفر باشا ، راجع محمد ثريا ، المرجع ذاته ، م٢ ، ص٧٣ .

(١٧) الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٣٢٧ ، المعلوف ، المرجع ذاته ، ص ٢٠٥ ، ص ٢١٠ .

(١٨) راجع المحبي ، المصدر ذاتــه ، م٣ ، ص ٢٦٦ ، نعيمة ، المصدر ذاته .
انظر ايضا الترجمة الانجليزية لبعض اقســام تاريخ نعيمة المنشــورة باسم :
Annals of the Turkish Empire from 1591 - 1629 by Naima, translated by Charles Fraser, London, 1832, Reprint, Arno Press, N.Y. 1973, 422-425.
كذلك راجع الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٣٢٩ كان ولده علي قد قتل في الاصطدام مع الوالي عثمان كجك باشــا سنة ١٠٤٣هـ /١٦٣٣م ، امــا ولده حسن فقد خنق مع نساء فخر الدين في دمشــق أما أولاده منصور وحسن وبلك فقد رافقوه الى اسطنبول . الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٣٢٧ ، عيسى اســكندر المعلــوف ، المرجع ذاته ، ص ٤١ — ٤٢ ، ص ٢٤٤ — ٢٤٦ .

(١٩) انظر تاريخ نعيمة : روضة الحسين في خلاصة أخبار الخافقين ، ٦م ، نشــرة بالحرف التركــي الجديد ، زهوري دانشمان ، اسطنبول ، ١٩٦٧ — ١٩٦٩ م ، م٣ ، ص ١٢٢٩ — ١٢٣٠ .

(٢٠) المرادي ، المصدر ذاته ، م٢ ، ص ٥٩ — ٦٠.

(٢١) راجع مخطوط التمييز نسخة اسعد افندي ، رقم ٢٥٥١ ، هامش ورقة حيث نجد عليها صورة لخاتــم حسين بن فخر الدين .

(٢٢) نعيمة ، المصدر ذاته ، م٣ ، ص ١٢٢٩ —١٢٣٠ ، المرادى ، المصدر ذاته والمكان ذاتهما .

(٢٣) المرادى ، المصدر ذاته ، م٢ ، ص ٦٠ ، يذكــر المرادى انه عند ترك حسين للوظيفة انه خرج برتبة الخواجكانية على القواعد العثمانية وولي عدة مناصب بمقتضى الرتبة المذكورة . أما « خواجكان » فانه مصطلح من اصل فارسي كان يستخدم لوصف عمل كبار الموظفين العاملين في ادارة الخزينــة السلطانية بعد ان يكونوا قد عملوا في الديوان السلطاني ، وكانوا يعينون من قبل الوزير راجع :
Lewis Thomas, **A study of Naima**, edited by Norman Itzkowitz, N.Y.U. Press, 1972, pp. 22-24.

(٢٤) نعيمة ، المصدر ذاته ، م٥ ، ص ٢٣٧٣ — ٢٣٧٥ ، ص ٢٤٧١ ، م٦ ، ص ٢٦٩٨ ، المرادي المصدر ذاته ، م٢ ص ٥٩ — ٦٠ ، المعلـــوف ، المرجع ذاته ، ص ٢٤٩ .

(٢٥) مخطوط التمييز ، نسخة داماد ابراهيم ، رقم ٩٤٥ ، ورقة ١٩٨ ب ـ ١٩٩ أ . وكان داماد ابراهيم وزيرا للسلطان احمد ، وعلى هامش هــذه النسخة ختم الوزير المذكور .

(٢٦) انظر ، Lewis Thomas المرجع ذاته ، ص ١٤١ ، ص ١٤٧ ، حول شهاب الدين شـــاه جهان ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٨ م — ١٠٦٨ هـ /١٦٥٧ م) ، راجع فصل المغول في كتاب :
Stanley Lane-Poole , **The Muhammadan Dynasties** , Reprint Khayats, Beirut, 1966, pp. 322 - 329.

وكذلك راجـــع :
C. E. Bos orth, **Islamic Surveys: The Islamic Dynasties** Edinburgh, U. P., 1967, pp. 210 - 213.

والجدير بالذكر أن السلطان العثماني ســـليمان الثاني (١٠٩٩ هـ / ١٦٨٧ م — ١١٠٢ هـ / ١٦٩١م) كان قد بعث في سنة ١٦٨٨ — ١٦٨٩ برسالة الى سلطان المغول محي الدين اورانجزب عالمجير الاول (١٠٦٨ هـ / ١٦٥٨ — ١١١٨ هـ / ١٧٠٧ م) نشر نص هذه الرسالة H. Bayur تحت عنوان :
« Osmanli Padishahi II. Suleymanin Gurkanli Padishah I. Alemgir (Evren-Gzib) e mektubu » **Belleten, 14,** (1950) pp. 269 - 87.

انظر أيضا الاشارة اليها في كتاب :
Jan Reychman and Ananiasz Zajaczkowski, **Handbook of Ottoman - Turkish Diplomatics,** trans. by A.S. Ehrenkreutz, Mouton, 1968, the Hague, Paris. P. 92.

(٢٧) المرادي ، المصدر والمكان ذاتهما .

(٢٨) المحبي ، المصدر ذاته ، ص ٤٠٨ — ٤٠٩ ، المصدر ذاته ، ص ٣٥٥ ، ص ٣٦٠ .

(٢٩) حول نشأته وتكوينه الاداري والمناصب الـــتي تولاها قبل أن تسند اليه الصدارة العظمى ، انظر :
Edward Creasy, **History of the Ottoman Turks,** Reprint, Khayats, Beirut 1961, pp. 273 - 277.

انظر أيضا ترجمته في المحبي ، المصدر ذاتـــه ، م٤ ، ص ٣٠٩ — ٣١١ .

(٣٠) من هذه الكتب النادرة نسخة من كل من الشاهنامة الفردوسي ، وكنه الاخبار لعالي وتاريخ واصف.
Lewis Thomas, **Ibid,** p. 144

(٣١) لويس توماس ، المرجع ذاته ، ص ١٤٢ .

(٣٢) نعيمة ، المصدر ذاته ، م٣ ، ص ١٢٣٠ .

(٣٣) محمد ثريا ، المرجع ذاته ، م٢ ، ص ١١٩ .

(٣٤) المرادى ، المصدر ذاته ، م٢ ، ص ٦٠ .

(٣٥) الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(٣٦) المصدر والمكان ذاتهما ، راجع أيضا حيدر احمد الشهابي ، الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان ، القسم الاول ، تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، منشورات الجامعة اللبنانية بيروت سنة ١٩٦٩ م ، ص ٣—٥ ، طنوس الشدياق ، أخبار الاعيان ، م٢ ، ص ٢١١ ، كمال الصليبي تاريخ لبنان الحديث ، دار النهار للنشر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٢ ، ص ٣١ — ٣٢ .

(٣٧) نعيمة ، المصدر ذاته ، م٣ ، ص ١٢٢٩ .

(٣٨) راجع Lewis Thomas, A study of Naima, pp. 142 - 145

(٣٩) راجع نعيمة Annals of the Turkish Empire, pp. 422 - 425.

(٤٠) راجع عيسى اسكندر المعلوف ، « كتاب التعبير في المحاضرات : مخطوط للامير حسين ابن فخر الدين المعني ، المشرق ، م ٢٧ (١٩٢٩) ص ٨١١ — ٨١٥ ، وانظر ايضا تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ، ص ٢٥٠ — ٢٥١ ، راجع ايضا اشارة محمد ثريا ، سجل عثماني ، م٢ ، ص ١١٩ ، وكذلك انظر اسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين : اسماء المؤلفين واثار المصنفين ، م٢ ، نسخة مصورة عن طبعة اسطنبول ، ١٩٥١ ، تصوير مكتبة المثنى ، بغداد ، م١ ، ص ٣٢٤ ، كما ان بروكلمان اشار للمختصر في المكتبة الملكية بالقاهرة وكذلك اشار الى نسختين في مكتبة داماد ابراهيم تحملان الرقمين ٩٤٥ و ٩٤٦ .
Brockelmann, Karl, G. I. P. 466 .

(٤١) لدينا صور شمسية للنسخ التالية من كتاب التمييز :

١ — مخطوط جامعة Yale مجموعة لاندبيرج ٨٤ ، عدد الاوراق ٢٢٦ وجاء في ختامها ما يلي : وقد وقع الفراغ من جمعه وتحريره ووضعه و تسطيره في اواسط شهر ذي الحجة لسنة تسع وتسعين والف والحمد لله رب العالمين» . حول الوصف المختصر لهذا المخطوط الذي ذكره ليون نموى Leon Nemoy راجع فهرسه

Arabic Manuscripts in the Yale University Library, Yale University press 1956, No: 446 (L-84) p. 59.

٢ — نسخة نور عثمانية رقم ٣٧٥٥ عدد أوراقها مائة وسبعون ورقة ، في كل صفحة ١٩ سطرا ، وجاء في نهايتها ما يلي : « وقع الفراغ من تحرير هذا الكتاب من نسخة بخط مؤلفة في اوائل شهر ربيع الاخر ١١٠٠ سنة مائة والف هجرية » .

٣ — مخطوط الاحمدية رقم ٦٩٠ عدد اوراقها ١٩٤ ، وعدد الصفحات ٣٨٩ صفحة ، في كل صفحة ١٩ سطرا مع شروحات قليلة جدا على الهوامش ، وجاء في نهايته «وقد وقع الفراغ من تحرير هذا الكتاب من نسخة بخط مؤلفه في اواخر شهور شعبان لسنة احدى ومابة والف هجرية والحمد لله رب العالمين وعلى اخر صفحة من الكتاب : نظر فيه مؤلفه عفى عنه » .

٤ ــ مخطوط مكتبةداماد ابراهيم رقم ٩٤٥عدد اوراقها ٢٧٨ وفي كل صفحة بها ١٩ سطرا وجـــاء في ختامها : « وقد وقع الفراغ من تحرير هذا الكتاب من نسخة بخط مؤلفه على يد سليمان ابـن محمد في اوائل شهر محرم سنة اثنين ومائة والف » وعلى اخر صفحة جاء مايلي : « نظر فيه مؤلفه عفي عنه » .

٥ ــ مخطوط مكتبة اسعد افندي رقم ٢٥٥١ عدد أوراقها ٣١٩ وعدد الصفحات ٦٣٩ ، في كل صفحة ١٧ سطرا وتاريخ نسخها سنة ١١٠٢ هـ .

٦ ــ مخطوط عاطف افندي رقم ٢٢٣٣ ، عدد اوراقها ٢٠٦ فيكل صفحة١٩سطرا ،جاءفي نهاية المخطوط مايلي : «وقد وقع الفراغ من تحرير هذاالكتاب من نسخة بخط مؤلفه في نصف شهر شعبان لسنة مائة وسبع والف والحمد لله » .

٧ ــ مخطوط نور عثمانية رقم ٢٧٥٦ عدد اوراقها ٢٥٨ ، تاريخ نسخها سنة ١١٠٨ هـ ، وجاء في اعلى أول صفحة «وقـف للسلطان عثمـان بـن مصطفى » ويلي ذلك : « وهو الحمد الله الـذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله » ويلي ذلك طغرة السلطان .

٨ ــ نسخة داماد ابراهيم رقم ٩٤٦ (نسخة ثانية غير التي تحمل رقم ٩٤٥) ، عدد اوراقها ٢٩٢ ، في كل صفحة ١٩سطرا ، خطها يشبه خط النسخة رقم ٩٤٥ ، الا ان تاريخ نسخ هذه النسخة هـو سـنة ١١٠٩ هـ .

٩ ــ نسخة بشير بوبو رقم ٣٧٥٢عدداوراقها٢٠٢ ، في كل صفحة ١٩ سطرا ،تاريخ الوقف حوالي ١١٣٠ هـ .

١٠ ــ نسخة نور عثمانية رقم ٢٧٥٣ عدد الاوراق ٢٠٢ في كل صفحة ١٩ سطرا ، بلا تاريخ .

١١ ــ قطعة من كتاب التمييز ــ مكتبة عاطف افندي رقم ٢٢٣٣ .

١٢ ــ قطعة من كتاب التمييز ــ من مكتبة نور عثمانية ورقة ١٦٠ ــ ١٦٣ .

(٤٢) نعيمة ، المصدر ذاته ، م٣ ص ١٢٢٩ ــ ١٢٣٠ ، حول عمجا زاده حسين باشاكوبريلي (ت ١١١٤ م / ١٧٠٢ م) انظر

Orhan F. Koprulu
« Amdja-Zade Husayn Pasha » E. I. 2, Vol. III, pp. 626-7.

(٤٣) انظر الهامش رقم ٤١ (أ)

(٤٤) نعيمـة ، المصدر ذاته .



تطور علاقات الكويت

بالأقطار العربية قبل الاستقلال

د . عبد المالك خلف التميمي

جامعة الكويت ـ قسم التاريخ

بريطانية والخليج العربي

بعد الحرب العالمية الاولى وانتصار الحلفاء اصبح الوطن العربي تحت السيطرة الاستعمارية البريطانية والفرنسية وقسمت البلاد العربية بين الدولتين وخضع التقسيم لتوازن دقيق في المصالح الحيوية التي تهم كلا منهما في الوطن العربي ، وفي اقطار اخرى في افريقية واسية . ولم تكن الولايات المتحدة بعيدة عما يجري ، فقد تحركت منذ ذلك الوقت مطالبة بحقوق وامتيازات ، ونادت بسياسة الباب المفتوح لئلا تحتكر كل من فرنسة وبريطانية النشاط الاقتصادي في المناطق التي تقع تحت نفوذهما . ويجب أن ننظر بعين الاعتبار الى قيام نظام اشتراكي في الاتحاد السوفييتي بعد الحرب العالمية الاولى ، اثر الثورة البلشفية التي وقعت عام ١٩١٧ ، وما كان لذلك من اثر ضاغط على الوجود الاستعماري ، دفع الدول الاستعمارية الى تركيز سيطرتها واحتكارها وتثبيت اوضاعها السياسية والعسكرية والاقتصادية في الوطن العربي . ولما كانت السيطرة البريطانية قد تغلغلت في منطقة الخليج العربي منذ القرن التاسع عشر ، فان المنطقة اصبحت من نصيبها وحدها بعد الحرب العالمية الاولى ، ومن هنا لعبت دورا اساسيا وهاما في تطور الاحداث في المنطقة بشكل مباشر وغير مباشر في فترة ما بين الحربين العالميتين التي هي في اعتقادنا اهم مرحلة في تاريخ العرب المعاصر .

فقد شهدت مرحلة ما بين الحربين العالميتين في الوطن العربي احداثا هامة ، ففي المشرق العربي كان وعد بلفور والهجرة الاستيطانية الصهيونية في فلسطين بحماية الانتداب البريطاني وتشجيعه ، ثم تكوين الاحزاب السياسية في الاقطار العربية وبدء النضال السياسي من أجل الاستقلال ، ثم دخول التعليم الحديث وانتشاره مما كان له دور في وعي المواطنين السياسي ، وتأثيره في الاحداث التي كانت تمر

بها بلادهم ، اضافة الى النهوض القومي العربي والدعوة الى الاستقلال والتحرر والوحدة العربية ، وظهور النفط كمادة اقتصادية استراتيجية هامــة في الاقتصاد العالمي ، واكتشافه بكميات وفيرة في المنطقة ، مما دفع الاستعمار الى التشبث اكثر مما مضى وتثبيت وجوده عن طريق السيطرة العسكرية والارتباط بمعاهدات وخلق المشكلات بين الاقطار والامارات العربية ، وبخاصة مشكلات الحدود ، ان الدافع الحقيقي لتحركات الاستعمار البريطاني في كل الاحوال والظروف كان مصالحه الاقتصادية والاستراتيجية في منطقة الخليج العربي التي كانت تخضع لسيطرته ، والتي شهدت حضورا بريطانيا عسكريا وسياسيا واقتصاديا مستمرا ، يتدخل حتى في جزئيات الاحداث الجارية وتفصيلاتها ، حتى يتمكن من التحكم فيها فيمنع وحدة المنطقة واستقلالها ، ويخلق المشكلات المزمنة ويطيل من وجوده ليحقق أغراضه التي كانت المصالح الاقتصادية على راسها والتي عززها ظهور النفط في المنطقة .

كان هناك هاجس يضغط على بريطانية في المنطقة مصدره الاتحاد السوفييتي ، فبعد الثورة البلشفية في نهاية الحرب العالمية الاولى وفي فترة ما بين الحربين وتحول الاتحاد السوفييتي الى دولة اشتراكية تنمو وتتطور ، شعرت بريطانية بالخطر على مصالحها في الشرق الاوسط ، وكان مصدر التخوف ان يحدث اختراق روسي لايران يؤدي بوصول الاتحاد السوفيتي الى الخليج ، ومن هنا وقفت بريطانية ضد محاولات ايران التوسعية في الخليج ، اضافة الى مصالحها في ايران نفسها .

وهناك العامل الاقتصادي الذي كان يدفع بريطانية لفرض نفوذها على ايران أو التقارب معها ، فايران اكثر كثافة سكانية من المنطقة العربية على الساحل الاخر ويشكل شعبها قوة استهلاكية وسوقا هامة للمنتجات البريطانية المصنعة ، اضافة الى اكتشاف النفط فيها قبيل الحرب العالمية الاولى . لقد استطاعت بريطانية ان تحفظ التوازن وتفرض سيطرتها وتوفق بين مصالحهــا الاقتصاديــة واهدافها السياسية في المنطقة ، او فرضت نفوذها على منطقة الخليج العربي بساحليها وشمالها وجنوبها وارتبطت بعلاقات جيدة مع السعوديين في شبه الجزيرة العربية(١) . وكذلك مع حكام الامارات العربية في المنطقة .

ومن الاهمية بمكان ان نذكر هنا ان الاوضاع الاقتصادية كانت محور اهتمام السلطات البريطانية في علاقاتها بالكويت منذ نهاية القرن التاسع عشر ، فقد كانت بريطانية تتعاون احيانا وتضغط احيانا اخرى على الحكام في المنطقة بما يتمشــى ومصالحها ، فقد وقعت معاهدة مع شيخ الكويت عام ١٨٩٩ م وكانت العلاقات جيدة بينهما ، ولكنها في عام ١٩١٩ طالبت شيخ الكويت بمبالغ طائلة كرسوم على الارباح

التي حققتها تجارة الكويتيين في الهند ، مما اثار التجار في الكويت واعتبروا ذلك تدخلا في شؤونهم ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ اهتمامهم بالوضع السياسي في الامارة وشعورهم بخطر الضغوط البريطانية ووجودها على مصالحهم وعلى البلاد ، لذا تحركوا في العشرينات والثلاثينات مطالبين بحكم نيابي ورفضوا الوجود البريطاني ولكن الحالة في القرن العشرين تختلف عما كانت عليه في القرن التاسع عشر عندما كان الوجود البريطاني سببا في ازدهار الطبقة البورجوازية الخليجية حيث لعب تجار الخليج دورا هاما في نقل التجارة من الهند للمنطقة وقاموا بدور الوسيط لنقل البضائع من الهند الى العراق وداخل شبه الجزيرة العربية ، ولكن هذا الوضع قد تحول منذ منتصف القرن التاسع عشر الى اداة هدم لقطاع من هذه الطبقة وهو القطاع المشتغل بالملاحة ونقل التجارة عند ادخال السفن البخارية حيث تأثرت تجارة السفن الشراعية وصناعتها(٢) .

ان تعهدات الكويت بموجب المعاهدة مع بريطانية في ١٨٩٩ والمعاهدة البريطانية التركية عام ١٩١٣ بالا تقيم علاقات مع اية دولة الا بمشورة بريطانية والا تمنح أية امتيازات نفطية في اراضيها لاية شركة غير بريطانية ، جعل بريطانية تتحكم في السياسة الكويتية وان مثل هذه المعاهدات قد جعلت الولايات المتحدة التي بدات تخطط بعد الحرب العالمية الاولى لان تكون قوة مؤثرة تستفيد من الثروات النفطية التي بدات تتدفق في المنطقة ، حيث اخذت تضغط على بريطانية بأن لا تحتكر المنطقة وامتياز النفط فيها ، لقد بدات كل من شركة النفط الانجلو ــ ايرانية وشركة نفط الخليج الشرقية مباحثات منفصلة مع الكويت عام ١٩٣٠ م للحصول على حق الامتياز في الكويت ، ولقد كانت الشركتان الاولى بريطانية والثانية امريكية تتنافسان في هذا المجال الى درجة ان الشركة الثانية طلبت مساعدة وزارة الخارجية الامريكية للحصول على حق الامتياز بان تطالب الحكومة البريطانية الغاء فقرة ضرورة توفر شرط (الجنسية البريطانية) للشركات التي تتفاوض بشأن حق الامتياز في نفط الكويت(٣) وذلك يعني ان اي فرد أو شركة غير بريطانية ليس لها الحق في الحصول على اي امتياز للنفط في الكويت ، ولكن الادارة الامريكية تحركت في ديسمبر عام ١٩٣١ للتفاوض مع بريطانية تطلب المعاملة بالمثل للمصالح الامريكية في الكويت وان يلغى شرط الجنسية البريطانية اي يلغى احتكار بريطانية للحصول على حق الامتياز لشركات النفط في الكويت . وبعد مفاوضات طويلة ودراسة المصالح المشتركة بين الجانبين تنازلت بريطانية عن هذا الشرط لتفسح المجال امام الشركات الامريكية وكان ذلك عام ١٩٣٢ م . ونتيجة لذلك عملت شركة الخليج الشرقية مع الشركة الانجلو ــ ايرانية على القيام بعمل مشترك وتوصلتا الى تكوين شركة واحدة هي شركة نفط الكويت المحدودة في نهاية عام ١٩٣٣ م . وهذا لا يعني ان كل شركة منهما قد الغت

وجودها الخاص في المناطق الاخرى ولكن فعليا سمح للشركة الانجلو ـ ايرانية استبدال النفط الايراني او العراقي بالنفط الكويتي اذا رغبت للوفاء بجميع التزاماتها وهكذا اصبح لهذه الشركة الحق في تقرير النسبة الفعلية لانتاج النفط الكويتي طبقا لمصالحها وهذا واضح من توقف الاعمال النفطية في الكويت عام ١٩٤٢ م اضافة الى ان انتاج الكويت من النفط لم يقفز الى اعلى الا عندما ظهرت قضية تأميم النفط الايراني عام ١٩٥١ م عندما اصبحت السوق البريطانية والاوربية بحاجة الى زيادة الانتاج(٤) .

كانت الكويت تعاني من ازمة اقتصادية في الثلاثينات للاسباب التالية :

١ ـ ظهور اللؤلؤ الصناعي الياباني وكساد تجارة اللؤلؤ الطبيعي مما انعكس على تجارته في منطقة الخليج العربي .

٢ ـ انعكاس الازمة الاقتصادية العالمية التي بدات منذ عام ١٩٢٩ على المنطقة حيث انها كانت تقع تحت السيطرة البريطانية التي تأثرت بتلك الازمة وانها على علاقات تجارية مع الهند وافريقية التي تأثرت بدورها بتلك الازمة .

٣ ـ اكتشاف البترول في الكويت وعدم انتاجه وتصديره حتى نهاية الحرب العالمية الثانية الى أن بدأ تصدير اول شحنة من النفط الكويتي عام ١٩٤٦ م .

٤ ـ الحصار الاقتصادي السعودي على التجارة مع الكويت .

ونتيجة لذلك فقد تعرضت الكويت لضغوط كبيرة في هذه الفترة ، وكانت بريطانية تمسك باستمرار بخيوط الازمة او الانفراج في وضع الكويت او علاقاتها مع الجيران ، لا لانها فقط ترتبط معها بمعاهدة موقعة عام ١٨٩٩ ، ولكن ايضا لان المنطقة تقع بشكل مباشر تحتالنفوذ البريطاني فامارات الخليج جميعها تقع تحت الحماية البريطانية ، والانتداب البريطاني ومن ثم الاستقلال السياسي المرتبط بمعاهدة ١٩٣٠ م مع العراق ، وظهور النفط في السعودية ، جعل بريطانية تعمل على تحسين علاقاتها معها ، وايضا لمواجهة النفوذ الامريكي القادم الى هذه المنطقة من خلال الشركات البترولية التي اصبحت تزاحم الشركات البريطانية مما اضطرها الى التنسيق والتعاون معها . كل ذلك كان يدعو بريطانية لتحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية كما أن علاقاتها مع العراق والسعودية ومصالحها كانت تقود الى ضغوط تتعرض لها الكويت .

ويقول H. T. Chisholm في سجل مفاوضات امتياز النفط الكويتي بين بريطانية والكويت ان التنسيق البريطاني الامريكي بشأن نفط الخليج فعليا قد بدأ في عام ١٩٣٩ م(٥) . ان الولايات المتحدة بدأت تتغلغل في المنطقة عن طريق الحصول على حق امتيازات النفط في السعودية خاصة وكانت تلك مقدمة لتغلغل الولايات المتحدة في المنطقة سياسيا وعسكريا فيما بعد .

ان ذلك النفوذ الاقتصادي والسياسي والثقافي خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، قد تصاعد بنمو دور الولايات المتحدة الامبريالي في المنطقة وفي العالم كوريث للاستعمار البريطاني بعد ان افل نجمه وانحسر نفوذه وتراجع ولذا انتقلت منطقة الخليج العربي من النفوذ البريطاني الى النفوذ الامريكي .

العلاقات الكويتية السعودية :

يؤرخ للعلاقات بين الكويت والسعودية وكذلك بين الكويت والعراق اساسا حول قضية الحدود وقد ظهرت مشكلة الحدود في منطقة الخليج العربي مع ظهور البترول او منذ بداية الحرب العالمية الاولى ، وكانت بريطانية تفتعلها او تحلها حيث لعبت دور الوسيط والطرف الاساسي فيها خلال النصف الاول من القرن العشرين(٦) وقد أخذت اثارة مشكلات الحدود طابع الجدية والحدة بعد قيام الدول في المنطقة واصبحت سمة هامة للاستقلال وهي في الحقيقة رمز للتجزئة في هذه المنطقة وفي الوطن العربي .

في الحقيقة لم تظهر حدود ثابتة في منطقة الخليج العربي قبل القرن العشرين فقد كانت اتفاقية بريطانية مع تركية عام ١٩١٣ م اول محاولة لتحديد الحدود السياسية بين المناطق الخاضعة لهما في شرق الجزيرة العربية . واذا كان حكام المنطقة لم يولوا مسألة الحدود في الماضي اهمية خاصة ذلك لان مفهوم السيادة بمعناه القانوني والسياسي والجغرافي لم يكن معروفا لديهم ، فالسيادة في المجتمع العشائري والقبلي ليس لها مبدأ ثابت ومحدد فقد تكون دوافعها قبلية او دينية او ملكية الارض ، او التبعية في دفع الضريبة او الزكاة ، وكان نفوذ الحكام يمتد على الارض التي تقطنها القبائل التابعة لهم والمستقرة فيها حيث كان الولاء للحاكم وليس للامارة التي يحكمها . هذا الوضع جعل عملية تخطيط الحدود امرا صعبا لتداخل القبائل وعدم استقرارها وكان يؤدي بالضرورة الى عدم استقرار الحدود نفسها اضافة الى ان تلك الحالة تخلق كثيرا من المشكلات التي كان يحلها العرف القبلي او القوة المسلحة ، فالقبيلة التي يتحول ولاؤها من حاكم لاخر ، يدعي الحاكم

الجديد حقوقا على الاقليم الذي به القبيلة ومن الطبيعي ان يرفض الحاكم الاول الاعتراف بخروج القبيلة عن طاعته ، وبذلك تصبح المنطقة تلك موضع نزاع طويل . ان الحدود بالمفهوم التقليدي كان معترفا بها حيث كان لكل قبيلة منطقة تقليدية ولكنها لم تكن حدودا واضحة وثابتة ، وتلك الحدود كانت تقوم على اعتبارات عملية الى جانب الاتفاق بين الاطراف المعنية (٧) . ان دراسة التاريخ المعاصر للمنطقة يوضح وبدون ادنى شك ان قيام مشكلات الحدود وتعاظمها جاء مع تعاظم دور بريطانية في المنطقة ولبريطانية دوافعها واهدافها من خلق تلك المشكلات ، فسياستها بشأن الحدود في المنطقة تقوم على اثارة المشكلات والنزاعات الحدودية في بعض الاوقات وتتدخل لحل النزاعات بين الحكام حول الحدود وفي احيان اخرى لا تسمح بتغيير معالم الحدود او حتى النزاع حولها لانها تسعى للحفاظ على الوضع الراهن بما يخدم مصالحها ولكنها في النهاية تكون قد خلقت مشاكل أزلية بين أجزاء المنطقة وعلى رأسها مشكلات الحدود .

لقد تم تخطيط الحدود الكويتية السعودية في مشروع اتفاقية ١٩١٣ بين انجلترة وتركية وحال قيام الحرب العالمية الاولى دون التصديق عليه وتنفيذه . وقد اعترفت انجلترة بالسعودية كدولة مستقلة عام ١٩١٥ ونقصد هنا (نجد) فقط لان الدولة السعودية بمفهومها المعاصر لم تكتمل الا عام ١٩٣٢ م . وفي نهاية الحرب العالمية الاولى اثيرت مشكلة الحدود بين السعودية والكويت وتفاوضت السعودية مع بريطانية متجاهلة مطالب الكويت مما ادى الى تدهور العلاقات بين البلدين عام ١٩٢٠ م ، عندما تحركت قوات ابن سعود في هجوم على الكويت متعاونة مع بريطانية وان بريطانية كانت تعلم وتتابع ما يجري وقد كان غرضها ان تتدخل لفض النزاع ولتؤكد باستمرار بأن المشكلات التي تثار بينهما لا يمكن حلها الا بتدخل بريطاني . وبعد تدخل بريطانية وضغطها على القبائل المهاجمة فرضت السعودية حصارا اقتصاديا على الكويت عن طريق حظر التجارة منها واليها(٨) وفي عام ١٩٢١ م انتهت الازمة الكويتية السعودية بوفاة الشيخ سالم وتولي الشيخ احمد الجابر الحكم ، وعقد مؤتمر العقير في ديسمبر ١٩٢٢ م لتسوية المشكلات الحدودية بين ابن سعود من جهة وبيرسي كوكس المقيم السياسي البريطاني في الخليج وتوصلا الى اتفاقية العقير وكانت تسوية مؤقتة لمشكلة الحدود(٩) . ويقول الدكتور حسين البحارنة في كتابه « الوضع القانوني لدول الخليج العربي » ان اتفاقية العقير لم تنفذ ولكنها تبقى الوثيقة الوحيدة التي تحدد المركز القانوني للكويت والسعودية في المنطقة المحايدة . لقد نصت الاتفاقية على أن لكل من حكومتي السعودية والكويت حقوقا متساوية في المنطقة المحايدة ، ولكنها لم ترسم نظاما معينا أو ادارة معينة للمنطقة ،

وظلت سيادة البلد في المنطقة غير محددة ودقيقة مما فسح المجال لنزاعات اخرى فيما بعد بشأنها خاصة بعد اكتشاف النفط فيها(١٠) .

وفي فترة العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين كانت علاقات الكويت بشكل عام جيدة مع كل من بريطانية والسعودية . وفي الثلاثينات بدأ اهتمام بريطانية بالسعودية يقوى بعد ان شعرت بأن الحكم المحلي القوى في المنطقة هو حكم ابن سعود وان بلاده تحتوي على كميات كبيرة من النفط لذا بدأ التنافس البريطاني الامريكي على النفط في كل من السعودية والكويت ولكن المصالح البريطانية استدعت تأجيل انتاج النفط الكويتي الى نهاية الحرب العالمية الثانية فعاد الاهتمام البريطاني بالكويت منذ ذلك التاريخ(١١) بيد انه وان كانت العلاقات بين الكويت والسعودية تبدو طبيعية في الظاهر الا انها اتسمت بالتنافس حتى الحرب العالمية الثانية ، وقد عانت الكويت كثيرا نتيجة ذلك ، ذلك لان اوضاعها الاقتصادية في الثلاثينات كانت سيئة كما سبق ان ذكرنا ، تلك العلاقات في الحقيقة كانت متأثرة الى حد ما بالخلافات التقليدية بين بني خالد والعتوب من جهة ، وبين آل سعود والحركة الوهابية من جهة اخرى . ويرجع تاريخ تلك الخلافات الى القرن السابع عشر والثامن عشر عندما ظهرت الحركة الوهابية وامتد نشاطها ليشمل شبه الجزيرة العربية كلها ، تلك الخلافات امتدت اثارها الى القرن التاسع عشر والقرن العشرين والتي تمثلت في الهجمات المتكررة من داخل الجزيرة على المناطق الساحلية وبخاصة الكويت وكان الوجود البريطاني هو العائق امام الامتداد الوهابي في سواحل الخليج العربي .

ان الانفراج في العلاقات بين الكويت والسعودية لم يبدأ الا بعد ان قررت السعودية رفع الحصار التجاري عن الكويت خلال الحرب العالمية الثانية كما تجدر الاشارة هنا الى ان السعودية والكويت وقعتا اتفاقا امنيا للدفاع المشترك وتشاور البلدين في الامور السياسية والعسكرية عام ١٩٤٧ م .

ولابد هنا من الوقوف عند مسألة العلاقات الاقتصادية بين الكويت والسعودية بشيء من التفصيل ، أن المشكلات الاقتصادية اكما اسلفنا اثرت على العلاقات بين البلدين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وذلك ان السعودية في فترة ما بين الحربين العالميتين كانت تسعى لمعالجة ازمتها الاقتصادية لذا لجأت الي فرض رسوم على البضائع التي تدخل البلاد او المارة بها ، وقد اعتاد تجار الكويت قبل رسم الحدود السياسية ان ينتقلوا ويمارسوا نشاطهم بحرية في شبه الجزيرة العربية ، ولما حاولت السعودية اقامة مراكز للتفتيش الجمركي وفرض رسوم على التجارة الكويتية غضب التجار الكويتيون ، ولجأوا الى اساليب عديدة للتهرب من تلك المراكز

حيث مكنهم طول الحدود وتعذر مراقبتها من ذلك ، ولما لم تستطع السعودية من التحكم في التجارة الكويتية الى داخل الجزيرة قررت فرض حصار اقتصادي على الكويت * ومنع رعاياها من التعامل معها لكن حتى هذا الاجراء لم يوقف عملية التهريب التي لجأ اليها التجار الكويتيون وكانت السلطات السعودية تشتكي باستمرار من هذا الوضع لدى السلطات الكويتية والبريطانية . وحاولت السلطات السعودية وضع مراقب سعودي في جمرك الكويت وتحصيل الرسوم من التجار الكويتيين الا انها لم تفلح . رغم ان ذلك الحصار لم يوقف التجارة الكويتية من الدخول الى الجزيرة الا انه قد حد من نشاطها وتأثرت كثيراً بذلك ، والحقيقة ان ضعف الاوضاع الاقتصادية في كل من السعودية والكويت كان وراء تلك الازمات فالكويت تعتبر التجارة مصدرها الاقتصادي الاساسي آنذاك والسعودية كانت تضطرها اوضاعها الاقتصادية كذلك قبل النفط ان تتحرك للاستفادة من النشاط الاقتصادي في بلادها او في الكويت المجاورة لها (١٢) .

ان التنافس بين البلدين قد عاد ثانية في الفترة الممتدة من منتصف الخمسينات الى منتصف الستينات من هذا القرن ويرجع ذلك الى رغبة الكويت الاستقلال عن تأثير السعودية عليها .

ومن المعروف ان هذه الفترة قد واكبت المد الوطني القومي في الوطن العربي الساعي الى التحرر والاستقلال والتخلص من الوجود الاستعماري السياسي والعسكري ، وانعكاس ذلك الجو على الكويت اضافة الى نشاط الحركة الوطنية في الكويت والذي بلغ قمته في هذه الفترة . ولقد ذكرنا ان مشكلات الحدود بين السعودية والكويت بقيت تشكل ضاغطا على البلد الاصغر وهو الكويت حيث ان الاتفاقيات التي وقعت بشأنها في فترة ما بين الحربين لم تؤد الى حلها نهائيا ولكن تم التوصل الى حلها من جميع النواحي من حيث الارض والنفط والادارة عام ١٩٧٥ م (١٣) .

انه من المهم ان نذكر هنا ان بريطانية قد توسطت اثناء الحرب العالمية الثانية لانهاء الحصار الاقتصادي السعودي للكويت ، ففي عام ١٩٤٢ م نجحت في اقناع

---

* ان الحصار الاقتصادي السعودي على الكويت والازمة الاقتصادية التي مرت بها في العشرينات والثلاثينات كانت لها انعكاساتها ليس فقط على التجار انما على المواطن العادي حيث نتج عنها انخفاض الاجور وعدم توفر السلع الضرورية كما ان الازمة هذه كانت لها اسبابها السياسية وترتبت عليها نتائج سياسية والاوضاع الاقتصادية كانت من اسباب حركة المجلس ١٩٣٨ م .

الطرفين بعقد معاهدة الصداقة والتجارة بين البلدين كما ادت مساعيها الى توقيع معاهدة اخرى عام ١٩٤٧ ، هي معاهدة دفاع مشترك وامن كما سبق ذكرها . ونستنتج من تطور الاحداث بهذه الصورة ما يلي :

اولا : ان بريطانية كانت في صورة الاحداث التي تجري في المنطقة باستمرار وتؤثر فيها .

ثانيا : ان بريطانية كانت تتدخل في تلك الاحداث وتوجهها بما يخدم مصالحها وهي تتدخل في الوقت المناسب لحلها أو لتجميدها عندما ترى ان من مصلحتها ذلك .

ثالثا : ان ظهور النفط وانتاجه وتصديره ووفرته في الارض ، في هذه المنطقة ، جعل بريطانية تسعى للتأثير على علاقات الكويت والسعودية باتجاه تهدئة الاوضاع وتوثيق العلاقات بين البلدين ، ثم هي من جهة اخرى وقانونيا كما تدعي ، تتدخل لانها ترتبط مع الكويت في معاهدة ١٨٩٩ م التي تنص على اشراف بريطانية على السياسة الخارجية للكويت .

رابعا : ان سياسة الحفاظ على الوضع الراهن التي تنتهجها بريطانية في المنطقة تتطلب مقاومة اي حالة عدم استقرار قد تغير من معالم الخريطة الخليجية وبذلك تكون لها نتائج سلبية على مستقبل المصالح البريطانية في المنطقة .

وفي المحصلة النهائية ان بريطانية كانت الرابح الاساسي في المنطقة في النصف الاول من القرن العشرين في المرحلتين ، قبل النفط وبعد انتاجه وتصديره .

العلاقات الكويتية العراقية :

كما أن العلاقات الكويتية السعودية لها جانبان سياسي واقتصادي وتركزت حول الحدود فان العلاقات الكويتية العراقية اتخذت نفس الطابع تقريبا مع الفارق بين الاوضاع السياسية والاقتصادية في كل من العراق والسعودية في فترة ما بين الحربين العالميتين .

قبل بحث العلاقات الكويتية العراقية علينا ان نتحدث عن طبيعة الاوضاع في العراق والكويت في المرحلة التي نعالجها .

بعد الحرب العالمية الاولى والتي انتصر فيها الحلفاء تم احتلال العراق من قبل بريطانية . وبريطانية كانت تدرك أهمية العراق الاستراتيجية والاقتصادية .

وكانت العشرينات والثلاثينات كما قدمنا في بداية هذه الدراسة هي فترة تكوين ونشاط القوى السياسية الحزبية الوطنية والقومية في الوطن العربي من أجل الاستقلال والتحرر من الاستعمار وكان العراق في الثلاثينات معقل العروبةوالنشاط القومي لذلك كان له تأثيره على المناطق العربية وبخاصة المجاورة له وبشكل اخص على المثقفين في تلك المناطق وكانت الكويت الاقرب الى ذلك التأثير لوجود علاقات اقتصادية واجتماعية وثقافية بين البلدين ، كما أن الاستعمار البريطاني الذي يحتل العراق هو نفسه يرتبط بالكويت بمعاهدة وقعت عام ١٨٩٩ م ، وان الكويت محمية بريطانية ولبريطانية مصالحها وان اختلفت في درجتها ومراميها .

ان موقع الكويت له اهمية خاصة حيث تقع على راس الخليج العربي بين السعودية والعراق(١٤) . لقد كان المد الوطني والقومي ينمو ويتعاظم في العراق ضد الوجود الاستعماري امتدادا لحركة وطنية في كل الوطن العربي في مشرقه ومغربه وتفاعل النشاط السياسي مع العنف المسلح في اغلب اجزاء الوطن العربي ضد الاستعمار وخلق جوا وطنيا وقوميا في الساحة العربية كلها .

فمن **الناحية السياسية** كان تأثير المد الوطني والقومي للقوى السياسية في العشرينات والثلاثينات على نخبة من الشباب الكويتي واضحا خاصة وان بعضهم قد تلقى علومه في بغداد في تلك الفترة واقتنع الكثيرون منهم بفكرة الاتحاد مع العراق . **اجتماعيا** : ـ هناك علاقة الجوار وترابط القبائل والامتزاج السكاني خاصة بين الكويت وجنوب العراق ، وقد سكن الكويت كثير من أهل هذه المنطقة كما سكن بعض الكويتيين البصرة ، وكانت لبعض التجار أملاك في بساتين النخيل فيها . **اقتصاديا** : ـ كانت التجارة القادمة من الهند عبر الخليج العربي والقادمة من نجد والذاهبة اليها تتم في الغالب على يد تجار الكويت . لقد لعب الكويتيون دورا في التجارة بين نجد والعراق والتي اتخذت من منطقة الزبير في البصرة للاستراحة ، كما كانت المنتجات الزراعية العراقية ترد الى الكويت بالاضافة الى جلب مياه شط العرب(١٥) والذي بدأ منذ بداية القرن العشرين .

وقد تطورت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين الكويت والعراق ، خاصة وان العراق يتمتع بوضع اقتصادي جيد .

كان الماء يجلب من شط العرب بواسطة السفن الشراعية ، وقد تشكلت (شركة ماء الكويت) عام ١٩٣٩ م وبلغ عدد سفنها عام ١٩٤٦ م خمسا وثلاثين سفينة اغلبها من نوع (الدوب) وكانت تفرغ حمولتها في خزاناتاقامتها الشركة في جون الكويت بالاضافة الى مياه الامطار التي تختزن في البرك ، كما ان شركة نفط الكويت تقوم بتقطير كمية من الماء يستفاد منها للشركة ولبعض المواطنين (انظر يوسف عبد المحسن التركي ، لمحات من ماضي الكويت يناير ١٩٧٩ ص ٥٣ ـ ٥٤ .

ان التجارة كانت الاساس في العلاقات بين الكويت وكل من العراق والسعودية، فقد اتسمت التجارة الكويتية مع السعودية بأسلوب التهريب بعد الحصار الاقتصادي كما انها لجأت الى التهريب مع العراق ، وقد كان التهريب عاملا مؤثرا في العلاقات الكويتية العراقية .

ان نظم التجارة بين البلدين مختلفة فالكويت تأخذ بنظام التجارة الحرة ووضع حد أقصى للضرائب على الواردات ، بينما تأخذ العراق بنظام الحماية الجمركية ، وكانت القبائل بين البلدين تقوم بالتهريب ويصعب التحكم فيها ولم تكن الكويت لتريد تأزيم علاقاتها مع العراق لاسباب عديدة أساسها مصالحها الاقتصادية في العراق ، وثانيها وجود المظلة البريطانية(١٦) . وبعد ظهور النفط في الكويت بكميات كبيرة لم يعد للتجارة مع العراق اهمية وتضاءلت . اما الافكار التي كان يحملها أولئك الشباب فقد انتهت بسبب حوادث حركة المجلس عام ١٩٣٨ م وبسبب ظهور النفط وطبيعة الاوضاع السياسية التي سادت العراق في الخمسينات والستينات .

لقد كان من الطبيعي ان يكون لعراق الثلاثينات والاربعينات تأثير على شعب الكويت او غيره من الاقطار العربية في المشرق العربي ذلك لان قوى العراق الوطنية حاولت ، رغم ان البلاد كانت تقع تحت الهيمنة البريطانية ، اعادة صياغة المجتمع العراقي في النواحي السياسية والاجتماعية والتربوية باتجاه وطني وقومي ، ولما كانت تلك الاتجاهات تمس الوجود البريطاني فقد تحركت السلطات البريطانية لمواجهة الحركة الوطنية في العراق لان الاتجاه الوطني والقومي قد ركز على العملية التربوية والتعليمية(١٧) ، ادراكا منه باهميتها في تربية جيل وطني وقومي فلقد كانت ولاتزال مشكلة وطننا العربي الاساسية هي التربية والتعليم فاذا سيطرت عليها عقليات متخلفة استطاعت ان ترجع المجتمع الى الوراء بتخريج اجيال مدجنة بعد تفريغ التعليم من محتواه الحقيقي التربوي والوطني والقومي وهذه العملية لها علاقة وثيقة بسياسة الحكومات العربية وأهدافها القريبة والبعيدة من التعلم .

هذه الاجواء السياسية الوطنية القومية التي كان يعيشها العراق في تلك الفترة كان لها تأثيرها على شباب الكويت لانها ساعدت على تكوين الحركة الوطنية في الكويت في الثلاثينات ونمو نشاطها .

وقضية الحدود بين الكويت والعراق كانت من المشكلات بين البلدين التي تثار بين الحين والاخر ، لقد بدأت قضية الحدود منذ ١٩٢٣ م حيث تمت مراسلات بين الشيخ احمد الجابر مع المندوب السامي البريطاني في العراق بيرسي كوكس

حول الحدود الكويتية العراقية ، لم تؤد الى نتائج لان بريطانية كانت تسعى الى ابقاء الامور على ما هي عليه ، اي الابقاء على الوضع الراهن في فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى ، وتم تبادل رسائل بين رئيس وزراء العراق والشيخ احمد الجابر عام ١٩٣٢ م ، ادت الى الاعتراف بحدود الكويت ولكنها لم تخطط او ترسم ، كما ان تفاهما بشأنها قد حدث قبل استقلال الكويت ، بين الكويت والعراق وبين الكويت والسعودية(١٨) . ولكن المشكلة التي بقيت معلقة هي ترسيم الحدود والتي تجري المشاورات بشأنها .

وضمن تلك العلاقات قضية جلب مياه شط العرب الى الكويت ، وقد كان فكرة ومشروعا يمتد الى بداية الخمسينات ولكنه قد تعثر ولا يزال ، لاعتبارات سياسية ، ويحتاج تنفيذه الى قرار سياسي يعتمد اساسا على طبيعة العلاقات بين البلدين ، وهو مشروع هام وحيوي بالنسبة للكويت .

حركة المجلس ١٩٣٨ م والعلاقات الكويتية مع الجيران :

هناك اربعة عوامل لها علاقة عضوية بحركة المجلس الاصلاحية بالكويت عام ١٩٣٨ م .

١ ــ الوضع الاقتصادي المتردي في الكويت في العشرينات والثلاثينات نتيجة الحصار الاقتصادي السعودي على الكويت وظهور اللؤلؤ الصناعي الياباني في الاسواق العالمية ، مما كان له تأثير مباشر على تجارة اللؤلؤ الطبيعي في منطقة الخليج العربي .

٢ ــ طبيعة العلاقات مع السعودية بسبب مشكلات الحدود والتجارة بين البلدين وهجمات القبائل .

٣ ــ تطور الاوضاع في العراق والوطن العربي حيث شهدت فترة ما بين الحربين نمو الحركة الوطنية وتصاعد المد الوطني القومي ضد الوجود الاستعماري .

٤ ــ وجود الاستعمار البريطاني الذي كانت المنطقة بشكل او باخر تخضع لنفوذه .

هذه هي العوامل التي كان لها تأثير مباشر على تطور الحركة الوطنية في الكويت وحركة المجلس والنهاية التي انتهت اليها .

ولا نريد أن ندخل في تفاصيل هذه الحركة ذلك لان عددا من الكتاب قد تناول هذه القضية مثل الدكتور احمد حسن جودة والدكتور صلاح العقاد والداكتور محمد الرميحي والسيد خالد العدساني والاستاذ جاسم الصقر والسيد راشد الفرحان والدكتور خليفة الوقيان(١٩) .

ولكن من الضروري ان نتوقف عند هذه العوامل الاربعة التي ذكرناها لنستخلص منها بعض النتائج الهامة .

اقد سبق ان أوضحنا ان الكويت كانت في تلك الفترة تمر بازمة اقتصادية وكانت ضغوط السعودية كبيرة تمثلت في :

أ ـ هجمات القبائل على الكويت .

ب ـ الحصار الاقتصادي السعودي .

جـ ـ اتفاقية العقير حول الحدود والتي خسرت الكويت مساحة كبيرة من الارض نتيجة المساعي البريطانية واستمر موقفالسعودية من حركةالمجلس الاصلاحية فقد كانت ضد المجلس واتجاهاته الاصلاحية .

العقبات التي واجهت المجلس :

تتلخص العقبات التي واجهت الحركة الاصلاحية في الكويت **بالاستعمار البريطاني** اولا ، لان مطالبة المجلس بالاشراف على الاتفاقات والمعاهدات التي تبرمها الحكومة مع الخارج تتعارض مع معاهدة الكويت مع بريطانية ١٨٩٩،ذلكانها اولا ربما تنتهي تلك المطالبة الى مشاركة شعبية حقيقية تمتد وتتسع فتؤثر علىالوجودالاستعماري. وثانيا ان المعاهدة البريطانية الكويتية تنص على الا تعقد اتفاقيات او معاهدات بدون استشارة بريطانية ، وهذه كانت تخشى ان تتطور الامور بحيث تؤثر علىمصالحها الاقتصادية لانه في ذلك الوقت قد تم اكتشاف النفط في الكويت .

السعودية :

لقد كانت السعودية معارضة للحركة الاصلاحية في الكويت ومبعث ذلك الموقف هو :

أ ـ الخوف من امتداد (العدوى) أو مثل هذه الاتجاهات الوطنية الى شبه الجزيرة خاصة وانه قد ظهرت حركات اصلاحية مماثلة انذاك في كلمن دبي والبحرين

ب ـ وجود عناصر مؤيدة للعراق بين اعضاء المجلس والتعاطف بين الحركة الوطنية في الكويت والعراق مما كان يقلق نظام الحكم في السعودية(٢٠) .

ثالثا : الحكم في الكويت الذي فسح المجال لانتخاب مجلس تشريعي والذي قام باصلاحات كثيرة وهامة في المجال الاداري ، ولكنه تحرك بعد فترة قصيرة من عمر المجلس للقضاء على التجربة التشريعية نتيجة ظروف داخلية وخارجية ، اساسها ان اعضاء المجلس ، كما ذكر الاستاذ جاسم الصقر ، قد وقعوا في بعض الاخطاء وقد كانت بعضها اخطاء جسيمة نتيجة عدم فهم الظروف السياسية التي كانت تعيشها الكويت لانها كانت تحت الحماية البريطانية وقلة التجربة والممارسة على ارضية الواقع (٢١)

رابعا ـ معارضة الشيعة للمجلس ويقول الدكتور صلاح العقاد بهذا الصدد لقد كون الشيعة عنصرا معارضا للحركة (حركة المجلس ١٩٣٨ م) وذلك لان واضعي قانون المجلس قد ميزوا بين الشيعة والسنة فكان حق الشيعة مقصورا على الانتخاب دون الترشيح للنيابة واصرار المجلس على تنحية السكرتير الخاص للشيخ وهو من اصل فارسى (٢٢) ويقدر عددهم في ذلك الوقت حوالي ثلث السكان ، فقد تحرك هؤلاء في مظاهرة صاخبة طافت شوارع المدينة وطالبت بسقوط المجلس التشريعي (٢٣) .

انه من الصعب التحدث عن الاوضاع في الكويت دون ربطها بالاوضاع العربية وان دراسة تاريخ الكويت المعاصر توضح لنا ان الاوضاع العربية سلبية كانت ام ايجابية لها انعكاساتها على الكويت فلم يكن أي حدث اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي في الكويت الا وله علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالاوضاع في البلاد العربية القريبة والبعيدة .

ونحن اذ نتكلم عن الاوضاع في الكويت وعلاقاتها علينا أن ندرك الاهمية الكبرى لتطور الحركة الوطنية ونضالها الفكري والسياسي والمسلح في الوطن العربي في الفترة التي نعالجها .

لقد كانت القوى الوطنية في المشرق العربي والمغرب العربي في عنفوان قوتها ونشاطها في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن .

ولو اجملنا الاحداث الهامة التي شهدتها الساحة العربية في هذه الفترة نجد ما يلي :

١ ـ دخول التعليم الحديث وتأثيره في الوعي السياسي في الوطن العربي .

٢ ـ نمو وتطور الشعور الوطني والقومي نتيجة وعي النخبة والتي كانت تنعو في البورجوازية الكبيرة والصغيرة ومن ثم من خلال طبيعة الصراع مع الاستعمار وقوى التخلف في البلاد العربية ، كما أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وعملية الصراع بين الطبقات الاجتماعية المستغلة والمستغلة وبينها وبين الوجود الاجنبي المتمثل في الاستعمار التقليدي بأشكاله واساليبه المختلفة قد دفع بالوضع العربي الى مرحلة ارتفاع درجة حرارة الصراع وتراوح نشاط القوى الوطنية مابين الاسلوب السياسي من أجل الاستقلال وبين العنف المسلح .

٣ ـ اندلاع المقاومة المسلحة الليبية ضد الاستعمار الايطالي في الفترة ١٩١٤ ـ ١٩٣٢ .

٤ ـ ثورة سعد زغلول في مصر ١٩١٩ ضد الاستعمار البريطاني .

٥ ـ ثورة العشرين في العراق ١٩٢٠ ضد الاستعمار البريطاني .

٦ ـ المقاومة المسلحة في المغرب الاقصى (مراكش في الفترة ١٩٢١ ـ ١٩٣٠ م) ضد الاستعمار الفرنسي والاسباني .

٧ ـ ثورة الشعب السوري ضد الاستعمار الفرنسي ١٩٢٥ م .

٨ ـ تكوين ونمو الاحزاب السياسية في العشرينات والثلاثينات في المغرب العربي : نجمة شمال افريقية ، حزب الشعب الجزائري ، حزب الدستور التونسي، حزب الاستقلال المغربي ، وفي المشرق العربي نمت احزاب وقوى سياسية عديدة في كل من الشام والعراق ومصر في تلك الفترة .

وقد اسهم كفاح تلك القوى الوطنية ضد الاستعمار في بلورة الوعي السياسي في الساحة العربية كلها .

٩ ـ ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ م ضد النشاط الصهيوني العالمي المتمثل في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين وضد الانتداب البريطاني في فلسطين المتواطيء مع الصهيونية العالمية .

١٠ ـ الحربين العالميتين الاولى والثانية وانعكاس احداثهما على الوطن العربي حيث ان الوطن العربي كان ساحة حرب بين القوى المتصارعة وأن ابناءه خاصة في المغرب العربي قد جندوا في هاتين الحربين وقاتلوا في بلادهم وخارجها في

حروب لامصلحة لاوطانهم بها ، كما أن الازمات الاقتصادية والسياسية والعسكرية لها انعكاساتها خلال الحربين على الوطن العربي لانه كان يقع تحت نفوذ القوى الاستعمارية ولابد في حالة الحرب من استخدامامكانياته وطاقاته البشرية والاقتصادية والجغرافية ونريد أن نقول ان هذا الوضع كان سلاحا ذا حدين فطبيعة الصراع قد خلقت وعيا سياسيا بدأ يطرح أسلوبا جديد متطورا في الكفاح الوطني وان طبيعة الصراع قد خلقت طبقات اجتماعية جديدة أو أفرزها الصراع وحدد معالمها وتهيأت لتلعب دوراً مكملا لدور الطبقات التي تصدرت العمل الوطني في مراحله الاولى .

ان البعض يحاول أن يصور المرحلة على انها مرحلة صراع سياسي ولا دخل للصراع الاجتماعي فيها لانها مرحلة التصدي للاستعمار ، ان نظرة هذا البعض قصيرة ومحدودة ولاترى أبعاد المشكلات والاحداث الحقيقية ومسبباتها فاذا كانت نتائج الصراع سياسية فلا يعني أن طبيعة الصراع سياسي بحت واذا كتب التاريخ من وجهة نظر سياسية بحتة ، فذلك لايعني ايضا أن ليس للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية دخل في تطور الاحداث السياسية واذا كان وعي الحركة الوطنية وممارساتها واشتراك مختلف الطبقات في الصراع ضد الاجنبي المستعمر فذلك لا يعني بأي حالاستبعاد العامل الاجتماعي والاقتصادي ، لابليؤيده ويعضدهولنأخذ مثلا واحداً فقط وهو ان المقاومة المسلحة في كل من ليبيا والمغرب الاقصى وقبلهما الجزائر كانت أساسا بسبب استيطان الارض وانتزاع الارض من الفلاح واننا اذا تعمقنا اليوم في تحليل المشكلات السياسية القائمة في الوطن العربي نجد ان اسبابها اساسا اقتصادية واجتماعية اضافة الى العوامل الاخرى .

وقد يتصور البعض انه نتيجة لطبيعة الاوضاع والعزلة والتخلف وقلة وسائل الاعلام فان ماكان يحدث في ليبيا وغيرها من اقطارنا العربية بعيد عنا . ابدا لقد كان الشباب المثقف يعيش أحداث أمته منذ ذلك الوقت المبكر وقراءة سريعة للشعر الكويتي في تلك الفترة أو فترة مابين الحربين العالميتين يوضح لنا مدى التفاعل الحي والواعي في أرجاء وطننا العربي(٢٤) .

نكبة فلسطين :

لقد كان عام ١٩٤٨ م نقطة تحول في التاريخ المعاصر للبلاد العربية تمثلت باغتصاب فلسطين واقامة الكيان الصهيوني في فلسطين وكانت خاتمة مرحلة من تاريخ العرب المعاصر وبداية مرحلة اخرى منه ، حيث شهدت مرحلة مابعد النكبة ثورات في الوطن العربي (ثورة مصر ١٩٥٢ م ، ثورة الجزائر ١٩٥٤ م ، ثورة

العراق ١٩٥٨ م ، الوحدة المصرية السورية ... الخ) كما شهدت المرحلة التالية للنكبة نموا في وضع الحركة الوطنية ففي الوقت الذي كانت فيه البورجوازية الكبيرة الى جانب البورجوازية الصغيرة ضد الاستعمار تصدرت البورجوازية الصغيرة هذا الكفاح في الخمسينات والستينات ، وكان لتلك الاوضاع انعكاساتها المباشرة وغير المباشرة على مثقفي الكويت .

لقد عاشت الكويت فترة ركود في نشاط الحركة الوطنية بعد سقوط المجلس التشريعي عام ١٩٣٩ م . واستمرت تلك الفترة حتى بداية الخمسينات عندما بدا النشاط السياسي يدب فيها من جديد بعد نكبة فلسطين . فقد وفدت الى الكويت اعداد كبيرة من الفلسطينيين والعرب ، وقد واكب ذلك أحداث في الساحة العربية كان لها تأثيرها على الجو السياسي في الكويت وبخاصة ثورة الجزائر والعدوان الثلاثي على مصر وقيام الوحدة الاندماجية بين مصر وسورية .

لقد كان من الطبيعي أن تبدأ الحركة الوطنية في الكويت في ظل هذه الاجواء ببناء تنظيمات سياسية فبدأت منذ بداية الخمسينات التنظيمات القومية وكانت لها نشاطات علنية من خلال النادي الثقافي القومي والصحف الوطنية وكذلك في النوادي الرياضية التي كان لها دور ثقافي وسياسي في الخمسينات .

وكما عاشت الحركة الوطنية في الكويت فترة من الركود والانحسار بعد حركة المجلس التشريعي عام ١٩٣٨ حتى بداية الخمسينات ، عادت الى الركود والانحسار ثانية بعد عام ١٩٥٩ م عندما اغلقت الصحف الوطنية والنوادي الرياضية والثقافية . ولكن هذهالفترة لم تكن طويلةحيث بدا الانفراج معالاستقلال والانتخابات العامة للمجلس التأسيسي عام ١٩٦١ .

أيضا علينا أن نربط هذا الوضع بالوضع العربي ذلك ان الانتكاسات في الساحة العربية قد بدت في الخمسينات والستينات بانحراف ثورة العراق الوطنية عام ١٩٥٩ م ومن ثم جاء سقوط أول تجربة وحدوية في تاريخ العرب المعاصر عام ١٩٦١ م .

وانتهت مرحلة لتبدأ مرحلة صعود في العمل الوطني في الساحة العربيةبانتصار ثورة الجزائر والانفراج في الوضع السياسي الى حد ما في الساحة العربية ولكن هذه المرحلة انتهت عام ١٩٦٧ م بالهزيمة الكبرى والتي تلتها هزائم متلاحقة لانزال نعيشها .

العلاقات الكويتية مع الاقطار العربية الاخرى :

ان علاقات الكويت مع الاقطار العربية الاخرى عدا العراق والسعودية في الثلاثين سنة قبل الاستقلال كانت اساسا علاقات شعبية أكثر منها رسمية بدات مع الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ م مع ميلاد وتطور الوعي الوطني القومي لدى الشباب الكويتي في الثلاثينات ، قامت الثورة الفلسطينية ضد النشاط الاستيطاني اليهودي وضد الوجود الاستعماري البريطاني المتعاون معه ، وكان لتلك الثورة صداها في الكويت وقد تمثل ذلك في التأييد والدعم للثورة ، لقد ساهم الشباب الكويتي بعملية تهريب السلاح الى الثورة الفلسطينية عبر العراق وقد وثق ذلك أكرم زعيتر في يومياته حيث قال :

« لقد عقدنا اجتماعا خاصا مع متصرف البصرة تحسين علي بحضور الدكتور وحيد حقي ، رسمنا خطة العمل وتذاكرنا في موضوع سفري وفخري وكاظم الى الكويت من البصرة فابدى استعداده لتأمين وسائل السفر صارحه كاظم ببعض أسباب السفر وما يرجى من مساعدة على تسريب مايمكن جلبه من الكويت من سلاح فاستعد ورسم الخطة وقال انه حين يتلقى برقية من الكويت مؤذنة برجوعنا وموعده فانه سوف يخرج هو بسيارته ومعه حرسه لاستقبالنا على الحدود في مكان اسمه (صفوان) وبذلك تتم حماية ماسنحمله من الكويت للثورة الفلسطينية »(٢٥) . واكد ذلك الدور للحركة الوطنية الكويتية في هذا الدعم الاستاذ جاسم الصقر في محاضرته في رابطة الاجتماعيين في بداية موسمها الثقافي لهذا العام .

وتصاعدت موجة الغضب على الصهيونية واليهود مما ادى الى طرد اليهود من الكويت بعد قيام الثورة الفلسطينية ، لقد كان عدد اليهود في الكويت حوالي ٦٠ يهوديا في بداية القرن العشرين كما ذكرت مجلة المشرق التي كانت تصدر في دمشق في عددها ١٠ أيار ١٩٠٤ م ولكن عبد العزيز رشيد في كتابه تاريخ الكويت ، يقدر عددهم بمائة وخمسين يهوديا ، ولكنه لم يحدد التاريخ كما انه يختلف مع بعض الكتاب في رحيل اليهود من الكويت ، فبعضهم يقول بانهم طردوا بعد ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ م وطرد ماتبقى منهم بعد احتلال فلسطين عام ١٩٤٨ م ولكن عبد العزيز رشيد يقول انهم اضطروا الى النزوح عن الكويت واحد بعد الاخر لان الكويتيين لم يتعمقوا في التعامل معهم(٢٦) كما أرسل الشيخ احمد الجابر برقية بتاريخ ١١-٧-١٩٣٧ م الى اللجنة العليا في فلسطين تنص على استعداده للقيام بالواجب للمساعدة الممكنة(٢٧) .

وقام الكويتيون بجمع التبرعات للثورة الفلسطينية وتقول روز ماري سعيد في دراستها الخليج والقضية الفلسطينية ١٩٣٦ ـ ١٩٤٨ م ، انه قد تم جمع التبرعات من الشعب الكويتي وارسلت للثورة الفلسطينية عن طريق صحيفة (الناس) التي كانت تصدر في البصرة ، واعلنت الصحيفة ان مجموع التبرعات من الكويت قد بلغ (٢٠٠) دينار عراقي وذلك في يوليو ١٩٣٦ م(٢٨) .

لقد وفدت اعداد كبيرة من الفلسطينيين الى الكويت في الخمسينات واستقبلتهم الكويت وهي تعيش نهضتها الثقافية والعمرانية وكان لهم دور هام في هذه النهضة .

أما علاقة الكويت الثقافية وفي ميدان التعليم مع الاقطار العربية فقد كان لها تأثير هام في تطور الوعي السياسي لدى المواطن الكويتي ومواكبة احداث امته والتفاعل معها ، ولابد من الوقوف قليلا عند قصة التعليم في هذه الفترة وتأثيرها .

ان اول بعثة غادرت الكويت لطلب العلم اتجهت الى العراق في عام ١٩٢٥ م وتأثر هؤلاء الشباب بالاحداث السياسية على الساحة العراقية والتيارات الفكرية الجديدة فتولد الوعي القومي لديهم مما دفعهم بعد عودتهم الى العمل لتغيير نمط الفكر التقليدي السائد وبعث الروح القومية وفكرة الوحدة العربية ، فكانوا ضمن الجماعة التي شكلت تنظيما سريا بالكويت اسمته (الكتلة الوطنية) وقد هيأ لها الجو السياسي في العراق مجالا خصبا من الناحية الاعلامية ، فاذاعة قصر الزهور التي كان يشرف عليها الملك غازي كانت تساندهم مع الصحافة العراقية حيث كانت المقالات يكتبها عناصر من الكتلة باسماء مستعارة وطبعوا المناشير السرية في البصرة لتوزيعها في الكويت اثناء أزمة عام ١٩٣٨ م .

واذا كانت أول بعثة دراسية كويتية غادرت الكويت قد اتجهت الى العراق لتلقي العلم في تلك الفترة الهامة والوعي السياسي في العراق تبلور بتكوينه الاحزاب السياسية والمد الوطني والقومي يتصاعد ضد الاستعمار ، فان أول بعثة للتدريس قد قدمت الى الكويت عام ١٩٣٦ م كانت من فلسطين وفي العام الذي اندلعت فيه الثورة الفلسطينية ضد الانتداب وضد الهجرة الصهيونية ، في بلديتصاعد فيه الصراع بين الشعب الفلسطيني العربي وبين القوى الامبريالية والصهيونية ، ويترك انعكاسه بدون شك على الاوضاع في الكويت . وقدمت البعثة الثانية للتعليم من مصرعام ١٩٤٢م خلال الحرب العالمية الثانية . كما أن البعثة الكويتية لتلقي العلم قد ذهبت الى مصر وبيروت في الاربعينات في هذا الجو الوطني والقومي المتأجج الذي شهد نكبة فلسطين ثم تأتي البعثة التعليمية المصرية الثانية بعد ثورة مصر عام

١٩٥٢ تلك الحركة التي بدات خطوات تحروية حقيقية ضد الاستعمار والتخلف وخلقت جوا سياسيا وطنيا وقوميا كان له انعكاساته في الوطن العربي خاصة وان هذا المد قد واكبته احداث هامة في الساحة العربية في الخمسينات ،

تلك الاحداث المتلاحقة والهامة كان لها تأثيرها على الشباب الكويتي الذي عاش اجواءها وتنفس منها وتشرب فكرها الوطني والتحرري . ونستطيع القول ان التعليم في الكويت منذ بدايته حتى بداية الستينات قد واكب احداثا وطنية هامة في الوطن العربي وأصبحت بذور الوعي القومي والوحدوي والاجتماعي راسخة .

وعلى المستوى الرسمي بدأت الكويت تبني علاقاتها مع الدول العربية منذ بداية الخمسينات بالتعاون مع جامعة الدول العربية في شؤون والثقافة والاقتصاد قبل ان تكون عضوا فيها . وأنشأت مكتبا لمقاطعة اسرائيل وعقد مؤتمر ضباط اتصال المكاتب الاقليمية لمقاطعة اسرائيل دورة له في الكويت في الفترة مابين ١٨ ـ ٣٠ اكتوبر ١٩٥٨ م .

وقام السيد فرحات عباس رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة بزيارة للكويت في عام ١٩٥٩ لتثمين الدعم الذي قدمته الكويت للثورة الجزائرية .

كما ساهمت الكويت في اجتماعات المجلس الاقتصادي العربي منذ يناير ١٩٥٩ .
ومن ضمن القضايا الهامة في العلاقات الكويتية العربية فتح ابواب الكويت للاخوة العرب للعمل فيها(٢٩) ولاشك في أن التفاعل العربي خلال الخمسينات والستينات داخل الكويت (علاقات العرب بالكويتيين) قد تبلور في مفاهيم قومية واجتماعية أرقى بكثير مما عرفته المنطقة خلال عزلتها القسرية عن أمتها العربية تحت السيطرة الاستعمارية .

وكان للوجود العربي في الكويت دور في نمو وتطور الحركة الوطنية ، لـذا كانت السلطات البريطانية قلقة من هذا الوضع الذي قد يؤثر على مصالحها الحيوية فيها مستقبلا وقد عبر عن ذلك القلق المستر ديكسون الوكيل السياسي البريطاني السابق في الكويت والممثل لشركة بترول الكويت فيما بعد بقوله « ان الحركات الاجتماعية والسياسية التي تحققت في مصر وغيرها من بلاد الشرق الاوسط اتت ثمارها في هذه المنطقة (بعد ثورة ١٩٥٢) وأنها لابد آخذة مجراها الطبيعي وبالغة غاياتها .. ان الخطر المباشر المحدق بالكويت والمهدد للاستعمار البريطاني خاصة هو التقاء العرب من المناطق الاخرى مع الكويتيين في منطقتهم ، وأن الشعار السائد الآن هو الجزيرة للعرب والكويت للكويتيين »(٣٠) .

ومع ان النفوذ البريطاني بدأ يتقلص بعد الحرب العالمية الثانية الا ان السلطات البريطانية كانت تدافع عن مصالحها وسياساتها حتى النهاية ، وقد كان يقلقها وجود العرب في هذا البلد لانها منذ الحرب العالمية الاولى وهي تتلقى الضربات على يد الحركة الوطنية في اجزاء الوطن العربي الخاضعة لها ، وكان قلقها شديدا على مصالحها النفطية في الكويت بعد أن أصبحت الحركة الوطنية قوة مؤثرة في الساحة الكويتية والخليجية .

وتجدر الاشارة الى ان تطور الوضع داخل منطقة الخليج العربي يتأثر بالاحداث التي يمر بها الوطن العربي سلبية كانت ام ايجابية ، وبما ان الوطن العربي يمر بمرحلة الهزيمة الحضارية ومرحلة التردي والانحسار على كل المستويات فان ذلك قد انعكس على منطقة الخليج سلبيا ، وجانب منه هو الفتور ان لم نقل الجمود في التفاعل العربي داخل المنطقة مما اتاح الفرصة لظهور الاقليمية والطائفية والعنصرية لتملأ الفراغ الناتج عن انحسار المد الوطني والقومي . هذه طبيعة العلاقات الكويتية العربية وتطورها في فترة هامة من تاريخ الكويت المعاصر .

الخاتمة

بعد تحليل الاوضاع التي كانت عليها الكويت سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وطبيعة العلاقات التي كانت سائدة بين الكويت والدول العربية في الفترة التي يعالجها البحث ١٩٣٠ ــ ١٩٦٠ وهي بحق مرحلة انتقال هامة في تاريخ الكويت سنحاول الان استخلاص بعض النتائج الهامة من هذه الدراسة :

اولا : لقد كانت بريطانية هي التي ترسم سياسات المنطقة وتشرف على تطوراتها بما يخدم مصالحها ، وتطور علاقات الكويت مع البلاد العربية كان يتحرك في اطار سياستها .

ثانيا : ان مشكلات الحدود كانت هي محور العلاقات المتنافرة في المنطقة ولقد لعبت بريطانية دورا هاما في خلق تلك المشكلات لاهداف سياسية واستراتيجية واقتصادية .

ثالثا : ان للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتطورها دورها الهام في العلاقات بين الكويت وجيرانها في تلك الفترة .

رابعا : ان الاحداث الوطنية والقومية في الساحة العربية كان لها انعكاسها على المجتمع الكويتي وتطور وعيه السياسي .

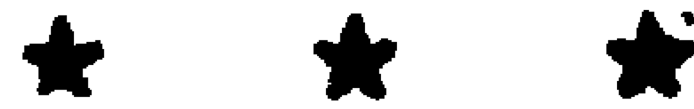
خامسا : ان العلاقات بين الكويت والدول العربية لم تقف عند حدود العلاقات السياسية بل انها تعدت ذلك لتكون علاقات ثقافية واجتماعية واقتصادية

سادسا : ان للحركة الوطنية في الكويت دور هام في توثيق العلاقة مع الشعب العربي في الوطن العربي بطريق مباشر أو غير مباشر .

سابعا : لقد كان للاحداث في الساحة العربية انعكاساتها السلبية والايجابية على الكويت .

ثامنا : من دراسة تطور العلاقات بين الكويت والبلاد العربية نلمس تطورا في الوعي لدى الشباب الكويتي منذ وقت مبكر حيث كان يواكب الاحداث في الوطن العربي ويتفاعل معها ، وكان للتعليم الحديث دوره في ذلك على يد الاجيال الاولى التي خرجت في بعثات دراسية الى الدول العربية في العشرينات والثلاثينات والاربعينات والخمسينات .

تاسعا : ان موقع الكويت الجغرافي وحجم سكانها كان يفرض علاقات ذات طبيعة خاصة مع الجيران والدول العربية الاخرى .



الحواشي :

(١) دكتور صلاح العقاد ، معالم التغيير في دول الخليج العربي ، القاهرة ١٩٧٢ م ص ١٤ ، ٢٣ ، ٢٤.
يذكر الاستاذ عوني فرسخ في بحثه استراتيجيةالغرب والطموحات العربية ان الاستعمار الاوربي قد طرد الملاحة العربية من أعالي البحار وقلص دور العرب التاريخي في التجارة بين الشرق والغرب. (بحث غير منشور) ، ص ٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٥ ، ٧ .

(٣) A. h. t. chisholm, The First kuwait Oil Concession-Arecord of the for the 1934 Agreement, London, 1975, P. XII - XIII, 15 - 16.

(٤) انظر ايضا : الدكتور / أحمد حسن جودة ، ترجمة حسن علي النجار ، المصالح البريطانية في الكويت حتى عام ١٩٣٩ ، بغداد ، ١٩٧٩ م .

(٥) A. H. T. Chisholm, op. cit., P. XII.

انظر ايضا : الدكتور احمد جودة ، ترجمة حسن علي النجار ، المصالح البريطانية في الكويت حتى عام ١٩٣٩ م المصدر الساق ص ١٢٨ .

(٦) دكتور صلاح العقاد ، معالم التغيير في دول الخليج العربي ، القاهرة ، ١٩٧٢ م ص ٨ ٢.

(٧) د. عبد الله الاشعل ، قضية الحدود في الخليج العربي ، مركز الدراسات السياسية الاستراتيجية بالاهرام ، القاهرة ١٩٧٨م ص ٢٣ ، ٢٤ .
انظر ايضا : الدكتور جمال زكريا قاسم ،مختارات من وثائق الكويت والخليج العربي ، جامعة الكويت ، ٩٧٢ ، ص ٣٧ .

(٨) الدكتور أحمد حسن جودة ، ترجمة حسن علي النجار ، المصالح البريطانية في الكويت حتى عام ١٩٣٩ م - بغداد ، ١٩٧٩ م ص ١٠٥ - ١٠٨ .

(٩) جي . بي . كيلي ، تعريب خيري حماد ، الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية ، بيروت لبنان ١٩٧١ ، ص ١٧٥ - ١٧٧ .

(١٠) د. عبد الله الاشعل ، المصدر السابق ،ص ٤٢ - ٤٣ ، انظر ايضا : الدكتور سيد نوفل ، الخليج العربي او الحدود الشرقية للوطن العربي بيروت ١٩٦٩ م ، ص ١٧٠ .

(١١) المصدر السابق رقم (١) ص ١١٦ ، ١١٧ - انظر ايضا : جمال زكريا قاسم ، بريطانياوالخليج العربي في الحرب العالمية الاولى - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الثالث يوليو ١٩٧٥ جامعة الكويت ص ٩٨ - ٩٩ .

(١٢) دكتور صلاح العقاد ، المصدر السابق ص ٢٠ - ٢١ وانظر راشد الفرحان ، مختصر تاريخ الكويت ١٩٦٠ ، القاهرة ص ٩٧ - ٩٨ .

(١٣) عبد العاطي محمد احمد ، الدبلوماسية في الخليج والجزيرة العربية ، مركز الدراسات الاستراتيجية بالاهرام ، القاهرة ١٩٧٩ م ، ص ٧١ — ٧٣ .

(١٤) Arnold Wilson, The Persian Gulf, London, 1928, 1954 1959, P. 249.

(١٥) راشد الفرحان ، مختصر تاريخ الكويت ، المصدر السابق ص ١٥٩ .

(١٦) دكتور صلاح العقاد ، المصدر السابق ص٢٣ .

(١٧) الدكتور رافت غنيمي الشيخ ، الولايات المتحدة الامريكية واتجاهات التعليم في العراق ، بحث مقدم للندوة العلمية العالمية الثالثة لمركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرةمارس ١٩٧٩ م ، الكتاب الثاني ١٩٧٩ م بغداد ص ٢٧١ .

(١٨) د. عبد الله الاشعل ، المصدر السابق ص ٣٢ — ٣٣ .

(١٩) د. احمد حسن جودة ، ترجمة علي النجار، المصدر السابق ص ١٢٩ — ١٣٢ د. صلاح العقاد ، معالم التغيير في دول الخليج العربي ، المصدرالسابق ص ٢٦ — ٢٧ . د. محمد الرميحي ، حركة ١٩٣٨ الاصلاحية في الكويت بين الحربين، القاهرة ١٩٧٢ ص ٣١٥ ، ٣٢٩ . السيد خالد العدساني ،نصف عام من الحكم النيابي في الكويت (بدون تاريخ) ، راشد الفرحان ، مختصر تاريخ الكويت ، المصدر السابق .

الدكتور خليفة الوقيان ، القضية العربية في الشعر الكويتي ١٩٧٧ الكويت ص ٤٥ — ٥٢ .

(٢٠) دكتور صلاح العقاد ومعالم التغيير في دولةالخليج العربي ، المصدر السابق ٢٦ — ٢٧ .

(٢١) الاستاذ جاسم الصقر ، تطـور الحركة الديمقراطيـة في الكويت ، محاضرة القيت في رابطة الاجتماعيين ضمن الموسم الثقافي الثالث عشرللرابطة بتاريخ ١٩٨٢/٢/٨ م .

(٢٢) دكتور صلاح العقـاد / معـالم التغيير فيالخليج العربي ، المصدر السابق ص ٢٧ .

(٢٣) عبد الله الحاتم ، من هنا بدات الكويت ، الكويت ص ٢ ٣ .

(٢٤) د. خليفة الوقيان ، القضية العربية فيالشعر الكويتي ، الكويت ١٩٧٧.م . ص ٧٧ — ٨٧، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٤٩ .

لقد كان لشعر الشعراء الكويتيين دور في الوعي السياسي والتفاعل مع الاحداث العربيـة مثل : خالد الفرج ، عبد اللطيف النصف ، محمود الايوبي، صقر الشبيب ، عبد اللهالنوري، فهد العسكر .

(٢٥) يوميات اكـرم زعيتر ، الحـركة الوطنيـةالفلسطينية ١٩٣٠ — ١٩٣٩ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ص ٣٠٢ .

(٢٦) مجلة المشرق عدد ١٠ أيار ١٩٠٤ ، دمشق . انظر أيضا : عبد العزيز رشيد ، تاريخ الكويت ، بيروت ١٩٧٨ م وص ٩١ . انظر أيضا : الدكتوره : زاهية قدوره ، تاريخ العرب الحديث ١٩٧٥ م ، بيروت ص ١٢٣ .
انظر ايضا : د. علي ابراهيم عبده ود. خيرية قاسمية ، يهود البلاد العربية ، دراسات فلسطينية ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٥٨ .

(٢٧) يوميات أكرم زعيتر ، المصدر السابق ،ص ٣٠٢ .

(٢٨) روزماري سعيد زحلان ، الخليج والقضية الفلسطينية ٣٦ - ١٩٤٨ ، مجلة المستقبل العربي ٤ / ١٩٨١ م .

(٢٩) الدكتور / سيد نوفل ، المصدر السابق ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٣٠) الدكتور / سيد نوفل ، المصدر السابق ،ص ٢١٩ - ٢٢٠ .



صفحات من تاريخ الجمعيات
في بلاد الشام
١٩٠٨ ـ ١٩٠٩م

د. سهيلة الريماوي

الجامعة الاردنية

ان سنة ١٩٠٨ تفرض نفسها بصورة موضوعية كنقطة بداية لمرحلة جديدة في تاريخ الامبراطورية العثمانية بشكل عام وتاريخ بلاد الشام بشكل خاص ، هي مرحلة ظهور الاحزاب وممارسة الحياة الحزبية ، بالاضافة الى ما يطلقه المؤرخون عادة على هذه السنة من كونها (سنة اعادة المشروطية) او سنة اعادة الدستور والحياة الدستورية للامبراطورية .

ان هذا التغيير الكبير في طبيعة نظام الحكم الذي شهدته الامبراطورية قد تحقق نتيجة انقلاب حزبي ، عرف بانقلاب المشروطية ، قام به حزب هو حزب الاتحاد الترقي ، الذي تكون ونما ، سراً ، في ظل حكم السلطان عبد الحميد رغم جواسيس السلطان وحمكه اللادستوري .

كما ان هذا التغيير الذي اعاد الحياة الدستورية من جهة ، والذي توج انتصاراً حزبيا من جهة اخرى ، اتاح المجال لقيام حياة سياسية برلمانية نشطة ، وحياة حزبية علنية ومشروعة في الامبراطورية العثمانية ، بعد مرحلة الركود الطويل الذي اصاب الحياة السياسية في عهد السلطان عبد الحميد . وان هذا التغيير اقام حكما حزبيا في الامبراطورية العثمانية هو حكم حزب الاتحاد والترقي .

غير ان هذا الحزب الحاكم قد تعرض للاحزاب والجمعيات التي كانت قائمة في الامبراطورية العثمانية ، سواء كان ذلك بما وضعه من تشريعات دستورية وقانونية تتعلق بحرية تكوين الجمعيات ، التي تشمل الاحزاب ، او كان بما ترتب على سياسته العامة من نتائج ، وبصفة خاصة تجاه القوميات وحقوقها وتنظيماتها الحزبية .

فقد كان الحزب الحاكم حزبا ديناميكيا ، لديه مخطط متحرك ونشيط لتنفيذ برنامجه الذي يرتكز على عدة نقاط رئيسية ، كان من جملتها تثبيت سيطرته كحزب حاكم ، عن طريق استقطاب الاحزاب التي وجدها قائمة امامه ، ومن هذا المنطلق الحزبي للاتحاد والترقي ، بدات مظاهر الصراع المستمر بين الحزب الحاكم وبين أحزاب القوميات الاخـرى .

وتبرز أمامنا معالم الصورة الحزبية في الامبراطورية العثمانية ــ وبلاد الشام جزء منها ــ غداة الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ ، على الشكل التالي :

١ ــ جمعية التشبث الشخصي واللامركزية الادارية ، ومركزها باريس .
٢ ــ جمعية الاتحاد والترقي ، ومركزها سالونيك .
٣ ــ جمعية الشورى العثمانية ، ومركزها القاهرة .
٤ ــ جمعية النهضة العربية ، ومركزها دمشق .

واذا كان الحزب الاول والثاني يضمان بعض اعضاء مـن العرب(١) فـان الحزب الثالث والرابع كانا من اوائل الاحزاب عربية التكوين ، التي تأسست في الامبراطورية العثمانية(٢) .

ولقد طرا على هذه الصورة الحزبية تغييرات كثيرة ، اثر انقلاب سنة ١٩٠٨ ، نوجزها على الشكل التالي :

آ ــ برزت جمعية الاتحاد والترقي ، فاستلمت الحكم وبقيت حزبا كبيرا حاكما مؤثرا حتى نهاية الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٨(٣) .

ب ــ اندثرت جمعية التشبث الشخصي واللامركزية الادارية ، وجمعية الشورى العثمانية ، بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ بمدة وجيزة .

ج ــ تطورت جمعية النهضة العربية تطورا شاملا وبقيت قائمة نشطة كجمعية ثقافية حتى بداية الحرب العالمية الاولى .

د ــ نشات أحزاب وجمعيات كثيرة جديدة بعد سنة ١٩٠٨ تخطت مـن حيث التنظيم والفعاليات تلك الجمعيات السابقة ، قام على تأسيسها اعضـاء القوميات التي تتشكل منها « الامـة العثمانية » . فقـد شكل الارناؤوط

والشركس والاكراد والروم والارمن ، وكذلك العرب ، الجمعيات والمنتديات في الاستانة وغيرها(٤) .

فقد اسس العرب عدداً من الاحزاب ، العلنية والسرية ، العثمانية والقومية ، المدنية والعسكرية ، كما اشتركوا في تشكيل التكتلات البرلمانية داخل مجلس المبعوثان .

واذا كانت الاحزاب العربية القومية ، مثل العربية الفتاة ، قد اتخذت طابع السرية ، فان العرب قد اسسوا الاحزاب العلنية ذات المضمون القومي وان كانت تحمل اسماء تدل على الاخاء والائتلاف العربي العثماني ، وكان رائد هذه الاحزاب العلنية : **حزب الاخاء العربي العثماني .**

تشكل هذا الحزب في الخامس من شهر آب اغسطس سنة ١٩٠٨ في الاستانة. وبالرغم من ان اسمه كان (الاخاء العربي العثماني) ، الا ان مؤسسيه واعضاءه لم يكن فيهم احد من ابناء القوميات العثمانية الاخرى غير العربية ، وانتخبت هيئته الادارية من وجهاء العرب في جميع الولايات العربية على الشكل التالي :

صادق باشا المؤيد ، وشفيق بك المؤيد وندرة مطران	من دمشق (سورية)
شبيب بك الاسعد ، ومحمد باشا المخزومي	من بيروت (سورية)
شاكر افندي الآلوسي ، وعبد الله افندي الحيدري	من العراق
الشريف جعفر باشا (من الاشراف)	من الحجاز
يوسف بك شتوان	من طرابلس الغرب
شكري الحسيني	من القدس (٥)

ويقول السيد احسان الجابري احد معاصري الفترة في ظروف تأسيس هذا الحزب ما يلي :

« بعد يومين من اعلان دستور سنة ١٩٠٨ اجتمع عدد كبير من العرب الموجودين في الاستانة ، منهم شفيق المؤيد وعارف الماريني وعبد الحميدالزهراوي وغيرهم كثير ... وقرروا ان يوجهوا دعوة يطالبون فيها اخوانهم العرب عقد اجتماع في تياترو (الفاريتي) . وكان نص البرقية التي نشروها ووزعوها هو : اخوانكم العرب يرجون حضوركم من الساعة الحادية عشرة الى تياتروا الفاريتي .

ثم يضيف السيد الجابري قائلا : ولم ار في حياتي حشدا عربيا هائلا مثل هذا الحشد ، فقد لبى الطلب جميع ابناء العروبة ، وامتلأ (الفاريتي) الذي يسع اكثر من الفي شخص وقام السيد ندرة مطران وتكلم كلمة شكر فيها الحضور ثم قال:

لقد قررنا ان نشكل جمعية عربية نطلق عليها اسم جمعية الاخاء العربي العثماني

وتوالى الخطباء بعد ندرة مطران مؤيدين تشكيل الجمعية ، وكان منهم شفيق المؤيد وعبد الحميد الزهراوي ... وتعالت الهتافات من الجمعيع يؤيدون الفكرة ، وكأن اعلان الدستور قد كشف النقاب عن الروح الحزبية الموجودة عند العرب ...

ثم يتابع احسان الجابري كلامه مؤكدا « ان ما شاهدته في ذلك اليوم يفوق اي وصف ، ولاول مرة في حياتي سمعت الهتافات التي تعالت في ارجاء التياترو (فليحيا العرب) ، كنا نعرف اننا جميعا عثمانيون ولكن كانت هي المرة الاولى التي نقول فيها تحيا الامة العربية ، يحيا العرب » (٦) .

وعلى الرغم من ان حزب الاخاء العربي العثماني لم يعش الا فترة قصيرة ، فانه جدير بالتحليل الوافي لانه كان أول جمعية (عربية) رخصت بعد الدستور ، ولانه كان كذلك خطوة ظاهرة على طريق (الحزب العربي) بعضويته ومبادئه واهدافه ، ولانه كان فوق ذلك يعبر عن صيغة تنظيمية حزبية متقدمة .

مبادىء جمعية الاخاء العربي العثماني وأهدافها :

يمكننا أن نتبين مبادىء الجمعية واهدافها ، وان ندرك اهم معالم تنظيمها الداخلي من تحليل وثيقتين صادرتين عنها ، تحمل الاولى عنوان قانون جمعية الاخاء العربي العثماني ، وتحمل الثانية عنوان تعليمات مختصة بشعب جمعية الاخاء العربي العثماني (٧) .

ونستدل من دراسة الوثيقتين على أن جمعية الاخاء ، جمعية (قومية عربية) من ناحية التكوين ، والمبدا ، والهدف .... !

آ ــ فقد نص قانون الجمعية على انها جمعية مؤلفة من ابناء العرب العثمانيين على اختلاف مللهم وعملهم ومصادرهم ويحق لكل فرد من ابناء العرب ان يكون عضوا فيها ...

وعرفت العربي بقولها : « هو كل من انتسب الى العرب مولـدا أو موطنا » فهي بهذا جمعية (قومية) من ناحية التكوين .

ب ـ ومما يلفت النظر ايضا ، ان الجمعية اكدت في دستورها ان هدفها هو المحافظة على الدستور أولا ، ثم المحافظة على وحدة الدولة العثمانية ثانيا حيث جـاء في دستورها : « القصد من تأليف هذه الجمعية هو معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على احكام **القانون الاساسي ، وجمع كلمـة الملل** المختلفة العثمانية » .

أي ان الجمعية لم تتحدث عن اللامركزية او الاستقلال ، ولم تطرح هذا المفهوم صراحة في دستورها .... الا ان دستور الجمعية تدارك مناديا « باعلاء شأن الامة العربية واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر انوار العلوم والمعارف بين ابنائها كتأسيس مدارس وطبع كتب ورسائل واصدار جرائد وغير ذلك» .

فاذا انتبهنا جيدا الى هذاالتدارك ، الذي تؤكد فيه الجمعية ضرورة اعلاء شأن الامة العربية ، واضفنا الى ذلك ما اشرنا اليه من اشتراط الجمعية أن يكون أعضاؤها من « أبناء العرب » فاننا نستدل على انها كانت اول خطوة على طريـق نشوء (أحزاب عربية) قومية التكوين والهدف .

ولاينبغي ما نذهباليه في هذه المسألة ، ان هذه الجمعية لم تطالب صراحـة باللامركزية السياسية أو بالاستقلال أو بالانفصال ، واكتفت بتأكيد حماية الدستور والحريات ، بل واعلنت معاونتها لحزب الاتحاد والترقي في تحقيق هذا الامر ...

ذلك انه واضح بان جمعية الاخاء العربي العثماني كانت تؤمـن بالدستور والحريات وبضرورة حمايتها ، كما كانت تجد في حماية الدستور والحريات السبيل السليم لتحقيق اعلاء شأن الامة العربية ، أما النص على معاونة حـزب الاتحاد والترقي في حماية الدستور والحريات ، فيغلب ان يكون منبعه التقاء الحزبين على اعلان الايمان بهذه المبادىء ؟ وقد تكون كذلك نصا يقع في نطاق (تكتيك) حزبـي قصدت به جمعية الاخاء ان تتاح لها فرصة العمل المرخص في ظل حـزب حاكم كحزب الاتحاد والترقي الذي كانت الجمعية تقر انه لا يرحب بقيام حزب قومي عربي في الدولة حتى ولو كان حزبا ينادي بالاخاء العثماني .

النظــام الداخلــي :

ينص نظام الجمعية الداخلي على عدة نقاط هامة تؤكد على أن هذه الجمعية صيغة تنظيمية حزبية متقدمــة :

النقطة الاولى : **طريقة الانتساب** : وتبدأ بأن يقدم العضو الجديد طلبا تحريريا فقط ، اي دون ان يرشحه احد من الاعضاء ، وعندها يسجل كاتب الجمعيــة اسم العضو الجديد في دفتر السجلات ، مبينا تاريخ الانتساب ورقــم العضو الجديد بالنسبة لعدد الاعضاء ، ويأخذون عشرين قرشا رســم دخــول .

النقطة الثانية :**تتعلق بمركز الجمعية** : وينص النظام الداخلي « مركز الجمعية في دار الخلافة » وينشأ لها فروع من سائر البلاد العربيــة ، وفي الممالك الاجنبية المحتوية على ابناء العرب ، ويجوز لابناء العرب ان ينتسبوا لجمعية الاخاء العربي العثماني المركزية اذا لم يكن للجمعية عندهــم فــرع منهــا » .

النقطة الثالثة : **التشكيلات الداخلية** : وتتكون هذه التشكيلات على الشكل التالي :

١ ــ الجمعية المركزية ، وهو ما تعبر عنه اليوم بالجمعية العمومية .

٢ ــ اللجنــة الاداريــة .

٣ ــ المفوض ، وكاتب اللجنة ، وامين الصندوق .

وتنتخب الجمعية المركزية بأكثرية الاصوات من اعضائها لجنة ادارية مــن ذوي اللياقة والاقتدار ولابد من اجتماعهم مرة واحدة كل سنة ،لانتخاب اعضــاء اللجنة الادارية والاطلاع على اعمال اللجنة السابقة وحساباتها ثم تضع برنامجــا جديدا ، تتبعه الجمعية في عامها الجديد ولها الحق في انتخاب أعضاء اللجنة السابقة أو بعضــا منهــم .

أما اللجنة الادارية فعليها انتخاب (العضو المفوض) لمدة ثلاثة اشهر كماتنتخب مــن أعضائها كاتبا وأمينا للصندوق لمدة عام ويجوز انتخابهم ايضا مرة ثانية .

وعلى اللجنة الادارية أن تصون حقوق افراد الجمعية وتنفيذ كل بند من بنودها فضلا عن المحافظة على حقوق الامةالعربية المتكفل بها القانون الاساسي ومعاونة العناصر العثمانية برمتها .

اما اجتماعاتها فهي مرة كل اسبوع ، واذا تغيب احد الاعضاء عليه انيخبر اعضاء اللجنة بذلك واذا تكرر غيابه اربع مرات متوالية بدون عذر شرعي يعتبر مستعفيا وتكون اللجنة مخيرة في تعيين خلف له .

ويجوز للجنة الادارية دعوة اعضاء الجمعية المركزية الى اجتماع طارىء اذا اقتضى الامر ذلك على « ان تنبىء الاعضاء قبل ذلك الاجتماع بثمانية أيام أو تكتفي بأعلان النبأ في الصحف المحلية » .

ويحق للجنة الادارية ان تعدل في قانون الجمعية ، وعليها « ان تعرض ذلك على الجمعية المركزية للتصديق عليه » .

اماكاتب اللجنة الادارية ، فيسلم سجلات خاصة . يسجل فيها محاضر الجلسات والمناقشات ثم القرارات التي تقرها اللجنة ممضاه من الاعضاء مع بيان اسماء الاعضاء المتغيبين واسباب تغيبهم .

ومما يلفت النظر في جمعية الاخاء العربي العثماني ، انه ليس لها رئيس وانما استعيض عن ذلك بما سموه « المفوض » ، ومدة انتخابه ثلاثة اشهر ، ومن الممكن تجديد انتخابه .

ويعهد اليه بدعوة اللجنة الادارية للاجتماع ، وله الحق في فض الرسائل والاوراق الواردة باسم الجمعية ، واللجنة ، ثم يعرضها على اللجنة في أول جلسة تعقد . ثم يحرر بامضائة الاجوبة اللازمة وفقا لمقرراتها ، ومن خصائصه ايضا ان يمضي باسمه ايصالات الجمعية وشيكاتها مع أمين الصندوق .

النقطة الرابعة : **مالية جمعية الاخاء :**

وتتوفر الموارد المالية للجمعية من عدة سبل :

بعضها ثابت ، وهو المبلغ الذي يدفعه اعضاء اللجنة الادارية وقدره اثنتا عشرة ليرة عثمانية ..

وبعضها الاخر غير ثابت ، وهو المبلغ الذي يدفعه عضو الجمعية سنويا «كل حسب استطاعته ولا يجوز ان يكون دون العشرين قرشا» .

وكاتب الجمعية يصدر ايصالات بهذه المبالغ مختومة بختم الجمعيـة وممضاه من العضو المفوض ومن امين الصندوق ،

وتوضع المبالغ في احد البنوك الذي تعينه اللجنة ،

ولا يجوز سحب اي مبلغ الا بموجب شيك ممضى من العضو المفوض وامين الصندوق . هذا ويجوز ابقاء ثلاثين ليرة في صندوق الجمعية للمصاريف المستعجلة تحت اشراف العضو المفوض وأمين الصندوق .

وعلى أمين الصندوق ان يمسك دفاتر بالداخل والخارج من اموال الجمعية متقنة الضبط ، كما يحتفظ بصندوق الجمعية بختم مكتوب عليه عبارة « جمعية الاخاء العربي العثماني » ومركز الجمعية وتاريخ التأسيس ، ويكون محفوظا في صندوق الجمعيـة .

اما وسائل الجمعية فهي كالتالي :

أ ــ خولت الجمعية لجنتهـا الادارية حق فتح ناد يطلق عليه اسم (نادي الاخاء العربي) الا انه يمنع فيه لعب الميسر وشرب المسكر ، ويشترط للدخول به ان يكون الطالب عضوا مـن اعضاء الجمعية المركزية او اعضاء الشعب ويقدم طلبه تحريريا ويتعلق اسمه في نادي الحزب مدة سبعة ايام متواليـة ثم يقترع عليه في اللجنـة الادارية فاذا نال الاكثرية قيد اسمه في عداد الاعضاء ، ويدفع ٥ ليرات رسـم دخول ، واشتراكا قـدره نصف ليرة شهريا ، ويستثنى من ذلك : الاشراف اهـل البيت في الحجاز ، واعضـاء مجلس المبعوثان والاعيـان مـن ابنـاء العـرب ، فيقبل العضو منهم بمجرد طلبـه مع دفع رسم الدخول والاشتراك الشهري .

ب ــ كما نص قانون الجمعية على انشاء جريدتين تكون احداهما بالعـربية والاخـرى بالتركية لنشر آراء وافكار ونصائح جمعية الاخاء العربي العثماني وطلباتها من الحكومة ونشر الوقائع الرسمية والحوادث العامة وايجاد الصلة المتتابعة بين ابناء العرب الساكنين فيدار الخلافةوالمقيمين منهم في الولايات العثمانية وسائر البلاد العربية والاجنبية ، وكان اسم الجريدة « جريدة الاخاء العربي العثماني » وعلى اللجنـة الاداريـة توجيـه سياسة الجريدتين ومتابعـة ما يكتب وينشر بهما مع ادارتهما ، واقترح على اللجنـة الادارية ايضـا نشر جريدة باللغة الفرنسية لتكون لسان حال العـرب خصوصا والعثمانيين عموما تجـاه الاجانب .

ج ـ ولكي تضمن الجمعية انتشار آرائهـا وافكارها ، في البلاد العربية العثمانية والبـلاد العربية والاجنبية المحتوية على ابناء العـرب ، صرح قانون الجمعية بتأسيس شعب لها ، وكان قانون هذه الشعب هو قانون الجمعية نفسها ، واوصت هذه الشعب بفتـح المدارس ونشر العلـم بين اطفـال العـروبة « فيتخلصوا من تأثير الصبغـة الاجنبية ، وينتشئوا بحول الله على مبادىء الجمعية من حب الوطن الجامع العثماني وحب الدولة والامة والشعور مـع ذلك بأنهم كافة عرب تجمعهم الجنسـية العربية واللغة العربية » .

د ـ ويكون الارتباط بين الجمعية المركزية والشعب عن طريق التقارير التي تقدمها الشعب كل ثلاثة اشهر تشرح فيها جميع اعمالها وما قامت به من الامور فترسل الشعب هذه التقارير الى الادارة المركزية ، مع دفتر اسماء الاعضاء الذين لحقوا بها في الثلاثة اشهر مع جدول متقن الضبط بين واردات الشعبة ومصاريفها عن المدة المذكورة .

هـ ـ وقد ختمت الجمعيـة تعليماتها للشعب بهذه العبارة « هذا وان جميـع ما تقدم به انه من المقاصد الجايلة ، بل وجود الجمعية نفسها انما هو قائم بدوام الدستور المتكفل بالحرية الشخصية ... » (٨)

ومعنى هذا ان الجمعيـة كانت تدرك التطبع القومي العربي وتعتبر نفسها اداة لتحقيقه دون ان تلتزم بصبغة دستورية انفصالية أو استقلالية أو لامركزية سياسية .

حزب الاخاء العربي العثماني في المواجهـة :

بدأ حزب الاتحاد والترقي تطبيق سياسة الطـورانية ، وجوهرها محـاربة القوميات غير التركية بصورة عامة ، ومحاربة القومية العربية بصورة خاصة ، ولقد اتخذت هذه السياسة عدة اساليب في وقت واحـد نوجز منها الاساليب التالية :

ا ـ اسلوب المهاجمة الصحفية ، حيث اغتنمت بعض الصحف التركية اطـلاق حرية الصحافة في العهـد الجديد ، واخذت تثير المشاكل العرقية ، وقد تولت هذه الحماية جريدة « طنين » شبه الرسمية .

ب ـ اسلوب « فصل » الموظفين بحجة انهم من رجال العهد البائد ، وقد كان نصيب الموظفين العرب الطرد من الوظائف الحكومية الكبرى حتى لم يبق في وزارة الخارجية سوى عربي واحد وقد فسر العرب هذا التصرف بتعصب الترك لقوميتهم ، حتى يحل الموظفون الاتراك محل الموظفين المفصولين (٩)

ج ـ اسلوب فرض اللغة التركية على بقية العناصر وقد صدرت الاوامر الى رؤساء المحاكم بأن تكون المرافعات باللغة التركية حتى ان « وزير العدل التركي نجم الدين منلابك طلب من كامل الصلح ان تكون المرافعات في المحكمة بالتركية لان الحكومة ستترك العرب ....

كما اخبرت لجان الاتحاد والترقي في الولايات العربية بأن تكون اللغة التركية هي لغة المخابرات بين الولايات والحكومة المركزية (١٠) .

وقد ادت هذه السياسة الى نتائج اخذت تتراكم فوق بعضها بعضا حتى جاءت حوادث الانتخابات لمجلس المبعوثان ، واصبحت المواجهة واضحة المعالم بين العرب والترك ككل ، وبين حزب الاخاء العربي العثماني وحزب الاتحاد والترقي ، وظهرت في ساحتين :

الساحة الخارجية : اي من معركة الانتخابات

والساحة الداخلية : اي داخل مجلس المبعوثان بعد الانتخابات

فقد صدرت الارادة السنية في ٢٤ تموز يوليو سنة ١٩٠٨ تدعو الى انتخاب اعضاء مجلس المبعوثين ودخل العرب معركة الانتخابات على أمل ان تطبق بنود ومواد الدستور الاساسي المتعلقة بالانتخابات ... ويهمنا هنا المادة (٦٥) من الدستور ، وتنص على أن تكون اكثرية المبعوثين من العرب ثم من الترك باعتبار شخص واحد عن كل خمسين الف نفس (١١) وأن يكون كل مبعوثي الولايات العربية من العرب حسب (المادة ٧٢) اي من اهالي دائرة الولاية التي هم منها . ولكن الواقع كان غير ذلك ، فقد اعلن الاتحاديون على ان عدد النواب من جميع جنسيات الامبراطورية سيكون ٢٧٥ نائبا منهم ١٣٨ نائبا للعناصر غير التركية بمن فيهم العرب .

ولم يكن من احزاب في ارجاء الامبراطورية تود خوض المعركة سوى الاتحاديين والاخاء العربي العثماني هذا بالاضافة الى ان ثقة الامة بالاتحاديين الذين اعادوا الدستور كانت كبيرة . وفروع جمعية الاتحاد والترقي بدأت تنتشر في ارجاء الامبراطورية ، وبالرغم من ذلك فقد اشترطت الدولة معرفة اللغة التركية للمرشح ، ولجأت الى تقسيم الدوائر الانتخابية تقسيما يضمن للعنصر التركي الفوز في اكثر المقاعد النيابية حسب تعداد السكان الذي افترضوه ايضا افتراضا .

ومع ذلك فقد بدأ ضغط الاتحاديين على عملية اجراء الانتخابات في البلاد العربية ، وظهر في الحوادث التالية :

١ ــ لم يكن للبلاد العربية احصاء صحيح ولذلك كان الاتحاديون يقدرون عدد النواب بحسب تقديرهم لنفوس المنطقة ، وعلى حسب تقدير الاتحاديين يبلغ عدد النواب العرب ٦٥ نائبا والاتراك ١٣٧ نائبا والالبان ٢٥ ، واليونان ٢٣ والارمن ١٢ ، والبلغار ٧ ، والاسرائيليين ٥ ، والصرب ٣ ، والفلاخ ١ ، أي ١٣٨ عضوا للعناصر غيرالتركية من اصل ٢٧٥ مجموع النواب . مع العلم ان عدد نفوس العرب يتراوح بين ١٠٫٥ مليون و ١٠ مليون ، بينما عدد نفوس الاتراك ٧٫٥ ــ ٨ مليون من ٢٢ مليون نسمة عدد نفوس الامبراطورية اي ٤ ملايين بقية الاقليات من اغريق والبان واكراد وغيرهما (١٢) .

٢ ــ لم يكتف الاتراك بتخفيض عدد نواب العرب الى ٦٥ فقط بل لجأوا الى ترشيح بعض الاشخاص الاتراك في دوائر الانتخابات العربية ، ولم يلجأوا لهذه الطريقة الا في هذه الدوائر ففاز ٥٠ مرشحا عربيا و ١٥ مرشحا تركيا منهم فؤاد خلوص (اتحادي تركي) نائبا عن طرابلس الشام ، والضابط التركي جامي بك عن اقليم الفزان وغيرهما .

٣ ــ جندت حكومة الاتحاديين انصارها من العرب، ليقفوا بجانب مرشحيها في الدوائر العربية ، وكان من هؤلاء الانصار رفيق العظم والشيخ رشيد رضا وشكري غانم وغيرهم . واخذ رشيد رضا يهاجم نواب البصرة وعلى راسهم طالب النقيب لمنافسته الاتحاديين (١٣) اما رفيق العظم فكان يدعو الى التمسك بالجامعة العثمانية التي تجمع المسلمين وغير المسلمين والترك وغير الترك ، دون ذكر العناصر والتحزب العنصري بينما ذهب شكري غانم يفسر اعمال الحكومة الاتحادية بتعلق الامة الاسلامية بالسيادة وعدم امكان تطبيق المساواة المطلقة خوفا من نشوب الاضطرابات في الاوساط الاسلامية ، ويراجع

نفسه قائلا » وأن يكن عمل الحكومة فيه شيء من الخطأ الا انه لم يكن بالامكان عدم اقترافه (١٤) .

المعركة الانتخابية في دمشق :

في ضوء ما تقدم من استفزازات الاتراك للانتخابات في الدوائر العربية عامة يمكننا ان نتصور خطورة المعركة وكيف كانت حامية الوطيس في دمشق زد على ذلك ان حزب الاتحاد والترقي وجد نفسه امام تنظيم حزبي يود منافسته على كراسي البرلمان ، ومن هنا كانت العركة في دمشق تتميز بطابع الصراع الحزبي .

فقد اراد اعضاء حزب الاخاء العربي العثماني تطبيق برنامجهم الذي نص على حفظ حقوق العرب ضمن الرابطة العثمانية وصيانة حقوقهم من الغدر والاعتساف(١٥) ولذلك صمموا على أن يكون ممثلو دمشق في مجلس المبعوثين من ابناء دمشق المنتسبين للحزب وتولى أعضاء الجمعية وعلى راسهم شفيق المؤيد وندرة مطران ورشدي الشمعة وغيرهم ، نشر اراء الحزب وموقفه من الانتخابات في صحيفة الاخاء العربي العثماني الناطقة باسم الحزب والتي كان شفيق المؤيد يتولى ادارة تحريرها .

وكانت صورة المعركة الانتخابية في دمشق على الوجه التالي :

١ ـ حزب الاخاء العربي العثماني يؤيده عدد كبير من الشبيبة العربية وخصوصا الطلاب وتؤازره الاقلام الشابة بدافع من الوعي القومي والوطني الذي تفتح بعد الانقلاب الدستوري ، أما جمعية « النهضة السورية » فكان اعضاؤها من اكبر المؤيدين لحزب الاخاء العربي العثماني في المعركة الانتخابية(١٦) دون خوضهم المعركة الانتخابية .

٢ ـ حزب الاتحاد والترقي يؤيده عدد كبير من شيوخ دمشق ووجهائها امثال عثمان العظم وشقيقه رفيق العظم والشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي ، وكانوا مازالوا يثقون بالاتحاديين ويدعون الى الاتفاق معهم ويقول رفيق العظم في تفسير تأييده للاتحاديين ما يلي :

« على اني انا واكل الذين كانوا يؤيدون جمعية الاتحاد والترقي من العرب لم ننظر بعين الرضا الى ابناء العناصر في الاستانة في تأسيس الجمعيات مهما كان نوعها بسبب ان جمعية الاتحاد والترقي كانت لم تتم مهمتها بعد على وجه ثابت القواعد

ولذا كتبت يومئذ الى احد مؤسسي جمعية (الاخاء العربي العثماني) وهو ابن عمي شفيق بك العظم المؤيد الومه والقائمين بها لوما شديدا على تعجلهم في هذا الامر »(١٧) .

وكان البعض من انصار الاتحاديين يطعن بجمعية الاخاء العربي العثماني وينسبون تاسيسها الى السلطان عبد الحميد بغية تحقيق رغباته في مقاومة الاتحاديين ، والبعض ينسب لندره مطران انه يحاول بذر التعصب الجنسي بين الترك والعرب ، وكان الشيخ رشيد رضا يقوم بجولاته في احياء دمشق ومساجدها داعيا للاتحاديين والاخلاص لهم بداعي المصلحة المشتركة .

فتنة رمضان الحزبية :

تأثر شباب العرب ، اعضاء حزب الاخاء العربي العثماني وانصاره ، من هذه الحملات الانتخابية التي يقوم بها مواطنوهم العرب العرب لصالح الاتحاديين وخصوصا حملات الشيخ رشيد رضا الى ان كان يوم من ايام رمضان والشيخ رشيد في الجامع الاموي يلقي درسا في الدين على المصلين خلاصته دعوة للعهد الجديد وتأييد الاتحاديين ، فما كان من اهالي دمشق المعارضين الا ان هجموا على الشيخ رشيد وكادت تقع معركة لولا تدخل اصدقاء الشيخ رشيد ومضيفيه من آل العظم ، الذين سحبوه من الاجتماع وتمكنوا من الخروج من الجامع الاموي ....

لم تقف الحادثة عند هذا الحد بل كادت تؤدي الى حوادث وخيمة العاقبة ، ذلك ان وكيل الشرطة اسعد الطرابلسي ، والبكباشي سليم الجزائري (وهما عربيان اتحاديان) اتخذا اجراءات مشددة ضد الشخص الذي حاول الاعتداء على الشيخ رشيد رضا مما دعا الوف الاهالي الى حمل السلاح والسير في مظاهرات تطوف الاسواق والشوارع ، فذهب قسم من هذه المظاهرات الى مجلس البلدية ، بينما ذهب القسم الاخر الى دار الحكومة هاتفين بسقوط مدير الشرطة وجمعيةالاتحاد والترقي . وكادت تؤدي هذه الحادثة المعروفة ــ بفتنة رمضان ــ الى فتنة حزبية لولا تدخل بعض الفضلاء من مؤيدي الاتحاديين العرب امثال الشيخ البيطاروالشيخ القاسمي وغيرهما فتداركوا الموقف واشاروا باطلاق سراح المتهم ، ويفيض الشيخ رشيد رضا في وصف هذه الفتنة ويعللها بأنها كانت مدبرة لاسباب تتعلق بانتخابات المبعوثين وان الحكومة بدات تتدخل في حرية الانتخابات بواسطة الضابطين اللذين ذاكرتهما ولذلك امتعض وجهاء البلدة من جمعية الاتحاد والترقي وانصارها(١٨) .

فاز في نتيجة هذه الانتخابات عن دمشق اربعة نواب اثنان منهم من الاتحاديين وهما : عبد الرحمن اليوسف ومحمد العجلاني واثنان من الاخاء العربي العثماني وهما شفيق المؤيد العظم ورشدي الشمعة(١٩) .

ولم تكن معركة البصرة الانتخابية تقل عن معركة دمشق ، حيث قاوم الاتحاديون وانصارهم انتخاب طالب النقيب واخوانه بالرغم من ان النقيب كان من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ولكن الاتحاديين كانوا ، على ما يظهر من مقاومتهم له ، غير راغبين في انتخابه ونجاحه ، وبالرغم من ذلك فقد فاز هو وزميله احمد باشا الزهير رغم مهاجمة جريدة طنين التركية لهما(٢٠) .

كما فاز في هذه الانتخابات يوسف شتوان مبعوث طرابلس الغرب وهو من حزب الاخاء العربي العثماني ، وعبد الرحمن الزهراوي مبعوث حماه (اخاء) ونافع باشا الجابري مبعوث حلب (اخاء) كما فاز خليل غانم وسليمان البستاني واسعد الشقيري . وهم من العرب الاتحاديين(٢١) .

ولقد نجح الاتحاديون في مخططهم تجاه معركة الانتخابات فلم ينجح من نواب الاتراك سوى ١٠ من المستقلين و ٢٦٥ من الترك الاتحاديين واخذوا عليهم تعهدات الى جانب قسم اقسموه بأن يلتزموا بالطاعة المطلقة للجمعية(٢٢) كما نجحوا في ان يكون اكثرية نواب العناصر الاخرى من جمعيتهم او المناصرين لهم ، كما نجح نائب واحد من حزب الاحرار .

الصراع الحزبي داخل مجلس المبعوثان :

اخذ اعضاء الاحزاب العربية في الاستانة يستعدون لاستقبال اعضاء (مجلس المبعوثان) من العرب ، فهيأوا المظاهرات الضخمة والهتافات القومية لاستقبالهم . واشترك في هذه المظاهرات كل من اعضاء جمعية النهضة العربية في استامبول ـ بعد ان اصبحت علنية ـ واعضاء حزب الاخاء العربي العثماني ، وانصارهم ، والطلاب العرب وخصوصا الطلاب الذين كانوا يتداولون في تشكيل الجمعية السرية الكبرى الا وهي جمعية (العربية الفتاة)(٢٣) .

وهنا لابد من الاشارة الى رايين متناقضين يأخذ المؤرخون بهما حول ظهور حقيقة اهداف الاتحاديين تجاه القوميات اخرى ، فالبعض يقول بأن الاتحاديين لم تكن قد ظهرت عليهم بعد سياستهم العنصرية ـ مثلما يقول رفيق العظم ورشيد رضا وغيرهما عند تأريخهما هذه الفترة ـ والبعض الاخر يقول بأن الاتحاديين

ظهرت خطوط سياستهم العريضة منذ اليوم الاول للانقلاب حتى ان بعض العرب توجسوا شرا من قيام الاتحاديين انفسهم بالانقلاب ، ومن هؤلاء رجال جمعية النهضة العربية محب الخطيب ، وعارف الشهابي والشيخ طاهر الجزايري وغيرهم(٢٤) .

أما احسان الجابري الذي عاصر الفترة وكان اخوة نافع الجابري احد المبعوثين العرب فيقول : كنت في هذه الفترة من انصار الاتحاديين بسبب وظيفتي (مفتش شرطة) وسأعرض امامك هذه الواقعة كما رايتها :

دعيت لحضور انعقاد الجلسة الاولى (لمجلس المبعوثان) حيث كان السلطان عبد الحميد سيدشنه ، ودهشت عند حضوري للمنظر الذي رأيت قبل الاجتماع ، فقد كان العرب متكتلين من ناحية واحدة ، والاتراك في ناحية ثانية (اي بدأ نوع من الانقسام القومي) وعرفت اثناء الحديث ان هناك اتجاها قويا للمطالبة بمطالب قومية ، فترجيت اخي نافع الجابري ان يدعوهم لاجتماع في مكان ما ليتمكنوا من وضع خطة يسيرون عليها اثناء الاجتماعات فابى لي طلبي .. وتابع قوله ليقول : اجتمعنا في بيت شفيق بك المؤيد ، اجتمع ما يقارب ثمانين شخصا من النواب العرب وانصارهم ، وكان بينهم اسعد الشقيري وكانت المناقشات تدور حول مصالح العرب في اطار ان الدولة دولتنا واننا مطيعون لها ولكن يجب ان لاتسمع لبعض موظفيها بالشذوذ تجاه العرب وعلينا ان نوحد الكلمة .. الخ ..

وهنا قام اسعد الشقيري ليتكلم فامتدح الدولة العثمانية وخيراتها وقال انا لا اطمئن لكثير منكم وان اكثر المجتمعين سيذهبون عند طلعت بك وسينقلون اليه ما دار في اجتماعنا هذا ... ولذلك الفت نظركم واحذركم من هذا الاجتماع وابين لكم مخاطره واطلب منكم ان لا تضعوا اي برنامج خطي .. وهنا ثار عليه اكثرية الحضور (فبهدلوه وخرج ..)(٢٥) .

نستدل من كل ما تقدم ان في هذه الفترة لم يكن هنالك ازمة بين الاتحاديين والعرب ولكن كان هنالك ريبة وعدم ثقة ، او بالاحرى صراع من وراء ستار .. كشفت عنه الحوادث تحت قبة البرلمان . على الوجه التالي :

فبالرغم من النجاح العظيم الذي حققه الاتحاديون في هذه الانتخابات لم يتناسوا ان دمشق والبصرة وليبيا قد اخرجت للمجالس بعض المبعوثين من حزب غير حزب الاتحاد والترقي لذلك طعنوا في شرعية انتخاب شفيق المؤيد واتهموه بأنه من صنيعة عزت باشا العابد ، وطعنوا في شرعية انتخاب يوسف شتوان وانه من

الجواسيس كما طعنوا في شرعية انتخاب نائب البصرة طالب بك النقيب وانه من مهربي الاسلحة ، وعندما اراد يوسف شتوان اعلان رأيه قام في وجهه النواب الترك وطردوه من المجلس دون الاستماع الى دفاعه ، واخذت اصوات موزعي الجرائد التركية تثير العرب ، وهم يصيحون « ايكى عرب مبعوثك طردي » أي طرد مبعوثين عربيين(٢٦) .

وعندما انسحب يوسف شتوان من المجلس انسحب معهالنواب العرب وآزرهم عدد من النواب الاغريق واحرار الترك احتجاجا على الغاء انتخاب يوسف شتوان(٢٧)

تنبه الاتحاديون الى تكتل العرب وبقية القوميات داخل البرلمان فتساهلوا في تثبيت انتخاب شفيق المؤيد وطالب النقيب وكانت هذه اول بوادر التفاهم المؤقت بين العرب والترك تحت قبة البرلمان (٢٨) . وبالتالي تفاهم حزب الاتحاد والترقي مع حزب الاخاء ...

في هذه الاثناء كانت المظاهرات الطلابية تطوف في انحاء العاصمة والطلاب يلقون الخطب على الجماهير ويوزعون المنشورات التي تبين صحة انتخاب يوسف شتوان وتشرح الموقف على حقيقته حتى تمكنوا من تثبيته ايضا في المجلس(٢٩) .

ويحق لنا ان نتساءل عن موقف الاتحاديين من القوميات الاخرى ، ففي داخل البرلمان لم تقف حكومة الاتحاديين من نواب اية قومية اخرى كما وقفت وشككت في صحة انتخاب النواب العرب بالرغم عن ان نواب القوميات الاخرى قد التفوا حول النائب الحزبي الوحيد الذي نجح عن حزب الاحرار وكونوا كتلة قوية معارضة لحزب الاتحاديين داخل البرلمان .

الصراع الحزبي خارج البرلمان :

أما خارج البرلمان فلم يكن موقف الاتحاديين من القوميات الاخرى افضل من موقفهم تجاه القومية العربية ، ولكن موقف العرب تجاه الاتحاديين كان افضل من موقف القوميات الاخرى بدليل الحوادث التالية :

الحادث الاول : تشكلت في باريس بعد اعلان الدستور بنصف سنة جمعية اطلقت على نفسها اسم (الجمعية السورية) برئاسة نخلة ورشيد مطران ، واذاعت هذه الجمعية منشورا جاء فيه : ان جلالة السلطان قد احسن على المملكةبالدستور فكلنا في شكر النعمة وانتظار الرحمة ، فنحن ننتظر اليوم ، يوم الفصل بنفاذالصبر .

ان ما كان لسوريا من المجد فيما سلف وماجعل الله لها من علية المركز واهمية الموقع ، ثم فيما نعلمه من يقيننا بالفريضة الوطنية المقدمة والذمة التابعة بأن لنا عهدا صحيحا لاستيفاء ما نستوجبه من الحق لحياة الوطن فيه **نطلب منح الاستقلال الاداري** .

اننا نرضى القوانين العثمانية سواء ، ونرضخ لما يسن منها ، الا ما كان مجحفا ، « بالصالح السوري » ، اذ ذاك يثبت عندنا بأن البلاد ومن عليها للعلا ترتفع حتى تبلغ شأوها الذي وجدت لاجله ثم شانها الذي ستحيا لاجله .

ان مجلس نواب الامة يقدر الحق فيما يرجوه ، ويعلم ان ذلك لابد منه لحياة سوريا ومن ثم لعمران وصلاح الدولة العثمانية» .(٣٠)

هاجم هذه الجمعية ومنشورها ، العرب في باريس وكان اشد المهاجمين شكري غانم وسايمان البستاني (٣١) كما هاجمها حقي العظم ورفيق العظم الذي اطلق على هذه النزعة اسمالنزعة الفاسدة(٣٢) واذا كان هؤلاء العرب من المؤازرين للاتحاديين ، فما قولنا بالاحتجاج الشديد الذي ارسله ندره مطران شقيق رشيد مطران — واحد مؤسسي حزب الاخاء العربي العثماني ، — في برقية ارسلها الى جريدة (استنبول) يعلن معارضته لميول شقيقه ويستنكر بشدة ضلاله السياسي المشؤوم ويعلن تمسكه بالدولة العثمانية(٣٣) .

وفي داخل البرلمان ابرق حزب الاحرار المعارض ضد هذه الجمعية ومنشورها والتف العدد الاكبر من ممثلي الامة العثمانية حول راي حزب الاحرار ، واعلن اعضاء المجلس عطفهم على الاحتجاجات وكانت القاعة تدوي بالتصفيق كلما قرئت برقية تأييد للوحدة العثمانية ... (٣٤) .

الحادث الثاني : موقف العرب تجاه اسقاط كامل باشا الصدر الاعظم ووزارته ، وملخصها ان ابناء القوميات غير التركية التفت حول الصدر الاعظم كامل باشا الذي رفض الاذعان لسياسة الاتحاديين التعسفية ، ولم ينفذ لهم رغباتهم ، وتجرأت صحف اليونان والالبان واخذت تهاجم الاتحاديين وتتهمهم بالاستبداد والدكتاتورية ، ولم ترق في اعين الاتحاديين هذه الوحدة بين الصدر الاعظم وابناء القوميات الاخرى فعملوا على تنحيته وحملوا عليه حملة صحفية وحملة برلمانية ، ولكنهم واجهوا مقاومة قوية من نواب القوميات التي كانت تشكل المعارضة ، ولكن الاتحاديين تمكنوا من اسقاط الوزارة عندما عرضت على التصويت وكان موقف

النواب العرب كالاتي : ٢٢ منهم اسقطوا الصدر الاعظم ضمن ال ١٩٦ نائبا الذين صوتوا ضده ، في حين وقف على الحياد من النواب العرب ٤٠ نائبا من مجموع ٨٠ نائبا وقفوا على الحياد ، واثنان من نواب العرب صوتوا الى جانبه(٣٥) و فيمقدمتهم اعضاء حزب الاخاء العربي العثماني .

الحادث الثالث : شنت صحف المعارضة ــ جرائد اقدام واستقلال ــ هجوما عنيفا على حكومة الاتحاديين واستبدادهم ، وتكتل نواب المعارضة في المجلس بعد سقوط كامل باشا حول حزب الاحرار الذي ارتفع عدد اعضائه من ٨ الى ٥٠ عضوا في فترة وجيزة (٣٦) ، فوقف النواب العرب بعيدا عن هذا الصراع واتخذوا موقف الحياد ولم يسمع لهم اي صوت بتهديد او وعيد ، كما فعل مثلا النائب ورتاكسي الارمني ، عندما هدد بمناسبة بحث قانون الصحافة انه ارسل في العهد الحميدي الى تركيا ٦٠ قنبلة وانه الان بعد القنبلة اا ١٦ لن يتجرأ على مس حرية الصحافة(٣٧)

الحادث الرابع : عندما شنت صحف المعارضة هجوما شديدا على الاتحاديين على صفحات جرائد « برودوس » « نيولوغوس » و « وسريستي » و « وعثمانلي » وغيرها وقفت الصحف العربية موقف الحياد حتى صحيفة حزب الاخاء العربي العثماني ، على الرغم من مهاجمة صحف الاتراك للعرب ، مثل صحيفة طنين وغيرها واكثر من ذلك ، كتب رفيق العظم حول ما اشارت اليه بعض الصحف عن تحامل بعض الاتحاديين واساءة الظن بالامة العربية ، ونشر مبادئهم القومية التركية قائلا : كل هذه ظنون لم تبلغ مبلغ الحقيقة ، وحكم ليس هذا اوانه ، لنسجله على اخواننا الترك ، حتى لو صح ما ينسب من المقاصد والاعمال الى بعض افراد جمعية الاتحاد والترقي ... وانه لا ريب في الامر سوء تفاهم واقع بين العرب وبعض افراد الجمعية من الغلاة في حب الجنسية التركية (٣٨) .

الانقلاب المضاد « ٣١ مارث » :

هذه الحوادث ، تدلنا على ان العرب ــ حتى هذا التاريخ ــ كان موقفهم من الاتحاديين وطريقة حكمهم ، وموقفهم من القوميات ، اقل وطأة من موقف ابناء القوميات الاخرى ، وبقي وضع العرب هكذا حتى الانقلاب المضاد الذي حصل في (٣١ مارث)(٣٩) وعودة الاتحاديين الى الحكم في ١٣ ابريل .

ويمكننا القول ، ان الفئة الوحيدة من العرب التي ساهمت بهذا الانقلاب هي فئة العلماء حيث انضم عدد منهم الى جمعية (اتحاد محمدي) التي تأسست

برئاسة احد الشيوخ المتعطلين واسمه (درويش وحدتي) وانشأت جريدة باسم (دولقان) لمهاجمة الاتحاديين . وكانت الجريدة تصف الاتحاديين بالملحدين والماسون ويقول كرد علي في خطط الشام ان الذين دخلوا الجمعية في دمشق يقارب عددهم سبعين الفا ، ويعلل دخولهم بسلامة نية ..

وعندما قتل حسين فهمي بك رئيس تحرير جريدة (سربستي) الناطقة باسم حزب الاحرار ، في ١٧ مارس ١٩٠٩ ، نسب هذا الاعتداء الى جمعية الاتحاد والترقي ، ودفن القتيل بمشهد حافل ومظاهرة اكبيرة ضمت كثيرا من الاهالي . وجاء طلاب مدرسة الحقوق الى مجلس النواب ، يطلبون القاء القبض على القاتل ، وعلى الرغم من مناقشة النواب مليا بهذا الخصوص الا ان القاتل اختفى .

وفي ٢٣ منه احتشد بعض الجنود ولفيف من الاهالي .. فقتلوا ناظم باشا ناظر العدلية كما قتل الامير محمد ارسلان مبعوث اللاذقية لشبهه بحسن مجاهد صاحب جريدة طنين الاتحادية ، ونسف الثوار مركز جمعية الاتحاد والترقي ومكتب جريدة طنين وشوارى امتي(٤٠) .

زحف الفيلقان الثاني والثالث (فيلق سالانيك ومانستر) نحو الاستانة بقيادة محمود شوكت باشا العراقي العثماني(٤١) وكثير من القادة العرب في مقدمتهم عزيز علي المصري الذي كان على راس الكتيبة الاولى لجيش سالانيك(٤٢) .

وهكذا فشل الانقلاب المضاد وعاد الاتحاديون الى الحكم في ١٣ ابريل اكثر قوة واعمق خبرة ، فتمكنوا من خلع السلطان عبد الحميد ، في ٢٧ نيسان (ابريل سنة ١٩٠٩) ليبدعوا سياسة جديدة نحو الامبراطورية عامة ونحو الاحزاب العربية بصورة خاصة . فكان اول عمل لهم تجاه العرب حل الحزب العربي الوحيد وهو حزب الاخاء العربي العثماني ، وتعطيل الجريدة العربية الناطقة باسمه واغلاق النادي الذي يحمل اسمه بعد ان وجهوا للحزب تهمة الاشتراك في الانقلاب المضاد لتغيير صورة الواقع الحزبي تغيرا جذريا في الامبراطورية لعثمانية ، وبلاد الشام جزء منها .



الحواشي :

(١) مثل : رفيق العظم ، وحقي العظم ، عزيزالمصري ، العلايلي وغيرهم .

(٢) راجع العدد السابع من مجلة دراسات تاريخية .

(٣) هناك فترة بسيطة حكم فيها حزب الحرية والائتلاف من ١٩١٢/٧/١٠ – ١٩١٣/١/٢٣ .

(٤) عن مجموعة آثار رفيق العظم بتصرف .

(٥) احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية ، ص ٢ ، ص ٩٨ و ١٠٢ .

(٦) من أوراق الدكتورة سهيلة الريماوي ،مقابلة شخصية مع احسان الجابري .

(٧) أوراق محب الدين الخطيب .

(٨) لقد اخذت الدراسة الوثائقية لجمعية الاخاءمن الوثيقتين السابقتين : أ – قانون الجمعية ، ب – تعليمات مختصة بشعب الجمعية وهمامن اوراق محب الدين الخطيب .

(٩) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، جـ١ ، ص ٤

(١٠) د. شهبندر ، المذكرات – الثورة السورية الوطنية ، ص ٢ – ٣

(١١) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، نص الدستور من ص ٢٥٧ – ٢٧٨ .

(١٢) المؤيد ١٩١١/٧/٩عن جريدة الحضارةلصاحبهاالمبعوث عبد الحميد الزهراوي .
Corres. d'Orient, 2ème ann., N.7, P. 218.

(١٣) الهلال ، سنة ١٧ ، (اول نيسان ابريل سنة١٩١٩ ، ص ٤١٥ – ٤١٧ .

(١٤) Corres. d'Orient, 2ème ann., N. 7, (Jan. 1900).

(١٥) برنامج الحزب .

(١٦) حديث خاص مع محب الدين الخطيب .

(١٧) رفيق العظم ، آثاره ، ص ١٣٠

(١٨) المنار م ١١ ، ٢٢ يناير ١٩٠٩ ، ص ٩٣٦ وما بعدها .

(١٩) الهلال ، سنة ١٧ ، ج ٥ ، شباط سنة ١٩٠٩ ، ص ٣١١

(٢٠) المقتبس ، ١٩٠٨/١٢/٢٦

(٢١) حدث خاص مع احسان الجابري .

(٢٢) Corres. d'Orient, 2ème ann., N. 8,. (15-1-1909), P. 251.

(٢٣) د. احمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية ، ص ٤

(٢٤) من حديث خاص مع محب الدين الخطيب يؤيده : الشهابي ، القومية العربية ، هامش ص١٣
قدري قلعجي ، السابقون ، ص ٢٦

(٢٥) من أوراق الدكتورة سهيلة الريماوي ، حديث خاص مع احسان الجابري .

(٢٦) المقتبس ١٩٠٩/١/١ .

(٢٧) Corres. d,Orient, 2ème ann., N. 7, P. 203.

(٢٨) الاهرام ، ١٩٠٩/١/١١ .

(٢٩) أحمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربيةالكبرى ، ص ١٠

(٣٠) المؤيد ، ١٩٠٩/١/١٧ .

(٣١) Corres. d,Orient, 2ème ann., No 8, (15-1-1909)

(٣٢) الاهرام ، ١٩٠٩/١/١٨ ، مقال لرفيق العظمبعنوان ما هذه النزعات الفاسدة .

(٣٣) المؤيد ، ١٩٠٩/١/٢٥ .

(٣٤) Corres. d,Orient, 2ème ann., No 11, (1-3-1909)

(٣٥) الاهرام ، ١٩٠٩/٤/٦ من رسالة لابراهيم سليم النجار مراسل الاهرام بالاستانه .

(٣٦) الاهرام ، ١٩٠٩/٣/١٦ .

(٣٧) الاهرام ، ١٩٠٩/٤/٧ .

(٣٨) الاهرام ، ١٩٠٩/٣/١٥ من مقالة بقلم رفيق العظم .

(٣٩) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١١٠ .

(٤٠) جريدة العرفان ، م ١ ج ٤ ، ص ١٨٠ — ١٩٠

(٤١) عزت دروزه ، حول الحركة العربية الحديثة ، ج ١ ، ص ١٨ .

(٤٢) صلاح الدين القاسمي ، اثاره ، ص ١٥٧ .

فصل من تاريخ سورية الحديث

صور من حوران في القرن التاسع عشر

د . ليندا شيلشر
D. L. Schatkowski Schilcher.

تتقصى هذه الدراسة تاريخ ريف سورية المهمل نسبيا ، فهي تركز على حوران تلك المنطقة الزراعية الجافة المكونة من التلال والسهول جنوب واحة دمشق ، الواقعة بين الروافد الشمالية لنهر الاردن والصحراء الشرقية(١) . ومع ان حوران لم تعد اليوم ذات اهمية اقتصادية لسورية كما كانت ذات مرة ، فهي مهمة من الناحية التاريخية لانها كانت اول مناطق سورية الريفية النائية التي اندمجت في اقتصاد الشرق الاوسط الحديث النامي(٢) .

فضلا عن ذلك فان حوران ذات اهمية لانها شغلت وضعا في الاقتصاد السياسي لسوريه يحمل سمات تشغلها مناطق داخلية صغيرة الان . ان اوجه الشبه بين حالة حوران عندئذ وبين شمال وشمال شرق سورية الان كثيرة . لقد كانت حوران في القرن التاسع عشر مع هذه الاقاليم المذكورة اليوم مناطق تموين داخلية هامة توفر الاقوات للتجمعات المدنية الكبيرة . وكانت هذه المناطق مكرسة بالدرجة الاولى كمصدر لكسب العملات الاجنبية ، وتوجد فيها شبكة اقليمية هامة من الطرق التجارية . كذلك كانت تجذب اهتمام أصحاب الاعمال في المدن ، بالاضافة الى انها مناطق هجرة واستيطان جديدين تجذب اليها الناس من الجبال والسهول ، وكذلك البدو ، فهي مناطق يعني التطور فيها اندماج المنطقة الريفية في اقتصاد قومي كبير .

---

* نشر هذا البحث بالانكليزية في مجلة دراسات الشرق الاوسط .Int. J. Middle East Stud
التـي تصـدر في الولايات المتحدة الامريكية بعنوان : 13 (1981), 159-179, U.S.A.
Thr Horan Conflicts of The 1860s : A Chapter in The Rural History of Modern Syria. للباحثة الالمانية الدكتورة ليندا ساتكوفسكي شيلشر L. Schatkowski Schilcher
استاذة التاريخ الحديث في جامعة Johannes Gutenberg - Mainz المانية الغربية .

وقبل ان نتنا ول كل هذه الاعتبارات من الضروري ان نركز على مجرى الاحداث وطبيعة النزاعات التي تتخللها ، ، واتجاهاتها . وتحاول هذه الدراسة ، باستخدام مصادر ومراجع عديدة ، اعادة بناء تاريخ عدد من الاحداث التي وقعت في حوران في الستينات من القرن الماضي(٣) .

حتى منتصف القرن التاسع عشر لم تكن منطقة حوران موضع اهتمام مباشر من الحكومة المركزية العثمانية ، الا في اثناء فترة الحج الى مكة فقط . فخلال مدة تراوح بين الثلاثين والستين يوما في العام كان الحج يمر عبرها ، وبعد أن تنفذ التزامات السلطان في تنظيم وتقديم المؤن لهذا العمل الجبار تركن حوران الى حالة من الحكم الذاتي حتى موسم الحج القادم .

ان عدم اهتمام العثمانيين بحوران قد يبدو متناقضا ، نظرا لا نهذه البلاد الخصبة كانت فعلا تابعة للدولة ، وسكانها مجبرين نظريـا على دفع الضرائب وتقديم انفسهم للتجنيد الالزامي . فقد افترض نظام الولايات العثماني في ذلك الوقت ان بالامكان الاعتماد على أصحاب النفوذ في دمشق « ليحكموا » حوران ، كما هو الامر في عدد من المقاطعات النائية في سورية الكبرى . واتيح للزعماء المحليين ، أو(الاغوات) الذين يعيشون في دمشق ويسيطرون على جماعات صغيرة متحركة من الخيالة ، اتيح لهم شغل مناصب في حوران ذات نفوذ اقتصادي وسياسي وذلك لقاء خدمات للدولة ، كالشرطة وعمليات الحرس وجمع المؤن للحج . وبما ان العثمانيين لم يكن لهم غنى عن هؤلاء الاغوات فان التقييد الوحيد لسلطتهم ومركزهم كان مدى فعاليتهم السياسية بين سكان حوران نفسها . وبالمقابل تطلب هذا قدرتهم علـى القيام بالوساطة الناجحة بين الجماعات المستقرة والمهاجرة في حوران وبين الغرباء . هذا النظام السياسي في المناطق الداخلية كا نله ضوابطه الداخلية ، وكذلك مصادرتوتره ولكن يبدو انه قد استمر طويلا بقدر مناسب من التوازن . فقلة عدد السكان بالنسبة لمساحة الاراضي ، والاقتصاد الطبيعي الذي وجد بين السهوب والسهول المستثمرة وبين المدن والارياف ، قد أسهم نسبيا في هذه الحالة الثابتة .

اضطرب هذا التوازن المحلي في النصف الاول من القرن التاسع عشر بسبب تضافر ثلاثة تأثيرات خارجية كبيرة . كان أولها تأثير سياسة الحكومة المركزية(٤) فقد اقتضى الامر اعادة تنظيم ادارة الولايات واصلاحها بقصد اتاحة درجة كبيرة من السيطرة العثمانية المركزية لتجديد الامبراطورية . ونظرا للضرورات الادارية لبرامج الاصلاح هذه ، وبسبب الحاجة المتزايدة للاموال ، عمل العثمانيون على مد سيطرتهم الفعالة من المدن السورية نحو المناطق الداخلية . ولم يكتف العثمانيون بأخذ المزيد

من الضرائب والمجندين للجيش من مناطق حوران ، بل اعتقدوا انه يمكن تثبيت عدد من الموظفين المدنيين والدرك الحديث في المناطق الداخلية لتنفيذ هذهالخطوات . وامل العثمانيون باستبدالهم بالاغوات المحليين وجماعاتهم من القوات غير النظامية . واملوا انه بالادارة الحازمة والمركزية ، يمكن لمناطق مثل حوران ان تقدم في اخر الامر دخلا كافيا للدولة ، ليس مقابل هذه التحسينات فحسب ، ولكن من اجل تكاليف الحج أيضا ، كما يمكن ان تسد العجز في الميزانية في اجزاء اخرى من الدولة ، او حتى في ميزانية الامبراطورية .

كذلك ظهر عند منتصف القرن التاسع عشر تأثير اخر كان في طريقه للتطور بطريقة هامة . فقد اخذت انكلترة وفرنسة وقوى اوربية اخرى في ذلك الوقت بتعزيز مصالحها الاقتصادية والسياسية في سورية . فالمناطق الداخلية السورية كانت ذات اهمية بالنسبة للدول الاوربية لانها تنتج محاصيل جاهزة للتصدير من جهة ، وسوق واسع لبضائع اوربة والمستعمرات من جهة اخرى ، واكثر من ذلك ، كان انتاج هذه المناطق يعتبر دخلا اضافيا تعتمد عليه الدولة المركزيةوالادارات المحلية في ضمانة قروضها من المصادر الاوربية الخاصة ، والمصادر التي تقع تحت حماية اوربية . ففي الوقت الذي ازدادت فيه المنافسات الاوربية في شرق البحر الابيض المتوسط ، والتي تطورت الى نزاعات كحرب القرم ، كان ينظر الى سورية ايضا على انها احد المصادر البديلة الهامة للحبوب وخاصة لمناطق جنوب روسية التي اصبحت بعيدة المنال . لقد كانت دوافع الاوربيين الاقتصادية كبيرة ، فبينما اكان المنتجون في حوران يجذبهم – من جهة – نقل حبوبهم الى الساحل لتنال اسعارا اعلى بقليل مما يعرض عليهم بدمشق ، الا ان انتاجهم ظل يحصل على اربعة اضعاف المعدل السوري ، في المبادلات مع اوربة الغربية . اما الدوافع الاضافية للتاجر الاوربي ، فهي تعرفة التصدير العثمانية المنخفضة ، بالاضافة الى ان الحبوب السورية التي تحصد في ايار وحزيران ، تصل الى السوق العالمي قبل منافساتها الاوربيـة .

هذه التطورات جميعها في تجارة حبوب حوران ادت الى تعقيدات خطيرة لدمشق وللعثمانيين . فتحول تجارة الفائض من الحبدب الى الساحل للتصدير ، عرض للخطر ابناء دمشق وامدادات الحج ، كما رفع اسعار الاستهلاك المحلي . يضاف الى ذلك ان البضائع المصنوعة في اوربة ، وخاصة المنسوجات ، كانت تغري أهل حوران ، الذين كانوا يشترون تلك البضائع مباشرة بالفضة التي يتقاضونها ثمنا للحبوب على الساحل او قد يتقايضون مع تجار الاستيراد والتصدير ، فيتبادلون الهدايا او يتواعدون على المحصول القادم مقابل بضائع مستوردة . وادى هذا الى

الاستغناء عن البضائع والمنسوجات المنتجة محليا ، وهو أمر بدا مهددا بصورة خاصة لمركز اهل دمشق الاقتصادي ، كما ادى الى تدخل مباشر في شؤون حوران ، من قبل الفعاليات المصرفية الاوربية ، وخطوط الملاحة ، ومؤسسات الاستيراد والتصدير الاوربية .

والعامل الخارجي الثالث أوجدته هجرة دروز لبنان ، المتزايدة الى حد كبير ، نحو حوران ، وخاصة عقب احداث ١٨٦٠ ، وما تبع ذلك من مصادرة اراضيهم . وقد استوطن هؤلاء الدروز في التلال التي تقع شرق وجنوب سهل حوران ، وهذا ما رفع من عدد القرى الدرزية الصغيرة القائمة في المنطقة منذ القرن السابع عشر .

وقبل الخوض في احداث حوران والتي اخذت اتجاها مهما في عام ١٨٦٠ ، نجد من الافضل أن نستعرض اهم الفئات السياسية وزعاماتها .

موظفو الحكومة المركزية :

مع أن البرامج الاصلاحية للحكومة المركزية كانت قد بدات قبل جيل تقريبا في سورية ، الا أن حوران لم تتأثر كثيرا بها ، ولكن الحالة تغيرت بشكل مفاجىء نتيجة لاحداث تموز ١٨٦٠ في دمشق .

وقد تركز ثقل التغلغل الاوربي الاقتصادي والاصلاحات العثمانية بشكل رئيسي على المناطق الساحلية السورية وعلى مراكز الولايات . وتوج هذا بسلسلة خطيرة من الثورات في حلب ولبنان ودمشق ، ففي ثورة دمشق وقع الالاف من مسيحيي دمشق وما جاورها ضحايا لأعمال العنف التي قام بها جنود ساخطون ودروز محاربون وعناصر عديدة من سكان المدن المسلمين . واتخذت الحكومة المركزية اجراءات سريعة تصحيحية . وارسل فؤاد باشا ــ وكان من ابرز الشخصيات الاصلاحية العثمانية ــ الى دمشق بصلاحيات استثنائية ، وكان في ذلك الوقت وزير خارجية الامبراطورية ولكنه ترقى بعد اقامته القصيرة في سورية ليصبح أحد أهم رؤساء الوزارة العثمانيين في القرن التاسع عشر . وقد استخف العثمانيون بآراء فؤاد باشا الاصلاحية الجذرية واعتبروها تنازلا للاوربيين . وفي الحقيقة كان فؤاد باشا يبدو اوربيا ، فهو يلبس كأوربي ويوزع عباراته اللاذعة والذكية بالفرنسية في الحفلات الباذخة في ذلك العهد . ولكن جهود فؤاد باشا في سورية كان يمكن ان تؤول كذلك على انها تهدف الى صد التدخل الاوربي (وكان الفرنسيون لتوهم قد احتلوا لبنان) والى بسط يد الحكومة المركزية على ولايتها لارساء الاصلاح فيها

بشكل ثابت ونهائي . واتخذ (فؤاد) عملا تأديبيا في دمشق فاعتقل واعدم ونفى الكثيرين ممن وجدهم مدانين باعمال العنف ، وادخل الجزء الاكبر من الشباب المسلمين في الجيش ، كما فرض غرامات على السكان غير المسيحيين وخصص منازل لاغاثة واسترضاء من عانى من الاحداث . وبعد ان ثبت سيطرته في دمشق التفت فؤاد باشا في كانون الاول الى المشاكل التي كانت تدبر في حوران ، وهنا قام بأول الاجراءات الهامة لدمج هذه المنطقة في دائرة الحكومة المركزية .

وعندما استدعي فؤاد باشا الى استانبول في كانون الاول ١٨٦١ ليكون رئيسا للورراء ، سار كثير من الموظفين الذين اعقبوه على نهج سياسته في حوران ، بمن فيهم (حليم باشا) و (رئيس باشا) و (رشدي الشيرواني) و (أسعد مخلص باشا) وجميعهم تناوبوا في فترة تقل عن عشر سنوات . وكان القليل منهم يملك الوقت والامكانات ، أو القرار ، لتثبيت السياسة العثمانية بقوة كما فعل فؤاد باشا . وكانت محصلة جهود هؤلاء تقرر الى حد ما بالتأثيرات الخارجية ، والاطراف المتنافسة ، بالاضافة الى اسياسة العثمانية . وقد تم حسم عدد من القضايا الهامة المتعلقة بحوران في عامي ١٨٦٦ - ١٨٦٧ في عهد ادارة رشيد باشا .

الاغــوات :

واجه الاغوات المحليون تحديات متعددة ، كان الاصلاح العثماني احد جوانبها فقط . فمن المؤكد ان التهديد بالتدخل المباشر للقوات الحكومية كان امرا مثيرا للخشية ، ولو أن جيش محمد علي ـ الاكثر قوة ـ كان قد فشل في محاولته اخضاع حوران قبل جيل تقريبا . وشكل تدفق الدروز وكذلك تغلغل المصالح التجارية الاوربية الى سهل حوران ، تحديا اخر لاغوات ستينات القرن التاسع عشر . ولم يستطع هؤلاء القيام بعمل متماسك لان الدسائس ذات الصبغة السياسية المحلية كانت قد فرقتهم منذ زمن طويل ، لذا توجب عليهم ان يقاوموا هذه التحديات من اجل الحفاظ على مصالحهم الخاصة . وفي بعض الاحيان كان يمكن ادراك المعاني السياسية لهذه التغيرات التي تجرى ، ويرتبط بها تماما ذلك الصراع من اجل الحفاظ على دور الاغوات الراسخ في حوران .

كان احمد آغا من ابرز الاغوات الذين ادركوا أهمية التغيرات السياسية التي تحدث ، وكان في العقد السابع من عمره ، وزعيم اسرة كردية دعيت فيما بعد (آل يوسف) ، عاش احمد آغا اليوسف في دمشق وشارك في السياسة المحلية المعاصمة . وكان بنظر السلطات العثمانية والسكان المحليين احد أعيان دمشق

المهمين . وقد سمي (قائدا) لقافلة الحج ، وعين فيما بعد حاكما اقليميا في حوران، وتمكن ان يجمع خلال مهامه املاكا شخصية ومواشي في حوران .

والى جانب أحمد آغـا ، ابرز الرؤساء المحليين ، كان هناك عديدون : رسول آغا ، شمدين آغا ، احمد آغا بوظو ، محمد آغا اجليقين وهولو آغا العابد . ويمكن أن نضم الى هذه المجموعة الامير عبد القادر الجزائري ، البطل الجزائري المنفي في دمشق منذ ١٨٥٦ ، والذي سلك سلوكا يمكن مقارنته باسلوب الزعماء الاخرين ، على الاقل في القضايا المتعلقة بحوران . وعاش جميع هؤلاء كأحمد آغا اليوسف ، في دمشق وتدخلوا في سياسة المدينة التي قسمتهم الى فئات . مثال ذلك ان اليوسف كانت لهروابط مع اعيان المدينة العريقين ، وهم عادة اعضاء المجلس الاداري المحلي، وهو المؤسسة المالية المحلية الرئيسية . وكانت عائلته كعائلات الاغوات : شمدين وبوظو واجليقين ، من الاكراد وعاشت في ضواحي المدينة الشمالية الغربية ، ولذلك كانوا على تنافر مع اغوات عائلة العابد وغيرهم الذين كانوا يعيشون في الميدان ، الحي الجنوبي الذي كانت له روابط اقتصادية واجتماعية عديدة مع حوران . وزاد في تعقيد الصورة ان الامير عبد القادر الجزائري ، القادم الجديد ، لم ينتم الى أي من الاطراف ، بل كانت له صلات مع القنصلية الفرنسية . ومع عدد من الاعيان الذين برزوا في دمشق نتيجة لتغلغل النفوذ الاقتصادي الاوربي وبرامج الاصلاح العثمانيـة .

زعامة حوران الخاصة : زعماء السهل :

استقر سكان سهل حوران في عدد من القرى اكانت كل واحدةمنها محاطة بأراض يعاد توزيعها سنويا . وفي كل قرية كان في مركز القياة أسرة او اثنتان ، تبعالعدد أفراد الاسرة ، او تضامنها ، أو بسبب القدرة الانتاجية والثروة الناجمة عن ذلك . فأسر (المقداد والحريري) في بصرى ، و (الشريدة) في الكوره في عجلون و (المجالي) في الكرك ، وكذلك (الترك)* كانت لهم مكانتهم بين سكان السهل في حوالي منتصف القـرن التاسـع عـشر .

وكانت هذه الاسر تعتبر الناطقة بلسـان سكان السهول في تعاملهم مع العالم الخارجي ، ولم يكن لديهم على ما يبدو سلطة كبيرة على سكان القرى المجاورة ولذا لم يكن بامكانهم ان يمثلوا مصالحها عند التعامل مع الغرباء .

* لا يوجد عشيرة بهذا الاسم .

زعمـاء قبائل الدروز :

وعلى النقيض من زعامة سكان السهل الهادئة على ما يبدو ، فقد تولى زعامـة دروز حوران رؤساء ميالون للقتال . وباستثناء قلة من الاسر الدرزية العريقة التي جهدت لابعاد نفسها عن النزاعات السياسية من أجل المحافظة علـى مصالحها الاقتصادية ، والتي كانت تشبه الى حد كبير مصالح سكان السهل ، فان معظم الدروز كانوا على صلة باحدى العشائر الدرزية في لبنان ، التي يمكن ان يركـن اليها بتقديم العون المسلح في أوقات النزاع .

اعتبـر دروز حـوران قبل ١٨٦٠ عشيـرة (حمـدان) العشيرة المقدمـة بينهم . ولكن هجرات ونزاعات الستينات انهت تفوق عشيرة (حمدان) وابرزت عشيرة (الاطرش) . في هذا الوقت كان هناك صراعات داخلية سياسية فيمـا بينهم ، ولكن العشائر المختلفة حافظت على مكانة قبيلة الاطرش ضمن التجمـع الدرزي . بوجه عام كا نالامر الاكثر أهمية ان كل دروز حوران كانوا يحاولون مـد سيطرتهم الاقتصادية الى سهل حوران . ويدفعهم لذلك ازدياد عددهم ورغبتهم في زراعة السهل الخصيب من مواقعهم الجبلية المنيعة كما فعلوا في لبنان . واضافة الى تلبية حاجاتهم يبدو انهم قاموا بالاتجار مع لبنان ومع تجار دمشق حيث عرف عنهم في ذلك الحين انهم كانوا يسيرون قوافل الحبوب لكلا المنطقتين .

شـيوخ البـدو :

كان البدو ثالث مجموعة من سكان ريف حوران ، فقد وفر سهل حـوران المراعي لقطعانهم ومواشيهم خلال الصيف حين تنضب الاعشاب في الصحراء . وكان يخيم في حوران في الربيع حوالي مئة الف من البدو ، ويمكثون حتى امطار الخريف. وخلال هذه الفترة كانوا يبادلون الحبوب بالحيوانات وباللحوم ، ويشترون سلعا أخرى من القرويين أو الباعة المتجولين الذين يأتون بالسلع من دمشق أو مـن الساحل . كما كانوا يضربون خيامهم في حوران اثناء موسم الحج ، الذي يقـع حسب التقويم القمري الاسلامي في أوقات مختلفة من السنة . وقد استفاد البدو كثيرا من موسم الحج بتقديم اللحم والنقل والايواء والحماية .

كانت قبيلة (اولاد علي) وقبيلة (الرولة) اكثر قبيلتين فعالية في حـوران في منتصف القرن التاسع عشر ، وقد اسندت الحكومة الى (اولاد علي) تنفيذ اعمال الحج واستبعدت قبيلة الرولة ، ولذا كانت هذه تسبب متاعب (لاولاد علي) ومن

يساهم معهم وخاصة في السنين التي يقل فيها المحصول ، وما يرافق ذلك من ضغط على امدادات الطعام . وكان يزيد حدة المنافسة بين هاتين القبيلتين استثمار الاغوات لها ؛ نظرا لما يشكله البدو جميعا من تحد لمركز الاغوات ، فقد كان بامكان البدو مثلا التحالف مع سكان حوران او مع الدروز ضد الاغوات . وبتقسيم البدو الى جماعات متنازعة اعطى الاغوات الشرعية لمكانتهم امام الحكومة المركزية واصحاب النفوذ في دمشق ، على انهم المهدئين للحالة في حوران . وكان يتزعم (أولاد علي) في هذا الوقت الشيخ (محمد الدوخي) ، في حين تزعم الرولة الشيخ (فيصل الشعلان) .

اضافة الى اولاد علي والرولة ، كان يتواجد في حوران كثير من القبائل الصغيرة ، وقد ظهر منها القليل في احداث الستينات من القرن الماضي ، كقبيلة (السردية) و (سرحان) و (سلط) . وكانت قبيلتا (السردية وسرحان) كأولاد علي والرولة أصحاب قطعان اغنام وجمال ، بينما بقيت قبيلة (سلط) ثابتة في المنطقة الصخرية المجدبة من حوران وهي (اللجاه) ؛ وغالبا ما تحالفت مع الدروز الذين اوكلوا لهذه القبيلة رعي قطعانهم .

الاوربيون :

لابد ان نذكر اخيرا الاوربيين الذين تورطوا في نزاعات حوران في ستينات القرن الماضي ، ويمكن ان نصنفهم في ثلاث مجموعات : أولا : كان هناك التجار الاوربيون والقناصل الذين يمثلون مصالحهم . وقد أبدى قنصل فرنسة (هيكارد Hecquard) اهتماما شديداً بحوران وكان يسعى لحماية التجار الفرنسيين والمرتبطين معهم في تجارة الحبوب . كذلك أظهر السيد (روجرز Rogers) قنصل بريطانية والسيد (ويكبكر Weckbecker) قنصل النمسة ، اهتماما كبيرا بحوران وبجمع الضرائب هناك في ذلك الوقت ، على الرغم من انهما كانا منشغلين بالصعوبات المالية لبعض سكان دمشق المتمتعين بحماية حكومتيهما الذين كانوا دائنين للخزانة المحلية . وقد بعث القنصل الروسي السيد (وتزتشاين Wetzstein) بتقارير كثيرة عن حوران وحصل على بعض الفوائد الشخصية عن الاراضي هناك ، كما فعل ويكبكر .

ثانيا : المجموعة الثانية من الاوربيين تكونت من اشخاص يزورون سورية كرحالة وعلماء مرتحلين وارساليات ، بالاضافة الى قلة من المستوطنين . وقد قدم هؤلاء الى سورية لمتابعة « الاستشراق » أو لاهتمامهم بالحفريات ، واحيانا كانوا ينشغلون في معاملات تجارية أو يقومون بمهمة المخبرين أو الوكلاء لحكوماتهم .

ويمكننا الافتراض ان التقارير القنصلية كانت تقوم غالبا على المعلومات التي ينتقيها القناصل من المقارنة بين مصادر هؤلاء ومصادرهم المحلية . وقد نشر ما تجمع لدى هؤلاء الاوربيين من تجارب وخبرات من استطلاعاتهم في سورية ، وحظي باهتمام القراء في اوربة(٦) .

والصنف الثالث والفريد كان ذلك الشخص الايرلندي (يوجين اوريلي O'reilly) الجندي الثري ، والذي عمل تحت الاسم المستعار (حسن بك) ، قائدا لقوات الدرك العثمانية التي تشكلت حديثا ، ولعب دورا كبيرا في جهود العثمانيين لاخضاع الاغوات .

ولنعد الان الى خلافات حوران في الستينات من القرن الماضي لتتبع الاحداث كما تطورت ، ويمكن ان نصورها في اربعة ادوار .

حوران ١٨٦١ - ١٨٦٧

الدور الاول : النجاحات الاولى للحكومة المركزية في حوران :

في كانون الاول ١٨٦١ وصلت الى دمشق تقارير تفيد بأن عددا من زعماء الدروز في منطقة التلال الشرقية قد نجحوا في مد نفوذهم في سهل حوران . وقد ارسل فؤاد باشا قوة من (٨٠٠) جندي الى قرى منطقة دمشق المحاذية لحوران في محاولة لمنع تقدم الدروز اكثر من ذلك وتبع ذلك عدد من الصدامات بين العثمانيين والدروز . وبهذا اظهر الدروز عسكريا انهم يستطيعون بسهولة وقف تقدم العثمانيين جنوبا في حوران(٧) .

زاد فؤاد باشا القوات الى (٢٠٠٠) بسبب اقتراب موسم الحج والحصاد . ولكن الدروز في هذه الاثناء كانوا قد هيأوا انفسهم لمصادمات اكثر خطورة ، فأرسلوا مخزونهم الى ارض اللجاه المنيعة واستعدوا لارسال عائلاتهم لمسيرة يومين في الصحراء ، بينما ابقوا قطعانهم والمؤن لحاجاتهم الضرورية(٨) .

ومع قدوم اشهر الجفاف والحصاد تحرك الى حوران ما يقدر عدده بحوالي مئة الف بدوي وضربوا خيامهم ، وبقيت علاقاتهم مع الدروز وسكان حوران هادئة ، بينما اشيع في دمشق انهم قد وافقوا على التحالف مع الدروز ضد العثمانيين ، ان جرد هؤلاء حملة الى حوران . وقد حدثت مناوشة بين الدروز والبدو حول حقوق الرعي ولكن سرعان ما زال النزاع عندما رضخ الدروز للبدو(٩) .

وبالمقابل ، وبشكل يناقض الحالة الهادئة في حوران ، كان هناك نزاع دائم في القرى القريبة من دمشق حيث عسكرت القوات العثمانية(١٠) . وحاولت هذه القوات كسب مساعدة القرويين عن طريق اعادة الاغنام الضالة والمسروقة خلال اضطرابات الشهور السابقة . وعندما بدأوا بجمع الضرائب عرضت قوات الاغوات المشتتة وغير النظامية العثمانيين للخطر مؤملة ان تستأنف اعمالها في المنطقة(١١) .

وخلال صيف ١٨٦١ دفع القرويون في دمشق خمسة آلاف كيس من المال لصالح الخزينة العثمانية(١٢) ، بينما افلت أهل حوران من الضرائب تماما . ولاشك ان بروز الدروز اثار سخط فؤاد باشا ، ولكنه تردد في شن حملة كبيرة ضدهم ، وكان يقال انه خشي من ان يؤدي ازدياد النزاع في المنطقة الى تأخير جلاءالقوات الفرنسية عن لبنان ، التي كانت هناك منذ احداث تموز ١٨٦٠(١٣) . وبدلا عن ذلك تدبر فؤاد باشا امر الحصول على منحة خاصة من استانبول تعادل سبعة آلاف كيس(١٤) . كان هذا المبلغ والضريبة التي جبيت من قرى دمشق كافيين لتغطية نفقات الحج ، مما جعل جمع الضرائب من حوران أمرا لا ضرورة له . وانقضى موسم حج ١٨٦١ دون أن يعكره حادث خطير .

وقد تدهورت الحالة بالنسبة للعثمانيين في ١٨٦٢ حين عين حليم باشا قائد القوات العثمانية حاكما مؤقتا بعد ان غادر فؤاد باشا دمشق في كانون الاول ١٨٦١ . وكان حليم باشا احد الذين يميلون الى القيام بحملة ضد الدروز . وقد وجد العديد من فئات دمشق ، والذين تهددت مصالحهم في حوران ، اذنا صاغية لدى حليم باشا . كما ان النقص في اعتمادات الحج اكان دافعا للسلطات الى موقف عسكري ضد الدروز . وباءت المحاولات المتكررة لاعتصار الدخل الحكومي من قرى دمشق بالفشل ، ولم يبد أن منحة خاصة ستأتي من استانبول في عام ١٨٦٢ ، واكثر من ذلك ، وبما أن الحج سيحل قبل اسبوع حسب التقويم ، جندت كل المهام لتوفير المؤن لان موسم الحصاد كان قد جمع لتوه .

وقد طلب حليم باشا من الدروز اولا مجندين اجباريين ، وهي خطوة اعتبرت دعوة مقنعة (للبدل) ، الضريبة كانت تدفع في سورية للاعفاء من التجنيد . فأجاب الدروز مباشرة بانهم نالوا تأييد بدو حوران وانهما معا سيقاومون كل محاولة للتجنيد الاجباري او جمع الضرائب في حوران(١٥) .

هنا تقدم أحمد آغا اليوسف من الحاكم بخطة(١٦) تقضي بأن يرسل ابنه محمد آغا اليوسف الى بصرى ، مكان اجتماع رؤساء سهل حوران ، ليفاوض من

اجل عقد ميثاق بينهم وبين العثمانيين . ومع ان اليوسف كان له ـ كمعظم الاغوات ـ مصالح شخصية في حوران من حيث الاراضي والمواشي(١٧) ، فقد كانت حاجته لكسب نجاح للعثمانيين في حوران ، بقصد الحفاظ على مكانته السياسية ومكانة الاغوات في دمشق ، اهم من مصالحه الشخصية . وكان العثمانيون قد بداوا في الوقت نفسه بتشكيل الدرك تحت امرة حسن بك (اوربلي)(١٨) ، هذه القوة التي ستطيع تقويض نفوذ اليوسف السياسي تحت شعار عدم قدرة قوات الاغوات غير المنظمة والآيلة الى الزوال .

قبلت خطة اليوسف ولكن عندما لم ينجح ولده في المفاوضات مع زعماء سهل حوران تقدم احمد آغا بنفسه للقيام بالمهمة ، ونجح بتحقيق اتفاق مع زعماء السهل على البنود التالية(١٩) : يقدم القرويون في حوران المجندين الاجباريين ولكن يمكنهم دفع بدل يصل الى ٣٢ الف مكيال من القمح(٢٠) كذلك طلب من اهالي حوران تزويد الجيش المتمركز في حوران بالقمح . والضريبة الثانية كانت تعتبر جزءا من العشر السنوي الذي كان على القرويين في اراضي الدولة ان يدفعوه ، واقترح اليوسف ان يوضع الف من قوات الاغوات وبدو (الرولة) في حوران لحماية القرويين من الاغارة عليهم حين قيامهم بالحصاد وتحميل القوافل . وقد حصل اليوسف على موافقة الزعماء الحاضرين وعددهم ستة وعشرون ، واعلن الحاكم في دمشق حليم باشا هذا النجاح الرائع مع الرضا بلا شك .

ولسوء حظ حليم باشا واليوسف لم يقتنع فلاحو حوران بالاتفاق كما فعل زعماؤهم . وعندما علموا بما خطط لهم حدث شيء غير عادي ، فقد هاجموا خيمة اليوسف واخرجوه ، من بصرى ، ولكنه نجا بجروح طفيفة ولجأ الى مزيريب ، وهي بلدة جنوب حوران حيث بدأ تجمع قافلة الحج ، مع بعض القوات الحكومية(٢٠)

استمرت مناورات اليوسف حادة مع تلك النكسة . فقد نجح في زرع الشقاق بين القبيلتين الرئيسيتين في حوران . فقد اقنع المجلس الاداري في دمشق بتحويل الدعم الى قبيلة (الروله) برئاسة فيصل الشعلان بدلا من قبيلة (اولاد علي) برئاسة محمد الدوخي . وبذلك آلت حقوق الرعي في الحقول الخصبة في مرج الغوطة في واحة دمشق ، وحق حماية قرى حوران وما رافق ذلك من فرض الخوة ـ وهي ضريبة للبدو مقابل الحماية والعمل المربح من مرافقة الحج ـ كل هذه الحقوق انتقلت من الدوخي الى فيصل . وقيل ان اليوسف تلقى مقابل ذلك عشرين حصانا ومبلغا كبيرا من المال من فيصل(٢١) . ولكن اليوسف أمل ان يكسب سياسيا وماديا

بدعمه لفيصل والروله ، وبهذا اثار منافسات جديدة وهدد بتقويض التحالف الذي كان يشكله الدروز بين فئات حوران .

في هذا الوقت كان اسماعيل الاطرش زعيم الدروز قد تفوق على اليوسف ، عندما نجح في التوسط بين رئيسي قبيلتي اولاد علي والروله ، وحقق اتفاقا بأن يقفا معا في وجه اية حملة عثمانية في حوران(٢٢) . ومع نهاية ايار ١٨٦٢ كانت اسرة الاطرش قد نظمت عمليا كل فئات حوران ضد العثمانيين(٢٣) . فالادارة المحلية المفلسة لم تستطع الحصول على الجمال والمؤن للقافلة التي انطلقت من دمشق بالحيوانات المصادرة بالقوة(٢٤) . ولم تكن مفاجأة ان الحج هوجم لحظة ان دخل حوران . وقد أحاط كلا من (أحمد الترك) احد زعماء السهل و (البكرطان Bakratan) رئيس التحالف بين الاطرش وقبائل السلط ، احاطا بالقافلة عند طريق خان ذنون(٢٥) . واستمر الحصار طيلة حزيران ولم تنجح القوات الجزائرية الفعالة وغير النظامية ، التي ارسلت من دمشق لنجدة اليوسف في مزيريب ، في عبور الطريق . وقامت جماعات داخلية اخرى بالهجوم عند نقاط اخرى . كما شكلت عمليات السلب التي قام بها بدو (عنزه) فيالصحراء الوسطى السورية للقوافل بين بغداد ودمشق ضربة اخيرة للطريق التجاري الصحراوي(٢٦) . وقام فيصل زعيم الروله بتدبير هجوم على تجار دمشق العائدين من حوران على الطريق الشرقي لتجنب طريق خان ذنون(٢٧) .

في هذا الموقف الصعب دبر احمد آغا اليوسف مكيدة اخرى . فقد نجح في اثارة النزاع بين انصار الاطرش في قرية تكا والقرويين في بصرى ، وعندما وصل الدرك الذي تشكل حديثا لاستغلال هذه الثغرة طوى القرويون خلافاتهم وردوا الدرك معا(٢٨) .

واخيرا حول رجال رسول آغا ، لا رجال اليوسف ، الامور لمصلحة العثمانيين واليوسف . ففي أواخر ايار هاجم رجال رسول آغا خان ذنون ونجحوا في التغلب على بدو السلط وقتلوا زعيمهم (بكرطان) وحملوا رأسه الى دمشق حيثعرضوه(٢٩) وتبع ذلك ضربة ناجحة للدرك عندما فاجأوا خيام بدو سرحان والسردية ، اللتين انضمتا الى تحالف حوران كما يبدو ، فقتلوا (٢٠) بدويا وعادوا برؤوسهم الى دمشق(٣٠) . بعد هذا تمكنت قافلة الحج من التقدم الى مزيريب حيث قدم الدروز الذين عوقبوا الفي مكيال من الحبوب(٣١) (وهذا مقدار زهيد عندما يقارن بـ ...ر٣٢ مكيال طلبها اليوسف) وبهذا كما نعتقد تدبر امر الحج عام ١٨٦٢ .

عند عودة احمد آغا اليوسف الى دمشق عرض ان يقوم العثمانيون بحملة كبيرة في حوران وهو واثق من ان التحالف الذي يقوده الدروز سيتحطم الى الابد ، ونالت مشورته كل الاهتمام . وشنت حملة بقيادة رئيس باشا مؤلفة من عشرة آلاف رجل تشتمل على ٩ كتائب مشاة وواحدة من الخيالة وواحدة مدفعية مع ٢٤ مدفعا(٣٢) وخطط اليوسف لتدبر الامر مع الدروز بنفسه .

وقد عبر الدروز عن عدم رغبتهم بالتفاوض وقاموا فجأة بضربة للعثمانيين المعسكرين في (لاجامار) وبصرى . كانت هذه الصدامات خطيرة واستعملت فيها المدافع ولكن ما تمخضت عنه لم يكن حاسما . مع ذلك استطاع رئيس باشا ان يعسكر برجاله في (عرى) التي كانت تحت نفوذ آل الاطرش(٣٣) .

واخيرا بدات محاولات احمد آغا اليوسف لتفتيت التحالف الواهي بين (اولاد علي) و (الروله) . وقبل ان تتاح الفرصة لآل الاطرش بالتوسط بينهما هاجم الدوخي فيصل . ولم تحارب القوات المتمركزة في حوران الى جانب الدوخي كما كانت تفعل عادة بل بقيت موالية لفيصل ، الشخص الجديد المفضل لدى العثمانيين . وقامت هذه القوات ، باحتجاز بعض قريبات الدوخي لتستثيره لمهاجمتها ، ولكنه لم يفعل كي يقدم دليلا على حسن نيته نحو الحكومة المركزية . بعد ذلك وثب فيصل على الدوخي واجبره على التراجع الى اللجاه(٣٤) . وكان الامر التالي هو هجوم الدرك الناجح على الدروز(٣٥) .

ونظرا لبدء انهيار تحالف الدروز مع جماعات حوران تحت ضغط هزائم عديدة ، وافق الاطرش على المفاوضات مع الحكومة المركزية . وكانت الاتفاقية التي تم التوصل اليها في ١٨٦٢ حدا فاصلا في تاريخ حوران . فقد وافع الدروز التابعين للاطرش ان يجمعوا من أهل حوران كل الضرائب المتأخرة والغرامات المستحقة للحكومة منذ احداث ١٨٦٠. في دمشق وما جاورها ، كما وافقوا على ان يدفعوا البدل عوضا عن الخدمة الالزامية(٣٦) . وعرف حينئذ المبلغ الذي وعدوا به ، فقد وصل دمشق بعد ذلك بوقت قصير مئتا الف قرش تركي وكمية كبيرة من القمح والشعير ، مع التعهد بان باقي المبلغ المتفق عليه سيرسل خلال شهرين . وعندما اشتكى سكان حوران في شهر آب من التواجد المستمر للقوات النظامية وغير النظامية رتب محمد آغا اليوسف انسحابها شريطة ان يرسل آل الاطرش بعض اقربائهم الى دمشق كرهائن حتى تسدد كل الضرائب(٣٧) . فضلا عن ذلك ، واثناء هذه الترتيبات ، هاجم الدرك بنجاح فئة من الدروز يقودها (خطار بك العماد)

المعارض البارز لآل الاطرش في تجمعات حوران الدرزية . وقتل خطار بك في هذه الحملة ، التي كانت خسارة سهلت صعود آل الاطرش .

بالنسبة للبدو فقد عادوا الى الصحراء مع قدوم امطار الخريف ، وحطمت العداوات كلا من فيصل الذي قتل ولده والدوخي الذي كان مختبئا في اللجاه . وبقي الزعيمان في منطقة حوران بينما تحركت القبيلتان باتجاه الشرق والجنوب نحو الصحراء لرعي مواشيهم . وبما ان دمشق اغلقت بوجهيها فقد بقيا في حوران الى ان تقرر الحكومة وضعهما(٣٨) . وفي الاسبوع الاول من تشرين الاول كان آل الاطرش قد نجحوا في جباية ما يقدر بربع الضرائب التي وعدوا بها ، ومع ذلك اعلن رسميا ان حليفهم الدوخي متمرد(٣٩) ، وبقي فيصل الشخص المفضل لدى العثمانيين . وقد استنكر الدوخي هذا وارسل ابن عمه (صال الطيار) ليلتمس تدخل القنصل الفرنسي لدى السلطات العثمانية في دمشق ، وتأجل تنفيذ الاعلان حتى الربيع على ان يسمح له بدخول دمشق خلال هذه المدة ، ولكن الحكومة لم يكن لديها نية بالتراجع عن قرارها(٤٠) . وسخر أحمد آغا اليوسف من الدوخي امام المجلس الاداري في دمشق وكشف ان علاقته بالفرنسيين هي التي افقدته تأييد الحكومة له(٤١) . وطلب الدوخي ، حين فقد كل امل ، من القنصل الفرنسي ان كان بامكانه ان يرسل هدية من خيوله الى الامبراطورة الفرنسية(٤٢) .

ان التسويات التي تحققت في حوران مع نهاية ١٨٦٢ وخلال هذا الدور الاول من النزاع كانت علامة بارزة في تاريخ المنطقة . فالتفاهم المتبادل الذي توصل اليه احمد آغا اليوسف واسماعيل الاطرش كان مؤشرا لعدد من التغييرات ، فللمرة الاولى ومنذ زمن طويل نجح العثمانيون في انتزاع كمية كبيرة من الضرائب ليس فقط من اهالي حوران ولكن أيضا من الدروز وحتى من بعض البدو . وطبقا لقائمة الضرائب التي أفاد بها القنصل الفرنسي عام ١٨٦٣ فان المناطق الموحدة جنوب دمشق (وهي تشمل سهل حوران ، جيدور ، عجلون ، جبل الدروز ، واللجاه) قد قدمت ثلاثة ملايين قرش(٤٣) .

وفي حين لم تتح هذه التدبيرات عودة الادارة المباشرة لحوران الا انها انهت حالة حوران القريبة من الحكم الذاتي ، فعشيرة الاطرش التي وافقت على مناصرة السياسة العثمانية في حوران دعمت نفوذها بين الدروز وجماعات اخرى في حوران . وايدت الحكومة المركزية الاطرش ومنحت زعماء العشيرة الالقاب ومهام الموظفين الرسميين . وعندما كانت الحكومة المركزية ترغب بين حين واخر القيام بخطوات اكبر في حوران كانت تلجأ الى عشيرة الاطرش ، متحدية اياها احيانا ، وخاطبة ودها في اكثر الاحيان .

الدور الثاني : محاولات الحكومة المركزية للتخلص من الاغوات :

على الرغم من ان أحمد آغا اليوسف قد اعطي لقب باشا وعين حاكما لمنطقة حوران فان العثمانيين لم يرضوا تماما عن دسائسه بين البدو ، وعن القوات غير النظامية الموجودة باستمرار تحت امرته وامرة اغوات اخرين . ففي كانون الثاني ١٨٦٣ اعلن رشدي شيرواني باشا الحاكم الجديد في دمشق ان قوة يشكلها حسن بك (اوريلي) ستحل محل القوات غير النظامية(٤٤) . وكانت قوات (حسن بك) فعالة ووقفت عادة ــ ولكن ليس دائما ــ الى جانب الحكومة في احداث ١٨٦٠ ، الا انها كانت تعاني صعوبات مالية في ذلك الوقت . كان على (اوريلي) ان يشكل قوة كاملة من الشرطة الحديثة والدرك معا ، وان يغري رجال الاغوات بالانضمام اليها ، وحتى الاغوات انفسهم كان عليهم ان يعملوا كقواد في هذه القوة(٤٥) .

استقال أحمد آغا اليوسف مباشرة من منصبه كحاكم لمقاطعة حوران ، لاعتقاده انه لا يستطيع ان يحقق السيطرة بدون ان تكون القوات غير النظامية تحت امرته . كذلك رفض اليوسف فكرة امكان محافظة قوات الدرك الجديدة على اتفاقيات الرعي مع البدو دون أن تكلف نفقات كبيرة غير ضرورية للخزينة(٤٦) . وكما لو كان الامر بيانا لوجهة نظره ، ظهر فجأة بدو (الروله) في حوران ، على الرغم ان وقت الصيف أو الحج لم يكن حان بعد ، وتبع ذلك قدوم منافسيهم(أولاد علي)(٤٧) .

واستمرت الاضطرابات مع البدو مادامت قوات الاغوات مشتتة . فاستدعت السلطات الدوخي الى دمشق ولكنه رفض الحضور دون منحه تعهدا للمرور بأمان ، وقام القنصل الفرنسي بترتيب ذلك . وصل الدوخي ومعه عدد كبير من المرافقين فقام اليوسف باعتقاله في حين وقفت السلطة موقف المتفرج(٤٨) . واطلق سراح الدوخي بعد ذلك بوقت قصير ، وتلقى امرا بترحيل قبيلته في الحال من حوران . واثار هذا سخط الدوخي الشديد فأخذ رجاله بعيدا نحو الجنوب الى البلقاء ، حيث قرروا ان يغلقوا طريق قافلة الحج(٤٩) . واحبطت محاولات الحكومة للتصالح مع الدوخي عندما قتلت قوات الاغوات رسولا من اقربائه كان يحمل له اذنا بالمرور بأمان(٥٠) . ولم تعد في مزيريب جمال او حرس للحج ، وتضاءل عدد الحجاج الى ما دون المئتين . وهاجم البدو قافلة مؤنهم عند العودة(٥١) . وبقي البدو وعدد من زعماء الريف في نزاع مكشوف طيلة شتاء ١٨٦٣ ــ ١٨٦٤ .

ان محاولات الحكومة لخلق قوة شرطة ودرك جديدة محلية قد أعاقتها كذلك صعوبات عدة ، جميعها من نسج اليوسف . ولم يتلق حسن بك (اوريلي) أية

اجور من الخزينة المحلية لجنوده ، وترتب عليه ان يدفع لهم من جيبه الخاص ولشهور عدة وهو ينتظر المال(٥٢) . ثم حولت فرقتان من احسن قواته الى امرة (علي بك) الذي يعتبره حسن بك (تركيا لا ينافس)(٥٣) . واخيرا استدعي حسن بك الى استانبول ليجيب على تهمة اشتراكه في مؤامرة تهدف لاحلاله محل العثمانيين(٥٤) . وبهذا اختفى حسن بك والدرك الحديث عن الاحداث لعدد من السنين ، وعندما عاد اوريلي الى سورية في ١٨٦٨ على راس مجموعة من الرجال المسلحين كان قد استأجرهم لامر يتعلق بمؤامرة مصطفى فاضل باشا المطالببعرش مصر(٥٥) ، لم يكن خصمه احمد باشا اليوسف على قيد الحياة ليرفع دعوى الخيانة ضده .

وهكذا ففي الوقت الذي استمرت فيه اتفاقات ١٨٦٢ مع الدروز فان الاغوات والبدو بقيا مشكلة للحكومة المركزية خلال عام ١٨٦٤ مما اضطر العثمانيين الى موقف مسالم نظرا لنقص الاموال وفقدان قوتهم . ومع ان احمد باشا اليوسف الطاعن في السن قد توفي في ١٨٦٤ فقد استمر اولاده واغوات اخرون باظهار المعارضة لاضمحلال نفوذهم السياسي .

وبالنسبة للحج عام ١٨٦٤ فقد تم بفضل جهود عبد القادر الجزائري الذي قدم فرقة مسلحة من رجاله . ولم تعان الحكومة من غارات محرجة لها(٥٦) .

وقد اعاق وباء الكوليرا وبلاء الجراد ومرض القطعان اي نشاط في سورية عام ١٨٦٥ ، ولكن النزاعات القديمة برزت ثانية عام ١٨٦٦ .

الدور الثالث : المواجهة الصريحة بين المصالح المحلية والاوربية :

في كانون الاول ١٨٦٥ حل اسعد باشا مخلص محل رشيد شبرواني باشا كحاكم في دمشق ، وقد وجد القنصل البريطاني السيد (روجرز) اسعد مخلص وسياساته بشكل خاص امرا بغيضا ، وكعادة القناصل في الازدراء كتب : « من الصعب للباب العالي ان يختار حتى من ادنى المرؤوسين الذين هم تحت تصرفه شخصا غير مناسب و ... اكثر خطرا لمنصب حاكم عام »(٥٧) . واكثر ما ازعج روجرز ان الحاكم الجديد قد اعاد امر فرض الضرائب في دمشق وما حولها الى ماكان عليه سابقا ، بوضعها بايد « فاسدة » ، (اي من خلال المجلس الاداري المحلي) ، كما اعاد (تدبير امور حوران) ثانية الى ايدي الاغوات . ومع ان التقارير القنصلية لم تشر بوضوحالى صراع المصالحبين التجار الاوربيين وبين جباة الضرائب الرسميين

والاعيان ، لان كلا الطرفين اكان يهمه السيطرة على انتاج حوران الفائض ، الا اننا يمكن ان نرى في ملاحظات روجرز دليلا على ذلك .

ومع ان ابن احمد باشا اليوسف وهو محمد آغا لم يعين حاكما لمقاطعة حوران كما كان متوقعا ، الا ان والد زوجته محمد سعيد شمدين وهو آغا آخر من دمشق نال هذا المنصب(٥٨) ، فنهج نهج اليوسف وكان لـه نفوذ سياسي كبيرفي دمشق وخاصة في المجلس الاداري . وبذلك نالت قبيلة (الروله) ثانية مباركة الحكومة ، وطرد (اولادعلي) من مناطق رعيهم(٥٩) . وارسلت قوات الاغـوات الـى حوران لجمع الضرائب عن الماشية ، وطلب الى زعماء الدروز ان يساعدوا فقط في المحافظة على توطيد الامن حين اجراء هذه العمليات(٦٠) .

وفي هذا الوقت كان الوفاء بالعقود التجارية مع حوران قد حان ، تلك العقود التي ترجع الى الخريف الماضي ، والتي ابرمت ايام رشدي شيرواني . وقد ضمنت القوات الموجودة في حوران مشكلة انتقال التجار الاوربيين واصحابالعقود المرتبطين بهم . وكانت هذه العقود قد ابرمت في وقت كان سكان حوران فيه بحاجة ماسة الى التمويل نظرا لتردي محصولهم الصيفي وانتشار الاوبئة وفقدان الكثير مـن حيواناتهم ، وجاءت بنودها وفقا لمصلحة الدائنين(٦١) . يضاف الـى ذلك ان المحصول لم يكن مهددا بسبب امطار الشتاء او وجود كوارث طبيعية . وسر مصدرو الحبوب من ارتفاع أسعار القمح في الاسواق العالمية . ففي الوقت الذي كان فيـه الطن من القمح يباع في حوران بجنيهين ونصف (استرليني)(٦٢) ارتفع في لنـدن الى اكثر من عشرة جنيهات للطن (٦٣) .

ولكن ما سبب الذعر للمصدرين ان اسعد باشا اتخذ خطوة مهمة ، فقد اعلن ان الاتفاقات المبرمة سابقا قد الغيت رسميا وان محصول حوران يجب ان يدخل مخازن الحكومة المخصصة لذلك(٦٤) . واخبر القنصل الفرنسي ان نحو الف مـن الدمشقيين المنشغلين بتجارة الحبوب سيقضى عليهم نتيجة لهذا الاجراء . واجتمع القناصل الاوربيون وقدموا احتجاجا الى الوالي : « لن نسمح بفرض أي امر بصدد تجارة الحبوب يؤثر على البضائع المقررة لبلادنا ، والتي تكون مستحيلة في مثـل هذه الشروط »(٦٥) وقد نقل هذا الاعتراض عبر القنوات الدبلوماسية الىاستانبول واتخذ قرار في الحال باستدعاء والي دمشق اسعد مخلص باشا ، وارسل مكانـه رشيد باشا(٦٦) . مما يدل على مدى تأثير الاوربيينعلىالدولة العثمانية في الستينات مـن القرن الماضي .

كان محمد رشيد باشا أحد أعمدة الاصلاح . وطيلة بقائه في دمشق كانت حوران تحت سيطرة الحكومة المركزية ،وجرى الحج دون حادث يذكر . اعلن رشيد باشا لدى وصوله الى دمشق انه سيعيد السيطرة العثمانية المباشرة ، لذلك لم تكن مفاجأة انه بدأ بالقاء القبض على محمد سعيد آغا شمدين (٦٧) ، واخذ على عاتقه شخصيا التوسط لتحقيق توازن القوى في حوران فاستدعى عدداً من زعماء بدو حوران وزعماء الدروز وتفاوض معهم على تقسيم مقبول للامتيازات والوظائف(٦٨). ومنذ ذلك الحين كان لاولاد علي والروله أراض مناسبة للرعي ، وبالنسبة لآل الاطرش فقد اختارهم لمناصب ادارية في نواح رئيسية في حوران . وارسل رشيد باشا موظفا عثمانيا تركيا يدعى كامل باشا لم يسبق أن كان له روابط في دمشق ليكون حاكما لمنطقة حوران مؤيداً بعدد كبير من القوات النظامية (٦٩) . ولانهاء الحظر الذي كان اهل حوران قد بداوا بفرضه أيام اسعد باشا مخلص احتجاجا على الاحتكارات الحكومية ، واستمروا به خلال شهر تشرين الثاني ، للاحتجاج على وجود القوات الحكومية ، عرض رشيد باشا تخفيضات ضريبية .ولكن القوات بقيت(٧٠) .

بالنسبة للموضوع الشائك الخاص بالمصالح التجارية الاوروبية في سورية ، فقد كانت الحكومةالمركزية مجبرة علىتجنب مواجهةشاملة مع الاوربيين بسببديونها المالية الثقيلة . لهذا بقي الاوربيون ضالعون في التجارة مع سورية طالما كانت هناك ارباح كبيرة يجنونها . ولم يكن هناك ما تفعله الحكومة المركزية او الدمشقيون او أهل حوان في هذا المجال .

الدور الرابع : زرع سياسة وطنية متنورة بين الفئات المحلية .

كان رشيد باشا يدرك ان سيطرة الحكومة المركزية في حوران لن تستمر لحظة انسحابه هو وقواته ، وهو أمر لا يمكن تجنبه وتمليه مشاكل الامبراطورية في أماكن أخرى . كما كان يتوقع ايضا ان الفئات المحلية ستستمر بالاقتتال وتؤخر اندماج هذه المنطقة في الامــة المتجددة . لذلك تركزت سياسته على الفوز بدعم الفئات المحلية ، وذلك بطرحه الفكرة التالية : هل من حاجةٍ للتشاحن بشأن المناطق الداخلية في سورية في الوقت الذي تتوفر فيه مصادر كثيرة للاستثمار ؟ لنبدأ بالسيادة على هذه الارض معا ، واذا كنتم مستاءين من تدخل الاوربيين ، فمن المؤكد انه يمكننا صدهم ونحن مجتمعون خيراً منا منقسمين . وكما عبر عن ذلك السيد ريتشارد وود (Richard Wood) القنصل البريطاني ابان ذلك :

« كان رشيد باشا يعلم بأن سكان سورية ينظرون الى حكومته على انها اجنبية وحاول جذبهم الى جانب السلطة بازالة الانطباع بأنهم محكومون بقصد زيادة الدخل الحكومي وتقديم الجنود فقط . ودون ان يتشاور معهم بشأن المكاسب التي يتوقعونها من الحكومة فقد قام سعادنه بالكثير لكبح الفساد والظلم ، ولا يزال هناك مجال واسع للتحسين ... واذا ثابرت السلطات المحلية بطاقة متزايدة للتحسين فانها لن تفشل في اقناع الناس بمجتمع له مصالحه المادية والسياسية والاجتماعية - اي روح قومية - وعندها تعبر الدولة أسمى تعبير عن هذه الروح » (٧١) .

افتتح رشيد باشا مجلسا اداريا جديدا وكذلك مجلسا بلديا (٧٢) . ولكن يبرهن عن حسن النية نحو زعماء دمشق ذوي النفوذ عين عددا كبيرا منهم في هذين المجلسين وفي مناصب ادارية هامة اخرى ، (٧٣) كما أحدث منصبا جديدا براتب لامير الحج ، وضمن بقاء هذا المنصب لدمشقي .

وكتعويض للاغوات وفر لهم رشيد باشا مجالا جديدا للعمل ، وذلك باستعمال الاقوياء منهم في مد سلطة الحكومة جنوبا نحو البلقاء ، حيث فرضت الضرائب لاول مرة صيف ١٨٦٧ ، والتي من المحتمل انها لم تجب . وقد أذن رشيد باشا لمحمد سعيد آغا شمدين بالاشراف على هذا العمل (٧٤) ، بينما عين اغوات اخرين مثل محمد آغا أجليقين وأحمد آغا بوظو في وظائف اخرى كأمراء للحج (٧٥) . بعد ذلك عهد رشيد باشا الى آغا دمشقي آخر هو هولو آغا العابد (٧٦) بادارة حوران . وعلى الرغم من استعمال رشيد باشا لهؤلاء الاغوات الا أنه بقي يدير الامور باحكام وينفذ معظم العمليات شخصيا ، فيقود رجاله في جولات في حوران والبلقاء ، وفي مناطق حول حمص وحماه . وشجع رشيد باشا راس المال المحلي على الاستثمار في الاراضي منمشيا مع تنفيذ قانون الاراضي العثماني لعام ١٨٥٨ ، فعرض مساحات شاسعة من أراضي الروله في البقاع وحوران للبيع بالمزاد العلني* واتخذت خطوات متقدمة لتسجيل الملكيات الواسعة وخلق بعض النظام في فوضى ملكية اراضي الريف (٧٧) . وفي حالات كثيرة قدم رشيد باشا مصالح اصحاب رؤوس الاموال في المدن على مصالح الفلاحين ، الى حد الاضرار بهم (٧٨) وهذا الامر يتطلب تقصيا اكثر كي نتمكن من التعميم فيما يتعلق بملكية الاراضي الكبيرة عامة في هذا الوقت .

من الطبيعي انه لم يكن كل دمشقي في وضع يمكنه من الافادة من الفرص التي قدمها رشيد باشا . كان هناك مسألة الاعتمادات المالية المناسبة ، لذلك تسارع هذا

---

* لم يكن للبدو ملكية في حوران ، ولكن هناك مناطق لهم افضلية الرعي فيها (المجلة)

الاتجاه وتحول كثير من المال بعد ركود التجارة في سبعينات القرن الماضي من رأسمال تجاري الى استثمار الاراضي . اذ ان الصعوبات التي عاناها الفلاحون في السبعينات من القرن الماضي بسبب الجفاف والاوبئة والطاعون اضعفت جميعها من قدرتهم على المساومة . وكانت هذه الصعوبات عاملا حاسما في ظهور عدد من أصحاب الملكيات الخاصة (٧٩) . وقامت الحكومة من جانبها بالمحافظة على النظام والقانون في المناطق الداخلية لضمان الاستثمارات هناك .

بدأ المجلس الاداري بدمشق والمعين حديثا نقاشا حول امكانية بناء طرق وجسور جديدة للوصول الى المناطق الريفية وتشجيع توسع الزراعة . وقد تقدم عدد من أعيان المدينة ، ومنهم الامير عبد القادر الجزائري وبعض الشخصيات البارزةمن زعماء المسلمين والمسحيين (٨٠) من القنصل البريطاني باقتراح ، وكما أفاد القنصل: « طلبوا مني بجد أن الفت انتباه الراي العام البريطاني الى انشاء شركةلبناء سكة حديدية عبر سورية حيث ان هذا هو الوسيلة الوحيدة التي تبني حضارة بلادهم (٨١) » .

يبدو أن الدمشقيين قد ساروا الى آخر المطاف في مشاريع رشيد باشا التوسعية . وفي الحقيقة فان سياسة الحكومة المركزية التي كان يحددها تقديم فرص للانتعاش الاقتصادي والتقدم والدفاع ضد تدخل اوروبي اكبر في سورية ، هذه السياسة كان لها تأثير على اندماج بعض الفئات السياسية في دمشق في صفوة عثمانية مالكة للارض ، بيروقراطية ، خلال سبعينات القرن الماضي . وكسبت الحكومة العثمانية تأييدا أوسع لاضافتها اصلاحات في التعليم ووضعها المؤسسات الدينية من جديد ضمن برامج الحكومة المركزية .

كان دفاع الحكومة المركزية العثمانية ضد التدخل الاقتصادي الاوربي ضعيفا بشكل واضح . وقد أعلن عن افلاس الامبراطورية أمام دائنيها الاوربيين عام ١٨٧٥ ، ووقعت المقاطعات العثمانية في شمال افريقية في أيدي فرنسة وانكلترة في الثمانينات . وقد بدأ من الصعوبة بمكان وقف العملية التي أخذ فيها الاقتصاد السوري يندفع نحو مزيد من الاعتماد على رأس المال الاوربي وعلى أوضاع السوق العالمي . فعندما تدنت الاسعار العالمية للحبوب في الثمانينات والتسعينات وتضاءل الاهتمام بالحبوب في سورية لم يكن المتنفذون والمتسلطون في كل من دمشق وحوران مستعدين لاغاثة مزارعي حوران الذين كانوا يعانون منذ أمد بعيد . وعلى النقيض من ذلك ، ورغم ان المزارعين في حوران قد قاوموا بشجاعة فقدان استقلالهم الريفي ، الا انهم سرعان ما انهاروا حين استغلت الحكومة المركزية الانقسام الذي اوجده التغيير الاقتصادي

بين عامة الشعب وبين بعض زعاماتهم . وقد قللت الكوارث الطبيعية ومصائب الصحة العامة في حوران في السبعينات ، قللت الى حد بعيد قدرة المزارعين على مقاومة الخضوع الاقتصادي والسياسي . انه لمن السذاجة ان نتخيل الامور تحدث عكس ذلك اذا ما تأملنا حجم الضغوط الخارجية وانعدام السيادة أو حتى الاستقلال المحلي . ويجب ان نتذكر احوال المزارعين في مناطق ريفية عديدة من الامبراطورية العثمانية أو حتى في اجزاء من اوربة وامريكة في ذلك الوقت ، والتي لم تكن أحسن مما كانت عليه في حوان .

لا يمكننا ان نصل بكل ما سبق الى تقييم صحيح لتاريخ حوران ، فالتطورات لم تتوقف في السبعينات من القرن الماضي بل بقي أهل حوران خلال اواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين يضايقون وحتى يدبرون الهجمات ضد المصالح المشتركة للحكومة المركزية ، والمصالح التجارية الاوبية ومصالح بعض الزعماء في دمشق او في القرى ، أو بين الدروز والبدو وزعماء القرى . فالجمعية الفلاحية التي تشكلت في السويداء عام ١٨٨٩ هي مثال مثير على هذه الاعمال المنظمة (٨٢) . ويمكن أن نفسر معالم الثورة السورية ضد الحكومة الانتدابية الفرنسية في حوران عام ١٩٢٠ ضمن هذا الاطار .



الحواشي :

(١) تضم هذه المنطقة ، بالاضافة الى سهل حوران ، المناطق المتاخمة له مثل : جبل العرب (جبل حوران او جبل الدروز كما يدعى ايضا) والصفا ، واللجاه ، وجيدور ، والجولان ، والى حد ما البلقاء في شرقي الاردن . وهذه المناطق جميعها كانت موضع التطورات في القرن التاسع عشر.

(٢) على الرغم من ان حوران لاتزال ((تطعم)) دمشق ، الا ان مناطق اخرى قد فاقتها اهمية في الاقتصاد الوطني . وهي مناطق نمت حديثا ، في حماه وحمص وحلب ، وفي الاراضي الشاسعة في الشمال الشرقي من سورية . ان امكانية حوران في الاسهام في التطور الاقتصادي لسورية محدودة ، لاعتمادها اساسا على الامطار والمياه الجوفية . كما ان حوران قد عانت ، اقتصاديا ، بسبب مرور الحدود الدولية عبر اراضيها ، التي يرتبط بعضها مع البعض الاخر ويعتمد عليه ، كما عانت من خسارة فلسطين كسوق بديل لدمشق ، ومن خسارة حيفا كمنفذ اقتصادي على المتوسط .

(٣) جذبت حوران اهتمام الكثيرين عن الرحالة والملفين ، ومؤرخي الفترة العثمانية المتاخرة • الا انهم لم يبحثوا بتعمق احداث الستينات من القرن الماضي ، ولم يعالجوا الدور الذي لعبته المصالح الاقتصادية الاوربية ، ومصالح الدمشقيين في ذلك الوقت . ويمكن ان نشير الى ما يلي :

- شبلي العيسمي ، داود نمر وحمود الشوفي ، محافظة السويداء ، دمشق ١٩٦٢ .
- عبد الله حنا ، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان بين ١٨٢٠ ، ١٩٢٠ ، بيروت ١٩٦٨ .
- عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ببروت ١٩٦٨ .
- صفوح خير ، اقليم الجولان ، دمشق ١٩٧٦ .
- احسان النمر ، تاريخ جبل نابلس والبلقاء ، نابلس ١٩٦١ .

Gertrude Bell, **Syria : The Desert and the Sown** (London, 1907); Lady Ann Blunt , **the Bedouin Tribes of the Euphrates** (New york , 1879) ; R.E. Brunnow and A. Von Domaszewski, **Die Provincia Arabia, Bd. 3, Der Westliche Hauran,** (Strassburg, 1909); Richrad F. Burton and F. Trywitt Drake, **Unexplored Syria** (London, 1872); E. M. Delbet, « paysans en communauté et en polygamie de Bousrah », in Le play, **Les Ouvriers de L'Orient** (Tours, 1877), pp. 304-397; G.R.Lees «Across Southern Bashan, **Geographical Journal,** 5 (1895) 1-27; David Mc Dowell, The Druze Revolt of 1925 and its Background in the Late Ottoman Period, « unpublished B. Litt. Thesis (Oxford, 1972); Joyce Laverty Miller, «the suyrian Revolt of 1925, « **in International Journal of Middle East Studies,** 8 (1977) 545-563;

Jean-paul pascual,«Environnement et alimentation dans la Hawran au XIX eme siecle », unpublished French version now available in Arabic translation in **al-Mu'tamar ad-Dauli ath-Thani li Tarikh Bilad ash-Sham,** vol. 1 (Damascus, 1980) 415-428; J. L. porter, **The Giant Cities of Bashan** (London, 1867); Max von Oppenheim, **Die beduinnen** (Leipzig, 1943) and his **vom Mittelmeer zumm persischen Golf** (Berlin, 1899); Anon., **rambles in the Deserts of Syria** (London, 1864); Emanuel Guillaume Rey, **voyage dans le Hauran et aux Bords de la Mer Morte,** (paris, 1860); G. Schumacher, **the Joulan** (London, 1888); J.G. Wetzstein, **Reisebericht uber den Hauran und die Trachonen** (Berlin, 1960).

(٤) لمزيد عن السياسة العثمانية وخاصة فيما يتعلق بسورية ، انظر :
- عبد العزيز عوض ، الادارة العثمانية في ولا يات سورية ، القاهرة ١٩٦٤ .
- بعض ملامح الحكم العثماني في سورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر : الاصلاح ، الاسلام ، الخلافة ، بطرس ابو منة ، (رسالة دكتوراه غير منشورة ، اوكسفورد ١٩٧١) .
Moshe Ma'oz, **Ottoman reform in Syria and Palestine**, 1840 - 1861. (oxford, 1968).

(٥) انظر : دور التجارة الخارجية في التنميـــة الاقتصادية في سورية ، محمد سعيد القلا (رسالة دكتوراه غير منشورة ، الجامعة الامريكية ، وا شنطن ١٩٦٩) .
Schatkowski - Schilcher, « Ein Modellfall indirekter wirtschaftlicher Durchdringung: Das Beispiel Syrien, » **Geschichte und Gesellschaft,** 1 (1975) 482 - 505.

(٦) للرجوع الى العديد من تقارير الرحالة انظر رقم ٣ اعلاه .

(٧) رنتش (٢) ١٠ كانون الثاني ١٨٦١ Fo 195/677 ، (٣) ٢٤ كانون الثاني ١٨٦١ Fo 195/677
(٧) ٢٥ شـــــباط ١٩٦١ Fo 195/677 (ان المواد الواردة هنا من الارشيف الاوروبي ماخوذة من مراسلات القناصل في دمشق والمتوفرة الان في المكتب البريطاني للسجـلات العامـــة سلسلـة F. O. 195 « وترد هنا F O 195 » وماخوذة من ارشيفات وزارة الشؤون الخارجية : مراسلات سياسية وتجارية لقنصلية دمشق وترد هنا « AEPol, AECom » وماخوذة ايضا من الارشيف الموحـــد للقسطنطينية « AEARC » ان الاشارة الى هذه الاراشيف يعطي اسم القنصل المرسل ، رقم وتاريخ رسالته ، والارشيف المرجع فرنسيا ام بريطانيا .

(٨) رنتش (١٠) ٤ نيسان ١٨٦١ FO 195/677

(٩) المرجع نفسه

(١٠) عسكرت القوات العثمانية في : عين الطيبه ، جديدة ، الاشرفية ، هيجانة ، حرجلة ، عرطوز ، دير مبية ، بيت صادر ، الكسوة ، قطنا ، اوتري (٢٩) ٣٠ كانون ثاني عام ١٨٦١ .

(١١) رنتش (٩) ٢٠ اذار ١٨٦١ FO 195/677 يشير القناصل الاوروبيون الى قوات الاغوات باسم « باشي بزق » وهم اناس مزدرين اخذهم الاتراك اثناء حرب القرم . كتب روجرز : « ان الضباط قادة هذه القوات هم عادة من اصحاب السمعة السيئة ، مغامرون عسكريون أو زعماء لمقاطعات مولعون بالحرب . وهم اما بالوراثة او عن طريق تهديد واخافة الناس نالوا سمعة في الشجاعة في منطقتهم . كان لضابط الباشي بزق انصاره بين قبائل العرب يعلن الحرب عليهم او يسالمهم حسب مايرى ذلك يخدم مصالحه أو عظمته الشخصية . وهو ظاهريا خاضع للسلطة المحلية » .
(روجرز (٢٧) ٢٠ آب ١٨٦١ FO 195/677

(١٢) رنتش Wrench (٩) ٢٠ آذار ١٨٦١ FO 195 / 677 و (١٢) ٩ نيسان ١٨٦١ FO 195 / 677 FO

(١٣) اوتري Outrey (١٢٩) ٣٠ كانون الثاني ١٨٦١ AEARC / 93 / 4

(١٤) رنتش (١٢) ١٩ نيسان ١٨٦١ FO 195 / 677

(١٥) لانوس (٣) ٢٧ آذار ١٨٦٢ AEARC / 93 / 5 روجرز Rogers (٢٣) ٣١ تموز FO 195 / 677

(١٦) للمزيد عن حياة احمد آغا اليوسف وعائلته انظر : « الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن باشا اليوسف » لعبد القادر بدران (دمشق ١٩٢٠) ، « منتخبات تاريخية » قسطنطين الباشا (حريصا بلا تاريخ) ص ١٧٧ و ٢٣٥ ـ ٢٣٦ و ٢٤٠ ، « كتاب منتخبات التواريخ لدمشق » محمد تقي الدين (دمشق ١٩٢٧) ص ٨٥١ ـ ٨٥٣ وكتاب محمد جميل الشطي « تراجم اعيان دمشق في نصف القرن الرابع عشر الهجري ١٣٠١ ـ ١٣٥٠ » (دمشق ١٩٤٨) ص ٥٩ ـ ٦١ .
R. Tresse, Le Pèlerinage Syrian, Paris 1937, PP. 85 - 86

(١٧) هيكارد Hecquard (١) ٤ كانون الثاني ١٨٦٣ AEPol / 7

(١٨) انظر السابق ص ١٤٤ ، ١٤٧

(١٩) هيكارد (١) ١٠ نيسان ١٨٦٢ AEARC / 93 / 5 و (٣) ١٧ نيسان ١٨٦٢ AEARC / 93 / 5 و (٣) ٢١ نيسان ١٨٦٢ AEPol / 6

(٢٠) هيكارد (٧) ١٥ حزيران ١٨٦٢ AEPol / 7 اذا عنى المقياس هنا « كيلة القسطنطينية » وهو المقياس المعتاد في ذلك الوقت فهذا يساوي عشرة الاف طن متري وهي كمية كبيرة اذا تأملنا معدل التصدير الكلي الساحل السوري في الستينات من القرن الماضي والذي كان عشرة الاف طن .

(٢٠) مكرر راجع (٨) ٣٠ حزيران ١٨٦٢ AEPol / 7 (٩) ١٠ تموز ١٨٦٢ AEPol / 7
(١١) ١١ حزيران ١٨٦٢ AEARC / 93 / 5 (١) ٤ كانون ثاني ١٨٦٣ AEPol / 7

(٢١) راجع (٧) ١٩ آذار ١٨٦٣ AEPol / 7

(٢٢) راجع (٧) ١٥ حزيران ١٨٦٢ AEPol / 7 (٤) ٦ يسار ١٨٦٢ AEPol / 7

(٢٣) راجع نفس المصدر

(٢٤) راجع (٢) ٢١ نيسان ١٨٦٢ AEPol / 7

(٢٥) راجع (٢) ٢١ نيسان ١٨٦٢ AEPol / 7 (٦) ٣١ ايسار ١٨٦٢ AEPol / 7

(٢٦) راجع نفس المصدر.

(٢٧) راجع (٦) ٣١ ايار ١٨٦٢ AEPol / 7

(٢٨) المرجع نفســه

(٢٩) المرجع نفسه

(٣٠) راجع (٧) ١٥ حزيران ١٨٦٢ AEPol / 7

(٣١) راجع (١٤) ٣ تموز ١٨٦٢ AEARC / 93 / 5

(٣٢) راجع (٧) ١٠ تموز ١٨٦٢ F O 195/727 هيكارد (٩) ١٠ تموز ١٨٦٢ AEPol / 7
(١٠) ٢٤ تموز ١٨٦٢ AEPol / 7 (١١) ٢٧ تموز ١٨٦٢ AEPol / 7

(٣٣) هيكارد (١٠) ٢٤ تموز ١٨٦٢ AEPol / 7

(٣٤) المرجع نفسه (٧) ١٥ حزيران ١٨٦٢ (١١) ٢٧ تموز ١٨٦٢ AEPol / 7

(٣٥) ساندوز Sandwith (١٢) ١٢ حزيران ١٨٦٢ F O 195/727 روجرز (١٩) ٢٨ تموز ١٨٦٢
F O 195/727

(٣٦) ساندوز (١٢) ٢٩ ايار ١٨٦٢، (١٣) ١٢حزيران ١٨٦٢ F O 195/727 هيكارد (١٦) ٢٥ آب ١٨٦٢
AEPol / 7

(٣٧) هيكارد (١٦) ٢٥ آب ١٨٦٢ AEPol/7

(٣٨) روجرز (٢٦) ٦ تشرين اول ١٨٦٢ F O 195/727 هيكارد (٢١) ٢٠ تشرين اول ١٨٦٢ AEPol/7
روجرز (٢٢) ٤ تشرين ثاني ١٨٦٢ Fo 195/727

(٣٩) هيكارد (٢١) ٢٠ تشرين اول ١٨٦٢ (٢٤) ٢٤ تشرين ثاني ١٨٦٢ AEPol/7

(٤٠) المرجع نفسه (٢٣) ١٠ تشرين ثاني ١٨٦٢ AEPol/7

(٤١) المرجع نفسه (٢٤) ٢٤ تشرين ثاني ١٨٦٢ AEPol/7

(٤٢) المرجع نفسه .

(٤٣) المرجع نفسه (٢٣) ٢٦ تشرين اول ١٨٦٢ AECom / 4 وفيما يخص جباية الاطرش للضرائب «نظر روجرز (٢٦) ٦ تشرين اول ١٨٦٢ F O 195/727 هيكارد (٢١) ٢٠ تشرين اول ١٨٦٢ AEPol/7

(٤٤) هيكارد (١) ٤ كانون ثاني ١٨٦٣ AEPol/7

(٤٥) روجرز ١٥ كانون ثاني ١٨٦٣ Fo 195/760 هيكارد (١) ٤ كانون ثاني ١٨٦٢ AEPol / 4

(٤٦) هيكارد (١) ٤ كانون ثاني ١٨٦٢ AEPol/4

(٤٧) المرجع نفسه (٦) ١٦ تشرين ثاني ١٨٦٣ AEPol/7

(٤٨) المرجع نفسه

(٤٩) المرجع نفسه

(٥٠) المرجع نفسه (٩) ٢٧ نيسان ١٩٦٣ AEPol/7

(٥١) المرجع نفسه (١٧) ٥ آب ١٨٦٣ AEPol / 8 (٢١) ٢١ آب ١٨٦٣ AECom/4

(٥٢) روجرز ١٥ كانون ثاني ١٨٦٣ ، (٣٤) ٢٤ حزيران ١٨٦٣ Fo 195/760

(٥٣) هيكارد (١٢) ٢٥ ايار ١٨٦٣ AEPol/7

(٥٤) المرجع نفسه (٢٠) ٤ ايلول ١٨٦٣ AEPol / 8

(٥٥) بالنسبة لدسائس مصطفى فضيل باشا والتي تورط فيها ـ اوريلي ـ باعترافه . انظر اقوال اوريللي في F O 195/806 وفي Gay de Tunis ، ٢ ايلول ١٨٦٨ AEpol/10

(٥٦) هيكارد (١٤) ٢٤ حزيران ١٨٦٤ AEPol / 8

(٥٧) روجرز (١١) ٢١ آذار ١٨٦٦ F O 195/806

(٥٨) هيكارد ٢٠ تموز ١٨٦٦ AEPol/9

(٥٩) روجرز (٣٣) ٢٢ حزيران ١٨٦٣ Fo 195/760

(٦٠) هيكارد (١٥) ١١ حزيران ١٨٦٦ AEPol/9

(٦١) المرجع نفسه (٢٢) ٥ تشرين اول ١٨٦٣ AEPol/8 ايلدردج (٥٢) ٢٨ ايلول ١٨٦٤ FO 195/787

(٦٢) روسو Rousseau (٣٤) ٢٧ شباط ١٨٦٠ AECom/4

(٦٣) كانت التقارير القنصلية تفيد بانتظام عن اسعار الحبوب السورية ، وبالنسبة للاسعار الاوروبية انظر :

Die Getreidepreise in Deuschland seit dem ausgang des 18, Jahrunderts (Berlin 1935)

(٦٤) هيكارد ١١ حزيران ١٨٦٦ AECom/4 و (١٩) ١١ حزيران ١٨٦٦ AEPol/9

(٦٥) المرجع نفسه .

(٦٦) المرجع نفسه (١٧) ١١ تشرين اول ١٨٦٦ AECom/4

(٦٧) المرجع نفسه (١٧) ٢٠ تموز ١٨٦٦ و (١٩) ١ ايلول ١٨٦٦ AEPol/9

(٦٨) المرجع نفسه (٢٠) ١ ايلول ١٨٦٦ AEPol/9

(٦٩) برتراند (١) ٢١ تشرين ثاني ١٨٦٦ AEPol/9

(٧٠) المرجع نفسه (٢) ١ كانون اول ١٨٦٦ AEPol/9

(٧١) وود Wood ٢٦ تشرين اول ١٨٦٩ FO 195/927

(٧٢) هيكارد (١٩) ١ ايلول ١٨٦٦ AEPol/9

(٧٣) رنتش كانون ثاني ١٨٦٤ FO 195/806

(٧٤) روستان Roustan (٧) آذار ١٨٦٩ AEPol/ 10

(٧٥) روسو (١٥) ٢٨ ايلول ١٨٦٧ AEPol/9 وود (١٥) ٢٨ ايلول ١٨٦٩ FO 195/927

(٧٦) برتراند (٥) ٢١ كانون ثاني ١٨٦٧ AEPol/9 روستان (٨) ٢٠ آذار ١٨٦٩ FO 195/927

(٧٧) هيكارد (١٧) ٢٠ تموز ١٨٦٦ AEPol/9 روجرز (٢٧) ٧ ايار ١٨٦٧ FO 195/806
ايلدردج (٦٤) (من بيروت) ٣٠ ايلول ١٨٦٨ FO 195/903

(٧٨) ايلدردج (٦٤) ٣٠ ايلول ١٨٦٨ FO 195/903 (وتقاريره من بيروت) (٢٩) ٢ آب ١٨٦٩
(٣٠) ٢ آب ١٨٦٩ FO 195 / 927 وود (٥) ١٠ نيسان ١٨٦٩ FO 195/927
وتقارير ايلدردج (٧) (من بيروت) ٥ نيسان ١٨٧٠ (١٧) ٢١ ايار ١٨٧٠ ، (٢٧) ١١ آب ١٨٧٠ (٣٠) ٢٧
آب ١٨٧٠ ، (٤١) ٥ تشرين ثاني ١٨٧٠ ، (٤٩) ١٦ كانون اول ١٨٧٠ FO 195/965 « جرين »
(٥٩) ١٢ كانون اول ١٨٧٣ FO 195/1027 ايلدردج (١٨) ٤ ايار ١٨٦٤ FO 195/1047
و (٣١) ٢٠ حزيران ١٨٧٤ FO 195/1047 و «روبن» (١) ١٨ نيسان ١٨٧٢ AECom/5

(٧٩) انظر المصادر الواردة في : ٧٣ ، ٧٤ .

(٨٠) وود (٢٠) ٢٦ تشرين اول ١٨٦٩ FO 195/927 وقد ذكر القنصل بين هؤلاء الزائرين مفتي دمشق وبعض الاعيان الذين كانوا قد نفوا نتيجةلاحداث ١٨٦٠ ولكنهم عادوا الىدمشقمرة ثانية .

(٨١) المرجع نفسه .

(٨٢) انظر شبلي العيسمي واخرين « محافظة السويداء » ص ٦٥-٧٤ عبد الله حنا « القضية الزراعية » ص١٧٥-١٨٣ ، دافيد ماكدويل « ثورة الدروز » ص ٦١-٦٩.

المستشرقون

وبعض قضايا التاريخ العربي الإسلامي

د . نبيه عاقل

وكيل جامعة دمشق للشؤون العلميـة

المستشرقون ، كما هو معروف ، هم الفئة من الباحثين والمؤلفين الاوربيين الذين تناولوا بعض قضايا التاريخ واللغة والادب العربي والدين الاسلامي بالدراسة والبحث وابداء الرأي ، كما أن بعضهم ساهم مساهمة طيبة في نشر كتب التراث وطباعتها بعد تحقيقها ، تحقيقا كان بعضه أمينا ودقيقا ، وبعضه الاخر جانبته الدقة والامانة . وطبيعي انا نعتبر المستشرقين فئة واحدة من فئات أخرى غير مسلمة بحثت في التاريخ العربي الاسلامي وطرقت العديد من أبوابه منذ قرون طويلة ،ولكن هذه الفئات الاخرى لم تشكل تيارا متصلا وحركة لها سماتها المميزة ، كما هـو الحال مع حركة الاستشراق التي ستكون موضع اهتمامنا في هذه الدراسة .

وقبل الدخول في هذا الحديث الذي أردناه عن المستشرقين وبعض قضايـا التاريخ العربي الاسلامي ، وحتى نضع حركة الاستشراق في موضعها الصحيح من حركة الكتابة التاريخية عموما ، وضمن المسار العام لهذه الحركة ، لابد لنا مـن التذكير بأن موضوع نظرة المؤرخين غير المسلمين الى الاسلام والحضارة الاسلامية يشمل كتابات هؤلاء المؤرخين في القديم والحديث عن الاسلام وحضارته . وضمن فئة المؤرخين غير المسلمين الذين كتبوا في القديم عن الاسلام يمكننا ان نميز نوعين من المؤرخين : مؤرخون غير مسلمين عاشوا وكتبوا على أرض الاسلام وفي ظل دولته ، ومؤرخون أجانب لم يعيشوا على أرض الاسلام ولكنهم كتبوا عنه ، اما لاهتمامهم بالتاريخ العام أو لبحث العلاقات التي قامت بين دولهم والدولة العربية الاسلامية المعاصـرة لهـم .

وللتعريف بما قصدنا بأفراد الفئة الاولى يمكننا أن نذكر اسما واحدا من بين كثرة لا يتسع المجال لتعدادها ، هو اسم أبي الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي ، الذي ينسب الى (ملاطية) في الاناضول ، وهو من رجال الكنيسـة اليعقوبيـة

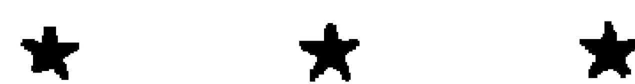
المشهورين . كان أبوه طبيبا يهوديا ، أما هو فقد تنصر ولقب بابن العبري Ban Hebraeus وعرف بهذا اللقب بين العرب . وقد عاش ابن العبري في القرن السابع الهجري (٦٢٤ ـ ٦٨٥ هـ) ، وبدأ حياته بدراسة الطب كأبيه ، ولكنه ما لبث أن انصرف لدراسة العلوم العقلية في الكتب العربية . واستقر مع أبيه في مدينة انطاكية ، حيث تنصر واعتنق الرهبنة وتقلب في مناصب اكنسية عديدة حتى وافته المنية في مدينة مراغة في اقليم اذربيجان . وقد ألف ابن العبري كتبا كثيرة في علوم شتى كاللاهوت والفلسفة وقواعد اللغة السريانية . كما ألف كتابا في التاريخ هو « مختصر تاريخ الدول » ، الذي كتبه باللغة السريانية ، وبحث في جزئه الاول التاريخ العام السياسي للعالم منذ الخليقة حتى أيامه . وقد استقى ابن العبري معلوماته عن تاريخ العرب والاسلام من مصادر عربية وفارسية ، اما معلوماته عن فترة حكم التتر للبلاد الاسلامية فقد أخذها عن مؤلف فارسي . وأعد ابن العبري ترجمة عربية لذلك الجزء من تاريخه العام ، مضيفا الى الترجمة العربية زيادات اقتبسها من الكتاب المقدس لم يذكرها في النسخة السريانية لافتراضه انها معروفة في التاريخ السرياني . ومعلوم أن ابن العبري عاش في عهد الغارات الصليبية والمغولية واتصل بزعيم المغول (هولاكو) الذي عينه رئيسا لاساقفة السريان اليعاقبة في الولايات الشرقية . فعمل على نشر المذهب اليعقوبي ، وساهم في تأسيس العديد من الكنائس ، كما يذكر في كتاب له عنوانه « تاريخ الكنائس السريانية » . ويعتمد ابن العبري في كتابه « مختصر تاريخ الدول » على النقل والتلخيص المشوه عمن سبقه من مؤرخين عرب وغير عرب . وليس لكتابه قيمة تاريخية حقيقية ، وفيه دس متعمد من بينه فريته المشهورة بأن عمر بن الخطاب أمر بحرق مكتبة الاسكندرية. وسنعود للحديث عن ابن العبري هذا في فقرة لاحقة . وليس ابن العبري مثالا فريدا على هذه الفئة من المؤرخين ، فهناك العديد من أضرابه الذين كتبوا عن الاسلام في ظل دولته وكرعايا له وهم من غير المؤمنين به .

أما الفئة الثانية ، فئة المؤرخين الاجانب الذين كتبوا عن الاسلام من على أرض غير اسلامية ، فهي أيضا تضم اسماء اكثيرة ، ولعل هيرودوت الذي لقب بأبي التاريخ كان أول من كتب عن امم ودول غير امته ودولته ، وكان للعرب من كتاباته نصيب ، كما هو معلوم . ومن أشهر المؤلفين البيزنطيين الذين تناولوا العرب في تواريخهم هو المؤرخ ثيوفانس الذي عاش بين سنتي ٧٥٨ ـ ٨١٨ م ، وعمل في السلك الكهنوتي واهتم بالاخبار منذ شبابه . وتعتبر حوليته التي دونها بين سنتي ٨١٠ ـ ٨١٨ م من أشهر حوليات المؤرخين البيزنطيين وتغطي الفترة الواقعة بين ٢٨٤ ـ ٨١٣ م . ورغم ما يأخذه البعض على حولية ثيوفانس هذه من افتقار

الى الدقة العلمية وبعد النظر وحياد المؤرخ النزيه ، فانها ذات قيمة كبيرة ولا سيما بالنسبة لاخبار القرنين السابع والثامن الميلاديين لان مؤلفها اعتمد على مصادر قديمة ، فقدت ولم يصلنا منها الا ما نقله عنها هو . وأهم ما يميز حولية ثيوفانس النظام الزمني الدقيق ، فالاخبار عنده مرتبة حسب السنين ، وحين يتحدث عن امبراطور من اباطرة بيزنطة يتناول بالبحث من كان يعاصره من حكام دولة الاسلام وفارس من قبلها . وعنه نستطيع استقاء اخبار مهمة تتعلق بالعصر الاموي خاصة، لما كان بين بلاد الشام وبيزنطة من صلات(١) . وهذه الاخبار يعتبرها بعض المؤرخين المحدثين أقرب الى وجهة نظر أهل الشام من أحداث هذه الفترة ، لان ما جاء في المصادر العربية عن خلافة بني امية كتب زمن العباسيين الذين كانوا لا يكنون ودا كبيرا للبيت الاموي . في حين أن ثيوفانس استقى معلوماته ، على أغلب الظن ، من مصادر أو روايات شامية باعتبار أنه كان يعيش على أرض بيزنطة التي لا تبعد عن بلاد الشام كثيرا ، وليس غريبا أن يكون تأثره بهم أكبر من تأثره بأهل العراق والخلافة العباسية . واذا اضفنا الى ذلك الفترة الزمنية التي عاش خلالها هذا المؤرخ والف منها حوليته لوجدنا ما يبرر اعتقادنا هذا . وكما كان ابن العبري مثلا واحدا على افراد الفئة الاولى من المؤرخين غير المسلمين الذين كتبوا عن تاريخ العرب والاسلام ، كذلك ثيوفانس ، ليس الا مثلا واحدا على أفراد الفئة الثانية . وذكرنا لاسمه وحده لا يعني انه الوحيد بين المؤرخين الاجانب الذين كتبوا عن دولة الاسلام فهناك العديد من اضرابه ممن سبقوه أو جاؤوا بعده ، بيزنطيين وغير بيزنطيين . فهل يعقل مثلا أن تمر العلاقات البيزنطية الفارسية غير ملحوظة في كتابات من كتبوا قبل ثيوفانس ، كما أنه هل يمكن أن يمر موضوع العلاقات العربية البيزنطية دون أن يحظى باهتمام من تلوا ثيوفانس من مؤرخين بيزنطيين . واذا صح هذا على المؤرخين البيزنطيين فانه يصح بنفس القدر على المؤرخين الفرنجة الذين كانت تربط دولتهم روابط من حرب وسلم وسفارات لا تكاد تنقطع يوما مع دولة الاسلام في المشرق والمغرب ، في دمشق وبغداد والاندلس على حد سواء . وحين نصل الى الحروب الصليبية ، هذا الحادث الذي كان بالغ الاهمية في حياة الغرب المسيحي ، والذي فتح أمام الجماهير الاوربية عوالم جديدة تختلف عن عالمهم اختلافا جذريا في أكثر مناحي الحياة ، فانا نقف امام أكداس من الكتابات التاريخية لمؤرخين غير مسلمين كتبوا عن احداث وثيقة الصلة بالتاريخ العربي الاسلامي . وذلك لان الحملات الصليبية لم تكن صداما عسكريا بين الغرب والشرق لتحقيق اهداف دينية وسياسية واقتصادية لصالح الغرب فحسب ، بل كانت مخاضا حضاريا وثقافيا أخذت بعده اوربة سمتا جديدا في مسيرتها التاريخية وانطلقت لتخط الصفحة الهامة في سفر حضارتها الحديثة التي تدين بالشيء

الكثير لما نقلته عن الشرق العربي المسلم حين احتكت به ابان الحروب الصليبية وبعدها . وقد ظهرت آثار دهشة اوربة من الرقي والتقدم الذي اكان يحياه مشرقنا العربي المسلم في تلك الفترة ، في العدد الضخم من الرسائل والتقارير التي ارسلها الصليبيون الاول الى أهلهم وذويهم وحكوماتهم في الغرب . ويبدو أن الرسائل والتقارير لم تشبع نهم الغرب الى معرفة المزيد عن حضارة الشرق وتاريخه ، فأخذ الكثيرون منذ الايام الاولى للحملات الصليبية ، بتدوين الكتب التي تبحث في تاريخ وجغرافية وحضارة المشرق آنذاك . ولعل كتابات ريمون ايفيل Raymond d'Aiguilhe وفوشيه شارتر Foucher de Chartres أو فولبر Fulbert وايكهارد اورا Ekkehard of Aura وغيرهم من مؤرخي الحروب الصليبية خير شاهد على اهتمام مؤرخين غربيين بتاريخ العرب والاسلام في هذه الفترة وعلى الاسلوب والمنهج الذي اتبعوه في معالجة احداث هذا التاريخ ونظرتهم الى معطيات الحضارة العربية الاسلامية . وأود في هذه العجالة أن أقف وقفة قصيرة عندكتابات واحد من مشاهير مؤرخي الحروب الصليبية ، الا وهو وليام الصوري William of Tyre الذي يحتل مكانة فريدة بين مؤرخي هذه الحروب ، لان كتاباته تعتبر أول تاريخ شامل لها . ولد وليام هذا حوالي سنة ١١٣٠ م في بيت المقدس ، طهر الله ثراها من رجس الصهاينة الطغاة ، من أبوين نزحا من الغرب الى القدس حيث استقرا وولد لهما أولاد من بينهم وليام . ورغم صعوبة امكان الادلاء برأي قاطع حوله أصله ، فقد يكون من أصل ايطالي . وكان يعرف الى جانب اللاتينية الفرنسية واليونانية والعربية والعبرية والفارسية . وليس يهمنا أن ندخل في تفاصيل حياة هذا المؤرخ ، ويكفي أن نذكر انه في حوالي العام ١١٦٣ م اضحى قساً ومن أعضاء الكاتدرائية المسؤولين في مدينة صور . وقد عينه أموري الاول ملك القدس (حكم بين سنتي ١١٦٣ — ١١٧٤ م) رئيسا للشمامسة ومؤرخا خاصا له . ويجمع المؤرخون على أن اموري هو الذي اقترح على وليام الصوري كتابة تاريخ شامل لمملكة بيت المقدس منذ قيامها . وقرر وليام أن تكون نقطة البداية في تاريخه مجمع كليرمون الذي عقد سنة ١٠٩٥ م ، أو سنة ١٠٩٤ ، وهي السنة التي يقال ان بطرس الناسك حج فيها الى بيت المقدس . وسار وليام قدما في تحقيق مشروعه وأخذ يجمع كل ما وقع اليه من مصادر مكتوبة أو روايات شفهية وأخذت فصول كتابه تظهر تباعا . وزار أموري في هذه الاثناء مصر وشاهد مظاهر الحضارة الاسلامية الرائعة فيها ، فشعر انه بحاجة الى اكتاب في التاريخ يشرح له ماضي العالم العربي الاسلامي . لذا زود وليام الصوري بالمصادر العربية التي كان قد استلبها من مكتبة اسامة بن منقذ ، وطلب اليه ان يكتب له تاريخا عن أمراء الشرق . وهكذا غدت مهمة وليام مزدوجة وأوكل اليه أموري اكتابة تاريخين

احدهما : « تاريخ مملكة بيت المقدس » Gesta Regnum ، وثانيهما : « تاريخ امراء المشرق » Gesta orientalium principum . وتشاء الاقدار أن يتوفى آموري في هذه الفترة وأن يقع الاختيار على ريمون الثالث اميرطرابلس ليغدو وصيا على العرش وذلك سنة ١١٧٤ م . وفي سنة ١١٧٥ عين ريمون الثالث وليام الصوري رئيسا لاساقفة صور وسلمه منصب مستشار المملكة ، فغدا يجمع في شخصه منصبين رفيعين احدهما سياسي والاخر ديني . رقد شغلته السياسة والمناصب الكنسية الرفيعة ردحا من الزمن ؛ عاد بعده لانجاز كتابيه في التاريخ . واستطاع وليام أن ينجز كتابه « تاريخ امراء المشرق » Gesta orientalium principum الذي كتبه بناء على طلب اموري ، كما ذكرنا آنفا ، ولكن ، وللاسف الشديد ، ضاع هذا الكتاب ولم يصلنا منه الا نتف واشارات نقلها عنه مؤرخون اخرون : على اننا نستطيع القول من خلال معرفتنا بكتابه Historia rerumin Partibus Transmarinis Gestarum وهو الذي ترجمه بابكوك Babcock الى الانكليزية بعنوان A History of Deeds Done byond the Sea « تاريخ الاعمال التي انجزت وراء البحر » (طبع جامعة كولومبيا سنة ١٩٤٣ في جزئين) ، أنه أفاد من المصادر العربية التي قدمها له اموري . ويقول الدكتور السيد الباز العريني عن وليام هذا ما يلي : « ويبدو من الفقرات التي أوردها وليام عن التاريخ الاسلامي أنه لابد انه استمد معلوماته في هذه الناحية من روايات شفوية ، ومن نقوش مدونة على العمائر . على أن ما أورده عن بعض الامور في التاريخ الاسلامي ؛ تختلف في صورتها عما ورد في المصادر التي اعتمد عليها ؛ أو انها تتطلب مزيدا من البحث ... والراجح أن وليام لم يجد عناء في ان يلتمس من علماء العرب أو المصادر العربية ما بحل مشاكله »(٢) . ولكن الواقع انه لم يفد افادة كاملة من كل المصادر العربية التي وقعت له أو انه اكتفى في اغلب ما كتب بالنقل عن سعيد بن البطريق فقط . وهناك فارق كبير بين المعلومات التي يوردها في تاريخه عن الفترات التي سبقت عصره والمعلومات المتعلقة بعصره . فهو حين يكتب عن عصره يتناول الاحداث باسهاب وتفصيل ، ولاسيما حين يتحدث عن فترة حكم اموري نراه يسهب في وصف أحوال مصر والخلفاء الفاطميين وأصلهم وأخبارهم ، كما يولي أمر جغرافية مصر والنيل وبرزخ السويس عناية خاصة ، ويرجع بأبحاثه الى العصور القديمة .



بعد هذه الامثلة التي لا ادعي لها الكمال والتي قصدت منها فقط أن أقدم شواهد على بعض مما كتبه مؤرخون غير مسلمين عاشوا في القديم عن الاسلام وحضارته ، أود أن أقول ان هذا الشق من الكتابة التاريخية التي خطتها أيد غير

عربية أو مسلمة عن العروبة والاسلام والحضارة العربية الاسلامية ليس ما أنوي عرضه في بحثي هذا . واني انما اريد أن أسلط بعضا من ضوء على الاستشراق كحركة في التأليف التاريخي وجهت عنايتها الى تاريخنا وتناولت احداثه بالدراسة والبحث وكان لها أهدافها وغاياتها وأساليبها في عرض هذه الاحداث ، كما كان لها مواقف لا تخلو من شبهات من رجالات هذا التاريخ ومنجزاتنا الحضارية . فالمستشرقون مؤرخون أوربيون خصوا العرب والاسلام وسواهما من شعوب الشرق وحضاراتها بكل جهدهم . وكانت لهم أدوار لها سلبياتها وايجابياتها ، تستحق وقفة نحاول من خلالها أن نستذكر معا تاريخ هذه الحركة وتطورهاواهدافها ونضرب بعض الامثلة على مواقف رجالاتها . واني أقر سلفا بأن هذه الدراسة بعيدة كل البعد عن الاحاطة والشمول ، وانها ليست الا محاولة للتذكير باليسير مما هو معروف عن هذا الموضوع .

واذا أردنا لقصة الاستشراق من بداية فلابد من أن نذكر أن رسالة محمد بن عبد الله (صلعم) لم تقف عند حدود تبليغ الوحي والتبشير بدين الله ، بل اكانت نقطة الانطلاق لامة العرب في مسيرتها الرائعة لبناء دولة وحضارة خلدت خلود الابد وأينعت ثمارا أمدت الانسانية بما لا يفيه وصف أو تقدير . وطبيعي ان يقلب هذا الدين وما تبعه من انطلاقة العرب الفاتحين في ارجاء المعمورة موازين القوى في عالم القرون الوسطى وأن يغدو التحدي الرهيب للوجود السياسي والعقائدي لدول ذلك العالم من غير العرب . وقف عالم الفرس والروم ومن جاء بعدهم من دول وامبراطوريات وقفة المدهوش الذي أذهله تهاوي عروش وتيجان ، وزحف أمم وشعوب للانضواء تحت لواء دين بشر به رجل لفحته شمس الحجاز بهجيرها ، وبات على الطوى أياما ولياليَ . وقيل عنه انه أمي لم يمسك بقلم أو قرطاس وانه ملاذ المستضعفين وموئل الذين لذعت ظهورهم سياط الظلم والعبودية . وكانت خلافة الراشدين من بعده فانساح العرب في الارض فاتحين ، وقامت دولة بني أمية بعدهم لتحمل الرسالة عربية صافية الى الهند والصين والى افريقية واوربة ، وبكلمات قليلة استيقظ المارد العربي ؛ ليحتوي بيديه القويتين عالم القرون الوسطى وليوحده في دولة كبرى تمازجت بها العروبة بالاسلام وتحققت على يديها حضارة ماتزال مبعث فخارنا نحن عرب اليوم وموضع اعجاب العالم . ولم تكن دولة بني العباس في المشرق ، أو خلافة بني امية في الاندلس لترضيا بدور أقل من دور سالفتيهما ، فحملتاالامانة واديتا الرسالة خير ما يكون الاداء . وكانت ردة فعل القوى المضادة عنيفة بقدر ما كان التحدي العربي الاسلامي عنيفا وجبارا ، "واذا كان الاسلام هو الحافز والمحرك لنهضة العرب وانطلاقتهم ؛ واذا كان محمد بن عبد الله هو صاحب الرسالة التي أقامت للعرب امبراطوريتهم وحضارتهم ، فقد كان من

الطبيعي أن يكون محمد والاسلام محور الهجوم المضاد وموضع نقمة الذين ارهبهم التحدي وأخذ بمقاتلهم . ان التحدي العربي القادم من صحراء الجزيرة العربية والذي انتقل ليستقر في قلب اوربة . والذي أخضع شبه الجزيرة الايبرية لسلطانه وسيادته ، ودق بيديه القويتين ابواب فرانسا والمملكة الفرنجية اكثر من مرة ، كان لابد وان يقرع نواقيس الخطر في أوربة والعالم الغربي جميعا . وان كان لي أن أذكر بشيء ، فليس أجدى من ان نستذكر الحركة المعادية للايقونات Iconoclasm التي قامت في الامبراطورية البيزنطية زمن الامبراطور ليون الثالث (٧١٧ – ٧٤١ م) والتي دامت ما يزيد على القرن من الزمن والتي يعتبرها الكثيرون أهم حصيلة للتحدي الفكري العربي الاسلامي الذي انسرب الى داخل العقيدة المسيحية(٣) . ان معارضة تقديس الايقونات مرتبطة الى حد بعيد بالاتصال الذي تم بين العالم العربي الاسلامي وبيزنطة ، والاثر الذي تركه هذا الاتصال في تغيير نظرة مسيحيي بيزنطة نحو هذه الايقونات . وقد نسب اكثر من مؤرخ موقف الامبراطور ليون الثالث الذي كان أول امبراطور بيزنطي يقود حركة المعارضة لعبادة الايقونات الى تأثره بالافكار الاسلامية . فقد جعلته صلاته بالعالم العربي الاسلامي واحتكاكه الفكري بمن اعتنقوا الاسلام يتأثر بالثقافة والفكر الجديدين وبالتالي ساعدت على وقوفه موقفا عدائيا من قضية تقديس الايقونات والصور . ومن الطريف ان نذكر أن معاصري ليون الثالث كانوا يلقبونه بالامبراطور « ذي العقل العربي » . وطبيعي أن العرب الذين هاجموا آسية الصغرى خلال سنوات طويلة واحتلوا اجزاء منها لم يحملوا معهم الى هذه البلاد السيف فحسب ، بل حملوا معهم افكارهم وحضارتهم وكرههم لتمثيل الجسد البشري بصور وتماثيل وما شابه . وهكذا قامت ازمة الايقونات التي اكانت من أهم الامثلة على الحقيقة القائلة بأن التحدي العربي لبيزنطة لم يكن تحديا عسكريا فحسب ، بل كان تحديا فكريا برزت آثاره واضحة في العقيدة المسيحية نفسها حين ثارت الازمة العاصفة حول استعمال الايقونات في الكنيسة ، وقدسية هذه الايقونات . ويؤكد المؤرخ البيزنطي ثيوفانس Theophanes هذه الحقيقة ويذكر أن اول قرار حفظه لنا التاريخ ضد عبادة الايقونات لم يصدر في القسطنطينية ، بل في دمشق حاضرة الخلافة الاسلامية . ففي سنة ٧٢٣ م ، على حد زعم هذا المؤرخ ، اصدر الخليفة الاموي يزيد بن عبد الملك أمرا يقضي برفع الايقونات من جميع الكنائس الموجودة في أراضي امبراطوريته . وفي نفس الوقت كان في بيزنطة حزب قوي يعادي الايقونات مركزه الرئيس في آسية الصغرى ، كانت فريجيا Phrygia من مدن آسية الصغرى أقوى مراكز معاداة الايقونات . وكان على راس الحزب المعادي للايقونات اشخاص كنسيون من ذوي المراكز العالية من امثال توماس رئيس اساقفة كلوديوبوليس Claudiopolis ، وقسطنطين اسقف ناكوليا Nacolea وغيرهما من الاباء الكنسيين .

واذا تركنا قضية عبادة الايقونات والحركة المعارضة لها كمظهر من مظاهر التحدي العربي الاسلامي للغرب آنذاك ، وانتقلنا الى حركة الاستخفاف التي قامت في الاندلس لوجدنا في هذه الحركة مظهرا اخر من مظاهر الخطر الذي كان يمثله العرب المسلمون في مجالات العقيدة والفكر والحضارة بالنسبة للغرب في القرون الوسطى . فقد حاول بعض دارسي هذه الحركة أن يظهروها بمظهر رد الفعل الذي اكان لابد منه ازاء الاضطهاد الديني الذي لاقاه المستعربون (سكان الاندلس المحليين الذين لم يعتنقوا الاسلام) من العرب المسلمين . كما حاول آخرون أن يجدوا في النظام الضريبي الذي كان يخضع له المستعربون سببا لهذه الحركة . ولعل أبسط ما يرد به على الادعاء الاول القائل بأن سبب حركة الاستخفاف هو الاضطهاد الديني ، هو ان ما لدينا من وثائق ومعلومات لا يرقى اليها شك تثبت أن المستعربين كانوا يتمتعون في ظل الدولة العربية في الاندلس باستقلال ذاتي ، اذ كانوا من الناحية الادارية يخضعون لرئيس عام لهم تعينه الحكومة المركزية يدعى « قمص » Comes وهو منهم ؛ وله وكلاء في المناطق الاخرى يطلق على الواحد منهم اسم المستخرج . وأما من الناحية القضائية فقد كان لهم قاض خاص يدعى بقاضي النصارى أو قاضي العجم يحل ما يقوم بينهم من نزاعات حسب شريعتهم الخاصة ، ولا يخضعون لحكم قاض مسلم أو لاحكام الشريعة الاسلامية الا عندما يقوم نزاع بينهم وبين المسلمين . ولعل المنشور التالي الذي أصدره الوالي العربي لمدينة قلمرية Coimbra خير دليل على ما نقول . فقد جاء في هذا المنشور ما يلي : « يكون على مسيحي قلمرية قمص يلي أمورهم ويحكم فيهم بالسداد وكما كانت عادة المسيحيين في الاحكام وله أن يفصل في الخصومات التي تقع بينهم ،ولكنه لا يقدر أن يحكم على أحد بالقتل الا بعد موافقة قاضي المسلمين .. ويكون لكل مدينة من المدن الصغيرة قاض خاص بها يحكم فيها بالعدل ويكف المنازعات . وان أهان مسيحي مسلما عومل بشرع المسلمين »(٤) .

أما عن الادعاء الثاني الذي يجعل النظام الضريبي الذي كان يخضع له المستعربون سببا لقيام حركة الاستخفاف ؛ فيمكن القول أيضا ان هذا السبب لا يستقيم على محك النقد ، ولعل ابسط ما يرد به عليه هو أن زعماء هذه الحراكة وقادتها الكبار كانوا من رجال الدين وهم معفون من دفع الضرائب ، كما أن غالبية المشاركين فيها كانوا من الرهبان ورجال الاديرة أي أبعدهم عن الاهتمامات الدنيوية . ومن ناحية اخرى فقد كانت هذه الضرائب مفروضة منذ أوائل عصر الامارة في الاندلس ، فلماذا لم تقم الحركة الا اعتبارا من عام ٢٣٥ هـ/٨٤٩ ـ ٥٠ م في عهد عبد الرحمن الثاني . ثم ان الضرائب كانت واحدة على عامة المستعربين في جميع انحاء الاندلس فلماذا تمركزت الحركة في قرطبة بالذات ؟؟

ان السبب الحقيقي لقيام حركة الاستخفاف يكمن في رأينا في الانهيار الذي أصاب الحضارة اللاتينية في شبه الجزيرية الايبرية ، هذا الانهيار الذي تجلى في جميع النواحي : الفكرية والاجتماعية ، واللغوية والدينية ، وانهزام هذه الحضارة وذوبانها التدريجي في الثقافة العربية الاسلامية في الاندلس وانصراف الناس عنها الى الحضارة والثقافة واللغة العربية . والامثلة على هذا الانهيار كثيرة وتحفل بها المصادر والمؤلفات الاسبانية الحديثة . فهذا R. Menendez Pidal ينقل لنا في اكتابه El Idioma Espanol (ص 32) قول أحد زعماء حركة الاستخفاف : « لا نكاد نجد في جماعة المسيحيين كافة رجلا من الف رجل يستطيع ان يستفسر عن صحة صديق بعبارات واضحة جلية ، وانت واجد بين جمهرة السوقة والعامة أشخاصا لا يحصى عددهم ، يحيطون احاطة تامة بالعبارات الفصيحة التي خلفتها اللغةالعربية في عصورها الذهبية ، حتى لقد استطاعوا ان ينظموا القصائد المقفاة .. بل لقد كان بعضهم أمهر من العرب انفسهم في قرض الشعر » . واذا انتقلنا الى الناحية الدينية فانا نرى أن الاسلام لا يكتفي بضم اعداد متزايدة من غير المسلمين الى حظيرته يوما بعد يوم ، وانما غدا الفكر الاسلامي يشكل خطرا على سلامة العقيدة الدينية عند من بقوا على دينهم ، وفي صفوف رجال الدين بالذات . فقد ظهرت هرطقات جديدة داخل الكنيسة متأثرة بنظرة الاسلام الى الله . وقد رفض مستعربو اشبيلية الاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح على الشكل الذي اوصى به مجمع « نيقيه Nicea » ، وعد أسقفها من الهراطقة . وقام Elipando اسقف طليطلة يقول ان المسيح مادام انسانا فلا يمكن أن يكون بابن طبيعي لله ، وانماهو ابن متبنى. وانخرط رجال الدين المسيحي في شبه الجزيرة الايبرية عامة ، وبتأثير اسلامي ، في نقاش حاد حول حرية الارادة والقدر وغير ذلك من أمور .

ان هذه الحركة التي كانت تهدف الى اظهار الاسلام بمظهر السخف وتصوير الرسول الكريم على شكل ساحر أو دعي ، والتي كانت تباهي بشتم الرسول والدين الاسلامي الى حد الشطط والفجور ، ما هي الا مظهر من مظاهر الشعور بالخطر الكبير الذي كان يمثله الاسلام ورسوله العظيم بالنسبة لمن كانوا يناصبون الاسلام العداء . وتمثل هي وحركة معاداة الايقونات التي اسلفنا ذكرها الحد الذي وصل اليه الخوف من الدين الجديد وما حمله من افكار ، وضرورة العمل لايقاف انتشاره وكسر شوكته ومهاجتمه في صلب عقيدته وتراثه ومعطيات حضارته ، ومن هنا كانت بداية الاستشراق .

ولست أريد لهذه الدراسة ان تدخل في متاهة تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، فهذه العلاقات قديمة ومتشابكة وكان لها اكثر من وجه خلال عصور

التاريخ القديم . ولما جاء الاسلام ، وغدا العرب سادة الشرق وبناة مجده ، شعر الغربيون بخطر عقائدي وفكري الى جانب الخطر العسكري والسياسي يتهدد وجودهم وأسس حضارتهم ، ولم يعترف الغربيون ، كما يقول الدكتور كامل عياد(٥) « بأن الاسلام انما اراد اتمام ما بدأته الديانات السماوية السابقة ،ونسوا أن المسيحية نفسها كانت قد جاءت اليهم من الشرق ، فاعتبروا الدين الجديد مظهرا للثورة الكبرى تقوم بها آسيا ضد سيطرة اليونان والرومان ، وصاروا منذ ذلك الوقت يصورون الاختلاف بين الشرق والغرب كصراع بين الاسلام والمسيحية » . وغدا عندهم حصار العرب للقسطنطينية زمن معاوية والوليد وسليمان بن عبد الملك وحملات عبد الرحمن الغافقي وعملياته العسكرية الناجحة داخل حدود فرانسة ، تحديات بربرية قوبلت من الغرب بردود قاطعة لانقاذ الحضارة الغربية . كذلك كانت الحملات الصليبية التي قادها رجال من الغرب تحت ستار العقيدة الدينية ، ولكنها كانت في الحقيقة وسيلة لتحقيق مطامع استعمارية واقتصادية . واذا كان للحملات الصليبية من نتائج في ميدان الفكر والثقافة ، فقد كان من أهم هذه النتائج شعور رجالات الغرب الصليبي الذين قدموا الى المشرق العربي بأن حضارة الشرق تفوق حضارة الغرب ، وامتزج خوفهم من هذه الحضارة وبغضهم لها ، بشيء كثير من اعجاب بها ورغبة في الاقتباس منها . كما لاحظ رجال الكنيسة الغربيون الذين رافقوا هذه الحملات الصليبية أو اطلعوا على نتائجها أن معرفتهم بالعقيدة الاسلامية معرفة سطحية وغير واضحة ، وانه لابد لهم من ترجمة القرآن والاحاديث النبوية ودراسات الفقهاء والعلماء المسلمين ليستطيعوا الرد عليها ومحاربتها ومنعها من الانتشار بين صفوف اتباعهم وبالتالي تهديد ايمان اتباعهم . ولعل خير دليل على صحة دعوانا هذه أن المجمع الديني الذي عقد في فيينا عام ١٣١١ — ١٣١٢ م حث رجال اللاهوت المسيحي على الرد على آراء الفقهاء المسلمين . واذا كانت الحملات الصليبية على المشرق هي من أهم حوافز نشأة الاستشراق ، فانه كانت هناك مراكز اخرى من الغرب لعبت دورا هاما في تنشيط الدراسات الاستشراقية لانها كانت الجسور التي عبرت عليها الثقافة العربية الاسلامية الى الغرب المسيحي ، واهم هذه المراكز : الاندلس وصقلية . فقد كانت طليطلة ، كما هو معلوم ، من أكبر حواضر العلم عند العرب المسلمين في الاندلس ، ولما سقطت في يد الاسبان عام ١٠٨٥ سارع اليها طلاب العلم من جميع انحاء اوربا ، وقام رئيس أساقفتها ريموند (١١٣٠ — ١١٥٠) فأسس فيها مدرسة للترجمة عملت على نقل تراث العرب في العلوم من العربية الى اللاتينية وكانت المنهل الذي عب منه جمع غفير ممن تبوأوا المراكز العلمية العالية في الغرب في القرون التالية . ولن ننس في هذه العجالة أن نذكر الدور الذي لعبه الملوك النورمانديون في صقلية منذ زمن الملك روجر في

جمع العلماء العرب المسلمين في بلاطاتهم وترجمة المؤلفات العربية في مختلف العلوم والفنون لتدريسها في الجامعات التي احتذوا في تأسيسها النمط المتبع في المدارس العربيـــة . .

وهكذا ، بدأت الدراسات الشرقية « على أساس غير صحيح ، لانها كانت منذ بادىء الامر خاضعة لفكرة الجدل الديني »(٦) .

وحين داهم الاتراك عالم الغرب بعد قيام السلطنة العثمانية وقاموا بالاطاحة بالامبراطورية البيزنطية واحتلال القسطنطينية ، كان طبيعيا أن يرافق الخوف من الاتراك حقد على الدين الذي رفع الاتراك الى منزلة رفيعة وامدهم بقوة خارقة مكنتهم من تحقيق منجزات سياسية وعسكرية رائعة ، فقام الكتاب الاوربيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر يسمون الرسول الكريم بنبي الاتراك وأخذوا في مهاجمة صاحب الرسالة ظنا منهم أنهم بذلك انما يتهجمون على الاتراك الذين أوقعوا بهم الذل . ثم كانت بعد ذلك المحاولات المختلفة التي قام بها الغرب لاستعمار أجزاء الوطن العربي الامر الذي زاد في اهتمام الغرب بالشرق . وغدت مبررات هذا الاهتمام سياسية واقتصادية الى جانب المبررات العقائدية . ونستطيع القول بكل تأكيد أنه خلال جميع مراحل العمليات الاستعمارية ، لعب المستشرقون دورا أساسيا في التمهيد للتوسع الاستعماري ولتوطيد سيطرة الغرب على الشرق .

وكما كان الفاتيكان اكبر المراكز الدينية واكثرها اهتماما بالاستشراق ونشره ، فقد كان هذا المركز المعين الذي أمد طلائع الاستشراق بأوائل رجالاته . فقد كان رجال الدين يؤلفون الطبقة الاكثر تنورا في اوربة ، وكانت مهمتهم الدينية تقتضي عدة أمور منها ارساء نهضة الكنيسة على أساس من التراث الانساني الذي تمثل الثقافة العربية الاسلامية جزءا أساسيا منه ، كما كان من واجبات الكنيسة اعداد جماعة من المفكرين يستطيعون مقارعة فقهاء المسلمين ومجادلتهم ببراهين من كتبهم وتعاليمهم . هذا فضلا عن اهتمامهم بتدريب أدلاء يعرفون العربية ليقوموا بخدمة الحجاج المسيحيين القادمين من مختلف الاصقاع الى الاراضي المقدسة . لذا نرى البابوات يكلفون جماعة الفرنسيسكانيين بالاهتمام بمن يغدون الى فلسطين من المسيحيين ، والدومينيكانيين بمن يقصدون سورية ومصر . وكان من الوسائل التي اعتمدها الفاتيكان في سبيل ذلك تعليم العربية واللغات الشرقية في بعض المدارس والاديرة من اسبانيا والجامعات في فرانسا وايطاليا منذ القرن الحادي عشر الميلادي. وقد ساعد وجود المطابع على تحقيق هذا الهدف وأخذ الاستشراق يسير في طريق صاعدة تحقق تقدما مستمرا لتحقيق الاهداف التي قام من اجل خدمتها .

ويعتبر البعض ان جربر دى اورالياك Jerbert de Oraliac الذي تبوأ منصب البابوية باسم سلفستر الثاني (٩٩٩ – ١٠٠٣) والذي هو من اصل فرنسي من طلائع المستشرقين ، فقد امر بعد أن اعتلى السدة البابوية بانشاء مدرستين عربيتين في روما ورانس Reims . كما نشر الارقام العربية في اوربة وترجم بعض كتب الرياضيات والفلك وغير ذلك . وتبعه عدد آخر من المستشرقين كان من بينهم قسطنطين الافريقي Constantinus Africanus (توفي عام ١٠٨٧) واوغو دي سانتالا Ugo Di Santalla (حوالي ١١١٩) . واخذت الاسماء بعد ذلك تتوالى(٧) ولم يعد الاستشراق حكراً على بلد ، بل غدا له رجاله في المانيا وهولاندة وبريطانيا وايطاليا وفرانسا وروسيا وغير ذلك من دول الغرب آنذاك ، وأخذت اكتابات المستشرقين ومؤلفاتهم تتزايد وتتسع حتى شملت آفاقا عديدة من عوالم العرب والاسلام في المشرق والمغرب على حد سواء .



ولابد لنا ونحن في هذه المرحلة من حديثنا ان نتوقف لنستعرض العوامل التي دفعت بالاستشراق في معارج التطور . وكنا قد ذكرنا ان اهتمام الاوربيين بالتراث واللغات الشرقية كان مبعثه ونقطة انطلاقه الفرض الديني بشكل رئيسي . فالرد على المسلمين ومجادلتهم ، والدعوة الى المسيحية والتبشير بها بين المسلمين وغير المسلمين من شعوب آسية وافريقية الذين دخلوا او خطط لدخولهم في تبعية الدول الغربية المستعمرة ، اكانت كلها من بين العوامل التي دفعت عجلة الاستشراق الى الامام . والذي يؤيد زعمنا هذا هو أن الكثيرين من الذين احترفوا الاستشراق وبرزوا في ميادينه بداوا حياتهم العلمية بدراسة اللاهوت قبل التفرغ لميدان الدراسات الاستشراقية ، وكأنهم ارادوا ان يتسلحوا بمعرفة كافية بالعقيدةالمسيحية قبل الخوض في غمار الحرب المبطنة التي ارادوا شنها على خصومهمالدينيين ، وظل الكثير منهم يتولى وظائف دينية وتبشيرية وله مكانة كنسيةمرموقة . ورغم محاولات بعضهم نفي هذه التهم والاعلان عن حيادهم وانهم انما يقصدون من دراساتهم وجه العلم والحقيقة ، فقد لازم التعصب الديني اكثرهم وبدا بين سطور ما يكتبون ان لم يعلنوا عنه صراحة وجهاراً .

ولسنا نريد القول بأن الهدف الوحيد للاستشراق كان الدافع الديني ، ولن نستطيع ابدا ان نبعد المطامع الاستعمارية عن هذه الصورة التي نرسمها لاهداف الاستشراق ، لان الاستعمار في رأيناكان من بين العوامل الهامة التي ساعدت على تطور الاستشراق . فقد رأت الدول الاستعمارية أنه لابد لها من أجل تحقيق

اغراضها السياسية والاقتصادية في الدول العربية والاسلامية من أن تستفيد من الاستشراق لتحقيق هذه الاغراض .

ونخلص من كل ذلك الى القول بأنه بعد قيام الحركة الاستعمارية الاوربية في القرون الحديثة وشعور المستعمرين بأن الدراسات الاستشراقية التي قامت في الاساس لخدمة أغراض دينية يمكن الافادة منها في ميدان التغلغل وتثبيت النفوذ الاستعماري ، فقد قامت هذه الدول بدعم حركة الاستشراق ومدها بالعون المادي والمعنوي ورعت مؤسساتها وساهمت في انشاء جمعياتها ومولتها بما تحتاج . وهكذا وبعد أن كانت الكنيسة راعية الاستشراق والموجهة لتحركات واعمال رجاله ، انضمت الدولة الى الكنيسة في هذه الرعاية وقدمت له ما يحتاج من دعم مادي ومعنوي . وليس أدل على ذلك من جهود وارن هيستنجز Waren Hastings الحاكم الانكليزي العام للبنغال الذي أمر بعض موظفي شركة الهند الشرقية في أواخر القرن الثامن عشر بالاهتمام بدراسة لغات الهند وتاريخها وحضارتها ، ثم ما لبث أن عمد الى تأسيس « الجمعية الاسيوية للبنغال » سنة ١٧٨٤ ، وهي أول جمعية علمية للمستشرقين ، وذلك لان الحاكم العام كان يريد اقامة السيطرة البريطانية في الهند على أساس متين من معرفة البلاد وامكانيات استثمارها ، وعندما تأسست (الجمعية الاسيوية) في فرانسا سنة ١٨٢١ كتب القائمون عليها في نشرة الاعلان عنها أن غايتها هي قبل كل شيء « جمع الوثائق الثمينة اللازمة للاعمال الدبلوماسية في الشرق الادنى وللمشاريع التجارية في آسية كلها ، ثم جمع المعلومات عن الصناعات الهامة مثل النسيج والخزف التي يسهل الاطلاع عليها في مؤلفات الشرقيين »(٨) . وواضح من هذا الاعلان أن أهداف الاستعمار السياسية والاقتصادية كانت وراء الامر بتأسيس هذه الجمعية . ووثيقة تأسيس هذه الجمعية تفضح الترابط بين الهدفين الاستعماري والديني أيضا اذ أنه جاء فيها أيضا بأن الدراسات الشرقية التي سوف تعنى بها هذه الجمعية « من شأنها أن تمهد السبيل للمبشرين وتفيدهم في نشر الديانة المسيحية »(٩) . ويقدم الاستعمار الفرنسي للجزائر مثلا آخر على هذه الصلة الوثيقة بين الاستعمار وتطور الدراسات الاستشراقية ، فقد اتسعت الدراسات العربية في فرانسا وتطورت ونمت بعد استيلائها على الجزائر ، وغدت فرانسا حريصة على اقامة المؤسسات المتخصصة في ميادين اللغة العربية والدراسات الشرقية وزودت هذه المؤسسات بما تحتاج وأولتها عناية تتناسب وما تعلق عليها من آمال .

وحرص الاستعمار على اشاعة ايديولوجية تهدف الى اقامة التفريق الواضح بين الشرق والغرب ، والنص على أن هناك من حيث المبدأ والاساس فرق جوهري

بين الغرب والشرق لا في أسلوب الحياة المادية اليومية والعادات ، بل في طريقة التفكير ونوعية العقلية والتكوين الفكري . فكانت نظريات غوبينو Gobineau (١٨١٦ – ١٨٨٢) العرقية التي ضمنها كتابه « بحث حول عدم التساوي بين العروق الانسانية » Essai sur l'inégalité des Races Humaines ، وارنست رينان E. Renan (١٨٢٣ – ١٨٩٢) في كتابه « أديان الساميين » الذي يذكر فيه أن الساميين منحدرون من أصل واحد يتميز أفراده بتشابه لغاتهم وعقليتهم ونظرتهم الجزئية غير المجملة الى الاشياء وتأثرهم بالغيبيات وميلهم الى السذاجة في التفكير. ويؤكد رينان أن الصفات التي تتميز بها العقلية السامية ترجع الى عوامل بيولوجية موروثة من الجنس الذي ينحدرون منه ، لذلك فهو يعتبرهم مختلفين أساسا عن الاريين . وطبيعي أن يكون من جملة البواعث التي حدث برينان الى اطلاق مثل هذه الافتراضات العفنة عقلية استعمارية ، ارادت أن تفرض نظرية العرق السيد الذي يحق له أن يستعمر ، هذه النظرية التي طورها هتلر والنازية فيما بعد . فكان ما هو معروف من أمرها ، مما لا أرى ضرورة لتكراره . وهكذا نرى أن العلاقة وشيجة بين الاستعمار والاستشراق ، وقد أدت هذه الصلة الوشيجة الى انصراف الاستشراق للاهتمام بنوعية معينة من الموضوعات تتناسب والمرحلة التي قطعها الاستعمار في علاقاته مع البلد المستعمر ، فالدراسات في دور الغزو تختلف عنها في دور توطيد النفوذ ، كما تأخذ شكلا اخر في دور مقاومة الثورات التحررية .

وينبغي أن ننبه الى أن الكثير ممن نسميهم بالمستشرقين لم يكونوا علماء أو أساتذة جامعات أو رجال بعثات أثرية ، بل كان بينهم العديد من الجواسيس والموظفين في وزارات الخارجية ووزارات المستعمرات ودوائر الاستخبارات وغير ذلك . كما ينبغي أن نلاحظ ان دراسات المستشرقين انصرفت انصرافا تاما عن نهضة الشعوب الشرقية والاسلامية في العصر الحاضر وركزت جهدها بشكل خاص على تاريخها القديم ومعالم حضارتها وفكرها في الماضي البعيد . وهم حين يبحثون في تاريخ وحضارات وطننا العربي في القديم يقتصرون على بحث الامور التي لا تمس نواحي عزة هذه الامة ومساهمتها في حضارة العالم وتراثه ، وما كان لها من دور انساني اكبير لابد من بعثه والقاء الاضواء عليه حتى تستنير الاجيال اللاحقة بأنوار الماضي فتلحق بالركب وتستعيد ما كان لها من مجد وسيادة . ويوصلنا هذا الى القول بأن أبحاث المستشرقين حول موضوع النهضة العربية الحديثة قليلة جدا ، واقل منها أبحاثهم حول الجوانب الايجابية في تاريخ العرب والاسلام ، وأن جل اهتمامهم تركز حول الفتن والحروب الاهلية والفرق الدينية ومظاهر الفرقة والانقسام التي تظهر سلبيات هذا التاريخ ، كما اهتموا بالامور اللغوية وبالمؤثرات الخارجية التي كان لها في زعمهم تأثير في نشأة الاسلام وحضارته . فهم يحاولون

التشكيك في صفاء الاسلام ويبرزون الدور الذي لعبته المسيحية واليهودية في تكوين الفكر والعقيدة الاسلامية ، ويردون الفلسفة العربية الاسلامية الى اصول يونانية أو غيرها . وكل ذلك بدعوى استعمال الاسلوب العلمي في البحث واتباع الطريقة النقدية في استقراء النصوص ، وتطبيق قواعد منهج البحث التاريخي . ولابد من الاعتراف بأنه مهما كانت نوايا المستشرقين غير صافية فان اسلوبهم في البحث والنقد التاريخي يظل الاسلوب الذي يجدر بنا احتذاؤه في دراساتنا التاريخية والحضارية . كما لابد من الاعتراف بأن جهودهم في ميادين نشر تراثنا كانت جهودا جبارة وتستحق كل تقدير ، فحتى اليوم ورغم الخطى الحثيثة التي قطعتها عملية نشر التراث العربي بأيد عربية ، فان الكثير من الاصول ماتزال افضل طبعاتها طبعات ليدن Leiden وباريس وسواهما من مراكز الاستشراق القديمة . كما ان الكثير مما نشروه مايزال دون اعادة نظر رغم ظهور مخطوطات جديدة لم يتح للناشرين الاول الاطلاع عليها . وما قلناه عن ميدان التراث يصح بشكل أوسع بكثير على ميدان الاثار ، ففي هذا الميدان مازالت جهود البعثات الاثرية الاجنبية هي الجهود الحقيقية التي أخرجت اثارنا من ظلام القرون الى نور الحقيقة . ولن أسرد امثلة على هذه الجهود ويكفي ان اذكر بعض الاسماء التي تتضمنها القائمة الطويلة للمستكشفين والاثاريين الاجانب الذين دفع الكثير منهم حياته ثمنا لارتياد ارض الجزيرة العربية بقصد الكشف عن آثارها والتعرف على حضارتها وتاريخها .

واقدم من نعرفه من هؤلاء الرحالة هو دي فارتما L. de varthema الذي وصل الى مكة قادما من دمشق في أوائل القرن السادس عشر ، وتلاه اخرون اكثر ، ولكن اكثر الرحالة الذين تركوا لنا وصفا مسهبا لرحلاتهم ومخاطراتهم كانوا المستكشفين الذين قاموا برحلاتهم في أوائل القرن التاسع عشر ، وفي مقدمتهم المغامر الاسباني باديا ي لبلخ Badia Y Leblich الذي وصل الى جدة عام (١٨٠٧) تحت اسم علي بك العباسي مدعيا انه اخر امراء البيت العباسي . وقد زار لبلخ مكة وكتب وصفا دقيقا للكعبة وطقوس الحج ، وكان أول من عين مكان مكة على خريطة العالم . وتتالى بعد ذلك الرحالة والمستكشفون من أمثال نيبور Carsten Niebuhr (١٧٦١ — ١٧٦٤) وهاليفي Halévy (١٨٦٩) وغلازر Glaser (١٨٨٢—١٨٩٢) الذين زاروا آثار اليمن وقدموا للعالم الكثير من المعلومات حول تاريخها وحضارتها وقام رحالة آخرون من أمثال ولستد Wellsted (١٨٢٥) وفون فريده Von Wrede وهيرش Hirch وبنت Bent الذي زار شواطىء بلاد العرب ومايلز Miles الذي زار شواطىء بلاد العرب عام (١٨٦٧) موفدا من قبل شركة الهند البريطانية . هذا فضلا عن بوركهارت J. L. Burckhardt (١٨١٥) الرائد الاول للحجاز ، وبرتون Burton وسنوك هيرخرونيه Snouck Hurgonyé الهولندي ، وبالغريف Palgrave (١٨٦٢—١٨٦٣)

وداوتي Doughty مؤلف كتاب Arabia Deserta (١٨٧٥) وبلنت Blunt (١٨٨٧) وغيرهم ممن كان لهم فضل في اكتشاف بلاد العرب . ولما اشرق القرن العشرون ازدادت الابحاث العلمية واخذت شكلا اكثر جدية وظهرت مؤلفات عن بلاد العرب تتصف بالجدية في البحث والغنى في المعلومات مثل كتاب موزل Alois Musil الذي اصدره في سبعة اجزاء ، وكتاب جوسن وسافينياك Jaussen - Savignac بعنوان « بعثة اثرية في الجزيرة العربية » Mission Archéologique en Arabie الذي يشمل حديثا مسهبا عن آثار الحجاز وبخاصة مدائن صالح والعلا . وفي الفترة السابقة للحرب العالمية الاولى كان ديسو Dussaud يقوم بأبحاثه الاثرية في سورية وينقل النقوش ويجري دراسات اثرية وتمكن ديسو هذا ، ودينان Dunand من نقل الكثير من النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية بحيث أصبح من الميسور عمل سجل جامع لها . أما في أواسط الجزيرة العربية فسيظل البحث العلمي مدينا لبرترام توماس B. Thomas الذي اخترق الربع الخالي في شباط من عام ١٩٣١ فوجد بقايا بحيرة عند منخفض ابو بحر وآثار نباتات وحيوانات عند جبل العترا ، وكان اكتشافه هذا المنطلق الذي استند عليه وينكلر وكايتاني في بناء نظريتهما القائلة بأن الجزيرة العربية كانت أرضا خصبة في تاريخها القديم وانها بالتالي مهد العرق السامي . ولن ننس أخيرا ان نذكر اسم هنري سان جون فيلبي Philby الذي قام بكثير من الرحلات كانت آخرها رحلته التي قام بها بصحبة العالم البلجيكي ريكمانز شتاء عام ١٩٥١ — ١٩٥٢ ، وعادا ومعهما (١٢٠٠) نقش اكثرها ثمودية وبينها نقوش لحيانية سبئية .

وكان من أهم النتائج التي ترتبت على تطور الاستشراق واتساع ميادينه ومواضيعه أن شعر المستشرقون بضرورة التخصص ، فنشأت فروع استشراقية عديدة من أهمها فرع الدراسات الاسلامية Islamologie الذي انقسم بدوره الى فروع عدة بينها ميدان اللغة والتاريخ والعقيدة وسواها من الميادين . وظلت حياة الرسول الكريم ودعوته وتعاليمه أهم الميادين التي طرقها المستشرقون واحتلت المقام الاول بين الموضوعات التي عالجوها . وظل الاوربيون في القرون الوسطى وحتى القرن السابع عشر الميلادي يتحدثون عن الرسول الكريم حديثا تملؤه الاسطورة وتحف به ابشع صور الدجل والشعوذة . ولما بدات الحركة الاستشراقية تتخذ لنفسها طابع العلمية والحياد ، اخذ المستشرقون يتظاهرون بالتحرر من التعصب الديني ويدعون أن هدفهم من دراسة حياة الرسول هو معرفة سيرة حياته معرفة صحيحة بعيدة عن كل تصور مسبق أو هدف غير علمي ، ورغم ما في هذا الادعاء من بعد عن الصحة ، فانا نلاحظ أن بعض الكتاب الغربيين اخذوا منذ القرن الثامن

والدقة في الحكم عليه ، ولكن هذا الظاهر الخادع لم يمنعهم في أغلب الاحيان من طمس الحقائق أو تشويهها . وتستبين لنا هذه الحقيقة اذا ذكرنا نماذج من أعمال المستشرقين الاوائل في ميدان دراسة سيرة حياة الرسول الكريم .

فالمستشرق الفرنسي غليوم بوستل Guillaume Postel مثلا (١٥٠٠ ــ ١٥٨١) الذي كان يعد من أكبر علماء عصره ويدرس العربية والعبرية واليونانية في جامعة باريس ، وكانت لديه مجموعة ضخمة من المخطوطات الشرقية ، ألف كتابا اسماه « عن جمهورية الاتراك » De la Republique des Turques وقد ضمن القسم الاول منه وصفا لحياة الرسول مدعيا انه استقاه من القرآن والحديث ومما جاء في كتب المسلمين لاعتقاده ، كما يقول ، بأن احسن وسيلة لمحاربة المسلمين هي محاربتهم بأسلحتهم نفسها . ثم قام في القسم الثاني من الكتاب بعرض حياة الرسول من وجهة نظره الدينية . ولخص في القسم الثالث تعاليم الدين الاسلامي محاولا بشكل خاص ان يشير الى الامور التي اقتبسها الاسلام عن المسيحية واليهودية والعجيب في أمر بوستل انه بعد هذا العداء الصارخ للاسلام اتيحت له فرصة زيارة مصر وسورية ولبنان والاستانة فازدادت معرفته بالاسلام حتى اعجب به ، ورأى انه من الممكن التوفيق بين الاسلام والمسيحية واليهودية . وقد أثارت آراؤه هذه الكنيسة فأمرت بسجنه في أحد الاديرة حيث ظل حتى مات .

ويعتبر بوستل رائدا في ميدان الرجوع الى المصادر العربية لدراسة حياة الرسول وغيرها من القضايا المتعلقة بالتاريخ واللغة العربية ، وكان من اشهر من سار على هذه السنة المستشرق الانكليزي ادوارد بوكوك الاب E. Pococke (١٦٠٤ ــ ١٦٩١) الذي بدأ حياته قسيسا ، ثم ما لبث أن اظهر اهتماما واضحا بالدراسات العربية ، فقصد مدينة حلب سنة ١٦٣٠ حيث أمضى مدة خمس سنوات اتقن خلالها اللغة العربية كتابة وخطابة على يد شيخ حلبي اسمه الشيخ فتح الله ، واقتنى مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية من بينها « الامثال » للميداني . وعاد الى اكسفورد يحمل هذه الذخيرة من المخطوطات ، كما يحمل شجرة تين ظل يتفيأ ظلالها . وفي سنة ١٦٣٦ عين استاذا لكرسي اللغة العربية في جامعة اكسفورد ، واخذ يحاضر في الاداب العربية والنحو العربي ، وكانت الحلقة الاولى من محاضراته عن أقوال الامام علي بن أبي طالب . وكانت في اكسفورد مطبعة عربية ، فاستغلها لطباعة المخطوطات العربية التي حملها معه . ثم ما لبث أن عاوده الحنين الى الشرق بعد سنة من قدومه الى اكسفورد فعاد للاستزادة من العلم والمخطوطات ولقي استاذه وصديقه الشيخ فتح الله ، وعاد سنة ١٦٤١ الى بريطانيا ليعاود التدريس في الجامعة ونشاطه الكنسي . وبلغ من شهرته في ميدان الدراسات الشرقية ان

توافدت عليه اعداد اكبيرة من طلاب البلدان الاوربية ليفيدوا من خبرته وعلمه . وقد خلف بعد وفاته مجموعة بلغت (٤٢٠) مخطوطا اقتنتها مكتبة جامعة اكسفورد (بودليان) . والمهم ان بوكوك اشرف على نشر عدد كبير من المخطوطات العربية من بينها « نظم الجواهر لابن البطريق » ، وقد ترجمه الى اللاتينية وسماه « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » . وله « المختار من تاريخ العرب » ، وهو مجتزء من تاريخ ابن العبري (بارهبرايس) المسمى تاريخ مختصر الدول الذي أشرنا اليه آنفا ، كما ترجمه الى اللاتينية وذيله بدراسات في التاريخ والادب والدين والعلوم العربية . وقد اعتمد الكثيرون ممن جاؤوا بعد بوكوك على كتاب ابن العبري هذا فيما كتبوه عن الرسول والاسلام . وكان بوكوك كغيره من المستشرقين في عصره يهدف الى التبشير بالمسيحية والدفاع عنها .

وقد اعتمد مستشرقو هذه الفترة على ما وصلهم من ترجمات للقرآن الكريم ، الى جانب اعتمادهم على المصادر العربية في دراساتهم لحياة الرسول الكريم والدين الاسلامي . وكانت الحروب الصليبية وما نجم عنها من احتكاك وتحد من جهة ، والرد الحاسم على هذا التحدي من جهة اخرى ، هي نقطة البدء في حركة واسعة هدفت الى ترجمة القرآن الكريم ونشره بقصد استخدام الوسائل الفكريةالمعتمدة على تعاليم الاسلام ونصوصه الاصلية في محاربة الاسلام . وكان الرائد الاول لحركة ترجمة القرآن هو بطرس المحترم Petrus Venerabilis (١٠٩٢ ــ ١١٥٦) ، الذي كان يعتقد أنه « لاسبيل الى مكافحة العقيدة المحمدية الا بالحجج العقلية وقوة المنطق ومظاهر الحب »(١٠) ومن أجل تحقيق هذا الهدف قرر العمل على ترجمة القرآن الى اللغة اللاتينية ، وساعده في عمله رجلان من رجال الدين المسيحي كانا يعرفان العربية . ولكن لم يتح لهذه الترجمة ان تنشر الا بعد (٤٠٠) سنة اذ قام أحد علماء اللاهوت في مدينة بال بسويسرا بطبعها سنة ١٥٤٣ . ولكن سياسة الكنيسة كانت لاتهدف الى ترجمة القرآن فحسب ، بل كان رأي البابا اينوسنت الحادي عشر انه من الافضل نشر ترجمة للقرآن مع رد عليه في وقت واحد . وعهد بهذه العملية الى راهب يرجع اصله الى سورية اسمه « المرعشي » ، ولكنه عاش في المقر البابوي بايطاليا حيث عرف باسم ايطالي محرف عن العربية هو لودوفيكو ماراتشي Ludovico Marracci (١٦١٢ ــ ١٧٠٠) ، الذي نشر في روما سنة ١٦٩١ كتابه « دراسة عن الاسلام » الذي جعله مقدمة لطبعته من القرآن الكريم متنا وترجمة لاتينية وتعليقات على المتن . وقد قدم لكتابه بترجمة لحياة الرسول الكريم ، يقول في تبريره لكتابتها ما يلي :

« لو أردت وصف حياة (محمد) حسب رواية كتابنا لتعرضت لسخرية

المسلمين . فان هناك اختلافا كبيرا بين ما نتناقله نحن عن (محمد) وبين ما يرويه المؤرخون المسلمون ، حتى أن القارىء لا يكاد يصدق أن الكلام في الحالتين يدور حول الشخص ذاته . لذلك سوف أتبع المؤرخين المسلمين ، ليس لانني اعتقد بصدق كل ما يقولونه ، بل لاننا اذا أردنا مكافحة أعداء الدين لابد لنا من أن نحاربهم بأسلحتهم . أضف الى ذلك ان الكثيرين من كتابنا يذكرون أمورا عن (محمد) لايمكن أن تثير لدى المسلمين الا السخرية ، ولا تزيدهم الا تمسكا بعقائدهم الباطلة »(١١) . وواضح من هذه المقدمة ان المرعشي لم يكن يقصد في عمله أن يصدر حكما عادلا على الرسول صلوات الله عليه .

وقد ظهر بعد ذلك اتجاه اكثر اعتدالا وعلمية في دراسة الاسلام والسيرة النبوية ، ويمثله المستشرق الهولندي هادريان ريلاند Hadrian Reland (١٦٧٦ ـ ١٧١٨) الذي ألف كتابا عنوانه : « في الديانة المحمدية » De Religione Mohammedica نشر لاول مرة سنة ١٧٠٥ والكتاب عبارة عن تعريف بالعقائد الاسلامية باللغتين العربية واللاتينية ، وحاول فيه المؤلف أن يصحح بعض الآراء الشائعة عن الاسلام ، والتي هي في مجملها آراء مغلوطة . وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة واتهم المؤلف بأنه قصد من وراء كتابه الدعاية للاسلام . وغني عن القول أن هذا الاتهام غير صحيح ، ولكن التعصب الديني عند رجال الكنيسة الكاثوليكية جعلهم يضعون الكتاب في قائمة الكتب المحرمة . وتتضح المسحة العقلانية عند ريلاند في المقدمة التي يضعها لكتابه والتي يقول فيها :

« هل يعقل ان يعتنق الملايين من البشر الديانة الاسلامية لو كانت منافية للعقل وسخيفة كما يدعي المؤلفون المسيحيون ؟ ! » ثم يضيف قوله : « لندع المسلمين انفسهم يصفون لنا ديانتهم . الا نرى ان التعاليم اليهودية والمسيحية قد شوهت من قبل الوثنيين ، والتعاليم البروتستانتية من قبل الكاثوليك ، انه لا يمكن معرفة حقيقة اي ديانة بالاستناد الى اقوال خصومها . اننا جميعا بشر ، اي كائنات معرضة للخطأ ... ثم كيف يجوز أن نحاول مجادلة المسلمين دون أن نعرف عقائدهم معرفة جيدة ؟ . » ورغم ما وجه اليه من تهم نراه لايتراجع عن رايه ويقول : « فالحقيقة يجب البحث عنها مهما كانت المصاعب ، لذلك أريد في كتابي هذا وصف الديانة المحمدية ، ليس كما تبدو لنا من خلال ضباب الجهل وخبث البشر ، بل كما تدرس حقا في مدارس المسلمين ومعابدهم ... واذا أراد الناس ، رغم كل ماقلته ، أن يتمسكوا بالخرافات السخيفة فذلك شأنهم . ان تجارب الحياة تبرهن لنا كل يوم على أن الناس ينقادون بسهولة الى الاحكام السابقة المتوارثة ، وانهم يفضلون الخداع والغش على معرفة الحقيقة »(١٢) .

ورغم ما في هذا الصوت من مسحة عقلانية كانت نغما نشازا في زحمة التعصب الديني الرهيب الذي كانت تحياه أوربا في تلك الفترة ، فان عقلانية ريلاند لم يتح لها أن تعمر طويلا أو أن تجتذب الانصار الكثر ، وما لبثت عماوات التعصب والجهالة أن عادت لتحتل المقام الاهم في ميدان الدراسات الاستشراقية . فبعد أن شهد القرن الثامن عشر نشوء النزعة العقلانية في أوربة وقامت حركة « التنوير » التي كانت تسعى الى التحرر من سيطرة الكنيسة ، الامر الذي ادى في ميدان الدراسات الاستشراقية الى ظهور أصوات اخرى ، كالمستشرق الانكليزي جورج سيل G. Sale (١٦٩٧ – ١٧٣٦) والمستشرق الفرنسي كلود ايتين سافاري C. E. Savary في كتابيهما عن القرآن (The Koran, le Coran) عادت موجة الكره والعداء لتطغى ، ولتظهر على شكل مؤلفات لا تختلف في هدفها ومضمونها بشيء كثير عن مؤلفات القرنين السادس عشر والسابع عشر . ومن الاصوات المنصفة التي لابد من الاشارة اليها والتي ظهرت في القرن التاسع عشر ، صوت توماس كارلايل Th. Carlyle (١٧٩٥ – ١٨٨١) صاحب كتاب « عن الابطال وعبادة الابطال، والبطولي في التاريخ » On Heroes, Hero-Worship and the Heroic in History ، London. ١٨٤٩ والذي جمع فيه بعض محاضراته ، ومنها محاضرته عن « الرسول محمد » والتي يقول فيها ما معناه انه من العار على الانسان المتمدن ان يصغي الى الاقوال التي تدعي أن الاسلام كذب وان محمدا خادع ومزور . ويقرر أن الرسالة التي حملها ذلك الرسول مازالت النور المضيء لاثني عشر قرنا ويؤمن بها مائتا مليون من الناس خلقهم الله الذي خلقنا . ويخاطب بني قومه قائلا : « أكان احدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر اكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا استطيع أن أرى هذا الرأي ابدا . » ويحلل كارلايل بعد ذلك شخصية الرسول ويكشف عن نواحي عبقريته ، وينتهي الى القول بأنه صلوات الله عليه كان مخلصا اشد الاخلاص في دعوته ، صادقا في عقيدته لا يرقى الى صدقه شك أو ريبة . وقد ترك كلام كارلايل أثرا عميقا في الرأي العام الاوربي في القرن التاسع عشر . وكانت بعد كارلايل عشرات الاسماء من الذين احترفوا الاستشراق وعملوا في ميادينه المتعددة ، مما لا أراني بحاجة للتذكير بها . وسأتوقف ، وقد اطلت ، عند مثل واحد من المستشرقين المحدثين وهو المستشرق هنري لامنس Henri Lammens الذي يستحق في نظري وقفة غير قصيرة نحلل فيها أعماله ومواقفه ونضرب من خلالها المثل على نوعية من المستشرقين جاءت الى العروبة والاسلام والتاريخ العربي الاسلامي وفي يدها خنجر مسموم تحاول تسديده الى صدر هذه الامة لتطعنا في أعز مقدساتها ، ولتشوه أروع فترة من فترات تاريخها وهي فترة خلافة بني أمية . وعندي أن أعمال لامنس وكتاباته وآراءه تمثل

الاعماق الحقيقية والاهداف البعيدة المدى لحركة الاستشراق ، كما تمثل التطورات المرحلية التي كانت تدخل على هذه الحركة لتساير أهداف الاستعمار الغربي في مرحلة معينة وفي ظرف تقتضي طبيعة التحرك الاستعماري فيه بث مفاهيم من نوعية محددة لتساير الاهداف المرحلية للحركة الاستعمارية . وفي هذا ايضاح مهم للفكرة التي حاولت أن اشرح من خلالها الترابط العضوي بين حركة الاستشراق من جهة والاستعمار الذي ورث أهداف الحركة الصليبية الى جانب اطماع الدول المستعمرة في الميادين السياسية والاقتصادية والستراتيجية من جهة اخرى .

ولد هنري لامنس في أول تموز من عام ١٨٦٢ في مدينة Ghent في بلجيكا من اسرة فلمنكية Flemish تدين بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي . وفي الخامسة عشرة من عمره غادر بلجيكا لينضم الى الرهبنة اليسوعية في بيروت ، وأقام في تلك المدينة التي غدت موطنه الثاني ما تبقى له من عمر . وقد أمضى السنة الاولى من اقامته في لبنان في الكلية اليسوعية في بيروت ، ثم انتقل بعد ذلك الى دير غفير في جبل لبنان حيث بدأ حياة الرهبنة « كمبتدىء » Novice ، وذلك في تموز من عام ١٨٧٨ . وقد مكنته اقامته في لبنان من تعلم اللغة العربية حتى اجادها اجادة تامة ، كما تعلم اللغة السريانية ، هذا فضلا عن معرفته باليونانية واللاتينية .

ولما كانت سنة ١٨٨٦ كلف بتدريس اللغة العربية في كلية بيروت اليسوعية وما لبث ان الف كتابا في تعليم العربية . اما أول مؤلفاته التي يمكن أن تدخل في ميدان الاستشراق فكان كتابه « كتاب الفرائد في الفروق » الذي الفه سنة ١٨٨٩ ، وكان عبارة عن قاموس يحتوي على ١٦٣٩ مادة انتقاها مما جاء عند اللغويين وأصحاب المعاجم من مصطلحات . ثم ما لبث في عام ١٨٩١ أن ترك مهنة التعليم وكرس السنوات الست التالية من حياته للدراسة والسفر . وقد زار خلال هذه الفترة بريطانيا وبلجيكا والنمسا ومصر ، واكتسب خلالها معرفة جيدة باللغتين الانكليزية والالمانية ، فضلا عن الفرنسية والايطالية اللتين كان يتقنهما من قبل .

وفي الفترة نفسها ، ظل لمدة عام يحرر جريدة « البشير » ، وهي جريدة يسوعية كانت تصدر في بيروت . وبعد ان انهى اسفاره سنة ١٨٩٧ أوكلت اليه ادارة الكلية اليسوعية ، فظل في هذا المنصب ثلاثة أعوام ، ثم ما لبث ان عاد ليرأس تحرير جريدة « البشير » هذه ، وذلك سنة ١٩٠٠ . وفي سنة ١٩٠٣ عاد يزاول عمله الاكاديمي في الكلية اليسوعية ، فكان يدرس مادتي التاريخ والجغرافية في تلك الكلية .

وحين اسست مدرسة الدراسات الشرقية في كلية بيروت اليسوعية عام ١٩٠٧ ، بدأ لامنس حياته كمستشرق محترف ، اذ انه عين استاذا في تلك المدرسة، فتفرغ كلية للدراسة والبحث . وقد ظهرت ابحاثه في موضوع « السيرة النبوية » خلال فترة السنوات السبع التي اعقبت تسلمه منصب الاستاذية . وكان بعد ذلك ان وقع لبنان وسورية في ظل الانتداب الفرنسي بعد الحرب العالمية الاولى ، فاتخذ من لامنس راسا من رؤوس صنائعه ، وداعية لسياسته الاستعمارية في الشرق قاطبة . حتى انه كتب بناء على طلب المفوض السامي الفرنسي الجنرال غورو كتابا بعنوان « سورية La Syrie » ضمن دعاية سافرة لاهداف وآراء الاستعمار الفرنسي ، من خلال عرضه لمادة علمية المظهر والاسلوب . وقد محضته السلطة الفرنسية ثقة مطلقة ، فغدا من ذوي النفوذ القوي في لبنان ، وتدخل بشكل سافر في السياسة اللبنانية عن طريق الثقة المطلقة التي كانت توليه اياها السلطة الفرنسية من جهة ، وعن طريق طلابه القدامى الذين كانوا يعتبرون من الاوجه اللبنانية الهامة التي تحتل مركز الصدارة في الادارة والسياسة من جهة اخرى ، وحين توفي الاب لويس شيخو عام ١٩٢٧ غدا لامنس رئيس تحرير مجلة « المشرق » التي كانت تعتبر من المجلات العلمية المتخصصة آنذاك ، وفي هذه المجلة نشر لامنس العديد من مقالاته وابحاثه بعد ان ترجمت الى اللغة العربية ، وتابع النشر في هذه المجلة بقية سنوات حياته . وفي ٢٣ نيسان عام ١٩٣٧ توفي لامنس بعد أن اصيب بشلل اقعده أول الامر ثم مالبث أن اودى تحياته .

هذه خلاصة سريعة للمعالم البارزة في حياة هنري لامنس ، المستشرق الذي يعتبر انتاجه ، اكما اسلفنا ، مثلا حيا على أهداف ومسار حركة الاستشراق في مطلع هذا القرن . كما أن اسلوبه في العرض وطريقته في استعمال المصادر الاولية تمثل المنطلقات المتحيزة البعيدة عن كل حياد ودقة وأمانة التي هي الاساس في كل بحث علمي . فقد كان لامنس كاثوليكيا متعصبا لكاثوليكيته . ويحاول البعض ان يضيف الى هذا انه كان يحب « سورية » حبا شديدا وان الكثير من آرائه المعادية للاسلام ، كانت صدى لهذا الحب ، لانه كان يعتقد أن اسلام سورية كان سببا في تخلفها وتخليها عن الرسالة الحضارية والانسانية التي كان من الممكن أن تؤديها لو أنها لم تقع تحت قبضة العرب المسلمين ، أو لو أن الاسلام لم يعرف طريقه اليها. ويدللون على هذه الفكرة بالقول أن لامنس درس تاريخ وجغرافية سورية ، البلد الذي آواه صبيا ومنحه شبابا وكهولة وشيخوخة حافلة بالامجاد العلمية والمكانة الاجتماعية والسياسية المرموقة . ويقولون أيضا أن حبه لسورية ، كان لا يعدله الا بغضه للاسلام . وأود أن اتوقف عند اعترافهم ببغضه للاسلام هذا ؛ لاقول أن حبه المزعوم لسورية ، لم يكن في الحقيقة الا انعكاسا لما كان يحمله من حقد

وكراهية للعرب والاسلام وانه انما اختبأ وراء « الحب » الذي بشرت به النصرانية لينفس عن سموم الحقد الذي كان يأكل قلبه ويسد دون بصيرته أبواب العقلانية والنزاهة اللتين يقتضيهما كل عمل علمي . وأول ما يظهر هذا الحقد ، في كتابه « سورية » الذي حاول ان يبرر فيه الانتداب الفرنسي على سورية وأن يثبت ان هذا الانتداب ما هو الا امتداد لرسالة التمدين التي تحملها فرنسا الى هذا الجزء من وطننا العربي . يتناول لامنس في هذا الكتاب تاريخ سورية منذ الفتح العربي لها وحتى وقوعها في ظل الانتداب الفرنسي ، ويقدم له بمقدمة سريعة جدا تتناول تاريخ هذا القطر في العصور القديمة . ويذكر الدكتور زكي محمد حسن أن لامنس كتب كتابا عن سيرة حياة الرسول الكريم ، ولكن هذا الكتاب لم ينشر . وفي رأي الدكتور حسن أن البابا هو الذي أوقف نشر هذا الكتاب(١٣) . وغير خاف أن ما ورد في الكتاب من تجريح في شخص الرسول الامين هو الذي دعا البابا الى الامر بايقاف نشره لتخوفه مما قد يترتب على ظهور كتاب من هذا النوع من نتائج وخيمة، أقل ما توصف بها هو أنها لن تكون في صالح الاستعمار الغربي أو الكرسي البابوي . وقد كان المنطلق الذي انطلقت منه كتابات لامنس ، والفكرة التي سادت جميع أعماله هو ايمانه بأن الاسلام كان حادثا تاريخيا بائسا ، وكارثة أصيبت بها سورية فشلتها وأخرت تقدمها . وفي كتابه « سورية » شرح واف لايمانه بالامة السورية ومحاولة لاثبات فكرة الكيان السوري ، ورغم ان لامنس لم يكن أول من دعا الى هذه الفكرة ، الا انه هو الذي حاول أن يطور هذا المفهوم وأن يقدم له البراهين والادلة التي تصطبغ بصباغ من العلمية الزائفة ليقيم أوده ويعطيه النفس المصطنع الذي لن يساعده على البقاء .

وكان من رأي لامنس أن سورية بعد أن حلت بها « كارثة » الاسلام كان عليها أن تتقبلها على « مرارتها » وأن تحاول التقليل من ثقل وطأتها وأن تحافظ على شخصيتها السابقة بالابقاء على لبنان كموطن مسيحي وكملجأ للمسيحية السورية التي نكبت بالتسلط الاسلامي ، وهذا ما يسميه لامنس L'Asile du Liban وكان حليف سورية في « محنتها » القاسية هذه اوربة اللاتينية التي فجرت الحروب الصليبية ، فكانت هذه الحروب ، في رأي لامنس ، متنفسا مؤقتا للسورية مما أصابها بعد أن وقعت فريسة حكم المسلمين . وينتهي به هذا المنطق المشوه الى القول بأن الانتداب الفرنسي على سورية هو الوسيلة الرئيسية لاعادة الوحدة والسيادة الى « الامة السورية » التي يصفها :

«Nation Melkite, nation Maronite .... Cette terminologie captieuse ne devrait pas survivre au souvenir de la domination turque.»

وواضح من كل ما تقدم أن ايمانه بأمة سورية امر لم يبن على اي أساس من حقيقة علمية ، وانه لم يكن سوى وسيلة فيها كل الاصطناع والزيف والكذب لتبرير مواقفه المتعصبة من جهة . ولايجاد ما ظنه وسيلة لتسويغ الانتداب الفرنسي على هذا القطر من جهة اخرى .

واذا تركنا قضية ايمانه « بالامة السورية » المزعومة جانبا ، وانتقلنا الى القضايا التاريخية التي يوليها اهتمامه ويصرف لها جهده ، لوجدنا أن لامنس المؤرخ قد شغله أمران أساسيان هما : شخصية محمد ، ونبوته ، اللذان كان يعتبرهما المشكلة الرئيسية في التاريخ العربي . وهناك قضايا لابد في رأيه من البدء بها : كيف وجد الاسلام ؟ وما هي الظروف التي جعلت محمد يعتقد بأنه نبي ؟ ومن أين جاء بالافكار والمعتقدات التي بشر بها ودعاها الاسلام ؟ واذا تفحصنا هذه القضايا والتساؤلات لوجدنا أنها كانت دوما القضايا والتساؤلات التي شغلت بال المستشرقين منذ أن ولد الاستشراق وغدا حركة لها أهدافها وطرائقها في العمل والتفكير ، لاسيما اذا تذكرنا الرابطة الوثيقة التي تربط الاستشراق بحركة الاستعمار عامة . ولامنس كما نعلم ، هو مستشرق وممثل للاستعمار الغربي في آن واحد ، وكان محمد بالنسبة اليه مشكلة تاريخية تعنيه كمؤرخ . ومشكلة قومية تعنيه كمستعمر . ولن ينسينا كل ذلك القول بأن لامنس المؤرخ كان يتمتع بكفاءة نادرة ومهارة واسعة في معالجة الامور التاريخية ، ولكن الاثر الاستعماري في شخصيته أعماه في أغلب الاحيان فانقلب الى انسان لا يهمه افتراس الحقيقة العلمية والافتراء على المصادر ليصل الى ما كان في رأيه ، كمستعمر ، سبيلا لتحقيق أهدافه واثبات آرائه .

ويظهر هذا الذي ندعيه هنا اذا ما تفحصنا كتابات لامنس في موضوع السيرة وأسلوبه في نقد ماجاء في كتب سيرة الرسول الكريم . ويحاول الدكتور كمال صليبي(١٥) أن يوجد رابطة بين أسلوب لامنس في دراسة السيرة واسلوب المستشرق جولدزيهر Goldziher في دراسة الحديث الذي يشكك في صحة الكثير من الاحاديث في كتابه « دراسات محمدية » Muhammedanische Studien ويحاول البرهنة على وضعها مبررا ذلك بظروف حكم الخلافتين الاموية والعباسية. واهتمام العباسيين بوضع الاحاديث التي تؤيد احقيتهم في الحكم وقيام الفئات السياسية والدينية المختلفة بتزوير الاحاديث لتستمد السند لآرائها وأهدافها . وعندنا ان هذه الرابطة موجودة بين لامنس وجولدزيهر بسبب اتساق الهدف بين الاثنين ، وحرص كليهما على تهديم العمد الاساسية التي يقوم عليها التراث العربي الاسلامي الخالد ومن بينها الحديث النبوي . وكما اقتبس لامنس من

جولدزيهر اسلوبه في تجريح الحديث والتشكيك به ، اقتبس من سنوك هيرخرونيه اسفه لعدم توفر طبعة نقدية Edition Critique للقرآنالكريم تعينه في دراسة حياة الرسول ، ونراه يقول (١٦) :

« Dans L'état actuel de nos Connaissances, les innombrables allusions historiques du Qoran nous échappent en grande partie. Nous attendons toujours une édition critique, et la chronologie du texte demeure une question ouverte .»

ويؤكد لامنس في كتابه « القرآن والحديث » Qoran et Tradition أن كتب السيرة النبوية ، وكتب من سبقه من المستشرقين عن حياة الرسول تعتمد في الغالب على الحديث ، في حين انه يرى أن القرآن الكريم وحده هو المصدر الوحيد الذي يمكن أن يعتمد عليه لمعرفة حياة الرسول ونبوته ، وذلك لما دخل الحديث من وضع ودس وتحريف . ويبدو زعم لامنس هذا وكأنه دفاع عن الحقيقة العلمية التي يتوخاها باحث نزيه رائده الحقيقة العلمية الصافية ، ولكن اذا تجاوزنا هذهالقشرة الزائفة ، وغصنا في أعماق كتابات لامنس في موضوع السيرة لوجدنا أن النتائجالتي يتوصل اليها لا تتفق وهذا الحياد والعلمية التي يزعم . فقد كان لمكوناته الاستعمارية الاثر الحاسم في استعمال الاسلوب النقدي الزائف : فهو يصول ويجول فيميادين النقد ويسلط كل سهام التشكيك والتجريح حين يكون ما بين يديه من مادة في جانب الرسول الكريم وصدق رسالته ، وينسى كل ذلك ويجافيه كل التزامبالطريقة النقدية حين يكون في الخبر دسيسة او فرية تحط من قدر الاسلاموورسولهالعظيم . وينطبق هذا الموقف على ما في المصادر من أخبار تتعلق بعلي والعباس وسواهما من آل الرسول . فهو نقاد عنيف لكل مايرد حولها من اخبار ترفع من مكانتهما ، ولكنه يقبل اي شيء يرفع من مكانة بني أمية ، مهما كان الخبر مضعفا ومهما كان رواته مشكوكا في عدالتهم وضبطهم . وحجته في ذلك انه لا يستطيع قبول فكرة أن كتاب السيرة من المسلمين قد كتبوا عن الرسول شيئا يشينه ، ولذلك فكل ما كتبوه لا بد صحيح . وغير خاف ما في هذه الحجة من مجافاة للمنطق والواقع التاريخي الذي يثبت بما لا يقبل الشك ما دخل على أخبار السيرة من دسوتشويه بتأثير العناصر الشعوبية والفرق الدينية الهدامة التي دخلت الاسلام لتعمل فيه يد التخريب والتشويه . وحتى في الامور المتعارف عليها والتي اجمع راي كل كتاب السيرة والتاريخ على صدقها ، نجد لامنس يحاول الغمز منها والنيل من اهميتها ، اذا كان فيها ما يرفع من مكانة الرسول بين قومه وحتى قبل اسلامه . ان صفة « الأمين » التي تعارف الناس على وصف محمد بن عبد الله بها قبل نزول الاسلام على قلبه هي من الامور التي تسوء لامنس وتجعله يعلق عليها بقوله (١٧) :

« A nous, hommes du vinghtième siècle, un amîn quoraisite paraitrait peut-etre un coquin, dans notre civilisation, deux milles ans de christianisme et de philosophie ont précisé, offiné jusqu'à l'extrême, le concept de la loyauté humaine.... La loyauté existe ou n'existe pas, mais elle ne peut se combiner avec une dose, meme infinitessimale, de duplicité, de vues intéressées, Jamais les Arabes ne haussèrent jusque-là.

وكان لامنس يصدر عن فكرة مسبقة في موضوع « السيرة » ، تتلخص في الشك بصدق رسالة محمد بن عبد الله ، فهو لهذا يشوه النصوص ويحملها ما لا تطيق ويقتنص منها نتفا يستغلها استغلالا لا ينطبق مع منطق علمي أو أمانة في النقل (على طريقة « لا تقربوا الصلاة » .. دون « وانتم سكارى ») . ويتجلى هذا الموقف في كتابه Mahomet, fut-il sincère الذي حشاه بالدس والافتراء على الرسول الكريم ، وحاول من خلاله أن يشكك في كل المرتكزات الاساسية والمعالم الرئيسية لحياته صلوات الله عليه . فقضية تحنثه وانقطاعه للتأمل في غار حراء قبل أن يتنزل الوحي على قلبه قضية كاذبة في رأي لامنس . والعجيب في الامر ان رفضه لهذه الواقعة التي لا يرقى اليها شك أو ريبة مبني على المناقشة التافهة التالية :

« Rien ne garantit l'authenticité de cette retraite. Elle Cadre mal avec l'horreur de Mahomet pour la solitude, avec sa repugnance notoire pour l'ascétisme. Nous la croyons plutôt calquée sur celles de Moise au Sinai, du Christ ou désert avant sa vie publique. Les montagnes sacrées abondaient aux alen-tours de la Mecque. En y plaçant la retraite du Maitre, la tradition a essayé de leur confére un caractère de sainteté islamique... Nous nous croyons donc autorisés à rayer le Mont Hira de l'histoire de la première vocation.» (١٨)

وفي اكتابه « فاطمة ، وبنات محمد » Fatima et les filles de Mahomet يقدم لنا لامنس مثلا آخر على هذه الطريقة في استعمال المادة الموجودة في المصادر ، وعلى الاحكام المسبقة التي يتبناها ويحاول أن يسخر النصوص للبرهنة عليها ، ولو اضطره ذلك الى تشويه النصوص الاصلية أو الافتراء عليها . ففي هذا الكتاب يحاول لامنس أن يظهر ان فاطمة الزهراء لم تكن ابنة الرسول المفضلة ، وانه صلوات الله عليه ، لم يكن يرغب أن يخلفه في حكم امة الاسلام أحد من اعقابها . لذا نراه في كتابه هذا يخضع الاحاديث النبوية التي تتعلق بعلي وفاطمة والحسن

والحسين الى اشد انواع النقد والتجريح والتشكيك . ويخرج بعد هذه العملية التي تتسم بالمبالغة الشديدة بنتيجة واحدة هي أن ناطمة ، رضوان الله عليها كانت لا تتمتع بحب أبيها وانه كان لايهتم برفاهها أو تجنيبها المشاق . وأن زوجها عليا رضي الله عنه لم يكن على مستوى رفيع من الذكاء والفطنة ، وان الرسول الكريم كان يشك بكفاءته ومقدرته . ومن العجيب أن لامنس الذي نراه يصوب سهاما جارجة من النقد والتجريح الى كل حديث أو خبر يرفع من مكانة علي وآله ، يقبل أكثر الاحاديث والاخبار ضعفا من حيث المتن والسند لمجرد أنها تطعن في فاطمة وزوجها وأولادها . وغير خاف أن هدف لامنس من كل ذلك اسقاط حق لآل البيت في الحكم ودعم شرعية الحكم الاموي وحق آل أمية في رئاسة المسلمين . ويتضح هذا الموقف بشكل ادق في كتابه « دراسات عن حكم الخليفة الاموي ، معاوية الاول » Etudes sur le règne du calife omaiyade, Mo'awia 1er الذي يضفي فيه كل الفضائل والامجاد على البيت الاموي بشكل عام ، ومعاوية بوجه خاص الذي هو بالنسبة اليه خير حاكم وافضل رجل دولة عرفه العرب .

ورسالة محمد بن عبد الله بالنسبة للامنس هى محاولة اصلاحية . ليس فيها اية بذرة من بذور النبوة ، وهذه المحاولة كانت جزءا من صيحات الاصلاح التي كانت تتردد في الاجواء المكية آنذاك استغلها محمد ليدعي نبوة ليس له فيها اي نصيب (١٩) :

« La mission, d'abors entrevue par Mahomet, se borne à une réforme mi-sociale, mi-religieuse des institutions mecquoises; ou, pour parler plus exactement, Mahomet ne separa jamais le sacré du profane: dogme, stipulations relatives aux hertages, aux testaments, tout sera par lui placé sur le meme pied .»

ولا يقبل لامنس مايدعيه نولدكه(٢٠) Noeldeke من أن الرسول كان مصابا بالصرع Epilepsie. وأن المظاهر الخارجية للوحي كانت نوبات صرع واضحة ، بل يعتقد أن محمدا كان يرى مايدعوه « وحيا » في نومه ، حتى انه كان يسميه بال Le grand dormeur: وأن وحيه نابع من داخله وليس تنزيلا من عند الله . ويتابع هذه النظرية التي يحاول فيها اظهار الرسول الكريم بمظهر المصلح الاجتماعي ورجل السياسة فيقول ان العنصر الروحي الذي تستر به محمد بن عبد الله ابان الفترة المكية من حياته أخذ يزول بالتدريج مذ غدا الاسلام قوة سياسية بعد الهجرة الى المدينة ، حيث صار محمد رجل دولة وسياسة . وانتهى الجانب الروحي من

حياته أو تضاءل الى حد كبير بعد النجاحات السياسية والعسكرية التي حققها في المدينة(٢١) .

واذا تركنا هذا الجانب المتعلق بسيرة الرسول الكريم من دراسات لامنس وانتقلنا الى الميدان الاخر من الدراسات الاسلامية التي أولاها عنايته ، الا وهو خلافة بني أمية ، لوجدنا أن هناك ترابطا وثيقا بين اهتمام هذا المستشرق ببني امية ومحاولته رفع شأنهم ، وبين عدائه للرسول الكريم والاسلام عامة . فالامويون عنده هم أحفاد ابي سفيان الذي حمل لواء المعارضة في وجه الاسلام ، وقادالجيوش لحربه ، وفي هذا مايكفي لامنس لتمجيدهم ولربط حكمهم الذي قام في الشام وعلى ارض سورية بما يكنه من حب مزعوم لسورية ، كما أشرنا آنفا . فخلافة معاوية عنده نصر معنوي « للامة السورية » على الاسلام كقوة قهرت سورية وأخرت تقدمها ومنعتها من أن تلعب الدور الحضاري الكبير الذي كان مقدرا لها أن تلعبه لو لم تصب « بكارثة » الفتح الاسلامي لها . وأهم الخدمات التي قدمها عمر بن الخطاب الى سورية هو أنه ولى معاوية بن أبي سفيان أميرا عليها بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان ، وان معاوية الذي اعتمد القبائل السورية في حكمه كان يعيد صرح السيادة السورية السابقة : لان هذه القبائل هي بقايا الغساسنة النصارى وحلفائهم . وزواج معاوية من ميسون التي ولدت له ولي عهده يزيد ، هو مظهر آخر من فضائل معاوية . فميسون سورية ربت ابنها وزودته بزاد ثقافي سوري جعل منه انسانا يمتلك صفات لا تتوفر الا فيمن اتيح له هذه الخؤولة والثقافة السورية التي توفرت لـــه .

وهذا الالحاح على الانتماء السوري ، يقوم عند لامنس على أساسين مهمين هما : وحدة الارض ، ووحدة الجنس . فسورية عنده أرض واضحة الحدود تحيط بها معالم طبيعية مميزة هي : البحر وجبال طوروس Taurus والصحراء العربية . أما السوريون فهم شعب يجمعه تجانس رائع وحيوية جديرة بكل تقدير . وقد أراد لامنس حين ألف كتابه عن « سورية » La Syrie لا أن يقدم لنا وصفا لتاريخ وجغرافية هذا البلد ، بل أن يظهر من خلال سرده لاحداث هذا التاريخ ان هناك جنسية سورية متميزة ليس لها ما يربطها بالعرب والعروبة . وفي هذا ، كما هو واضح ، اتساق تام مع هدفه الاصلي ، الا وهو اعمال معول الهدم والتخريب في جسد الامة العربية ككيان موحد متماسك من جهة ، وفي الاسلام كدين ومادة حضارة وموضع فخار لهذه الامة من جهة اخرى . والاستشراق أساسا لم يخرج في أكثر الاحيان عن هذين الهدفين كما بينا خلال هذا الحديث .

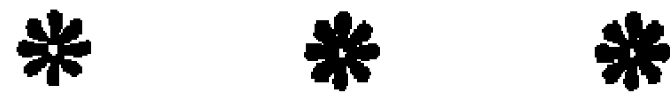
وبعد فلست اريد ان انهي هذا الحديث دون كلمة انصاف يقتضيها واجب الامانة العلمية ، وتحقيق مبدأ اعطاء كل صاحب حق حقه . قد يتراءى مما قدمته من ملاحظات عن الاستشراق وسيرة بعض من رجالاته أن الاستشراق كان حركة شريرة لم تقدم لتاريخنا ومقدساتنا أية خدمة أو نفع ، وهذا ما لست أريد قوله . فالاستشراق عندي ، حراكة كان لها من الاهداف المعادية للعروبة والاسلام ما حاولت شرحه في الصفحات السابقة ، ولكنه يظل مساهمة لايمكن تجاهل اهميتها أوالتغاضي عما كان لها من مردود واضح الاثر في اغناء الدراسات العربية والاسلامية في مختلف حقولها وآفاقها .

واذا كان المستشرقون قد نظروا في مناسبات كثيرة الى الاسلام ونبيه بمنظار الشك والريبة ، ورفعوا في وجهيهما اصابع الاتهام والتحيز ، فانهم اعطوا هذه الدراسات اسلوبا ومنهجا كان ينقص الكثيرين من دارسينا . وكان لبعضهم فضل المساهمة الجادة في نشر تراثنا وتقديم الدراسات الجادة حول الكثير من قضايا تاريخنا ولغتنا وبعض جوانب حضارتنا . ان الكثيرين ممن يتصدون اليوم منا لدراسة التاريخ العربي الاسلامي ، قد درسوا على مستشرقين ، وتلقوا تدريبهم العلمي على ايديهم ، وان نظرات الشك والريبة التي تطل من بين هذه السطور لا تعني اني اجهل اهمية الدراسات الاستشراقية ، ولا تقتضي رفض كل ما جاء به المستشرقون من ابحاث ودراسات ، فبينها الكثير مما يستحق كل ثناء وتقدير . ولكني سأظل أردد فكرة أومن بها وهي أن التاريخ العربي الاسلامي يستحق منا نحن الذين نتشرف بالانتماء الى صانعيه عناية فيها علمية الاسلوب الذي انتهجه بعض المستشرقين ، واخلاص المؤمن بهذه الامة الذي لم يتوفر لغالبية المستشرقين .

واذا كان النقاش اليوم حاداً بين ادوارد سعيد صاحب كتاب «الاستشراق» وبين معارضيه ، وعلى رأسهم المستشرق المعروف برنارد لويس ، فاني لم ارد لهذا البحث أن يدخل في متاهة هذا النقاش ، ولكني مؤمن أن زمن الاستشراق بالمعنى الذي شرحته في مقدمة البحث قد ولى ، وأن المؤتمر الاخير للمستشرقين الذي عقد في باريس صيف عام ١٩٧٩ ، وكان لي حظ المشاركة فيه ، قد دفن حركة الاستشراق الى الابد ، واستعاض عن مؤتمرات الاستشراق المعروفة بمؤتمرات أسماها رسميا باسم : « المؤتمر الدولي للعلوم الانسانية في آسية وشمال افريقية » ، وسيعقد المؤتمر الحادي والثلاثون منها صيف العام القادم في اليابان .

وبعد ، فان كلَ هذا يدعونا الى القول بأن الكثير من المكتوب من تاريخنا بحاجة الى عودة جادة نتخلص فيها من نهج السلفيين الذين نظروا الى احداث هذا

التاريخ نظرة تعتمد على سرد وقائعه سردا وصفيا تتالى فيه السنوات وتتشابك الحوادث وتبرز فيه أسماء العظماء من رجال الحكم والحرب دون تفحص لمايقبل وما لا يقبل ، ودون الالتفات للتيارات الكبرى التي سيرت هذا التاريخ وصنعت احداثه على الشكل الذي ظهرت فيه ، ودون اعارة اية التفاتة لجماهير هذه الامة في مساهماتها السياسية وفي حياتها اليومية وفي اقتصادها وفكرها ومواقفها من أمور دينها ودنياها . ان أساليب النقد العلمي ومناهج البحث التاريخي التي تنقص الكثير مما نكتب لابد وأن تحتل مكان الصدارة في انتاجنا التاريخي الجديد ، وفي نظرتنا الى احداث تاريخ أمتنا . وهنا نجد في الاسلوب الذي تتبعه كثرة من المستشرقين المحدثين مثلا يحتذى لا غنى لنا عنه في نهضتنا المأمولة في ميدان الكتابة التاريخية . ولست أريد أن أنكر على جميع مؤرخينا المحدثين فضلهم في هذا الميدان ، فبينهم من قطع شوطا محمودا في هذا الطريق ، ولكني مازلت مؤمنا أنه ينقصنا الكثير ولابد أن تلجأ جامعاتنا التي يقوم طلابها بكتابة أبحاث لنيل شهادات جامعية عليا في مواضيع تاريخنا الى التشدد في استعمال هذا الاسلوب كي نخرج جيلا من المؤرخين يكونون عدتنا لتحقيق هذا الهدف .



الحواشي :

(١) يمكننا ان نذكر كمثال على المعلومات التي يوردها ثيوفانس عما كان يجري في دولة الاسلام في الفترة التي يؤرخ لها ، ما ينقله لنا عن موقعة صفين التي جرت بين علي ومعاوية كما هو معلوم . يقول ثيوفانس : ((ان من كان مع معاوية تغلبوا واستولوا على الماء ، ومن كان مع علي تركوا القتال وفروا بسبب العطش . على ان معاوية لم يكن يريد أن يقاتل ، لكنه احرز النصر بدون مشقة .)). وهذا ، كما هو معلوم ، يخالف المعلومات المتعارف عليها والتي تقرر أن الذي كان يسيطر على شريعة الماء أول الامر هو معاوية ، ولكن عليا وجيشه قاتلوا اهل الشام واستولوا على الماء وسمحوا لاهل الشام بأن يستقوا . غير خاف ان مصدر معلومات تيفانس هذه هو اهل الشام ، كما انه ألف موسوعته قبل الطبري بقرن من الزمن (توفي الطبري سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م) ، وبعد مالايزيد باكثر من ستين سنة على قيام دولة بني العباس ، فهو اذن اقرب الى زمن الحادث من الطبري . من اجل التوسع في هذا الموضوع ، انظر كتابنا ، خلافة بني أمية ، ط . دمشق ١٩٧٢ ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) السيد الباز العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٣٢ .

(٣) من اجل ازمة الايقونات ، انظر كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ط . دمشق ١٩٧١ ، ص ١٤٧ وما بعدها .

(٤) انظر نص هذا المنشور في ترجمة شكيب ارسلان لكتاب رينو عن غزوات العرب في غاليا وايطاليا ، ص ٢٣٠ ، وقد وجد نص هذا المنشور في دير لوروان وطبع في لشبونة عام ١٦٠٩ .

(٥) كامل عياد ، صفحات من تاريخ الاستشراق ، مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد الاربعون ، الجزء الاول ، يناير ١٩٦٥ ، ص ١٦٥ .

(٦) كامل عياد ، ص ١٦٧ .

(٧) من اجل أسماء المستشرقين الاوائل ، انظر ، نجيب العقيقي ، المستشرقون ، ثلاثة اجزاء ، طبع القاهرة ١٩٦٤ ، ج١ ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٨) كامل عياد ، المصدر المذكور ، ص ٥٨٣ .

(٩) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٠) انظر ، كامل عياد ، صفحات من تاريخ الاستشراق ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج٣ ، المجلد ٤٣ ، ص ٥٧٦ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٥٧٨ ـ ٥٧٩ .

(١٢) كامل عياد ، صفحات من تاريخ الاستشراق ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ج٣ ، المجلد ٤٣ ، ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠ .

(١٣) انظر مقال الدكتور زكي محمد حسن في ، مجلة المقتطف ، دسمبر ١٩٣٧ ص ٥٥٥ – ٥٦١ .

(١٤) La Syrie, I, P. 5.

(١٥) بحث مقـدم من الدكتور صليبي الى حلقـة دراسية عقدت في جامعـة لنـدن حـول موضـوع : ((الكتابات التاريخية عن الشرق الادنى والاسط .)) .

(١٦) Qoran et Tradition ..., P. 7.

(١٧) Mahmet, fut-il sincère, P. 4.

(١٨) Mahomet, fut-il sincère, P. 1.

(١٩) Mahomet, fut-il sincère?, P. 44

(٢٠) Noeldeke, Sketches from Eastern History, ed. London, 1892, P. 25

(٢١) Mahomet, fut-il sincère ?, P. 24



دراسات تاريخية

مجلّة علميّة فصليّة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

السنة الرابعة

العدد الحادي عشر ـ ربيع الثاني ١٤٠٣هـ / كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣ م

المدير المسؤول : الدكتور شاكر الفحام رئيس التحرير : ناظم كلاس

ثمن العدد

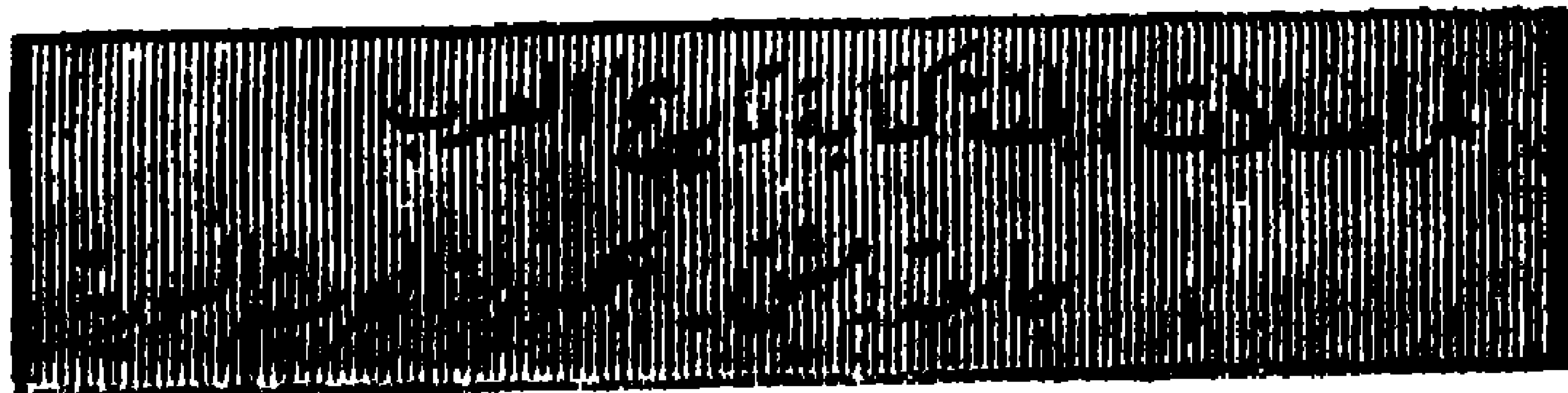
سورية	٦٠٠	ق.س.	تونس	١ر٠٠	دينار تونسي
لبنان	٨٠٠	ق.ل.	المغرب	١٤ر٠٠	دينار مغربي
الكويت	٧٠٠	ف.ك.	قطر	٩ر٠٠	ريال قطري
البحرين	١ر٠٤٠	دينار بحراني	السعودية	٨ر٥٠	ريال سعودي
ليبيا	١ر٣٠٠	دينار ليبي			

الاشتراك السنوي :

للمؤسسات : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية او مايعادلها

للافراد : (٣٠) ل.س ثلاثون ليرة سورية او مايعادلها

(تضاف اليه اجور البريد)



لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

رئيس جامعة دمشق

« قسم التاريخ

د . عادل العوّا

د . نبيه عاقل

د . محمد حرب فرزات

د . خيرية قاسمية

ناظم كلّاس

دراسات تاريخية (١١)

في هـذا العـدد

الصفحة

تنويه

■ الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبها

■ ترتيب البحوث يخضع لضرورات فنية

تقـــديم

بهذا العدد ، تدخل مجلة ((دراسات تاريخية)) عامها الرابع ، ملتزمـة بنهجها وتوجهها ، يحدوها الامل بالنماء والعطاء الافضل والاخصب الذي يحقق الغاية من وجودها ، بمؤازرة المؤرخين والباحثين والمفكرين العرب وتشجيعهم .

ولعله من المفيد هنا ان نذكر بما سبق ان رددناه سابقا ، وهو ان هذه المجلـة ليست غاية بذاتها ، ولم يكن القصد من اصدارها اضافة مجلة تاريخية اخرى الـى الدوريات العلمية التاريخية المتخصصة ، بل كان القصد هو ان تكون التوطئة والتمهيد لغاية اكبر ، وهدف اهم واخطر ، الا وهو كتابة تاريخ العرب في موسوعة عربية كاملة ، كتابة تلتزم المنهجية التاريخية العلمية النقدية ، وتتيح لابناء الامة وعي تاريخ امتهم على حقيقته وصفاء رؤيتهم لحاضرها ومستقبلها .

ان مجلة ((دراسات تاريخية)) هي اذن الخطوة الاولى ، بل خطوة من خطوات تخدم كلها ، وبمجموعها ، الغرض الاساسي ، تحاول طرح الجديد في ميدان البحـث التاريخي ، وتسليط الضوء على التيارات العميقة التي حركت تاريخ هـذه الامـة واعطته خط سير خاص به ، له ملامحه المتميزة ، النابعة من طبيعة الاحداث ، ومن الظروف المحلية والدولية التي واكبتها واثرت في تطورها . على صفحاتها تعرض الافكار وتناقش كيما يثبت منها ما هو جدير بالحياة والبقاء ، وينتفي ما هو مشوه او مصنوع . كل ذلك في جو من الحوار العلمي الهادىء ، الملتـزم باسلوب البحـث العلمي ، الذي ينشد الحقيقة التاريخية دون سواها ، في سبيل هدف علمي وقومي جليل ، هو تنقية تاريخ العرب مما شابه او علق به على يد بعض الدارسين الذيـن

جانبهم التوفيق ، او قصروا عن ادراك الحقيقة والواقع ، او تعمدوا تشويه الحقيقة والواقع او تجاهلوهما لغرض في أنفسهم ٠

ومجلة ((دراسات تاريخية)) ، وهي تتوجه بالشكر لكل من شاركها مسيرتها السابقة ، ولكل الذين اسهموا فيها وغذوها بثمرات فكرهم ونتاجهم ، ترحب بكل قلم يشارك في هذه المسيرة ، وبكل رأي او مقترح يساعد في اغناء فكرتها ٠ وهي تفتح صفحاتها للباحثين العرب ، في الوطن العربي وخارجه ، من مؤرخين ومفكرين ودارسين ، آملة ان يسهموا بما ينير طريقها ويسدد خطاها الى الغاية التي تقصدها ٠

★ ★ ★

الثّقافة والاتّجاه الاشتراكي العلمي في الفكر العربي المعاصر

د . أحمد ماضي

(الجامعة الاردنية)

ليست الثقافة موضوعا يتفرد ببحثه علم ما ، انما هي موضوع مشترك بين مجموعة من العلوم من اهمها علم الاجتماع ، الفلسفة ، علم النفس ، التاريخ ، علم الآثار . . . واكثر من ذلك فقد ظهرت ، في أزمان مختلفة ، فروع جديدة من المعرفة تعالج الثقافة مثل سوسيولوجية الثقافة ، سيكولوجية الثقافة ، تاريخ الثقافة . . . وفي السنوات الماضية الاخيرة بدأ يتشكل علم جديد يسمى « علم الثقافة » أو « نظرية الثقافة » وهو يضم جميع فروع المعرفة التي تعالج الثقافة .

ولعل الذي يفسر هذا الاهتمام بالثقافة هو انها تخص جميع مجالات الحياة الاجتماعية بلا استثناء كخاصية نوعية لها . « ففي الثقافة بالذات يبرز جوهر الحياة الاجتماعية »(١) . انها ذاتها ظاهرة اجتماعية ، وبالتالي لا يمكن ان تفهم من نفسها ، بل في علاقتها بالمجتمع . كما انها ليست ثابتة استاتيكية ،وذلك لاتصالها الوثيق بالابداع . وبناء على ذلك تعرف الثقافة بانها النشاط الابداعي للناس . يقول الباحثان باليو وزلوبين في دراستهما المشتركة أن الثقافة « هي النشاط الخلاق نفسه للانسان . . . »(٢) .

وتؤكد باحثة اخرى التعريف المذكور قائلة « الثقافة عبارة عن تجسيد للقوى الخلاقة للمجتمع والفرد في قيم ثقافية محددة »(٣) . اذن الثقافة لا تصف اي نشاط في الميدانين المادي والروحي ، بل تصف النشاط الذي يعتبر ابداعيا . انها متصلة بالنشاط الخلاق ــ الاجتماعي للانسان الذي يوجه نحو تغيير الطبيعة ، المجتمع ، والانسان نفسه . وبناء على ذلك فان الثقافة تمثل مستوى استحواذنا على قوى الطبيعة ، وقوى المجتمع ، ومستوى تكوين الثروة الروحية للانسان . ومصداقا لهذا الراي يقول احد الباحثين : « تعبر الثقافة عن معيار السيطرة البشرية على

الطبيعة ـ على قوى الطبيعة الخارجية وعلى قوى طبيعتها الخاصة على حد سواء»(٤). ومثل هذا الفهم للثقافة يحتم علينا القول ان ثقافة المجتمع مؤشر لمستوى قوى تطوره، نظرا لانها تمثل مجموع القيم المادية والروحية التي يخلقها البشر ومضمونها وايضا تشمل النشاط الخلاق الذي ينتج الافكار والتصورات ويعمل على تجسيدها ماديا. وهكذا نجد أن الثقافة بالمعنى الواسع للكلمة تضم جميع مجالات الحياة الاجتماعية وتعبر عن مستوى معرفة واستحواذ الانسان على قوانين الطبيعة والمجتمع. وهنا يصدق تعريف الثقافة الآتي: « الثقافة ـ مجموعة انجازات المجتمع في مجال التنوير، العلم، الفن، ومجالات الحياة الروحية الاخرى، والمهارة في استغلال هذه الانجازات في سبيل قهر قوى الطبيعة، ومن اجل نمو الانتاج وحل المهام الملحة للتطور الاجتماعي »(٥). واذا كان مثل هذا التعريف يصدق على الثقافة بصورة عامة، فان ثقافة الفرد تتحدد بثرائه من المعارف والمهارات والمثل. ومعنى ذلك أن حصول الانسان على المعارف واكتسابه للخبرات في هذا المجال او ذاك من النشاط، واستيعابه احد انظمة القيم، وتشكيل سلوك معين ـ كل ذلك يرتبط بالثقافة. ومن المعلوم أن كل انسان يوجد منذ نعومة اظفاره تحت تأثير نمط معين من الثقافة.

لقد اتضح مما تقدم قوله ان الثقافة موضوع ذو اهمية خاصة على الصعيدين النظري والعملي. والجدير بالذكر ان المفكرين والباحثين العرب لم يهملوا هذا الموضوع. فقد اولوه اهتمامهم وكتبوا فيه الكثير، بالرغم من انهم، حسب اعتقادي، لم يبحثوا الموضوع بصورة نظرية كافية. فلا تزال الثقافة تفتقر الى المزيد من البحث. واكثر من ذلك فان الثقافة كما يفهمها المفكرون والباحثون العرب تحتاج الى التقويم والنقد. ومحاولتي في هذا البحث ينبغي أن تفهم في هذا الاطار. فانا أحاول عرض وتحليل مفهوم الثقافة لدى أبرز انصار الاتجاه الاشتراكي العلمي في الفكر العربي المعاصر، وهم د. انور عبد الملك، د. محمود أمين العالم، د. حسين مروه، د. طيب تيزيني. ومن الثابت انهم يتبنون الاشتراكية العلمية بالرغم من انهم يطلقون عليها اسماء مختلفة. فالدكتور طيب تيزيني يسميها « الفكرية الاشتراكية العلمية الثورية ». بينما د. محمود أمين العالم يسميها « العقلية العلمية النقدية ». اما د. عبد الملك فيسميها «الفلسفة العقلية العلمية». وسأكتفي، كمثال، بتوضيح « الفلسفة العقلية العلمية » كي يكون الاتجاه الاشتراكي العلمي، كما يفهمه انصاره، واضحا في اذهان القراء.

ينطلق د. انور عبد الملك باديء ذي بدء من أن « الوجود هو اساس الفكر. كل شيء في حركة وتطور ـ وهو الاتجاه الذي حدده « هيراقليطس » منذ القدم

بعبارته المشهورة « الانسان لايستحم مرتين في نهر واحد »(٦). ويضيف قائلا : ان الوجود قابل للفهم وان عملية المعرفة لن تقف ابدا عند حد(٧). ومما يلفت النظر ان د. انور عبد الملك يطلق على اتجاهه ، بالاضافة الى التسمية السالفة الذكر . « المنهج النقدي » . وهذا المنهج يعني بالنسبة له « النظر الى الاشياء نظرة تاريخية ندرك ان الوجود باسره في حركة دائمة ، وان كل شيء يحمل في طياته تناقضات لا بد لنا ان نفيد من صراعها للتقدم الى الامام »(٨) . وكذلك يعني « امتحان كافة المعتقدات والافكار والانظمة بمنظار العقل والمنطق والعلم »(٩)، « ونبذ منهج السلطة في مجال الثقافة ، والاعتماد على معطيات العلوم والتجارب الانسانية في المقام الاول »(١٠) .

هذه الاسس الفلسفية حتمت على انصار الاشتراكية العلمية النظر الى الثقافة لا كمفهوم مستقل ، بل كمفهوم وثيق الصلة بالفلسفة ، بالنظرية . فهم يؤكدون على هذا النحو او ذاك ضرورة ارتكاز الثقافة الى احدى الفلسفات . النظريات . وللتدليل على ذلك يولي د. محمود أمين العالم ، على سبيل المثال لا الحصر ، الفكر النظري اهمية خاصة ، على اعتبار « انه منظومة المفاهيم والتصورات العامة التي يستند اليها الانسان في تعبيره ومسلكه . وهي خلاصة خبرته الاجتماعية الحية ووسيلته لمعرفة الواقع من حوله والسيطرة عليه »(١١) . وبناء على ذلك يعتبر محمود أمين العالم الفكر النظري « عصب الثقافة »(١٢) . اما د. طيب تيزيني فيؤكد اهمية النظرية بالنسبة الى الثقافة قائلا ان « قضية » الثورة الثقافية في الاقطار العربية تطرح مسألتين اساسيتين : الاولى هي « نظرية الثقافة ، اي النظرية التي من خلالها نطرح قضية الثورة في الثقافة »(١٣). ولعل اوضح المفكرين الاشتراكيين العلميين في الكشف عن الفلسفة التي ينبغي ان تكون اساسا للثقافة هو د. انور عبد الملك اذ يؤكد ان الثقافة تحتاج الى ان يحدد اتجاهها . « وهذا الاتجاه بدوره لابد له من الاعتماد على فلسفة للثقافة الوطنية واضحة المعالم امام الشعب وأمام المشتغلين بالشؤون الثقافية »(١٤) . وما يستحق التنويه به ان د.انور عبد الملك لا يكتفي بأن يؤكد ضرورة اعتماد الثقافة على الفلسفة ، بل يحدد كذلك هذه الفلسفة « وعندنا ان هذه الفلسفة هي الفلسفة العلمية التي تتفق ومقتضيات التصنيع . انها فلسفة تؤمن بالواقع ، وبدور النقد دون مجرد التقرير ، وبالتطور والحركة دون الجمود والركود »(١٥) . واذا كانت الفلسفة العلمية هي الفلسفة التي تناسب المجتمع الصناعي ، فان العقلية الاسطورية تتفق والمجتمع الزراعي . ويعدد د. انور عبد الملك مرتكزات العقلية الاسطورية على النحو الآتي :

١ ــ الاعتماد على النقل والعجز عن الخلق .

٢ ــ الثبات والاستمرار دون الحركة والتطور .

٣ ـ الماضي والتراث دون المستقبل والتقدم .

وبناء على ما تقدم يطرح د. انور عبد الملك امام المثقفين المصريين مهمة اولى ملقاة على عاتقهم . وهذه المهمة تتلخص في « تحرير العقلية المصرية من اتجاهها الاسطوري ودفعها نحو الاتجاه العلمي »(١٦) . والذي يستحق الذكر في هذا المجال ان محمود امين العالم يتفق مع ما يطرحه د. انور عبد الملك من ضرورة التخلص من العقلية الاسطورية واستبدال العقلية العلمية بها . فهو يؤكد الحاجة الشديدة الى العقلية النقدية ويطالب بأن تسود مثل هذه العقلية الحياة الاجتماعية والفردية على حد سواء . وينطلق في ذلك كله من ان « التسليم القدرى » لا يزال سائدا في الريف ، وان « التواكلية » لا تزال قسمة من قسمات الحياة اليومية . وان النظرة الانفعالية والجزئية « لا تزال تشكل كثيرا من المواقف الاجتماعية والفردية . ويعتبر محمود أمين العالم كل ذلك امتدادا لتصورات المجتمع القديم في قلب مجتمعنا الجديد . وهي استمرار فكري لسلطان الطبقات الاجتماعية التي صفيت سياسيا واقتصاديا . . . »(١٧) . ويقول في موضع آخر موضحا نفوذ « العقلية الاسطورية ـ الذاتية ـ البراجماتية » : « ما تزال التصورات الغيبية والتواكلية وقيم الذاتية والنفعية واللامبالاة تسود في مستويات وقطاعات مختلفة من المجتمع : لم تسد بعد روح الفكر العلمي الموضوعى »(١٨) . وأيضا يبين هيمنة العقلية الاقطاعية والراسمالية قائلا : « وما تزال التصورات والقيم والاذواق والعادات الاقطاعية والراسمالية تعشعش وتتنفس وتسود »(١٩) .

نرى من كل ما تقدم ان الاسس الفلسفية التي يصفونها بالعلمية حتمت على مفكري الاشتراكية العلمية التصدي بالنقد للعقلية الاسطورية وللعقلية الاقطاعية ـ الراسمالية . واذا كانت فلسفتهم العلمية قد فرضت عليهم نقد العقلية الاسطورية وطرح العقلية العلمية بديلا لها ، فان اتجاههم الاشتراكي الزمهم محاربة العقلية الاقطاعية والراسمالية . فمواقفهم من الواقع لا يمكن ان تفهم الا في ضوء اتجاههم الاشتراكي العلمي . فهي منسجمة كل الانسجام مع هذا الاتجاه .

وحري بنا بعد هذا ان نذكر أن انصار الاشتراكية العلمية لا يؤكدون اعتماد الثقافة على الفلسفة فحسب ، بل يؤكدون كذلك ارتباط الثقافة بالسياسة . فالثقافة تخضع للسياسة . والاخيرة ـ أي السياسة ـ تنعكس في مجال الثقافة . وهنا لا بد من طرح السؤال الآتي : ماهي سياسة الثقافة ؟ يجيب د. انور عبد الملك عن هذا السؤال قائلا ان سياسة الثقافة هي : « ذلك اللون من السياسة الذي يعنى بتحديد دور النشاط الثقافي في عموم عملية التطور التاريخي لمجتمع معين . في مرحلة معينة من ذلك التطور : دوره الممكن . ادواره الممكن تحقيقها »(٢٠) . ويهاجم د. انور عبد

الملك اولئك الذين يتصورون أن تحقيق النهضة الثقافية في مصر اجراء ثقافي خالص لا يمت الى السياسة بصلة ، ويؤكد خضوع الثقافة للسياسة . يقول د. أنور عبد الملك : « انالذين يظنون أن النهضة الثقافية المصرية امر « ثقافي » محض ، وانه لا علاقة له بالسياسة والكفاح السياسي ، يخدعون انفسهم ويسيئون الى الثقافة »(٢١) .

واذا كان د. أنور عبد الملك يؤكد اعتماد النهضة الثقافية على السياسة ، فان د. طيب تيزيني يؤكد ريادة الثورة السياسية في التحويلات الجذرية في المجالات المختلفة ، وذلك لان الثورة الثقافية لا يمكن أن تضطلع بهذا الدور . يقول د. طيب تيزيني : « الثورة الثقافية لا يمكن ان تكون هي الرائدة في عملية التحويل الثوري في وطننا ، وانما الثورة السياسية تمارس دور الريادة هذا ، في الوقت الذي تتوطد فيههذهالثورة بامتزاجها بآفاق الثورة الثقافية الشاملة . وهي في دورهاالريادي هذا تستطيع استقطاب جميع قوى التقدم والثورة في الوطن العربي القادرة على انجاز مهمات التحويل الاجتماعي الانتاجي ، والقومي والثقافي »(٢٢) .

مما لا شك فيه ان الثقافة تتأثر بالسياسة تأثرا واضحا لا جدال فيه . واكثر من ذلك فان السياسة تعمل على توجيه الثقافة ، وذلك لان السياسة بالمعنى الواسع للكلمة لا يمكن ان تكون حيادية ازاء الثقافة . فالسياسة توظف الثقافة لخدمة أغراضها ، كما ان السياسة تستغل كأداة لنشر الثقافة . يقول احد الباحثين ان السياسة تمثل « أهم ذراع لنشر الثقافة بالعرض ، ووسيلة عظمى لتثقيف الجماهير العاملة »(٢٣) . والواقع ان العلاقة بين السياسة والثقافة ذات طابع جدلي . فهما يؤثران الواحد في الاخر ويشترط احدهما الاخر . ان السياسة الصحيحة لا تستطيع أن تستغني عن الثقافة نفسها ، وذلك لان الثقافة تمثل اساس السياسة . كما الثقافة لا تنمو ولا تزدهر بدونالسياسة . ومن حصيلة ما تقدم نرى أن انصار الاشتراكية العلمية قد بينوا بوضوح أهمية السياسة بالنسبة الى الثقافة ، غير انهم لم يكشفوا بنفس الدرجة من الوضوح اهمية الثقافة بالنسبة الى السياسة . ولعلهم ركزوا على اسبقية واهمية السياسة بسبب الصراع الذي كانوا يقودونه ضد دعاة تحقيق النهضة الثقافة باجراءات ثقافية خالصة ، الامر الذي ادى الى عدم ايلاء الثقافة الاهمية التي تستحق من حيث تأثيرها في السياسة . صحيح أن السياسة ذات تأثير بالغ الاهمية في الثقافة ، بيد ان الثقافة ليست مجرد مرآة تنعكس عليها السياسة . فالثقافة والسياسة تأثيرهما متبادل ، وتفاعلهما ليس احادي الاتجاه .

والسؤال الذي يلح على الذهن هو : ما هي الثقافة في تصور انصار الاشتراكية العلمية ؟

ما يسترعي النظر هو أن الثقافة ، كما يفهمها محمود امين العالم ، أقرب ، من حيث الدلالة والوظيفة ، الى الفلسفة . والجدير بالذكر أن هذا الفهم الخاص للثقافة لا نجده عند الآخرين من انصار الاشتراكية العلمية . فهو يقول عن الثقافة انها « رؤية عامة الى الحياة والمجتمع تتجسد في السلوك الفكري ، والوجداني والاخلاقي والذوقي للانسان »(٢٤) . ومن تكرار القول ان نسجل هنا ، ان الفلسفة أحد عناصر الثقافة ، وبالتالي فهي تسهم في تشكيلها لدى الانسان . بيد انه من غير الجائز ان نتصور الثقافة فلسفة . فلا محيد عن التمييز بينهما . وما أود أن اشير اليه فضلا عن ذلك هو ان محمود أمين العالم يؤكد أن لكل انسان ثقافته . يقول محمود أمين العالم : « ولكل انسان ثقافته ، مهما كان مستوى هذه الثقافة ، ومهما كانت طبيعة هذه الثقافة . فليس هناك انسان يخلو عقله ووجدانه وضميره وحسه من خبرة حية ، من وجهة نظر ، من موقف »(٢٥) .

ومن الحق ان نقول ان الدكتورين انور عبد الملك وطيب تيزيني يقدم كل منهما تعريفا للثقافة يختلف عن تعريف محمود أمين العالم لها . وما نلحظه أن الدكتور أنور عبد الملك يعرف الثقافة تعريفا متأثرا بالماركسية التي تميز بين البناء التحتي والبناء الفوقي . فالثقافة تنتمي ، من وجهة نظر د. أنور عبد الملك ، الى البناء الفوقي فقط الذي يقوم على أساس البناء التحتي . يقول : « الثقافة يمكن تعريفها بانها مجموعة الظواهر الاجتماعية التي تنتمي الى مستوى البناء العلوي فقط والتي تعتبر انعكاسا وتعبيرا مركبا عن القاعدة الاقتصادية للمجتمع : النظريات والمذاهب السياسية . والقانونية . والاجتماعية : الادب . الفنون . العلم . الفلسفة ، وقد يمتد تعريف الثقافة فيشمل عنصر الدين في حالة وجوده ، وهو في هذه الحالة يدخل عنصرا لا ــ عقليا ، ينتمي الى مجال الايديولوجية ... »(٢٦) .

مما سبق يتضح ان د. أنور عبد الملك يعرف الثقافة تعريفا اقرب الى ان يكون تعريفا للثقافة الروحية . والمحصل ان تعريفه يلغي الثقافة المادية ولا ياخذها بالحسبان . وما يقال عن تعريف د. أنور عبد الملك للثقافة ، يمكن أن يقال أيضا بنفس الدرجة من الصدق عن تعريف د. طيب تيزيني للثقافة* . يقول د. طيب

* اود ان اؤكد في هذا الصدد ان د . طيب تيزيني لا يلغي ما اطلق عليه الثقافة المادية . كل الذي يفعله هو انه يولي ما اسميه الثقافة الروحية اهمية خاصة على نحو يؤدي الى عدم معالجة الثقافة المادية. وللتدليل على ذلك يقول : «تستخدم هنا (مفهوم الثقافة) بمعناها الضيق ، اي بمعنى النشاط الذهني الذاتي الذي ينجزه الناس في حياتهم العامة. وهذا يشير الى اننا بعيدون عن ان نطرحها بمعنى النشاط الانساني الشامل ، الذهني الذاتي والمادي الموضوعي » (د. طيب تيزيني، من التراث الى الثورة ، الجزء الاول ، ط . ثالثة ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ ، ص ٨٣٢) . ويؤكد نفس المؤلف في كتاب اخر قائلا : « ونحن حين نحدد ما قصدناه هنا بالثقافة ، نكون قد حرفنا النظر عن طرح « الثقافة » بمعناها العام المتضمن الانتاج الانساني بمجموعه ، المادي والفكري والروحي » . (انظر الى رقم ١٣ في قائمة المراجع ، ص ٣٢٥) .

تيزيني : « ان ما نقصده هنا بـ « الثقافة » هو النشاط والانتاج الفكري والروحي الذي ينجزه اناس متميزون بكونهم نشطين ومنتجين في هذا الحقل »(٢٧) . وبما ان تعريفه للثقافة لايختلف جذريا عن تعريف د. انور عبد الملك فانه يحدد ما يعتبره اشكالا ثقافية على النحو الآتي : « فمن الاشكال الثقافية نعدد مثلا العلوم الطبيعية والاجتماعية والفلسفة والادب والفن » (٢٨) .

يتبين لنا مما تقدم أن الدكتورين انور عبد الملك وطيب تيزيني يقدمان تعريفا للثقافة اقرب الى ان يكون تعريفا للثقافة الروحية . وحرى بالاشارة في هذا المجال الى ان الثقافة عبارة عن مجموعة من القيم المادية والروحية التي هي حصيلة نشاط البشر في الحقلين المادي والروحي . ومع انه من الصعب الفصل والتمييز بين ما هو مادي وما هو روحي ، الا انه من الضروري ان نقوم بمثل ذلك . ومن المعلوم ان هذا التمييزفيالثقافة ترجع اصولهوتمتد جذوره الىتقسيم العمل الىماديوروحي (*)

ومن الجدير بالملاحظة ان مثل هذا التمييز نسبي . ففي مجالات الثقافة المادية يوجد على الدوام جانب روحي . فليس ممكنا صنع ادوات العمل والمواد على وجه العموم التي تلبي احتياجات الانسان المادية بدون فكرات . ومن جهة اخرى فان مظاهر الثقافة الروحية مثل الافكار ، الصورالفنية ، القواعد والوصاياالاجتماعية. . . تتجسد فياشكال مادية معينة مثل الكتب ، المخطوطات ، المناظر . . .

وما يلفت الانتباه في ظروف الثورة العلمية ـ التكنولوجية أن تكاملا أكبر فأكبر يتم بين الثقافتين المادية والروحية . فمن جهة نجد ان دلالة الجانب المادي للثقافة الروحية تنمو باستمرار . ومن جهة اخرى نلحظ أن دور الاساس المادي للثقافة يزداد على الدوام . واكثر من ذلك فمن الضروري التمييز بين الاساس المادي للثقافة ، والثقافة التي تشيد هذا الاساس . والواقع أن أسلوب الانتاج هو الاساس المادي للثقافة . أما الثقافة المادية فتتكون من القيم التي تعكس المستوى التقني للانتاج ومستوى الافادة من منجزات العلم والتقنية في الانتاج ومدى انسجام مهارات وخبرات العاملين مع مستوى التقنية والتنظيم العلمي للعمل . وبناء على ماتقدم فان التطور المادي ـ التقني للمجتمع يمثل الاساس الواقعي للتقدم في مجالالثقافةالمادية .

(*) يشير د. طيب تيزيني الى هذا التقسيم على النحو الاتي : « ان الثقافة بمعنى الانتاج الذهني الفكري المتميز ، هي حصيلة تقسيم العمل الى فكريوعضلي ، ذلك التقسيم الذي نشأ في نطاق تكون الطبقات الاجتماعية في اعقاب انحسار المجموعات البدائية المشاعية » . (من التراث الى الثورة ، ص٩٠٨).

ومن الجدير بالذكر ان الثقافة الروحية كذلك ، بالرغم من استقلالها النسبي ، تتحدد في تطورها بالتغيرات التي تحدث في الانتاج المادي . فتأثر الثقافة الروحية بالانتاج المادي ليس تأثراً مباشراً ، فهو يمارس تأثيره عبر قنوات كثيرة . يقول احد الباحثين : « ان تأثير الانتاج المادي في الثقافة الروحية يتم بواسطة العلاقات الاجتماعية والنظام السياسي للمجتمع الذي يتحدد طابعه باسلوب الانتاج»(٢٩) . وتؤكد باحثة اخرى الراي نفسه قائلة : « لا تتبع الثقافة الروحية في تطورها بصورة اوتوماتيكية تطور الانتاج المادي . فالتغيرات والانقلابات في هذه المجالات المختلفة للنشاط البشري لا يمكن أن تتطابق بصورة تامة في الزمن »(٣٠) .

والسؤال الآن هو : ما هي الثقافة الروحية ؟ تضم الثقافة الروحية نتائج النشاط الروحي للانسان مثل العلم ، الفلسفة ، الادب ، الفن ، الاخلاقيات ، السياسة ، القانون ، والمؤسسات المعنية مثل المعاهد العلمية ، المدارس ، المسارح ، المكتبات ، المتاحف .. ومستوى تطور الانسان الاخلاقي والجمالي والعقلي .

بعد هذا التوضيح للثقافتين المادية والروحية احسب انني استطيع أن اعود ثانية الى كلام انصار الاشتراكية العلمية على ماهية الثقافة .

يميز د. أنور عبد الملك داخل الثقافة بين فئتين من العناصر : عناصر تقوم على أساس العقل في المقام الاول ويطلق عليها اسم « الفكر » ، مثل النظريات والمذاهب السياسية والقانونية والاقتصادية والاجتماعية ، والعلوم الطبيعية والرياضية بفروعها والفلسفة بفروعها، وعناصر تقوم على أساس الوجدان في المقام الاول ، وان استعملت معطيات العقل والعلم الى درجة غير قليلة ، مثل الادب ، والفنون على اختلافها. والحق ان د. انور عبد الملك لم يعتبر الدين لا من الفئة التي تقوم على أساس العقل ولا من الفئة التي تعتمد على أساس الوجدان . فهو ، أي الدين ، عنصر لاعقلي ، لا علمي ، ينتمي الى مجال الايديولوجيا . واذا كان د. انور عبد الملك واضحا في موقفه من موقع الدين في الثقافة ، فان محمود امين العالم و د. طيب تيزيني لم يشيرا الى موقعه قط . اما د. حسين مروه فقد اتخذ موقفا وسطيا عندما بين العناصر والمكونات المحددة لوجود الثقافة . وفي هذا السياق يؤكد أن الدين احد مقومات الثقافة . يقول د. حسين مروه : « وينبغي أن نخص بالذكر هنا الفكر الفلسفي والفكر الديني كعنصرين مقومين بين مقومات الهيكلية الثقافية »(٣١) . وعلى الرغم من الخلاف بين الدكتور أنور عبد الملك وحسين مروه حول موقع الدين ، فمما لا شك فيه ان الدين يكون تارة ولا يكون تارة اخرى عنصراً من عناصر الايديولوجيا ، التي تعتبر عنصرا عاما للغاية في كل ثقافة وذلك لانها تعبر عن الوعي الذاتي الطبقي بصورة أعمق من

غيرها من اشكال التعبير الاخرى . والواقع ان الايديولوجيا تمثل الاساس الفكري للثقافة ، انها لبها . ولقد صدق أحد الباحثين عندما قال ان « الايديولوجيا توجه الثقافة حياتيا وسياسيا وفلسفيا - اخلاقيا وتدرجها بوعي في مهام الوقت العامة »(٣٢) .

وفي ضوء ما تقدم نقول ان موقف الايديولوجيا من الدين هو الذي يحدد وجود الدين كعنصر من عناصرها ، وبالتالي كونه مظهرا من مظاهر الثقافة الروحية في المجتمع . والملاحظ أن د. حسين مروه يعتبر الايديولوجيا جزءا عضويا من الثقافة. كما يؤكد انها « فكر طبقي المضمون ، طبقي التوجه ... »(٣٣) . واكثر من ذلك فان « هذا الواقع نفسه يحكمه قانون موضوعي يقضي بتغليب ايديولوجية الطبقة المسيطرة اقتصاديا وسياسيا على ايديولوجية الطبقات المسودة .. »(٣٤) . ولعلنا لا نأتي بجديد اذا قلنا ان د. حسين مروه في كلامه على الايديولوجيا متأثر بالفكر الماركسي . وللتدليل على ذلك يكفي ان نشير الى ما قاله ماركس بخصوص هيمنة الطبقة المسيطرة على المجتمع كله . يقول : « تعتبر افكار الطبقة المسيطرة في كل عصر افكارا مهيمنة . وهذا يعني ان تلك الطبقة التي تمثل القوة المادية المهيمنة في المجتمع هي في الوقت نفسه قوته الروحية المسيطرة ».(٣٥) وفي صفحة لاحقة يؤكد رأيه قائلا : « الطبقة التي تكون في حوزتها وسائل الانتاج المادي ، تستحوذ ، الى جانب ذلك ، على وسائل الانتاج الروحي ... » (٣٦) . مما لا شك فيه ان الايديولوجيا في أي مجتمع طبقي تحمل طابعا طبقيا . فهي « لا تنشأ الا لتعبر اراديا ، أو بصورة مقصودة ، عن حاجات فئة اجتماعية ، أو طبقة ، أو زمرة ما ذات ثقافة خاصة بها »(٣٧) . والطبقة المهيمنة تحاول أن تجعل من ايديولوجيتها الايديولوجياالسائدة. والحق أن الايديولوجيا تمثل نسقا متماسكا من الآراء والافكار السياسية والاخلاقية والفلسفية والجمالية ... التي تعبر عن وضع ومصالح واهداف طبقة اجتماعية معينة موجهة للمحافظة على النظام الاجتماعي الكائن أو تغييره . وتكون الايديولوجية في الغالب نتاج النشاط الواعي الذي يتطلب جهودا خاصة من فئة الايديولوجيين .

فاذا انتقلنا الى محمود امين العالم ، رأينا انه يعتبر الثقافة ذات طبيعة غير متجانسة ، سواء في صورتها المتصلة عبر التاريخ البشري ، أو في صورتها المحققة في كل مجتمع من المجتمعات . ويؤكد ان لكل مجتمع ثقافته القومية الخاصة به « برغم اختلاف الطبقات الاجتماعية واحتدام مصالحها في صراعات متنوعة داخل المجتمع الواحد »(٣٨) . ان الدارس للثقافات لا يملك الا الاتفاق مع وجهة نظر محمود أمين العالم . فمما لاشك فيه ان لكل شعب من شعوب العالم ثقافته التي ينفرد بها وتميزه عن الشعوب الآخرى وتعكس خصوصيته . ومصداقا لوجهة النظر هذه

يقول احد الباحثين : « ثقافة كل شعب تكتسب ، مع الزمن ، خصائص وسمات خاصة تميزها عن ثقافات الاخرين جميعا ، وتسبغ عليها خصوصية لا مثيل لها »(٣٩). ان طبقية الثقافة ينبغي ألا تفهم على نحو ينفي وجود « لغة » ثقافية مشتركة بين أفراد المجتمع الواحد . فطبقية الثقافة لا تعني ، بالضرورة ، انها تتعارض مع قوميتها وتؤدي الى الغائها . يقول أحد الباحثين : « لا ينفي الطابع الطبقي للثقافة الروحية في المجتمع الطبقي انه يوجد جامعة معينة للثقافة والتقاليد والخبرات الثقافية تخص هذا او ذاك من الشعوب ، هذا أو ذاك من العصور ككل »(٤٠) .

يظهر لنا مما تقدم ان الشعوب والعصور تتميز بثقافاتها ، فكل ثقافة تكشف عن هوية شعب من شعوب أو عصر من العصور . وهنا يصدق قول أحد الباحثين : « ولكل شعب ولكل عصر ثقافته ، وان اختلفت الصورة قليلا من فرد الى فرد»(٤١). وجدير بالذكر في هذا السياق ، ان نقول أن محمود أمين العالم لايفهم من اعترافه بوجود ثقافة قومية خاصة بكل مجتمع غياب التناقض والتمايز الموجودين في المجتمع الطبقي . ان الثقافة ذات طبيعة غير متجانسة ، وبالتالي ، فاننا نجد « في قلب هذه الثقافة ، ثقافاتمتنوعة متناقضة ، متمايزة ، تتعدد مستوياتها ودلالاتها تعبيراً عن الطبقات والمصالح الاجتماعية في المجتمع القومي الواحد »(٤٢) . وبالاختصار فان الثقافة القومية الواحدة تمثل وحدة أضداد ، وتعبر عن الصراع الدائر بين الثقافات التي تعكس مصالح طبقات وفئات المجتمع الواحد . أن الثقافة القومية التي تشكل عبقرية المجتمع الخاصة ، واصالته المتميزة ، واسلوبه الخاص في ممارسة الحياة ما هي الا « خلاصة الصراع الدائر في قلب المجتمع الواحد (الذي) يميز تاريخه الخاص ، ويعبر عن التيار الاجتماعي السائد فيه »(٤٣) .

ولعلنا لا نأتي بجديد اذا اكدنا ان راي محمود امين العالم في ان الثقافة القومية الواحدة ليست متجانسة ينسجم تمام الانسجام مع ما يقولهانصار الاشتراكية العلمية في شتى بلدان العالم . ويكفي دليلا على ذلك ان نذكر ما يقوله أحد الباحثين المعاصرين الذين ينتمون الى مدرسة الاشتراكية العلمية . يقول : « توجد في المجتمع المنقسم الى طبقات متنازعة ومتصارعة ثقافات متعارضة يخص كل واحدة منها نظامها من القيم »(٤٤) .

وحري بالاشارة في هذا المجال الى ان د. طيب تيزيني يؤكد جوهر ما يقوله محمود أمين العالم . فهو يعترف بـ « وجود اطار ثقافي عام لمجموع الشعب » في المجتمعات التي ما تزال العدالة فيها مغتصبة ، بالرغم من أن هذه المجتمعات تضم

بشكل عام ثقافتين ، احداهما هي ثقافة التقدم والمستقبل ، والاخرى هي ثقافة التخلف أو الوقوف عند حد معين من التطور .

انه لخطأ فاحش أن يستنبط المضمون كله للثقافة من مصالح هذه أو تلك من طبقات المجتمع ، وذلك لان مضمون الثقافة في أي مجتمع يضم بهذا القدر أو ذاك عناصر انسانية عامة . « ففي الثقافة الروحية للمجتمع المنقسم الى طبقات يقترن الطبقي بالانساني العام ... »(٤٥) . واكثر من ذلك فان الثقافة القومية الواحدة ليست مجردة مما هو انساني يهم الانسان من حيث هو انسان بغض النظر عن الزمان والمكان . ومن الثابت ان كل ثقافة تتطور باقامة صلات متبادلة وثيقة مع ثقافات الشعوب الاخرى . ومن المحقق انه توجد في ثقافة كل شعب بقدر كبير أو صغير عناصر من الثقافات الاخرى . ولو امعنا الفكر قليلا لوجدنا أن ثقافة كل شعب عبارة عن اتحاد عضوي مما هو اصيل ومقتبس . وليس نادرا ان نجد صعوبة في التمييز بين ما هو محلي وعالمي ، بين ما هو خاص وعام ، بين ما هو داخلي وخارجي . « وصحيح ان احدا لا يستطيع أن ينكر اصطباغ الثقافات بلون محلي مستمد من الظروف الخاصة للمجتمع الذي تظهر فيه ، ولكن هذه النواتج المحلية ذاتها تنطوي ، في كل الاحوال ، على جانب انساني لا يصح التغاضي عنه »(٤٦) .

وحري بنا بعد هذا ان نقول ان انصار الاشتراكية العلمية في الفكر العربي المعاصر لا يكتفون بتأكيد طبقية وقومية الثقافات فحسب ، بل يؤكدون كذلك الطابع الانساني لها . والواقع ان انسانية الثقافة « تعبر عن جوهر الانسان من حيث انه انسان . وتعبر عن وحدة قوامه البشري ، كانسان يعيش ، ويفكر ويعمل ويحلم ويتعاطف ويحب ويتطلع الى حياة أكثر سعادة ، واشد فعالية ، وافسح معرفة ، وارحب حرية وابداعا وتجددا »(٤٧) . ومن الطريف الاشارة الى ان محمود أمين العالم ، بالرغم من تمييزه بين طبقية وقومية وانسانية الثقافة ، الا انه لا يعترف بوجود حواجز فاصلة بينها . فالثقافة الانسانية ، بالنسبة اليه ، هي « خلاصة التجارب القومية والاجتماعية عبر التاريخ » . انها « العصير المركز النقي للعمل البشري كله » . اما الثقافة القومية الواحدة فهي ، من وجهة نظره ، « ثمرة التلاحم بين الثقافات القومية المختلفة ، وتلاقحها ، عبر التاريخ العام للبشرية » ، فضلا عن انها تمثل « خلاصة الصراع الدائر في قلب المجتمع » .

وعلاوة على ما تقدم فان محمود أمين العالم يفسر التداخل والتشابك بين جوانب الثقافة الطبقية والقومية والانسانية باعتبار الثقافة « ذات طبيعة مثلثة » . ومن الجدير بالملاحظة ان د. حسين مروه يفهم الثقافة على نحو مختلف بعض الشيء .

فاذا كان محمود أمين العالم يميز بين طبقية وقومية وانسانية الثقافة ، فان د. حسين مروه يعالج الثقافة مستخدما مقولتي « العمومية » و « الخصوصية » . فالثقافة ، كما يقول د. مروه ، « مرتبطة عضويا وديناميكيا بكل قوى الحياة التى تنتج تاريخ نمو المجتمع وتطوره المادي والروحي »(٤٨). ومعنى ذلك ان قوى المجتمع الانتاجية المادية والروحية تمثل خصوصية الثقافة . اما عموميتها فتعني أن الثقافة ترتبط « ارتباطا عضويا وديناميكيا أيضا بقوى النشاط الاجتماعي خارج هذا المجتمع كذلك ، أي بسائر القوى المنتجة لتاريخ التطور الماديوالروحي للعالمكله ... »(٤٩). والمهم أن د. حسين مروه يؤكد أن الخصوصية والعمومية في الثقافة لا تنفصلان . فهما متحدتان اتحادا لا سبيل الى فكه ، لان مثلذلك ، اذا حدث ، يؤدي الىلاتاريخية الثقافة ، الى ان تفقد الثقافة مقوماتها . ومن المؤكد ، بالنسبة الى د. مروه ، أن البشرية لم تعرف مجتمعا انقطعت فيه الصلة بين خصوصية الثقافة وعموميتها . « فتاريخ البشرية لم يعرف قط مجتمعا انغلقت عليه – كليا ونهائيا – ابواب التواصل بين « خصوصيته » التاريخية و « عمومية » العلاقة الموضوعية التى توحد كل « الخصوصيات » المتعددة المتنوعة »(٥٠) .

لعل من النوافل القول ان الشعوب غير منعزلة عن بعضها البعض ، ففي كل العصور نجد ان التأثير المتبادل للشعوب والثقافات في بعضها البعض عملية مستمرة تضعف احيانا وتشتد احيانا اخرى . ونزيد في التحديد فنقول انه صعب للغاية ان نسمي شعبا تطورت ثقافته في عزلة تامة ومطلقة عن ثقافات الشعوب الاخرى . فمن المؤكد انه لا توجد ثقافات منعزلة بصورة مطلقة زمانيا ومكانيا . وهنا يصدق راي أحد الباحثين عندما يقول « ان التفاعل المتبادل للشعوب والتأثير المتبادل لثقافاتها ، ناموس العملية التاريخية – الثقافية »(٥١) .

وبالاجمال يمكن القول : ان الثقافة في المجتمع المنقسم الى طبقات ، غير المتجانس ، تتكون من عناصر طبقية وقومية وانسانية . بكلمات اخرى : الثقافة في المجتمع الطبقي تتسم بسمات تبدو متناقضة ، وذلك لانها تشكل وحدة اضداد . وبناء على ذلك فطبقية الثقافة لا تعني تجردها مما هو قومي ، كما ان انسانية الثقافة لا تنفي قوميتها . ومصداقا لهذا الراي يقول فيلسوف متحمس جدا للاممية: « الثقافة العالمية ليست بلا قومية »(٥٢) .



المراجع

(١) أ . ك . اووليدوف ، نحو تحديد خصوصية الثقافة كظاهرة اجتماعية ، مجلة العلوم الفلسفية موسكو ، العدد ٢ سنة ١٩٧٤ ، ص ٢٩ .

(٢) باليو وزالوبين ، الشعب والثقافة في كتاب « الثقافة ، الابداع ، الانسان » ، موسكو ١٩٧٠ ، ص٣٦

(٣) ى . ف . بوغولوو بوفا ، الثقافة والمجتمع (مسائل التاريخ والنظرية) ، دار نشر جامعة موسكو ، ١٩٧٨ ، ص ٢٠٣ .

(٤) مجموعة من المؤلفين ، اسس نظرية الثقافة الماركسية ـ اللينينية ، موسكو ، ١٩٧٦ ، ص ١٧ .

(٥) الموسوعة السوفياتية الكبرى ، ط ٢ ، مجلد ٢٤ ، ص ٣٠ .

(٦) د. انور عبد الملك ، دراسات في الثقافة الوطنية ، منشورات دار الطليعة، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١٩ .

(٧) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٨ ، ٩ ، ١٠) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(١١) محمود امين العالم ، الثقافة والثورة ، دار الاداب ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ١٧٤ .

(١٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(١٣) د. طيب تيزيني ، حول مشكلات الثورة والثقافة في « العالم الثالث » الوطن العربي نموذجا ، طبعة ثانية ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٧٣ ، ص ٣٤٤ .

(١٤) مرجع رقم ٦ ، ص ١٩٠ .

(١٥) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(١٦) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(١٧) المرجع رقم ١١ ، ص ١٨٨ .

(١٨) المرجع السابق ، ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

(١٩) المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٢٠) المرجع السابق ، ص ٨ .

(٢١) المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(٢٢) المرجع رقم ١٣ ، ص ٣٤٦ .

(٢٣) أ.م. روميا نتسيف، الافكار اللينينية حول ترابط السياسة والثقافة ، مجلة « مسائل الفلسفة » ، موسكو ، العدد ١ ، ١٩٧٥ ، ص ٣٣ .

(٢٤) المرجع رقم ١٠١ ، ص ١٦٢ .

(٢٥) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢٦) المرجع رقم ٦ ، ص ٢٨٧ .

(٢٧) المرجع رقم ١٢ ، ص ٣٢٥ .

(٢٨) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢٩) المرجع رقم ٤ ، ص ٤١ .

(٣٠) المرجع رقم ٣ ، ص ١٦٥ .

(٣١) اتحاد الكتاب اللبنانيين ، الثقافة الوطنية في لبنان ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٠ .

(٣٢) مجموعة من المؤلفين ، الصراع الايديولوجي والثقافة المعاصرة ، دار « العلم » للنشر ، موسكو ، ١٩٧٢ ، ص ١٧ .

(٣٣) المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٣٤) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٣٥) ك.ماركس وف. انجلز ، مجموعة المؤلفات ، المجلد ٣ ، ط ٢ ، ص ٤٥ (باللغة الروسية) .

(٣٦) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٣٧) د. حافظ الجمالي ، الايديولوجيا والفلسفة ، مجلة الفكر العربي ، بيروت العدد ١٥ ، أيار (مايو) حزيران (يونيو) ، ١٩٨٠ ، ص ٨ .

(٣٨) المرجع رقم ١٠١ ، ص ١٩٧ .

(٣٩) المرجع رقم ٤ ، ص ٤٩ .

(٤٠) غ.ب. فرانتسوف ، الفلسفة وعلم الاجتماع ، دار « العلم » للنشر ، موسكو ، ١٩٧١ ص ٥٩٦ .

(٤١) محمود محمود ، نظرة جديدة الى معنى الثقافة ، مجلة الفكر المعاصر ، القاهرة ، العدد ٦٢ ، ابريل ١٩٧٢ ، ص ١١ .

(٤٢) المرجع رقم ١٠١ ، ص ١٦٨ .

(٤٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٤٤) المرجع رقم ٤ ، ص ٢٨ .

(٤٥) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٤٦) د. فؤاد زكريا ، اراءنقديةفي مشكلاتالفكر والثقافة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهـرة ، ١٩٧٥ ، ص ٤٢ .

(٤٧) المرجع رقم ١٠١ ، ص ١٦٧ .

(٤٨) المرجع رقم ٣١ ، ص ٧ .

(٤٩) المرجع السابق ، ص ٨ .

(٥٠) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٥١) المرجع رقم ٤ ، ص ٥٠ .

(٥٢) ف.ا. لينين ، مجموعة المؤلفات الكاملة ، مجلد ٢٤ ، ص ١٢٠ (باللغة الروسية) .



الرّدافـــة

على ضوء بعض العلاقات القبلية في شمال شرق الجزيرة العربية قبل الإسلام
(في القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلادي)

د. صالح دراركة
(الجـامعـة الاردنيـــة)

المقدمـــــة :

تتصل الردافة بالكيانات السياسية العربية التي قامت في شمال شرقي الجزيرة العربية قبل الاسلام ، لذلك سيكون اعتماد هذه الدراسة على المصادر الاسلامية ، لان السجلات البيزنطية والسريانية القديمة تخلو مما يمكن ان يوفر مادة يقوم عليها البحث ، ماعدا اشارات مقتضبة جاء بها (تنوز وبروكوبيوس وجون مالالاس وثيوفانس ويوشع العمودي (١)) . وفي مجال الحفريات نجد ان نقوشا قليلة قد عثر عليها في المنطقة الوسطى والشمالية من الجزيرة العربية ، وهي رغم اهمية بعضها لاتكشف الا قليلا من تاريخ الجزيرة العربية القديم . وسنعرض الى ما يهم دراستنا من هذه النقوش اثناء بحثنـــا(٢) .

والمصادر الاسلامية التي تعود الى فترة متأخرة ــ القرن الثاني الهجري ومابعده ــ تعتمد في بعضها علـــى الرواية الشفوية في نقــل اخبار عرب قبل الاسلام ، وفي ذلك مجال خصب للزيادة والنقصان ومعايب اخرى لاتخفى على الدارسين(٣) . ومن ابرز رواة هذه الحقبة ابن الكلبي « هشام بن محمد ت ٢٠٤ او ٢٠٦ هـ » عالم الانساب واخبار العرب وايامها ووقائعها ومثالبها ، والذي شكل موردا هاما من موارد اخبار العرب قبل الاسلام ، ولاسيما الاخبار المتعلقة بمدينة الحيرة وحكامها (٤) . وقــد ضاع الكثير من مؤلفات ابن الكلبي مثل « كتاب ملوك كنده » و « الكلاب الاول » و « الكلاب الثاني »(٥) وهذا يزيد البحث صعوبة وان كان ابن الكلبي قد قال عن نفسه : « كنت استخرج اخبار العرب وانسابها آل نصر بن ربيعه ومبالغ اعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة وفيها ملكهم وامورهم كلها »(٦)

ويبدو ان ابن الكلبي استفاد من نقوش وتواريخ الحيرة وهـذا ما اكسب رواياتـه قيمة خاصة لاسيما ان بعض اقواله قد ايدتها البحوث الحديثة كاكتشاف لوح امرىء القيس بن عمرو اللخمي(٧) . ومع هـذا فهو متهم بالكذب والتزوير وقيل عنـه « ليس بثقة » (٨) . ولاشك أنه قد كان في الحيرة كتابات ، وهي التي تحولت في القرن السادس الميلادي الى مركز مزدهر من مراكز النصرانية ، وانتشرت فيها الاديرة والاسقفيات ، ولاشك ايضا بأنه كان لاهل الحيرة معلومات عن الروايات الفارسية(٩) . غير ان مايؤسف له ان روايات ابن الكلبي متناقضة حتى فيما يتعلق بالخبر الواحد ، كما نجد في بعضها اغراقا في المبالغة والخيال ، وهذا يلمس في روايات أهل الجنوب بشكل عام ، ولعـل هذا عائدالىمحاولة رواة عرب الجنوب منافسة عرب الشمال الذين تفوقوا عليهم بالنبوة والاسلام ، كما كان لرواة المسلمين دور في تقليل شأن أهل الجاهلية بسبب التحول الكبير الذي جاء به الاسلام . وقد يكون المسؤول عن اختلاف روايات ابن الكلبي رواته المختلفين(١٠) .

ويبدو أن أخبار القبائل والامارات القبلية في الشمال اكثر وضوحا من اخبار عرب الجنوب ، وربما كان ذلك عائدا الى عناية المؤرخين السريان واليونان والفرس بهذه المنطقة منجهة وقربها من الاسلاممنجهةاخرى.ولهذا يرى (الثايم F.Altheim) ان اخبار شمال شبه الجزيرة أقرب الى الواقع التاريخي(١١) .

ويقال عن الشعر المنسوب للجاهلية ، كمادة تاريخية ، ما يقال عن الرواية ، فعلاوة على انه انتقل بالروايـة فهو مجال خصب للانتحال والمبالغة والعاطفة والخيال ، كما أن عمر الشعر قصير لايزيد على العشرين ومابة عام قبل الاسلام اي مابين ٥٠٠ ــ ٦٢٢ م(١٢) . وهناك من ينكر وجود شعر جاهلي جملة وتفصيلا (١٣) ، غير ان مايقال عن عيوب الشعر الجاهلي لا تنفي وجوده ، لان الشعر ظاهرة لازمت العرب وذكرها القرآن الكريم ولاسبيل الى نكرانها ، وان كان من واجب المؤرخ ان يتعامل مع هذه المادة بحذر وانتباه ، فالشعر لايستغنى عنه لمعرفة احوال العرب قبـل الاسلام ، وبخاصة عرب الشمال لأن ما وصلنا من شعر اكثره منسوب لهم .

ومن المواد التي يمكن للمؤرخ الاعتماد عليها غير النقوش والآثار « النميات » ولم يعرف عرب الشمال قبل الاسلام عملة خاصة بهم ، اذ كانوا يتعاملون بنقود كسرى وقيصر ، اي بالدراهم الفضية والدنانير الذهبية (١٤) . كما كانت لهـم أساليبهم الخاصة في البيوع والمقايضات(١٥) .

ورغم كثرة العقبات التي تواجه الباحث في تاريخ العرب قبل الاسلام فقد كتب فيه الكثير غربا وشرقا ، ومن بين الدراسات الحديثة القريبة من موضوع بحثنا دراسة

لروثشتاين(١٦) عن تاريخ السلامة اللخمية ، ودراسة لجونار اولندر(١٧) عن ملوك كنده ودراسة ثالثة لكستر (١٨) عن الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية . وتأتي اهمية هذه الدراسات لصلتها بالحيرة التي نشأت الردافة فيها ، وقد أفاد هؤلاء الدارسون من المصادر العربية والسريانية واليونانية ، ومع هذا لا تلقي هذه الدراسات اضواء على موضوع الردافةاللهم ان كستر مر بها مرورا عابرا ، ولا تخلوهذه الدراسات من بعض الهنات(١٩) التي أخذت عليها ، ويشفع لهم في ذلك ماذكرناه عن طبيعة البحث في تاريخ العرب قبل الاسلام . وتبقى هذه الدراسات ذات قيمة هامة حتى يظهر جديد في موضوعاتهـا .

وفي العربية كتابات كثيرة عن عرب قبل الاسلام ليس هنا مجال التعرض لها،واما المصادر العربية الاولية التي ذكرت الردافةفقد تردد ذكرها أثناء البحث(٢٠) . وانما اردت بهذه المقدمة الموجزة التعريف ببعض مصادر الدراسة والصعوبات التي تعترض الباحث في أحوال هذه الفترة ، فالردافة من ظواهرها ولم يعرض لها من قبل ، ولعل استقصاء تاريخها ونشأتها ودورها في العلاقات القبلية يضيف جديدا الى تاريخ حقبة هامة من تاريخنا ، طالما انه من المتعذر حاليا كتابة تاريخ كامل وصادق لعرب قبل الاسلام ، وهذا لايغني عن البحث في جوانب هذا التاريخ فهو القاعدة التي ترتفـع فوقها بنيان التاريخ العربي العـام .

الردافة ودورها في العلاقات القبليـة

والردافة لغة تعنى التبعية ، والرديف هو التابع ـ وجاء القوم ردافى اي يتبع بعضهم بعضا(٢١) ، وفي هذا المعنى قول خزيمة(٢٢) بن مالك بن نهد :

اذا الجوزاء اردفـت الثـريا　　　ظننت بآل فاطمـة الظنونـا

وللردافة في اللغة معان غير ماذكرنا(٢٣) . وارداف الملوك فيالجاهلية الذين كانوا يخلفونهم في القيام بأمر المملكة(٢٤) . وفي كتاب اسرار البلاغة (٢٥) «ارداف الملوك في الجاهلية الوزراء في الاسلام » وشبيه بهذا المعنى قول لبيد(٢٦) الشاعر :

وشـهدت اندية الافاقـة عاليـا　　　كعبي وارداف الملوك شـهود

وفي المحكم:«هم الذين كانوا يخلفونهم نحو اصحاب الشرط في دهرنا هذا»(٢٧)وكان الردف « بكسر فسكون » هو الذي يجلس على يمين الملك فاذا شرب الملك شرب الردف قبل الناس واذا غزا الملك قعد الردف في موضعه وكان خليفته على الناس حتى يرجع من غزاته(٢٨) .وقد نشأت هذه الوظيفة في النصف الثاني من القرن

السادس الميلادي في بلاط الحيرة . وهي تعكس حالة ضعف ملوك الحيرة وحاجتهم الى تأييد القبائل فمنحوا أحد شيوخ القبائل القوية والقريبة منهم هذا الامتياز ليكونوا عونا لهم في تأييد سلطانهم كما سيتبين أثناء هذه الدراسة . واصبحت الردافة مجالا للفخر فهذا رجل من بني تميم يفخر بها قائلا :

ومن ينـاد آل يربـوع يجب　　　بأتك منهم خير فتيان العـرب

المجلس الأيمن والردف المحب(٢٩) .

وقد ذكرت المصادر عددا من القبائل التي فاز رؤساؤها بهذا المركز ذي الخصائص المالية والعسكرية(٣٠) ، علاوة على كونه مظهرا من مظاهر الشرف والرياسة . والقبائل التي كانت لها ردافة الملوك في الجاهلية هي ؛ تميم ، وبكر وتغلب ابني وائل بن ربيعه ، وضبه بن اد وعامر بن صعصعه من هوازن(٣١) . وكانت منازل هذه القبائل تمتد ما بين منطقة الحجاز ومنطقة الحيرة في نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلادي . فقبيلة تميم – التي اشتهرت بالردافة اكثر من غيرها – كانت تقطن مابين وادي الباطن الى البحرين واليمامة ، وقد تمتد جنوبا الى واحة يبرين وشمالا الى غرب الفرات بموازاة الحيرة(٣٢) . ومن اشهر بطون تميم « يربوع » الذي كانت فيه الردافة، ومن منازله الحزن أو الحزل(٣٣) وحليمة(٣٤) ، واعشاش(٣٥) وروضة الخيل(٣٦) . ويتضح من هذه المواقع ان منازل تميم بعامة ويربوع بخاصة انما تقع على طرق القوافل التي تربط مابين جنوب وغرب الجزيرة وشرقها وشمالها ، وتعتبر اليمامة في الوسط عقدة هذه المواصلات التي كانت السبب الاكبر في التنافس بين الدول القوية حينذاك للسيطرة على الجزيرة ؛ كما كانت سببا في التنافس بين القبائل للسيطرة عليها ايضا(٣٧) .

ويجاور تميم في الشمال اسد وفي الجنوب الغربي باهلة وغطفان وكذلك امتزجت تميم في منازلها ببطون من عبد القيس وحنيفه وخاصة على الساحل الشرقي والجنوبي ، كما امتزجت ببكر وتغلب في الشمال(٣٨) .

وقد برز دور تميم المهم في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، نتيجة لضعف امراء الحيرة ، واضطراب السلطة في بلاد فارس ، ثم بسبب تنافس الحيرة ومكة في كسب ولاء هذه القبيلة ، وفي سبيل هذه الغاية منحها ملوك الحيرة امتياز الردافة ، وجعل لها زعماء مكة الايلاف واشركوهم في النشاط المكي(٣٩) . وقد انعكس دور تميم هذا على نفوذهم في الاسواق مثل « عكاظ » و « دومة الجندل » كما وتحالفت

مجموعة من القبائل مثل كلب واسد وبطون من مضر مع تميم وذلك بحكم المصلحة والجـوار(٤٠) .

ويؤكد ابن سعيد الاندلسي أهمية تميم قائلا : « كان لهم في الجاهلية صيت عظيم، وكان منهم من يأخذ المرباع كما يفعل الملوك، وكانت لهم الافاضة بالناس من عرفات، وفيهم يقول الرسول (ص) : « بنو تميم هم اشد امتي على الدجال»»(٤١) . ويفخر جرير الشاعر بقومه قائلا : «نحن أهل الذهب الاصفر والاحمر المعتصر ــ يعني الخمر ــ نخيف ولانخاف ونطعم ولانستطعم ، ونحن حي لقاح» (٤٢ .

وتعتبر تميم من البيوتات المعدودة عند العرب ، وتشمل بطونا عدة فيهـا العدد والشرف ، فقد نقل ابو عبيده عن عمرو بن العلاء ، ان بيوت العرب بعـد بيت هاشم ابن عبد مناف في قريش ، ثلاثة بيوت ، ومنهم من يقول ان بيوت العرب اربعة : اولهـا بيت آل حذيفة بن بدر الفزاري ــ بيت قيس ــ وبيت آل زراره بن عدس الدارميين ــ بيت تميم ــ وبيت آل ذى الجدين بن عبد الله بن همام ــ بيت شيبان ــ وبيت بني الديان من بني الحارث بن كعب ــ بيت اليمن .

وأما ابو البقاء ــ صاحب المناقب المزيديه ــ فيجعل البيوت ثلاثة ، اولها : « بيت تميم ، بنو عبد الله بن دارم ومركزه بنو زراره ، وبيت قيس فزاره ومركزه بنو بدر ، وبيت اليمن وهم بنو الحارث بن كعب ومركزه بنو عبد المدان ، وقال آخرون ان البيت الثالث في معد ايضا وهو بيت شيبان بن ثعلبه بيت بكر بن وائل ومركزه بنـو قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذي الجدين »(٤٤) . وتبدو قوة تميم من خلال ايامها مع القبائل العربية القوية كشيبان وتغلب واحرازها النصر في اغلب الحروب(٤٥) . وظل بنو تميم يعتزون بقوتهم ويفاخرون بماضيهم حتى في ظل الاسلام ، فقد خاطب عطارد بن حاجب بن زرارة زعيم تميم الرسول (ص) عندما وفد عليه مع وفد تميم قائلا « الحمد لله الذي له الفضل علينـا وهو أهله الذي جعلنا ملوكا ، وجعلنا اعز أهل المشرق . . »(٤٦)

وفي مثل هذا المعنى يقول الزبرقان(٤٧) :

نحن الملـوك فلا حي يقاربنـا   منا الملوك وفينا يؤخذ الربع

ويستفاد من المصادر ان الردافة بدات اولا في بطن يربوع من تميم ، وتتصل هذه الظاهرة بقيام امارة الحيرة وبالسياسة الفارسية المتعلقة بالمنطقة العربيـة وبالعلاقات مع بيزنطه ، كما أن لها علاقة بحركة القبائل العربية نحو الشمال والشمال

الشرقي على طول الحدود الفارسية ، وكانت هذه الحركة واضحة وكثيفة في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الميلادي ، ولهذه الحركة البشرية نحو العراق علاقة ايضا بضعف النفوذ الفارسي نتيجة الاضطرابات الداخلية حتى ان الفرس كانوا يضطرون الى دفع الاتاوة لهذه القبائل(٤٨) .

وتعلل المصادر العربية اسباب الهجرة القبلية نحو جنوب العراق ومنطقة الفرات بدافع الجدب والجوع ؛ فقد ذكر الطبري أن بلاد العرب كانت ادنى البلاد الى فارس وكانوا من احوج الامم الى تناول شيء من معايشهم وبلادهم لسوء حالهم وشظف عيشهم(٤٩) . فسار جمع عظيم نحو بلاد فارس اما سلما او بالاغارة ، وفي أغلب الاحيان يكون دخول القبائل العربية أرض العراق أو استقرارهم على الحدود في حالات الاضطراب داخل فارس ، وقد تميزت دولة الفرس في نفس الفترة ــ النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ــ بالصراع على العرش والاضطرابات المذهبية والحروب مع الروم(٥٠) .

يعلل ستـ.انوس ــ مؤلف كتاب بيزنطه في القرن السابع الميلادي ــ حركة القبائل هذه بقوله : « ان القبائل التي اتجهت صوب الحدود الفارسية سرعان ما اصبحت تحت التأثير الفارسي . . حيث كانت القبائل تبحث عن مراع مناسبة لقطعانها في كل صيف ، وهذه حاجة سنوية ماسة . . وتحصل هذه القبائل على معونات مالية ــ اما نقدا او نوعا ــ من الدول التابعة لها ــ فارس او بيزنطة ــ وذلك مقابل حماية حدود هاتين الدولتين من هجمات القبائل الاخرى . . واذا ما تأخر دفع هذه المعونات فلا شيء يضمن هذه القبائل من الاغارة على أراضي الدولة . .»(٥١) ويصف ابو البقاء حالة الجوع عند القبائل العربية الشمالية قائلا : « ان بلاد مضر اجدبت سبع سنين متوالية حتى هلكوا واكلوا الوبر بالدم فسموه « العلهز » وبسبب هذا القحط وفد حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد من بطن دارم من تميم على كسرى واستأذنه ان يسمح لقومه بدخول السواد »(٥٢) . وهذه الرواية تفيد دخول بطون من تميم الى فارس سلما أي منطقة السواد « حول الكوفة » وهذا يشير الى ان الفرس كانوا يعملون على استخدام العرب وفقا لمصالحهم ، غير ان طاعة العرب للفرس لم تكن دائمة ، فقد ذكرت المصادر ان العرب الذين دانوا للفرس انما هم الذين قربت دارهم من أرض الفرس فكان هؤلاء يدينون لهم تارة ويحاربونهم تارة اخرى ، وكان اكثر مايظفر به الفرس من العرب أن يكفوا عن الاغارة على السواد واطراف البلاد « وكانت الارض التي تلي ارض الملوك مخصبة فرعاها العرب باذنهم وادوا الاتاوة عنها الى الفرس ماداموا في ارضهم »(٥٣) .

وكانت العرب مع الحيرة على ثلاثة اصناف :

١ ــ القبائل المستقلة (اللقاح) التي تغير على ممتلكات الحيرة وكانت تغزى بدورها من قبلهــم .

٢ ــ القبائل « المتحالفة » التي عقدت احلافا مع امراء الحيرة وفق شروط مبينة .

٣ ــ القبائل « المجاورة » التي ترعى في جوار الحيرة ، وكانت هذه القبائل خاضعة لامراء الحيرة . غير ان هذه القبائل كانت تصانع من قبل هؤلاء الامراء الذين يحاولون ان يكسبوا ودها . وكان اقرب الاحياء الى الحيرة ربيعة وتميم(٥٤).

ومن بين التي عرفت باللقاح ــ أســد بن خزيمة وغطفان بن ســعد وكانوا لا يعرفون في العرب الا بالحليفين ، وكانوا لايدينون لملوك آل نصر ، وظلوا على ذلك الى أيام النعمان الاصغر(٥٥) ، كذلك كانت قريش وكنانة « لقاح » لاتدين للملوك . فقد انكر ابو زمعة « الاسود بن المطلب » اعلان قيصر الروم لعثمان بن الحويرث ملكا على مكة ، وصاح صيحته المشهورة : « املك بتهامة الا ان قريشا لقــاح لا تملك ولا تملك »(٥٦) .

وفي المجموعة الثانية من القبائل سليم وهوازن ، وفي علاقة هاتين القبيلتين مع امراء الحيرة يقول ابو البقاء : « كانت سليم وهوازن تواثقهم ولاتدين لهم ، ويأخذون لهم التجاير فيبيعون لهم بعكاظ وغيرها فيصيبون معهم الارباح، وربما اتى الملك منهم الرجل والنفر فيشهدون مغازيه ويصيبــون معه من الغنائم وينصرفون ، ولم تكن لطائم الملوك وتجارتهم تدخل نجداً فما وراءه الا بخفر من القبائل » (٥٧) .

وفي المجموعة الثالثة من القبائل كانت ربيعة وبعض بطون تميم(٥٨) .

لم يكن هذا التصنيف ثابتا ، فقد تنتقــل القبيلة من حالة الخضوع والولاء الى حالة « اللقاح » فقد خرجت شيبان وبطون من بكر بن وائل على الفرس وامراء الحيرة في حرب ذي قار المشهورة ، كما ان بني دارم من تميم عادت لقاحا لعمرو ابن هند بقية أيام ملكه الى ان هلك بعد ان أوقع فيهم يوم اواره(٥٩) .

وازاء هذا التدافع القبلي والاغارة الدائمة على اطراف العراق كان لابد لامراء الحيرة من ان يتنازلوا عن بعض امتيازاتهم ويمنحوها لرؤساء القبائل القوية التي تهددهم وتكثر من الاغارة على اطرافهم ، فنشأت لذلك الردافة .

ويوضح ابو عبيده هذا المعنى بقوله : « لم يكن احد من العرب اكثر غـارة على أهل مملكتهم (الحيرة) من بني يربوع فصالحوهم على ان جعلوا لهم الردافة وان يكفوا عن الاغارة على اهل العراق »(٦٠) . واول من ردف من تميم « عتاب بن هرمي بن رباح بن يربوع » ثم ابنه عوف ثم يزيد وذلك على عهد المنذر بن ماء السماء في بعض المصادر والنعمان بن الشقيقة بن المنذر في بعضها الآخر(٦١) . وفي الرواية التالية لابي البقاء يتضح ضعف امراء الحيرة وقوة يربوع حيث يقول : « لما فازت يربوع بالردافة صارت لهم ضربة لازم عليهم لا يقدرون على عزلهم عنها ولانقلها عنهم الى غيرهم . فكان الملك مع بني يربوع في الردافة كالمحجور عليه »(٦٢) .

وقد افتخر جرير الشاعر اليربوعي بالردافة حيث يقول :

ربعنا واردفنا الملوك فظللـوا | وطاب الاحاليب التمام المنوعـا(٦٣)

واعتبر رجال تميم اسلافهم ملوكا لانهم كانوا يفدون على الملوك ، وابرز وافديهم حاجب بن زرارة الدارمي الذي وفد على كسرى ورهنه قوسه(٦٤) ، وللردافة التي كانت فيهم كما هو واضح من قول عطارد بن حاجب امام الرسول(ص) الذي تقدم ذكره . وللردف اتاوة يأخذها من جميع مملكة الحيره ، او ان له حصة من واردات الامـارة وعائدات الحرب وذلك في قول جرير(٦٥) :

وكان لنـا خـرج مقيم عليكـم | واسلاب جبار الملوك وجامله

وفي مبلغ العز الذي وصلوه بالردافة ، وفي فضلهم وتفوقهم على غيرهم ، وفي حقهم على بقية القبائل بالغ شعراء تميم بعامة ويربوع بخاصة في شعرهم ، ومثال ذلك قول الزبرقان(٦٦) وهو شاعر دارم من تميم امام الرسول (ص) يوم الوفادة :

نحن الكرام فلاحـي يعادلنا | منا الملوك وفينا تنصب البيـع
وكم قسرنا من الاحيـاء كلهم | عند النهاب وفضل العز يتبـع

ونسب الى الزبرقان في نفس المناسبة قولـه :

اتيناك كيما يعلم الناس فضلنا | اذا احتفلوا عند احتضار الموسم
بانا فروع الناس في كل موطن | وان ليس في ارض الحجاز كدارم
وان لنا المرباع في كل غـارة | تغير بنجد او بأرض الاعاجم(٦٧)

وهذا قول لجرير يفضل فيه احدى زوجتي الفرزدق على الاخرى لانها من بيت الردافة من تميم والاخرى من بني شيبان النصارى من بكر :

وماعدلت ذات الصليب ظعينة | عتيبة والردفان منها وحاجب(٦٨)

وقد استمرت الردافة في يربوع حتى ظهور الاسلام ، فكان آخر من ردف منهم لملوك الحيرة مالك بن نويرة اليربوعي(٦٩) .

ويستفاد من اشعار يربوع تفوق هذا البطن من تميم على بقية البطون ولذلك صارت اليه الردافة(٧٠) . ثم اخذ بيت زرارة ينافس يربوع وذلك في زمن حاجب بن زرارة الذي وفد على كسرى وقيل البسه التاج(٧١) ، وكان له حظوة في بلاط الحيرة وفي عهد ولده عطارد صاحب وفد تميم الى الرسول صلى الله عليه وسلم(٧٢) .

وربما كان لعدي بن زيد العبادي دور في ردافة يربوع ، فقد ذكر الاصفهاني ان عديا لم يكن يؤثر على بلاد يربوع مبدى من مبادي العرب(٧٣) . وقد اختلف في نسب عدي هذا ، فوصف في بعض المصادر بأنه من الاشراف ونسبه البعض الاخر الى العباد من سكان الحيرة . كما الحقه بعض آخر الى تميم(٧٤) . وعمل عدي ترجمانا لكسرى ابرويز وكاتبا له بالعربية ، وهو الذي وصف النعمان لكسرى واشار عليه بتوليته ، واحتال في ذلك حتى ولاه من بين اخوتــه ، ذلك بحسب ما تقوله الرواية العربيــة(٧٥) .

وعلاوة على كون يربوع من البطون ذات العدد والشرف فقد كانت تقيم على طريق مكه وجنوب العراق الى البصرة ، ومن منازلها المشهورة « طخفه » الموضع الذي حدث فيه اليوم المشهور بسبب الردافة(٧٦) . وذلك ان حاجب بن زرارة ــ زعيم دارم المشهور ــ رغب في نقــل الردافة الى قوم دارم بعد وفاة عتاب بن هرمي ، واخبر المنذر بن ماء السماء برغبته هذه واعلمه ان الردافة لاتصلح لعوف بن عتاب لحداثة سنه وطلب اليه ان يجعلها لرجــل كهل هو الحارث بن بيبه المجاشعي مــن دارم . فدعا الملك بني يربوع واخبرهم ان الردافة لعتاب وقد هلك . وابنه هذا لم يبلغ ، وسألهم ان يعقبوها لاخوتهم من بني دارم ، وأوضح لهم انه يريدها للحارث بــن بيبه . واجاب بنو يربوع الملك بان اخوانهم انما سألوه ذلك حسدا لهم على مكانتهم من الملك ، واخبروه ان عوف بن عتاب علىحداثة سنه احرى للردافة من الحارث بن بيبه ، وصرحوا له بانهم لن يدعوها ، وامام اصرار بني يربوع هذا انذرهم الملك بالحرب ان لم يفعلوا ، فكان جوابهم انيدعهم الملك ثلاثة ايام ثم ينذرهم بالحرب ، وكانت الحرب التي اطلق عليها يوم « طخفه » . وقد انتصرتيربوع ومعها البراجم على عساكر المنذر ــ وقيل عساكر النعمان ــ واسروا ابنه قابوس وقيل اخوه حسان أيضا حسب رواية ابي عبيدة في النقائض(٧٧) .

وقد ورد اسم قابوس في المصادر العربية مرتين في السلالة اللخمية ، في الاولى قابوس بن المنذر بن امرىء القيس الملقب بماء السماء أو « ابن ماء السماء » الذي

تولى عرش الحيرة بعد اخيه عمرو بن هند(٧٨) ، ويرجح ان مدة ملكه كانت اربع سنوات مابين ٥٦٩/٥٧٠ – ٥٧٣/٥٧٤ م(٧٩) . وفي الثانية قابوس بن النعمان وكنيته النعمان الاخير – الذي قتله كسرى ابرويز – « ابو قابوس » ولم يرد اسمه ضمن ملوك الاسرة اللخمية ، وفي الاخذ بروايتي أبي عبيدة وابن الكلبي القائلتين بن قابوس هو ابن المنذر الذي اشترك في قتال يربوع يوم طخفه والذي تسبب في حدونه حاجب بن زرارة ، لان حاجبا هذا استعمل على صدقات تميم بعد الوفادة اي حوالي ٦٣٠ م ، بينما حددت نهاية المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء بعام ٥٥٤ م(٨٠) ، اي ان سن حاجب عام الوفادة (٩هـ) كان يزيد على ثمانين سنة ، وفي مثل هذه السن لا يعقل استخدامه في مصالح الدولة . ولما كانت المصادر لاتذكر حاجبا آخر غير المعاصر لابن ماء السماء فيغلب على الظن ان نهاية المنذر يجب ان تحدد بعد التاريخ المذكور أو أن الردافة انما نشات في عهد النعمان بن المنذر . ومن الجدير ذكره أن روايات ابي عبيده تتناقض في هذا الموضوع – ففي النقائض يروى ان يربوع انتصرت على عساكر المنذر بن ماء السماء ، بينما نقل عنه ابن عبد ربه في العقد الفريد ان يوم طخفه كان لبني يربوع على عساكر النعمان ، وكذلك فعل ابن الاثير في تاريخه وتابعه على ذلك العديد من المصادر(٨١) . وعلى اي حال لايمكننا الاطمئنان الى التسلسل التاريخي الوارد في المصادر العربية لملوك آل نصر ، فهذا التسلسل متضارب في هذه المصادر ، ونضرب مثلا على ذلك فابن الكلبي – في الطبري – يجعل حكم النعمان خمس عشرة سنة (عند حمزة الاصفهاني في تاريخ سني ملوك الارض والانبياء خمس عشرة سنة وثمانية اشهر) في زمن يزدجرد الاول ولكن مع اربع عشرة سنة أخرى (اربع عشرة سنة وأربعة اشهر وفقا لرواية حمزة) في فترة حكم الملك بهرام جور . وقد حكم يزدجرد مابين ٣٩٩ – ٤٢٠م، وحدد بعضهم تاريخ ابرام السلام بين المنذر بن النعمان والروم بعام ٤٢٢م ، وهذا يدل على ان ما قيل من ان حكم النعمان اربع عشرة سنة في فترة الملك الفارسي بهرام جور غير صحيحة(٨٢) . وبناء على ما تقدم لانملك دليلا قاطعا يحدد تاريخ نشأة الردافة واسم الملك الحيري الذي نشأت في بلاطه وان كانت المصادر العربية تجمع على أن أول ردف هو عتاب بن هرمي اليربوعي وتنقسم في تسمية الملك الذي كانت الردافة في عهده بين المنذر بن ماء السماء أو النعمان بن الشقيقة . ووفقا للروايات العربية فان تقدير فترة حكم النعمان بن الشقيقة هو مطلع القرن الخامس الميلادي ، وهذا التاريخ – كما هو واضح – بعيد عن فترة حاجب بن زرارة وحوادث يوم طخفة . وكل مانستطيع ترجيحه ان الردافة انما نشات في بلاط الحيرة وفي النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ويعزز هذا الاتجاه ان روثشتاين واولندر قد ناقشا مسألة ابن الشقيقة وابن ماء السماء ، وانتهيا الى ان بني الشقيقة لقب يطلق على فترة مابعد المنذر الثالث

للفرع اللخمي من الاسرة الحاكمة ، وان ماء السماء ليست ام المنذر وانما هي صفة أيضا لملوك هذه الاسرة (٨٣) لان ام المنذر ليس اسمها ماء السماء وانما شقيقة ، وليس المنذر نفسه فقط يلقب بابن ماء السماء وانما كل اللخميين عموما في القرن السادس يحملون هذا اللقب كما هو واضح في شعر زهير بن جناب .

ونادمت الملوك في آل عمرو وبعدهم بني ماء السماء(٨٤)

وكذلك ضمرة بن ضمرة(٨٥) اذ يقول :

تركت بني ماء السماء وفعلهم واشبهت تيسا بالحجاز مزنما
ولن اذكر النعمان الابصالح فان له فضلا علينا وأنعما(٨٦)

ولبيد بن ربيعه العامري(٨٧) يقول :

وشمط بني ماء السماء ومردهم فهل بعدهم من خالد أو معمر
ومن فاد من اخوانهم وبنيهم كهول وشبان كجنة عبقر

ويقول زياد الحارثي(٨٩) :

وما تزدهينا الكبرياء عليهم اذا كلمونا ان نكلمهم نزرا
ونحن بنو ماء السماء فلا نرى لانفسنا من دون مملكة قصرا

وقد اشير الى ردافة مالك بن نويرة اليربوعي ، واستشهد على ذلك بقول جرير يفخر ببني يربوع :

منهم عتيبة والمحل وقعنب والحنتفان ومنهم الردفان(٩٠)

فقد جعل المبرد مالك احد الردفين،والردف الاخر من بني رياح بن يربوع(٩١) . وكان مالك بن نويرة سيدا من سادات يربوع واحد قادتها يوم الاياد(٩٢) وهو الذي قتله خالد بن الوليد — في رواية مشهورة — أثناء حروب الردة ، ولابد ان تكون ردافته لآخر ملوك الحيرة ، اذ لم تذكر المصادر شيئا حول هذا الموضوع . وذكر ابن سعيد ان بني زرارة ايضا كانت لهم ردافة الملوك ، غير ان ماذكره لم يؤيد بمصادر اخرى ، وقد تكون مكانة زرارة — بيت دارم — في تميم في عهد حاجب وابنه عطارد هي التي اوحت القول بردافتهم ، مع ان مكانة حاجب في الحيرة وبلاط الملك الفارسي كانت كبيرة وقد دفعت هذه المكانة حاجبا ان يطلب نقل الردافة من يربوع الى دارم ولم يطلبها لنفسه مع أن المنذر عرضها عليه(٩٣) وربما كان حاجب ابن زرارة يشعر انه اكبر واعظم من الردف .

وتذكر المصادر العربية ان زعماء كندة من بني آكل المرار كان لهم ارداف من زعماء القبائل . وقد لعبت قبيلة كنده ـ او هذا التجمع القبلي الذي اطلق عليه هذا الاسم ـ دورا كبيرا في احداث الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي . ولقد ظل تاريخ ظهور هذه الاسرة على مسرح الاحداث في شمال الجزيرة غامضا ولاسيما قبل استقرارها في غمر ذي كنده . وعلى الرغم من ان الاصل الحضرمي لهذه الاسرة أصبح مسلما به ، فلا بأس من ذكر بعض الروايات التي تظهر شعور الكنديين بالغربة وهم بين قبائل الشمال كما تظهر ارتباطهم الذي لم ينقطع بوطنهم الام حضرموت . وقد ذهبت أغلب المصادر العربية القديمة الى انهم من العرب اليمنيه(٩٤) ، كما ان الهمداني مؤرخ اليمن جعلهم من حضرموت وعزز ذلك بقول امرىء القيس :

كأني لم الهو بدمون مـرة ... ولم أشهد الغارات يوما بعندل(٩٥)

ودمون وعندل من اشهر منازلهم كما هو واضح من شعر امرىء القيس . ومن ذلك انـه بعد مقتل شرحبيل بن الحارث الكندي يـوم الكلاب(٩٦) الاول ، حمـل عوير بن شجنته بن الحارث بن عطارد بن عوف بن كعب بن زيد مناة ، نساء حجـر وآله ومتاعه وابلغهم اهلهم في اليمن ، وقد اثنى امروء القيس(٩٧) على عوير كثيرا في شـعره ومما قاله :

لكـن عـويـر وفى بذمتـه ... لا عـور ضـره ولا قصـر
كالبدر طلـق حلـو شمائلـه ... لا النخـل ازرى بـه ولا الحصر
مـن معشـر ليس في نصابهـم ... عيب ولا في عيدانهـم خـور
بيـض مطاعيـم في المحـول ... استروح ريـح الدخـان والقتر

وذكرت بعض الروايات العربية ان بعضا من امراء كندة كانت امهاتهم اميرات من حمير . فقد ذكر الاصفهاني ان شعبة بنت ابي معاهر بن حسان بن عمرو بن تبع ، هي والدة معاوية وعمرو المقصور ابني الجون . ومن الدلائل على ان قبائل الشمال كانوا ينظرون الى آل كندة كغرباء عنهم ، قول بني أسد لقيس وكنانه بعد مقتل حجر آكل المرار : « يامعشر كنانـة وقيس انتم اخوانـنـا وبنو عمنا والرجل بعيد النسب منـا ومنكم ، وقد رأيتم ما كان يصنع بكم وقومه فانتهبوهم »(٩٨) وكذلك قول عمرو افحل بن ابي كرب بن قيس بن سليم بن الحارث الملك بعد انقلاب القبائل الشمالية على امراء كندة : « يامعشر كنده انكم قد اصبحتم بغير دار مقام ، وقد ذهب اشرافكم وانخرق ملككم ولا آمن العرب عليكم فالحقوا بقومكم » فرحلوا ولحقوا بحضر موت(٩٩)

وفي النقوش نجد ان نقش مآرب Glaser 618 الذي يعود الى عام ٥٤٣ م يفيد أن كنده او ربما جماعة من كندة كانت تسكن حوالي ذلك الوقت حضر موت أو قريبـا منهـا(١٠٠) .

اشـار اليعقوبي(١٠١) الى حروب طاحنة بين كنده بزعامة رئيسين احدهما سعد بن عمرو بن النعمان بن وهب ، وبطونهـا من بني الحارث بن معاوية بزعامة عمرو بن زيد ، والسكون بزعامة شرحبيل ، وبين حضرموت يقودها رؤساء من بينهم مسعر بن مستعر واسمه ابن حجر وشراحيل بن مره . وقد انهكت الحروب كندة واثرت الرحيل من بلاد اليمن نحو بلاد معد ــ اي بين القبائل الشمالية ــ مما دعا بعض الاخباريين الى اعتبار كنده من معد(١٠٢) . وفي اسباب سيادة البيت الكندي في معد وبسط نفوذهم على منطقة واسعة من شمال ووسط الجزيرة العربية ، قيل الكثير ونحن ذاكرون اكثر هذه الروايات شيوعا .

١ ــ الروايات القائلة بأن تبع الحميري هو الذي ولى الحارث الحيرة ، وهـذه روايات ابن الكلبي في الاغاني (٣٥٤/١٦ عند الطبري ٢ /٨٩) ، ورواية عند ابن قتيبة في المعارف (٦٣٤) وعند ابن حبيب في المحبر (٣٦٨) واخرى عند حمزة الاصفهاني (١١٧) وكذلك ذكر ابن الاثير (٢٣٩/١) .

٢ ــ الروايات التي تقول بأن قبائل ربيعة اضطربت احوالها وعصفت بها ريـاح التحاسد والتباغض والاقتتال ، فطلبت من الحارث الكندي ان يملك على قبائل ربيعة اولاده . بعد ان اتفقت القبائل على تمليك غريب يقيم العدل والتناصف فيها . . . وهذه روايات اليعقوبي (١٨٨/١) وابي عبيدة في العقد الفريد (٦٧/٦) وكذلك ابن نباته في سرح العيون(١٥٣) والنويري في نهاية الارب (١٥\٤٠٦) .

٣ ــ الروايات الي تذكر ان قباذ لما تملك عرش فارس استهوته الزندقة ولم يستجب له في هذا الهوى المنذر الثالث بن ماء السماء ــ ملك الحيرة ــ واستجاب لـه الحارث الكندي فأخرج قباذ المنذر ونصب مكانه الحارث ، وهذه روايات ابن الكلبي في (الطبري ٩٥/٢) ، وابي عبيدة في (الاغاني ٢٠٩/١٢) وابن الكلبي في الاغاني (٧٨/٩) وكذلك نقل ابن سعيد الاندلسي في النشوة (١ / ٢٤٥) وهناك بعض الروايات التي تقول بأن الحارث بن ابي شمر الغساني هو الذي ملك آل كنده ، وذلك في روايـة ابن الهيثم بن عدي نقلا عن يهود تيماء (الاغاني ٩ / ٨١) وفي روايـة البيهقي في نشوة الطرب (١ / ٢٤٥) ، وهذه الرواية يضعفها كون الحارث الغساني عاصر الرسول (ص) وكان مـن بيـن الذين ارسل الرسول اليهم الكتب يدعوهم الى الاسلام(١٠٣) ، بينما فترة قبـاذ المنذر والحارث سابقة للاسلام ، كما ان علاقات كنده مع امراء غسـان لا توحي بهـذه التبعيـة .

ويعزز الروايات القائلة بان زعامة كندة ونفوذها ووجودها انما يدين للتبابعة النقش الذي اطلق عليه اسم نقش شرف الدين ـ ٤٤ (١٠٤) والذي يوضح ان الملك شمر يهرعش الثالث الذي حكم اليمن سنة ٣١٠ م وصل الى العراق ودحر الفرس وطردهم من العراق ، ويفيد النقش ان هذا الملك دخل مدينة طيسفون وكوك ـ ويعتقد ان هاتين المدينتين هما ما يطلق عليه المدائن حاليا ـ ويذكر النقش ان تبع بعد ان هزم الاعداء عاد الى اليمن وقدم الشكر الى الآله « المقه » بعسل أوام على هذا العمل العظيم (السطر ١٩ من النقش) . وماجاء في هذا النقش يتفق مع ماجاءت به الروايات الجنوبية حول امتداد النفوذ اليمني في فترة من فترات الحميريين الى العراق . فقد ذكر ابن الكلبي أن أبا أسعد كرب بن ملكيكرب استولى على الحيرة (١٠٥) .

ويبدو ان ازدهار الامارة الكندية جاء مصاحبا لازدهار النفوذ الحميري وانه تضاءل واختفى على اثر احتلال الاحباش لليمن وسقوط حكم التبابعة . ويمكننا ان نشاهد ثلاث قوى كبرى تتصارع على النفوذ في جزيرة العرب في مطلع القرن السادس الميلادي ـ اي قوى الفرس والروم والحميريين .

لقد وصف الازرقي آل كنده بقوله : « كانت كنده من ارداف المقاويل » (١٠٦) وذكر ابن الاثير ان ملوك حمير كان يخدمها ابناء الاشراف ، وان عمرو بن حجر الكندي ـ سيد كنانه ـ كان يخدم تبع حسان(١٠٧) . ولم تذكر المصادر أن احدا من ابناء اشراف اليمن سمي بالردف ، كما لم تكن الردافة صفة من صفات حكام اليمن او معاونيهم . فقد سمي هؤلاء بالاقيال ، المقاويل ، الأذواء ، العباهلة والمباهلة(١٠٨) ، ولابد ان ماذكره الازرقي انما جاء منقولا عن روايات تأثرت بالردافة التي عرفتها قبائل الشمال .

وكانت الردافة لآل كندة في بكر وتغلب ابني وائل بن ربيعه وهما على ما تذكره المصادر أعظم قبائل ربيعه شأنا في بلاد العرب ، وكانت منازل بكر تمتد مابين اليمن وتهامه ثم استوطنوا البحرين وتحركوا شمالا الى الجزيرة الفراتية حيث استقروا في الناحية التى لا تزال تنسب اليهم وهي « ديار بكر »(١٠٩) ولانجد تعايلا لتحرك ابناء وائل شمالا وبمحاذاة الفرات الا توافر الخصب في هذه الجهات من جهة وضغط القبائل عليهم من الجنوب من جهة أخرى . كما كان لسياسة الفرس دور في هذا ، وكانت مواطن تغلب أدخل في الجزء الشمالي بالقرب من حدود الشام (١١٠) . ويؤيد ذلك ان اسماء منازل هاتين القبيلتين التي ذكرت أيام « البسوس » انما تمتد مابين البحرين واليمامة وشمال الانبار(١١١) . وقد استغرقت هجرة بكر وتغلب زمنا طويلا حتى استقرتا في الجزيرة الفراتية في العهد الإسلامي ويرجح ان هجرتهم انما بدأت في عهد ذي نواس في اوائل القرن السادس الميلادي (١١٢) .

ويستدل من تاريخ بكر وتغلب على علاقات حسنه لهما مع امراء الحيرة ــ وكلاء الاكاسرة ــ فقد كان الفرس يستغلون حاجة القبائل في الاستقرار بجوارهم فيبسطون نفوذهم عليها وهكذا امتد النفوذ الفارسي على طول شواطىء الخليج العربي وحتى عمان ، وقيل انهم كانوا يعينون الحكام في هذه المناطق(١١٣) . كما وصل نفوذهم بلاد اليمن وذلك بحملة وهرز الذي ساعد سيف بن ذي يزن في اخراج الاحباش من اليمن ، وبعد سيف تولى اليمن حكام من الفرس(١١٤) . ويرد في بعض المصادر ان نفوذ الفرس شمل الحجاز وانهم ــ بوساطة حكام الحيرة ــ عينوا الحكام في يثرب(١١٥) . وبالغت بعض المصادر في تقريب الفرس من العرب حتى نسبتهم الى ابراهيم الخليل(١١٦) عليه السلام . ان هذه الاقوال رغم ما فيها من مبالغة انما تشير الى محاولات الفرس القديمة في بسط سلطانهم على بلاد العرب ، وفي سبيل هذه الغاية اهتموا بمعرفة شؤون القبائل العربية ودخلوا اسواقها وتعرفوا على اشهر الزعماء العرب ليكونوا عونا لهم « في اعزاز ملكهم وحمايته من العرب .. »(١١٧) وفي مقدمة القبائل التي شملها النفوذ الفارسي بكر وتغلب وبطون من تميم بالاضافة الى الاتحاد القبلي الذي عرف « بتنوخ » أو « لخم » وكانت اليه امارة الحيرة . وقد استخدم الفرس هذه القبائل لحماية حدودالدولة من اغارات القبائل الاخرى ، ثم لجذب قبائل أخرى للوقوف مع الحيرة في وجه القبائل الموالية لبيزنطة بزعامة الاسرة الغسانية او تلك الموالية لملوك حمير ، وهناك هدف آخر لا يقل أهمية عن الأهداف المتقدمة ، ذلك هو تأمين طرق القوافل التجارية الموجهة من فارس والحيرة الى الحجاز أو اليمن وافريقيا(١١٨) . وقد نجح الفرس في سياستهم نجاحا كبيرا حتى اننا نجد بكر وتغلب ــ في اغلب الاحيان ــ يسخرون للحرب مع امرء الحيرة ضد خصومها من القبائل العربية(١١٩) .

وتتضح العلاقة بين الحيرة وهذه القبائل في رواية نقلها صاحب الاغاني عن محمد بن سعد تقول ان المغيرة بن شعبه سأل هند بنت النعمان بعد فتح الحيرة ــ وكانت عجوزا ــ أي العرب كان أحب الى ابيك ؟ فأجابت : ربيعة(١٢٠) ونقل ابن عبد ربه عن ابي عبيدة قوله في حديث يوم الظالي : « ان بكر بن وائل كانت تحت يد كسرى وفارس وكانوا يجيرونهم ويمدونهم »(١٢١) . ولا بد من التنبيه الى ان ولاء القبائل لفارس وامراء الحيرة لم يكن دائماوثابتا فكثيرا ما تمردت هذهالقبائلعلىحكام الحيرة واسيادهم كما سيتبين معنا خلال هذه الدراسة .

وتفيد المصادر ان الحارث الكندي اجتاح الحيرة وقتل النعمان وافلت منه ابنه المنذر بن ماء السماء حيث التجأ الى القبائل خارج الحيرة ، فنصب ملك الفرس ابو يعفر بن الذميل أميرا على الحيرة وهذا من خارج الاسرة المالكه ــ آل نصر ــ وأمام

هذا شعر المنذر بخيانة الفرس لـه بعدم نجدته في محاربة الحارث الكندي ثم بتولية رجل من خارج الاسرة المالكة في الحيرة ، فتقرب من الحارث الكندي وتزوج ابنتـه هند ، وتدل مكانة هند في البلاط الحيري انها لم تكن سبية حرب كماذهب البعض(١٢٢) ولعل هذا التقارب بين الحارث والمنذر هو الذي اعاد المنذر الى عرش الحيرة ، لان الحارث الكندي لم يقم في الحيرة بل ترى الروايات انه اقام بالانبار وبعضها يقول انـه لم يقم بمدينة معينة وانما كان سيارا بين القبائل(١٢٣) .

ويظهر ان الحارث كان له بعض النفوذ في العراق بعد موت النعمان في عهد قباذ ؛ وان قباذ اضطر الى مصالحته على ان يكون الفرات حدا لسلطانه وانه تخلى له عن ستة طساسيج من ارض السواد مقابل حماية الحارث لارض السواد من غـزو القبائل العربية(١٢٤) .

وفي فترة ازدهار النفوذ الكندي فرق الحارث اولاده في قبائل معد ، فقـد نقل ابو عبيدة عن خراش وابن الكلبي(١٢٥) ، ان الحارث الكندي صير ولده شرحبيل ملكا في بكر بن وائل ، وحنظلة مالك ، وبني زيد بن تميم وبني اسيد وطوائف من بني عمرو من تميم والرباب ، وصير سلمة بن الحارث في بني تغلب والنصر بن قاسط وسعد بن زيد مناة بن تميم وطوائف أخرى من تميم وقضاعه . وعند ابن حبيب(١٢٦) ان الحارث ملك ولده حجرا على بني أسد بن خزيمة ، وملك شرحبيل على تميم والرباب ، وملك سلمة على بكر وتغلب وماك معدى كرب وهو « غلفاء » على قيس وكنانة(١٢٧) ، وليس بين المصادر اتفاق في هذا . وقدساءت العلاقات بين الاخوين شرحبيل وسلمه وقيل في سـبب اختلافهما ثلاث روايات ، احدها يقول ان الخلاف كان سببه النزاع على تقسيم القبائل بينهما(١٢٨) ، والثانية ان سبب الخلاف هو بمساع من المنذر ودسائسه بينهما ، وثالثها سببه العداء المستحكم بين بكر وتغلب وهما عماد قـوة الاخوين ، فقاد هذا النزاع الى حرب يوم الكلاب الاول .

ويستفاد من الروايات العربية(١٢٩) ان ابناء الحارث لم يحسنوا معاملة القبائل بل اثقلوها بالاتاوات مما سبب انتفاض هذه القبائل عليهم فمنهم من قتل ومنهم من هرب الى بلاده حضرموت . وذكرت هذه الروايات ان « ابا حنش ، عصم بن النعمان » من تغلب كان ردفا للملك الكندي سلمه بن الحارث ، ولاتذكر عن ردافته شيئا ، الا انه لعب دورا بارزا في يوم الكلاب ،وتجمع هذه الروايات على انـه هو قاتل شرحبيل بن الحارث الكندي ـ الملك ـ ويبدو ان سلمه الذي تملك على تغلب والذي حرض على قتل اخيه يوم الكلاب ، قد حزن بعد مقتل اخيه حزنا عظيما ، مع ان المصادر تذكر انه جعل جائزة لمن يأتيه براس اخيه شرحبيل ـ ولذلك لم يجرؤ ابا حنش على

احضار راس شرحبيل الى اخيه لنيل الجائزة التي جعلت لقاتله ، فبعث برأسه مع ابن عم يدعى ابو أجأ بن كعب بن مالك بن عتاب(١٣٠) .

وهذه ابيات من الشعر قيل انها لسلمة كما قيل انها لاخيه الثالث معد يكرب الذي اعتزل قتال الاخوين ، وتعكس هذه الأبيات الحزن على مصرع شرحبيل وتصرح باسم قاتلــه :

الا ابلغ أبا حنش رســـولا — فمالك لاتجيء الى الثـواب
تعلم ان خير الناس طــرا — قتيل بين احجار الكلاب(١٣١)

وتختلف المصادر في سبب قتل ابي حنش لشرحبيل بن الحارث الكندي ، فبعضها يصرح انه جاء للحصول على الجائزة التي جعلها سلمة لقاتل اخيه(١٣٢) . وبعضها يرى ان ذلك حدث عندما استنجد « ذو السنينة » وهو اخ لابي حنش لامه ، بعد ان كاد شرحبيل ان يقتله في حرب يوم الكلاب ، ولابد أن ابا حنش كان مخلصا في قتال شرحبيل لسببين ، الاول ، حرصه في نصر قبيلته تغلب على بكر التي تحارب مع شرحبيل ، والثاني ان انتصاره في الحرب يزيد من مكانته كردف لسلمه بن الحارث(١٣٣) وكان بنو سدوس بن شيبان من بكر اردافا لملوك كنده ايضا ، والارجح انها كانت للملك شرحبيل (١٣٤) ، وذلك لان بكر كانت مع شرحبيل ، وان جميع اتباع الاخوين شرحبيل وسلمه تركوا القتال يوم الكلاب الا بكر وتغلب لما كان بينهما من عداء بسبب حرب يوم البسوس(١٣٥) .

ويرجح أن الردافة لملوك كنده لم تستمر طويلا ، فقد انتهت بانتهاء سلطان كندة على قبائل معد ، وذلك واضح في سكوت الروايات عن ردافة آل كندة بعد ذلك . ويمكن الاستنتاج ان ابناء الحارث أخذوا بنظام الردافة ، لاغراء القبائل القوية بنفس الامتيازات التي يمنحها حكام الحيرة من آل نصر لرؤساء القبائل ، ويستدل من اسماء القبائل التي خضعت للحارث وبنيه الى امتداد سلطانهم مابين الحجاز والبحرين .

وذكرت بعض المصادر ردافة في قبيلة ضبة بن اد ، وقد برزت مكانة هذه القبيلة في شمال الجزيرة العربية مما جعل ملوك الحيرة يعطون هذا الامياز لزعماء هذه القبيلة في فترة لاتسعفنا المصادر المتوافرة في تحديدها ، ولكن من مقابلــة الردف « جليلة » باسماء ابناء قومه الذين وفدوا على الرسول (ص) يتبين انه لم يعاصر عهــد الرسول (ص) وانما كان قريبا منه(١٣٦) . وهذا يشير الى ان ردافة جليلة انما كانت في العهود الاخيرة لملوك آل نصر في الحيرة . وكانت ضبة تقيم مابين اليمامة وهجر(١٣٧) ، وتعبر هذه المنطقة الطرق التجارية المتجهة من غرب وجنوب الجزيرة

الى شواطىء الخليج العربي والحيرة ، وقد اكسبها هذا الموقع ميزة خاصة ، كما ان تحالفها مع عدد من بطون تميم في حلف الرباب القوى(١٣٨) زاد من قوتها حتى عدها الاخباريون من جمرات العرب(١٣٩) ، وكان لهذه القوة حروب كثيرة مع ملوك الحيرة(١٤٠) .

ومما يشير الى بأس ضبة ان احد فرسانها « ضرار بن الرديم(١٤١) هاجم المنذر الاصغر واخذ زوجته وكل ما كان معه(١٤٢) . واشتهر من ضبه عدد من الشعراء مثل ربيعه بن مقروم وزيد الفوارس بن حصين الضبي ـ وابو تمامه ، وابن عنمة ، ومحمد بن ابى شحاذ الضبى ، ووجيهة بنت اوس ومنصور بن ابي معجاج الضبي . وقرواش بن حوط الضبي(١٤٣) . وذكر كاسكل ان ضبه لم يكن لها شعراء مشهورون في العهدين الاموي والعباسي(١٤٤) .

ومن القبائل التي اشارت بعض المصادر الى ردافة لزعمائها ، عامر بن صعصعة، فقد ذكرت اسم عروة بن عتبة بن جعفر الملقب بالرحال ، وقيل انه سمي بذلك لكثرة رحلته الى الملوك(١٤٥) . وتمتد منازل قبيلة عامر بن صعصعه من واحة تربة الى الشرق مخترقة وادي رانيه الى الجنوب من طريق مكه ـ الرياض(١٤٦) .

ومن أشهر بطون عامر « كلاب » الذي ينتمي اليه عروة الرحال ، ويفهم من الروايات ان عامر بن صعصعه كانت على علاقة حسنة بمكة(١٤٧) ، وانها كانت تعتبر من احلاف قريش وعدت في الحمس معها(١٤٨) . وقد دفعتهم هذه الصلات الى ان يشاركوا بمواسم الحج ويظاهروا قريش حتى قيل ان خالد بن جعفر بن كلاب أول من كسا الكعبة بالديباج(١٤٩) ، ولابد انهم دخلوا في ايلاف قريش وساهموا في حماية التجارة المكية ، وظلت العلاقة مع قريش حسنة حتى فتك البراض الكنانى بعروة الرحال العامري مما سبب حرب الفجار المشهورة بين كنانة وهوازن التي من بطونها عامر بن صعصعه ، واخبار هذه الحرب معروفة ومشهورة(١٥٠) .

ويستفاد من اخبار هذه الحرب ان عامر بن صعصعه كان لها دور كبير فيها ، ويؤيد ذلك مكانة عروة الرحال الذي اشتهر بمجالسته للملوك وحظوته لديهم ، وهذا ما جعل النعمان بن المنذر يفضله على سواه في اجازة لطائمه الى عكاظ(١٥١) . وتبدو مكانة عروة العظيمة في قومه ان بطون هوازن اجمعت على الاخذ بثأره مضحية بعلاقتها الحسنة مع مكة ، ومما يجدر ذكره ان الرسول (ص) قد حضر هذه الحرب وكان ينبل على عمومته(١٥٢) .

وأغلب الظن أن ردافة عروة انما كانت للنعمان بن المنذر الذي عينه خفيرا للطائمه المتجهة الى عكاظ ، أو انه كان رديفا لمعاوية بن الجون الكندي الذي كان اميرا في اليمامة

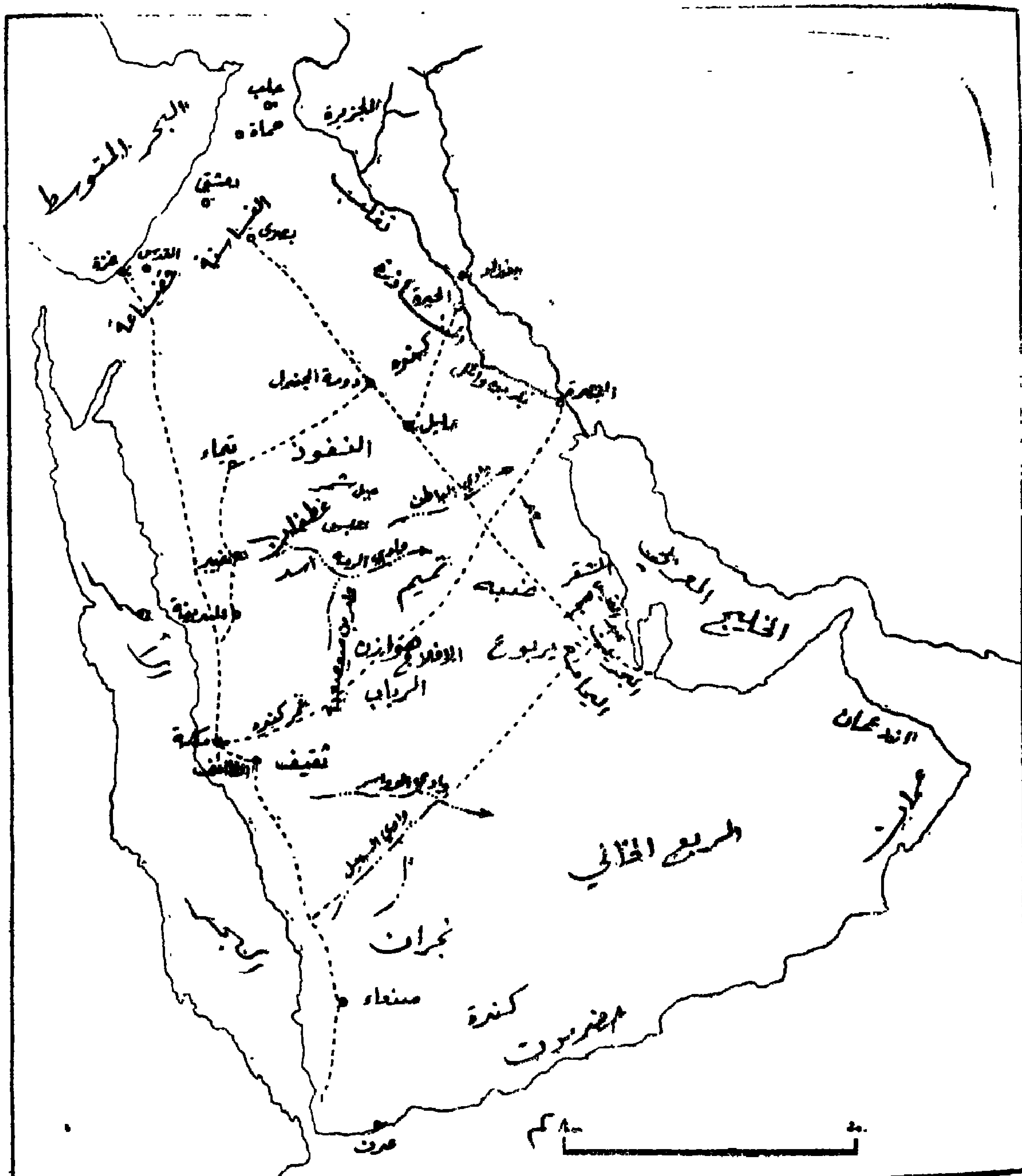
فقد اشارت بعض المصادر الى صلات حسنة لعامر بن صعصعه ولعروة مع هـذا الامير (١٥٣) .

ومن ايام عامر المشهورة يوم جبلة(١٥٤) ، ويوم رحرحان(١٥٥) ، ويـوم المروت(١٥٦) ، ويبدو من هذه الايام ان عامر بن صعصعه لم تكن على علاقة حسنة بالحيرة قبل عروة الرحال ، فقد سبق وان اغار نفر من عامر على معسكر النعمان وانتهبوه بما في ذلك زوجنه المتجردة(١٥٧) . ويتضح من ردافة عامر بن صعصعه بروز هذه القبيلة في مطلع القرن السابع الميلادي ، ويشير هـذا أيضـا الى ان تغيرا طرأ على ميزان القوى القبلي في هذه المنطقة ، ويعود ذلك الى ضعف تميم من جراء حروبها المتكررة والمختلفة مع الحيرة والقبائل العربية(١٥٨) القوية وبخاصة القبائل الجنوبية وابناء ربيعة ، وكما يعود أيضا الى تحالف هوازن وثقيف الذي أدى الى السيطرة على سوق عكاظ(١٥٩) وعلى الطرق التجارية بين الحجاز والعراق بعد ان اضعفت حرب البسوس أيضا كلا من بكر وتغلب ، وهذا بدوره دعا امراء الحيرة أن يتقربوا من زعماء هوازن ، وعروة الرحال احدهم . ويفهم من بعض الاشـارات الواردة في المصادر ان هوازن وثقيف انهمكوا في التجارة مع مكة في هذه الفترة وان اطماعهما ربما اتسعت للفوز بالسيطرة على منطقة الحجاز واخذ دور قريش لاسيما بعد صراع مكة مع المسلمين ، ولعل هذا مايفسر اصرار هوازن وثقيف على مقاومة الدعوة الاسلامية ، ويمثل يوم حنين هذا الموقف اوضح تمثيل(١٦٠) .

وختاما نرى ان القرن السـادس الميلادي تميز بصراع بين ثلاث قوى رئيسـية للسيطرة على الجزيرة العربية هي : قوة الفرس والروم والحميريين . ولعل محاولة الحميريين في هذا الصراع هي الاولى لاقامة وحدة في بلاد العرب ، حيث نجح الحارث الكندي وابناؤه من بعده في جمـع العديد من القبائل العربية القوية . فكانت هـذه المحاولة سابقة افاد منها أهل الحجاز والنبي محمد صلى اللـه عليه وسلم(١٦١) . وقد اعتمد هذا الصراع على القبائل العربية حيث تنافست هذه القوى في كسب تأييدها ، واستخدمت في سبيل ذلـك وسائل عدة ، فمنحوا رؤساء هذه القبائـل الالقـاب والامتيازات كالردف ، وذي الأكال(١٦٢) وذي التـاج(١٦٣) وفـلارك وبطريـق(١٦٤) .

● اتقدم بالشكر للاستاذ عبد العزيز الدوري الذي امدني ببعض المصادر المخطوطة والملاحظـات القيمة ، كما اشكر الزملاء في القسـم عوض خليفات ومصطفى الحيارى ، ومحمد خريسات الذين راجعوا مسودة البحث وابدوا ملاحظـاتهم القيمة، كما واشكر السيدة سميرة الصايغ التي قـامت بالطباعة ، فلهؤلاء جميعا وافر الشكر والامتنان .

(ملحق رقم ٢)



خارطة تبين أسماء القبائل والمواقع التي وردت في البحث

الهوامـــــش :

(١) جونار اولندر ، ملوك كنده من بني آكل المرار ، ترجمة الدكتـور عبـد الجبار المطلبـي ، بغـداد ، ١٣٥٣ هـ ١٩٧٣ م ، المقدمة ص٨ .

(٢) انظر مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، ادارة الآثار والمتاحف ، وزارة المعارف ، ١٣٩٥ هـ ــ ١٩٧٥ م ص١٧ وما بعدها . ولطفي عبـد الوهاب يحي ، العرب في العصور القديمـة ، بيـــروت ١٩٧٩ م ص١٤٧ وما بعدهـا .

(٣) انظر ناصر الدين الاسـد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، ط ٣ ، القاهـرة ١٩٦٦ م ص٣٢١ وما بعدهـا .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلـدان «الحيرة» و معجم الادباء ٢٨٧/١٩ . وابن النديم ، الفهرست ، طبعة خياط بعناية فلوجل ص٩٥ وما بعدها . و منذر البكر ، مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، جامعة البصرة ، العدد ٦ ، عام ١٩٧٢ ص ٤١ .

(٥) اولندر ص ٩ .

(٦) الطبري ، تح ، محمد ابو الفضل ابراهيـم ، طبعة دار المعارف ، مصر ١٩٦٩ م ، ٦٢٨/١ .
F. Altheim, R. Stiehl, Die Arber Inder Alten welt, Berlin, 1968, Bd, 4. S. 3.

(٧) اولندر ص ٩ .

(٨) ياقوت ، معجم الادباء ، ٢٨٨/١٩ . والذهبي ، طبقات الحفـاظ ، ٣١٤/١ . وشـذرات الذهـب ، حوادث ٢٠٤ هـ . وانظر ايضا ترجمة ابن الكلبي في انساب السمعاني ، وابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ط مصوره عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩/٩ ــ ٢٠ ، ١٥٥/١٠ ، وانظـر منـذر البكـر ، مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص٤١ .

(٩) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٦٨ ، ٧٩/١ . وعبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العـرب ، بيروت ١٩٦٠ ، ص١٦ .

(١٠) انظر ابن حزم الاندلسي ، جمهرة انساب العـرب ، ط . دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٢ م ص ٣١٢ ــ ٣١٤ . واولندر ص ٩ .

(١١) F. Altheim, Op cit. S. 3.

(١٢) انظر جب ، المدخل الى الادب الجاهلي ، تـرجمة كاظم سعد الديـن ، بغـداد ١٩٦٩ م القاهـرة ١٩٦٠ ، ص ٢٨ .
R. A. Nicholson, A literaryHistory of The Arabs, Cambridge, 1963. p. 71.

(١٣) ذهب الى مثل ذلك الدكتور طه حسين ثم عدل عن رأيه في كتابه الادب العربي ، وانظر بلاشيـر ، تاريخ الادب العربي ، ترجمة الدكتور ابراهيم ا لكيـلانـي ، دمشـــق ١٩٥٦ م ، ص ١٧٦ ــ ١٨٧ . والحوفي ، الحياة الأدبية في الشعر الجاهلي ص ١٩ ــ ٣٧ . وناصر الدين الاسد ، ص ٣٥٢ وما بعدها.

(١٤) الاب انستاس الكرملي ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ م ، ص ٨٨ وما بعدها .

(١٥) انظر سعيد الافغاني ، اسواق العرب ، ط ٢ ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٤٦ وما بعدها .

(١٦) ie der Lahmiden in al-Hira, erlahmidischen Dynastie.

قام الدكتور منذر البكر بترجمة بعض من فصول هذا الكتاب الى العربية في مجلة كلية الاداب ، جامعة البصرة العدد ١٥ ، لعام ١٩٧٩ ص ٢٨٧ – ٢٩٨ . والعدد ١٦ لعام ١٩٨١ ص ٢٢٧ – ٢٦٧ .

(١٧) نقل الدكتور عبد الجبار المطلبي هذا البحث الى العربية ، بغداد ١٣٥٣ هـ – ١٩٧٣ م .

(١٨) نقل الدكتور يحيى الجبوري هذا البحث الى العربية ، بغداد ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦ م .

(١٩) انظر جواد علي ، المفصل ١٣٥/١ .

(٢٠) انظر منذر البكر ، مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام . وفيما يتعلق بالمصادر العربية للردافة انظر الهامش رقم (٣١) .

(٢١) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة « ردف » .

(٢٢) ن . م .

(٢٣) ومن معانيها ما جاء في القرآن الكريم عن غزوة بدر : « فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين » (سورة الانفال ، آيه : ٨) أي متتابعين يردف بعضهم بعضا . والروادف : الاعجاز ... واردف الرجل واردفه : ركب خلفه .. والردف في الشعر : حرف ساكن من حروف المد اللين يقع قبل حروف الروي ليس بينهما شيء ، ومثل هذا في العروض الفارسي والتركي – اي نوع من البحر ذي التفعيلات الطويله ، اي Tlypermetre الذي يجييء رديفا للقافيه . ولم يظهر الردف في الشعر التركي الا في القرن الثالث عشر ، ومع ذلك فهو في الاخص من بدع الفرس . والرديف موجود في الشعر العربي القديم في صورة بدائية ، وان عرف باسم آخر . وبطل استعمال الرديف في تركيا في القرن التاسع عشر ولعل ذلك كان بتاثير الشعر الفرنسي .. وفي المصطلح العسكري التركي اطلق السلطان محمود الثاني الاسم « رديف » (عساكر رديفة منصورة) على الجيش الاحتياطي الذي انشيء عام ١٨٤٣ .

انظر ابن منظور « ردف » ودائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، مادة « رديف » .

(٢٤) ابن منظور ، اللسان « ردف »

(٢٥) انظر الالوسي ، محمود شكري ، بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، تح . محمد بهجت الاثري ، ط٣ . مصر ١٣٤٢ هـ ، ١٨٤/٢ .

(٢٦) شرح ديوان لبيد ، تح . احسان عباس ، الكويت ١٩٦٢ م ص ٣٥ .

وأبو عبيدة، معمر بن المثنى ، ت ٢٠٩ هـ ، النقائض ، تح ، محمد اسماعيل عبد الله الصاوي ، القاهرة ١٣٥٣ هـ – ١٩٣٥ م ، ٧/٢ « وشهدت انجية » . وانظر ايضا ابن منظور « ردف » .

(٢٧) ابن منظور « ردف » . وابن سيده ، ابوالحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الاندلسي ، ت : ٤٥٨ هـ ، المخصص ، تح ، لجنة أحياء التراث العربي ، بيروت ـ الكتاب الثالث من المجلد الاول ، ص ١٣٨ .

(٢٨) ابو عبيده ، النقائض ، ٧/٢ . والالوسي ١٨٤/٢ .

(٢٩) ابو عبيده ، المصدر السابق والصفحة

(٣٠) دائرة المعارف الاسلامية مادة (رديفا) .

(٣١) انظر ابن الكلبي ، جمهرة النسب ، رواية ابن حبيب ، خط ، ورقة ١٥٤ . وابي عبيده ، النقائض، ٧/٢ . وابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسن ، ت : ٣٢١ هـ ، تح . عبد السلام هـارون ، القاهـرة ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م ، ص ٢٢١ . وابن عبد ربـه ، العقد الفريد ، تح، محمد سعيد العريان ، بيروت، بلا تاريخ ، ٧٥/٦ . .وابن سعيد الاندلسي (٦١٠ ـ ٦٨٥ هـ) نشوة الطرب في أخبار جاهلية العـرب ، تح . نصرت عبد الرحمن ، دار الاقصى ، عمان١٩٨٢ م ، ٤٤٨/١ . والثعالبي ، ابو منصور عبـد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري ، ثمـارالقلوب في المضاف والمنسوب ، القاهـرة ١٣٢٦ هـ ـ ١٩٠٨ م ص ١٤٤ . والمبرد ، ابـو العباس ، الكامل في اللغة والادب والنحـو والصرف ، تـح ، احمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م ص ١٢٤٤ . والاصفهاني ، ابو الفرج ت : ٣٥٦ هـ ، الاغاني ، ٣٣٣/٩ . وابو البقاء ، هبة اللـه ، المناقب المزيدية في اخبار الملـوك الاسديـة ، خط ، ٢ ١٣٥ . وابن الاثير ، ابو الحسن علي بن ابي الكرم ، ت ٦٣٠ هـ ، الكامل في التاريخ ، بعناية نخبة من العلماء ، بيروت ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م ، ٣٩٦/١ . وابن نباته ، جمال الدين (٦٨٦ ـ ٧٦٨ هـ) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، تح . محمدابو الفضل ابراهيم ، القاهـرة ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م ص ٨٦ .

(٣٢) E. I. (1) Tamim.

(٣٣) البكري ، ابو عبد الله بن عبد العزيز البكري الاندلسي ، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع، تح ، مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٤٥ م ، ١٩٥١ م ، ٦٣/١ وابن منظور « الحزن » . والزبيـدي ، تاج العروس « الحزن » . وابن بليهد ، محمد بـن عبد الله ، صحيح الاخبار عما في بلاد العـرب مـن الاثار ، تح . محمد محي الدين عبد الحميد ١٩٧٢ ، ١٠/١ .

(٣٤) ابن بليهد ١٢٤/٥ .

(٣٥) البكري ١٧١/٣ .

(٣٦) ابن بليهد ٦٦/٢ . وابن سعيد الاندلسي ٤٤٨/١ . وفيداء كايد ، الردة ، رسالة ماجستير من كلية الاداب ـ قسم التاريخ ـ الجامعة الاردنيـة ، خط بلا تاريخ ص ٣٤ وما بعدها .

(٣٧) سعيد الافغاني ، ٢٢٥ ـ ٢٣٠ . وانظـر المفارخه ، ملحق (٢٠) .

(٣٨) البكري ٨٨/١ . « وعند ظهور الاسلام كانت تميم في اليمامة » . ن . م . ٩٠/١ . انظر أيضا Oxford Bible Atlas, p. 86. ودائرة المعارف الاسلامية « رديف » . وبهجت التكريتي تميم ودورها السياسي والعسكري في صدر الاسلام ، مجلة الخليج العربي ، عدد ٩ ، عام ١٩٧٨ ، جامعة البصرة ، ص ٣٧ . ومن الجدير ذكره انه لم يكن يقال في الجاهلية الا ملك القوم وسيدهم ورئيسهم للعرب – انظر ابو البقاء ، ١٥ ب . وقد استخدم الباحث تسمية ملوك تارة وامراء تارة اخرى لحكام الحيره .

(٣٩) ج . كستر ، الترجمة العربية ص ٦٠ .

(٤٠) ابن حبيب ، المحبر ٢٦٤ – ٢٦٥ . ومحمد حميد الله ، Muslim Conduct of state, p. 101.

(٤١) ابن سعيد الاندلسي ٤١٦/١ .

(٤٢) ابو عبيده ، النقائض ، ١٢٨/١ . « وجرير الشاعر من قبيلة يربوع التميمية » . لقاح : اي مستقلون لا يخضعون للملوك .

(٤٣) انظر الاصفهاني ، الاغاني ١٨٤/١٩

(٤٤) ابو البقاء ، ٥٤ ب .

(٤٥) انظر محمد احمد جاد المولى وزميليه ، ايام العرب في الجاهلية ، ط ٣ ، القاهرة ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م ، ص ٢١٢ وما بعدها .

(٤٦) الاصفهاني ، الاغاني ١٤٦/٤ .

(٤٧) ن . م ١٤٨/٤ .

(٤٨) A. N. Stratos, Byzantium in the seventh Century, trans. by Marc Oglivie-grant-Amsterdam, 1968, vol. 1. p. 17.

(٤٩) الطبري ٥٥/٢ ، ٦٠٩/٢ . وصالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بغداد ١٩٦٨ م ، ص ٦٤ . Stratos, op cit, p. 17.

(٥٠) ibid والطبري : الصفحات السابقة ، صالح العلي ، الصفحة السابقة .

(٥١) Stratos, p. 17.

(٥٢) ابو البقاء ، ٢٠ ب ، ٢١ أ . السواد : جنوب العراق .

(٥٣) ن . م ١١٣ أ .

(٥٤) ن . م ١٢٥ أ . وكستر ، ٢٠ .

(٥٥) ابن حبيب ، المحبر ٢٥٣ ، ابو البقاء ١١٤ أ .

(٥٦) البلاذري ، احمد بن يحي ، انساب الاشراف ، القسم الاول من الجزء الرابع ، طبعة القدس ، عام ١٩٣٦ ، ص ١٢٦ . ومصعب الزبيري ، ابو عبد الله نسب قريش ، تح . ليفـي برفنسال ، ط ٣ . دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٢١٠ ، والزبير بن بكار ، جمهرة نسب قـريش ، تح . محمـود محمد شاكر ، القاهرة ١٣٨١ هـ ، ص ٤٢٦ . وابن حبيب ، المنمق في اخبار قريش ، تح . خورشيد احمد فاروق ، الهنـد ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م ص١٧٨ – ١٨٥ . وابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ١١٨ . وابو البقاء ، ١٠٠ ب

(٥٧) ابو البقاء ، ١٠٢ ب واللطائم : هي تجاير ملوك الحيره .

(٥٨) كان في تميم بطون لقاح : انظر قول جرير السابق امام الرسول صلى الله عليه وسلم « ونحن حـي لقـاح » .

(٥٩) ابو البقاء ، ١٦٦ ا .

(٦٠) ابو عبيدة ، النقائض ٧/٢ .

(٦١) ابن الكلبي ، جمهرة النسب ١٥٤ « على عهدالنعمان بن الشقيقـة » . وابو عبيـدة . النقائض ٦١/١ « على عهد المنذر » وجاء في رواية أبي عبيدة في العقد الفريد ٧٥/٦ : « ان الرادفة كانـت لعتاب بن هرمي ثم لابنه قيس وذلك بخلاف روايته في النقائض ٦١/١ « ان الردافة كانت لعوف بـن عتـاب » .

(٦٢) ابو البقاء ١٣٥ ا .

(٦٣) المنزع : هو الثمام ينزع ويقتلع من اصله فتبرد به او طاب اللبن . انظر ابو عبيدة ، النقائض ٧/٢ . وكذلك ديوان جرير ، ط بيـروت ١٩٦٠ م ص٢٦٦ .

(٦٤) ابو عبيدة ، النقائض ١٦٥/٢ . وابن قتيبه ، المعارف ، ص ٦٠٨ . وابو البقاء ، ٢١ ا .

(٦٥) ديوان جرير ، بيروت ١٣٧٩ هـ – ١٩٦٠ م ، ص٢٨٧ . وانظر شرح ديوان جرير ، ص ٤٣ .

(٦٦) ابن هشام ، السيره ، ٥٦٢/٢ ، والاصفهاني، الاغاني ١٤٧/٤ .

(٦٧) ن . م .

(٦٨) ديوان جرير ص ٤١ ، وشرح ديوان جرير ص ٤٣ . ذات الصليب : يقصد بها حدراء زوجـة الفرزدق الشيبانية لان اجدادها كانوا نصارى . انظـر ايضا الاصفهاني الاغاني ٢٣٣/٩ .

(٦٩) المبرد ، الكامل ، ص ١٢٤٤ .

(٧٠) انظر قول جرير يرد على الفرزدق ، الاصفهاني ، الاغاني ٢٣٣/٩ .

(٧١) ابو البقاء ، ٢١ ا ، الفاسي ، شفاء الغرام في اخبار البلد الحرام ، ١٤١/٢ . وابن حبيب ، المحبر ١٣٤ . والالوسي ، ١٢٣/١ ، ٢١١/١ وما بعدها . وكستر ص ٦٠ .

(٧٢) ابن هشام ، السيره ٥٦٠/٢ . وابن سعد ، الطبقات الكبرى ، بيروت ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ ، ٢٩٣/١.

(٧٣) الاصفهاني ، الاغاني ، ١٠٥/٢ . وانظر الحربي، ابو اسحاق ابراهيم بن اسحاق ، المناسك ، تح . حمد الجاسر ، الرياض ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ص ٥٩٣ .

(٧٤) انظر ابن حبيب ، المحبر ص ٣٠٤ . وابن قتيبه ، المعارف ص ٧٦ .

(٧٥) ابن قتيبه ، المعارف ، ٦٤٩ .

(٧٦) انظر تحديد المكان عند الحربي ، المناسك ص٥٩٣ وما بعدها . وانظر ايضا ياقوت معجم البلدان « طخفه » . والاصفهاني ، الحسن بن عبد الله ، بلاد العرب ، تح . حمد الجاسر وصالح احمد العلي، الرياض ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م ص ٢٣٨ .

(٧٧) ابو عبيدة ، النقائض ٦١/١ وما بعدها . وقارن مع ابي البقاء ١٣٥ أ . وابن عبد ربه ، ٧٥/٦ . والبراجم هم خمسة من ابناء حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم دخلوا مع يربوع ودعوا بالبراجم وهم : عمرو ، والظليم وغالب ، وكلفه ، وقيس . سموا بذلك لان عددهم كان قليلا ، فقال لهم حارثة بن عامر بن عمرو بن حنظلة ، « ايتها القبائل التي قل عددها ، تعالوا فلنجتمع ، فلنكن كبراجم اليد » . ابن حزم ، الجمهرة ص ٢٢٢ . وانظر عن اشتراك البراجم في يوم طخفة مع يربوع ، ابن رشيق ، العمده ٢/ ٢٠١ .

(٧٨) اليعقوبي ، ابن واضح ، تاريخ ، تح . محمد صادق بحر العلوم ، النجف ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م . ١٨٣/١ - ١٨٤ . وحمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، منشورات مكتبة الحياة - بيروت ، ص ٩٤ . وابن قتيبة ، المعارف . ص ٦٥١ . والطبري ٢١٣/٢ . وابن رشيق ٢٠١/٢ . وابن عبد ربه ٧٥/٦ . وابن سعيد الاندلسي ١/ ٤٤٩ . وابن الاثير ٣٩٦/٢ . وابن خلدون . تاريخ ، نشر بعناية علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس وعلق عليه الامير شكيب ارسلان . مصر ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م ، ٤٦/٢ . والالوسي ١٩/٢ . ورو تشتاين ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٧٩) انظر الجدول ، ملحق (١) .

(٨٠) روتشتاين ص ٢٤٦ .

(٨١) ابو عبيدة ، النقائض ٦١/١ . وابن عبد ربه ٦ /٧٥ ، والميداني مجمع الامثال ، تح . محمد محي الدين عبد الحميد ، ط٣ . دار الفكر ١٩٧٢ ، ٤٣٢/٢ . وابن رشيق ، ٢٠١/٢ . وابن الاثير ٣٩٦/١ . ومحمد احمد جاد المولى ٩٤/١ .

(٨٢) روتشتاين ٢٥٢ وما بعدها . واولندر ص ١٠٤ وما بعدها .

(٨٣) انظر الاصفهاني ، الاغاني ١٠٠/٢١ ، والجوهري ، مختار الصحاح ، مادة « موه » . وروتشتاين ٢٥٣ .

(٨٤) نادمت : لازمت . آل عمرو : آل نصر . انظر الاصفهاني ، الاغاني ٢٣/١٩ . وروشتاين ، الترجمة العربية ٢٥٣ .

(٨٥) الاصفهاني ، الاغاني ٢٦/١ .

(٨٦) ن . م . ١١ / ١١٤ .

(٨٧) ديوان لبيد ، ط . دار صادر ـ بيروت ١٩٦٦ م ص ٧٠ .

(٨٨) ابن منظور « عبقر » : موضع بالبادية كثير الجن . يقال في المثل كانهم جن عبقر . وانظر ايضـا ياقوت ، معجم البلدان « عبقر » .

(٨٩) المرزوقي ، شرح ديوان الحماسه ، نشر احمد أمين وعبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، القسم الاول ص ٣٤٥ .

(٩٠) انظر شرح ديوان جرير ، ص ٥٧٣ « عتيبة بن الحارث بن شهاب ، والمحلو بن قدامه بن اسود بـن ابي الحمره ، وقعنب بن عتاب بن الحارث ، وا لحتنفان ابنا اوس بن اهاب او حنتف بن اسجف واخوه . واحد الردفين مالك بن نويره اليربـوعي والاخر من بني رياح بن يربوع . انظر المبـرد ، الكامل ١٤٤/١ . وابن منظور « ردف » .

(٩١) المبرد ، ن . م .

(٩٢) محمد جاد المولى ، ص ١٩١ « وهو يوم اعشاش وهو يوم الحنظلي » . انظر : حد : ١٣٠ .

(٩٣) ابو البقاء ١٣٥ أ .

(٩٤) اولندر ٦٣ .

(٩٥) حسن السندوبي ، ديوان امرىء القيس واخبا ر المراقسه ، ط٤ . مصر ١٩٥٩ م . ص ١٩٧ . وانظر الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٦٩ وما بعدها . والاكليل لنفس المؤلف ، تح . محمـد علـي الاكوع ، الرياض ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م ، ٣٧/٢ . وانظر ياقوت ، معجم البدان « دمون » .

(٩٦) يوم الكلاب الاول : لسلمه بن الحارث بن عمرو المقصور الكندي على أخيه شرحبيل ، والكلاب : اسم ماء بين الكوفة والبصرة . انظر محمد احمد جا د المولى ص ٤٦ .

(٩٧) ابو عبيده ، النقائض ١٦٣/١ .

(٩٨) الاصفهاني ، الاغاني ٨٤/٩ .

(٩٩) ابن حبيب ، المحبر ٣٧٠ .

(١٠٠) اولندر ٦٤ .

(١٠١) تاريخ ، ١٨٨/١ .

(١٠٢) ياقوت ، معجم البدان «قصر ذي كنده » . وا ولندر ٦٣ .

(١٠٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٢٦١/١ .

(١٠٤) A. Jamme, Sabaean Inscriptions, p. 372. Walter. W. Mullar: Eim Sabaiehe Gesandtschaft in Ktesiphon and selenkia, p. 163.

انظر منذر البكر ، لمحات من الصراع العربي ـ الفارسي قبل الاسلام ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد :

٢١ ، عام ١٩٨٢ م : ص ٩ ــ ١٦ .

(١٠٥) جواد علي ١٦٧/٣ .

(١٠٦) اخبار مكة ، نسخة مصورة عن الطبعة الهنـــدية في مدينة « غتنقة » ص ١٣٥ .

(١٠٧) ابن الأثير ٢٣٩/١ .

(١٠٨) ابن سعيد الاندلسي ، ص ١٠٢ . وانظر ابي علي القالي ، الامالي ، بيروت ١٣٩٨ ــ ١٩٧٨ م ، ص ٧٤/١ . وابن سيده ، المخصص ، م ١ ق ٣ ص ١٣٥ .

(١٠٩) دائرة المعارف الاسلامية ، « بكر » .

(١١٠) ن . م . « تغلب » .

(١١١) انظر تحديد مواقع « النهى » و « كبات » عند ياقوت ، معجم البلدان ، وهما موقعان ذكرا في ايــام حرب البسوس . وانظر الاطرفجي ، رمزية ، قبيلة تغلب ، مجلة آداب الرافدين ، عدد ٩ ، جامعة بغداد ١٩٧٨ ص ١٥٥ .

(١١٢) المرجع السابق . تقول الاطرفجي في بحثها اشار اليه ان ايام ذي نواس حوالي ٣٨٠ م نقلا عــن دائرة المعارف الاسلامية ، ولعله حدث خطــا مطبعي لان فترة ذي نواس انما كانت في مطلع القــرن الســادس الميــلادي .

(١١٣) انظر كستر ص ٩ وما بعدها .

(١١٤) انظر الطبري ١٤٨/٢ .

(١١٥) الجاحظ ، البيان والتبييــن ، دار الفكــر للجميع ١٩٦٨ ، ص ١٧/١ .

(١١٦) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تح ، محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ ، القاهرة ١٩٦٤ م ، ١ / ٢٤٢ .

(١١٧) ابن الجوزي ، مثير العزم الساكن في فضـــائل البقاع والاماكن ، مخطوط في المكتبة الظاهريــة ، (ادب ٤٦) الكراس الخامس عشر . قارن مــع الافغاني ص ٢٨١ .

(١١٨) دائرة المعارف الاسلامية « تميم » و « بكر » و « تغلب » . والتكريتي تميم ــ ص ٣٧ .

(١١٩) انظر الاصفهاني ، الاغاني ٤٨/١١ وما بعدها ، وابن نباته ، ص ١٥٢ .

(١٢٠) الاصفهاني ، الاغاني ، ١٦ /٨٥ .

(١٢١) ابن عبد ربه ، ٤٥/٦ . وابن الأثير ١/ ٣٧٣ .
يوم العظالي : هو يوم الاياد وهو يوم اعشاش وكان لبني يربوع على بكر بن ربيعة ، وكان موضعه بالحزن لبني يربوع . انظر ابن الاثير ٣٧٢/١ . ومحمد جاد المولى ١٩١/١ .

(١٢٢) انظر اولندر ، ١٠٩ .

(١٢٣) انظر حمزه الاصفهاني ، ص ٩٢ . اولندر ١١٣

(١٢٤) الطبري ٩٥/٢ – ٩٦ . ورواية البكري في ا لمفضليات ص ٤٢٩ .
الطساسيح : النواحي ، ومفردها الطسوج . ابن منظور « طسج » .

(١٢٥) ابو عبيده ، النقائض ١٥٦/٢ – ١٥٧ .

(١٢٦) ابن حبيب ، المحبر ٣٦٩ – ٣٧٠ .

(١٢٧) ابن خلدون « رواية ابن الكلبي » ٦٤/٢ . والا صفهاني ، الاغاني ٢٠٩/١٢ ، ٣٠٨/١٦ وابو البقاء ٥٦ أ . واولندر ص ١٤٠ .

(١٢٨) انظر اولندر ، ١٢٢ وما بعدها .

(١٢٩) انظر ابن حبيب ، المحبر ٣٧٠ . واولندر ١٥٠ .

(١٣٠) ابو عبيده ، النقائض ١٥٩/٢ . والاصفهاني ، الاغاني ٢١٢/١٢ .

(١٣١) ن . م .

(١٣٢) ن . م .

(١٣٣) ابن حبيب ، المحبر ٢٠٤ .

(١٣٤) ابن قتيبة ، المعارف ٧٥ . وابن دريد ، الا شتقاق ٣٥٢ .

(١٣٥) انظر محمد احمد جاد المولى ورفاقه ١٤٢ وما بعدها .

(١٣٦) قارن فترة عبد الله بن صفوان بن صباح بن طريف مع فترة جليله بن ثابت بن عبد العزي بن جلاس ، والاول من الوافدين على الرسول صلى الله عليه وسلم . انظر ابن حزم ، جمهرة الانساب ، ص ٢٠٦.

(١٣٧) البكري ٨٨/١ . وابن خلدون ١٣٥/٢ . وغيدا ء ٣٥ .

(١٣٨) . E. I. (1) DABBA.

(١٣٩) ابن قتيبة ، المعارف ٧٥ . وابن حبيب ، ا لمحبر ٢٣٤ . والثعالبي ، ثمار القلوب ١٢٦ .

(١٤٠) انظر أيام تميم . وأيام ضبه وأشهرها : يوم النسار ، والشقيقة ، وبزاخه ، ودارة ماسل والنقيمه محمد احمد جاد المولى ص ١٧٠ وما بعدها و ٤٤ ٣ وما بعدها .

(١٤١) انظر ابو عبيده ، النقائض ٢٢٠/١ ، ٢٢٤/١ ، ٢٢٥/١ . وشرح المفضليات ٢٦٤ وابن حزم ، جمهرة الانساب ص ٢٠٣ . وابن الاثير ٢٥٤/١ ، ٢٧٤/١ ، ٢٧٦/١ ، ٢٩٤/١ .

(١٤٢) ابو البقاء ١٤٠ ب .

(١٤٣) انظر شرح الحماسه التبريزي ١٤/١ ، ٢١٦/١ ، ٢٢٣/١ ، ٢٢٥/١ ، ٢٢٧/١ ، ٢٩٩/١ ، ٥٠/٢ ، ١٦٢/٢ ، ١٨٨/٢ ، ١٩٤/٢ .

(١٤٤) E. I. (1) DABBA.

(١٤٥) الجاحظ ، البيان والتبيين ٩٢/١ . وابن نباته ص ٩٠ .

(١٤٦) غيداء ، الرده ص ٣٤ . و E. I. (1) DABBA.

(١٤٧) ابن هشام ٢١٢/١ . والكلاعي ، ابو الربيع سليمان بن سالم المشهور بالكلاعي ، الاكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء ، تح . هنري ماسه ، الجزائر ١٩٣٠ ، ٢٧٢/١ . كاسكل ، دائرة المعارف الاسلامية .

(١٤٨) الانباري ، المفضليات ، ط . لايل ص ١٤ ، ٢٤ . والمرزوقي ، شرح الحماسه ص ٣١ . وابن الكلبي عند المرزباني ، نور القبس ص ٢٥٨ . وابن حبيب ، المنمق ١٤٣ – ١٤٦ .

(١٤٩) ابن هشام ، ٩٩/١ « حا : ٣ » . الالوسي /١ ٣٢٤ .

(١٥٠) انظر تفاصيل هذه الحرب عند ابن هشام /١ ١٨٤ وما بعدها . وابن الاثير ٣٥٨/١ وما بعدها وابن رشيق ٢١٨/٢ وما بعدها . ومحمد جاد المولى ص ٣٢٢ وما بعدها .

(١٥١) ابن حزم ، جمهرة الانساب ١٨٥ ، ٢٨٦ . والا صفهاني ، الاغاني ٥٧/٢٢ .

(١٥٢) انظر مصادر حرب الفجار حا : ١٤٩ من هـذا البحـث .

(١٥٣) ابو عبيدة ، النقائض ٩/٢ . وابن حبيب ، المحبر ٣٦٨ – ٣٦٩ .

(١٥٤) يوم جيله : كان لعامر وعبس على تميم ومعها ذ بيان وكنده واسد . محمد جاد المولى ٣٤٩ .

(١٥٥) يوم رحر حان : لعامر على تميم . ورحرحان ا سم جبل قرب عكاظ . ن . م . ٣٤٤ .

(١٥٦) يوم المروت : لتميم على عامر . ن . م . ٣٧٥ .

(١٥٧) ابو عبيده ، النقائض ط . ماريا نالينو ، روما ١٩٥٣ ، ١١٠/٢ . وابو البقاء ١٤٠ ب . وابن حـزم ٢٨٩ . وكاسكل ، جمهرة النسب ، ٢٨٥/٢ . و كستر ٢١ .

(١٥٨) انظر حروب تميم عند محمد جاد المولى ١٧٠ وما بعدها و ٣٤٤ وما بعدها .

(١٥٩) يشير الى ذلك أن هوازن حرمت قريش من عكاظ اثناء حروب الفجار ، ويكفي ان نتذكر قول عامر بن مالك ملاعب الاسنة زعيم هوازن : « والله لا تنزل كنانة عكاظ ابدا » . محمد جاد المولى ٣٣٠ .

(١٦٠) انظر تفاصيل هذه الغزاة عند الواقدي ، المغا زي ، تح . مارسيدن جونز ص ٨٨٥ وما بعدها .

(١٦١) انظر حتي وزميليه ، تاريخ العرب المطول ، ط ٤ . دار الكشاف ١٩٦٥ ص ١١٦ .

(١٦٢) وهم إشراف كانت الملوك تقطعهم القطائع ، وهم قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ابن عبد الله ذي الجدين بن عمرو بن الحارث بن همام بن مره بن ذهل بن شيبان وكان كسرى اطعمه الأبله وثمانيـن قرية من قراها . ويزيد بن مسهر بن اصرم بن تعلبه بن أسعد بن همام بن مره بن ذهل بن شيبان . والحارث بن وعله بن المجالد بن يثربي بن الزبان بن الحارث بن مالك بن ذهل بن ثعلبه بـن عكابـه . انظر ابن حبيب ، المحبر ٢٥٣ .

(١٦٣) اطلق هذا اللقب على عدد من زعماء القبائل ، وكان صاحب اللقب انما يضع في الغالب خرزات علـى راسه ، انظر ابن الكلبي ، جمهـرة النسب ، الورقات : ٢٦٩ ، ٢٨٨ ، ٤١٧ « هـوذة ذو التاج » والمبرد ، الكامل ٢٧٠/١ ، ٧٣٠ . والطبري ٢/ ١٦٩ وابو البقاء ، ٢١ أ ، ٢٤ أ ، ٣٧ أ ، والثعالبي، ثمار القلوب ١٤٤ .

(١٦٤) وهذه الالقاب منحها البيزنطيون الـى زعمـاء الغساسنة وزعماء القبائل الموالية لهم . انظـر حتي ١٠٣/١ . وصالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٥٧ .



المقاومة العربية للصهيونية

أواخر العهد العثماني (١٩٠٨ - ١٩١٧)

الاتجاهات الرئيسية

د. خيرية قاسمية
جامعة دمشق

اولا : مقدمة :

لم تشكل فلسطين خلال العهد العثماني وحدة ادارية أو جغرافية تميزها عن سورية ، وهي المنطقة التي عرفتها الجغرافية العربية باسم الشام أو بر الشام(١) ، الا ان الاحساس بخطر الغزو الصهيوني كان عاملا أساسيا على توضيح مفهوم فلسطين ذي الجذور الدينية التاريخية وتوحيد عرب فلسطين في مناطقهم المختلفة ، وابراز الشخصية الفلسطينية خلال السنوات الاخيرة من العهد العثماني .

وكانت فلسطين قد شهدت منذ الربع الاخير للقرن التاسع عشر تدفق مجموعات صغيرة من أوربا الشرقية من افراد حركة « أحباء صهيون » ليس بدافع التقاليد الدينية بل بدعوى أن فلسطين هي وطن للشعب اليهودي ، هدفهم خلق جماعة متميزة عما حولها باللغة والثقافة واسلوب الحياة ، واخذت بالقيام بتجارب عملية لاستيطان زراعي حديث . وترسم طلائع هذه الحركة التي وصلت فلسطين عام ١٨٨٢ بداية الصهيونية الحديثة(٢) .

وقد طوّرت هذه الحركة على يد هرزل الصحفي اليهودي النمسوي الذي عمل على خلق صهيونية جديدة في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر في غرب اوربة فكرت بأساليب سياسية للحصول على فلسطين ذاتيا (وهو ما اصطلح على تسميته بالوطن القومي) عن طريق وثيقة من السلطان مضمونة دوليا والتي عرفت « ببرنامج بازل »(٣) . والتقت تلك الافكار مع ظروف دولية مواتية كان مصلحتها زرع استيطان يهودي في فلسطين ، وبدت الحركة الصهيونية وجها آخر من الغزو الاوربي للمشرق العربي(٤) .

المؤتمر الخامس للجنة الدولية للدراسات العثمانية - تونس - ١٩٨٢ .

ولكن مناورات هرزل الدبلوماسية وجهود المنظمة الصهيونية التي أنشأها والمؤسسات التابعة لها بمواردها الضخمة ، اثبتا فشلهما لضمان أساس قانوني للهجرة وللاستيطان اليهوديين(٥) ، فقد كانت تقف أمام المشروع الصهيوني عقبات كثيرة : اذ ان فلسطين هي الارض المقدسة للديانات الثلاث ، ولا يمكن للحكومة العثمانية ان تقبل بفصلها عن الدولة العثمانية ، كما ان السلطان كان يحجم عن اضافة « مسألة يهودية » الى التنافسات العرقية والدينية المتعددة التي تكتنف الامبراطورية ، او الى مزيد من القوميات الاجنبية المتمتعة بالامتيازات ، وكان على استعداد لان يستوطن اليهود في اي مكان غير فلسطين ودون حقوق خاصة ، ولم يكن هذا هو « الحل الصهيوني » الذي تصوره هرزل . ورفض السلطان ان يمنح اليهود ميثاقا حتى مقابل الملايين واعلن بوضوح عن رفضه لبيع فلسطين(٦) .

والواقع ان الحكومة العثمانية كانت قد تحققت من خطر استيطان اليهود الاجانب باعداد كبيرة في فلسطين منذ بداية الهجرة اليهودية(٧)، وصدرت الاوامر الاولى من اجل منع تدفق الهجرة اليهودية عام ١٨٨٧ ، (وظلت هذه الاوامر تتكرر دوما بتعديل طفيف) ، وهي تنص على السماح لليهود بالدخول الى البلاد كحجاج أو زوار ، وبدفع كل يهودي مبلغ خمسين ليرة تركية كتعهد بأن يغادر فلسطين خلال ٣١ يوما . وربما كان تزايد القلق بشأن الاستيطان اليهودي هو الذي دفع السلطان عام ١٨٨٧ الى جعل القدس سنجقا مستقلا عن ولاية دمشق ، وله اتصال مباشر بالباب العالي(٨) . وفي عام ١٨٩٩ صدرت قوانين جديدة سمح بموجبها لكل يهودي بالاقامة ٣ شهور على أن يسلم جواز سفره عند نزوله الى موانىء ولاية بيروت أو متصرفية القدس ، ويتسلم بدلا منه تذكرة حمراء « تذكر فيها المهنة والجنسية وسبب الرحلة » ، وعند انتهاء الاشهر الثلاثة تقوم السلطات المحلية بترحيل اليهود عن طريق الهيئات القنصلية الاجنبية . وفي الحقيقة لم يكن للسلطات العثمانية منذ البداية صلاحية طرد الرعايا الاجانب اليهود لتمتعهم بنظام الامتيازات ، كذلك حاول المهاجرون اليهود تأمين الدخول بتغاضي السلطات المحلية(٩) . مع ذلك فالقيود العثمانية كانت تعوق المشروع الصهيوني . حتى أن الحركة الصهيونية قبل زوال نظام السلطان عبد الحميد كانت قد يئست من تحقيق برنامجها نتيجة لصعوبات سياسية بالغة ، وحوّل هرزل انظاره عن فلسطين ، وانشقت فئة كبيرة عن الحركة الصهيونية ابتدأ عملية تطواف في العالم بحثاً عن مكان يشكل فيه اليهود كيانا سياسيا خاصا بهم (١٠) .

وكانت المعارضة العربية للصهيونية هي الظاهرة الهامة التي واجهت اليهود المهاجرين الى فلسطين ، فقد اثار الاستيطان اليهودي منذ بداياته الاولى مشاعر التخوف لدى عرب فلسطين بسبب الظواهر الجديدة التي حملها المهاجرون في تسللهم

نحو فلسطين والتي خرقت طريقة الحياة التقليدية التي تعيشها الطائفة اليهودية القديمة في فلسطين ، التي تسكن المدن وتنصرف الى امورها الدينية وتعيش على الاحسان أو على بعض الحرف البسيطة .

وجاءت ردود الفعل العربية لهذا التغلغل الصهيوني مبكرة رغم انها كانت متقطعة ولم تتخذ طابعا سياسيا ، وقد خلق الاستيطان اليهودي فرصا واسعة للنزاع بين المستوطنين الجدد والفلاحين العرب الذين لمسوا بشكل مباشر المساوىء التي رافقت عملية الاستيطان والتي هددت معيشتهم ، وهذا ما دفعهم الى شن الهجوم المسلح المتواصل على المستوطنات(١١) . ومع موجات الهجرة المتدفقة اتخذت المعارضة شكلا واعيا لابعاد خطر المشروع الصهيوني الذي يحل "القادمين الجدد محل اهل البلاد بعد أن يجردوهم من املاكهم . وفي عام ١٨٩١ رفع بعض وجهاء القدس عريضة الى السلطات العثمانية طالبوا فيها بمنع الهجرة وشراء الاراضي منعا باتا(١٢) . وتعتبر العريضة اول عمل عربي منظم ضد الهجرة والاستيطان اليهوديين . وقد تكون أحد الاسباب التي دفعت الاستانة الى تشديد قيودها على الهجرة وشراء الاراضي من قبل اليهود .

واثار عقد المؤتمر الصهيوني الاول ١٨٩٧ اهتمام الرأي العام العربي(١٣) ونبه الشيخ رشيد رضا على صفحات المنار أبناء بلاده الى الخطر الصهيوني الذي يعمل على استعمار بلادهم والحد من حرية اوطانهم ودعاهم الى التفكير في المسألة ودرسها(١٤) . وعبّر نجيب عزوري في مقدمة كتابه « يقظة الامة العربية »(١٥) عن المظاهر السياسية لمطامع القوميين اليهود ، ونبه الى الخطر الصهيوني وتوقع صراعا محتملا بين يقظة الامة العربية والجهد الكامن لدى اليهود لاعادة بناء مملكة «اسرائيل» .

ثانيا : العوامل الجديدة في تطور حركة المقاومة العربية للصهيونية ١٩٠٨ — ١٩١٤ :

رافق تبدل النظام السياسي في الدولة العثمانية وتولي جماعة تركيا الفتاة السلطة ١٩٠٨ تغيرات بعيدة المدى كان من بينها زيادة حدة المقاومة العربية للصهيونية بعد أن كانت البذور قد غرست قبل ذلك بسنوات . ويعود ذلك الى عدة عوامل : تساهل الحكم الجديد مع الحركة الصهيونية داخل فلسطين وخارجها ، ظهور الصحافة العربية في الاجزاء العربية من آسيا وخاصة في فلسطين ، وعودة النظام البرلماني ، واخيرا سعي الحركة العربية للحصول على حقوق العرب القومية داخل اطار الدولة العثمانية .

ا ـ تساهل الحكم الجديد مع الصهيونيين :

قدم تغير النظام السياسي في الدولة العثمانية آمالا جديدة للصهيونية ، بعد أن واجهت عقبات بالغة في العهد السابق(١٦) . ولكن وصول الاتحاديين للسلطة ومساهمة فئات من اليهود العثمانيين والدونمة* في احداث الانقلاب السياسي(١٧) ثم حاجة الدولة للاموال اليهودية(١٨) ، أدت الى تساهل السلطات العثمانية في تطبيق القيود السابقة على الهجرة واستملاك الاراضي ، ودفع العمل الصهيوني في فلسطين خطوات الى الامام . ورغم أن الخط الصهيوني الجديد بدأ يتخذ اتجاها جديدا من الدعاية تحت ستار الولاء للعثمانية ؛ والعمل لمنفعة الدولة ونفي الهدف السياسي(١٩) ، ولكن هذا لم يمنع من أن يظل الهدف الاصلي لمشروع هرزل بانشاء الوطن القومي كامنا في خلفية اذهان الصهيونيين(٢٠) . واستمروا في البحث عن ضمانات دولية وكسب الدول جميعها كعامل ضغط على الدولة العثمانية بهدف ازالة العقبات التي تعرقل ولا تمنع العمل الصهيوني والمتعلقة بقوانين الهجرة وامتلاك الارض ، ثم الحصول على امتيازات وتنازلات جديدة(٢١) ، بحيث أنه حين نشبت الحرب العالمية الاولى كانت هناك أكثر من ٤٠ مستوطنة تملك ما يقدر بـ ٤٠٠،٠٠٠ دونم من أحسن الاراضي في فلسطين ، في الجليل ومرج بن عامر وسهل سارونة(٢٢) .

ومع كل ما ابدته الحكومة العثمانية من عطف فقد ظل موقفها حذرا اذ كانت الصهيونية تمثل مفتاح التدخل الاجنبي والاطماع السياسية ، ولم يقم الحكم الجديد الا بحجة انقاذ الدولة من هذه الاطماع . وكان يزيد من تردد الحكم الجديد في دعم النشاط الصهيوني بشكل مفتوح عامل آخر هو العداء العربي للتغلغل الصهيوني ، اذ كان لا يمكن للدولة العثمانية أن تتجاهل الرأي العام العربي الذي اصبح له وزنه في أعقاب التغييرات السياسية(٢٣) .

ب ـ الصحافة العربية في فلسطين وخارجها :

استفادت الصحافة العربية من الحرية التي منحت بعد ١٩٠٨ ولعبت صحف فلسطين دورا هاما في تنبيه الرأي العام للخطر الصهيوني الذي يهدد حياة الفلاحين

---

* الدونمة هم جماعة من اليهود المتسترين من اتباع شبتاي زيفي وهو يهودي من سمرنا ادعى ١٦٦٦ انه المسيح المنتظر ثم اعتنق الاسلام وظلت عقيدة (الشباتية) موجودة لدى فئة في سالونيك تعتنق الاسلام ظاهريا ويظن انهم يمارسون شعائر يهودية سرا

Times, 12.5.1910, p. 5.

والوجود العربي ، واخذت تلاحق انتقال الاراضي وتطالب بتشديد القيود على الهجرة والاستيطان اليهوديين ، وتنشر انباء النشاطات الصهيونية فكانت عاملا في زيادة مشاعر العداء للصهيونية وفي اثارة وعي الشعب لمواجهة هذا النشاط وطرق مكافحته ، بحيث اصبحت معارضة الهجرة الصهيونية بعد عام ١٩٠٨ موضوع الاحاديث الدائمة للناس . وقادت الحملة في بادىء الامر صحيفتا الاصمعي(٢٤) والكرمل (اسستا عام ١٩٠٩) ثم المنادى(٢٥) وفلسطين (اسستا ١٩١٢) . وكان رئيس تحرير « الكرمل » الصادرة في حيفا « نجيب نصار »* اول من حمل لواء المعارضة للصهيونية في فلسطين خلال الفترة السابقة للحرب دون توقف ، ولعب دورا بارزا في كشف وتعرية الخطر الصهيوني على فلسطين والفلسطينيين ، وقاد حملة توعية على صفحات جريدته التي كانت معظم نسخها توزع مجانا(٢٦) . ونشر في جريدته مرارا البرقيات الموجهة من فلسطين الى الاستانة احتجاجا على شراء الاراضي ، وطالب باتخاذ اجراءات اشد لمنع دخول المهاجرين ومنع بيع الاراضي . وردا على اعتزام الحكومة العثمانية بيع الاراضي الاميرية التابعة للدولة في منطقة بيسان(٢٧) الى اليهود الاجانب وجهت الكرمل في ٧ تموز ١٩١٣ نداء « هل تقبلون أن تصبحوا عبيدا للصهيونيين الذين جاءوا لطردكم من بلادكم مدعين انها بلادهم ؟ .. ايرضيكم ذلك ايها المسلمون والسوريون والعرب ، اننا نؤثر الموت على أن نسمح بأن يحدث ذلك » ، وحث النداء الشعب على تشجيع الصناعات الوطنية والمهن والزراعة وعدم الاعتماد على الحكومة في ذلك ويكشف النداء أن الفلسطينيين قد فقدوا الامل في أن تتخذ الحكومة أي اجراء ضد العدوان الصهيوني فتحركوا نحو تنظيم انفسهم(٢٨) .

وكانت جريدة فلسطين (للاخوين العيسى من يافا)(٢٩) قد بدأت بلهجة أقل حدة من الكرمل وان كانت في الاشهر السابقة للحرب قد شددت حملتها وتفوقت على الكرمل في مناوئة الصهيونية(٣٠) . وفي آب ١٩١٣ أعلنت انها زادت عدد صفحاتها حتى تتمكن من استيعاب العدد المتزايد من العرائض والاحتجاجات التي تقدم ضد الصهيونية(٣١) . وقد ادت شكاوي الصهيونيين ضد المقالات التي كانت تنشرها الصحف الفلسطينية الى اصدار الاوامر بتعطيلها بين حين واخر(٣٢) . وكانت قاعات المحاكم في حيفا ويافا التي حاكمت مرارا اصحاب الصحف المعارضة للصهيونية تغص بجمهور الحاضرين وكانت تعقب كل تبرئة شبه مظاهرة وطنية(٣٣) .

---

* نجيب نصار ١٨٦٢ - ١٩٤٨ من اصل لبناني(عين عنوب) عمل في معظم وطبرية كمساعد صيدلي ثم مارس الزراعة وخبر احوال الاستيطان الصهيوني واطلع على الانسكلوبيديا اليهودية وانهمك في دراسة الصهيونية وكتابة المقالات في صحف القاهرة وبيروت قبل ١٩٠٨ وبعد اعلان الدستور اصدر صحيفة الكرمل اذار ١٩٠٩ .

ونقلت الصحف المحلية القضية خارج حدود فلسطين ، فأثار الخطر الصهيوني المناقشات والجدل في صحف بيروت (فتى العرب ، المفيد ، الرأي العام) ودمشق (المقتبس)(٣٤) والقاهرة (المقطم ، الاهرام ، المنار(٣٥) ، المؤيد ، الاقدام) . وتبنت تلك الصحف الحملة المناوئة لبيع الاراضي العربية للمستوطنين اليهود وتابعت نمو الحركة الصهيونية ومؤتمراتها واقوال زعمائها وشرح مخططاتها الرامية للحصول على الارض ومن ثم انشاء الكيان الصهيوني . واجرت جريدة « الاقدام » في القاهرة مقابلة أواخر اذار (مارس) ١٩١٤ مع خليل السكاكيني أحد مؤسسي المدرسة الدستورية في القدس فقال « ان الصهيونيين يريدون ان يمتلكوا فلسطين قلب الاقطار العربية والحلقة الوسطى التي تربط شبه الجزيرة العربية بافريقية ، وهكذا يبدو أنهم يريدون كسر الحلقة وتقسيم الامة العربية الى جزئين للحيلولة دون توحيدها ، فعلى الشعب ان يكون واعيا ، انه يمتلك ارضا ولسانا ، واذا شئت أن تقتل شعبا فاقطع لسانه واحتل ارضه ، وهذا بالضبط ما يعتزم الصهيونيون ان يفعلوه » .

ج ـ عودة الحياة البرلمانية :

اتاحت عودة الحياة البرلمانية في الدولة العثمانية للمندوبين العرب داخل المبعوثان ايجاد روابط بين امانيهم السياسية القومية تتجاوز المصالح الاقليمية(٣٦) . وكان الخطر الصهيوني احد العوامل التي زادت في توثيق هذه الروابط . وحين طرح الموضوع على المناقشة رسميا ١٩١١(٣٧) انطلق النواب العرب من جميع الولايات العربية (منهم نائب دمشق شكري العسلي(٣٨) ونائب القدس روحي الخالدي وغيرهما) لطرح المسألة الصهيونية بجدية حقيقية وذلك بشرح ابعاد المخطط الصهيوني والعمل على احباطه وضرورة مواجهته والمطالبة بوقف النشاط الصهيوني وحث الحكومة على اتخاذ اجراءاتها ضد الهجرة وبيع الاراضي والتنبيه الى المظاهر القومية للصهيونية في فلسطين كالعلم الخاص والطوابع البريدية الخاصة والمدارس والمحاكم واستخدام اللغة العبرية(٣٩) . وأثاروا اهتمام الدولة العثمانية بالمسألة على اعتبار ان خطورتها تهدد كيان الدولة وانتقدوا تهاون السلطات ، وطالبوا باعادة فعالية القيود المفروضة على الهجرة وتملك الاراضي(٤٠) . وكانت المعاداة للصهيونية ضمن البرامج الانتخابية للمرشحين العرب الى انتخابات المبعوثان عامي ١٩١٢ و ١٩١٤ لازالة الضرر والخطر اللذين ينتظران العرب على يد الصهيونية(٤١) . وكان تأكيد مرشحي المبعوثان في متصرفية القدس على مقاومة الصهيونية كجزء من برنامجهم دليل على أن هناك راي عام يجب الاخذ به بعين الاعتبار(٤٢) . وقد حرص المندوبون العرب على ان يؤكدوا دوما على التمييز بين المواطنين اليهود القدامى الذين عاشوا معهم في علاقات

طيبة خلال كل العصور ، واليهود الصهيونيين الذين ادخلوا الفكر السياسي للوطن القومي(٤٤) .

د ـ الحركة العربية الحديثة :

كانت النخبة العربية من المثقفين تسعى جاهدة منذ مطلع القرن ، بعد فترة احياء فكري ، للحصول على حقوق العرب القومية واعادة العرب الى موقعهم الصحيح داخل الدولة العثمانية . وقد دخلت الحركة العربية بعد عام ١٩٠٨ في طور جديد بعد تغير نظام الحكم ، واخذت حركة التململ والتذمر من الحكم العثماني طابعا عربيا اكثر تحديدا كرد فعل للتحدي التركي . وتشكلت الاحزاب والجمعيات العربية التي ساهم فيها شباب الاوساط المثقفة من ابناء فلسطين ، وسعت لنيل حقوق العرب داخل الدولة(٤٥) . وهي في نضالها هذا ادركت ان الصهيونية تهدد الفكرة العربية الناشئة نظرا للطبيعة الخاصة للحركة الصهيونية التي تختلف عن طبيعة اي احتلال اجنبي لانها تهدف الى الاستيطان والانتزاع النهائي لاقليم هام له مكانته الخاصة في الوطن العربي والانتقال منه الى اقاليم اخرى والوقوف في وجه الوحدة العربية وتهديد مصالح الوطن العربي الحيوية . فوضعت تلك الاحزاب والجمعيات نصب عينها مقاومتها باستخدام كل القوى المتاحة من اجل التغلب على قوة الحركة الصهيونية والعمل على ابقاء فلسطين عربية(٤٦) . واذا كان المؤتمر العربي الاول ١٩١٣(٤٧) لم يبحث باسهاب وتفصيل مشكلة الخطر الصهيوني في فلسطين ، ولم يتخذ بالتالي مقررات بشأن هذه المشكلة الهامة والخطيرة(٤٨) ، فلعل مرد ذلك الى أن الحركة العربية كانت مستغرقة في بحث الطرق والوسائل الكفيلة بتحقيق الاستقلال الذاتي للمناطق العربية في الدولة العثمانية(٥٠) .

ثالثا : اشكال المقاومة العربية للصهيونية حتى عام ١٩١٤ :

اتفقت وجهة النظر العربية على أن ادخال الصهيونية الى فلسطين خطر كبير ، الا انها اختلفت في تقديرها لمدى هذا الخطر تبعا للفئات الاجتماعية وللمناطق :

فالمثقفون من ابناء فلسطين من سكان المدن الذين اطلعوا على الثقافة الغربية وتابعوا نمو الحركة الصهيونية ومؤتمراتها وأقوال زعمائها وعرفوا أهدافها البعيدة ومخططاتها ، الى جانب ما لمسوه من أعمالها مباشرة ، قد باتوا يخشون على الوجود العربي نفسه في فلسطين ، وادركوا ان غرض الصهيونيين الحالي هو الحصول على اكبر قدر ممكن من الاراضي واستيطانها ، والوصول بذلك الى الغرض السياسي البعيد . وعبروا عن معارضتهم في تسجيل الاحتجاجات(٥١) وفي كتابة المقالات في

الصحف وارسال البرقيات والوفود على مختلف المستويات . كما اخذت معارضتهم شكلا منظما فتم تشكيل منظمات محلية مهمتها الحيلولة دون بيع الاراضي الى اليهود(٥٢) ، وكذلك لجان في السواحل للاشراف على نزول اليهود في الموانيء والتاكد من تطبيق قيود الدخول . وتشكلت الأحزاب والجمعيات المنظمة لمعارضة الصهيونية مثل الحزب الوطني العثماني عام ١٩١١ (٥٣) ، وجمعية مكافحة الصهيونية في نابلس(٥٤) ، وأخذت تكتسب الأنصار وتتحرك نحو مرحلة العمل . وحذت حذوها جمعيات مماثلة في اسطنبول والقاهرة(٥٥) . وظهرت المؤلفات والاثار الادبية التي اخذت ترسخ روح العداء في صفوف الجماهير ، كمؤلفات اسعاف النشاشيبي والشيخ سليمان التاجي الفاروقي . وبدأت الدعوة الى مقاطعة البضائع اليهودية وترقية أحوال البلاد الاقتصادية ، وتحسين أوضاع الاراضي ، ورفع سوية الفلاحين واقتباس أساليب الصهيونية العلمية والتنظيمية مع الادراك بأن المعارضة للصهيونية لا يمكن ان تصبح فعالة الا من خلال اكتساب المعرفة والمهارة والتنظيم(٥٦) .

وقد شارك في هذا العمل مسلمون ومسيحيون ، وكان الشعور بالخطر الصهيوني من جملة العوامل التي قربت بين الفئتين(٥٧) . وتكون نتيجة جهد المثقفين رأي عام كان يتابع تطور الحركة الصهيونية من خلال منشوراتها وكتبها وصحفها . وان كان هذا الاطلاع قد اقتصر على فئة المثقفين الا أنه لا يمكن انكار الراي العام(٥٨) ، ودليل ذلك ان قاعات المحاكم في حيفا ويافا التي حاكمت مرارا أصحاب الصحف المعارضة للصهيونية كانت تغص بجمهور الحاضرين وكانت تعقب كل تبرئة شبه مظاهرة وطنية .

أما معارضة كبار الملاك فقد كانت ناجمة عن تهديد عملية شراء الاراضي لمصالحهم المباشرة ، وكانوا يدركون ما تحمله هذه العملية من أخطار بعيدة ترمي الى اقتلاعهم من الارض . واتهم الصهيونيون طبقة الملاك والأعيان بأنهم يثيرون اتباعهم حرصا منهم على مراكزهم ومصالحهم . ولكن هذا لم يمنع من أن يتم بيع بعض الاراضي على أيدي هؤلاء مباشرة أو عن طريق عملاء من اليهود المحليين دون مبالاة بضغط الرأي العام ضد البيع ، ورغم الاضرار التي كانت تلحق بمستأجري الارض من الفلاحين(٥٩) العرب . وكان معظم الملاك الكبار يقيمون في المدن وفي خارج فلسطين على الأغلب ، وليس لهم اهتمام مباشر بأراضيهم .

وعلى الرغم من ان الفلاحين في القرى لم يصلوا الى درجة الوعي الكافية لادراك أبعاد الخطر(٦٠) ، الا أنهم قد لمسوا بشكل محسوس المساوىء الاقتصادية التي رافقت عملية الاستيطان نفسها ، فعملية شراء الاراضي غالبا ما كان يتم على على أثرها طرد الفلاحين العاملين على تلك الاراضي التي كان يتم شراؤها ، وكانوا غالبا لايملكون

هذه الاراضي ، بل هي اما من املاك الدولة او في حوزة اصحابها من كبار الملاك . وكانت الملكيات الواسعة هي التي يطمح الصهيونيون الى شرائها ، ومن هنا كانت ردود فعل الفلاحين عنيفة ، بدأت مع بداية الاستيطان . وقد تكررت هجمات الفلاحين المسلحة على المستوطنات التي أقيمت وسط القرى العربية(٦١) ، ولاسيما في مناطق طبرية والجليل ويافا حيث تتركز أكثر المستوطنات . وهذا ما دفع المستوطنين الصهيونيين الى تنظيم الحراسة اليهودية المسلحة للمستوطنات ، لحمايتها من غضب الفلاحين . ومن هذه التجربة تطور نظام « الهاشومير » (الحراس اليهود) أو بدايات « حركة الدفاع الذاتي اليهودي » . وكان مؤسسو هذا النظام يعرفون أن طريقهم « ليس معروشا بالورود(٦٢) » ، الا أن محاولة انشاء هذا النظام كانت دليلا على أن المستوطنين كانوا يشعرون بالمصاعب التي تواجه عملية الاستيطان . وقد أوكل الى « الهاشومير » بناء مستوطنات زراعية على الحدود كي يتولوا مهمة الدفاع ومهمة العمل كطلائع للاستيطان في الوقت نفسه ، ويقول احد مؤسسي هذا النظام : « انهم منذ الأيام الاولى قد شقوا طريق الصهيونية الصعب بيد على المحراث وأخرى على السيف(٦٣) » . وهذا الشعور بعدم الأمن هو الذي دفع « آرثر روبن » مدير مكتب فلسطين الى الالحاح على المنظمة الصهيونية لتزويد المستوطنات بالاسلحة حتى تتمكن من الدفاع عن نفسها(٦٤) .

ورافق استياء الفلاحين من قدوم المستوطنين اليهود موجة من الغضب على المالكين العرب أصحاب الاراضي الواسعة الذين تساهلوا في تمليك المستوطنين لاراضيهم . وكانت الكتابات المعارضة للصهيونية تصل الى الريف فتزيد حدة المشاعر المناوئة للصهيونية . ولم يكن في الامكان ان تخفف مشاعر العداء مزاعم الصهيونيين أن هذا العداء بتحريض الملاك الكبار ، وانه لولا ذلك لتقبل الفلاحون الوجود الصهيوني بسبب تلك المنافع التي ادعى الصهيونيون انهم حملوها معهم(٦٥) . وعلى الرغم من أن الصهيونيين حاولوا أن يقللوا من اهمية هذه العلاقات العدائية ، فقد اقروا بأن الحياة الريفية في فلسطين لم تكن آمنة(٦٦) .

اطلع **قادة الرأي العام** خارج فلسطين على الخطر من خلال الصحافة الفلسطينية وعن طريق كثير من الموظفين العرب الذين عملوا في المنطقة ، ومن خلال اللقاءات القومية في الاحزاب والجمعيات . وقد اتفقت وجهات نظرهم حول الخطر ، ووضعوا حلولا لمواجهته ، الا ان بعض الفئات القومية العربية ، في خارج فلسطين ، نظرا لانها لم تكن على صلة مباشرة بما كان يجري(٦٧) ، اختلفت في تقدير مدى هذا الخطر ، فاتجهت الى التقليل من اهميته السياسية ، ورأت أن النشاط الصهيوني يحمل فقط خطرا اقتصاديا او اجتماعيا ، بحيث اشترطت أخذ الضمانات الكافية ضد هذه

الاخطار وتنازل اليهود عن جنسياتهم ليتساووا بالمواطنين ، كخطوة تمهيدية لقبولهم بقدوم المهاجرين الى حد يتيح الاستفادة منهم . وقد يكون انشغال هذه الفئات بمواجهة الخطر التركي المراكزي الشديد ، أو سعيها لاقتباس أساليب الصهيونية الغنية ، سببا في قبولها فكرة التفاهم والاتفاق مع الصهيونيين اسلوبا لتلافي الخطر الصهيوني ومحاولة لتقييد الحركة الصهيونية بشروط معينة تحد من امتدادها(٦٨).

وقد فشلت محاولات عقد مؤتمر مشترك قبل الحرب العالمية الاولى لأن القيادات الصهيونية لم تشأ ان تلزم نفسها بأي اتفاق ولان الوعي العربي على ابواب الحرب العالمية الاولى كان قد ادرك تماما مدى الخطر الذي يهدده في المستقبل(٦٩) ، وبدا يرسم خطوطا عامة لمواجهة هذا الخطر بأسلوب جامع يبدأ بانشاء الجمعيات وينتهي بالعمل المسلح(٧٠) . وكتب محمد المحمصاني (أحد مؤسسي جمعية العربية الفتاة) عام ١٩١٤(٧١) « اننا لسنا ازاء حركة مباراة ومنافسة ، بل حركة دفاع عن حياة عامة توجب الأخذ بكل طرق المقاومة ، لا فرق بين انشاء الجمعيات والنقابات وبين تأليف العصابات المسلحة . . يجب أن نقيس عملنا على جميع ماعند الصهيونيين من القوى العاملة كي يتاح لنا التفوق على حركتهم ونبين لهم كيف تبقى بلاد العرب للعرب » .

ولم تقف الحركة الصهيونية موقف اللامبالاة من المعارضة العربية ، مع أن الزعامة الصهيونية لم تعر « المسألة العربية » اهتماما خطيرا في باديء الأمر ، ولم تنظر الى العرب كعامل سياسي هام يجب أخذه بعين الاعتبار . وكانت جهود الصهيونيين تدور حول الدولة العثمانية ومن له القدرة فيها على ازاحة القيود المفروضة على عملية الهجرة والاستيطان .ورغم ان آحاد هاعام (أحد كبار مفكري حركة احباء صهيون(٧٢))كان من الاوائل الذين تبينوا الخطر الذي قد تضعه « المسألة العربية » أمام تقدم المشروع الصهيوني ، الا أن وجهة نظر الصهيونية العامةبالنسبة الى العرب كانت ترى أن المنافع الاقتصادية وامكانات التقدم الفني والثقافي التي تحملها الهجرة اليهودية كفيلة بجعل عرب فلسطين يرون في الهجرة فائدة لهم ، فلا يضعون العراقيل في طريقها . وهذا الراي كان ايضا في جذور تفكير هرتزل حول الموضوع ، وظل سائدا لمدة طويلة (٧٣) .

وحاول الصهيونيون التقليل من اهمية المقاومة العربية ، فأرجعوا اسبابها الى امر طبيعي يحدث في اي بلد يفد اليه مهاجرون جدد ، وتنشأ طبيعيا عن المواجهة بين عالمين مختلفين ، أحدهما متخلف والاخر متطور . وشبهوا الموقف المضاد « بقوى الصحراء التي تقف كالحارس ضد اي محاولة استيطان جديد(٧٤) » . كما عزا

بعض المستوطنين الاوائل الاصطدامات الاولى بين الفلاحين والمستوطنين اليهود الى جهل اللغة والعادات والطبائع العربية(٧٥) ، واعتبر بعض كبار الصهيونيين ان المعارضة العربية تعود الى ظروف اقتصادية اجتماعية ، او الى عداء «مسيحي(٧٦)» متأثر بفكرة « المعاداة للسامية » ، التي حملها الكتاب الكتاب المسيحيون من الثقافة الغربية(٧٧) .

ومع تغير الاوضاع السياسية في الدولة العثمانية عام ١٩٠٨ وازدياد اهمية الدور العربي ، لم يعد بامكان الصهيونيين تجاهل العرب كقوة سياسية رغم كل تساهل الحكام الجدد تجاه النشاط الصهيوني . واثار قلق الصهيونيين تزايد المعارضة العربية للصهيونية ، والتي كانت تعرقل مساعيهم لإحتلال فلسطين . لذلك بذلوا جهوداً لابطال مفعول المعارضة ، وجندوا عدداً من الكتاب اليهود للدفاع عن الصهيونية على صفحات الجرائد العربية وللتأكيد على منافعها المادية(٧٨) ، واشتروا بعض الصحف الناطقة بالعربية(٧٩) ، وسعوا لدى الدولة العثمانية كي تتخذ من الصهيونية سلاحا مضادا للفكرة القومية العربية(٨٠) . وكانت آخر مساعيهم الديبلوماسية محاولة كسب تعاطف وموافقة بعض القيادات العربية للوصول الى تحالف عربي يهودي بحجة المنفعة المتبادلة وتقارب الشعبين والعمل معاً لاحياء الشرق(٨١)، ومايمكن أن تقدمه الصهيونية من منافع مادية للبلاد العربية كلها ، وليس لفلسطين وحدها . وكان أصحاب هذه الدعوة يخشون على المشروع الصهيوني من الفشل ، فراوا تجاوز المصاعب تحت ستار التفاهم والتقارب والاخوة والمصلحة المشتركة . ولم يكن بامكان هذه الأساليب أن تغير مجرى الاحداث التالية ، اذ كانت العلاقات العربية الصهيونية قد زادت حدة على ابواب الحرب العالمية الاولى (٨٢) .

رابعا : مقاومة عرب فلسطين للصهيونية خلال سنوات الحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٧ :

عطل نشوب الحرب العالمية الاولى المقاومة العربية للصهيونية ، وانصرفت الحركة العربية عن ملاحقة المسألة الصهيونية لعدة اسباب :

أ ـ انتقال مركز نشاط الحركة الصهيونية الى مجالات عالمية بعد أن أصبح تحقيق المطامع الصهيونية اقرب الى الواقع مع قرب انتصار الحلفاء وانهيار الدولة العثمانية . وقد انتقل مركز الثقل الصهيوني الى لندن وزاد ضغط الحركة الصهيونية على الحكومة البريطانية لاصدار تصريح بالعطف على المطامع الصهيونية في فلسطين ، مستغلة الاهتمام البريطاني السابق للحرب في فلسطين ، والذي زادته الظروف الاستراتيجية الناجمة عن الحرب(٨٣) . ووصلت المفاوضات المكثفة بين

الزعماء الصهيونيين والحكومة البريطانية الى أوجها بتصريح بلفورفي٢/١١/١٩١٧(٨٤) وحين كان التخطيط يرسم لمستقبل فلسطين لم تكن المسألة العربية مجهولة بالنسبة الى المفاوضين ، وكان أمر المعارضة العربية القوية للنشاط الصهيوني معروفا لديهم . وعلى الرغم من ذلك جاءت « فكرة الوطن القومي اليهودي » لتهمل الوجود العربي ، ولم يشر التصريح الى العرب الفلسطينيين الا بأنهم « طوائف غير يهودية » في وقت لم يكن عدد اليهود يتجاوز ٤٪ من السكان(٨٥) .

ب ـ الانهاك الشديد الذي حل بشعب فلسطين ، كسائر ابناء المنطقة : بسبب الظروف الاقتصادية القاسية وانتشار الجوع(٨٦) والمرض ، خاصة بعد أن اتخذت فلسطين نقطة انطلاق لهجوم عثماني على جبهة السويس . وكانت نتائج الهزيمة العثمانية على أهل الشام عامة وعلى أبناء فلسطين خاصة قاسية ، فعانوا من النفي والاعتقال والاعدام ومصادرة الممتلكات ، في حين اكدت جميع المصادر ان حال اليهود كانت افضل من اي فئة اخرى ، وانهم لاقوا رعاية الدولة العثمانية ، ولم تقع عليهم اجراءات الظلم والاضطهاد التي وقعت على فئات الشعب الاخرى . ويعود ذلك الى قوة تأثير أصدقاء اليهود والصهيونيين في الخارج من يهود عثمانيين ، ودونمه وامريكيين والمان(٨٧) .

جـ ـ انشغال العرب في المشرق بأحداث الحرب العالمية الاولى : حين اصبح المشرق العربي احدى جبهات تلك الحرب بعد أن سعت بريطانيا لاستمالة العرب الى جانبها ضد الدولة العثمانية ، في نفس الوقت الذي كان العرب يسعون فيه للتخلص من الدولة العثمانية . وقد وعدت الحكومة البريطانية عرب المشرق بالاستقلال والوحدة عدا بعض التحفظات . لكن بريطانيا لم تشر في تحفظاتها الى أي ادعاءات بريطانية أو صهيونية في فلسطين ، ومعنى ذلك انها اعترفت بسيادة فلسطين ضمن الدولة العربية الموعودة . ونتيجة لهذه الوعود أعلنت الثورة العربية على الدولة العثمانية في ١٠/٦/١٩١٦ ، وكونت قواتها الجناح الايمن للقوات البريطانية الزاحفة من مصر بقيادة اللنبي نحو فلسطين ، وساهم العرب بالحرب الى جانب الحلفاء الذين استغلوا الثورة لمنفعتهم ، وحاكوا المؤامرات ضد العرب ، والحرب لم تنته بعد .

ومع أن فلسطين كانت تنقصها مقومات الثورة بسبب اوضاع البلاد القاسية وحرمان البلاد من رجالها ، ومع أن اللنبي لم يرغب لعدة أسباب ، في وجود قوات عربية تعمل في جبهته(٨٨) ؛ الا أن تقارير « المكتب العربي » بينت اسهام عرب فلسطين خلال الحرب ، اذ انضم بعضهم الى قوات فيصل في الشرق وتعاون بعضهم الاخر مع بريطانيا ، وأدى نشاطهم ضد العثمانيين الى اضطهادهم ونفيهم أو اعدام

بعضهم . وقد مكن هذا الموقف المتعاطف ، اللنبي من معرفة كل شيء على جبهة العمليات العسكرية في فلسطين وسهل له حرية الحركة والمرونة ، ودخل البلد كصديق(٩١) . رغم كل الاسباب السابقة وهيمنة احداث الحرب على مسرح السياسة الداخلية بفلسطين في غضون الفترة الواقعة بين صيف ١٩١٤ وخريف ١٩١٧ ، لم تنصرف أنظار عرب فلسطين عن الصهيونية وأخطارها وضرورة محاربتها ، خاصة وان النشاط الصهيوني لشراء الاراضي وانشاء المستوطنات لم يتوقف خلال الحرب(٩٢) . ففي تقرير اعده المكتب العربي في القاهرة ١٩١٧/٢/٥(٩٣)، ذكر انه تم بالفعل تشكيل جمعية في القدس تضم الطبقة المثقفة من الشباب لمقاومة الاستيطان اليهودي . وحللت، مذكرة اخرى ١٩١٧/١/١٢(٩٤) أسباب المعارضة العربية في فلسطين للصهيونية لدى الفئات المختلفة بانها تكمن في أهداف الصهيونية الحديثة السياسية التي ترمي الى تأسيس دولة يهودية مستقلة ذاتيا والاقصاء التدريجي لسكانها ، وترى أن المسلمين في القدس خاصة يميلون نحو المسيحيين وهم ضد اليهود ، او بشكل أدق ضد الصهيونيين ، ويناوءون ازدياد عدد المستوطنات اليهودية وشراء الاراضي وتجريد السكان من ممتلكاتهم .

وكانت حركة المعارضة للنشاط الصهيوني التي شهدتها الصحافة العربية قبل الحرب قد تعطلت ، بعد أن أغلقت جميع الصحف التي تولت قيادة هذه الحركة ، الا أن بعض الاشارات العابرة عن الحركة الصهيونية ظهرت في بعض الكتابات خارج فلسطين . ففي كتاب كلف مؤلفاه بمسح ولاية بيروت ١٩١٦/١٣٣٥ هـ (هما رفيق التميمي ومحمد بهجت) خصصا في الجزء الثاني من الكتاب فصلا عن الحركة الصهيونية ووصف الحياة العامة في مستعمرة ملبس (بتاح تكفا) ويتساءل المؤلفان « هل تتمكن هذه الاقلية من الامة اليهودية المبتلاة بالاسراف والفطرسة من أن تصل الى الغاية اليهودية بفضل ملايين البارونات واصحاب الثروة التي لاتعرف الفناء » .

اما الصحافة في مصر والتي كانت تشرف عليها منذ الفترة السابقة للحرب ، الزعامة السورية في مصر(٩٥) ، فلم تشر الى المسألة الصهيونية أو الى مستقبل فلسطين الا نادرا ، فقد شغلتها قضايا الحرب وتطور أحداث الثورة(٩٦) وتأثرت بظروف الرقابة خلال الحرب ، حتى لقد شارك بعضها في الدعايات العالمية عن معاناة اليهود وتعاطفت مع امانيهم خلال الحرب(٩٧) . الا أن الاهرام فتحت الباب مجددا لبحث المسألة الصهيونية « التي أثيرت قبل الحرب ، على أساس أن القضية بها خصمان كل يتمسك بأدلته لتأييد دعواه ، وتركت الحكم للرأي العام ولم تتخذ موقفا بحجة الموضوعية ، فاتاحت المجال للمدافعين عن الادعاءات الصهيونية ، كما سمحت لبعض الكتاب بالرد على التحدي الصهيوني والدفاع عن الحق العربي واثبات عروبة فلسطين بالحجج المنطقية (٩٨) .

ولما كانت الحكومة البريطانية ، وهي تتابع مفاوضاتها مع الصهيونيين لاصدار التصريح ، تدرك طبيعة المشاعر العربية بشأن مستقبل فلسطين ، دون أن تجهل المعارضة العربية للصهيونية ، فقــد حاولت أن تحول دون اجــراء بحث لموضوع الصهيونية أثناء سنوات الحرب ، ولكن ملاحظة عابرة في صحيفة (القبلة) في مكة (١٩١٦/٨/١٨)(٩٩) أقلقت الحكومة البريطانية ، ووجهت أنظارها الى احتمال حدوث مصاعب في المستقبل . فخلال هجوم كاتب المقال على الانحاديين وعلى مدى التسلط الالماني في الدولة العثمانية يذكر فاسطين التي أصبحت المانية « بعدما نشبت بها براثن الصهيونيين واتخذوا من الاتحاديين بقوة القيصر مطية ركبوها الى أغراضهم، فاقتطعوها بقعة بعد أخرى ... وبلدا بعد بلد حتى رثيت قومي وبكيت عليهم بالدم لا بالدمع » . وأثار المقال مخاوف مارك سايكس (مستشار الشؤون الشرقية في الحكومة البريطانية حتى وفاته سنة ١٩١٩ ، والقوة الموجهــة الرئيسية في لنــدن للسياسة البريطانية في الشرق الادنى والموصى بالسياستين العربية والصهيونية(١٠٠) معا) ، فأرسل مدير الاستخبارات العسكرية البريطانية ، بايعاز منه ، تعليمات الى كلايتون رئيس المكتب العربي في القاهرة في ١٩١٦/١١/٢١ يطاب منه التدخل لدى أصدقائه العرب « بمن فيهم الشريف حسين » لتوجيه تحذير خطير وشخصي بعــدم الخوض في هذا الموضوع الخطر ، لانه « سيثير عداء القوى الحيادية الان ، والتــي لو أثيرت كانت كافية لتحطيم الآمال »(١٠١) .

ونظرا لقرب العاملين في المكتب العربي من المنطقة ، وامكان اتصالهم بالاجواء العربية ، فقد كلفوا بجمع المعلومات الممكنة عن مدى المعارضة العربية للنشاط الصهيوني قبل الحرب وظروفها ودوافعها ، لتكون الصورة واضحة أمام المفاوضين في لندن . كما ان بعض البريطانيين الذين عملوا في المنطقة ، أو زاروها قبل الحرب حاولوا توجيه أنظار الذين بيدهم أمور فلسطين بعد الحرب الى حقوق أهل البلاد مبينين استحالة تحقيق المشروع الصهيوني(١٠٢) . ولم يكن لنصائح هؤلاء تأثيرعلى مجرى الاحداث ، فقد كانت مدرسة مارك سايكس هي التي تسير السياسة البريطانية في الشرق ، وهي مدرسة تناصر الصهيونية وتدعم القضية العربية من أجل المصلحة البريطانية ، وتغلف ذلك باسطورة بعث واحياء الشرق الذي سيكون فيه مكان يتسع للقوميتين العربية واليهودية معا(١٠٣) .

وقدم مارك سايكس الى المشرق العربي في ربيع عام ١٩١٧ بحجة دراسة الوضع القائم ليضمن قبول الزعامة العربية لكل الخطط البريطانية في الشرق ولتهيئة الجو لبناء علاقات عربية يهودية . وقد بحث سايكس مع لجنة من السوريين في مصر امورا

تتعلق بالاماني العربية ، وابلغهم ان أقصى ما يطلبه الصهيونيون هو تنظيم فلسطين على أساس « نظام الملة العثماني » ، وان يعطوا حكما ذاتيا كسائر الملل . وكان رد الزعماء السوريين « أن العرب ، مسلمين ومسيحيين على حد سواء ، على استعداد لمقاومة بسط السيطرة اليهودية على فلسطين حتى اخر رجل(١٠٤) » .

لم تكن فلسطين ضمن الموضوعات التي بحثها سايكس مع الحسين في جدة (ايار ١٩١٧). وعاد سايكس الى لندن ليعاود دعمه للنشاط الصهيوني وليحث الحكومة البريطانية على اصدار التصريح المتعاطف معها(١٠٥) . وحين بلغت الصهيونية غاية مساعيها بتصريح بلفور كانت الظروف قد أجبرت العرب أن يلتزموا بتحالف مع نفس الدولة صاحبة التصريح(١٠٦) . واستطاعت المناورات البريطانية أن تحول دون فقدان حسن النية لدى العرب . وبددت تصريحاتها المتوالية الشكوك التي أثارتها اتفاقية سايكس ــ بيكو وتصريح بلفور وحالت دون توقف الاسهام العربي في الثورة ، فاستقبلت الجيوش البريطانية بالترحيب بوصفها جيوشا للتحرير . كما أن موقف العرب ، سلبا وايجابا أسهم في نجاح تلك الجيوش ، ودخل اللنبي القدس في ١١/١٢/ ١٩١٧ بعد أقل من ستة أسابيع من اصدار تصريح بلفور . واخذت المعارضة العربية للسياستين الصهيونية والبريطانية اتجاها جديدا بعد ان خول الاحتلال العسكري بريطانيا ان تفعل ما تشاء في بلد محتل .

واخيرا : فان هذه الدراسة كانت محاولة لاعطاء صورة عما كان يجري بين ١٩٠٨ ١٩١٧ ، لا الحكم عليها على ضوء التطورات التالية . وقد تبين من خلالها أن العرب كانوا أكثر احساسا بالخطر الصهيوني مما هو متوقع ، وكانت ردود أفعالهم مبكرة . لذلك لم يكن الصراع مع الصهيونية مفاجئا ، تفجر بعد الحرب(١٠٧) ، حين بدأ التنفيذ الفعلي لتصريح بلفور ، فجذوره موجودة في هذه المرحلة ، وهي تفسر كل مادار في المنطقة فيما بعد .



* هذا البحث لن يتناول بالتفصيل نشأة الحركة الصهيونية في اوربا او مظاهر العمل الصهيوني داخل فلسطين ، كذلك لن يفصل في التطورات التي مرت بها الدولة العثمانية او الحركة العربية خلال هذه الفترة .

وحول مزيد من التفاصيل عن موضوع البحث يمكن مراجعة الدراسات التالية :

أ ـ

Mandel, N. Turks, Arabs and Jewish immigration into Palestine 1882-1914.

وهي دراسة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في مركز الشرق الاوسط في كلية سانت انتوني اوكسفورد ١٩٦٥ ونشرت فيما بعد .

ب ـ

Poräth, Y., The Political awakening of the Palestinian Arabs and their leadership towards the end of the Ottoman period.

وهي دراسة مقدمة الى المؤتمر الذي عقد في القدس ١٩٧٠ عن فلسطين في العهد العثماني ونشر تحت عنوان .

Ma'oz, M. (ed.) Studies on Plestine during the Ottoman period, Jerusalem 1975.

جـ ـ قاسمية ، خيرية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه

وهي دراسة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٧٢ نشرت فيما بعد .

الهوامش :

١ ـ خلال الفترة موضوع البحث كانت فلسطين تقسم اداريا الى المناطق التالية :

في الشمال متصرفية عكا وتشمل(اقضية: حيفا ، الناصرة ، طبرية ، صفد) ومتصرفية نابلس و تشمل (قضائي جنين وطولكرم) والمتصرفيتان تتبعان ولاية بيروت . وفي الجنوب متصرفية القدس المستقلة وتشمل أقضية : القدس ، يافا ، غزة الخليل ، بئر السبع وتقع مباشرة تحت اشراف الحكومة المركزية في الاستانة .

انظر : برغوتي وطوطح ، تاريخ فلسطين ، القدس ١٩٢٣ ص ٢٥٧ وما بعدها .

(٢) Simon, L., and Stein, L. (eds.) Awakening Palestine, London, 1923, p.251
Cohen, A. Israel and the Arab world, London 1970, pp. 32-38

وحول ماهية الحركة الصهيونية يمكن مراجعة مقال محمد المحمصاني « الصهيونية والصهيونيون » في جريدة فتى العرب ١٩١٤/٥/٤ وكذلك نقولا ، جبرا ، في العالم اليهودي القدس ١٩٢٥ .

(٣) Weizmann, Ch., Trial and Error, London 1950, p. 61

(٤) Zangwill, I., The Return to Palestine, The New Liberal Review, Dec. 1901. p. 627.

ويقول زانغول « .. الآن ، وليس في وقت آخر ، تكمن فرصة اسرائيل... بعد ان جملت قناة السويس العالم الى ابواب فلسطين »

(٥) Esco Foundation for Palestine - A Study of Jewish, Arab and British Politics, New Haven, Yale University press, 1947-1949, pp. 335-336

وعن لقاءات هرتزل والسلطان انظر

The Complete Diares of Theodor Herzel, translated by H. Zohn, New York 1960 (ed.) by L. Simon pp. 158-159.

(٦) Simon, M., (ed.) Speeches, Articles and Letters of I, Zangwill, London 1937, p. 80.

في وثيقة تركية تحتفظ بها اسرة ابو الشامات في دمشق ، ويقال ان السلطان عبد الحميد قد بعث بها الى الشيخ محمد ابو الشامات استاذه في الطريقة الشاذلية من منفاه في سالونيك يذكر فيها انه لم يتخل عن الخلافة إلا لان الاتحاديين قد الحوا عليه بان يصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الاراضي المقدسة ووعدوه مبلغ ١٥٠ الف ليرة تركية ذهبا ورفض .

(٧) حول تطور الموقف العثماني من التدفق اليهودي انظر التقارير القنصلية البريطانية في :
Hyamson, A., The British Consulate in Jerusalem in relation to the Jews in Palestine, London 1939-1941 pp. 46, 557, 558.

(٨) تقرير هوغارت ، احد العاملين في اجهزة المخابرات البريطانية خلال الحرب في مصر
F.O. 882/17, Arab Bureau Papers, «Syria, Political Situation Since 1880.

(٩) Weizmann, p. 41.

(١٠) Jewish Territorial Organization. I.T.O. Pamphlets (British Museum).

(١١) كيالي ، عبد الوهاب ، تاريخ فلسطين الحديث ، بيروت طبعة اولى ١٩٧٠ ، ص ٤٤ — ٤٥

(١٢) المصدر السابق ، ص ٤٩

(١٣) المقطم ١٨٩٧/١٠/٢٣ مقال كتبه امين ارسلان قائمقام طبرية بعنوان « مملكة صهيون »
المقتطف ١٨٩٨/٤/١ مقال « عودة اليهود الى فلسطين » مجلد ٢٢ جزء ٤ ص ٣١٠ - ٣١١

(١٤) مجلد ١ عدد ٧٦ نيسان ١٨٨٨ ص ٤٤ .

(١٥) نشر الكتاب في باريس عام ١٩٠٥ بعنوان
Le Reveil de Nation Arabe dans l'Asia Turque.

(١٦) رسالة السفير البريطاني في الاستانة لوثر الى وزير الخارجية غراي في ١٩١٠/٨/٣١ يشرح اسباب التشدد العثماني وموقف السلطان العثماني من المناورات الصهيونية . وكان لوثر قد وصل الاستانة بعد تغير نظام الحكم .F.O. 424/224 وقد علقت صحيفة L'Aurore اليهودية في الاستانة ١٩٠٩/١٢/٢٧ للتخلص من عدو «اسرائيل»

(١٧) رسالة مارلنغ القائم الاعمال في الاستانة ١٩٠٩/١٢/٢٧ .F.O. 424/222 وكذلك رسالة لوثر ١٩١٠/٥/٢٩ الى غراي وزير الخارجية .F.O. 371/1010/20761 وقد تكون العلاقة بين تركيا الفتاة واليهود والصهيونيين ، التي تبنتها الدوائر البريطانية مبالغ فيها الا ان هذا لا يعني نفي العلاقة كما يميل الى ذلك كتاب :

Lewis, B. The Emergence of Modern Turkey, pp. 211-212.

فقد لاحظ العلاقة كل من زار الاستانة حينذاك ومنهم رفيق العظم في مقال في المقطم ١٩٠٩/٨/١٣

(١٨) رسالةلوثر الى غراي في ١٩١٠/٥/٢٩ حـــول مساعي الصهيونية للسيطرة الاقتصادية على الدولة العثمانية .F.O. 371/1010/20761

(١٩) بعد اعلان الدستور العثماني نشط وكلاءالمنظمةالصهيونية على المسرح السياسي العثماني فتولى جاكوبسون الاشراف على الدعاية الجديدة واوكلت الى جابوتنسكي مهمة الاشراف على الصحافة التي تديرها الصهيونية

Shechtman, J., Rebel and Statesman, the Vladimir Jabotinsky Story, New York, 1956 p. 150.

وكان المؤتمر الصهيوني العاشر في بال ١٩١١/٨/٨ برئاسة نوردو مناسبة علنية للتصريح رسميا بالاسلوب الجديد للدعاية الصهيونية .Jewish Chronicle 18. 8. 1911

(٢٠) من رسالة لوثر الى غراي ١٩١١/١١/١٨ تعليقا على المقالات الواردة في كتاب صدر عام ١٩١٢ بعنوان

Zionist Work in Palestine, New York 1912.

F.O. 424/229.

وكانت تلك المقالات قد صدرت بالالمانية ١٩١١ في عدد خاص من مجلة Die Welt الجريدة المركزية للمنظمة الصهيونية .

(٢١) من الامثلة على ذلك رسالة نوردو الى Times 30. 12. 1912 لتوجيه الاهتمام الدولي لصالح الاهداف الصهيونية ، ورحلة سوكولوف ممثل المنظمة الصهيونية الى لندن لاثارة الراي البريطاني بالعطف على الحركة الصهيونية .F.O. 371/1794/10066/6584

ودعم سفير الولايات المتحـدة هنـري مورغنثوااليهودي ليهود الدولة العثمانية بوجه عام ويهود فلسطين بوجه خاص .Jewish Chronicle 12/12/1913

وتدخل الحاخام باشي ناحوم مرارا في الاستانة لالغاء الاجراءات القديمة بحق اليهود ورفع الحظر على شراء واستملاك الاراضي .

Jewish Chronicle 6. 12. 1912

وعدد من جريدة لاورور مرفقة برسالة لوثر الى غراي ١٩١٣/٢/١٧ و F.O. 424/238

(٢٢) تقديرات النشرة العربية Arab Bulletin في ١٩١٧/١/١٩ وهي النشرة التي كان يصدرها المكتب العربي Arab Bureau الذي اسس في القاهرة « شباط ١٩١٦ » كاحد الاجهزة المنفذة للسياسة البريطانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الاولى وضم المكتب الخبراء البريطانيون في شؤون المشرق العربي من رحالة وعلماء آثار ومستشرقين وضباط ورجال استخبارات .

(٢٣) لفت مراسل Jewish Chronicle في يافا في ١٩١٠/٢/٢٥ الانظار الى الاخطار التي يتعرض لها اليهود في المستوطنات بعد ان كانوا يأملون ان تكون حياتهم اكثر امنا في العهد الجديد ، وكانت تهمة موالاة الاتحاديين للصهيونية هي من جملة الاتهامات التي وجهها قادة الحركة العربية الى الاتحاديين مثال ذلك ما كتبه رشيد رضا في المنار جـ٢ م١٦ ص ١٤٥ شباط ١٩١٣ متهما جمعية الاتحاديين (جمعية الاحمرين الدم والذهب) بالاتفاق مع الجمعية الصهيونية

(٢٤) صاحب الاصمعي حنا عبد الله عيسى وأسست عام ١٩٠٨

(٢٥) صاحب المنادى سعيد جار الله وصدر عددها الاول ١٩١٢/٢/٨ وصرح محررها بانها قد اتبعت منذ تأسيسها مكافحة السياسة الصهيونية .

(٢٦) كان نجيب نصار قد نشر سلسلة من المقالات في جريدته عن الحركة الصهيونية واخطارها اثر مناقشة المبعوثان الاولى للمسألة الصهيونية في اذار ١٩١١ وقد اصدر هذه المقالات في كتيب عنوانه « الصهيونية » تاريخها ـ غرضها اهميتها ـ في تشرين الاول ١٩١١ .

(٢٧) الاملاك الاميرية الخاصة بالسلطان عبد الحميد وتسمى الجفالك السلطانية او الاراضي المدورة وقد نقلت (دورت) ملكيتها بعد خلعه الى الخزانة العامة وكان الفلاحون قد تنازلوا عن ملكيتها لعدة أسباب فسجلت باسم السلطان كي تعفى من الضرائب وتنال الحماية ومساحتها ٢٧ مليون كم تتوزع في ولايات سورية والعراق والجزيرة ، وفي اواخر ١٩١٠ طلب نجيب ابراهيم الاصفر احد اعضاء مجلس ادارة بيروت سابقا امتيازا من وزارة المالية لاستثمار الارض مدة ٩٩ عاما مقابل قرض ١٠٠... مليون فرنك وابدت صحف فلسطين وسورية قلقها من ان تكون الصهيونية وراء المشروع خاصة الاملاك الاميرية في فلسطين ـ غور بيسان واريحا ـ التي كانت مطمحا صهيونيا . وكانت حملة الصحف ضد المشروع أول عمل موحد واسع ضد تزايد النشاط الصهيوني بعد عام ١٩٠٨ واجبرت الحكومة على التراجع .
انظر المقتبس ١٩١٠/١٢/١٠ ، الكرمل ١٩١٣/٣/٢١ وأعداد اخرى متفرقة .

(٢٨) مثال ذلك الكرمل « اعداد كانون أول ١٩١٢ » وفيها دعوة الفلاح الى تحسين أساليبه « واعداد شباط ١٩١٣ » حول محاربة الصهيونية بنفس السلاح التي تحاربنا فيه » ودعوة المواطنين لاصلاح المعارف وتاليف الجمعيات والشركات الزراعية والاقتصادية ... الخ .

(٢٩) صاحب الجريدة ومديرها المسؤول عيسى داود العيسى ورئيس تحريرها يوسف العيسى وصدر العدد الاول ١٩١٢/١/١٤ .

(٣٠) فلسطين ١٩١٤/٤/١ يقول صاحبها ان صوت فلسطين توردة اكثر الصحف والمجلات ، وحين قامت جريدة « احيروت » العبرية في القدس بحملة هجوم على فلسطين شدت الكرمل ازر فلسطين « الكرمل ١٩١٣/١٢/٢٤ » .

(٣١) جاء في فلسطين ١٩١٣/١/٢٢ » .. انه مادام الصهيونيون يستولون على البلد قرية قرية .. فغدا تباع القدس باجمعها وفلسطين بكاملها ، فاذا لم نتدارك الامر كان حظ الدولة فيها حظها في طرابلس الغرب أو ربوع البلقان » .

(٣٢) كان أول تعطيل لجريدة الكرمل ١٩٠٩/٦/٢٥ بعد شهور من صدورها ، وفي تشرين ١٩١٣ كانت حملة الدس الصهيونية وراء امر تعطيل « فلسطين » دون محاكمة ، ووقفت الصحف العربية في سورية ولبنان بجانب فلسطين وشاركت الرأي العربي احتجاجه . وفي نيسان ١٩١٣ واثر جولة « مورغنثو » السفير الامريكي في فلسطين اصدرت وزارة الداخلية أمر باغلاق « فلسطين » واقامة الدعوى على مديرها المسؤول بحجة انها تفرق العناصر . وكانت « فلسطين » قد نشرت فقرتبعنوان « نصيحة » ١٩١٤/٤/٤ وعدت فيه بالاستمرار بالوقوف بازاء الصهيونيين « الى يوم ترتجف فيه اعصاب الامة وترى الهوة الهائلة التي تنتظرها فتدوى دوى السيل الجارف ... وويل للغفلة الشعب من ذلك اليوم » .

(٣٣) اشار مراسل جويش كرونكل في الاستانة في ١٩١٠/٦/١٠ الى حادث محاكمة نجيب نصار في شباط ١٩١٠ المتهم باثارة الصرب ضد اليهود وحضر المحاكمة جمهور غفير من العرب حملوه بعد تبرئته في مظاهرات عدائية ضد اليهود كما نقل وكيل القنصل البريطاني في يافا في نيسان ١٩١٤ تفاصيل محاكمة صاحب فلسطين فقد غصت القاعة بممثلات العثمانيين والاجانب لحضور المرافعة التي اتخذت شكل مقاضاة بين الصهيونية وخصومها ..

(٣٤) في مذكرات محمد كرد علي صاحب المقتبس جزء٣ دمشق ١٩٤٩ ص٩١٣ يشير الى انه كتب الكثير عن خطر الصهيونية في جريدته وعاونه اربعة من اصدقائه عبد الله مخلص وعبد الصالح البرغوثي ونجيب نصار وشكري العسلي .

(٣٥) تنبه رشيد رضا خلال اقامته في الاستانة لمدة سنة بعد تغير نظام الحكم ، الى خطر التغلغل اليهودي في اوساط الحكم ونتائجه البعيدة في تحقيق اطماع الصهيونية وكتب عن ذلك في المنار ج٤ مجلد ١٤ ، ١٩١١ ص ٢٦٩ — ٢٧٢

(٣٦) بلغ عدد المندوبين العرب في المبعوثان في الدورة الاولى ٦٠ عربيا من اصل ٢٤٥

(٣٧) خلال مناقشات المبعوثان حول الميزانية أول آذار ١٩١١ تولى نواب المعارضة اثارة المسالة الصهيونية منتقدين سياسة جاويد (بيه) المالية وصلتها بالصهيونية ، وحاولت الحكومة نفي المخطط الصهيوني واثار طرح المسالة ردود فعل في الصحف العثمانية المعارضة وفي الصحافة العربية مما دفع الحكومة العثمانية الى اعادة النظر مؤقتا في موقفها من المسالة ، وهذا الموقف شجع النواب العرب في المبعوثان على اثارة الموضوع ثانية في جلسة ايار ١٩١١ .

خلاصة المناقشات في الجلسة الاولى في تقرير لوثر ١٩١١/٣/٧ .

F.O. 371/1245/19395/9103 F.

والاهرام ١٩١١/٣/١١

وأيضا خلاصة مناقشات الجلسة الثانية ورتبها لوثر الى الخارجية ١٩١١/٥/١٧ .

F.O. 371/1245/19395/9103 F.

وجريدة المقتبس ١٩١١/٥/٣١

(٢٨) شكري العسلي من دمشق عين قائمقاما للناصرة في خريف ١٩١٠ وحاول وقف اتمام عملية انتقال اراضي قرية الفولة (في سهل مرج بن عامر) الى الصهيونيين ولما عزم الوالي على عزله ، وقبل ان يبلغ قرار العزل انتخب مبعوثا لدمشق كانون ثاني ١٩١١ وكان الموقف الذي تبناه في قائمقامية الناصرة له دوره في فوزه باغلبية الاصوات ، المقتبس ١٩١١/٣/٢

(٢٩) صورة مفصلة عن تقدم العمل الصهيوني في فلسطين بجميع جوانبه من خلال كتابين
Cohen, I., (ed.) Zionist Work in Palestine, New York
Sacher, H., Zionism and the Jewish Future, London 1916

(٤٠) اكدت مجلة The Near East في ١٩١٢/٤/٥ ص ٨١٧ عن مراسلها في الاستانة ان شعور المندوبين العرب الذين يعتبرون تدفق اليهود « كغزو الجراد » لا يمكن ان ينجم عن اي عداء عرقي او ديني بل انه ناجم عن تخوف العرب من ان يقوم اليهود بابعادهم اولا ثم طردهم اخيراً .

(٤١) لم تتلون الحملة الانتخابية في متصرفية القدس في ١٩١٢ باي طابع حزبي – بعكس ما كان يجري خارج فلسطين ، فقد وجهت الدعوة لانتخاب مرشحين يقفون بوجه خطر المهاجرة اليهودية بصرف النظر عن كونهم اتحاديين او غير اتحاديين . المقتبس ١٩١٢/٤/٣

(٤٢) اجرى محمد الشنطي رئيس تحرير جريدة الاقدام (القاهرة) عدة احاديث مع مرشحي المبعوثان ١٩١٤ حول رايهم بالمسالة الصهيونية نشرت في ٢٢ و ٢٩ آذار و ١٢ نيسان و ٣ أيار و ١٤ حزيران ١٩١٤ .

(٤٤) مثال ذلك ما ورد في كلمة روحي الخالدي مندوب القدس خلال مناقشة المبعوثان الثانية حول المسالة الصهيونية ايار ١٩١١ وكذلك مقال فلسطين ١٩١٣/١١/٢٥ حول محاكمة « بيليس » في كييف المتهم بقتل طفل مسيحي ليستعمل دمه في رمز ديني كما يدعون ، واعتبرت « فلسطين » المحاكمة « معرة » القرن العشرين .

(٤٥) شارك اهل فلسطين في تيار الحركة الاصلاحية (مركزها بيروت) وتيار حركة اللامركزية (مركزها القاهرة) بنفس القدر ، ولم يكن بين المجموعتين اي خلاف . انظر المفيد ١٩١٣/٤/٨ عن دعم لائحة بيروت الاصلاحية ، أوراق عوني عبد الهادي ومحب الدين الخطيب تشير الى انتشار فروع اللامركزية في فلسطين .

(٤٦) عبرت جريدة مرآة الغرب (احدى صحف المهجر) ٧ ايار و ٢٥ تموز ١٩١٣ عن الاحساس بالتخوف من اغراض الصهيونية السياسية ، وكذلك الكرمل في ١٩١٣/٢/١١ « وان هذه البلاد لابد ان يمتلكها اليهود ان عاجلا او اجلا سواء في عهد الترك او غيرهم ... وهذه الأطماع لا تقتصر على انشاء دولة في فلسطين بل تمتد الى منطقة الشرق الاوسط كلها اذا لم يتدارك الخطر »

(٤٧) عن تفاصيل ما دار في المؤتمر انظر كتاب : المؤتمر العربي الاول الصادر عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية ، القاهرة ١٩١٣ جمع محب الدين الخطيب .

(٤٨) بلغ عدد الموقعين على برقيات التاييد التي وصلت الى المؤتمر ١٣٩ فلسطينيا من اصل ٣٨٧
Dawn, E., The Rise of Arabism in Syria, Middle East Journal, vol. 16, No. 8 1962, p. 149

(٥٠) تعرض صاحب الكرمل بالنقد واللوم لتجاهل المسالة الصهيونية في مؤتمر باريس في نداء وجهه بتاريخ ١٩١٣/٧/١٥ قائلا : « ... يا طلاب الاصلاح في بيروت ومصر ، تطلبون الاصلاح لبلاد يسعى بتملكها الصهيونيون ويتظلفون فيها ويقضون على بقاء اخوانكم »

(٥١) نشرت المقتبس ١٩١٠/٣/١٥ كتابا مفتوحا لعبد الله مخلص الى مجلس المبعوثان حول استعمار الصهيونيين فلسطين وخطر الهجرة والشراء اليهوديين ، ونبه اعضاء المجلس الى « ان البلاد الفلسطينية اصبحت على شفا جرف من الخطر وقد لا يمضي عليها عشرات من السنين الا ويعمل بها ناموس تنازع البقاء عمله الطبيعي ... وتصبح البلاد كليا للاجنبي » .

(٥٢) رسالة نائب القنصل فيحيفا الى بيروت ١٩٠٩/٣/١٧
F.O. 195/2311.

كذلك اشارت جويش كرونيكل ١٩١٠/١١/٢٥ الى وجود منظمة في حيفا هدفها وضع حد للاستيطان اليهودي تدعمها جريدة الكرمل والمقتبس .

(٥٣) شرح سليمان التاجي الفاروقي في المفيد ١٩١١/٨/١٩ خطة الحزب : حث الامة على مطالبة الحكومة سد باب الهجرة وتطبيق قانون « الجواز الاحمر » ومنع بيع الاراضي والتحقق من تذاكر الاسرائيليين العثمانيين واشراف الحكومة على مدارسهم وتحرير اراضي المستوطنات .. وعن نشاط الحزب اقر احياء ليلة خطابية كل اسبوع لتنبيه الامة وتذكيرها ودعوتها لمباراة الصهيونيين في سبل الحياة والعمل والالتجاء الى الحكومة بالطرق المشروعة.

(٥٤) وجهت الكرمل على صفحاتها في ١٩١٣/٨/٨ الدعوة لانشاء هذه الجمعية .

(٥٥) اشارت الكرمل ١٩١٤/٧/١٤ الى تكوين جمعية مقاومة التيار الصهيوني في استانبول برئاسة الامير علي الجزائري ابن الامير عبد القادر . وكذلك اشارت الاقدام ١٩١٤/٧/١٩ الى خبر تشكيل « جمعية مقاومة الصهيونية » في القاهرة .

(٥٦) اعداد الكرمل ١٩١٣/٢/١١ ، ١٩١٣/٢/١١ ، فلسطين ١٩١٣/٨/٩ ، ١٩١٣/٤/٢ لحث المواطنين على انشاء الجمعيات وتاليف الشركات الوطنية « والنسج في ذلك على منوال الصهيونيين » .

(٥٧) Kedourie, E., Religion and Politics : The Diaries of Khalil Sakakini , St. Antony's papers, No. 4 Middle Eastern Affairs, No. 1. Oxford 1958, pp. 77 - 93.

(٥٨) الكرمل ١٩١٣/١/٣ تشير الى ان عددا من المتنورين وارباب الصحف والموظفين « قدر لنا هذه الخدمة وادرك الخطر وصار يتعاون معنا » . وكانت حملة الكرمل ضد بيع الاراضي المدورة قد حركت الراي العام للاحتجاج ودفعت الحكومة الى تغيير موقفها . واشارت الاقدام ١٩١٤/٥/٣١ الى ان الراي العام هو « الكابوس الذي يخشاه الصهيونيون اكثر من الحكومة » .

(٥٩) وجهت الكرمل وفلسطين انتقادات عنيفة الى الزعماء والاعيان الذين تهاونوا في بيع الاراضي او تواطؤوا مع السلطات المحلية لاتمام عمليات البيع . من الامثلة (الكرمل ١٩١٢/١٢/١٠ قرية كركور وبيدوس » (فلسطين ١٩١٣/٢/٢٢ بيع طواحين نهر جرشة ـ العوجة ـ) .

(٦٠) لاحظ مراسل مجلة The Near East ١٩١٢/٢/١٦ في فلسطين مطالعة الفلاحين الصحف باهتمام بالغ ووجد ذلك دليلا على شغف السوريين عموما بالسياسة .

(٦١) أوردت جويش كرونيكل في اعداد مختلفة (١٩١١/٢/١٠ ، ١٩١١/١١/١٧ ، ١٩١١/٦/١٦) اخبار الاشتباكات في منطقة الجليل وطبرية ومرج ابن عامر وزعمت ان اليهود يقعون تحت « وطأة العرب المتعصبين » وفي تقرير قنصل بيروت البريطاني في تشرين الثاني ١٩١١ الى لوثر اشارة الى معارضة الفلاحين للتدفق المستمر لليهود الاجانب لانه يهدد حقوقهم الخاصة .

(٦٢) Golomb, E., The History of Jewish self defence in Palestine, 1878-1921, Tel-Aviv (N.D.), p.7.

(٦٣) Waters , M., Haganah, the Story of Jewish self defence in Palestne , London, 1947, p. 13.

(٦٤) رسالة من روبن بالالمانية الى اللجنة التنفيذية الصهيونية في ١٩٠٩/٥/٢٣ ، ملحق لمقال :
Alsberg, P.A. The Arab question in the Policy of the Zionist Executive before the First World War (Hebrew) Shivat Zion vol. 4 1956-57.

(٦٥) مقال Warburg رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية نشرته جويش كرونيكل في ١٩١٢/١٠/١٨

(٦٦) تعددت شكاوى الحاخام باشي لدى الباب العالي للتدخل لدى السلطات المحلية لحماية المستوطنات (مثال ذلك اشتباكات اهالي قرية زرنوقة ومستعمرة رحوبوت (فلسطين ١٩١٣/٨/١٣)

(٦٧) كانت زيارة عدد من الكتاب السوريين الى فلسطين في تلك الاونة كفيلة باعطائهم عن قرب حقيقة ما يجري ، مثال ذلك مشاهدات جرجي زيدان التي نشرها في الهلال ، نيسان ١٩١٤ عن « فلسطين آثارها وتاريخها واحوالها » ص ٥١٥ الى ٥٢٠ ، ومقال ابراهيم سليم نجار في الاهرام ٩ و ١٠ نيسان/ ابريل ١٩١٤ « الاسرائيليون في فلسطين » .

(٦٨) طرحت فكرة التفاهم على صفحات جريدتي الاهرام والمقطم ودارت مراسلات بشأنها بين ١٩١٣ و ١٩١٤ . انظر مقال خيرية قاسمية : مواقف عربية من التفاهم مع الصهيونية في مجلة شؤون فلسطينية ، بيروت العدد ٣١ . وايضا مقال:
Roi, Y., The Zionist Attitude to the Arabs, 1908-1914, Middle Eastern Studies, vol. 4, No. 3, April 1968.

وكان اتجاه الراي العام في فلسطين بوجه عام يعبر عن رفض مطلق لدعوى التقارب ، انظر مثلا (الكرمل ١٩١٤/٤/١٧ ، ١٩١٤/٦/٢ ، فلسطين ١٩١٤/٦/٦ ، مرآة الغرب ١٩١٤/٧/٢١ ، الاقدام ٧ و ١٩١٤/٦/١٤) وكذلك عبرت جماعة العربية الفتاة عن رفضها لفكرة الاتفاق حتى دون شروط كما كتب محمد المحمصاني في فتى العرب ١٩١٤/٦/٦ يقول : « ان حياة الامم فوق كل نفع مادي ... يغررنا به الصهيونيون » .

(٦٩) تصدت « فتى العرب » في بيروت ، والعاملون فيها هم من مؤسسي جمعية العربية الفتاة ، للصحف الاخرى التي تدافع عن الصهيونية في مقـال بتاريخ ١٩١٤/٤/٧ فقالت : « فتى العرب لاترى من وسيلة للوقوف في وجه التيار الصهيوني الا بتقوية الروح القومية في النفوس ... فالقومية التي تخلق القوة ، وتدفع الى تاليف النقابات المالية والعصابات السياسية والاقتصادية لاتقاء هذا الخطر ، وهي السلاح الوحيد الذي نحاربهم به . والذين يحاولون نزع هذا السلاح انما يريدون ان يلقونا عزلا الى ساحة الوغى » .

(٧٠) المنار آذار ١٩١٤ مجلد ١٧ ، ج ٤٩ ، ص ٣١٩ـ ٣٢٠.

(٧١) نشر المحمصاني المقال في جريدة الا قدام (القاهرة) ١٩١٤/٨/١ ، وكان لا يزال يواصل كتابة سلسلة مقالاته حول الحركة الصهيونية في فتى العـرب .

(٧٢) مقال « الحقيقة في أرض اسرائيل » ورد في كتاب .
Cohen, A., Isreal and the Arab World, ibid, p. 70

(٧٣) Ruppin, A., Three Decades of Palestine, Tel Aviv, 1936, pp. 35-36.

(٧٤) Sereni, E., and Ashery, R.E., Jews and Arabs in Palestine, New York, 1936, p. 59.

(٧٥) Cohen, A., Israel and the Arab World, ibid, p. 14.

(٧٦) ردت جريدة فلسطين على هذه الدعاوى في مقال بتاريخ ١٩١٢/١٢/٧ « ... انما لانضمر في قلبنا بغضا لامة من الامم ولا ينوء ضميرنا بحمل حقد على طائفة من الطوائف ، انما نسعى لاسكان الاديان في مكانين شريفين ألا هما القلوب والمعابد » .

(٧٧) مقال « المعاداة للسامية في تركيا »
Jewish Review, Jan. 1912, pp. 383-385.

(٧٨) كان نسيم ملول من ابرز من تصدى للدفاع عن الحركة الصهيونية في الصحافة العربية في مصر ، وهو يهودي مصري من اصل تونسي . وقد ألف الدفاع بدعوى التفاهم والمصالح المشتركة ، ونشر كتابه « اسرار اليهود » للدفاع عنهم . وانتقل ملول الى فلسطين كمراسل للمقطم في يافا . وقد لعب دورا كبيرا من قبل المنظمة الصهيونية التي انشات لها مكتبا صحفيا في ايلول ١٩١١ يتبع مكتب فلسطين ، مهمته متابعة الصحافة العربية وتهيئة الردود المناسبة وتمويل الصحف المناصرة للصهيونية . وقد ظلت مهمة نسيم ملول مجهولة لدى الصحف العربية رغم الشكوك (فلسطين ١٩١٢/٨/٢٢) وبمناوراته استطاع أن ينتسب الى فرع حزب اللامركزية في يافا من أجل متابعة الحركة العربية عن قرب (اوراق محب الدين الخطيب) .

(٧٩) منها جرائد النصير ولسان الحال في بيروت ، والنفير في حيفا . وقد فتحت المقطم صفحاتها لبعض الكتاب الصهيونيين الذين تولوا حملة دفاع عن الصهيونية ووضع اليهود ثقتهم فيهـا .

(٨٠) Auerbach, E., The Jewish out look in Palestine. in Cohen, I. (ed.), Zionist Work inPalestin ibd, p. 172.

(٨١) اول من طرح الفكرة لفوى يهودي هو Epstein في عام ١٩٠٧ في مقال بعنوان « مسالة خفية » في دورية عبرية اسمها Hashiloah تصدر في اوديسا ١٩٠٧ ، وطورت الفكرة فيما بعد . مثال ذلك ما نشرته المقطم أيار وحزيران ١٩١٤ في ثلاثة مقالات تحت عنوان « بحث جليل في المسألة الصهيونية زعيم صهيوني يرد على رفيق العظم ووجب اتفاق العرب والاسرائيليين — » وهي مجموعة من الاحاديث أجراها مراسل المقطم في الاستانة

(٨٢) في مقال لرشيد رضا في المنار ج ٩م ١٧ آب١٩١٤ ص ٦٩٧ — ٧٠٨ تعليقا على ترجمة كتاب ارنشكين « البروغرام الصهيوني » يقول : « .. لابد من المسارعة الى تنظيم وسائل الدفاع.. انه لايكاد يوجد شعب من شعوب الارض غافل عن قوته واستعداده كالشعب العربي ، فقوته واستعداده كامنان فيه كمون النار في حجر الصوان تحت الثلج ، فمن ذا الذي يزيل أو يذيب الثلج عن هذا الحجر الصلد ، واين مقدحة الحديد التي تقدح النار من هذا الزند . »

(٨٣) Bentwitch , N., England in Palestine , London 1932, p. 11 Weizmann, p. 191, 243

ونقلت الاهرام في ١٩١٧/٦/٤ ، والمقطم ١٩١٧/٦/١٥ اخبار المفاوضات في لندن

(٨٤) Stein, L. Balfour Decleration, London 1960.

(٨٥) Jabotinsky, V., Turkey and the War, London 1916, pp. 215, 223, 262.

(٨٦) اعداد متفرقة من مجلة The Near East خلال عام ١٩١٦

(٨٧) Weltmann, S., Germany, Turkey and the Zionist Movement, 1941-1918, The Review of Politics, vol. 23, 1961
Aaronson, A., With the Turks in Palestine, London 1917

وكذلك مراسلات الخارجية البريطانية حول اوضاع اليهود في تلك الفترة تحت رقم : 371/3055

(٨٨) Jeffries, J., Palestine: The Reality, London 1939, p. 209

(٨٩) F.O. 882/26 Arab Bulletin. 12.1.1917

(٩٠) F.O. 882/14 Arab Papers. vol. 18, p.pa/7/2

(٩١) Jeffries, p. 211

(٩٢) دليل ذلك الكتاب الذي وضع اثناء الحرب
F.O. 822/14 Po/17/6 Arab Bureau Papers

(٩٣) Sacher (ed.) Zionist and the Future of the Jews, London 1916

عبر احدهم لكتاب المذكرة فقال : « لو ان اليهود اخذوا بلدنا اين يذهب ؟ »

(٩٤) F.O. 882/14 Pa/17/2 Arab Bureau Papers

(٩٥) حول موقف الفئات السورية في مصر خلال الحرب يمكن مراجعة كتاب
Storrs, R, Orientations, London, 1937, p. 412
وكان ستورز السكرتير الشرقي في السفارة البريطانية

(٩٦) Kedourie, p. 47 ff.

(٩٧) اعداد متفرقة من الاهرام والمقطم خلال عام ١٩١٥

(٩٨) الاهرام ١٩١٥/٦/٢٥ مقال كامل مدور (صاحب جريدة الراي العام البيروتية) وعنوانه « لماذا يجب الا تعطى فلسطين للصهيونية » . وفي الاهرام ١٩١٥/٦/٢٩ جاء الرد الصهيوني بعنوان « لماذا يجب ان تعطى فلسطين للصهيونية » .

(٩٩) ١٨ شوال ١٣٣٤ وكان محب الدين الخطيب برأس تحرير « القبلة » وعنوان المقال (نحن واعداؤنا)

(١٠٠) Leslie, Sh., Mark Sykes, his life and etters, London 1923, p. 288

(١٠١) F.O. 822/14 Mis 16/15 Arab Bureau Papers

(١٠٢) من هؤلاء ماسترمان Mastermann احد الذين عملوا في صندوق استكشاف فلسطين قبل الحرب وكتب مقالا في المجلة الجغرافية نقلته The Near East في ١٩١٧/٤/١٦ استمده من تجربته الشخصية في فلسطين

(١٠٣) Kedourie, pp. 79-86
يسهب المؤلف في وصف افكار سايكس « المثالية »حول القوميتين اليهودية والعربيةوآمالهافيالمستقبل

(١٠٤) برقية سايكس الى الخارجية في ١٩١٧/٤/٣رقم
F.O. 371/3053/88954/84173 F.

(١٠٥) Leslie, p. 268.

(١٠٦) Hourani, A., Arabic thought in the liberal age 1798-1939, Oxford 1962, p. 290

(١٠٧) Storrs, p. 410.

الرّصافة أيّام الغساسنة

مصطفى الحسون
متحف الرقة الاثري

تكاثرت العرب على حدود سورية الشرقية ، خلال القرون الميلادية الاولى ، وازداد ترشحها الى مدنها وقراها ... وقد قدم الغسانيون من مأرب ، ونزلوا بادية الشام ، واصبحوا أكبر القبائل العربية - في القرن الرابع الميلادي ؛ وامتدت منازلهم بين تدمر شمالا ، والبلقاء جنوبا.وحالفوا البيزنطيين،كما حالف اللخميون الفرس(١).

وفي القرن الثالث ابان ازدهار المملكة التدمرية ، ساعدت سماحة الملك اذينة ، على انتشار المسيحية ، بعد أن منعها التعصب الوثني ، واضطهد النصارى ، ومنح اذينة ، كل طائفة حريتها في ممارسة شعائرها الدينية وخول المسيحيين حق بناء الكنائس حيثما شاءوا ، وكانت اقدم كنيسة معروفة في العالم اليوم ، تعود لعام ٢٣٢ م وتوجد خرائبها بين أطلال مدينة « دورا اوربوس » التابعة لتدمر آنذاك(٢) .

وبعد أن هدم الرومان مباني تدمر الضخمة ، واباحها اورليان لجنوده سنة ٢٧٢م يعملون السيف في رقاب من بقي من اهلها تقتيلا وتشريدا ، تحول طريق التجارة عنها ، وسلك الفرات والجزيرة عبر الرها (اديسا) . فأناط البيزنطيون بالعرب الغساسنة مهمة حماية حدود الصحراء ، فاتسعت دولتهم من حوران ، حتى الفرات ، وشملت مدينة الرصافة .

ودخل الغساسنة الدين الجديد ، وكانوا من أشد المتحمسين للمسيحية ، والناشرين للمذهب اليعقوبي ... وكان لهم الفضل ، في تقليص الوثنية ، وهداية الناس للدعوة الجديدة(٣) . وما نعرفه من الموارد التاريخية ، أن سلطان الغساسنة، كان ممتدا على أطراف بلاد الشام ، أي على المواضع التي رأى الروم ، أن من الأصلح لهم تركها الى امراء غسان ، لصعوبة ضبطها من الوجهة العسكرية بالنسبة اليهم(٤) .

والغساسنة يشبهون من بعض الوجوه ، خلفاء وأمراء العصر الاموي في الاسلام ، اذ أننا نعلم ان الامويين ، استمروا في الاعتماد على القبائل العربية ، وأقاموا لانفسهم قصورا ، في مختلف أرجاء البادية ، ونقلوا الى تلك القصور ، كل مظاهر عظمة دولتهم ، كيما يبهروا أنظار القبائل العربية المنتشرة في البادية(٥) .

ويفهم من الشعراء العرب أيام الغساسنة ، امثال النابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت والاعشى وغيرهم ان جلق ، والجواء ، وعذراء ، وهي مواضع بأكناف دمشق ، ويضاف اليها مرج عذراء ايضا(٦) أن هذه المواضع منازل بني جفنة ، لذلك ذكرها حسان في شعره ، وذكر كذلك بطن جلق والبلقاء ، والمحبس ، والسند ، وبصرى ، وجبل الثلج . . . الا انه لايمكن أن يفهم من شعر حسان أو غيره شمول ملك الغساسنة مدينة دمشق(٧) وان زيارته اياها ، أو وصوله مواضع قريبة منها أو ملتصقة بها ، ما كان الا على سبيل المجاز ، او هو من مبالغات الشعراء ، في التفاخر ، والتباهي ، والمدح .

فاذا استثنينا هذا المورد ، فاننا لانجد اي مورد تاريخي يقول باستيلاء الغساسنة على دمشق أو على مواضع متصلة بها . ولعل مايذكره اولئك الشعراء ، هو تعبير عن قصور وأملاك اشتراها ملوك الغساسنة وأمراؤهم في دمشق ، وفي مواضع حضرية أخرى ، لقضاء بعض الوقت فيها (كما يفعل الامراء في الزمن الحاضر ، من شراء بيوت وقصور في المدن الكبيرة المتحضرة ، أو في اوربا ، يقيمون فيها بعض الوقت للتسلية والراحة) فيزورهم فيها أولئك الشعراء ويصفوها وصفا شاعريا ، يصور الشام ، وما حولها ، كأنها ملك من أملاك الغساسنة . . .(٨) .

وقد نسب أهل الاخبار اماكن أخرى الى الغساسنة ، بالاضافة الى الأماكن التي سبق الحديث عنها منها « صفين » قرب الرقة والرصافة(٩) اذ قالوا : « . . . وكان منزل ـ جبلة بن النعمان ـ بصفين ، وهو صاحب عين أباغ . . »(١٠) .

ومن الأماكن المنسوبة الى الغساسنة موقع « حارب » وقد ورد اسمه في شعر ينسب الى النابغة حيث يقول :

لئن كان للقبرين ، قبر بجلق ... وقبر بصيداء التي عند حارب

وورد « قصر حارب » وقد نسبه حمزة الى (النعمان بن عمرو بن المنذر)(١١) .

ويذكر أهل الأخبار : « السويداء » في جملة الاماكن التابعة للغساسنة ، وقد رجع حمزة الاصفهاني بناءها الى (النعمان بن عمرو بن المنذر) ، وتقع في حوران(١٢) .

وتعد منطقة الجولان من أشهر مناطق الغساسنة . وقد ورد ذكرها في الشعر العربي ، وفيها قبور بعض الامراء الغسانيين ... وبها كان في الغالب قصر آل غسان. وقد اشتهرت « الجابية » بأنها مقر الملوك ، ولذلك عرفت بـ « جابية الملوك » . كما عرفت ايضا بـ « جابية الجولان »(١٣) . وفي « البرج » عثر على كتابة يونانية جاء فيها : « البطل الشريف والامير المنذر » . ويدل على انه من آثار المنذر . واما بقية المواضع ، وهي عديدة منتشرة في أماكن واسعة ، وللعلماء في أصلها نظريات وآراء(١٤).

والرصافة من المواضع الهامة عند الغساسنة . ففيها مشهد القديس(سرجيوس) وهو من القديسين الاجلاء عند الغساسنة . وممن كانوا يتبركون بزيارة قبره . ويتقربون اليه بالهدايا والنذور . وكان لآل جفنة مساكن في الرصافة(١٥) .

وفي عصر ازدهار الامارة الغسانية ، شيدت في الرصافة معظم اوابدها الاثرية . من أسوار ضخمة ، وصهاريج عميقة ، لجمع المياه ، كما تركزت حامية تتناسب مع اهمية المدينة(١٦) . وتذهب كثير من الموارد الى انه اثناء تولي الامبراطور (انستاس ٤٩١ ـ ٥١٨ م) عرش بيزنطة ، دعيت الرصافة باسم « انسطازيوبوليس » على اسم هذا العاهل .الذي شيد فيها بناء البازيليكا الفخم . وانه يمكن للمؤرخ أن ينسب للعاهل نفسه بناء اسوار المدينة ، وصهاريجها سنة ٥٠٤ م(١٧) وجدد (جوستنيان ٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) فيما بعد تشييدها ، وترميم أسوارها ، وجعل فيها صهاريج ضخمة من الآجر(١٨) .

الا اننا نقف من هذه المراجع موقف المتحفظ . وكأنها تريد ان تنكر على العرب بناء مثل هذه المباني الرائعة وهم الذين شيدوا « البتراء » واقاموا هياكل « تدمر » العظيمة ، ورفعوا صروح « الحضر » المنيعة ، وغير ذلك قبل ازدهار الرصافة بقرون . سيما وأن الكتابات التي عثر عليها في أبنية الرصافة تشير الى اسماء الملوك الغساسنة ، وتعطي الادلة على ماتشير اليه الموارد العربية ، التي نلمس من خلالها اثر الغساسنة في تشييد هذه المدينة . وان كنا لا نغفل في الوقت ذاته ماقدمه الاباطرة الروم من بعض المال ، أو الخبرة ، أو غير ذلك .

وتزودنا مخطوطة سريانية ، مؤرخة في عام ٥٧٠ م بمعلومات وافرة عن المراكز الرئيسية لموطن الغساسنة فالوثيقة المذكورة تحمل توقيع ١٣٧ رئيسا من رؤساء الاديار الذين كانوا يدينون ببعض الولاء للحارث الغساني . واذا نظرنا الى مواقع هذه الاديار ككل ، فاننا نجد انفسنا أمام نوع من الولاية المحلية لاصحاب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح . وتساهم محتويات هذه الوثيقة ، في تأكيد الروايات العربية

المتاخره عن أرض الغساسنة ؛ لاسيما وأن الرواة المتأخرين ، قد استمدوا معلوماتهم عن الغساسنة . من شعراء الجاهلية ، أمثال النابغة الذبياني . وحسان بن ثابت الانصاري . واخيرا نذكر « حمزه الأصفهاني » الذي وضع قائمة مفصلة . لاوابد الغساسنة في بلاد الشام . واماكن وجودها . بيد أن الابحاث الاثرية . لم تحقق الا وجود عدد قليل . من لائحة حمزة الطويلة(١٩) .

وتذكر الموارد ، أن لآل جفنة في الرصافة مساكن . وقد قاموا باصلاح ما كان يتهدم منها . من ذلك (النعمان بن جبلة) الذي اقام فيها(٢٠) ؛ وممن ينسب اليهم من الأمراء الغساسنة اقامة المنشآت في الرصافة (الحارث بن جبلة) المتوفى سنة ٥٦٩ م أو ٥٧٠ م — على راي نولدكه —(٢١) . . . اذ يظن بعض الباحثين أنه هو الذي أمر ببناء كنيسة الرصافة الكبرى . ولبس الملك (جوستنيان) — على رأي روايات — ذلك لان المؤرخ (بروكوبيوس) لم يشر أثناء كلامه ؛ عن هذا القيصر ، على اثر له في هذه المدينة . على حين أشار الى تسوير الحارث لها . والى احترامه العظيم للقديس سرجيوس . المعروف بها . وهو قديس له منزله كبرى . في نفوس عرب الشام(٢٢) .

وذكروا أن (المنذر بن الحارث ٥٦٩ — ٥٨٢م) بنى الصهاريج في الرصافة . لايصال الماء اليها — لانها « بيت القديس سرجيوس » . ذي المكانة العظيمة . عند عرب الشام . وظهرمن كتابة عثر عليها . في أنقاض كنيسة الرصافة . ان المنذر بنى أو جدد بناء تلك الكنيسة وكان بناؤها على الطراز البيزنطي(٢٣) .

ويرجح أن اقامة هذا الملك كانت في الرصافة معظم ايام حياته . ذلك انه عندما كان في القسطنطينية طلب من البيزنطيين مساعدته في بناء قصر له . يكون أعظم قصر غساني . بني حتى ايامه . وذلك بأن يرسلوا اليه أحسن المعمارين ، والبنائين الحاذقين . فلبى البيزنطيون طلبه وأمدوه بما يحتاج اليه من المعمارين ومن مواد البناء(٢٤) فجعل المنذر هذا القصر قصرا له ؛ ودارا للضيافة . خارج الاسوار . وعلى بعد ٢٠٠ م تقريبا في الجهة الشمالية من سور المدينة . ولا يزال نقش باللغة اليونانية في هذا البناء ، يذكر بالمنذر العربي(٢٥) .

ومما يظهر من روايات أهل الأخبار أن (جبلة بن النعمان) كان منزله بـ« صفين » القريبة منها ؛ وانه صاحب موقعة « عين أباغ » كما أوردنا سابقا . وأنه قاتل (المنذر ابن ماء السماء) . وكان ملكه ١٦ سنة(٢٦) .

ثم ملك بعده (النعمان بن الايهم . بن الحارث بن مارية) وكان ملكه ٢١ سنة . لم يحدث خلالها شيء(٢٧) فتولى بعده (النعمان بن الحارث بن الايهم) ، وفي عهده

أصلحت صهاريج الرصافة . وصنع صهريجها الأعظم . وكان بعض ملوك لخم خربها(٢٨) وكان ملكه ١٨ سنة . ويرى (موسل) أن النعمان هذا كان قد حارب الفرس ، من حوالي سنة ٦٠٤ حتى سنة ٦١٦ م . وانه قد احتمى مرارا بأسوار الرصافة ، وبهذه المناسبة على ما يظهر قد قام بترميم صهاريج المدينة لخزن الماء(٢٩).

وفي نسبة بناء الرصافة . أو اعادة بنائها . الى انستاس او الى جوستنيان، فقد اختلف المؤرخون الرومان . والمؤرخون السريان في نسبتها الى هذا أو ذاك . فكيف لابجري والحالة هذه اغفال دور عرب الشام . ودور أمرائهم الغساسنة . في الاعمال العمرانية لهذه المدينة . وفي الواقع ان ماتراه من تعظيم عال واجلال رفيع لمكانة القديس سرجيوس عند الغساسنة . الى الحد الذي جعلهم يبالغون في تعظيمه والاحتفاء به(٣٠) يجعلنا نعتقد انهم كانوا على الدوام منشغلين في بناء وترميم منشآت الرصافة طوال عهدهم . كما ان اقامة الكثير من امرائهم فيها . يزيد من هذا الاعتقاد . هذا اذا علمنا أيضا انها كانت قاعدة الخطوط الامامية لامارتهم في وجه الفرس . ووجه أعدائهم عرب الحيرة . الذين كثيرا ماامتهنوا حرمة القبر المقدس في الرصافة . خلال حروبهم مع الغساسنة . واعتدائهم على المدينة(٣١) .

ويبدو ان للرصافة عند الغساسنة . اكثر من اسم واحد . فقد ذكر ياقوت(٣٢): نقلا عن الاصمعي .. « الزوراء رصافة هشام ، وفيها دير عجيب .. » . وأشار جواد علي(٣٣) الى عجز بيت من شعر النابغة يقول فيه : « .. صليب على الزوراء منصوب » .

كان أهل الرصافة مسيحيين . وعلى مذهب اليعاقبة ، نسبة الى يعقوب البرادعي . ومن القائلين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح . وقبل زمن جوستنيان بقليل صادفت عندهم قبولا مواعظ (سيفروس الأنطاكي) ، زعيم «المينوفيزيين» في سنة ٥١٢ م . التي تعتبرها الكنيسة الرسمية للدولة « هرطقات » كما اعتبرها بعض المؤرخين نظرية من شأنها زرع الاضطرابات والقلاقل . وتعطيل النمو الطبيعي للمدن(٣٤) اذ أن الاديار الغسانية التي بلغ تعدادها في بلاد الشام ١٣٧ ديرا والتي كان رؤساؤها جميعهم ، يدينون ببعض الولاء للحارث بن جبلة الغساني(٣٥) ، جعلت الحارث آنذاك مكرها على حماية قومه واتباعه من تأثير المذهب « الكالسيدوني » ، الذي كان مذهبا رسميا للدولة البيزنطية . وكان هذا المذهب يسيطر على المدن والاسقيفات الملية . ولعل هذا الامر ، هو الذي دفع الغساسنة الى الابتعاد عن المراكز الرئيسية للمذهب الرسمي . والجوء الى المناطق النائية ، حيث تكمن قوتهم الفعلية(٣٦) .

ونمكنت « النظرية المينو فيزيه Monophysites » في عهد الحارث ، ببلادغسان(٣٧) مما اغضب بيزنطة . فشق الغسانيون عصا الطاعة ، واعلنوا الثورة ، طيلة ثلاث سنوات . مما اضطر الامبراطور البيزنطي الى استرضاء الامير الجفني . وقد تم الصلح بين الامبراطوروالحارث عام ٥٥٧ م فيالرصافةعندقبر القديس سرجيوس(٣٨) .

ويقال ان الحارث كان قد سعى لدى الامبراطورة (تيودورة) في تعيين (يعقوب البرادعي) ورفيقه (تيودورس) أسقفين للمقاطعات السورية العربية . ونجحفيمسعاه هذا في سنة ٥٤٢ ـ ٥٤٣ م وبذلك وطد هذا المذهب في بلاده(٣٩) .

ولمعارضة مذهب اليعاقبة لمذهب الكنيسة الرسمي ، عدّ الروم هذا المذهب من المذاهب المنشقة المعارضة فقاوموه ، وناطلوا أصحابه ، ولاسيما في أيام القيصر (يوسطنيانوس) باعتباره مذهبا من المذاهب المناهضة لسياسة الملوك والدولة ، كمعارضة الاحزاب السياسية في الزمن الحاضر . الا أن الحارث سعى جهد امكانه في تخفيف حدة غضب الحكومة على رجال هذا المذهب ، ومن التقريب ما أمكن بين رجال الكنيستين . ولجهود الحارث ومسعاه في حماية هذا المذهب . فضل كبير ، ولا شك ، في بقائه . وفي انتشاره بين السريان ، وعرب الشام .

وزار الحارث القسطنطينية ، في تشرين الثاني من سنة ٥٦٣ م فاستقبل استقبالا حافلا ، واثر أثرا عظيما في نفوس أهل العاصمة ، وفي رجال القصروالحاشية ... والظاهر ان الغاية التي من اجلها ذهب الحارث الى القسطنطينية ، هي مفاوضة رجال الحكم فيمن سيخلفه على عرشه بعد وفاته من أولاده ، وفي السياسة التي يجب سلوكها تجاه « عمرو » ملك الحيرة(٤٠) .

وكان العرب اليعاقبة ، يحجون الى مشهد القديس سرجيوس في الرصافة للتبرك به والنذر له ، ويتيمنون به ، ويضعون صورته مع الصليب ، على راياتهم أملا بالفوز في المعارك ، والى هذا القديس أشار الشاعر الاخطل بقوله :(٤١)

لما راونا والصليب طالعا ومار سرجيس وسما ناقصا
وابصروا راياتنا لوا معا خلوا لنا زاذان(٤٢) والمزارعا(٤٣)

وهذه دلالة على أن شهرة هذا القديس ، ظلت بين النصارى ، حتى في أيام الاسلام . ولطالما قصد الاعراب كنيسة هذا القديس ، لتعميد ابنائهم هناك ، كما كانوا يعقدون العقود عند قبره ، ويقسمون الايمان عنده ، دلالة على التشديد فيها ،

، صدقهم في الوفاء ، وكان أمراء الغساسنة يبالغون في تعظيمه والاحتفاء به ، ويقصدونه للتبـرك بـه(٤٤) .

وكان مشهده في الرصافة من أهم المزارات التي تقصدها المتنصرة من عرب الشام، مثل الغساسنة وتغلب . وقد تقرب اليه بعض ملوك الغساسنة ، بتقديم الهدايا ، والنذور ، وتزيينه ، وزيارته ، والاعتناء بالمدينة وصهاريجها ، تكريما له وتقربا اليه . وظل هذا المزار مقصودا مدة في الاسلام(٤٥) وعدّه التغلبيون شفيعهم ، وجعلوا له راية حملوها في الحروب،وكانوا يحملونها مع الصليب،تبركا به وتيمنا بالنصر(٤٦). كما كانوا هم والغساسنة ، يحتفلون في الرصافة ، بعيد القديس سرجيوس ، تخليدا لذكراه(٤٧) .

حروب آل جفنة وآل نصر :

يتصف القرنان السادس والسابع الميلاديان بكثرة الحروب بين الفرس والروم . ومنذ عهد قباذ ، لم تستقر الاحوال بين الدولتين الكبيرتين في ذلك العهد ، وواصل قباذ أعمال العداء منذ عام ٥٠٢ م الى حين وفاته في عهد (جوستنيان) . وكان الامر كذلك ، بين المملكتين العربيتن ، الغساسنة ، أحلاف الروم ، والمناذرة أحلاف الفرس . وتتجلى صورة هذه الحرب أيام (الحارث بن جبلة الغساني) والمنذر الثالث بن النعمان) ملك الحيرة(٤٨) .

ويرى بعض الباحثين ان حكم المنذر ، كان حوالي سنة ٥٠٨ م ، أو قبل ذلك بقليل في السنة ٥٠٦ م . وأما انتهاء ملكه ، فكان حوالي السنة ٥٥٤م.(٤٩) .

وقد كان قباذ ملك الفرس ، عقد صلحا مع الروم في عام ٥٠٦ م بعد الحرب التي استمرت من سنة ٥٠٢ م حتى سنة ٥٠٥ م ، غير أن هذا الصلح لم يدم طويلا(٥٠).

ففي سنة ٥١٨ م ، تجدد الخلاف بين الفرس والروم ، على اثر مطالبة قباذ القيصر البيزنطي ، بدفع الاتاوة ، التي اتفق في صلح ٥٠٦ م ، على دفعها للفرس . وبناء على تباطؤ القيصر في دفعها حرض قباذ المنذر على التحرش بحدود الروم . فقام المنذر بغزوها سنة ٥١٩ م .

لقد تمكن المنذر في بعض حروبه مع الروم من اسر قائدين هما (ديموستراتوس = تيموستراتوس) ويوحنا . وأراد القيصر ، أن بفك أسر هذين القائدين ، ويعقد

صلحا وحلفا بين الروم والمنذر . فأرسل ـ على مايظهر ـ وفدا خاصا الى المنذر يضم (ابراهيم Abraham) . والد الكاتب (نوسوس) و (شمعون الارشامي) و (سرجيوس أسقف الرصافة ـ بيت الرصافة)(٥١) وقد وصل الوفد الى المنذر . وذلك سنة ٥٢٤م .. وقد نجحت مهمة الوفد . فيما يخص فك اسر القائدين .

وصادف وصول وفد الروم الى المنذر . وصول وفد آخر من اليمن أرسله « ذو نواس » الملك الشهير المعروف بتعذيبه نصارى نجران الى المنذر ليفاوضه على تعذيب من في مملكته من النصارى وقد دون شمعون الارشامي قصة التعذيب هذه مدعيا أنه نقلها من الكتاب الذي قرىء على الملك المنذر . ومن أقوال من عرفه من الحاضرين . دونها في صورة كتاب ليقرأ في الكنائس . ويطلع عليه المؤمنون .

وقد نشر هذا الكتاب . وطبعت ترجمته كذلك .

وذكر ان القيصر (يوسطينوس) كتب الى المنذر بن النعمان طالبا منه اخراج من في أرضه من القائلين بالطبيعة الواحدة . وقد جادلهم في مجلس عقده بحضرة المنذر (شيلا) الجاثليق . فلما سمع هؤلاء بذلك . هرب بعضهم الى نجران . وأقاموا هناك . وكان من مؤيديهم (الحجاج بن قيس الحميري) صاحب المنذر .

يظهر ان أمل القيصر في عقد هدنة . أو معاهدة مع المنذر لم يتحقق . أو انه تحقق ولكن الى حين . فلما ساءت العلاقات بين الروم والفرس . ووقعت الحرب سنة ٥٢٨م بين الجانبين هاجم المنذر الروم مؤيدا الفرس . وكان له أثر خطير في هذه الحرب . وقد توغل في بلاد الشام ، وغنم منها غنائم كثيرة ، ولكنه لم يبق فيها أمدا طويلا . فعاد مع جنوده سريعا الى قاعدته . كعادة سائر الملوك ، بعد أن أشبع نفسه من غنائم الحرب . ثم جدد هجومه على الشام في السنة نفسها ، وبعد مدة قصيرة من هجومه الاول . فتوغل فيها حتى بلغ حدود أنطاكية(٥٢) وأحرق عددا من المواضع . ومنها موضع « خلقدونيا » . وقد زعم بعض المؤرخين السريان انه ضحى بـ ٤٠٠ راهبة للعزى . وهي دعوى تحتاج بالطبع الى درس .

وقد عرض ابن العبري ، توغل المنذر في أرض الروم ، واستيلائه على أرضين واسعة ، شملت كل منطقة الحدود . ومنها أرض الخابور ونصيبين ، حتى بلغ حمص وأفامية وأنطاكية ، زاعما انه قتل عددا كبيرا من السكان . وخرب اكثر تلك الارضين ، ذاكرا انه اختار من تلك الاسرى ٤٠٠ راهبة أخذهن لنفسه ، غير انه لم يذكر انه قدمهن قربانا للعزى(٥٣) .

وقد اضطر هذا الغزو الامبراطور (جوستينان) الى نصب (الحارث بن جبلة الجفني) « فيلارخا = فيلاركا » ـ أي عاملاً على عرب الشام لحمايه الحدود من اعتداءات المنذر وعرب العراق . ولقد مر معنا قيام المنذر ، وأحد قواد الفرس ، في سنة ٥٣١ م بمهاجمة منطقة الفرات ـ وهي منطقة قوماجين ـ وكيف تصدى لهما القائد (بليزاريوس) ، ثم التقيا به عند الرقة . فانتصر عليه . وكان ذلك في السنة الرابعة من حكم جوستنيان(٥٤) .

وعلى الرغم من صلح عقد في عام ٥٢٢ م بين الروم والفرس ـ أيام كسرى أنوشروان ـ لم ينقطع النزاع بين الحارث الجفني ، والمنذر اللخمي ، بسبب اختلافهما على الاتاوة التي تجبى من أعراب الـ (Srata) ـ أي المنطقة الواقعة في جنوب تدمر ، على الطريق الحربي للرومان . وهي منطقة رعي لاشجر فيها ، ولا زراعة ، تمر بها الطرق البرية الموصلة الى بلاد الشام من الفرات ، ويرعى فيها أعراب العراق ، وأعراب الشام . وقد ألف جوستنيان لجنة تحكيم ، لم تتمكن من فض النزاع ، وقد اتهم الفرس أعداءهم الروم بأنهم يريدون الاتصال سرا بالمنذر ، ورشوته ، لتحريضه على القيام ضد الفرس(٥٥) ، وبعد مراسلات بين الفرس والروم ، دون بعضها (بروكوبيوس) وهي مراسلات جميلة ، ترينا فن الدبلوماسية ومنطق الملوك في ذلك العهد ، هاجم الفرس الروم في عام ٥٤٠ م . وغزا الحارث الجفني أرض الجزيرة ، الوقوف على قوة الفرس ، ومقدرتهم ، وهاجم المنذر اللخمي ، بلاد الشام ، فبلغ فينيقية ، وتوغل في مناطق واسعة من لبنان(٥٦) .

ويبدو أن الرصافة قد تعرضت لهجوم قام به الفرس انفسهم عليها أيام كسرى أنوشروان ، أثناء حملته على سورية الشمالية واستيلائه على المدن ومنها الرقة(٥٧) الا أن حملته على الرصافة قد فشلت ، بفضل أسوارها المنيعة ولم يستطع الوصول الى كنوزها ، عام ٥٤٢ م(٥٨) .

ولكن المناوشات بين الحارث والمنذر ، لم تنقطع بالرغم من الهدنة ، التي اتفق الفرس والروم على عقدها لمدة خمس سنوات ، وذلك في سنة ٥٤٥ م . فبعد مدة قصيرة من التوقيع عليها ، عادت نيران الحرب فاستعرت بين الحارث والمنذر من غير أن يتدخل الفرس والروم ، في هذا النزاع . وقد تمكن المنذر من مباغتة أحد أبناء الحارث ، واسمه (جبلة)(٩) وكان يكلأ خيله في البادية ، فأسره ، وقدمه على ما يقوله (بروكوبيوس) ضحية الى (العزى Aphrodite) .

وبعد ان جمع كل واحد منهما كل ما يملك من قوة ، ومن حديد . اشتبكا في حرب جديدة . انتصر فيها الحارث انتصارا كبيرا ، وقتل عدد كبيراً من جنود خصمه ،

فلما رأى ماحل به فرهو ومن بقي حيا من اتباعه ، تاركا اثنين من ابنائه في جملة من وقع في الأسر(٦٠) .

وختم عام ٥٥٤ م هذا النزاع العنيف الذي أتعب الحارث والمنذر ، فاستراح الجانبان . ختم بسقوط المنذر بن النعمان (موندر برنعمن) ملك العرب صريعا ، بيد خصمه ، الحارث بن جبلة ، بعيدا عن عاصمة ملكه .

ففي منطقة قنسرين ، على روايات المؤرخين في السنة ٢٧ من حكم الامبراطور جوستنيان هاجم المنذر منطقة « Rhomayie » التابعة لحكم الروم ، فنازله الحارث بن جبلة ، وتغلب عليه وقتله عند عين « عواديا Wdaya». في منطقة قنسرين . وقد سقط في هذه المعركة احد ابناء الحارث . فقد ذكر ابن العبري : ان برحيرت Bar-Herath) ـ اي ابن الحارث ، سقط قتيلا في الحرب(٦١) وعواديا هي « العزية » على راي ـ موسل ـ وهي من مواضع منطقة « بالميرينا Palmyrena» ـ اي منطقة تدمر ـ ومعظم هذه المنطقة من اعمال قنسرين(٦٢) . وعلى راي (نولدكه) أن هذه المعركة ، كانت بالقرب من « الحيار » ، وانها « يوم حليمة » المشهور في الاخبار العربية . وفي الامثال : « مايوم حليمة بسر ». دلالة على شهرة ذلك اليوم(٦٣) .

وبعد وفاة الحارث بن جبلة ، تولى ملك الغساسنة ابنه (المنذر بن الحارث ٥٦٩ ـ ٥٨٢ م) وهو : ابو كرب الذي ورد اسمه في نص سرياني ، عثر عليه في احدى ضواحي تدمر ، وهو نص ديني ورد فيه اسم الاسقفين ، يعقوب ، وتيودور وهما : (يعقوب البرادعي) وصاحبه(٦٤) .

كان المنذر معاصرا لـ (قابوس Chabus بن المنذر) ملك الحيرة(٦٥) ، اذ ما ما كاد هذا يتولى الحكم ، حتى اغار على بلاد الشام(٦٦) ، وقد ذكر ابن العبري : ان المنذر بن الحارث (منذر برحرت) كان نصرانيا ، وأن جنوده كانوا نصارى كذلك . ولم يشر الى نصرانية قابوس. ويفهم منه أن قابوس ، أغار على النصارى(٦٧) . وقد ظفر قابوس بغنائم عديدة ، اخذها وعاد بها ، غير أن المنذر جمع جيشه ، وسار يتعقبه، فلما التقى به تغلب عليه ، واخذ منه اموالا كثيرة ، وعددا كبيرا من الجمال .

ويظهر من رواية لـ(يوحنا الافسوسي)(٦٨) . ان الملك قابوس ، انتهز الفرصة ، عند وفاة الحارث بن جبلة ، فباغت الغساسنة ، بهجوم مفاجيء في عقر دارهم . فاسرع عندئذ المنذر بن الحارث ، وجمع جمعه ، وفاجاه بهجوم مقابل ، لم يتمكن قابوس من

الثبات له ، فانهزم هزيمة منكرة ، بحيث لم ينج من اصحابه الا القليل . وفر هو ومن سار معه من الناجين ، في اتجاه الفرات ، تاركا عددا من الامراء اللخميين أسرى في ايدي المنذر .غير أن المنذر ، سار في اثرهم ، حتى كان على ثلاث مراحل من الحيرة(٦٩) ويرى نولدكه : أن هذه المعركة كانت في يوم ٢٠ أيار ـ مايس من سنة ٥٧٠ م وانها هي ـ معركة عين أباغ ـ(٧٠) .

وبعد قليل من هذه الهزيمة ، وفي السنة نفسها ، جرب قابوس حظه مرة اخرى ، غير انه منى بخسارة جديدة(٧١) . فذهب الى الفرس يلتمس منهم عونا ومددا(٧٢) . وجرب حظه مرة اخرى منتهزا ، فرصة القطيعة بين المنذر ، والامبراطور (جستين الثاني ٥٦٥ ـ ٥٧٨ م) . وهي قطيعة لانعلم أسبابها على وجه التحقيق(٧٣) وانما يعزو ابن العبري سببها الى مطالبة المنذر للامبراطور بالمال ليتمكن به من اعداد جيش قوي منظم ، يستطيع الوقوف به أمام الفرس . فأغار على حدود الروم ، وتوغل في الارضين التابعة لهم . حتى وصل اتباعه الى منطقة انطاكية(٧٤) مما أغضب بيزنطة . واحس المنذران الروم قد دبروا له مؤامرة ،وان الامبراطور امر عامله البطريق (مرقيانوس Marcianus) بأن يحتال عليه ليقتله فزاد تمرده على الروم . وغادر ارضهم الى البادية ، فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة المواتية فأمعنوا في غزو بلاد الشام لمدة ثلاث سنين وايقاع الرعب في نفوس سكان القرى المجاورة لهذه الحدود ، مما حمل الروم على مراسلة المنذر ، والتودد لاسترضائه ، حتى اذا ما تلطف الجو ، أرسلوا اليه البطريق (يوسطنيانوس) ليجتمع به ، في مدينة الرصافة ، عند قبر القديس سرجيوس ، لاقناعه بترك موقفه ، والموافقة على العودة الى محله(٧٥) .

وعند قبر القديس عقد الصلح بينهما في صيف ٥٧٨م . فعاد المنذر الى أرضه ليقوم بالدفاع عن حدود بلاد الشام(٧٦) ، فجمع المنذر اتباعه ، وفاجأ المناذرة بهجوم خاطف ، كابدت منه الحيرة الامرين ، واطلق من كان في سجون الحيرة من أسرى الروم ، وقد وقعت هذه المفاجأة سنة ٥٧٨ م ، ويظن (روشتاين) انها وقعت بعد وفاة قابوس ، في عهد المنذر الرابع ، اخي قابوس ، وخليفته في الملك(٧٧) .

وكان المنذر كأبيه من القائلين بمذهب الطبيعة الواحدة . والمدافعين عنه ،لذلك انتهز فرصة وجوده في القسطنطينية ، فسعى في اقناع رجال القصر بالتسامح مع رجال مذهبه ، والصفح عنهم ، ويظهر انه عقد هناك مجمعا في اليوم الثاني من شهر آذار سنة ٥٨٠ م لمعاضدة هذا المذهب ، والدفاع عنه ، غير انه خابت مساعيه بالرغم من اظهار البطارقة ، رغبتهم في ذلك ، وعدم ممانعتهم فيه(٧٨) .

ولما حاول الروم غزو الفرس في سنة ٥٨٠ م ، وجدوا الجسر المنصوب على نهر الفرات مهدما ؛ فاضطروا الى التراجع ؛ وترك الغزو . وكان المنذر معهم في هذه الغزوة. فذهبوا الى ان المنذر ؛ كان على اتفاق سري مع الفرس . وانه هو الذي أوعز بهدم الجسر . ليكتب للحملة الاخفاق . وتدبروا القبض عليه ، والايقاع به . انتقاما للخيبة التي منوا بها .

ولما عاد المنذر . فغزا أرض الحيرة بنفسه ، فيما بعد . ملحقا بالمدينة اذى كثيرا، جاعلا اياها طعمه للنيران ، اتخذ الروم من هذه الغزوة دليلا على تحدي المنذر لهم ؛ ورغبته في الخروج عن طاعتهم فقرروا الانتقام منه بقتله ؛ فأصدروا الى حاكم بلاد الشام (ماكنوس **Magnus**). صديق المنذر(٧٩) أمرا سريا . بالعمل على قتله . وصادف ان الروم ؛ كانوا قد انتهوا من بناء كنيسة « حوارين » . وقد عزم ماكنوس ؛ على تدشينها. فكتب يدعو صديقه الى الاحتفال بذلك . فلما كان على مقربة منه ؛ قبض عليه وأرسله مخفورا الى العاصمة . حيث أجبر على الاقامة فيها مع احدى نسائه . وبعض أولاده وبناته ، وذلك في أيام الامبراطور (طباريوس) في بداية سنة ٥٨٢ م .

ولما انتقل العرش الى (موريقيوس) وكان يكرهه ، ويعاديه . أمر بنفيه الى صقلية ، ويقطع المعونة التي كان الروم يدفعونها الى الغساسنة في كل عام (٨٠) .

ومن هنا نرى أن بناء الغساسنة اخذ بالتصدع . وانقسم الامراء على أنفسهم . وذلك حوالي سنة ٥٨٣ أو ٥٨٤ م — على تقدير نولدكه ، ويشير . ميخائيل السوري وابن العبري . . . الى خمس عشرة فرقة ؛ تركت بعضها ديارها . فهاجرت الى العراق وتشتت الباقون ، ولم يبق لهم شأن يذكر ، ولم يشر الكتبة السريان ، أو البيزنطيون الى ملك الغساسنة ؛ بعد هذا الحادث ، وهو أمر يؤسف له غاية الاسف ؛ اذ حرمنا بذلك من الحصول على وثائق مهمة تساعدنا ، في معرفة تاريخ عرب الشام(٨١) .

لقد اعقب هذا التصدع حدوث اضطرابات في الامن ، وفوضى بين القبائل ، التي اخذت تتنافس للحصول على الرئاسة والسيادة(٨٢) . حتى الرصافة لم تمنع قدسيتها الاعراب ، ولاسيما اعراب العراق من التحرش بها ؛ فغزتها مرارا ؛ واخذت قبيلة تغلب صورة القديس ، بعد عودتها من غزو المدينة ؛ كما هدم أهل الحيرة ؛ أسوار المدينة مرارا(٨٣) . ولخطورة مثل هذه الاحوال بالنسبة الى الروم ، ولسلامة الحدود ، فقد حملوا على التفكير في اختيار رئيس قوي ، من سادات القبائل

المتنافسين ، ليقوم بضبط هذه القبائل ، واعادة الامن الى نصابه وحماية الحدود من هجمات عرب الحيرة(٨٤) .

وزاد في ربك الغساسنة . وفي انقسامهم على انفسهم : غزو الفرس لبلاد الشام سنة ٦١٣ — ٦١٤ م واكتساحهم لها جميعا . وصار عرب الشام . امام حكام جدد . لم يألفوا حكمهم من قبل . ولكن ألفوهم دائما . في جانب عرب الحيرة : أعداء الغساسنة ومنافسيهم (٨٥) .

ولا يمكن اعتبار السادة ، في بلاد غسان ملوكا . بعد سنة ٦١٤ م واكتساح الفرس بلادهم . وانقسام الغساسنة على انفسهم ؛ فالذين يذكرون منهم على انهم ملوك . لم يكن مجال حكمهم كبيرا واسعا . وهم لم يكونوا في الواقع . الا سادات بيوت . وسادات عشائر متفرقة . تمسكت باللقب القديم الموروث — لقب ملك — وكان بعضهم يعاسر بعضهم الاخر . ويدعى الرئاسة لنفسه ، وذلك بحسب تخاصمهم . ولهذا كثرت اسماؤهم ، في قوائم المؤرخين . وقد انحسر مد حكمهم وانكمش . فاقتصر على البوادي — ولا يعارض ذلك بالطبع مع ورود بسكناهم في قصورهم ، عند اطراف المدن . ومسارف القرى . فان سادات القبائل في هذا اليوم ايضا . يحكمون القبائل . ويعيشون في قصور لهم في المدن . وهم لا يحكمون بالطبع المدن — (٨٦) .

ويرى — موسل — ان (النعمان بن الحارث) قد حارب الفرس من حوالى سنة ٦٠٤ م حتى سنة ٦١٦ م . وقد احتمى مرارا باسوار الرصافة(٨٧) الى أن غزاها (كسرى الثاني — ابرويز) أثناء حملته على بلاد الشام ومصر . فتمكن من التغلب عليها ونهبها . رغما من تجديد الحصون والاسوار الذي قام به (موريكيوس)(٨٨) .

وقد تمكن الغساسنة من رؤية وجوه البيزنطيين مرة أخرى ؛ وذلك حوالى سنة ٦٢٩م . بعد ان طرد البيزنطيون الفرس من الارضين التي استولوا عليها ؛ واجلوهم عنها ، واعادوا فرض حكمهم عليها . غير ان الاقدار ابت أن تبقيهم هذه المرة مدة طويلة في بلاد الشام ؛ فاكرهتهم على فتح أبوابها للاسلام . فتساقطت مدنها في ايدي المسلمين . تساقط أوراق الشجر في أيام الخريف(٨٩) . فغدت ممالك الشرق كلها بعضا من ولايات الخلافة الاسلامية .



الحواشي :

(١) مقال الدكتور سليم عادل عبد الحق ، ، الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلد ١٠ لعام ١٩٦٠ ، ص ٢٠ .

(٢) مقال خالد اسعد ، في المرجع نفسه ، المجلد ٢٠ لعام ١٩٧٠ ص ٥٧ .

(٣) المرجع السابق نفسه : ص ٥٦ .

(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي ، جـ٣ ، ص ٤٣٩ .

(٥) مقال فرانسيس بيترز ، في الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلدان ٢٧ - ٢٨ لعامي ١٩٧٧ - ١٩٧٨ ، ص ٣٢٠ .

(٦) المفصل ، جـ٣ ، ص ٤٢٧ ومابعدها .

(٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٣٨

(٨) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٣٩

(٩) المرجع السابق نفسه ، ٤٢٢

(١٠) خطط الشام ، جـ٥ ص ٢٦٢ ، والمفصل ، جـ٣ ، ص ٤٣٩

(١١) المفصل ، جـ٣ ص ٤٣٩

(١٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٤٠

(١٣) المفصل ، جـ٣ ، ص ٤٤٠

(١٤) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

(١٥) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

(١٦) مقال الدكتور جورج سمارة ، في مجلة العمران ، عدد ٣٧ - ٣٨ شباط وآذار سنة ١٩٧١ (خاص بالرقة) ص ٨٨ .

(١٧) المرجع نفسه ص ٨٩ .

(١٨) الشرح على مقال الدكتور سليم عادل عبد الحق ، في الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلد ، ١ لعام ١٩٥١ ، ص ٩٩

(١٩) مقال فرانسيس بيترز ، في الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلدان ٢٧ - ٢٨ لعامي ١٩٧٧ - ١٩٧٨ ، ص ٣١٧

(٢٠) المفصل ، جـ٣ ، ص ٤٤٠

(٢١) المرجع نفسه ، ص ٤١١ وما بعدها

(٢٢) المرجع نفسه ص ٤١١

(٢٣) المرجع نفسه ص ٤١٥

(٢٤) المرجع نفسه ص ٤١٥

(٢٥) مقال الدكتور يوسف سمارة ، في مجلة العمران عدد ٢٧ – ٢٨ شباط وآذار ١٩٧١ (خاص بالرقة) ص ٨٩

(٢٦) المفصل ، جـ٣ ، ص ٤٢٢ وخطط الشام ، جـ ٥ ، ص ٢٦٢.

(٢٧) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

(٢٨) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها . ومعجم البلدان لياقوت الحموي ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ . وخطط الشام ، ج ٥ ، ص ٢٦٢ .

(٢٩) المفصل ، ج ٣ ص ٤٢٢ .

(٣٠) المرجع نفسه ، ج ٦ ، ص ٦٣٣ .

(٣١) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

(٣٢) معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٢٥٥ .

(٣٣) المفصل ، ج ٦ ، ص ٦٥٠

(٣٤) مقال ادمون فريزول ، تلخيص وتعريب جورج حداد ، في الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلدان ٤ – ٥ لعامي ١٩٥٤ – ١٩٥٥ ، ص ١٤٣

(٣٥) مقال فرانسيس بيترز ، في الحوليات الاثرية العربية السورية ، المجلدان ٢٧ – ٢٨ لعامي ١٩٧٧ – ١٩٧٨ ، ص ٣١٧ .

(٣٦) المرجع نفسه ، ص ٣١٨

(٣٧) عصر السريان الذهبي ، للفيكنت فيليب دي طرازي ، ص ١٠٨

(٣٨) مقال غسان الترجمان في ، مجلة صوت الرافقة ، لعام ١٩٦٨ ، ص ٧٦

(٣٩) المفصل ، ج ٣ ، ص ٤٠٨ وما بعدها

(٤٠) المرجع نفسه ، ص ٤٠٩

(٤١) المفصل ، ج ٦ ، ص ٦٣٣

(٤٢) تل زاذان : بجوار الرقة .

– معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ . ومراصد الاطلاع ، لابن عبد الحق البغدادي ، ج ٢ ، ص ٦٥٣ .

(٤٣) فاجابه جرير :

أفبالصليب وماسرجيس تتقي   شهباء ذات مناكب جمهورا

وقال :

يستنصرون بما سرجيس وابنه   بعد الصليب ، ومالهم من ناصر

المفصل ، جـ٦ ، ص ٥٩٣ .

(٤٤) المفصل ، جـ ٦ ، ص ٦٣٣ .

(٤٥) المرجع نفسه ، جـ٦ ، ص ٥٩٣

(٤٦) المرجع نفسه ، جـ٦ ، ص ٥٩٣

(٤٧) المرجع نفسه ، جـ٣ ، ص ٢٢٢

(٤٨) المرجع نفسه جـ٣ ، ص ٢٢٢

(٤٩) المرجع نفسه جـ٣ ، ص ٢١٩

(٥٠) المرجع نفسه جـ٣ ص ٢١٩

(٥١) سرجيوس : هو مؤلف القسم السرياني الخاص بـ « شهداء العربية الجنوبية » ـ أي شهداء نجران ـ وقد دون في عهد اسقفيته للرصافة أسماء الشهداء على الجدار الشمالي للكنيسة الكبرى ـ كنيسة القديس سرجيوس ـ . ويظهر مما ورد في كتاب الشهداء الحميريين ، وفي رسالة شمعون الارشامي أن يعقوب السروجي أسقف سرجيو بوليس ـ أي الرصافة ـ كان من رجال البعثة التي أوفدها القيصر يوسطينوس Justin الاول الى المنذر الثالث ملك الحيرة .
المفصل ، جـ٣ ، ص ٢٢٠ ، ٤٦٦

(٥٢) المفصل : جـ٣ ، ص ٢٢٠ .

(٥٣) المرجع نفسه ، ص ٢٢١

(٥٤) المفصل ، جـ٣ ، ص ٢٢١

(٥٥) المرجع نفسه ، ص ٤٠٨

(٥٦) المرجع نفسه ، ص ٢٢٢ . وخطط الشام ، جـ١ ، ص ١٠٣

(٥٧) مختصر الدول ، لابن العبري ، ص ٨٧ . ودائرة المعارف الاسلامية ، المجلد ١٠ ، ص ١٥٩

(٥٨) مقال الدكتور يوسف سمارة في مجلة العمران ، عدد ٣٧ ـ ٣٨ ، شباط واذار ١٩٧١ ، (عدد خاص بالرقة) ص ٨٩

(٥٩) المفصل ، جـ٣ ص ٤٠٨

(٦٠) المرجع نفسه ، ص ٢٢٤

(٦١) المرجع نفسه ، ص ٤٠٨

(٦٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢٧

(٦٣) المفصل ، جـ٣ ، ص ٤٠٨

(٦٤) المرجع نفسه ، ص ٤١٣

(٦٥) أخ عمرو بن هند ، أي – عمرو بن المنذر ، المعروف بـ (مدرط الحجارة) – المرجع نفسه ، ص ٢٥٨

(٦٦) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

(٦٧) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

(٦٨) باحنا الافسنوسي : عاش في القرن السادس الميلادي ، وقد توفي سنة ٥٨٥ تقريبا .
المرجع نفسه ، ص ٢٥٧

(٦٩) المرجع نفسه ، ص ٢٥٩

(٧٠) المرجع نفسه ، ص ٢٥٩ ، ٤١٣

(٧١) المرجع نفسه ، ص ٢٥٩

(٧٢) المرجع نفسه ، ص ٢٥٨

(٧٣) المفصل ، جـ٣ ، ص ٢٥٩

(٧٤) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

(٧٥) المرجع نفسه ، ص ٢٥٩ ، ٤١٣

(٧٦) المرجع نفسه ، ص ٤١٣

(٧٧) المرجع نفسه ، ص ٢٥٩

(٧٨) المرجع نفسه ، ص ٤١٤

(٧٩) المفصل ، جـ٣ ، ص ٤١٥

(٨٠) المرجع نفسه ، ص ٤١٦

(٨١) المرجع نفسه ، ص ٤١٧

(٨٢) المرجع نفسه ، ص ٤١٧

(٨٣) المرجع نفسه ، ص ٤١٥

(٨٤) المرجع نفسه ، ص ٤١٧

(٨٥) المفصل ، جـ٣ ، ص ٤١٨

(٨٦) المفصل ، ص ٤١٩

(٨٧) المفصل ، ص ٤٢٢

(٨٨) مقال الدكتور يوسف سمارة في مجلة العمران ، عدد ٣٧ – ٣٨ شباط واذار ١٩٧١ (خاص بالرقة) ص ٨٩

(٨٩) المفصل جـ ٣ ص ٤١٨

مرافق الأمن والتعليم والأشغال العامة

في فلسطين

كما يكشف عنها موظف كبير في الإدارة الانتدابية

د . أحمد طربين
جامعة دمشق

الموظف العربي [illegible] ميشيل ابكاريوس ، مواطن يحمل الجنسية الفلسطينية ، ولد في مدينة بيروت عام ١٨٨٤ وانتسب الى المدرسة الابتدائية في حي المصيطبة عام ١٨٩٢ حيث امضى ثلاثة اعوام ، وتابع دراسته الابتدائية والثانوية في مدرسة عينطورة خلال ستة اعوام ، التحق بعدها بالكلية الانجيلية السورية (الجامعة الامريكية في بيروت اليوم) ودرس العلوم التجارية خلال أربعة اعوام حصل في نهايتها على شهادة البكالوريوس . وغادر بيروت عام ١٩٠٥ الى القاهرة للالتحاق بأفراد اسرته ، وعمل في بنك كريديه اليونيه هناك . وما لبث أن استقر في الخرطوم لفترة قصيرة عمل خلالها مع حكومة السودان ، ثم توظف في بنك مصر بالخرطوم واصبح مساعدا للمدير ، وتولى بعد ذلك منصب مدير بنك مصر في بور سودان ، حتى اذا اصيبت اعمال البنك المذكور بالشلل ، تركه ابكاريوس وعاد الى مصر عام ١٩١٢ وعين في الادارة المالية بالمنصورة . وفي عام ١٩١٤ اقبل على دراسة الحقوق حتى اذا استوعب موضوعاته ، مثل امام لجنة فرنسية جامعية كانت تحضر سنويا الى مصر لفحص الطلبة المنتسبين الى مدرسة الحقوق . وفي عام ١٩١٧ ادى الفحص النهائي امام اللجنة المذكورة فنجح ونال شهادة الليسانس في الحقوق ، ثم نقل الى الادارة المالية في طنطا . وبعد الاحتلال البريطاني لفلسطين ، قصد ابكاريوس مدينة بيت المقدس عام ١٩٢٠ وعين في الادارة المالية للقوات البريطانية في فلسطين (ادارة بلاد العدو المحتلة) التي تحولت الى حكومة الانتداب بعد أن تسلمت الحكومة المدنية سلطاتها من الادارة العسكرية بفلسطين . وفي عام ١٩٢٥ رقي الى وظيفة مدير الخزينة ثم أصبح نائبا للسكرتير المالي ، وقد أحيل على التقاعد عام ١٩٤٤ فدخل ميدان القانون وزاول الاستشارات الحقوقية .

وبعد نهاية الانتداب البريطاني لفلسطين ١٩٤٨ قصد مدينة بيت لحم . وفي آب من العام نفسه تم الاتفاق بين الزعماء الفلسطينيين وجامعة الدول العربية على تشكيل (حكومة عموم فلسطين) ، وتألفت هذه الحكومة اثر انعقاد مؤتمر غزة

(١ تشرين الاول ١٩٤٨) برئاسة احمد حلمي باشا عبد الباقي ، واختير ابكاريوس وزيـرا للماليـة .

وفي صيف عام ١٩٤٩ نزح الى بيروت وشغل وظيفة استاذ مساعد في الجامعة الامريكية في بيروت ، وتولى تدريس القانون الاداري والدستوري في لبنان وسورية والعراق والمملكة العربية السعودية ومصر ، وشغل ما بين ١٩٥٢ ١٩٥٣ وظيفة في النقطة الرابعة ببيروت ، ثم عين مساعدا لمدير النقطة الرابعة .

وبرغم ان ابكاريوس عمل في حكومة الانتداب وشغل منصبا مرموقا فيها ، غير انه لم يكن راضيا عن السياسة البريطانية الانتدابية واعمالها التعسفية في فلسطين ، ولذلك ما أن أحيل على التقاعد ، حتى استلهم ضميره ووضع كتابا قيما باللغة الانكليزية ليقـرأه الغربيون بعنـوان Palestine through the fog of propaganda أي « فلسطين من خلال ضباب الدعاية » ، نشره في لندن عام ١٩٤٦ . كما الف كتابا اثناء عمله في الجامعة الامريكية بعنوان (العربي الحي) لم نقع عليه . وفي الثالث عشر من ايلول ١٩٥٣ توفي ميشيل ابكاريوس بالذبحة القلبية في بيروت ودفن في مقبـرة طائفـة اللاتين .(١)

الكتـــاب :

يقع في ٢٤٠ صفحة من القطع المتوسط ، ويتضمن مقدمة واثني عشر فصـلا وملاحق . كتب المقدمة الجنرال سير ادوارد سبيرز Spears الذي كان عام ١٩٤٢ ضابط الارتباط بين المصالح البريطانية في سورية ولبنان وبين المندوب العـام الفرنسي . وبعد اعتراف بريطانية باستقلال بلدي المشرق ، عين سبيرز وزيرا مفوضا لدى حكومتيهما ، وظل في منصبه حتى كانون الاول ١٩٤٤ . وقد دافع سبيرز عن الضمانة البريطانية لاستقلال سورية ولبنان التي اعطيت في ٨ حزيران ١٩٤١ ، وترك منصبة بناء على رغبته بعد ثلاث سنين اصطدم خلالها بالمندوب الفرنسي العـام ، ودافع عن وجهات النظر البريطانية (والامريكية) التي تعتبر ان البلدين العربيين يشكلان قاعدة هامة للمجهود الحربي للحلفاء ، ثم تابع عمله في مجلس العموم ، وقام بمساندة البلدين ضد مطامع السياسة الفرنسية آنذاك .

ويبدو ان سبيرز قد تأثر بالحقائق الدامغة التي أوردها ابكاريوس في كتـابه فقد تساءل في مقدمته « كم من البريطانيين يعلمون أن (النبوءة التوراتية) بعـودة اليهود الى فلسطين قد تحققت فعلا بعد عودتهم من سبي بابل ؟ اذ لم يظهر بيـن

اليهود أي نبي ، إثر طردهم على يد الرومان بعد ميلاد المسيح ، يعلن انهم سيعودون الى فلسطين ثانية ايضا ! وقال سبيرز ان المواطنين في بريطانية والولايات المتحدة لديهم احساس قوي بالعدالة ويرجون ان يكونوا منصفين ، وهم لا يستطيعون ان يكونوا كذلك اذا استمعوا فقط الى الحكاية من طرف واحد . فليس اصعب من الحكم في موضوع منفرد كموضوع فلسطين ، مادام الصهيونيون يسيطرون على مصادر الدعاية والاعلام في العالم ، ولديهم عدد كبير من ذوي النفوذ يشغلون أعلى المناصب لدعم قضيتهم . في حين أن العرب في الشرق الاوسط ، برغم ان تعدادهم يبلغ الخمسين مليونا ، محرومون كليا من هذه المزايا الاعلامية الضخمة » . ويستطرد سبيرز قائلا :

« ترى هل سمع أحد هنا (بريطانية) او في الولايات المتحدة بجريدة ذات نفوذ يسيطر عليها العرب ، وهل كان عربي ما عضوا في البرلمان ، أو عضوا في الكونغرس ومجلس الشيوخ ؟ ومع ذلك قيل ان خمسة بالمائة من أعضاء مجلس العموم الحالي هم يهود ، ليسوا بالضرورة صهيونيين ، ومعلوم تماما نفوذ التصويت اليهودي في نيويورك على الحكومة الامريكية .

« وبما ان القضية العربية قاصرة عن طرح نفسها على نحو ما يفعل خصومها ، فقد أصبح لزاما على الجمهور (البريطاني) ان يحاول تفهمها .. ان الشعب البريطاني يرغب في تحقيق العدالة ، ولن يستطيع ان يصل الى قرار عادل الا اذا وقف على حقائق القضية . وبالاضافة الى ذلك ، فلو اقترفنا ظلما ضد العرب بسبب الجهل وخلافه ، فسوف نخسر صداقة العرب ونجلب على انفسنا عداوة شعوب تقع في صميم خطوط مواصلاتنا الامبراطورية وتسيطر على مواردنا النفطية الحيوية .. ويجب أن يكون مفهوما انه بصدد القضية الفلسطينية لا يوجد سوى فكر واحد ينتظم الشرق الاوسط من مصر الى الخليج(٢) ، كذلك يجب أن نكون على ثقة بأن العرب يشعرون بأننا أمعنا في ظلمهم والجوز عليهم » .

ويروي سبيرز كيف ان بريطانية طلبت مساعدة العرب ضد الترك في الحرب العالمية الاولى ، ووعدتهم الاستقلال والسيادة على بلادهم ، وقد ثبت الوعد في مراسلات مكماهون الحسين ، وكانت مساعدتهم قيّمة لا تقدر بثمن ، وفقا لما صرح به لويد جورج رئيس الوزراء ، واللورد اللنبي القائد العام ، وحين صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ هدّد العرب بوقف القتال ضد الترك « وحالا أفهمناهم أن استيطان اليهود في فلسطين لن يسمح به الا بقدر ما ينطبق مع حرية العرب الاقتصادية والسياسية ، ولكن الصهيونيين ما كانوا يقبلون منذ البداية بأقل من تحويل فلسطين بأكملها الى

دولة يهودية ، يصبح العرب فيها اقلية خاضعة لهم فلا عجب اذا اصيب العرب بخيبة مريرة بعد ان استقبلونا كمحررين من الترك ، وفي فلسطين اتخذت مرارتهم شكل ثورات متزايدة الاتساع ضد الهجرة اليهودية والحكم الانتدابي البريطاني ، فقمعت ثوراتهم بدون شفقة بواسطة الاسلحة البريطانية . لن يقبل العرب أبدا أن يصبحوا اقلية في بلادهم ، واليوم (١٩٤٦) ثمة ٢٠٠،٠٠٠ر١ عربي و ٦٠٠،٠٠٠ يهودي في فلسطين ، وهؤلاء المهاجرون الغرباء الذين تدفقوا أساسا من اوربة الوسطى والشرقية، ليس فيهم شيء من الصفات السامية لليهودي ، فهم اجانب عن فلسطين ، مثلما الروس اجانب عن انكلترة » .

ويخلص سبيرز الى القول بأن « واجب الرجال والنساء في بريطانية محاولة فهم وجهة النظر العربية .. ولهذا السبب ينبغي قراءة كتاب السيد ابكاريوس لانه جهد وجداني لتوضيح مشاعر العرب .. وخلف الكلمات المطبوعة يسمع المرء التساؤل الهامس – كيف يمكن لامة حاربت العالم وحدها ليكون لها الحق في ان تكون حرة ، كيف يمكنها أن تحلم بانكار هذه النعمة الحيوية على امة اخرى ، مهما كانت صغيرة ولا حول لها ؟ ان العرب مازالوا يعتقدون بميثاق الاطلسي ، وبأولئك الذين أعلنوه باعتباره قانونهم . انهم لا يستطيعون ان يصدقوا بأن الذين ينكرون الحرية على الاخرين يمكن أن يتحرروا ، أو ان القانون والنظام سيسود العالم اذا انتهكت القوة القاهرة حقوق اي شعب مؤهل وقادر على حكم نفسه بنفسه ، واذا ما أخضع باغراق بلاده بالغرباء والاجانب ، لان الدول الاقوى ذات الاراضي الواسعة لا ترغب في أستقبالهم »(٣) .

اما فصول الكتاب الاثنا عشر فيفند كل منها المزاعم الصهيونية في مختلف نواحي الحياة العامة ، ويكشف عن بطلانها وزيفها ، وتعرض الفصول لاحوال المجتمع في فلسطين ، وديبلوماسية الاتفاقات السرية (مراسلات الحسين مكماهون ، وسايكس بيكو ، ووعد بلفور ..) كما يعالج علاقة الادارة العسكرية البريطانية مع اللجنة الصهيونية ، وبداية الادارة المدنية والانتداب ، ويشرح عملية تطبيق الانتداب وسياسة الاراضي والزراعة والصناعة ، ويتحدث عن المساهمة النسبية في الدخل العام ، والهجرة ، ويختتم الكتاب بفصلين عن الوضع الراهن ، وعن لجنة التحقيق الانكلو امريكية (١٩٤٦) .

وترجع اهمية الكتاب الى انه يلقي الضوء على المساعي الصهيونية – البريطانية الحثيثة لتهويد مرافق الحياة العربية العامة في فلسطين ، بايراد معلومات دقيقة جديدة ، قد لا يعرفها الا موظف كبير مثله في الادارة الانتدابية . ان ابكاريوس بحكم

منصبه كسكرتير للادارة المالية في حكومة فلسطين كان يمكنه ان يطلع عن كثب على تقارير اللجان العديدة التي حضرت الى فلسطين للتحقيق في أسباب ثوراتها وكـان يضع يده على سجلات الادارة الانتدابية فيما يتصل بالواردات والمصروفات العامة للبلاد ، ويعرف كل شاردة وواردة من نفقات ومخصصات الانتداب في شتى وجـوه الحياة الفلسطينية العامة . وبفضل تفاصيل معلوماته الموثقة بالارقام الدقيقـة والتحليلات الصائبة ، يعد كتاب ابكاريوس من أهم ما صدر باللغـات الاجنبية موضوعية ونزاهة ، عن الحقائق الحياتية العربية التي كان يتحرق لتهويدهاالصهيونية والبريطانيون ، بعيدا عن روح الانتداب ونصه . فالكتاب بأسلوبه الهادىء يدحض بقوة المزاعم الصهيونية والبريطانية في فلسطين ، ويبدد ضباب الدعاية الذي نسجته من الاوهام والاضاليل . لقد اعترف ابكاريوس بما حققته الدعاية الصهيونية مـن نجاح في ترويج التزييف والتنكر للحقائق الثابتة التي قامت وتقوم على ارض فلسطين. ولقد راعه ذلك وحز في نفسه ، ولقد اشار الى ذلك في بعض ما سطره بالعربيـة حين قال : « اريق فيض من المداد هدرا في تمجيد ما انجزه اليهود في فلسطين . وان تيار الدعاية الذي شرع فيه حينما اصبح قيام الوطن القومي اليهودي محتملا ، قد كسب زخما من كل انجاز يدعي به ، حتى أصبح مثل النهر الواعي لقوتـه ، قد حمل معه الراي العام والعطف ، غير عابىء بالحقائق الواقعية للقضية . لقد جرت بضع محاولات قام بها العرب وأصدقاؤهم لتنوير الراي العام بسيل من الحقائق في الصحف اليومية الكبرى حتى العام الماضي ، ولكن دون جدوى ، وان القليل الذي تسرب من وقت الى اخر ، كان متقطعا بحيث انه لم يؤثر قطعا حتى على صفحة التيار الجياش للدعاية الصهيونية »(٤) .

يقدم المؤلف لكل فصل من كتابه بمقدمة قصيرة توضح أحوال فلسطين في العهد العثماني لترسم لوحة مقارنة تبين ما كانت عليه أحوالها وما صارت اليـه تحت الادارة الانتدابية ، ثم يشرع بتقصي اهم جوانب الفصل وشرح ما قامت به الادارة الانتدابية لتهويد فلسطين وتنفيذ رغائب الاستيطان الصهيوني ، كل ذلـك بأسلوب سهل بعيد عن الانفعال ، ليخلص في النهاية الى ان دعاوى الصهيونية البراقة في ظاهرها ، ليست الا من قبيل خداع النظر الناجم عن نقص المعلومات الذي يترتب عليه فساد الحكم وسوء التقدير . وسنعرض في موضوعنا لما اورده ابكاريوس فقط حول عملية تطبيق الانتداب في مرافق الحياة العامة المتصلة بالامن العام والتربيـة والاشـغال العامـة .

* * *

ظلت الحكومات البريطانية المتعاقبة ما بين ١٩٢٠ و ١٩٣٧ تدعي بأن التزاماتها بموجب صك الانتداب الفلسطيني هي التزامات غير متناقضة ويمكن التوفيق بينها، الى أن ارسلت لجنة بيل الملكية الى فلسطين اواخر عام ١٩٣٦ ، فاعترفت في تقريرها الذي صدر في تموز ١٩٣٧ باستحالة التوفيق بين الالتزامين الصادرين من بريطانية الى العرب واليهود لتناقضهما ، وذلك بعد أن عملت على تصعيد هجرة اليهود وزيادة نسبة الاراضي التي يملكونها ، اكي تتعقد المشكلة الفلسطينية ويتعذر حلها(٥) . ومع مرور الزمن على الجهود الانتدابية في تنمية الوطن القومي اليهودي ، اصبحت عداوة العرب له أكثر ومرارتهم اشد . ولا عجب ، فكل اجراء تتخذه تلك الجهود كان يضر المصالح العربية بنفس الدرجة التي كان ينفع المصالح اليهودية . ولقد استغرق الامر سبعة عشر عاما من الاضطرابات والثورات الدامية لتتحقق الحكومة البريطانية من المسلمة الاولية القائلةبأن الانتداب غير قابل للتطبيق في فلسطين،والعجب هوالتصور بأنه مقترح عملي ، والظن بأن العرب عاجلا أم آجلا سيتخلون عن حقوقهم الوطنية ، وذلك بفضل الوهم الذي أشاعه أدعياء الوطن القومي اليهودي . وحين ضغط اعضاء الوفد العربي في جنيف على بلفور ، تبرع باجابة صريحة وقال بأن الوطن القومي كان تجربة ! لقد كان يعلم مدى الصعوبات التي سوف يلقاها العرب نتيجة فرض المخططات الصهيونية عليهم ، ويشعر كم سيشجبها العرب ويستنكرونها بكل المرارة ، وكم يستحيل تطبيقها بسلام(٦) .

تجربة ! في الحق ليس لها نظير في التاريخ البشري المسجل ، ولكن الطريق نحو التقدم محفوف بالتجارب ، وبالتجربة والخطأ نصل أخيراً الى كشف ما . ولكن نادرا ما نأخذ أبناء جنسنا البشري كموضوع للتجربة . القردة والارانب والحيوانات الدنيا هي ما يختار لهذا الغرض ، وفقط بضعة منها في المرة الواحدة . ولكن هذه التجربة ـ تطعيم الصهيونية على الارومة العربية في فلسطين تشمل اليوم تضحية ما يزيد على المليون نسمة ، سوف يفقدون هويتهم القومية في أرضهم اذا قيض للتجربة ان تنجح ! ومع ذلك فتلك (التجربة) التي خطط لها اليهود ، قد لقيت تبريك عصبة الامم التي لم تدرك في ذهولها انها بحسب بنود ميثاقها ، يجب على الادارة الانتدابية ان تدير البلاد من أجل نمو ورفاه سكانها ، ٩١٪ منهم عرب ، باعتبارها وديعة مقدسة للحضارة . ومجلس العصبة كان يبدو راضيا عن التقارير السنوية التي تقدمها دولة الانتداب من حيث أن البلد الموكول لانتدابها كان يدار وفقا لمبادىء العصبة ! »(٧) .

* * *

وينتقل ابكاريوس بعد هذا التقديم الى عملية تطبيق الانتـداب البريطاني في فلسطين ، فيعرض بالنقد والتمحيص لعدد من مرافق الحيـاة العربية هنـاك ، ويدحض الدعاوى الصهيونية بشأن المنافع والفوائد التي جناها العرب مـن جراء الهجرة والاستيطان الصهيونيين والمشاريع اليهودية المختلفة ، كما يمضي في تقويم ما حققته الادارة الانتدابية من أجل (تنمية) هذه المرافق و (الارتقاء) بها ، ويوضح أن نتائجها كانت دائما في خدمة الاهداف الصهيونية الرامية الى تهويد فلسطين . والمرافق التي سنعرض لها هي : الامن العام ، التربية ، الاشغال العامة ، الحكـم المحلي . اما المرافق الاخرى مثل الصحة والهجرة وسياسة الاراضي ، والزراعة ، والصناعة ، والمساهمة النسبية في الدخل ، وعلاقة الهجرة بالرفاه المزعوم ، فلـن يتسع مجال البحث لعرضها على اهميتها ، اذ يحتاج كل منها لبحث مستقل .

الامـن العـام :

يبدأ ابكاريوس فيشرح ايجازا تنظيم الشرطة والدرك ابان الحكم العثمانـي : كانت قوة الدرك في عموم فلسطين تتألف من خمس وحدات ، تشمل ضابطين وثلاثة عشر صف ضابط و ٧٠ رجلا . ومن هذه الوحدات الخمس كان ثلاث منها خيالـة واثنتان مشاة . ثمة وحدة خيالة ترابط في مدينة القدس ، وواحدة في يافا ، وثالثة موزعة بين غزة والخليل وبئر السبع . أما وحدتا المشاة ، فكانت احداهما ترابط في القدس ، وينفصل عنها للخدمة في مدينة الخليل ١٠ ــ ١٥ رجلا ، والاخرون كانوا يخدمون في مناطق يافا وغزة وبئر السبع(٨) .

اما قوة الشرطة فكانت تتألف من ٤٥ نفرا : ١٥ في القدس ، ١٠ في غـزة ، ١٠ في يافا ، ١٠ في الخليل وبئر السبع وقد بلغت نفقات هذه القوة حوالي ٢٨ الف ليرة تركية سنويا ، وهي تعادل ٢٥ الف جنيه استرليني .

ويتضح أن فلسطين اليوم (١٩٤٦) ومساحتها تعـادل ثلاثة أمثال مساحـة سنجق القدس العثماني (باستثناء النقب التي كانت وظلت غير مأهولة عمليا) مع الاخذ بعين الاعتبار المناطق الشمالية الاكثر سكانا ، لا تحتاج لاكثر من اربعة امثال قوة الشرطة في العهد العثماني ، بل انها تزيد عن حاجة عموم فلسطين بحدودها الدولية الحاضرة . وكانت القوة الكبيرة نسبيا ترابط في القدس حيث وجودها مرغوب فيها للحفاظ على مهابة المتصرف العثماني في المدينة الرئيسية بالسنجق . والمدينة الرئيسـية للمناطق الشمالية كانت بيروت ، والرقعة الممتدة مـن عكا الـى نابلس والمشتملة على حيفا ، كانت بالقياس الى بيروت ، لها نفس الصفة الريفية لمناطـق

الضاحية المعتمدة على القدس . ولكن بعد احتلال فلسطين مباشرة ، شكلت الادارة العسكرية نواة لقوة الشرطة ، بالاعتماد أساسا على جيش الاحتلال ، للحفاظ على الامن الداخلي . وحالما تسلمت الادارة المدنية سلطاتها ، اصبح من الضروري زيادة عدد افراد قوة الشرطة تمهيدا لخفض القوات العسكرية التي كانت تكلف دافع الضرائب البريطاني حوالي ثلاثة ملايين جنيه سنويا ،ولم تكن أحوال الخدمة في سلك الشرطة جذابة ، ففي عام ١٩٢١ استقال ثلث افراد قوة الشرطة بسبب ضآلة الرواتب.

وبعد تحسين احوال الخدمة عام ١٩٢٢ ، اتضح انه يمكن زيادة القوة الى ٧٨ ضابطا و ١١٥٩ نفرا من رتب اخرى . وبالاضافة الى ذلك ، تشكلت قوة درك مؤلفة من قسم بريطاني تعداده ٣٨ ضابطا و ٧٢٤ من مختلف الرتب ، وقسم فلسطيني مؤلف من ٥٠٠ دركيا بين خيالة ومشاة . وكان دافع الضرائب البريطاني يدفع نفقات القسم البريطاني ، ولكن بسبب الانسحاب التدريجي للحاميات العسكرية ، فان النفقات التي دعي لتحملها عام ١٩٢٣ كانت نصف النفقات السابقة .

تمت هذه الاجراءات تحت اشراف السير هربرت صموئيل ، وشهدت فلسطين فترة سلام قصيرة ، اعطت انطباعا زائفا بأن العداء لسياسة الوطن القومي كان يتناقص . ولم تكن الوكالة اليهودية راضية عن التقدم الذي تحقق باقامة الوطن القومي وكانت تطلب تصعيد (سرعة العزف) مع علمها بأن مثل هذا التصعيد يمكن ان يعكس بسهولة ما تنطوي عليه سياسة الوطن القومي من بغض مستتر نحو العرب . فقد جهر الدكتور ايدر(٩) صراحة برايه امام لجنة هايكرافت للتحقيق ، وذكر ان شرط استتباب السلام الدائم في فلسطين انما يتحقق في تسليح اليهود الصهيونيين ، وطلب ان يوضع اليهود على قدم الاستعداد للدفاع عن انفسهم في حالة وقوع هجمات عربية على مستوطناتهم ، واقرّت الادارة الانتدابية هذا الطلب ، ولكن كاجراء احتياطي ، تقرّر تزويد المستوطنات بترسانات سلاح مختومة بخاتم الشرطة ، ويمكن استعمالها في الدفاع عن النفس بكسر الختم وقت الطوارىء . ومما يثير الدهشة ان تترك السلطات موضوع تقرير حالة الطوارىء بيد المستوطنين اليهود ، الذين طالبوا بعد الحصول على هذا الامتياز ، بأن تزودهم السلطات الانتدابية بالسلاح والذخيرة من الصناديق الحكومية العامة .

وبعد عام واحد حاولت الحكومة الغاء الترسانات لانها شعرت أن وجود الترسانات كان اقرارا بعجزها عن الحفاظ على السلام في البلاد ، أو لانها عكست عجزها ضد الاصرار اليهودي ، وكلا السببين كان كافيا لنسف سلطتها ومكانتها . وجادلت الحكومة بأن الطرق الامنية قد بنيت لضمان وصول القوات المسلحة بسهولة

وسرعة في حالة الطوارىء ، وان البلاد يسودها الاستقرار والسلام بحيث يمكن استبعاد تجدد اضطرابات عام ١٩٢١ . وتوصلت المعارضة اليهودية الى تسوية مع السلطات ، وتقرر الغاء ترسانات السلاح تدريجيا خلال سنتين . وكان على الحكومة في غضون ذلك أن تتابع بناء الطرق الامنية . وبينما نص القرار على ان يشهد عام ١٩٢٦ نهاية ترسانات السلاح ، فقد اتضح عندما طرح الامر امام لجنة شو عام ١٩٢٩ أنها مازالت قائمة في المستوطنات اليهودية ، وان واحدة منها على الاقل قد استعملها اليهود خلال ثورة ١٩٢٩ .

وفي عام ١٩٢٦ وعلى اثر تشكيل قوة حدود شرقي الاردن ، الغيت قوة الدرك بقسميها ، وتشكلت قوة الشرطة من ٢٠٠ من البريطانيين و ٣٠٠ من الدرك الفلسطيني بحيث بلغت قوتها ١٢٥ ضابطا و ١٦٢٧ نفرا من مختلف الرتب ، وبلغت نفقاتها ٣٠٦ آلاف جنيه فلسطيني . وتزايدت قوة الشرطة ما بين ١٩٢٦ و ١٩٢٩ ، وبعد ثورة ١٩٢٩ دعمت بفريق من الشرطة البريطانية ، وارتفعت نفقاتها الى ٤٧٦ الف جنيه فلسطيني عام ١٩٣٠ . واجتمعت لجنة حكومية للنظر في حماية المستوطنات اليهودية ، ورأت وجوب سحب الترسانات بشرط ان تصدر الحكومة بسخاء تراخيص حيازة البنادق للمستوطنين اليهود . وكانت مزية توصيات اللجنة بهذا الشأن انها حررت الحكومة من الانفاق على تسليح المستوطنات ، وهي مزية ذات دلالة حين نتذكر أن تسليح المستوطنات على حساب عموم السكان كان يعني في الحقيقة مساهمة العرب في تسليح العنصر اليهودي من السكان ضدهم . ولكن لاسباب يسهل استنتاجها ، لم تنفذ هذه التوصيات الا بصورة جزئية . وحين وضع السير هربرت دوبغن Dowbiggin تقريرا عن حالة الامن في البلاد ، كانت الترسانات مازالت قائمة ، ولقد أوصى بزيادتها وبدعم قوة الشرطة بفريق من الشرطة البريطانية يقدر بـ (٦٥٠) شرطيا . وفي نهاية عام ١٩٣٥ وصلت قوة الشرطة الى ١٨٠ ضابطا و ٣١٣٢ من مختلف الرتب ، وبلغت نفقاتها ٥٢٧ الف جنيه فلسطيني ، اضافة الى ضابط واحد و ١٢٩ شرطيا جندوا خصيصا لحماية المستوطنات اليهودية .

ولكن الامر لا يقتصر على ترسانات السلاح بل تعداه الى تسليح اليهود وتهريبهم السلاح الى فلسطين . ذلك انه الى جانب الترسانات الموضوعة تحت تصرف اليهود ، وسخاء الحكومة في اصدار تراخيص لهم بحمل البنادق والمسدسات ، فقد كان اليهود في غضون ذلك يتسلحون سرا . فقد اكتشفت ارسالية سلاح وذخيرة عام ١٩٣٠ وصودرت من قبل رجال الجمارك وكانت قد اخفيت في ثلاثة صناديق مستوردة من فيينا لحساب شركة يهودية . واكتشفت ارسالية اخرى عام ١٩٣٥ مصادفة في يافا ، وتضمنت ٢٥٤ مسدسا من نوع موزر مع أعقاب بنادق ، و ٩٠

مسدسا و ٥٠٠ حربة و ٤٠٠ الف طلقة من الذخيرة ، اخفيت كلها في ٥٩ برميل اسمنت مستورد لحساب تاجر يهودي في تل ابيب ، وهذه الارسالية على الارجح ، هي آخر ارساليات اربع من هذا النوع (١٠) .

ولم يعط تفسير رسمي لكيفية الكشف عن هذه الارسالية ، ولكن الصحافة المحلية ذكرت ان برميلا سقط بعد تحميله على شاحنة وتحطم وظهر محتواه للعيان ، وذلك بعد تخليصه من الجمارك . ولا بد ان الشرطة قد علمت من تحرياتها بالارساليات الثلاث السابقة ، ولكن لم تتم مصادرتها ولا لوحق اصحاب الارسالية الرابعة أو حركت دعوى قضائية ضدهم ، برغم أن صاحبها لم يكن شخصا وهميا . ونددت الصحافة العربية بالحكومة واليهود ، وذهبت صيحتها في واد . وجرت محاولات لجمع السلاح غير المرخص من العرب ، في حين كان اليهود يستوردون السلاح بطريقة محظورة دون أن يجازفوا بأكثر من مصادرة الحكومة له في حال اكتشافه صدفة . ولكن هذه الحملة الصحفية العربية لم تسفر عن اية نتيجة ايجابية بدليل ما ورد في تقرير لجنة بيل الملكية من ان اعضاءها « ابلغوا بصورة رقمية كاملة بأن اليهود قادرون على حشد ١٠٫ آلاف مقاتل مدرب ومسلح في الجبهة ، مع رديف مؤلف من ٤٠ الفا . كان ذلك عام ١٩٣٧ ، فهل تلام الصحافة العربية على أنها وجهت النقد المرير الى الحكومة واليهود كليهما ؟ ! وخلال الحرب العالمية الثانية كشفت المحاكم العسكرية عن حالة اخرى ، حين عمل بعض اليهود للحصول على اسلحة وذخيرة من الجيش البريطاني بصورة محظورة ، واسفرت الاجراءات المتخذة ضدهم عن حكمين بالسجن(١١) .

وفي عام ١٩٣٦ وعلى أثر تفاقم الاضطراب في البلاد ، زادت الادارة الانتدابية قوة الشرطة ورفعت مخصصاتها لتبلغ ٧٤٤ الف جنيه فلسطيني . وقد تمت الموافقة مؤخرا على هذا الرقم باعتباره يمثل حصة الادارة الانتدابية المترتبة عليها من أجل الحفاظ على الامن الداخلي في فلسطين . والزيادة الطارئة على هذا الرقم من عام الى عام كانت تدفعها الحكومة البريطانية على أساس ان انفاق هذه المخصصات الاستثنائية على قوة الشرطة كان نتيجة السياسة البريطانية التي تنتهجها في فلسطين . والحقيقة أن مختلف اللجان . التي حضرت للتحقيق في أسباب الثورات والاضطرابات توصلت الى نفس النتيجة وهي أن السبب الكامن وراءها واحد لا يتغير : سياسة الوطن القومي اليهودي . وبرغم أن وزارة المالية البريطانية ادركت منذ البداية ان هذه السياسة المتبعة لابد ان تصبح باهظة التكاليف على المدى البعيد ، فانها لم تجد مفرا منها . وفي عام ١٩٤٣ كانت مساهمة الحكومة البريطانية في الانفاق على الشرطة قد بلغت المليونين من الجنيهات ، وقدرت نفقات الشرطة الكاملة عام ١٩٤٥ بمبلغ

٣٥٨ر٣,٠٠٠ جنيه فلسطيني وقع عبئها الثقيل على دخل البلد . ليس هذا فحسب، فقد شكلت أيضا قوة شرطة متنقلة لتعالج بسرعة الاضطرابات الطارئة ، ويبلغ تعداد هذه الوحدة المتنقلة الميكانيكية والمجهزة جيدا الفي رجل ، وتصل نفقاتها الى ٥٤ر١,٠٠٠ر١ جنيه فلسطيني ، وهكذا يصل مجموع نفقات الامن الداخلي الى اكثر بقليل من ٤١/٢ مليون جنيه فلسطيني وهو يعادل ٧ر٣٨٪ من مجموع النفقات العادية للادارة الانتدابية البالغة ٦٢٠ر١١,٠٠٠ جنيه فلسطيني للعام ١٩٤٥ – ١٩٤٦(١٢) . واذا قارنا هذا المبلغ الضخم بالمبلغ الزهيد جدا الذي كان يشكل نفقات قوة الشرطة قبيل الاحتلال البريطاني لفلسطين مباشرة ، وهو يعادل ٢٥ الف جنيه استرليني ، ولو ضربنا هذا المبلغ بأربعة لحصلنا على ما يقارب مجموع نفقات الشرطة في كامل فلسطين آنذاك ، لو فعلنا ذلك لادراكنا كم كانت باهظة التكاليف سياسة الوطن القومي ، وكم كانت مجحفة بحقوق العرب في تراب وطنهم وخيرات بلدهم .

ويركز ابكاريوس على نقطة هامة أخرى تنتقص من جدوى هذه الاجراءات الامنية التي اكره عرب فلسطين على المساهمة في نفقاتها الضخمة ، وذلك حين يوجه الى قوة الشرطة المذكورة انتقادا واحدا من الانتقادات الموجهة اليها ، فقد « ذكر في شهادة أمام لجنة بيل الملكية انه في الاوقات العادية ، كان يمكن الاعتماد على افراد قوة الشرطة حتى في مطاردة المجرمين والقتال بالايدي . ولكن في أوقات الاضطراب الناشب بين العرب واليهود ، فان ولاء أفراد الشرطة لشعبهم كان يتحكم بمسلكهم . ان للشعب حقا طبيعيا في ان ينعم بالحماية ضمانا لاستقراره في عمله الذي يكسب منه معاشه ، وأول واجب للحكومة المنظمة هو تأمين الحماية له . اما التحزب في صفوف رجال الامن الموكول اليهم هذا الواجب ، فأمر لا يمكن الدفاع عنه ، أو السكوت عليه . ولكن الظروف والاحوال التي وضعت فيها فلسطين لا يمكن أن تسود في أي مكان آخر على الارض . وان مستوى الولاء لابد أن يختل وينحرف بسبب الاوضاع الشاذة التي أوجدتها سياسة متحيزة تنتقل بموجبها البلاد على الدوام من الايدي العربية الى الايدي اليهودية . ان توقع الولاء من الشرطي العربي او اليهودي حين يكون الامر متصلا بقمع الاماني القومية لاخوة هذا أو ذاك ، يدل على تقصير مفجع في ادراك طبيعة القوى الفاعلة في البلد ، كما يدل على توقع لا مبرر له بأن الانضباط المسلكي سيصنع رجال الشرطة المثاليين الذين لا يلقون بالا الى نداءات قوميتهم الناشئة . فليس يمكن للعربي أو اليهودي أن ينظر الى مواطنه الذي يعمل على تحقيق تطلعاته القومية ، باعتباره شيطانا مريدا . وهذه النظرة لا بد أن تؤثر على أدائه عمله . وبرغم التأكيد بأن قوة الشرطة لا يمكن الاعتماد عليها في الظروف المضطربة ، فقد سلحت الادارة الانتدابية ودربت ثلاثة آلاف يهودي عام ٩٣٦ باعتبارهم شرطة تكميلية ، وتحملت الادارة الانتدابية والوكالة اليهودية نفقاتهم على قدم

المساواة(١٣) . وجميع الناس كانوا يعرفون مصدر المخصصات المالية التي يتلقاها هؤلاء كما يعرفون أن ولاءهم للوكالة اليهودية غير مشكوك فيه . ولذا فالوكالة اليهودية لم تطلب من لجنة بيل الاحتفاظ بهذه القوة التكميلية فقط ، وانما ايضا زيادة عدد رجال الشرطة اليهود في قوة الشرطة النظامية ، لان الحكومة — في نظر الوكالة اليهودية — قد فشلت في اداء واجبها الرئيسي نحو الوطن القومي !!

التربيـة :

ذكر ابكاريوس أن السلطنة العثمانية لم تول ميدان التربية والتعليم اهتمامها ولا سيما في سنجق القدس ، ولكن بعد اعادة الحكم الدستوري عام ١٩٠٨ أولت السلطنة عنايتها للتسهيلات التربوية ، اما في القرى فكانت الجهود التربوية التعليمية شبه معدومة . والحق ان ثمة عوامل متعددة كانت تحول دون مباشرة السلطنة مشروعا بعيد المدى لنشر التعليم في جميع ممالكها ، فالوضع القلق الناجم عن السلطة المزدوجة لجمع وجباية الضرائب ، والموزعة بين الادارة الاجنبية للدين العثماني العام ، وبين الحكومة العثمانية التي عجزت عن فرض ضرائب جديدة ، والجهود المبذولة لمعالجة هذا الوضع قصرت عن تحقيق هدفها . ولكن فرضت ضريبة خاصة من أجل تعليم السكان ، وقعت على كاهل المزارعين اضافة الى ضريبة العشر ، كما وقعت على كاهل سكان المدن ، وكان القصد من هذه الضريبة أيضا معالجة مشكلة الامية في المناطق القاصية من السلطنة . وكان افتتاح المدارس يجري حتى ما بعد قيام الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ، وافتتحت المدارس في فلسطين وفي المناطق الاخرى التي كان العرب يشكلون غالبية سكانها ، على أساس التعليم باللغة العربية والتركية . وقد استهدف هذا الاجراء ، مصالحة الراي العام العربي في وقت بدأت فيه الحركة القومية العربية تشق طريقها الى الاذهان ...(١٤) .

ويورد ابكاريوس تقدير الاستاذ احمد سامح الخالدي لعدد من هم في سن الدراسة عام ١٩١١ بفلسطين ، بحوالي ٣٨٠٥٣ صبيا و ٣٥٥٨٤ بنتا . أما الذين كانوا يحضرون المدارس الحكومية ، فقد بلغ عددهم ٦١٠٤ صبيان و ١٥٠٤ بنات في حين أن المدارس الخاصة والاجنبية تكفلت بتعليم ٦٩٧٤ صبيا و ٢٦٧٣ بنتا ، ولكن بقي ٢٥ الف صبي و ٣١ر٤٠٠ بنت محرومين من اية فرصة لتعلم الابجدية !

والحق انه كان يمكن للادارة الانتدابية أن تنطلق من القاعدة التي ارساها الاتراك سابقا ، ولكنها اختارت أن لا تلزم نفسها بدعم المؤسسات التعليمية في فلسطين ، وقد سهل عملها كثيرا موقف اليهود من التعليم العام . فمنذ البدء أعلنوا انهم

يريدون أن يتولوا بأنفسهم الاشراف على مدارسهم الخاصة مع أقل قدر ممكن مــن التدخل الحكومي . وكانوا في الواقع قد خططوا ليتضمن صك الانتــداب مثل ذلك . فالى جانب المادة (٢٢) التي كفلت لاعتراف باللغة العبرية كواحدة من اللغــات الرسمية الثلاث بفلسطين ، نصت المادة (١٥) على حق كل طائفة بالحفاظ على مدارسها الخاصة لتعليم ابنائها بلغتها ... وكان من الواضح ان اليهود الصهيونيين ارادوا ان يديروا مدارسهم على أسس قومية لصنع رجال ونساء يليقون بالدولــة التي يودون انشاءها في الارض المقدسة . فالمدارس المختلطة التي تضــم العــرب واليهود سوف تميل ، بنظرهم ، الى التعاون بين العرب واليهود في النهاية ، وسوف تحرم الوطن القومي من الصبغة اليهودية المميزة ، وعليه فيجب عدم الاخذ بالمدارس المختلطــة .

وكان لدى اليهود قبل الحرب العالمية الاولى حوالي ٦٠ مدرسة في فلسطين ؛ وقد سيطرت المنظمات اليهودية على هذه المدارس او ما تبقى منها ، ووجهتها وفق خطوط يهودية قومية . ومع مرور الوقت جرى تحديثها واقامة مدارس جديدة . والمدرسة الزراعية التي اسسها الاليانس الاسرائيلي قرب حيفا على حوالي ٢٠٠٠ دونم منحها سلطان تركيا عام ١٨٧٠الى الاليانس من اجل انشاء مدرسة للطبقات الفقيرة من السكان ، تستوعب العرب واليهود طبعا ، قد جرى تحويلها الى مدرسة يهودية صرفة ، واللغة الفرنسية التي كانت لغة التعليم في المدرسة حلت محلها اللغة العبرية . وفي حين كان العرب واليهود في السنوات السابقة يحضرون دروس المدرسة على قدم المساواة ، فانه لا يسمح للطالب العربي اليوم (١٩٤٦) بدخولها ، بحجة انه لا يعرف اللغة العبرية معرفة كافية .

ونتيجة لذلك أخذ اليهود على عاتقهم العناية بشؤون التعليم ، والحكومة لــم تشرف عليه الا اشرافا صوريا ؛ يكلف به مفتشون من اليهود بتوجيه القسم التربوي في الادارة الانتدابية .

وكانت المدارس اليهودية تتلقى منحة سنوية محسوبة على ما تنفقه الحكومــة على تعليم طلبة من اليهود وصلوا الى سن التعليم ، وهي نفس النسبة عن عــدد الطلبة العرب في المدارس الحكومية الذين هم في سن الدراسة ، وعلى ذلك تلقــت المدارس اليهودية عام ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ مبلغ ١٠٠ الف جنيه فلسطيني من الصناديق العامة ، كما تلقت نسبة مدروسة بعناية من النفقات الحكومية لبناء مدارس جديدة .

وينتقل ابكاريوس(١٥) الى شرح أحوال التربية والتعليم على الجانب العربي ، فيذكر ان نفقات الادارة الانتدابية في هذا الميدان التربوي العربي بلغت ٤٩٠ الــف

جنيه فلسطيني للعام ١٩٤٣ ــ ١٩٤٤ وفقا لتقرير القسم التربوي المنشور . واخر الارقام المتوفرة تدل على أن الحكومة لديها ١٨٠٠ معلم في حين وصل عدد الطلبة الذين حضروا الى المدارس في المدن والقرى الى ١٤١ ٦٣ منهم ٤٩٣٧٥ صبيا و ١٣٧٦٦ بنتا. وكان يحضر الى المدارس غير الحكومية حوالي ٤٠٧٢٣ طالبا ، منهم ٢٤٧٩١ صبيا و ١٥٩٣٢ بنتا . وقدّر عدد الذين هم في سن المدرسة من العرب بـ ١٥٧٫٧٠٠ صبي و ١٤٤٢٥٠ بنتا . وهكذا فان حضور الصبيان الى المدرسة يمثل نسبة ٤٧٪ ممن هم في سن المدرسة في البلاد كلها . ويمثل حضور البنات نسبة ٢١٪ ممن هن في سن المدرسة . وتتضح أهمية هذه الارقام حين نأخذ العرب الذين هم في سن المدرسة ككل ، ومجموع عدد الصبيان والبنات الذين حضروا المدرسة ، فمن المقرر أن ٣٤٪ ممن هم في سن المدرسة لديهم فرصة لتلقي نوع من التعليم ، و ٦٦٪ ظلوا اميين . ومن أصل نسبة ٣٤٪ حضر ٢١٪ فقط المدارس الرسمية . وواضح من هذه الارقام أنه يوجد مجال للتوسع في استيعاب عدد أكبر من العرب في المدارس ، ولكن يرى ابكاريوس أن من غير الممكن تأمين المخصصات المالية والمعلمين بالسرعة الكافية لسد الثغرة الموجودة منذ عام ١٩١٨ ، وتلبية احتياجات السكان الذين يتزايدون باستمرار(١٦) .

وبرغم ان الحكومة أقامت ٣٠٤ مدارس في القرى ، في مبان اعتمدت اساسا على جهود القرويين ، حيث يتلقى ٧٠٪ ممن هم في سن المدرسة التعليم الاولي ، فانه يوجد ١٢٢ قرية لم يستطع سكانها تهيئة المباني المدرسية . كما يوجد ٤٠٠ قرية صغيرة قيل ان قلة سكانها لا تتيح تأسيس مدارس حكومية فيها . ومن مجموع ٢٠٨١٥٠ صبيا وبنتا ، قبلت المدارس ٢١٪ منهم ، وبقي ٧٩٪ منهم بدون تعليم . أما نسبة قبول بنات القرى في المدارس ، فلم ترتفع عن ٦٪ من مجموع البنات في سن الدراسة .

ويلاحظ ابكاريوس بحق أن مشكلة اجتماعية خطيرة لابد ان تنجم عن ضآلة نسبة التعليم بين البنات ، وعن عدم نشر التعليم بين الصبيان والبنات بنسب متوازية . لقد أهمل تعليم البنات بحيث يمكن القول بأنه غير موجود . وما لم تأخذ أمهات المستقبل بأسباب التعليم على نحو لائق ، فلن يوجد سوى أمل ضئيل في رفع مستوى الجيل القادم . فلا يكفي أن نلحق ٣٠٪ من صبيان القرية بالمدارس ، فاذا أريد الحفاظ على بنية اجتماعية سليمة للحياة في القرية، فلا بد أن يمضي تعليم الصبيان والبنات متوازيا ، وعلى الشبان نصف المتعلمين أن يختاروا زوجاتهم من نفس مستواهم على الاقل ، ضمن القرية ، اذا أرادوا أن يعيشوا حياة هانئة مجدية . فنادرا ما يقبل أهالي المدن أن يزوجوا بناتهم من قرويين بعيداً عنهم ، ونادراً ما يتقبل الشبان

انصاف المتعلمين بنات القرية الاميات كزوجات لهم . وهذه الحالة تستدعي المعالجة السريعة اذا أريد تجنب الامراض الاجتماعية(١٧) .

اما تسهيلات التعليم التي تقدمها الادارة الانتدابية فهي تسهيلات غير ملائمة ولا كافية . ويظهر ذلك بجلاء من عدد المتقدمين للانتساب الى المدارس ، والمشار اليهم باسم (المؤجلين) . ففي عام ١٩٤٣ كان ثمة ٥١١٨ مؤجلا من أصل ١٠٥٩٤ المتقدمين الى مدارس المدن ، وهذا يعني ان جميع المتقدمين كانوا لائقين اي مستوفين شروط الحكومة ، واهمها شرط السن . فاذا كان المتقدم تنقص سنه أو تزيد عن السن المحددة ، فليس اية فرصة لقبوله في المدرسة . وفي العام التالي لابد أن يتجاوز جميع المتقدمين (المؤجلين) السن المحددة ، فاذا تقدموا بأوراقهم الى المدرسة ثانية فسوف يرفضون . وقد ترتب على ذلك أن ٤٨ ٪ من المتقدمين لدخول المدارس الحكومية عام ١٩٤٣ ، قد رفضت طلباتهم وحرموا من أي تعليم ، ما لم يكن اقرباؤهم قادرين على رفع المبلغ الذي يدفعونه كقسط للمدرسة الخاصة ، مهما بلغت تضحياتهم . وفي القرى مثل هذا الامر يكاد أن يكون مستحيلا ، فالقرويون القادرون على تزويد أولادهم بالتعليم في طول البلاد وعرضها ، يمكن ان يعدوا على اصابع اليد الواحدة . وتظهر الارقام التي وردت في التقرير السنوي للقسم التربوي بالادارة الانتدابية انه كان يوجد ١٣٦٦١ متقدما الى دخول مدارس القرية ، منهم ٣٩٦١ مؤجلا . ولكن يلاحظ قارىء التقرير المذكور أن عدد المتقدمين لا يشمل جميع أولئك الذين كان يمكن أن يتقدموا ، فقد أحجم الكثيرون عن التقديم « لعدم وجود مدارس في قريتهم او لانهم لا يرون فرصة لقبولهم فيها »(١٨) .

وخلال السنوات القليلة الماضية فرضت ضريبة محلية على التعليم المحلي من جانب بعض البلديات ومجالس القرى للمساعدة في تامين تعليم الاولاد في المنطقة المعنية . وهذا ، كما يقول ابكاريوس ، بحد ذاته ابلغ تعبير عن تقدير الشعب لقيمة التعليم . وفرضت ضريبة في القدس لاول مرة للعام ١٩٤٤ — ١٩٤٥ برغم أن هذه السلطة المحلية لا ترعى المدارس . وقدّر أن حاصلات الضريبة بلغت ١٢ الف جنيه فلسطيني ، وقسمت المجموعات بين العرب واليهود بنسبة مساهمة كل منهم . وتشكلت لجنتان بلديتان لتقديم النصح حول كيفية صرف المال المجموع في حال عدم وجود مدارس تحت السلطة المباشرة للمجلس البلدي . واقترحت اللجنة العربية « افتتاح صفوف جديدة للاولاد المحرومين من المدرسة » ، أي صفوف اضافية في المدارس القائمة . وعبّرت اللجنة اليهودية عن رغبتها في تخصيص ٣٠ ٪ من حصتها لتعليم الاولاد المحرومين من المدرسة و ٦٠ ٪ منحا للمدارس اليهودية القائمة ، و ١٠ ٪ للمناشط الثقافية والتربوية الاخرى . وبما أن اليهود كانوا يشرفون على إدارة

مدارسهم الخاصة ، فقد كانوا قادرين على استغلال حصتهم من الضريبة استغلالا جيدا . اما العرب فكان عليهم ان يلجأوا الى المدارس الحكومية أو المدارس الخاصة .

على أن ابكاريوس ينكر تعلل الادارة الانتدابية بأن المال كان لا يكفي لتقديم التسهيلات التعليمية الجيدة في عموم البلاد ، صحيح أن حالة المالية العامة لم تكن منتعشة دائما ، لان فلسطين مرّت بسنوات عجاف وسنوات خير ، ولكن الادارة قد اقتصدت في سنوات الخير بحيث توفر لديها احتياطي مالي ضخم ، بلغ عدة ملايين من الجنيهات . والمحاولة الوحيدة لتسويغ تقصير الادارة الانتدابية في اداء واجباتها في ميدان التربية والتعليم ، هو الجدل بأن الاضطرابات المتعاقبة كانت تستنزف الخزانة على نحو غير متوقع ، وطلب المخصصات للحفاظ على الامن كان ضخما جدا . بحيث كانت الخدمات الرئيسية في البلد تتحمل عواقبه . ومع ذلك، فاختزان الحبوب واحتكارها من جانب الحكومة ليس اقل مدعاة للوم من اختزانها من قبل الافراد . ومن المؤكد أن الانفاق على تعليم الصبيان والبنات والارتقاء بهم كمواطنين ملتزمين بالقانون ، هو أكثر اقتصادا من رصد الاموال لتلبية الطلبات المتعاظمة للانفاق على الشرطة والسجون . والاكتفاء بصرف ٦٪ من مجموع نفقات الحكومة على التعليم ، لا يمكن تسويغه ولا تفسيره مادام ٦٦٪ من أولاد العرب في سن المدرسة محرومين من اية فرصة للتعليم(١٩) .

لقد وجّه كثير من النقد الى الحكومة لان العربية هي لغة التعليم في مدارسها . وذهب البعض الى حدّ لوم الحكومة لاقامة مدارس قومية عربية موازية للمدارس اليهودية . وفي حين يجب التسليم بأن الروح القومية تسود جميع طلبة المدارس الحكومية وغيرها ، فيجب التسليم ايضا بأن تلك الروح القومية لم تزدهر وتتغذى بواسطة المدارس . انها بدأت في منازل الطلبة ، وعبّرت عن نفسها في ساحات لعبهم وتجمعاتهم ومناسباتهم الاجتماعية . انها روح ، كما يقول ابكاريوس ، لا يستطيع المعلمون قمعها واخمادها دون الاضرار بمكانتهم ونسف سلطتهم(٢٠) .

الاشغال العامة :

وينتقل ابكاريوس الى ميدان الاشغال العامة التي خصص اكثر من نصف نفقاتها لصيانة الطرق والجسور . فمن مجموع مخصصات الاشغال العامة البالغة ٦٤٨٫٠٠٠ جنيه فلسطيني لعام ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦ ، صرف على صيانة وترميم الطرق ٣٤٥٫٠٠٠ جنيه فلسطيني ، وعلى ايجار المكاتب والمحلات ١٨٠٫٠٠٠ جنيه فلسطيني، وتشمل الاشغال العامة الاستثنائية مجالا اوسع ، كانشاء المباني ، واجراءالترميمات

الطارئة ، وتنفيذ مشاريع مدّ المياه والري ، وعديد من الاشغال الاخرى . ولكن البند الذي يتكرر سنويا هو بند الطرق والجسور ، ويشمل تحسين الطرق القائمة وبناء طرق جديدة . فدائرة الاشغال العامة بهذا المعنى تفسح مجالا واسعا للعمال ، ولمناشطها في بناء الطرق أهمية حيوية للتطور الاقتصادي في فلسطين (٢١) .

ولقد ذكر فيتال كينيه Vital Cuinet منذ عام ١٨٩٦ أن مدينة القدس كانت مرتبطة بمدن يافا ونابلس والخليل وأريحا وعين كارم بطرق حجرية رديئة البناء(٢٢) تفتقر الى الصيانة ذات التكلفة المرتفعة . وكانت العربات هي الوسيلة المرفهة للنقل والسفر . ولكن الحجاج النازلين في يافا ، غالبا ما كانوا يسافرون الى القدس على متن الجياد ، قاطعين مسافة ٦٥ كيلو مترا على مراحل سهلة في مدى يومين . وابان الحرب العالمية الاولى بنيت طرق عسكرية على عجل ، وبعد احتلال فلسطين عام ١٩١٨ جرى تحسين كثير من هذه الطرق لمرور المدنيين ، برغم أن استعمال السيارات كان نادرا . وبدأ بناء الطرق على نحو عشوائي تقريبا عام ١٩٢٣ ، ووجد عدد كبير من المهاجرين اليهود عملا في بناء الطرق ، بوصفهم عمالا غير مهرة ، وبينهم عدد من المهاجرين المتعلمين ، اقبلوا على هذا العمل اليدوي لانهم لم يجدوا سواه لكسب عيشهم . وكانت الاجور المدفوعة الى العمال اليهود غير المهرة آنذاك ، اي في مطالع العشرينات ، أعلى بنسبة ١٥ ٪ من مستوى الاجور السائد في البلاد . ولكن العمل المتساوي يسوّغ الاجر المتساوي ، والمهاجر اليهودي المتعلم بوصفه عاملا غير ماهر ، كان يتفوق عليه العامل العربي كثيرا ، وجلده على العمل لم يكن يتكافأ مع جلد العربي . وهكذا وجد معدل مزدوج لاجور العمال غير المهرة : معدل منخفض للعرب ، ومعدل مرتفع لليهود ، على أساس المستوى الاعلى للمعيشة ، في حين كان العرب واليهود يعملون غالبا في نفس العمل ويعيشون في نفس الشروط والاحوال وطبيعي أن يستنكر العرب هذه المعاملة ويروا فيها تحيزا اخر لمصلحة اليهود الوافدين الجدد ، وبينما كانوا مايزالون يشكلون أقلية بين السكان ، الا إنهم تمكنوا من فرض رغائبهم على حكومة مطواعة راضخة لسياسة تهدد بابتلاع العرب في عقر دارهم بمد متصاعد من الهجرة(٢٣) .

ويتحدث ابكاريوس بمرارة عن مشاعر العرب بازاء هذا الغبن والاجحاف اللاحق بهم ضمن بلادهم ، ويشير الى موجة الغضب العربي التي اجتاحت البلاد ، والتي عكستها الصحافة العربية المحلية ، ولكن العرب كانوا بحاجة ماسة للعمل لكسب عيشهم وعائلاتهم ، فاستسلموا للحاجة ، وتناولوا الاجور المخفضة ، وظلوا ينظرون بحنق مكبوت الى المعاملة المفضلة التي كان يلقاها المهاجرون اليهود من الادارة الانتدابية .

ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد ، ففي عام ١٩٣٨ ، وبينما كان المعدل المزدوج للاجور مايزال ساري المفعول ، قامت الحكومة بمحاولة جدية لخفض الاجر اليومي للعامل العربي غير الماهر ، وقد بلغ آنذاك ١٠٠ ملا اي شلنين اثنين يوميا ، فأكدت أن تقدير أجور العمال يستند الى هذا الاجر ، ولكن هذا لا يعني بأن الاجور المدفوعة حاليا لن تكون أقل من هذا الحد . لقد طلب من دوائر الحكومة بأن تبذل مساعيها للحصول على عمال بأرخص معدل يمكن اعتباره معقولا وعادلا . ولتفحص الراي القائل بأن العامل العربي يمكن الحصول عليه بأقل من ١٠٠ مل يوميا ، اقترح تقديم بعض الاعمال في طرق القرى بأجر أقل ، على أساس ان يترك العمل فيها اذا لم يظهر وشيكا العامل المخفض الاجر . وواضح ان هذه المحاولة التي تكاد توازي الاستغلال لا يمكن تبريرها الا في ظل نظام راسمالي قاس محروم من ادنى قدر من الحياء والخجل . ويوضح ابكاريوس سبب استضعاف الحكومة للعمال العرب بأنه لم يكن ينتظمهم اتحاد أو نقابة تدافع عن حقوقهم وتفرض مطالبهم العادلة . فالعمل العربي أشبه بالجسم المشلول ، يأتي أعضاؤه من القرى في المواسم السيئة ، يشكون الفقر ، وجميعهم اميّون عمليا . فلو كان وراء هؤلاء الرجال تنظيم مثل اتحاد العمل اليهودي ، فلن تجري أية محاولة قطعا لخفض الاجور العربية . ان قبول العرب بأجر يقل عن ١٠٠ مل يوميا ، حين يطلب العامل اليهودي ويتلقى ٢٥٠ ملا (٥شلنات) يوميا ، كان فقط يضاعف السخط العربي ويؤجج النار تحت الرماد . وينقل ابكاريوس عن تقرير عصبة الامم عن فلسطين لعام ١٩٢٦(٢٤) ، فيشرح « منجزات » المجلس الاستشاري للطرق الذي تشكل عام ١٩٢٦ ليقدم مقترحات الى الحكومة بشأن بناء طرق جديدة ، ويساعد في صوغ سياسة تضع برنامجا لصيانة وتحسين الطرق الحالية . ومنذ البداية وضع المجلس مبدأين أولهما ان لا تعيق الطرق الجديدة ارباح ومكاسب السكة الحديدية ، وهي مشروع تملكه الحكومة ، وذلك بتجنب بناء الطرق الموازية للسكة الحديدية . وثانيهما ان الطرق التي يقصد منها خدمة منطقة معينة يمكن بناؤها فقط اذا ساهم الفريق المعني بنسبة جيدة من كلفة البناء . وعليه فاذا أخذ ذلك بعين الاعتبار ، كان من الطبيعي ان تعطي الافضلية للطرق التي تصل المستوطنات اليهودية بالطرق الرئيسية ، مادامت الوكالة اليهودية يمكنها أن تساهم بتلك النسبة من خلال مؤسساتها المالية . والنسبة المطلوبة كانت تبلغ غالبا نصف الكلفة المقدرة لبناء الطرق ، ولكن الصيانة تقع على عاتق الحكومة بصورة كاملة .

وبعد سنتين وضع مجلس الطرق برنامجا بالطرق المرغوبة ، والتحسينات للطرق القائمة ذات الاولوية ، ليجري تنفيذها حالما تتوفر المخصصات المالية . ونفذ البرنامج في السنوات التالية بعد تعديلات استوجبتها الظروف المتغيرة السريعة للبلاد بحيث كان بناء « طرق الامن » أي الطرق التي تصل المستوطنات بالطرق الرئيسية ،

سببا اخر لتعديل البرنامج الموضوع. فاذا استوجبت اسباب حماية مستوطنةيهودية بناء طريق مزفت ، فمن المؤكد ان نفقة البناء لا بد ان تقع على عاتق الحكومة . وسواء كان بناء الطرق في فلسطين لاسباب الامن أم لدواعي المساهمة في كلفة البناء ، فان مد الطرق في المناطق الشمالية ، حيث تقع غالبية المستوطنات اليهودية ، اصبح الشيء الملفت للنظر في تقدم شبكة الطرق(٢٥) .

ويثبت ابكاريوس تحيز الادارة الانتدابية للمخطط الصهيوني ، حين يتحدث عن واقعة من وقائع المجلس الاستشاري للطرق ، الذي كان ينظر عام ١٩٣٣ في اقرار برنامج جديد لمد الطرق . فقد حاول العضوان العربيان جاهدين أن يتبنى المجلس سياسة متعلقة لتطوير البلاد ككل . فأشاروا الى أن الجزء الجنوبي من فلسطين قد أهمل . ذلك أن الى جانب الطرق التي تصل مدينة القدس مع يافا الى عين كارم وأريحا والخليل ، لا يوجد سوى طرق صيفية لا يمكن عبورها في فصل الامطار . وان طريق يافا غزة الذي يكمل طريق القدس يافا حتى الكيلو متر (٤٥) ، قد جرى تزفيته عبر مستوطة ريشون لوزيون فحسب . ومن هذه المستوطنة حتى غزة وما وراءها الى بئر السبع ، كان الطريق في حالة رديئة مزربة لا تصلح لسير المركبات ، بحيث كانت المسمية والمجدل والفلوجة وبيت جبرين وبئر السبع ، معزولة تقريبا لنقص الطرق . ولم يكن العضوان العربيان بقادرين على اقناع المجلس ، وسرعان ما تحققا أن مشاركتهما في عمل المجلس كانت أكثر من عقيمة . فكل مطلب لهما كان يرفض ، واحتجاجاتهما تذهب هباء باعتبارها غير جديرة بالنظر . وعليه فاستمرارهما في دعم المجلس ، مع عجزهما عن اتخاذ قرار واحد لمصلحة تطور ونمو البلاد ، بغض النظر عن السياسة الطائفية ، لا بد أن يعرضهما لازدراء المواطنين العرب . وفي احدى المناسبات تصاعدت حدة النقاش ، حين تناول أحدهما خارطة الطرق الفلسطينية ، فظهرت الطرق كالشرايين والاوردة الحمراء ، واشار الى الجزء الجنوبي لفلسطين حيث لا يمكن رؤية خط أحمر واحد الا بصعوبة ، وسأل العضو العربي رئيسالمجلس فيما اذا كان لا يوافق على ضرورة حقن الجنوب الذي يشكو الانيميا بالدم ، وأنهى الحديث بقوله : « نريد دما أكثر هنا » . وكان ذلك اخر اجتماع حضره العضوان العربيان ، اذ قدما بعده استقالتهما الى الحكومة(٢٦) .

وينتقد ابكاريوس الاضرار الناجمة عن حماية الحكومة لمصالح السكة الحديدية والتشبث بأرباحها حتى على حساب تطور البلاد الاقتصادي الذي كان بحاجة ماسة الى انشاء شبكة طرق أكثر اتساعا ، ويقتبس ذلك من بحث للاقتصادي السوري حسني الصواف نشره في كتاب « تنظيم فلسطين الاقتصادي »(٢٧) ، مدعما بفقرة مقتبسة من تقرير لجنة تشكلت عام ١٩٣٤ لدراسة مشكلة النقل بواسطة المركبات ،

ورد فيها : « ان حالة كثير من الطرق الهامة وعدم وجود طرق غيرها ، اقتضى ان تسير المركبات على طرق غير معبدة ، حجرية ورملية عميقة ، الامر الذي اضاف كثيراً الى النفقات الجارية وخاصة فيما يتعلق بالبنود الثقيلة كهبوط الطرق ، واصلاحها وتحويلاتها . وبمكن التسليم بأنه انجز الكثير لتحسين الطرق الحاضرة ، ولشق طرق جديدة ، ولكن مع ذلك ، يلاحظ ان سياسة تأمين السكة الحديدية من منافسة النقل بالمركبات ، كانت بين أسباب اخرى ، مسؤولة عن التلكؤ والتأخير في اكمال طريق حيفا عكا الضروري جدا للمواصلات بين فلسطين وسورية ، وطريق يافا حيفا المهم جدا لتطوير ما قد يكون أعظم رقعة من الارض بفلسطين من حيث امكاناتها الزراعية(٢٨) . ان السبب المشار اليه ، وهو حماية واردات السكة الحديدية كان مسألة تتصل بمناشط الحكومة التجارية وشبه التجارية التي احست اللجنة بأن بمقدورها ان تنتقدها بلطف ، ولكن هذا لم يكن سوى سبب واحد بين أسباب اخرى . فاللجنة لا تستطيع بالتأكيد أن تفسر الوجود الطويل الامد للاشيء سوى الطرق الوعرة في الجزء الجنوبي من فلسطين الذي لو أمكن جلب المياه الى سطحه لتوفر فيه حافز الزراعة الكثيفة . وبما أن هذه « الاسباب الاخرى » تمس مشكلة حساسة في السياسة العليا ، فاللجنة أشارت باحتراس الى وجودها ، واحجمت عن التعليق عليها . والحقيقة ان جنوب فلسطين الذي لم يكن يسكنه سوى العرب ، الحضر والبدو ، كان موضع اهمال مقصود من الادارة الانتدابية ، اذ حالت دون بناء الطرق فيه وجر المياه اليه ، وتنشيط الزراعة الكثيفة فيه ، وعرقلة نموه واعماره ، لئلا يجتذب العرب ، فيقبلون على أرضه المعطاء ، ويقيمون المشاريع عليها وبشتد ساعدهم فيها ، وبذلك يعيقون مشاريع الاستيطان الصهيوني المرتقبة التي لم يحن أوان تنفيذها بعد . ومادامت المستوطنات الصهيونية تتركز في شمال فلسطين وتتوطد أركانها ، فالجنوب لا يقع على جدول الاستيطان الصهيوني الملحّ ، ولكن دوره آت في المرحلة التالية .

اما منجزات دائرة الاشغال العامة في فلسطين ، فكانت متحف روكفلر ومنزل المفوض السامي ودائرة البريد ، والكلية العربية ، ومباني المدارس والمشافي . ولكن أبرز المنجزات كان بناء ثلاثين مبنى للشرطة في المدن والمناطق الريفية في غضون سنتين أو نحوهما ، بكلفة قدرت بمليون ونصف المليون من الجنيهات الفلسطينية . هذه المباني ، وهي من طراز القلاع والحصون ، قد جرى تصميمها خلال ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ . والمباني تطالع الناظر بكتلتها الضخمة ، وتترك في نفسه أنطباعا قويا لا ينسجم مع صورة المنظر الطبيعي المجاور لها . ذلك ان تخطيط بنيانها الرامي الى تحقيق اغراض الامن ، ينطبق مع القسمات العامة للقلعة الاستعمارية الفرنسية ،

ولكن ينقصها الذوق المعماري ، بله الاناقة والجمال . وفي المناطق القاصية ، يتسع بفض هذه المباني الضخمة ليشمل بعض دوائر الحكومة . أوليس من الافضل ان تستقر دوائر الحكومة في الثكنات بدل استئجار البيوت وتحويلها الى مكاتب ؟ ويرى ابكاريوس ان السماح بصرف مثل هذه النفقات الباهظة على بناء مراكز الشرطة ، لما يحطم قلب الموازنة المالية ، خصوصا وانه لم ينجم عنها تقليص المصروف السنوي المخصص لاجور المكاتب ! ولاحظ انه برغم توفر المخصصات وشراء الارض لبناء مكاتب الحكومة في القدس ، فقد استمرت الادارة الانتدابية في استئجار المباني وبيوت السكن والفنادق لاستعمالها كمكاتب . وعلى مدى ربع قرن ، انتقلت سكرتارية الحكومة ثلاث مرات واشغلت الخزانة المالية عدة مرات ستة مبان مختلفة ، وبدلت ادارة المناطق مقرها ثلاث مرات ، وكذلك فعلت دائرة الزراعة والاسماك ، ودوائر اخرى (٢٩) . وواحد من الاسباب التي قدمت للاستمرار بهذا الوضع الغريب ، هو ان الفائدة على المال المخصص للبناء ، وارتفاع كلفة الصيانة ، سيشكلان رقما اعلى من الايجار . والرد هو انه اذا بررت هذه الحجة نفسها في السنوات العجاف ، فانها تفقد قوتها حين باشرت الحكومة تجميد احتياطي سرعان ما تراكم ليصل الى ٦ملايين جنيه فلسطيني ، ولكن مدراء المال يظلون سادرين في غيهم .



وبعد ، فهذه *مرافق ثلاثة عرضنا لها في عملية تطبيق* الانتداب البريطاني في فلسطين بشكل عام . وهي برغم ذلك ، تفتح الباب أمام مزيد من البحث والتقصي فيها ، وفي سواها من المرافق التي لا تقل عنها أهمية . ويتضح من الشهادة التي يطالعنا بها ابكاريوس وكأن مناشط الادارة الانتدابية تدور في حقيقتها حول محور تطوير الوطن القومي اليهودي باتجاه الدولة اليهودية . لقد كانت هذه الاقلية اليهودية بمعونة ادارة انتدابية منحازة لها ، قادرة على رصد مبالغ ضخمة من الموازنة المالية ، لتنمية مرفق الامن العام على نحو غير مسبوق ، وذلك لحماية الهجرة اليهودية والاستيطان اليهودي ، بينما لا تخصص للمرافق الاخرى ذات التأثير الحيوي على الغالبية العربية الا مبالغ متواضعة ، كالتعليم والاشغال العامة والخدمات الصحية ، والحكم المحلي ... لقد كان بمقدور الاقلية اليهودية أن تبني الطرق على حساب الحكومة ولو جزئيا ، من أجل نمو وتطور مستوطناتها ، مثلما كان بمقدورها ان تقنع الحكومة بتسليح اليهود ونزع سلاح العرب ، وأهم من كل ذلك ، قدرتها على شل كل محاولة لتشكيل حكومة دستورية في فلسطين . لقد طالب اليهود مؤخرا ،

كما يقول ابكاريوس(٣٠) بتشكيل مجلس بلدي في مدينة القدس حيث يشكلون غالبية نسبية(٣١) ، فاذا كانوا معنيين بمبدأ الحكم الديمقراطي وتنفيذ الاجراءات الدستورية ، فلا يجب أن يعترضوا على حكم الغالبية في فلسطين . اما قبولهم بتطبيق مبدأ الحكم الديمقراطي في القدس ، ومقاومتهم تطبيقه على البلاد كلها ، فأمر غير منطقي ولا يمكن الدفاع عنه . وهو يكشف عن عدم رغبتهم في تطبيق الحكم الديمقراطي على العرب في فلسطين ، بمثل ما يدل على تميز الصهيونية بالعنصرية الانغلاقية التي لا تقيم وزنا لقيم الحق والعدل ولمبادىء الانسانية والاخلاق .



الحواشي :

(١) يعقوب العودات ((من اعلام الفكر والادب في فلسطين)) - طبع جمعية عمال المطابع التعاونية في عمان ١٩٧٥ ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) قيل هذا الكلام سنة ١٩٤٦ ، أي قبل ان تتحرر اقطار الشمال الافريقي العربية .

(٣) M.F.Abcarius - Palestine through the fog of propaganda, pp.9-11

(٤) العودات ، المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

(٥) احمد طربين ((الانتداب البريطاني في خلفية الدولة اليهودية)) القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٥٢ نقلا عن تقرير اللجنة الملكية .

(٦) ابكاريوس ، ص ٩٥ .

(٧) المصدر نفسه ٩٥ .

(٨) ابكاريوس ، المصدر نفسه ص ٩٥ .

(٩) هو نائب رئيس اللجنة الصهيونية .

(١٠) Cmd 5479 P. 200

(١١) المصدر نفسه ص ٩٩ .

(١٢) المصدر نفسه ص ٩٩ .

(١٣) ابكاريوس ص ١٠٠ ، نقلا عن تقرير لجنة بيل Cmd 5479 P. 201

(١٤) ابكاريوس ، ص ١٠١

(١٥) ابكاريوس ، المصدر نفسه ص ١٠٢ و ١٠٣

(١٦) اخذت هذه الارقام من التقرير الاخير الذي نشره قسم التربية بالادارة الانتدابية .

(١٧) ابكاريوس ، المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .

(١٨) المصدر نفسه ، ص ١٠٤

(١٩) المصدر نفسه ، ص١٠٤ - ١٠٥

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٠٥

(٢١) ابكاريوس ، المصدر نفسه ، ص ١٠٥ .

(٢٢) Vital Cuinet, Syrie, Liban et Palestine. Paris 1896, P. 605

(٢٣) ابكاريوس ، المصدر نفسه ، ص ١٠٦ .

(٢٤) Report of the league of Nations on the Administration of Plestine, 1926 p 53.

(٢٥) ابكاريوس ، المصدر نفسه ص ١٠٧ .

(٢٦) المصدر السابق نفسه ، ص ١٠٨ .

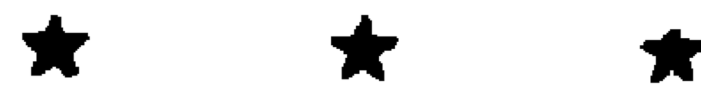
(٢٧) انظر:
Said Himadeh (ed.) Economic Organization of Palestine, Beirut, 1938, pp. 306 - 7

(٢٨) Ibid, p. 307, quoted from the Palestine Gazette, Supplement No 15 of Nov. 1931, p. 879.

(٢٩) ابكاريوس ، المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

(٣٠) ابكاريوس ، المصدر نفسه ، ص ١١٦ ، ص١٢٥ .

(٣١) يذكر ابكاريوس أنه حين نفي رئيس بلدية القدس الى سيشل باعتباره عضوا في الهيئـة العربية العليا ، حل محله ضابط متقاعد لم يلبث أن توفي ، فاستلم يهودي مهام رئيس البلدية لمدة أشهر ومعلوم أن بلدية القدس كانت منذ أيام عمر بن الخطاب تعرف باسم (الحسبة) وكان يتولاها رئيس مسلم ، مع فاصل زمني قصير ابان الحكـم الفرنجي الصليبي . وقد طلب اليهود جميعا تعيين رئيس بلدية يهودي في القدس ، وبعد تردد توصلت الحكومة الى قرار تكون رئاسة البلدية بموجبه متناوبة سنويا بين عربي ويهودي مثالث لا عربي ولا يهودي ، وهكذا ترك للعرب ثلث حقهم ، وجعلت حصتهم مثل حصة اليهود ! ص ١٢٤ .



دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول : د. شاكر الفحام   رئيس التحرير : ناظم كلاس

العدد الثاني عشر : شعبان ١٤٠٣ هـ / أيار (مايو) ١٩٨٣ م

المراسلات :

جامعة دمشق ــ الجمهورية العربية السورية
لجنة كتابة تاريخ العرب ــ مجلة دراسات تاريخية

ثمن العدد

سورية	٦٠٠	ق.س.	تونس	١٫٠٠	دينار تونسي
لبنان	٨٠٠	ق.س.	المغرب	١٤٫٠٠	دينار مغربي
الكويت	٧٠٠	ف.ك.	قطر	٩٫٠٠	ريال قطري
البحرين	١٫٠٠	دينار بحراني	السعودية	٨٫٥٠	سعودي
ليبيا	١٫٣٠٠	دينار ليبي			

الاشتراك السنوي :

للمؤسسات : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية او مايعادلها

للافراد : (٣٠) ل.س ثلاثون ليرة سورية او مايعادلها
تضاف اليها اجور البريد الجوي او العادي حسب رغبة المشترك

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة في السنوات السابقة بالقيمة نفسها

تصحيح خطـا :

في بحث الردافة المنشور في العدد الماضي (ص ٢٢) جـاء اسـم الاستاذ الباحث مصحفا ، وصحته د. صالح درادكة .

كما ان الملحق رقم (١) المتضمن « قوائم ملوك الحيرة في المصادر العربية » العائد لهذا البحث ، جاء خلوا من اسم الاستاذ الباحث
فاقتضى التنويه .

في هذا العـدد

الصفحة

تنـويه

□ ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية

□ الآراء الواردة في المجلة تعبر عن رأي كاتبها

تقديم

بين يدي هذا العدد الجديد من مجلة « دراسات تاريخية » ، نود أن نؤكد حرص لجنة كتابة تاريخ العرب في جامعة دمشق ، على الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسها حين قررت التصدي لهذه المسؤولية ، وعلى السير قدما في شعاب هذا الطريق الشائك ، وتذليل العقبات التي لابد وأن تعترض كل مسيرة طموحة .

والتزاما بالعهد ، رأت اللجنة في هذه المرحلة التحضيرية التي تعد خلالها كل ما يلزم لانطلاقة مشروع كتابة تاريخ الامة العربية ، أن تدعم الجهد المتواضع الذي تقوم به في هذا السبيل بالجهود التي يمكن ان يقدمها علماء افاضل لهم باع طويل في ميادين البحث والتاليف في موضوعات تاريخ امتنا ، افادت وتفيد من علمهم اجيال المؤرخين الشباب في جامعات الوطن العربي ، فقررت اللجنة تسمية بعضهم « اعضاء مراسلين » في لجنة كتابة تاريخ العرب ، وستتوجه اليهم برسائل شخصية راجية مساهمتهم الخيرة في هذا المشروع القومي ، فيكونوا صلة الوصل بين لجنة كتابة التاريخ العربي في جامعة دمشق ، والمؤرخين العاملين في جامعاتهم واقطارهم ، فضلا عن مؤازرتهم الشخصية في هذا المجال .

وخطوة اخرى رأت اللجنة انه لابد لها من أن تخطوها لينطلق العمل من حيز التخطيط والتدبير الى حيز التنفيذ ، فقررت الدعوة الى « ورشات عمل Work shops » متخصصة وعلى نطاق ضيق ، يشارك فيها بعض من الباحثين الذين سيساهمون في اخراج المشروع الى النور . وستكون هذه « الورشات » من النوع الذي يتخصص بفترة محددة من فترات تاريخنا ، ويتم خلالها دراسة الخطوط

العريضة للمشروع الذي وضعته اللجنة التحضيرية ، ويفتسم فيها العمل ، وتوضع الخطط والاجال لتنفيذه ٠

خطوتان على طريق مسيرتنا الوئيدة ، التي قصدنا ان تكون كذلك ، ليكون القطاف شهيا ، والعطاء على قدر المأمول ، ونرجو ان تكون استجابة الزملاء على مستوى التحدي الذي يواجهنا به مشروعنا الطموح ٠

* * *

مشكلة الحكم في الإسلام بعد وفاة الرسول

«دراسة للمؤشرات الفاعلة في مرحلة الأصول»

د. نبيه عاقل

جامعة دمشق

ليس المقصود من هذه الدراسة ان نعيد سرد المعروف المتداول من اخبار حول وفاة الرسول الكريم وشغور منصب الرئاسة الدنيوية للمجتمع العربي المسلم ، وكيف آل الامر الى تولية أبي بكر منصب خلافة المسلمين ، فهذا مما تداولته الاقلام وسودت بأخباره صفحات طوال ، ولكن المقصود هو البحث في التيارات التي كانت تعتمل في النفوس بعد نشوة النصر الكبير الذي حققه الاسلام ، والذي غدا بعد ذلك حقيقة تفرض وجودها بقوة العقيدة وصلابة المنافحين عنها والمؤمنين بها من جهة ، وبانتصار السيف الذي جرد لحمايتها وفرضها على من عاند من جهة اخرى . فقد ظل الاسلام في مكة ، كما هو معروف ، ما يزيد على اثنتي عشرة سنة يرفع شعار « وجادلهم بالتي هي احسن » ، ويستعمل الحجة والمنطق في دحض مزاعم قريش وابراز تهافت دينها وتفسخ مجتمعها ، والتناقضات التي تزخر بها حياتها اليومية ، دونما جدوى . ولم يتحقق النصر للاسلام كعقيدة وكدولة الا حين وقف السيف ينافح عن العقيدة ويدعم حجتها بحد سنانه . وقد كان في هذا مؤشر هام لمن غدوا بعد انتصار الاسلام في الفترة المدنية في الصف الاول من مقاعد السلطة ، وشعروا انهم الركن الاساسي في قضية مستقبل الدولة بعد أن ينتقل الرسول الى جوار ربه ، لاسيما وان هذا الامر لم يبحث او يثر في حياة الرسول وظل سؤالا حائرا دون جواب في ضمائر الفئة التي كانت تعرف باسم الصحابة ، من مهاجرين وانصار ، لانها لم تكن تجرؤ على طرحه صراحة في دولة دينية يأخذ فيها نبي مرسل بزمام السلطة في المجالين الديني والدنيوي .

ولما انتقل محمد الى جوار ربه فتح الباب واسعا امام رؤوس الجماعة الاسلامية ليعلنوا ما كانوا قد أسروه في حياته ، وغدت مشكلة : لمن الامر بعد محمد ؟! الشغل الشاغل لهذه الفئة منذ ان سجي الرسول على فراش الموت في بيت عائشة .

وكانت ردود الفعل التي تعبر عن مصالح وتطلعات كل فئة من الفئات التي كانت تتمثل في مجتمع المدينة مستقر السلطة ، وفي بقية أرجاء الجزيرة العربية التي جاءت مبايعة في عام الوفود . وهنا ، وفي تحديدنا للمسار الذي ستأخذه الاحداث والعوامل الفاعلة فيها ، لابد من وقفة لتثبيت بعض الحقائق التي سنعتمدها او نذكر بها في هـذه الدراسة :

١ ــ الاسلام في الاصل دين انزل « ليخرج الناس من الظلمات الى النـور ولتخليص الناس من الشرك وهدايتهم لعبادة الاله الواحد » . فهو بهذا المعنى سلوك وعبادات ومعاملات تكفل لمن يؤديها على وجهها الاكمل سعادة الدارين . ولم يغـد الاسلام دولة بالمعنى الدقيق للكلمة الا بعد عهد الراشدين . وهنا أود أن أؤكد حقيقة يتناساها البعض وهي ان الاسلام كدولة تمارس سيادتها وتفرض قوانينها في المجالات الادارية والسياسية والدولية والاقتصادية والقضائية وسواها ، كانت بداياتها من صنع الصحابة الاول الذين آل الامر اليهم وغدوا قادة دولة فحسب ، بعد أن توقف الوحي بوفاة الرسول . وقد جوبهت دولتهم بما تواجه به اية دولة من امور ومشاكل لا بد وان تنتظمها قوانين ، وبما ان هذه القوانين لا بد وان تنسجم مع الخطـوط العريضة التي طرحها الاسلام في القرآن الكريم ووجدت تطبيقا فيما قاله الرسول او فعله او أقره (السنة) ، فقد قاسوا الاشباه على النظائر واجتهدوا وقرروا مـا قرروه من قواعد وسنن . واضيف الى اجتهادهم فيما بعد آراء الفقهاء والائمـة ، واتخذت المذاهب شكلها عند أهل السنة على الشكل الذي حددته المذاهب الاربعة . وهكذا فان الادعاء بان دولة الاسلام التي قامت فيما بعد هي دولة الرسول ادعـاء باطل ، ولا بد من التأكيد على حقيقة الدور الفكري الكبير الـذي كان للصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الاربعة في صنع هذه الدولة والتشريع لها .

٢ ــ ان مبدأ قرشية الخلافة الذي اسفر عنه اجتماع سقيفة بني ساعدة لا يفهم الا من خلال شرح مفصل للتركيب السكاني لمجتمع المدينة عند وفـاة الرسول ، واستقصاء لجذور هذا التركيب وهويته والعوامل الفاعلة فيه ، منذ الفترة السابقة لهجرة الرسول الى يثرب ، والاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والبشرية لهذا المجتمع قبل الهجرة ، وما طرأ على هذه الاوضاع خلال الفترة المدنية من حياة الرسول .

٣ ــ ان التيارات التي ظهرت في السقيفة لم تكن وليدة ساعتها وانما كانـت تعبيرا عما يعتمل في النفوس ومتنفسا لشكاوى لم يتح لها ان تعبر عـن نفسها خلال حيـاة الرسول .

٤ ـ أن كل دراسة لمشكلة الحكم في الاسلام بعيدا عن البيئة الطبيعيةوالاقتصاد الرعوي لبدو الجزيرة ، وانعكاس كل ذلك علـى أوضاعهم الاقتصادية وتطلعاتهم السياسية ، دراسة ناقصة ، لما كان لهؤلاء البدو ذوي التقاليد والمواصفات المستمدة من بيئتهم من دور في نشر الاسلام واقامة دولته ، بعد ردتهم عنه ومحاولتهم اسقاط دولة قريش بزعامة أبي بكر الذي تسلم مقاليد الامور بعد وفاة الرسول .

بعد هذا ، واذا تجاوزنا الفترة المكية من حياة الرسول الكريم التي شغلتها احداث الدعوة للاسلام ومعارضة قريش لهذه الدعوة ، وانتقلنا الى الفترة المدنية التي غدا الرسول في نهايتها السيد الاوحد وصاحب الكلمة الاولى في مجتمع يوحده الاسلام على السطح وتعمل فيه تيارات مكمنة ، فيها شيء كثير من ارث الماضي بالنسبة للجماعات البشرية المختلفة التي كانت تسكنها قبل الاسلام ، هـذا فضلا عن الوافدين الجدد الذين عرفوا باسم المهاجرين ، واذا ما أضيف الى كل ذلك بعض مما علق في النفوس من آثار بعض الاحداث التي جرت بعد الهجرة النبوية الى هذه المدينة ، لوجدنا في كل ذلك خلفية تساعدنا على فهم مسار الاحداث التي بـدات والرسول لم يوار التراب بعد .

فيثرب كانت في تاريخها السابق على الهجرة مجموعة من المنازل والاطام والمزارع والبساتين ، تقوم في واحة أو أرض خصبة نسبيا ، تبلغ مساحتها ما يقارب العشرين ميلا مربعا ، وتحيط بها التلال والصخور والارض المحصبة التي لا تصلح للزراعة .

وكان القسم الاكبر من سكانها يعرفون باسم بني قيلة ، وهو تجمع قبلي كبير يضم قبيلتين هما الاوس والخزرج ، اللتين كان لكل منهما عدد من الفروع والبطون . وتذكر المصادر أن الاوس والخزرج من عرب الجنوب هاجروا الى يثرب وسكنوا بعضا من اراضيها غير المأهولة ، ودخلوا في خدمة القبيلة أو القبائل التي تقطنها ، ثم ، ومع مرور الزمن ، وبسبب من كثرتهم وقوتهم ، استطاعوا أن يغتصبوا السيادة من سكانها الاصليين ، وأن يغدوا سادتها الجدد . وقد حدث ذلك ، على رأي اغلب الباحثين المحدثين ، في منتصف القرن السادس الميلادي ، أو بعيد ذلك بقليل .

وكان من بين القبائل التي سبقت الاوس والخزرج في سكنى يثرب قبيلتان تدينان باليهودية هما : بنو قريظة وبنو النضير . وقد اقامت هاتان القبيلتان في الجزء الخصيب من أرض يثرب ، وعاشوا حياة مستقلة عن القبيلتين العربيتين الوافدتين . وضمت يثرب زمن الرسول قبيلة يهودية ثالثة هي قبيلة بني قينقاع ، وكانت أقل نفوذا من زميلتيها ، كما ضمت فئات عربية غير الاوس والخزرج ، ربما كانت بقايا السكان العرب الذين كانوا يقطنونها قبل وصول اليهود اليها .

وكان بين الاوس والخزرج نزاعات كثيرة وحروب طويلة ، كان اخرها يوم بعاث الذي وقع قبل هجرة الرسول بأعوام قليلة ، والذي اقام نوعا من التوازن القلق بين القبيلتين ، لان الحرب كانت قد اجهدت كلا من الفريقين ورغبا في الخلاص منهـا .

وهكذا كانت يثرب تعيش ازمة مماثلة لازمة مكة ، سببها ان الفئة العربية من السكان كانت تشعر أن المثل العليا السائدة في المجتمع ، ولا سيما في الميدان الديني ، مثل لا تتناسب ومعطيات العقل المفكر الذي يزن الامور بموازين الحضارة ، لا البداوة الجاهلة . وقد ساعد على هذا الشعور بعدم جدوى أو قصور الديانة الوثنية عن متطلبات العقل ، وجود اليهود الموحدين الى جانبهم ، وما كان ينتج عن الاختلاط بهم والنقاش معهم من شكوك لا تنفع في الاجابة عليها نظريات الديانة الوثنية . ووجـه اخر للازمة التي كانت تعيشها يثرب قبل هجرة الرسول اليها ، هو وجه اقتصادي ، سببه ازدياد مستمر في عدد السكان لا يجاريه ازدياد مماثل في مخزون الطعام ، وقد ترتب على المنازعات المسلحة التي كانت تجري بين سكان يثرب ان المنتصرين كانوا في كثير من الاحيان يحتلون أرض المغلوبين اذا كانت اكثر خصبا من ارضهم ، حتـى يؤمنوا لانفسهم موردا للطعام افضل او اقدر على سد احتياجهم . وحين كانت تنتهي الحروب بينهم دونما نتيجة حاسمة ، كما حدث يوم بعاث مثلا ، كان على أصحاب الارض الخصبة أن يظلوا حذرين وعلى أهبة استعداد للدفاع عن أراضيهم اذا ما هاجمها مهاجم بقصد استخلاصها والافادة من خيراتها لقوت عياله . وقد ادى اتسـاع هذه المشاكل المتعلقة بالاراضي الخصبة وما كان يجري حولها من مخاصمات الى اهمال الناس العناية بأراضيهم ، فقل محصولها مع الزمن ، وازدادت الازمـة التموينية حدة ، وغدت الارض المنتجة عرضة لشريعة الغزو ، التي هي في الاساس مظهر من مظاهر عدم الكفاية الغذائية في الصحراء ، هذه الشريعة التي ظلت سائدة في يثرب ، وتنطبق على الارض الزراعيةلا على المنقول فحسب ، كما كانت الحال في المجتمعات البدوية . وطبيعي أن تنطبق هذه الشريعة ايضا على قطعان الماشية وأن يتعرض هذا الصنف من الثروة الخاصةالى خطر السلبومحاولة الاستيلاء القسرية. وقد زاد هذا النوع من الاصطدامات من مشاكل يثرب ، لاسيما وأن صغر رقعتها وتشابك مصالح الناس فيها سيؤديان حتما الى حال من المنازعات الدائمة .

وكانت النظم الاجتماعية في يثرب مشابهة تماما للنظم السائدة في المجتمعات الصحراوية . فكانت العصبية القبلية أساسا أوليا من اسس العلاقات بين افـراد المجتمع ، وكان الثأر والدية شريعتين هامتين من شرائع العمران البشري عندهم . وقد أدى هذا التضامن القبلي الى صيرورة مهمة الدفاع عن الممتلكات الشـخصية مسؤولية الجماعة القبلية بكاملها ، لا مسؤولية الفرد وحده . واذا كان مقبولا ان

تتولى القبيلة ، ككل ، في مجتمع صحراوي مهمة الدفاع عن ممتلكات فرد من أفرادها اعتدى عليه ، فان هذا الواجب ليس بالسهولة نفسها في مجتمع مستقر وصغير الرقعة نسبيا كيثرب ، لان مجالات الاصطدام يومية ومتكررة ، لاسيما اذا اخذنا بعين الاعتبار ما ذكرناه آنفا من قلة في المخزون الغذائي ادت بالضرورة الى غزو دائم للممتلكات الفردية بقصد الحصول على ما عند الغير من موارد غذائية لا تتوافر عند الغازي . ومعروف ان المجتمعات المستقرة لا تحتاج الى عصبية قبلية لضبط شؤونها وجل ما تحتاجه هو رأس مدبر واحد يتولى مقاليد الحكم ويتصرف فيما يعرض بين الناس من مشاكل .

ولم تقم مشاكل مماثلة لهذه المشاكل في مكة وذلك لان العمل في التجارة هناك أمن للناس موردا للرزق جعلهم في غنى عن الاعتماد على منتوج الارض من الغذاء ، وبالتالي الغي من المجتمع المكي المستقر شريعة الغزو الصحراوية . وقد ادت وحدة المصالح التجارية لقريش ككل الى وحدة قبلية لم تنعم بها القبيلتان الكبيرتان اللتان كانتا تسكنان يثرب ، فالتناقضات بين الجماعات المكونة للمجتمع اليثربي ، وعدم وجود عامل موحد يجمع شتات الناس (كالتجارة في مكة مثلا) أدت الى قيام ما تحدثنا عنه من صراع واصطدامات دائمة بين سكان هذه المدينة . يضاف الى ذلك ان الاسرة في المجتمع الزراعي هي الخلية الضرورية للانتاج ، في حين ان مجتمعا ، كمجتمع مكة ، يعمل أفراده بالتجارة ، يحتاج بالضرورة الى التضامن القبلي . لهذا كله كان التضامن القبلي في مكة اوضح منه في يثرب . وأيا كانت الاسباب ، فان المجتمع اليثربي قبل قدوم الرسول اليه كان مجتمعا منقسما على نفسه ، تتقسمه الحزازات وتنخره أمراض كثيرة أهمها فقدان الوحدة بين عناصره المختلفة . واذا كانت هذه الفرقة وعدم وحدة الصف هي التي مهدت الارض لحسن استقبال الرسول ، فان الخوف من تصدع الصف المكي وانقسام الناس الى شيعتين أو فريقين دينيين كانا من أبرز العوامل التي دعت المكيين الى حربه واعلان العداء له . وفي هذه الفرقة في الصف التي كانت تعاني منها يثرب قبل الاسلام ، ووحدة الصف القرشي المبنية على المصلحة المشتركة التي كانت سمة مجتمع مكة قبل الاسلام ، نجد الخلفية التاريخية لفرقة الصف بين جماعة الانصار في اجتماع السقيفة بعد وفاة الرسول ، وحين كان امر خلافته يقرر او يحسم الى الابد ، ووحدة الصف القرشي في هذا الاجتماع ، التي انتهت باقرار مبدأ قرشية الخلافة .



ويهاجر الرسول الى المدينة على الوجه المعروف بعد بيعة العقبة ، فيجتمع فيها بعد وصوله اليها جماعتان كبيرتان من الناس : جماعة المسلمين وجماعة غير المسلمين . اما المسلمون فكانوا فئتين : الانصار ، او المسلمون من الاوس والخزرج ، والمهاجرون ، وهم المسلمون المكيون الذين هجروا مدينتهم وانتقلوا للسكن مع الرسول في المدينة المنورة . اما غير المسلمين ، فكانت غالبيتهم من اليهود ، وبينهم بعض المشركين من الاوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الاسلام ، وفئة المنافقين الذين كان ولاؤهم ظاهريا ، وله بعض الاهداف الكيدية .

وكان على الرسول الذي لم يكتب لدعوته النجاح في مدينته الام ، أن يواجه ظروفا صعبة في دار هجرته . ويلخص فرانشيسكو غابريللي هذه الصعوبات التي واجهت الرسول في مستهل هجرته بقوله : « لقد كان النصر الذي سعى اليه الرسول، ومركزه كنبي صاحب سلطة دينية ورئيس دولة فتية انشأها هو ، نصرا بطيئا ومحفوفا بالمصاعب الكثيرة التي يثيرها ضده اعداء ظاهرون ومستترون . لقد كان المكيون اعداءه الظاهرين ، وكان عليه أن يواجه الاعيب سياسية ومؤامرات كثيرة تدبر في الخفاء من قبل الفئات المختلفة التي تسكن المدينة »(١) . وفي هذا القول صحة وصدق، اذ أن محمدا لم يكن في الايام الاولى من هجرته الى المدينة الرجل المطاع الاوحد الذي لا ينازع سلطته منازع . واذا صحت هذه الصفة على الفترة المتأخرة من وجوده في هذه المدينة ، فانها لا تصح على أيامه الاولى منها . لقد كان أول الامر لا يملك السيادة الا على الجماعة التي آمنت به ، من مهاجرين وانصار . وكان عليه أن يقوم بجهد كبير في ميدان الدعوة الدينية بين اولئك المدنيين الذين لم يقبلوا الاسلام كدين . وقد اثمرت جهوده في هذا الميدان بسرعة وانضمت اغلب الفئات التي لم تعتنق الاسلام الى هذا الدين في أقل من عام بعد بدء الهجرة . وطبيعي انا نقصد بهذه الفئات المنافقين الذين اعتنقوا الاسلام ظاهريا وحاربوه حربا مقنعة تبعا لمصالحهم ، كما نقصد بعض الاشخاص الذين تشبثوا بموقفهم المعادي واستمروا يعارضون الرسول ويرفضون الاسلام كأفراد . واشهر مثال على هذا النوع الاخير من المعارضين سيد من اشراف الاوس هو ابو عامر عبد عمرو بن صيفي بن النعمان ، الذي كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وكان يقال له الراهب . ويمثل أبو عامر فئة مدنية أشد تطرفا في عدائها للاسلام من فئة عبد الله بن ابَيّ زعيم المنافقين . فعبد الله بن ابَيّ لم يجرؤ على معاداة الاسلام جهارا ، بل تستر باسلام ظاهري وكاد للاسلام تحت ستار من ايمان زائف . وقد يجد المرء له عذرا في ذلك لان الاسلام وقدوم محمد الى المدينة حرمه من ملك كان يعد نفسه له ، فلما رأى قومه « قد أبوا الا الاسلام ، دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن »(٢) اما ابو عامر فقد اندفع في عداء الاسلام من موقف عقائدي

على حد زعمه ، ودخل مع الرسول في نقاش طويل حول الاسلام الذي يبشر به الرسول وصلته بالحنيفية ، دين ابراهيم ، الذي يزعم أنه يدين به ، وان الرسول « شوهه » وابعده عن « نقائه الاول » . وقد وصل عداؤه للدين الجديد الى حد القيام بهجرة معاكسة ، فكما أن الرسول ترك مكة وهاجر الى المدينة ناجيا بدين الله ، هاجر هو من المدينة موطنه الاصلي الى مكة ، حيث لا سلطان لمحمد . وحين فتح الله مكة على يد الرسول الكريم تركها الى الطائف ، فلما أسلم أهلها لحق بالشام حيث مات طريدا غريبا وحيدا(٣) . ولم يكن ابو عامر وحده في هذا الموقف ، فقد هاجر معه من المدينة الى مكة بضعة عشر رجلا مفارقين للاسلام ورسوله ، كما هاجر معه الى الشام عدد منهم بعد نصر الاسلام الكامل على الجزيرة العربية .

والى جانب هذه الفئات العربية التي واجهت الرسول بمعارضتها ودسائسها حين قدم الى المدينة ، وظهر بعض من آثارها في اجتماع السقيفة بعد وفاته ، كانت الجماعات اليهودية التي ادركت أن قدوم الرسول الى يثرب هو فاتحة عهد جديد ، لن تكون لهم فيه الكلمة الاولى ولا المكان القيادي ، فعملوا ما وسعهم العمل للتخلص منه والايذاء بحياته . ولكن نصر الله لرسوله كان لكيدهم بالمرصاد .

ولسنا نريد ان ندخل في مزيد من تفاصيل المعارضة التي لقيها الرسول في يثرب قبل توطد نفوذه فيها ، أو الاسهاب في ذكر العناصر التي ناصبته العداء واسبابها في ذلك ، لان هذا يخرج عن الاطار المقرر لبحثنا ولا يندرج تحت عنوانه ، الا بقدر ماكان لهذه المعارضة الاولى من صلة نسب مع التيارات التي عبرت عن ذواتها حين طرحت مسألة الحكم بعد موته ، والتطور الذي دخل على هذه المعارضة الاولى بعد أن قامت ظروف جديدة ثبتت حقيقة اساسية ، تتلخص في انه لا جدوى من معارضة بعد اليوم لا تقوم على اساس من الدين الجديد ، وان كل تمايز وتفاضل ودعوى في الاحقية يجب ان تجد سندا ومبررا لا يخرج عن الاطار الاسلامي ، الذي ثبت وجوده بقوة الاقناع حينا ، والسيف أحيانا . ورغم أهمية المعارضة التي واجهها الرسول من بعض العناصر السكانية في يثرب ابان وصوله اليها ، فقد ظلت المشكلة الاهم والاكثر الحاحا مشكلة اقتصادية نبعت من واقع اصحابه المهاجرين الذين تركوا اموالهم في مكة وغادروها مملقين لا امل لهم في العودة أو استرداد ما يملكون . واضطر النبي في سبيل حل هذه المعضلة ان يعمل بنظام المؤاخاة الذي هدف ، الى جانب حل المشكلة الاقتصادية ، الى تحسين الرابطة بين المهاجرين والانصار ، وتوكيد وحدة المجتمع الاسلامي في المدينة ، بشقيه : الانصار والمهاجرين . حتى ان نظام المؤاخاة ، على ما تذكر المصادر ، نص على حق التوراث بين المتآخين دون الارحام(٤) . وعلى الرغم من ان العمل بهذا النظام قد اوقف بعد غنائم بدر ، وما افاء الله على المسلمين من غنائم واموال سدت عوز المحتاج ،

فانه يبدو واضحا أن الهدف الآخر ، وهو هدف تحسين الصلة بين شقي الجماعة الاسلامية ، ظل دون المستوى الذي كان يريده له صاحب الرسالة وسيد الجماعة ، وأطل برأسه واضحا قويا حين انتقل الى جوار ربه .

واذا تجاوزنا ما لقيه الرسول من معارضة بعض الفئات في المدينة ، والمصاعب الاقتصادية التي عاشها بعض من صحابته ، لوجدنا أنه بعد ان وطد الامور وذلل هذه الصعاب ، كانت تنتظره مهمة أصعب ، وهي وضع الأسس التي لابد منها لتنظيم العلاقات بين هذه العناصر السكانية التي لا تجمعها وحدة عصبية أو وحدةعقائدية ، او حتى وحدة المصلحة . وقد عالج الرسول الكريم هذا الوضع في الكتاب الذي كتبه وحدد فيه صورة العلاقات في المجتمع العربي الجديد بفئاته المختلفة ، وما يترتب من حقوق وواجبات على كل فئة من هذه الفئات . ورغم انه لا يدخل في نطاق هذا البحث دراسة كتاب الرسول ، الذي حفظ لنا ابن هشام نصه كما أورده ابن اسحق في سيرته ، الا ان المهم أن نلاحظ ان هذه الوثيقة التنظيمية الاولى التي اصدرها الرسول ، لا بوصفه نبيا مرسلا فحسب ، بل كرئيس لدولة يتباين أفرادها في الانتماء القبلي والعرقي والعقائدي ، أحلت في المحل الاول من اهتمامها وركزت تركيزا شديدا على فكرة الولاء للدولة ، بقطع النظر عن الاصول العرقية والعقائدية للافراد والمجموعات التي تعيش في كنفها ، وان رئيس الدولة هو المرجع الاعلى والحكم الذي لا يخالف في كل ما يعرض من خلافات أو أمور بين افرادها في الداخل ، وبينها وبين القوى التي تناصبها العداء في الخارج . كماتوضح الوثيقةفيماتوضح أن مسؤولية المواطنةمسؤولية لاتتجزأ ، وان الولاءللدولة أولاوقبل كل شيء ،وبقطع النظرعن المعتقد الديني . ومن هنا فا ن المدينة اذا ما تعرضت لخطر خارجي فان مسؤولية الدفاع عنها لا تقع على عاتق العنصر العربي ، مسلمهم وغير مسلمهم ، ولا على عاتق المسلمين منهم ، انصارا كانوا أم مهاجرين ، فحسب ، بل تقع أيضا على عاتق سكانها اليهود ، غير العرب وغير المسلمين(٥) .

وهكذا فقد كان أول دستور مكتوب لدولة اسلامية يحرص اشد الحرص على :

١ ــ سيادة الدولة على جميع مواطنيها وضمان ولائهم التام لها .

٢ ــ المسؤولية الجماعية لكافة العناصر السكانية للدولة عن امن الدولة في الداخل والخارج بقطع النظر عن أصولها العرقية أو معتقدها .

٣ ــ سلطة رئيس الدولة التي لا تنازع ، واعتباره صاحب الحق الوحيد في القرار .

واذا كان المقصود من كل ما سبق ان نذكر بالخلفيات ومواصفات الاسس التي

قامت عليها الدولة الاسلامية زمن الرسول ، فان الحديث عن مشكلة الحكم بعد وفاته يقتضي منا ان نطوي صفحة السنوات العشر التي كان الرسول فيها رأس هذه الدولة، وان نبدأ مع اليوم الذي سجي فيه صلوات الله ميتا في بيت عائشة ، فطرح السؤال الكبير : من بعد محمد ..؟

لم يكن موت محمد موت انسان عادي ، بل كان موت نبي وزعيم ، وقائد ومشرع. او قل من كان يجمع في شخصه رسالة السماء ومسؤولية الحكم في الارض . واذا كانت رسالة السماء لا تورث ، وانتهت كما أعلن الرسول نفسه في حجة الوداع ، فان مسؤولية الحكم في الارض امر مفروض ، بل لابد منه ، اذا أريد لهذه الرسالة أن تستمر ولتعاليمها ان تكون اطارا وهاديالحياة الناس . واذا أضيف الى هذا ان ما كان بين أيدي الناس من نصوص وأوامر لا تحدد ، بشكل قاطع وصريح ، الطريق الذي يجب ان يسلك لحل هذه المعضلة ، فان الأمر يغدو أشد تعقيدا ويترك المجال واسعا للتأول والرأي والاجتهاد . فما عدا العموميات التي وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف (وامرهم شورى بينهم ... وشاورهم في ألامر ... ان افضلكم عند الله اتقاكم .. الى غير ذلك من عموميات مشابهة) ، لم يكن هناك نص صريح يحسم هذا الامر . ولم تكن العودة الى الماضي والاهتداء بتقاليده ممكنة ، لان القبائل العربية انذاك كانت تعيش مرحلة جديدة من حياتها ، غدت فيها نواة الجماعة الاسلامية ، فلم يكن باستطاعتهم ان يعودوا الى تقاليدهم القبلية واعرافهم الموروثة ليجدوا فيها الجواب على ما هم فيه من أزمة اختيار الخلف للقائد الراحل ، وليس بين مؤسساتهم القبلية القديمة ، والمؤسسات التي أرساها الاسلام وجعلها دستورا ومثلا في الحياة والعمل ، من قواسم مشتركة يمكن اعتبارها الناظم والمخرج من الحال التي واجهتهم بعد خلو مقعد الرئاسة ممن شغله رسولا نبيا ، وراعي امة في شؤون الدنيا والمعاش . فمحمد ليس بشيخ قبيلة تتبع في انتخاب خافه القواعد التي كانت تتبع في انتخاب خليفة الشيخ القبلي المتوفى . كما أنه خلال الفترة القصيرة التي كان فيها طريح الفراش لم يوضح أو يشر الى الاسلوب أو الطريقة أو الشخص الذي يجب أن توسد اليه الامور بعده . لهذا كله فتح الباب عريضا للاجتهاد والراي ، وانتكأت جراح كانت مكمنة منذ حياته . ونستطيع من خلال دراسة تحليلية معمقة لما دار في اجتماع السقيفة ان نفصح أو نكشف الستر عن التيارات التي كانت تعمل في جسد الجماعة الاسلامية آنذاك ، والتي تشكل البواكير الاولى للتيارات السياسية الدينية التي تكون الاطار العريض لما سمي فيما بعد بالفرق والاحزاب السياسية في الاسلام . على انه لابد لنا، قبل الخوض في موضوع اجتماع السقيفة ، من أن نقف وقفة قصيرة عند موضوع الكتاب الذي قيل ان رسول الله أراد ان يكتبه لامته في مرضه الذي مات فيه ، لنؤكد

الحقيقية التي اشرنا اليها من ان الرسول انتقل الى جوار ربه دون ان يترك اي مؤشر للطريق التي يريد لصحبه ان يتبعوها بعده ، ولنؤكد بالتالي الحقيقة التي كان يؤكد عليها صلوات الله عليه في حياته حيال امور الدنيا ، والتي يلخصها قوله الذي كان يردده على الدوام وكلما عرض له امر من أمور الدنيا « أنتم اعلم بأمور دنياكم » .

يذكر ابن سعد نقلا عن ابن عباس الخبر التالي « اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخميس ... واشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه ، فقال : ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ابدا ، قال : فقال بعض من كان عنده ، ان نبي الله ليهجر! قال فقيل له : الا نأتيك بما طلبت ؟ قال : أو بعد ماذا ؟ قال : فلم يدع به » . والى جانب هذه الصيغة للخبر هناك عند ابن سعد صيغ اخرى له معزوة لابن عباس نفسه جاء في احدها قوله بعد سرده لخبر مرض الرسول يوم الخميس وطلبه للدواة والصحيفة : « فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع ، فقالوا ما شانه ، اهجر ؟ استفهموه ! فذهبوا يعيدون عليه ، فقال : دعوني فالذي انا فيه خير مما تدعونني اليه ، واوصى بثلاث ، قال اخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، واجيزوا الوفد بنحو مما كنت اجيزهم ، وسكت عن الثالثة ، فلا ادري قالها فنسيتها، ام سكت عنها عمداً » وهذه الصيغة الثانية للخبر المنقولة عن ابن عباس ايضا ، فيها ذكر لوصية اوصاها الرسول تتألف من ثلاثة بنود : بندان لا علاقة لهما بموضوع مستقبل الامة من بعده ، وبند لم يذكره اما عمداً أو لانه نسيه . ولا نظن ان بندابمثل هذه الاهمية ينسى ، ويبقى في الذاكرة البندان الاولان اللذان لايدانيانه في الاهمية .
وحول الموضوع نفسه يذكر ابن سعد روايات عدة ، عن ابن عباس وغيره ، تجمع كلها علي ان عمر بن الخطاب كان بين الحضور ، وان عمر هو الذي حال بين الرسول وبين أن يكتب الكتاب الموعود ، وذلك بحجة ان الرسول الكريم قد غلبه الوجع ، وان القرآن الكريم هو دليل الناس الذي لن يضلوا بعده . وفي هذه الروايات ما يجعل الباحث يتساءل عن مدى ما فيها من صدق ، وعن مصلحة عمر في ان يمنع الرسول من ان يدل الناس على الطريق التي عليهم ان يسلكوها بعده ، هذا الى جانب ما فيها من اختلاف في التفاصيل وأسماء الرواة الذين نقلت عنهم ، والاسباب التي دعت الرسول الى العدول عما عزم عليه ، وكلها امور تجعل الباحث حائراً غير قادر على الجزم بصدقها أو زيفها ، ولا سيما اذا تذكرنا ما تؤكده المصادر عن اخبار الصدمة التي أصيب بها عمر حين سمع بخبر وفاة الرسول ورفضه ان يصدق ذلك ، وما في هذا الموقف من تناقض مع ما يرد في هذه الروايات من ان عمر تذرع في منع الناس من تمكين الرسول من كتابة الكتاب الذي اعتزم ان يكتبه ، بان الرسول يعاني سكرات الموت وانه « ليهجر » . ومن يتذرع بان الرسول « يهجر » يدرك انه لن يمتد به العمر طويلاً ، ولا يفجاه موته حتى يذهل ويفقد وعيه .

لهذا كله فنحن أميل الى الاعتقاد بأن هذا الخبر يفتقر الى الدقة والموضوعية ، وفيه من التناقض مع المسار الذي اتخذته الاحداث فيما بعد مايجعلنا أقرب الى رفضه.



بعد هذه الملاحظة المعترضة التي قدمناها حول موضوع الكتاب المزعوم ، والتي اردنا من خلالها تأكيد الحقيقة التي أشرنا اليها اكثر من مرة من ان الجماعة المسلمة في المدينة التي لم يفاجئها موت الرسول ، كما يزعم البعض ، كان فيها من يخطط ويدبر لمثل هذه الساعة ، اذ ما كاد خبر وفاة الرسول يتسرب الى الناس حتى هرع زعماء جماعة الانصار وبخاصة الخزرج منهم ، الى زعيم هذه القبيلة ، سعد بن عبادة ، ليختاروا من بينهم من يخلف الرسول في قيادة الامة ، ويعرف هذا الاجتماع في جميع المصادر التاريخية باسم «خبر سقيفة بني ساعدة» أو «حديث السقيفة» أو ماشابه . ويبدو ان اخذ الانصار ، ولاسيما الخروج ، لزمام المبادرة في هذا الموضوع نابع من خشيتهم الا يكون لهم في الفترة الجديدة ما كان لهم من مكانة زمن الرسول ، وان يحرموا من الدور الهام الذي كانوا يمارسونه في الحياة العامة للدولة من قبل . وطبيعي الا يظل اجتماع كهذا سرا . وان تتناهى اخباره الى باقي سكان المدينة من أوس ومهاجرين وغيرهم . وكان من خبر هذا الاجتماع ، على ما يذكره الطبري نقلا عن الزهري عن ابن عباس ، انه حين توفى الله نبيه تخلف علي بن ابي طالب والزبير وغيرهما في بيت فاطمة ، ولم يحضر الى بيت فاطمة أي من الانصار ، وجاء رجل يسعى فقال « هاتيك الانصار اجتمعت في ظلة بني ساعدة يبايعون رجلا منهم »(٩) . وهرع عمر بن الخطاب بعد ان اتاه الخبر الى منزل النبي حيث كان ابو بكر وطلب منه الخروج اليه ، واعلمه ان الانصار اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون تولية الامر لسعد بن عبادة ، وان بعضهم يقول : منا امير ومن قريش أمير(١٠) . ومضى ابو بكر مع عمر الى حيث يجتمع الانصار ، وفي الطريق لقيا ابا عبيدة بن الجراح ، فتماشوا اليهم ثلاثة ودخلوا مكان الاجتماع ، ووجدوا القوم قد قر رأيهم على تولية سعد خليفة لرسول الله . ويستطيع الباحث من مجموع الروايات التي يجدها عند الطبري(١١) حول موضوع النقاش الذي جرى بين ممثلي المهاجرين وبين الانصار في هذا الاجتماع ان يصل الى الصورة التالية :

١ ــ لا يعقل أن يكون اسراع الانصار (والخزرج بصورة خاصة) الى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة فور وفاة الرسول حادثا عفويا ، ولا بد انهم كانوا يخططون لاستلام الامر بعد الرسول منذ ان اشتكى من المرض الذي توفي فيه ، أو قبيل ذلك ، بدليل انهم بمجرد وصول الخبر بوفاته سارعوا لعقد اجتماع السقيفة وترشيح

سعد بن عبادة لزعامة الجماعة المسلمة رغم ما كان يشكوه هذا الاخير من مرض لا يساعده على الحديث بصوت مرتفع(١٢) ، الامر الذي جعله يتكلم بصوت منخفض ويقوم ابنه او بعض بني عمه بنقل كلامه الى الحضور . وتدبير أمر اجتماع كهذا والاتفاق على مرشح لا يمكن أن يتم في فترة قصيرة ، كالفترة التي مرت بين اعلان وفاة الرسول ووصول الخبر الى عمر ، وابلاغه ذلك الى ابي بكر الذي كان في بيت الرسول يساعد في جهازه واعداده للدفن(١٣) . وكل ذلك يعود بنا الى ذكريات سابقة بدات تظهر فيها بوادر تكتل انصاري منذ حياة الرسول ، ونقصد بذلك ماجرى بعد فتح مكة وغزوة حنين وايثار الرسول الكريم بعض حديثي العهد بالاسلام من قريش (المؤلفة قلوبهم) وغيرها بهدايا اضافية(١٤) ، جعلت الانصار يشكون في امكان انصراف الرسول عنهم والتحول الى مكة بعد أن فتحها الله عليه . وكان سعد ابن عبادة على رأس هذه الجماعة الانصارية التي أخذت على الرسول ايثاره قومه . ويذكر الطبري هذا الحادث في جملة ما يذكر من اخبار غزوة حنين ويقول : « لما اعطى رسول الله ما أعطى من تلك المطايا في قريش وقبائل العرب ، ولم يكن في الانصار منها شيء ، وجد هذا الحي من الانصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة (أي الكلام السيء) ، حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه ! . فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، ان هذا الحي من الانصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمت في قومك واعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحي من الانصار شيء ، قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ! قال : يا رسول الله ما أنا الا من قومي »(١٥) ، وطلب الرسول من سعد ان يجمع له قومه من الانصار وتحدث الرسول اليهم واوضح لهم الدافع الذي حدا به لايثار بعض المسلمين الجدد بهدايا اضافية ، وأعلن لهم تمسكه بهم وبصحبتهم وانه سيسير واياهم في دربواحد ، فاطمأنت نفوسهم وهدأت خواطرهم. والجدير بالملاحظة في هذا الصدد ان سعدا كان يقود الجماعة الانصارية المعارضة ، وانه يصرح بعصبيته لقومه من الانصار (لا للجماعة الاسلامية ككل) فيقول : « ما أنا الا من قومي » . وفي كل ذلك ما يمكن ان يؤخذ كدليل على بوادر قيام تكتل أنصاري منذ حياة الرسول الكريم ، لاسيما بعد ان تغلب الاسلام على الصعاب والاخطار التي كانت تهدد وجوده ، وغدا قوة لا يخشى معها عليه من تصدع خطيرفي الصفالداخلي.

٢ ـ أدرك المجتمعون من الانصار ان تحركهم غير مضمون النتائج ، وان نقاشا جرى بينهم قبل وصول ممثلي المهاجرين ، يلخصه لنا الطبري على النحو التالي :

« ثم انهم (أي الانصار المجتمعون في السقيفة) ترادّوا الكلام بينهم . فقالوا فان أبت مهاجرة قريش فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الاولون ، ونحن

عشيرته واولياؤه فعلام تنازعوننا هذا الامر بعده .. ؟ فقالت طائفة منهم : فانا نقول اذن : منا أمير ومنكم امير ، ولن نرضى بدون هذا ابدا . فقال سعد بن عبادة حين سمعها : هذا أول الوهن » (١٦) .

كما جاء في موضع اخر على لسان الرجل الذي جاء يخبر عمر باجتماع السقيفة قوله : « هاتيك الانصار قد اجتمعوا في ظلة بنى ساعدة ، يبايعون رجلا منهم ، يقولون منا امير ومن قريش امير »(١٧) .

ويبدو ان اتجاها قويا ظهر بين المجتمعين من الانصار حول فكرة اقتسام السلطة مع المهاجرين ، وان يقوم نظام تكون فيه السلطة ثنائية تمثل فيها الفئتان ، دون ان يكون عند المجتمعين صورة واضحة للتطبيق العملي لهذا النوع من النظام ، الذي لو أن المجتمعين اخذوا به لكان البداية المبكرة لانقسام الجماعة الاسلامية ، وقد رفض الوفد المهاجر هذا العرض بحزم وقال عمر « هيهات ، لايجمع اثنان في قرن »(١٨)

٣ — لم يكن الصف الانصاري موحدا في محاولته الاستيلاء على السلطة في الجماعة الاسلامية . ويبدو هذا التشتت في صف الانصار من الموقف الذي اتخذه بشير بن سعد والد النعمان بن بشير الانصاري ، الذي رفض أن يوافق على موقف جماعته وكانت وجهة نظره التي شرحها في اجتماع السقيفة وبحضور ابي بكر وصحبه تتلخص بقوله « الا ان محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه احق به واولى ، وايم الله لا يراني الله انازعهم هذا الامر ابدا ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » (١٩) . ولم يكتف بهذا القول : بل أتبعه بالعمل وقام وسبق ابا عبيدة وعمر في مبايعة أبي بكر . وبشير بن سعد من الخزرج(٢٠) ، أي من قبيلة سعد بن عبادة نفسها ، وكان من الذين شهدوا العقبة مع السبعين من الانصار ، وشهد بدرا وأحد والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ، كما كان على رأس سرية بعثها رسول الله الى بني مرة بفدك في شعبان سنة سبع ، وقاتل مع خالد بن الوليد في عين التمر واستشهد في ساحة المعركة زمن خلافة ابي بكر . فهو اذن من كبار رجالات الانصار ، ومن ذوي الجهاد والمكانة في قومه ، ومن القلة التى كانت تكتب بالعربية في الجاهلية ، وكل هذا يضفي على رأيه أهمية واعتبارا بين المجتمعين . والى جانب هذا التصدع في الصف الخزرجي ، لا بد من الاشارة الى موقف الاوس ، اذ يذكر الطبري انه « لما رات الاوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو اليه قريش ، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض ، وفيهم أسيد بن حضير ، وكان أحد النقباء : **والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا ابدا** ، فقوموا فبايعوا ابابكر . فقاموا اليه فبايعوه .

فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من امرهم »(٢١) . وفي موقف الاوس هذا شيء كثير من ذكريات الماضي الذي سبق هجرة الرسول الى يثرب ، حين كانت الحروب والايام لا تنقطع بين اوس وخزرج ، والذي وضعت له هذه الهجرة وما تبعها من اسلامهم خاتمة سعيدة محت ما نشأ بينهم من احن ودماء ، ولكن الى حين . وهذا يجعلنا نقول انه كان هناك شعور عند الانصار يدعوهم الى التكتل في وجه المهاجرين ، ولكن هذا الشعور لم يصل الى حد صهر الجماعة الانصارية - بفرعيها ، في بوتقة واحدة تمتحي فيها جميع رواسب الماضي . كما أنه لم يأخذ شكلا منظما له أساليبه وطرائقه في العمل والتخطيط ، لمواجهة ما قد يطرحه المهاجرون من مطالب في الحكم ، لذا انهار هذا التكتل بسرعة ولم يستطع ان يحقق اهدافه واهمها تسلم السلطة .

٤ ـ كان الاسلوب الذي اتبعه الجانب المهاجر في حسم المشكلة يعتمد أولا على حجة يصعب دحضها ، وتتلخص كما وضعها عمر بن الخطاب « والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع ان تولي امرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من ابى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ، ونحن اولياؤه وعشيرته ، الا مدل بباطل أو متجانف لاثم ، ومتورط في هلكة »(٢٢) . وفي هذه الحجة ما يشير الى ان الامر لا يقتصر على من بالمدينة من العرب ، بل لابد من النظر بعين الاعتبار الى ماسيكون عليه موقف باقي المسلمين من غير عرب المدينة الذين يفضلون قريشا عشيرة الرسول على سواها .وكان هذا الاسلوب يعتمد ثانيا على ان المهاجرين لن ينفردوا بالامر وانهم لن ينسوا للانصار فضلهم وجهادهم ، وان الامور لن تقضي بدونهم . وقد تولى هذا الجانب من الحديث أبو بكر بوقاره وجلال قدره ، فقال في اجتماع السقيفة « فليس بعد المهاجرين الاولين عندنا أحد بمنزلتكم ، فنحن الامراء وانتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ولا نقضي دونكم الامور »(٢٣) . ورغم ان كلمة وزير لم تكن لتعني منصبا اداريا محددا ، كما ستكون الحال في العصر العباسي ، الا انها كانت تعني المركز الاستشاري الذي لا تقضي الامور بمعزل عن صاحبه . وقد تعارف المؤرخون على تسمية عمر بوزير أبي بكر ، وعلي بوزير عمر ... وهكذا . وفي هذا الوعد تهدئة للخواطر واعتراف بالفضل وتأكيد على أن الامور لن تقضي بمعزل عن الانصار وسار النقاش على هذه الشاكلة في جو عاصف ، فيه الحاح من الجانب الانصاري على ابراز حقهم ، وفيه محاولة من جانب المهاجرين على التأكيد ان الامر لن يستقيم الا لقريش ، لما لها من فضل وسابقة من جهة ، ولكونها عشيرة الرسول من جهة أخرى ، ولما كان لها من مكانة بين العرب قبل الاسلام(٢٤) .

ولم تسو المشكلة بسهولة ، فقد بلغ الغضب بالحباب بن المنذر خطيب الخزرج حداً جعله يقول لصحبه من الانصار المجتمعين في السقيفة : « لا تسمعوا مقالة هذا (يعني عمر بن الخطاب) واصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر . فان ابوا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد »(٢٥) . ولما طلب من سعد بن عبادة ان يبايع بعد ان بايع الناس وبايع قومه ، اجاب : « أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبلي ، واخضب سنان رمحي ، واضربكم بسيفي ما ملكته يدي ، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي . ولا أفعل . وأيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم حتى اعرض على ربي ، واعلم ما حسابي »(٢٦) وظل سعد مصرا على هذا الموقف ، وخرج ولم يبايع فسار الى الشام فقتل هناك سنة خمس عشرة(٢٧) . وحسم عمر بن الخطاب النقاش في السقيفة بان تقدم هو وابو عبيدة من ابي بكر وقالا له : « انك افضل المهاجرين وثاني اثنين اذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا الذي ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الامر عليك ، ابسط يدك نبايعك »(٢٨) وسبقهما اليه بشير بن سعد الانصاري فبايعه ، وقام اليه مبايعا من كان حاضرا من الاوس وأقبل الناس من كل جانب يبايعون ابا بكر ، وكادوا يطئون سعد بن عبادة المريض . وكان راي عمر ان يجبر سعدا على البيعة ، ولكن بشير بن سعد نصحهم ان يتركوه ، وقال « انه ليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته . فاتركوه فليس تركه بضاركم ، انما هو رجل واحد »(٢٩) . فقبلوا مشورة بشير بن سعد وتركوه . ويبدو ان سعدا استمر في عناده فكان لا يصلي بصلاتهم ، ولا يجمع معهم ، ويحج ولا يفيض معهم بافاضتهم ، فلم يزل كذلك حتى هلك ابو بكر رحمه الله »(٣٠) .

٥ ـ اذا أضفنا الى كل ذلك ان أمر خلافة الرسول قد شغل الجماعة الاسلامية ثلاثة أيام بلياليها ، كان الرسول فيها مسجى على فراشه ينتظر الدفن وحر المدينة اللاهب في شهر حزيران(٣١) يؤذي جسده الطاهر وبنوه معاله ، وهم غافلون عن كل ذلك يتخاصمون ويتصايحون ويطرحون الحل والحل البديل حتى آل الامر الى ابي بكر بعد مخاض عسير ، لوجدنا ان الامر كان من الخطورة بالنسبة لهم بحيث استحق تأجيل كل شيء للبت فيه ، وان التيارات المتصارعة كانت من العنف والشدة بحيث لم يحسم النقاش الا بعد جهد طويل لم يخل من عصبية بالغة ،وتعنت وصل الى حد اعتزال الجماعة كما فعل سعد بن عبادة .

ان هذا الذي جرى في سقيفة بني ساعدة يفصح بشكل لا يقبل الجدل عن وجود تيارين اساسيين كانا يشكلان بذرة الفرقة التي تمت فيما بعد داخل الجماعة الاسلامية . وهذان التياران هما : آ ـ التيار الانصاري ، ب ـ وتيار المهاجرين :

واذا اخذنا بعين لاعتبار ان سعد بن عبادة من الخزرج ، وان النصر يوم بعاث (قبل الاسلام) كان للاوس ، وان ذكريات هذا النصر وما حلم به الاوس من سيادة على يثرب قبل قدوم محمد اليها ، لوجدنا ان هذه الذكريات كانت من اهم العوامل التي حددت المواقف الانصارية المتصارعة والمنقسمة التي ظهرت في اجتماع السقيفة .

وما قلناه عن التصدع في الصف الانصاري في هذه الفترة يصح ايضا على صف المهاجرين ، الذي بدا متماسكا في السقيفة من خلال طرحه مبدأ قرشية الخلافة . ولكنه ما لبث بعد ان آل الامر الى واحد من رجالاته ان ظهر فيه اكثر من تيار ، ولاسيما التيار الذي يحبذ ان يكون الامر في آل البيت (وهم قرشيون أيضا) والتيار الآخر الذي يراه في عامة الصحابة الاول من القرشيين كما تمثل في شورى عمر .

وهكذا ظهر هذان التياران بوضوح وجلاء منذ اللحظات الاولى لبروز مشكلة الحكم . على ان الامر لم يقتصر على ذلك . اذ ما كاد ابو بكر يبايع « البيعة العامة » بعد « البيعة الخاصة » حتى ظهرت على السطح تيارات اخرى كانت بذورها تطل براسها منذ حياة الرسول ، واهمها التيار البدوي الذي كان يمثل قبائل الجزيرة خارج الحجاز ، والذي انفجر يهدر كالسيل العارم بعد وفاته ، ومنذ الايام الاولى لتولي ابي بكر مقاليد الامور . ومعروف انه في العامين التاسع والعاشر للهجرة وحين كانت وفود الجزيرة العربية تقدم على الرسول مبايعة ومعلنة اسلامها ، كان بينها من لا يقنعه الاستسلام لسلطان قريش متمثلا في شخص محمد . ولعل فيما تذكره المصادر عن النقاش الذي دار بين مسيلمة بن حبيب الحنفي ، أو مسيلمة بن ثمامة ، الذي عرف فيما بعد باسم مسيلمة الكذاب ، الذي جاء في وفد حنيفة(٣٣) ، ومحاولتـه مقاسمة محمد الامر وارتداده عن الاسلام بعد عودته من المدينة وقبل وفاة الرسول ، ما يفصح عن وجود بذور هذا الاتجاه البدوي ، الذي لا يقبل سلطانا غير سلطان سيد القبيلة ، ولا يعترف بشريعة سوى اعرافه وتقاليده ، ولو كانت الشريعة شريعة منزلة من السماء . وقد توضح هذا التيار البدوي ، كما أسلفنا ، بعد وفاة الرسول ، فكانت حركة الردة التي اعتبرها العديد من المؤرخين المحدثين ، خطأ ، ردة دينية ، بمعنى انها كانت ثورة على الدين الاسلامي الذي فرضه محمد عليهم بقوة السيف . ويقولون ان العرب بعد وفاة الرسول مالبثت ان ارتدت حتى لم يبق أحد متمسـك بدينه ، الا قريشا بمكة وثقيفا بالطائف ، واخرين قليلين جدا(٣٤) .

ويقسم هؤلاء المؤرخون المرتدين الى قسمين :

١ ـ التاركون الدين نهائيا القاطعون لكل صلة لهم به ، وهم بنو طيء واسد ومن اتبعهم من غطفان ، الذين اتبعوا طلحة بن خويلد الاسدي ، وبنو حنيفة الذين اتبعوا مسيلمة ، واهل اليمن الذين اتبعوا الاسود العنسي .

٢ ـ الذين اكتفوا فقط برفض دفع الزكاة ، ومن هؤلاء قسم من بني تميم ويراسهم مالك بن نويرة ، وبنو هوازن وغيرهم .

هذا التقسيم وما يفترضه من وجود فئة من المرتدين اكتفت فقط بعدم دفع الزكاة يمكن ان يؤخذ كدليل على أن الردة لم تكن ردة دينية ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، بل كانت في الاعم الاغلب ردة سياسية تهدف الى الثورة على قرشية الخلافة ، وفكرة السلطة المركزية في الحكم ، وما جرت هذه المركزية من اعباء وواجبات على القبائل ، كدفع الزكاة مثلا ، لم تكن قد اعتادت عليها من قبل . والردة أيضا مظهر من مظاهر استقلالية القبيلة وعدم قبولها لفكرة الحكم من الخارج ، ولو كان الحاكم قبيلة صديقة أو شخصا من قبيلة صديقة . لقد كان خضوعهم في الماضي لشخص الرسول الذي يتمتع بصفات لا تتوافر في شخص غيره ، فهو مبعوث الله جاء ليصدع بأمره . أما ابو بكر فلا تتوافر فيه هذه الصفات ، ولذلك فليس لاحد غير الرسول ان يطالبهم بتلك الطاعة . وتتمثل هذه الفكرة في الثورة على الحكم من خارج القبيلة او فكرة الدولة ، في قول الشاعر الخطيل بن اوس اخي الحطيئة .

اطعنا رسول الله ما كان بيننا ... فيا لعباد الله ما لابي بكر
أيورثها بكرا اذا مات بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر(٣٥)

فالردة اذن حركة سياسية موجهة ضد الخضوع للسلطة المركزية في المدينة ، وفي حديث بين عمر بن الخطاب وابي بكر الصديق يقول : « يا ابا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فمن قال لا اله الا الله فقد عصم مني ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله » قال أبو بكر : « والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقتلتهم على منعها » . ويوضح هذا الحوار ان عمر بن الخطاب نفسه لم يكن يرى في رفض القبائل دفع الزكاة ردة دينية بل حركة سياسية . كما ان فيه اعترافا صريحا من عمر بان المرتدين كانوا مقيمين على اسلامهم وان حركتهم كانت ذات اهداف سياسية . وهنا لا بد لنا ان نلاحظ ان الزكاة أيام الرسول كانت تجمع من كافة الاطراف المسلمة وترسل الى المدينة حيث يقوم الرسول بتوزيعها على المستحقين من المسلمين من كافة الديار . وقد يكون نقل زكاة القبائل الى المدينة وصرفها على الوجه الذي يراه من يحكم في المدينة بعد الرسول من الاسباب التي دفعت القبائل الى رفض دفع الزكاة الى ابي بكر ، لان القبائل رأت في هذا عبئا ثقيلا عليها لا ترى

له مبررا . ولهذا نرى ان الدولة بعد الردة لجات الى تدبير جديد يتلخص في ان تجمع الزكاة من الاطراف وينفق منها على المستحقين في هذه الاطراف ، ويرسل الفائض بعد هذا الى بيت مال العاصمة . وهذا التدبير ارضى القبائل لامد وهدأ من ثورتهم .

وبعد ان أخمد أبو بكر ثورات المرتدين على النحو المعروف ، وجاء عمر فوجه قبائل الردة للمشاركة في عمليات الفتح ، هدأ التيار البدوي مؤقتا ، ولكنه ما لبث ان عاد ليطل براسه وبحدة كبيرة خلال الصراع الذي عاشته الدولة بعد فتنة عثمان ، بين علي ومعاوية ، وتمثل في شكله الجديد بحركة الخوارج التي رفضت مبدأ قرشية الخلافة ، وجعلتها مشاعا بين من يصلح لها من عامة المسلمين .

واذا كان ما قلناه حتى الان يفصح عن وجود ثلاث تيارات كبرى في الجماعة الاسلامية حين طرحت مشكلة الحكم لاول مرة بعد وفاة الرسول ، فان في هـذه التيارات تكمن مؤشرات لم تكن واضحة آنذاك ؛ ولكنها تنبيء الباحث عن المسار الذي ستتخذه الاحداث فيما بعـد .

فالتيار الذي مثله الانصار في اجتماع السقيفة والحجج التي برروا بها احقيتهم بالخلافة ، هو الاصل والمنطلق الحقيقي لحركة الزهد التي مثلتها فئة القراء ، التي اعتزلت السياسة بعد ان يئست من ان يكون لها فيها نصيب ، واقتنعت بزعامة مدرسة الحديث التي نمت وترعرعت في المدينة ، واوجدت بذلك لنفسها وصايـة دينية اعتبرتها ارفع مقاما من الممارسة السياسية ، ونفست عن حقدها هذا فيمـا بعد كلما اتيح لها ذلك وعبرت عنه بالقول والفعل(٣٦) . كما يمكن ايضا ان نرجـع أصول حركة الارجاء الى هذا التيار ، لانه في الارجاء ، الى جانب ما فيه من جانب عقائدي ، قعود تام عن المشاركة في العمل السياسي .

اما التيار القرشي والذي ضم بين جناحيه عامة الصحابة الاول من قريش ، فقد انقسم الى قسمين اصبحا فيما بعد حزبين سياسيين دينيين هما : الحزب العثماني (نسبة الى عثمان بن عفان ومن بعده بني أمية) وحزب آل البيت الـذي قامت حوله حركة التشيع . أما التيار البدوي فتمخض عن حركة الخوارج كمـا اسلفنا ؛ التي حملت لواء المعارضة للحزبيين القرشيين : العثماني والتشيع لال البيت . وفي هذه البواكير الاولى يجد الباحث أصول الحزبية السياسية في الاسلام .



الحواشي :

(١) gabrieli (F) , Muhammad and theconquests of islam, world university, London, 1968, p. 64

(٢) ابن هشام ، القسم الاول ، ص ٥٨٥ .

(٣) انظر تفاصيل هذه القضية في : ابن هشام ، القسم الاول ، ص ٥٨٤ — ٥٨٦ .

(٤) انظر ابن سعد ، الطبقات ، ط صادر ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

(٥) انظر نص الوثيقة في سيرة ابن هشام ، ط . السقا ، القسم الاول ، ص ٥٠١ وما بعدها وانظر دراسة مفصلة لها في كتابنا : تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ص ٨٦ وما بعدها .

(٦) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ط ، صادر ، بيروت ١٩٥٧ ، ج٢ ، ص ٢٤٢ .

(٧) ابن سعد ، ج٢ ، ص ٢٤٢ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ — ٢٤٥ .

(٩) الطبري ، ط أبو الفضل ابراهيم ، ج٣ ، ص٢٠٣ .

(١٠) الطبري ، ج٣ ، ص ٢١٩ .

(١١) انظر هذه الروايات واخبار النقاش والمناوشات وملابسات الاحداث التي انتهت ببيعة ابي بكر في : الطبري ، ج٣ ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ — ٢١١ ، ٢١٨ — ٢٢٣ .

(١٢) الطبري ، ج٣ ، ص ٢١٨ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ٢١٩ .

(١٤) انظر جدول الهدايا الاضافية التي قدمها الرسول لفئة « المؤلفة قلوبهم » في كتابنا : تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ص ١٥٧ .

(١٥) الطبري ، ج٣ ، ص ٩٣ .

(١٦) الطبري ، ج٣ ، ص ٢١٨ — ٢١٩ .

(١٧) الطبري ، ج٣ ص ٢٠٣ ، وانظر ايضا ص ٢٠٦ ، ٢١٩ .

(١٨) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٠ .

(١٩) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٢١ .

(٢٠) انظر ترجمته في : ابن سعد ، ج٣ ، ص ٥٣١ وما بعدها .

(٢١) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ، وجاء عند المسعودي : « تخلى الاوس عن معاضدة سعد خوفا ان يفوز بها الخزرج » .

(٢٢) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٠ .

(٢٣) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٠ .

(٢٤) جاء (الحديث الذي ادلى به ابو بكر في اجتماع السقيفة قوله : « وان العرب لاتعرف هذا الامر الا لهذا الحي من قريش ، وهم اوسط العرب دارا ونسبا » . (الطبري ، ج٣ ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦)وكلمة « أوسط » تعني أشرف ، وكلمة « دارا » تعني بلدا اي مكة .

(٢٥) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٠ .

(٢٦) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٢ .

(٢٧) المسعودي ، مروج الذهب ، ط. محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ ، ج٢ ، ص ٣٠٧ .

(٢٨) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢١ .

(٢٩) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٢ .

(٣٠) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٢٣ .

(٣١) اثبتت الدراسات التاريخية والحسابات الفلكية الدقيقة ان الرسول توفي الاثنين في ١٢ ربيع الاول سنة ١١ هـ وذلك يوافق الثامن من شهر حزيران سنة ٦٣٢ م .

(٣٢) في ترجمة عبد المجيد بن عبد العزيز بن ابي رواد في « الكامل » لابن عدي نقرا ما يلي :

« والحديث في ذلك ما حدثنا قتيبة ، حدثنا وكيع عن اسماعيل بن ابي خالد عن عبد الله البهي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما مات لم يدفن حتى ربا بطنه وانثنت خنصراه . قال قتيبة : حدثنا بهذا الحديث وكيع وهو بمكة وكان حج فيها الرشيد فقدموه اليه فدعا الرشيد سفيان بن عيينة وعبد المجيد بن عبد العزيز بن ابي رواد ، فأما عبد المجيد فقال : يجب ان يقتل هذا ، فانه لم يرو هذا الا وفي قلبه غشش للنبي صلى الله عليه وسلم .

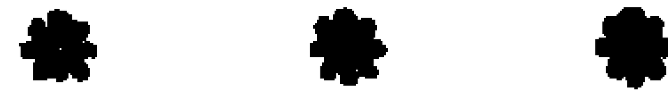
فسال الرشيد سفيان بن عيينة فقال :لايجب عليه القتل ، رجل سمع حديثا فرواه لا يجب عليه القتل . انّ المدينة ارض شديدة الحر ، توفي النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، فترك الى ليلة الاربعاء لان القوم كانوا في صلاح امر امة محمد ، واختلفت قريش والانصار ، فمن ذلك تغير ».

(٣٣) من اجل اخبار الوفود عامة وما جرى لها مع الرسول ، وخبر وفد مسلمة ، انظر : ابن هشام ، قسم ٢ ، ص ٥٦٠ وما بعدها ، والطبري ج٣ ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٣٤) الطبري ، ج٣ ، ص ٢٤٢ .

(٣٥) انظر الطبري ، ج٣ ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ، وانظر ايضا : الاغاني ، ط دار الكتب ، ج٢ ، ص ١٥٧ ، حيث ينسب هذا الشعر الى الحطيئة .

(٣٦) « ... عن أبي معشر قال : ولما تولى يزيد بن عبد الملك (الخلافة) نزع أبا بكر بن محمد بن عمرو الانصاري عن المدينة ، وولاها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري . فدخل عليه (اي على الخليفة يزيد بن عبد الملك) ابو بكر بن محمد، فلم يعرف (يزيد) حقه ، قال : ابو بكر : هذا شيء لا يملكه قريش للانصار ، وجلس في منزله » انظر : الازدى ، تاريخ الموصل ، ط. القاهرة ١٩٦٧، ص ٥ ـ ٦ .



الصراع العربي البيزنطي للسيطرة على البحر المتوسط في القرن الثامن للميلاد

د . نعيم فرح

جامعة دمشق

البحر الابيض المتوسط (Méditerranée) في اللغة اللاتينية لفظ مركب (Medius - terra) ويعني البحر الذي يتوسط اليابس . واليابس المقصود هو قارات العالم القديم الثلاث : أوروبا وآسيا وافريقيا .

حظي البحر المتوسط باهتمام الدول القديمة والمعاصرة لما له من أهمية استراتيجية ، اقتصادية وسياسية وعسكرية ، وظل على مر العصور منطقة صراع بين الدول التي قامت الى جواره أو وطئت اقدامها سواحله . فالسوريون الكنعانيون (الفينيقيون) بسطوا سيطرتهم التجارية على معظم اطرافه في الالف الثانية قبل الميلاد ، ثم نافستهم في السيطرة شعوب البحر . كذلك تصارع الحثيون والمصريون القدماء للسيطرة على بعض شواطئه . وفي النصف الاول من الالف الاولى قبل الميلاد سعى الاشوريون ثم البابليون الكلدانيون الى بسط نفوذهم على شواطىء المتوسط الشرقية والجنوبية ، فنافسهم في ذلك المصريون . وفي النصف الثاني من الالف الاولى قبل الميلاد تصارع الفرس الاخمينيون واليونانيون من أجل السيطرة على الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، في حين تصارعت روما وقرطاجة من أجل السيطرة على حوضه الغربي . وبعد أن بسط الاسكندر المكيدوني سلطته على حوض المتوسط الشرقي صار هذا الحوض موضوع صراع بين خلفاء الاسكندر ، البطالمة والسلوقيين .

وفي القرن الاول قبل الميلاد تمكنت روما أن تفرض سلطتها السياسية على جميع شواطىء البحر الابيض المتوسط ، فصار هذا البحر بحيرة رومانية داخلية ، وظل هكذا حتى القرن الخامس الميلادي ، حين تمكن بعض البرابرة أن يسيطروا

على قسم من شواطىء حوضه الغربي ، حيث احتل الوندال شمال افريقيا والقوط الغربيون اسبانيا والقوط الشرقيون ايطاليا . لكن الامبراطور الروماني (البيزنطي) جستنيانوس الاول سعى جاهدا الى اعادته بحيرة رومانية كما كان ، فتحقق له ذلك في القرن السادس الميلادي ، باستعادة شمال افريقيا من الوندال وايطاليا من القوط الشرقيين وشرق اسبانيا وجنوبها من القوط الغربيين .

ومنذ القرن الثالث الميلادي حتى القرن السابع دار صراع مستمر بين البيزنطيين والفرس الساسانيين ، كانت أهم اسبابه رغبة الفرس في الوصول الى البحر المتوسط لايجاد منفذ تجاري لهم على العالم المحيط بهذا البحر .

وظل البحر المتوسط بحيرة رومانية (بيزنطية) حتى وطئت سواحله جحافل العرب المسلمين . وسنتناول في هذا البحث الصراع العربي البيزنطي للسيطرة عليه في القرن الثامن للميلاد .

بمقتل الامبراطور جستنيانوس الثاني سنة ٧١١ انتهى حكم الاسرة الهرقلية ، التي حكمت في بيزنطة طيلة القرن السابع . في هذا القرن خسرت بيزنطة معظم ولاياتها الشرقية (سورية ، مصر ، شمال افريقيا) على أيدي الفاتحين العرب المسلمين . وفي الفترة الممتدة بين سنتي ٧١١ ــ ٧١٧ ــ اي الفترة الفاصلة بين نهاية حكم الاسرة الهرقلية وبداية حكم الاسرة الايسورية ــ حكم في بيزنطة اباطرة ثلاثة هم : فيليبيكوس (٧١١ ــ ٧١٣) ، أنستاسيوس الثاني (٧١٣ ــ ٧١٥) ، تيودوسيوس الثالث (٧١٥ ــ ٧١٧) ، وكانوا أباطره ضعفاء غرباء عن الاسرتين المذكورتين توصلوا الى الحكم بمحض الصدفة . في تلك الفترة كان الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ــ ٧١٥) يعد العدة في البر والبحر لاحتلال العاصمة البيزنطية . ففي عهد الوليد بن عبد الملك بلغت الدولة الاموية العربية ذروة قوتها ، حيث ساد الهدوء والاستقرار في الداخل . في حين امتدت جبهات الفتوح الاسلامية من اسبانيا الى حدود الهند والصين . ومع اتساع رقعة الدولة كان لابد من تأمين سلامة الخطوط التجارية البحرية بين الولايات الاسلامية وفرض السيطرة العربية على خطوط البحر الابيض المتوسط . ولفرض السيطرة العربية الكاملة على خطوط حوض البحر الابيض المتوسط وأسواقه كان لابد من القضاء على الدولة البيزنطية ، التي تنافس العرب المسلمين في هذا المجال .

من أجل تحقيق هذه الاهداف الاقتصادية والعسكرية أمر الوليد بن عبد الملك بتوسيع الاستعدادات العسكرية البرية والبحرية بغية احتلال القسطنطينية . فأوراق البردي المصرية التي تعود الى بداية القرن الثامن الميلادي تشير بشكل واضح الى ازدياد نشاط الاستعدادات البحرية وبناء السفن الحربية في الموانـي المصرية (الاسكندرية ، بابلبون ، القلزم على البحر الاحمر)(١)

ونشطت كذلك في سورية الاستعدادات البرية والبحرية للاشتراك في الحملة التي تهيأ للتوجه الى العاصمة البيزنطية . وعلى مايبدو فقد وصلت الى القسطنطينية انباء الاستعدادات العسكرية العربية ، فأرسل الامبراطور البيزنطي انستاسيوس الثاني سنة ٧١٣ سفارة تجسسية الى دمشق لتتعرف سرا على استعدادات العرب ونواياهم المبيتة ضد البيزنطيين . ويذكر المؤرخ البيزنطي تيوفانس أن هذه السفارة عادت من دمشق الى القسطنطينية ، فأخبرت الامبراطور ان العرب يستعدون في البر والبحر للهجوم على العاصمة البيزنطية . وعلى هذا أمر الامبراطور سكان القسطنطينية أن يخزن كل فرد لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات ، أما من كان غير قادر على تدبير مؤونته فعليه أن يخرج من المدينة . كما أمر أيضا بترميم سور المدينة وبنـاء سـفن حربية وزيادة الاسلحة الدفاعية المتنوعة . كذلك رغب انستاسـوس الثاني أن يدمر الاسطول العربي في المواني السورية قبل أن يستكمل عدته ويتحرك نحو القسطنطينية ، ولذا أمر جنود ثغر الابسيق أن يتجمعوا في جزيرة رودوس ، ومن ثم يتوجهون لضرب المواني السورية . ولكن هؤلاء الجنود ما ان وصلوا الى جزيرة رودوس حتى رفعوا راية العصيان وتمردوا علـى أوامـر الامبراطور ، بل انهم عادوا من حيث أتوا ، فعزلوا انستاسيوس الثاني عن العرش البيزنطي ونصبوا مكانه تيودوسيوس الثالث امبراطورا(٢) . وكان حكم الامبراطور الجديد (الملقب بالكاره لانه قبل التاج مرغما) قصير الامد (٧١٥ — ٧١٧) وضعيفا ، حيث وقف ضده الستراتيجوس ليون الايسوري قائد ثغر الاناضول ، الذي تحالف مع الستراتيجوس ارتاباسدوس قائد ثغر أرمينيا وأخذ يسعى لاستلام التـاج الامبراطوري .

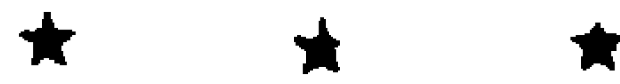
في دمشق مات الوليد بن عبد الملك سنة ٧١٥ ، فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك ، الذي تابع سياسة أخيه في استكمال الاستعدادات العسكرية واعداد الحملة المزمع ارسالها لاحتلال العاصمة البيزنطية . هذا وقد تكاتفت مصر والشام وشمال أفريقيا على تزويد الحملة العربية بما تحتاج اليه من عدة وعتاد . وفي سنة ٧١٦ تحركت القوات العربية من سورية برا وبحرا باتجاه القسطنطينية وعلى رأسها أخو الخليفة مسلمة بن عبد الملك . كان الهدف الرئيسي للحملة هـو احتـلال

القسطنطينية ، ولذا تجنب مسلمة الاصطدام مع القوات البيزنطية أثناء عبوره آسيا الصغرى ، اذ انه أجرى مفاوضات مع ليون الايسوري قائد ثغر الاناضول ، ثم تابع سيره نحو الغرب ، فاحتل مدينة برغام ، ومن ثم عبر بقواته الدردنيل الى تراكيا ليحاصر القسطنطينية من الجهة الاوروبية(٣) . ويتحدث المؤرخ الطبري عن المناوضات التي أجراها مسلمة بن عبد الملك وقائده سليمان بن الوليد مع ليون الايسوري ، الذي كان في مدينة عمورية ، فيفهم من حديثه أن كلا من الطرفين كان يخادع الآخر . فالمسلمون تظاهروا بأنهم سيساعدون ليون الايسوري على ارتقاء العرش البيزنطي . في حين كانوا يقصدون من وراء ذلك أن يتجنبوا مقاومته لهم في آسيا الصغرى وأن يدفعوه للاقتتال مع الامبراطور تيودوسيوس الثالث ، بغية تمزيق القوات البيزنطية والهائها بالصراع فيما بينها . أما ليون الايسوري فكان هو الآخر يناور ويخادع . حيث كان يرغب أيضا بتجنب الاصطدام مع القوات العربية الاسلامية . لانه كان ينوي أن يسبقها الى القسطنطينية لينتزع لنفسه العرش البيزنطي ، ومن ثم ينظم الدفاع عن العاصمة البيزنطية(٤) .

استطاع ليون الايسوري أن يدخل القسطنطينية ، فأعلن أن المدينة معرضة لحصار طويل من قبل جيش المسلمين القوي العدة والعتاد ، كما أن هذا الوضع الخطير يتطلب وجود شخصية حازمة في رأس السلطة لمواجهة الازمة التي توشك أن تحل بالعاصمة . وعلى هذا اجتمع كبار السياسيين في القسطنطينية وقرروا عزل الامبراطور الضعيف تيودوسيوس الثالث ، وتنصيب ليون الايسوري امبراطورا على العرش البيزنطي في ٢٥ آذار سنة ٧١٧(٥) . وامضى ليون الايسوري خمسة أشهر بعد جلوسه على العرش في استكمال الاستعدادات التي بدأها الامبراطور السابق وتنظيم الدفاع عن القسطنطينية ضد الهجوم العربي المرتقب ، كما عقد اتفاقية صداقة مع ترفل خان البلغار ، الذي تعهد بموجبها أن يهاجم القوات العربية التي ستحاصر القسطنطينية .

في ١٥ آب سنة ٧١٧ ضرب الجيش العربي الحصار على القسطنطينية من جهة البر الاوروبي ، في حين احتل الاسطول العربي المكون من ١٨٠٠ سفينة (هذا العدد الذي يحدده تيوفانس مبالغ فيه) مدخل البوسفور الجنوبي وقطع الاتصال بين القسطنطينية وبحر مرمرة . وأراد سليمان قائد الاسطول العربي أن يعبر بسفنه البوسفور ليصل الى البحر الاسود كي يطوق القسطنطينية من الشمال ويقطع الامدادات العسكرية والتموينية التي تأتيها من شواطىء البحر الاسود الشمالية . وفي الثالث من أيلول هبت رياح جنوبية ملائمة لعبور البوسفور، فدخلته مجموعة من السفن العربية ، حيث اتجه بعضها نحو الشواطىء الآسيوية وبعضها الآخر نحو شواطىء

تراكيا الاوروبية ، في حين بقيت بعض السفن الحربيــة تحرس السفن المحملة بالمؤونة والعتاد . وفجأة غيرت الرياح اتجاهها وعصفت من جهة الشمال ، كما تدفق تيار مائي شديد من البحر الاسود الى بحر مرمرة ، فاختل سير السفن العربية واخذت تتراجع مضطربة . انتهز الامبراطور ليون الايسوري هذه الفرصة المناسبة وارسل بعض السفن البيزنطية المحملة بالنار الاغريقية المحرقة ، فاستطاعت هذه السفن ان تلحق أضرارا فادحة بالاسطول العربي وتجبره على التراجع نحو الجنوب . وفي اليوم التالي حاولت قوات الاسطول العربي أن تقتحم أسوار القسطنطينية مــن جهة البحر ، فاقتربت بعض السفن من الاسوار ونصبت عليها السلالم ، ولكن حامية المدينة أخذت ترشق السفن العربية بالنار اليونانية وغيرها من الاسلحة حتى أجبرتها على التراجع . كذلك أمر الامبراطور ليون بربط سلسلة حديدية في مدخل القرن الذهبي لتطوق السفن العربية اذا ما دخلت ذلك الممر المائي . لكن العرب علموا بهذه الخدعة ولم يحاولوا دخول القرن الذهبي ، بل انسحبوا من البوسفور وقــادوا سفنهم لترسو على الشاطىء الاوروبي في خليج سوستنيا(٦) .



بعد فشل الاسطول العربي في العبور الى البحر الاسود واكمال حلقة الحصار البحري للقسطنطينية ، وبعد فشله أيضا في اقتحام أسوار المدينة من جهة البحر . لم يعد أمام القوات العربية الا أن تهاجم العاصمة البيزنطية من جهة البر . لكن المصادر العربية والمصادر اليونانية لم تذكر لنا اية محاولة جدية قام بهــا العــرب لمهاجمة الاسوار من جهة البر . وعلى ما يبدو فان تفوق بيزنطة في الاسلحة والمنشآت الدفاعية لم يترك مجالا للعرب في اقتحام أسوار القسطنطينية . وعلى هذا لم يستطع العرب بأسلحتهم الهجومية البسيطة أن يدكوا تلك الاسوار المنيعة التي يصعب أخذها باسلحة ذلك العصر . بعــد ذلك ظل العرب المسلمون يحاصرون القسطنطينية طيلة فصل الشتاء . رغم أن الطقس كان قارسا غير عادي ، حيث ظــل الجليد يغطي منطقــة تراكيا طيلة مئــة يوم ، مما أدى الى موت عدد كبير من الجمال والخيول والجنود في معسكر المسلمين بسبب الجوع والبرد الشديد(٧) . ويذكر المؤرخ الطبري ان المصائب التي عاناها الجنود العرب أمام جدران القسطنطينية لم يتعرضوا لمثلها من قبل ، حيث انهم اضطروا أن يأكلوا الحيوانات الميتة وقشور الشجر وكل شيء عدا التراب (٨) .

ولكي يعوض مسلمة بن عبد الملك الخسائر التي لحقت بمعسكر العرب المسلمين طلب امدادات عسكرية وتموينية من مصر وشمال افريقيا ، فجاءه من مصر في ربيع

سنة ٧١٨ اسطول (بقيادة أمير بحر يدعى سفيان) مؤلف من أربعمائة سفينـة سريعة محملة بالحبوب ، كما جاءه من شمال افريقيا اسطول آخر (تحت امرة شخص يدعى يزيد) مؤلف من ثلاثمائة وستين سفينة كبيرة محملة بالسلاح والفداء . وقد رست سفن الاسطول المصري على الشاطىء الاوروبي للبوسفور ، في حين رست سفن اسطول شمال افريقيا على الشاطىء الآسيوي للبوسفور . ويذكر تيوفانس أن بعض البحارة الاقباط الذين كانوا في الاسطول العـربي تسللوا ليلا علـى زورق الى القسطنطينية وأخبروا الامبراطور البيزنطي عن الاسطولين الراسيين على شواطىء البوسفور . وقد أرسل الامبراطور مجموعة من السفن الحربية المجهزة بالنـار اليونانية المحرقة ، فتمكنت تلك السفن أن تلحق اضرارا فادحة بقطـع الاسطول العربي وتستولي على بعض السفن المحملة بالعتاد والمؤونة(٩) . بعد أن تلقى الاسطول العربي هذه الضربة القاصمة لم تعد المصادر تذكر شيئا عن محاولة قيامه بأية عملية حربية حتى تاريخ انسحاب القوات العربية من ضواحي القسطنطينية في الخامس عشر من آب سنة ٧١٨ . وهكذا لم يتمكن الاسطول العربي من تحقيق المهمة الحربية الاساسية الملقاة على عاتقه وهي محاصرة القسطنطينية من الجنوب والشمال ومنع وصول الامدادات والمؤونة اليها . فالسفن البيزنطية ظلت تخرج الى المياه المجاورة للعاصمة ، حتى أن صيادي السمك كانوا يصطادون قرب أسوار المدينة والجزر القريبة منهـا دون أن تتعرض لهم سفن الاسطول العربي(١٠) . ويذكر تيوفانس أيضا : أن بعض سكان القسطنطينية كانوا يخرجون منها على الخيول ويأتون بالمؤونة المتنوعة ، وهذا يدل على أن العاصمة البيزنطية ظلت تتلقـى الامدادات العسكرية والتموينية من البر والبحر ، مما ساعدها على الصمود أمام الحصار العربي .

هذا وقد جاءت قوات برية جديدة مـن الشام بقيادة رجـل يدعى مرداس ، فوصلت الى ثغر الابسيق في آسيا الصغرى . وكانت مهمة هذه القوات أن تمنع وصول الامدادات من هذا الثغر الى العاصمة البيزنطية المحاصرة . لكن هذه القوات العربية تعرضت للمقاومة من قبل جنود ثغر الابسيق والسكان المحليين ، الذين كانوا يشنون عليها حرب عصابات « كما يفعل المردة عادة »(١١) .

يضاف الى هذا أن الامبراطور ليون الايسوري استطاع أن يستميل الى جانبه ترفل خان البلغار ، فاخذت القوات البلغارية تغير على مؤخرة الجيش العـربي الاسلامي الذي يحاصر القسطنطينية من الجانب الاوربي . وقد كان هذا التدخل البلغاري احد العوامل التي لعبت دورا في فشل الحصار العربي للعاصمة البيزنطية .

ترتب على كل العوامل المذكورة آنفا أن اضطر الجيش العربي الاسلامي ان يرفع الحصار عن العاصمة البيزنطية ، بعد أن دام سنة كاملة .

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك قد توفي في خريف سنة ٧١٧ ، فخلفه عمر ابن عبد العزيز ، الذي رغب بتوجيه الجهود لتنظيم الدولة أكثر من الاهتمام بمتابعة الفتوح . وعلى هذا كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز الى مسلمة بن عبد الملك يطلب منه أن يرفع الحصار ويعود بجيشه واسطوله الى الشام(١٢) .

وهكذا في ١٥ آب سنة ٧١٨ انسحبت القوات العربية البرية من المواقع المجاورة للقسطنطينية ، فعبرت بحر مرمرة الى الشواطيء الآسيوية ، ثم اجتازت آسيا الصغرى عائدة الى الشام في حالة سيئة . اما السفن المتبقية من الاسطول العربي فقد أبحرت عائدة ، ولكنها تعرضت لعواصف شديدة في بحر مرمرة وبحر أيجة الحقت بها بعض الخسائر . ويتابع المؤرخ البيزنطي حديثه قائلا : « بعد أن اجتازت السفن المتبقية بحر ايجة أصابها غضب الرب ، حيث هبطت عليها كرات نارية ادت الى غليان ماء البحر وذوبان القار (المادة اللاصقة لخشب السفن) ، مما أدى الى غرقها بمن فيها الى قاع البحر . هذا ولم تسلم سوى عشر سفن لتخبرنا وتخبر العرب عن عظمة الرب . ومن تلك السفن أسرت قواتنا خمس سفن ، فبقيت خمس سفن وصلت الى سورية لتخبر العرب عن قدرة الرب »(١٣) . هكذا يبالغ المؤرخ البيزنطي تيوفانس في حجم الخسائر التي مني بها الاسطول العربي ، كما يصور الاحداث بلغة شبه اسطورية . على انه ليس من المستبعد أن تكون السفن البيزنطية السريعة (درومونة) المجهزة بالنار اليونانية المحرقة قد لحقت بالسفن العربية اثناء تراجعها ، فالحقت بها بعض الخسائر ايضا . وهكذا انتهت بالفشل هذه الحملة العسكرية الكبيرة التي شنها العرب المسلمون على العاصمة البيزنطية . وفي الواقع لاول مرة يلاقي العرب المسلمون مثل هذا الفشل في تلك العملية الحربية التي قاموا بها لاحتلال القسطنطينية(١٤) .

ان فشل العرب المسلمين في احتلال القسطنطينية أكد لهم انهم مهما ملكوا من سفن حربية فانهم لايستطيعون احتلال العاصمة البيزنطية دون أن يثبتوا اقدامهم ويوطدوا سيطرتهم في المناطق المجاورة لها ، ولذا لم يحاولوا فيما بعد القيام بمثل هذه العملية . على أن العرب المسلمين ، رغم فشلهم في احتلال القسطنطينية ، استطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على كثير من موانيء البحر الابيض المتوسط وخطوطه، خاصة في حوضه الغربي . ومن جهة ثانية ، رغم أن الاسطول البيزنطي تمكن من الحاق الخسائر بالاسطول العربي في المياه القريبة من القسطنطينية ، لكنه في الواقع لم يستطع حتى ذلك الحين أن يفرض سيطرة بيزنطة على البحر المتوسط أو على الجزر والطرق القريبة من العاصمة البيزنطية . فلو كان الاسطول البيزنطي يسيطر

تماما على مدخل بحر مرمرة أو بحر ايجة او الجزر المجاورة لما تمكن الاسطول العربي أن يصل البوسفور ويحاصر القسطنطينية طيلة عام كامل .



بعد الضربة القاسية التي تلقتها الاساطيل العربية الثلاثة (اسطول سورية ، اسطول مصر ، اسطول شمال افريقيا) أثناء حصار القسطنطينية سنة ٧١٧ – ٧١٨ لم يستطع العرب المسلمون استعادة قوتهم البحرية السابقة طيلة القرن الثامن . ففي سورية ومصر لوحظ تقلص ملموس في صناعة السفن الحربية مدة بضع عشرات من السنين ، كما توقف العرب المسلمون تقريبا عن شن حملات بحرية في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي . أما في شمال افريقيا فقد استمرت صناعة السفن الحربية ، كما كثرت غارات العرب المسلمين من شواطئها على صقلية وسردينية واستمرت حتى منتصف القرن الثامن الميلادي . ومن العوامل التي أدت الى انحسار نشاط الاسطول العربي في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي تخلي الخلفاء الامويين اللاحقين عن فكرة احتلال القسطنطينية ، بعد الفشل الذي لاقاه العرب المسلمون في حملة سنة ٧١٧–٧١٨ . وعلى هذا لم يعد هؤلاء الخلفاء يوجهون اهتمامهم لتطوير القوات البحرية . ومن جهة ثانية انشغل الخلفاء الامويون المتاخرون باخماد حركات التمرد وتثبيت سلطتهم داخل البلاد .

اما البيزنطيون فقد استغلوا ظروف الدولة الاموية المضطربة في أواخر عهدها ، فاخذوا ينشطون عملياتهم الحربية في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي . ويذكر المؤرخ البلاذري أن البيزنطيين أغاروا على ساحل سورية في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة مئة هجرية (٧١٩ ميلادية) ، فهدموا مدينة اللاذقية وأسروا الكثير من أهلها (١٥) . كما يذكر المؤرخ الكندي أن البيزنطيين أغاروا على تينيس في دلتا النيل بمصر سنة احدى ومائة هجرية (٧٢٠ ميلادية)(١٦) ، ثم أعادوا غارتهم على مصر سنة ٧٢٥ ميلادية(١٧) . هذه الغارات البيزنطية المتكررة على سواحل مصر والشام دفعت الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يخفض مقدار الفدية عن أهل قبرص (وكان عبد الملك بن مروان قد زاد عليهم ألف دينار عن صلح معاوية) (١٨) ، ذلك أنه خشي أن ينقلبوا الى جانب البيزنطيين وهو لايملك القوة البحرية الكافية للدفاع عن هذه الجزيرة .

على أن الصراع الداخلي على الحكم في بيزنطة واشتراك الاسطول البيزنطي في هذا الصراع أجبر البيزنطيين على ايقاف الغارات البحرية على السواحل العربية لفترة

وجيزة . ففي سنة ٧٢٦ أغار اسطول الادا وكيكلادا على القسطنطينية ، بغية عزل الامبراطور ليون الايسوري عن العرش البيزنطي وتنصيب قائد الاسطول كوسموس مكانه ، ولكن اسطول القسطنطينية تمكن من تحطيم الاسطول المهاجم(١٩) . استغل الخليفة هشام (٧٢٤ ـ ٧٤٣) الوضع المضطرب في بيزنطة ، فارسل اسطولا من الشام الى قبرص سنة ٧٢٦ وفرض على أهلها دفع الفدية بمقدار ماكانت عليه قبل ان يخفضها عنهم الخليفة السابق عمر بن عبد العزيز(٢٠) .

لكن ازدياد اضطراب الاوضاع الداخلية في الدولة الاموية في الربع الثاني من القرن الثامن أجبر العرب المسلمين في الشام على ايقاف العمليات البحرية ، في حين جدد البيزنطيون نشاطهم البحري في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي ، خاصة بعد ان وطد الامبراطور ليون الايسوري حكمه في القسطنطينية . ففي سنة ٧٣٦ ميلادية (١١٨ هجرية) أغار الاسطول البيزنطي على مصر واسر الكثير من أهلها (٢١). وفي سنة ٧٣٩ ميلادية (١٢١ هجرية) أغار اسطول بيزنطي مؤلف من ٣٦٠ سفينة على دمياط ، فقتل الكثير من العرب المسلمين وأسر بعضهم(٢٢) . وقد كان الهدف من هذه الغارات البيزنطية المتكررة على الموانى المصرية هو عدم افساح المجال لتطوير الاسطول المصري .

واذا كان العرب المسلمون قد أوقفوا نشاطهم البحري تقريبا في أواخر العهد الاموي ، فانهم حاولوا أن يعوضوا عن ذلك بتنشيط العمليات الحربية البرية في آسيا الصغرى . فالمؤرخ البيزنطي تيوفانس يذكر أن العرب المسلمين شنوا حملة عسكرية على آسيا الصغرى سنة ٧٣٩ ، وكانت تلك الحملة مؤلفة من تسعين ألف جندي موزعين على اربع فرق بقيادة أربعة من القادة الكبار . ولكن الامبراطور البيزنطي ليون الايسوري تصدى لتلك القوات العربية الاسلامية بنفسه ، فتمكن من الحاق الهزيمة بها في موقعة جرت بين الطرفين (سنة ٧٤٠) في مكان يدعى آكروينون بالقرب من عمورية (٢٣) .

وفي الاربعينيات من القرن الثامن توتر الصراع بين البيزنطيين والعرب المسلمين من أجل السيطرة على جزيرة قبرص ، لما لها من أهمية ستراتيجية بالنسبة لكلا الطرفين . فعلى ما يبدو حرض البيزنطيون اهل قبرص على قطع الفدية السنوية التي كانوا يؤدونها للعرب المسلمين ، وهذا مما دفع الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (٧٤٣ ـ ٧٤٤) أن يبعث بحملة عسكرية الى قبرص كي يرغم أهلها على دفع الفدية المفروضة عليهم . ولكي يضمن العرب المسلمون استمرار القبارصة في دفع الفدية لهم جابوا معهم الى الشام عددا كبيرا من الرهائن من أهل قبرص .

على أن هؤلاء الرهائن أعيدوا الى بلدهم بعد مضي عام على احتجازهم ــ أي في عهد الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك (٢٤) . ولكن ما ان انتهى الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس من صراعه الداخلي مع القائد المتمرد عليه ارتاباسدوس حتى بعث بحملة بحرية الى قبرص جهز سفنها بالنار اليونانية المحرقة . ردا على ذلك ابحرت بعض السفن من سورية الى الاسكندرية ، ومنها انطلقت مع السفن المصرية الى قبرص (سنة ٧٤٧) لطرد الاسطول البيزنطي من هذه الجزيرة . على أن قائد الاسطول البيزنطي نصب كمينا للسفن العربية فطوقها في ميناء كيرامس وأحرق معظمها . ويذكر المؤرخ تيوفانس أنه لم يبق من السفن العربية ، التي بلغ عددها ألف سفينة (العدد مبالغ فيه) ، سوى ثلاث سفن لاذت بالفرار (٢٥) .



ان تحطيم الاسطول العربي في سواحل قبرص سنة ٧٤٧ مكن البيزنطيين من فرض سيطرتهم على تلك الجزيرة وعلى الطرق التجارية البحرية في حوض البحر المتوسط الشرقي . أما العرب المسلمون فلم يستطيعوا استعادة قوتهم البحرية طيلة النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي . لقد توقفت عمليات الاسطول المصري مدة طويلة من الزمن ، حيث أنه فقد قدرته القتالية . فالمصادر لم تعد تذكر لنا أية عملية بحرية قام بها الاسطول المصري حتى منتصف القرن التاسع الميلادي . غير ان الاسطول السوري استعاد بعض قوته في الربع الاخير من القرن الثامن . فالعباسيون الاوائل بعد أن وطدوا حكمهم في الداخل اخذوا يوجهون الحملات البرية والبحرية الى الاراضي البيزنطية ، ففي سنة ٧٧٢ (١٥٧ هـ) قام القائد العباسي ثمامة بن أبي وقاص بحملة برية وبحرية الى شواطىء ابسوريا في جنوب آسيا الصغرى ، فتصدت له القوات البيزنطية البرية والبحرية وتمكنت من قطع الاتصال بين القوات البرية والقوات البحرية العربية . ولكن ثمامة استطاع الافلات من الحصار وعاد بقواته البرية الى الشام ، في حين تراجعت السفن العربية الى قبرص ، فتمكنت أن توقع في الاسر حاكم الجزيرة البيزنطي المدعو سرجيوس(٢٦) . وعلى ما يبدو فان العرب المسلمين تمكنوا آنئذ ان يفرضوا سلطتهم على قبرص ، بعد أن كانوا قد أجلوا عنها سنة ٧٤٧ . وفي سنة ٧٨٢ توغلت قوات العرب المسلمين في آسيا الصغرى ، فغلبوا البيزنطيين في درنون ووصلت طلائعهم الى شواطىء البوسفور . وعلى هذا اضطرت الامبراطورة ايرين ان تدفع فدية سنوية مقدارها سبعون (أو تسعون) ألف دينار للعرب المسلمين مقابل ايقاف غاراتهم على الاراضي البيزنطية . ولكن العرب المسلمين اغاروا على الاراضي البيزنطية سنة ٧٨٤ ، فاستولوا على ثيباسة في كابادوكيا . كذلك تجدد

الصراع البيزنطي العربي من أجل السيطرة على قبرص . ففي سنة ٧٩٠م أسر الاسطول البيزنطي بعض السفن العربية وهي في طريقها من مصر الى الشام وفي السنة نفسها اغار الاسطول العربي من الشام على قبرص فهزم الاسطول البيزنطي هناك وأسر قائده تيوفيلوس(٢٧) . وفي سنة ٧٩٨ توغلت القوات العربية البرية في آسيا الصغرى واكتسحت كابادوكيا ، فاضطرت الامبراطورة ايرين أن تدفع لهارون الرشيد الفدية السنوية التي كانت قد دفعتها للمهدي من قبل(٢٨). وهكذا كانت بيزنطة في أواخر القرن الثامن في حال من الضعف (بسبب الاضطرابات الداخلية) لا يسمح لها أن تتصدى لهجمات القوات العربية ، مما اضطرها أن تدفع الذهب البيزنطي للعرب المسلمين ثمن التوقف عن شن الحملات الحربية على أراضيها ومياهها .



واذا كان الاسطول المصري والاسطول السوري قد توقفا عن شن الحملات البحرية على السواحل البيزنطية لفترة طويلة ، حيث فقدا قدرتهما القتالية بعد الضربة القاصمة التي تلقياها اثناء حصار القسطنطينية سنة ٧١٧ — ٧١٨ ، فان اسطول شمال افريقيا تابع نشاطه البحري في حوض البحر الابيض المتوسط الغربي . فقد استمر بناء السفن الحربية في ميناء تونس ، مما مكن عرب شمال افريقيا من شن الحملات البحرية على جزر البحر المتوسط الغربية ، دون مساعدة او مشاركة الاسطول المصري أو السوري . ففي سنة ٧٢٠ أغار اسطول شمال افريقيا على جزيرة صقلية وجلب منها الغنائم الكثيرة(٢٩) . وفي سنة ٧٢٧ (١٠٩هـ) أغار والي شمال افريقيا بكر بن صفوان باسطوله على صقلية وعاد منها محملا بالغنائم(٣٠) . وبعد سنتين — أي في سنة ٧٢٩ بعث والي شمال افريقيا عبيدة بن عبد الرحمن حملة بحرية الى صقلية بقيادة أمير البحر المستنير بن الحارث ، ولكن تلك الحملة طالت اقامتها في صقلية حتى الخريف ، مما عرضها لعاصفة بحرية أثناء تراجعها ، فغرقت معظم السفن . وقد عاقب والي شمال افريقيا قائد الحملة البحرية على الخطأ الذي ارتكبه ، اذ أركب على حمار في شوارع القيروان وضرب بالسوط لمدة اسبوع ثم أودع السجن(٣١) .

تلك الغارات المستمرة التي شنها الاسطول التونسي على صقلية دفعت البيزنطيين أن يبعثوا باسطول مجهز بالنار اليونانية المحرقة لحمايتها . ففي سنة ٧٣٣ (١١٦ هـ) اصطدم الاسطول التونسي مع الاسطول البيزنطي في سواحل صقلية. فوقع في الاسر بعض المسلمين وقائدهم عبد الرحمن بن زياد(٣٢) ولكن العرب المسلمين

لم يتراجعوا عن هدفهم في احتلال صقلية ، بل استمروا في تنشيط الاستعدادات البحرية . فلقد اهتم والي شمال افريقيا عبيد الله بن الحباب اهتماما كبيرا بتوسيع دار صناعة السفن في تونس ، حتى قيل عنه فيما بعد (خطأ) انه هو الذي أسس دار صناعة السفن في تونس(٣٣) . ويذكر المؤرخ ابن الاثير : أن اسطول تونس بقيادة حبيب الفهري اغار في سنة ٧٣٥ على سردينيا وعاد منها محملا بالغنائم(٣٤) . وفي سنة ٧٤٠ قاد حبيب الفهري اسطولا يحمل قوات برية كبيرة الى صقلية ، فانتصر على الاسطول البيزنطي المرابط هناك ، كما تقدمت القوات البرية بقيادة ابنه عبد الرحمن الى سيراكوزة عاصمة صقلية ، فسقطت تلك المدينة بأيدي العرب المسلمين. وقد صمم حبيب الفهري على البقاء في صقلية حتى يحتل جزر البحر المتوسط الغربية الاخرى ، الا أن والي شمال افريقيا استدعاه وقواته الى تونس ليساعده في اخماد ثورة البربر والخوارج التي نشبت آنئذ في شمال افريقيا(٣٥) . هذا وقد أدى انشغال العرب المسلمين باخماد ثورة البربر والخوارج في شمال افريقيا الى توقف نشاط الاسطول التونسي في حوض البحر المتوسط الغربي طيلة اثني عشر عاما. فالمصادر التاريخية لم تعد تذكر شيئا عن عمليات الاسطول التونسي في البحر المتوسط حتى سنة ٧٥٢ . ففي تلك السنة قاد عبد الله بن حبيب الفهري حملة الى صقلية ، فغنم منها مالم يغنمه غيره من قبل(٣٦) . وفي سنة ٧٥٣ (١٣٦ هـ) ايضا قاد عبد الرحمن بن حبيب الفهري حملة بحرية الى سردينيا وفرض الجزية على سكانها(٣٧) .

كان الهدف من تتابع الحملات البحرية العربية على جزر البحر المتوسط الغربية في الربع الثاني من القرن الثامن هو تحقيق أهداف ستراتيجية ـ عسكرية واقتصادية. لقد اراد العرب المسلمون السيطرة على تلك الجزر لاستخدامها كقواعد عسكرية لهم ينطلقون منها الى الشواطىء الاوروبية والبيزنطية ، كما ارادوا أيضا حماية خطوطهم التجارية البحرية الممتدة من اسبانيا حتى سوربة .

على ان انشغال العرب المسلمين باخماد ثورة البربر والخوارج في شمال افريقيا مكن البيزنطيين من توطيد سلطتهم في صقلية وتقوية وسائل الدفاع عنها . ففي سنة ٧٣٢ ضمت هذه الجزيرة مع جنوب ايطاليا الى الممتلكات البيزنطية ، بعد أن كانت تابعة لبابا روما . وذلك بسبب الخلاف الذي نشب بين البابا والامبراطور البيزنطي ليون الايسوري حول تقديس الايقونات . وفي عهد الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس ٧٤١ ـ ٧٧٥ سيطرت القوات البيزنطية سيطرة تامة على جزيرة صقلية ، ويشير المؤرخ ابن الاثير الى ذلك فيقول: عندما انشغل والي افريقيا بالصراع مع البربر صار سكان صقلية يعيشون بأمان ، حيث أن البيزنطيين اقاموا فيها حصون دفاعية ودعموها بالمقاتلين ، كما أخذت سفنهم تقوم بدوريات حراسة حول الجزيرة ،

فتأسر ما تصادف من سفن التجار المسلمين(٣٨) . كما أننا نعلم من المصادر اليونانية أن البيزنطيين قد شكلوا في صقلية (في منتصف القرن الثامن) ثغرا بحريا مستقلا يتولى الدفاع عن الجزيرة . وعلى هذا ساد الهدوء تقريبا في مياه حوض البحر المتوسط الغربي طيلة النصف الثاني من القرن الثامن . لقد توقف نشاط الاسطول التونسي في تلك الفترة بسبب ازدياد قوة الدفاع البيزنطية في صقلية من جهة ، واضطراب الاوضاع الداخلية في شمال افريقيا من جهة ثانية . وتجدر الاشارة الى ان الاسطول التونسي سيجدد نشاطه في حوض البحر المتوسط الغربي في بداية القرن التاسع أثناء حكم الاغالبة في شمال افريقيا ، كما سينشأ اسطول عربي آخر في اسبانيا ويقوم بعمليات حربية في حوض البحر المتوسط الغربي في أواخر القرن الثامن وبداية القرن التاسع .



مصادر ومراجع

(١) الدكتور نعيم فرح : اطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ البيزنطي من جامعة لينينغراد سنة١٩٧١ موضوعها : « العلاقات البحرية بين بيزنطة والعرب في القرنين السابع والثامن » ، وهي مكتوبة باللغة الروسية (غير مترجمة) وتتضمن دراسة لاوراق البردي المصرية المكتوبة باللغة اليونانية . والتي تتحدث عن بناء السفن الحربية في مصر في بداية القرن الثامن الميلادي : الاطروحة صفحة ٢٦٧ - ٢٩٣ .

الحواشي :

(٢) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٥٨٨ - ٥٩١ .

(٣) Nicephori Archiepiscopi Constantino-politeni, Historica, edidit, Carolvs de Boor, Lipsiae, 1880, P. 52-53.

نقفور - بطريرك القسطنطينية ، تاريخ ، ص٥٢ - ٥٣ ، انظر الترجمة الروسية في المسلسل البيزنطي B.B الجزء الثالث ، ص ٣٧٣ .

(٤) انظر الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، اخبارسنة ٩٨ هجرية .

(٥) Bury. J. B. History of Later Roman Empire, 1, 1931, P. 388.

(٦) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص . ٦٠٧ - ٦١١ ، نقفور بطريرك القسطنطينية : تاريخ ، ص ٥٢-٥٥ .

(٧) تيوفانس : خرنوغرافيا ، ص ٦٠٧ - ٦١١ .

(٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (اخبارسنة ٩٨ هجرية) .

(٩) تيوفانس : خرنوغرافيا ، ص ٦٠٧ - ٦١١

(١٠) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٠٧ - ٦١١ .

(١١) المصدر نفسه والصفحات نفسها .

(١٢) الدكتور ابراهيم احمد العدوي : الامويون والبيزنطيون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٢٣ .

(١٣) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦١٣ - ٦١٤ .

(١٤) Ekkehard Eickhoff, Seekrieg und Seepolitik Zwischen, Islam und Abendland das Mittelmeer unter byzantinischer und arabischer Hegemonie (650-1040), Berlin, 1966, S. 32-35.

(١٥) البلاذري : فتوح البلدان ، طبعة السعادة بمصر ، ص ١٣٩ .

(١٦) El-Kindi, The Governors and jadges of Egypt. Leyden, 1912, P. 70.

(١٧) Wiet. G. S., Egypt Arabe, Paris, 1937, P. 56.

(١٨) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٥٩ ١.

(١٩) تيوفانس : اخرونوغرافيا ، ص ٦٢٣ — ٦٢٤ .

(٢٠) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٩ .

(٢١) الكندي : كتاب الولاة والقضاة في مصر ، لندن ١٩١٢ ص ٧٩ .

(٢٢) المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، بولاق ١٨٥٣ ، ص ٩ .

(٢٣) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٣٣ .

(٢٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٩ « وحدثني هشام بن عمار الدمشقي قال : حدثني الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو : ان معاوية بن ابي سفيان غزا قبرس بنفسه ومعه امراته ففتحها الله فتحا عظيما وغنم المسلمون غنما حسنا ، ثم لم يزل المسلمون يغزونهم حتى صالحهم معاوية في ايامه صلحا دائما على سبعة آلاف دينار وعلى النصيحة للمسلمين وانذارهم عدوهم من الروم هذا او نحوه . قالوا : وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك اجلى منهم خلقا الى الشام لامر اتهمهم به فانكر الناس ذلك فردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الى بلدهم ... وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي في اسناده ، قال : لم يزل اهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم الف دينار فجرى ذلك الى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم . ثم لما ولي هشام بن عبد الملك ردها فجرى ذلك الى خلافة ابي جعفر المنصور ، فقال : نحن احق من انصفهم ولم نتكثر بظلمهم فردهم الى صلح معاوية » .

(٢٥) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٥٣ .

(٢٦) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٨٨ — ٦٩٠ .

(٢٧) تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٧٢٠ — ٧٢١ . انظر ، فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، الكتاب الاول ، ص ٣٨٤ .

(٢٨) انظر ، الدكتور أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ٢٩٧ .

(٢٩) النويري : .... : ج ٢ ص ٢٥٢ ؟

(٣٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، طبعة برلين ١٨٧١ ، ج ٥ ، ص ١٠٨ .

(٣١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص١٣٠ .

(٣٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ١٣٧ .

(٣٣) ابن عذاري : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٩ .

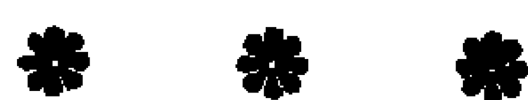
(٣٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص١٤١ – ١٤٥

(٣٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص١٤١ – ١٤٥

(٣٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص٣٤٩ .

(٣٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص٣٤٩ – ٣٥٠ .

(٣٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص٣٤٩ .



مَعَـــانُ وَجِوارُهَـــا

« اسْــتِعراضٌ تارِيــخي »

د . محمد عدنان البخيت

الجامعة الاردنية

تفيد المادة التاريخية المتوافرة في المصادر العربية الاسلامية أن عددا من العشائر العربية كانت قد انتشرت بشكل كبير ووسع في مناطق جنوبي بلاد الشام جوار ايله(١) ، معان(٢) ، الشوبك ، الطفيلة والكرك(٣) . وكان أهل الحجاز عشية الدعوة النبوية ، وخاصة أهالي مكة المكرمة ، على اتصال مع تلك العشائر عن طريق التجارة ، كما وانهم كانوا على المام بجنوبي الشام(٤) . ومن العشائر التي تذكرها المصادر اضافةالىعشائر الغساسنة(٥) ، عشائر : لخم(٦) ، جذام(٧) ، بلقين(٨) ، وبلي(٩) .

ونظرا للزيادة المستمرة في اعداد هذه العشائر ، فقد رأى البيزنطيون تنظيمعلاقات هذه العشائر مع جهازهم الاداري ذي الصبغة العسكرية ، لتوفير الأمن والاستقرار في تلك التخوم المجاورة لجزيرة العرب . فنصبوا شخصا من قبيلة جذام اسمه فروة ابن عمرو بن النافرة الجذامي ، ليكون عاملا للبيزنطيين على العرب . « وكان منزله في معان وما حولها من أرض الشام » .

ويستفاد من أخبار العهد النبوي أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد راسل فروة هذا وبعث اليه السائب بن العوام ، أخا الزبير حيث اعتنق فروة الاسلام على يديه . كما وأن فروة ارسل من جانبه رسالة الى الرسول (صلعم) مع هدية . وجاء في رسالته تلك ما يلي :

« لمحمد رسول الله :

اني مقر بالاسلام مصدق به . أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، أنت الذي بشر بك عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام » .

واجاب « صلعم » من جانبه بهذا الكتاب

« من محمد رسول الله الى فروة بن عمرو :

أما بعد ، فقد قدم علينا رسولك ، وبلغ ما ارسلت به ، وخبر عما قبلكم ، واتانا باسلامك وأن الله هداك بهداه ، ان أصلحت وأطعت آلله ورسوله وأقمت الصلاة واتيت الزكاة » .

وكما يظهر فان المسؤولين البيزنطيين كانوا قد علموا باسلام فروة هذا ، فألقوا القبض عليه وحبسوه ثم صلبوه عند ماء عفراء بالقرب من الطفيلة .

ويورد لنا أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣ هـ/٨٢٨م) نقلاً عن محمد بن اسحق (ت ١٥١ هـ / ٧٦٨ م) شعراً قاله عندما قدم للصلب ، منه :

بلــغ ســراة المسلمــين بأننــي　　　سلم لربي أعظمي ومقامي(١٠)

على أية حال ان كان فروة قد قال هذا الشعر أم قيل نيابة عنه ، فــان المادة التاريخية المتوافرة في المصادر سواء كانت على شكل حكايات وقصص أو ما جاء منها في أشعار حسان بن ثابت ، جميعها تشير الى أن أهالي مكة كانوا على معرفة بجنوبي بلاد الشام وعلى المام بمعان كموقع ومنزل على طريق مكة . كما وانها تدل على أن معان في المرحلة السابقة لانتشار الاسلام لم تكن دار حجر بل كانت منطقة تجمع للعشائر تطؤها بحثا عن الماء نظرا لوفرة ينابيعها .

وتبين المصادر الاسلامية المبكرة أن المسلمين عند خروجهم سنة ٨هـ / ٦٢٩م ، في حملة مؤته ، كانوا قد ساروا حتى نزلوا في معان وأقاموا فيها ليلتين لينظروا في امرهم ، حيث أن الأخبار كانت قد جاءتهم عن وجود تحشدات لعشائر لخم وجذام وبلقين وبلي مع جيش البيزنطيين لمواجهة حملة المسلمين . وبعد مداولات قادة الحملة استقر الرأي على مواجهة البيزنطيين . وتورد المصادر هنا شعرا منسوبا لعبد الله بن رواحة الانصاري الخزرجي ، شاعر الرسول ، واحد قادة تلك الحملة ومن الشهداء الذين سقطوا فيها ، يذكر فيه معان ومآب حيث يقول :

جلبنــا الخيــل مــن أجــأ وفرع　　　تغــر من الحشيش لهــا العكــوم
اقامت ليلتيــن علــى معــان　　　فأعقــب بعــد فترتهــا جمــوم
فــلا وابــي مــآب لنأتينهـــا　　　وان كانــت بها عرب وروم(١١)

بعد قيام خلافة بني أمية في دمشق الشام ، بدأ قسم من العشائر العربية ، خاصة الموالية لبني امية ، بالاستقرار في جنوبي الشام ، كما أن عددا من زعماء بني امية استقروا في تلك البقــاع . فمثلا يذكر أحمــد بن يحيى بن جابــر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) أن ابان بن سعيد بن العاص بن أحيحة كان ينزل في أيلــه للعزلة (١٢) وأن عددا كبيرا مــن بني امية والموالين لهم سكنوا في معــان وتصــف المصادر التاريخية معان على انها « مدينة صغيرة عمّرها طائفة من بني أمية وسكنوها وانها على شفير البادية » بل زيادة على ذلك تضيف المصادر قولها « وفيهم لبنــي السبيل مرفــق »(١٣) .

ومن المواقع التي استقطبت العشائر للسكن حولها والاقامة فيها كانتا أذرح والحميمة ، فمن المعروف أن علي بن عبد الله بن العباس كان قد أقام بعد سنــة ٧١ هـ/٦٩٥ م في الحميمة . كما وأن ابنه محمد كان قد اتخذ له فيما بعد ، مقــرا جديدا في موقع كداد . ويلاحظ انه عندما قصد أحد دعاة العباسيين واسمه بكير ، بلاد الحميمة متخفيا على هيئة عطّار مرّ في طريقه ببعض قرى الشراة(١٤) . مــن اكل هذا يتضح لنا ان المناطق الجنوبية لبلاد الشام كانت قــد عرفت الاستقرار السكاني في القرى ، وأن العرب ، سواء المستقر منهم أو الذي حافظ على بداوته ، هم العنصر السكاني الغالب في تلك المنطقة .

من الملاحظ ان عدد أفراد العشائر في بادية الشام قد ازداد آنذاك مع استقرار الحكم لبني امية ، مما اضطر الامويين الى بناء عدد من القصور والقلاع على سيف الصحراء ليكونوا على مقربة من مراكز تجمع العشائر لسهولة ضبط تحركاتهــا والسيطرة عليها(١٥) . ولكن محاولة استقرار العشائر التي بدات في العهد الاموي لم يكتب لها النجاح ، لسقوط الخلافة الاموية ونجاح بني العباس في دعوتهم مــن جهة ، وكذلك لانتقال العاصمة من دمشق الى الكوفة ومن ثم الى بغداد من جهة اخرى . هذا مما ادى الى قيام عدد من العشائر الموالين لبني العباس في الانتقال الى بلاد العراق . كما وأن اضطراب الامن الناتج عــن سقوط الخلافة وانتقــال العاصمة ، أدى الى خراب المراكز الناشئة مثل معان ، حيث يصفها الجغرافيون ، فيما بعد ، كأبي الفداء بقوله : « وهو معان حصن من الشراة أقول وهي الان خراب ليس فيه أحد » . وتحولت معان من مدينة صغيرة الى منزلة على آخر حــدود بلاد الشام تطؤها الحجاج و « تقام بها سوق في غدوهم ورواحهم »(١٦) .

اذا ما تقصينا كتب التراجم والطبقات فاننا لا نجدها تذكر أسماء من معان او من نواحيها ، اللهم الا الحسن بن علي بن عيسى الازدي المعاني الذي يجيء ذكره

في مصادر أخرى على أنه من أهالي القسطل جنوبي عمان حاليا . ويذكر على أنــه من رواة الحديث المجرحين الذين لا يؤخذ عنهم بأي حال من الاحوال بالرغم مــن زعمه نه روى عن ثقات . لذا نجد أن الامام الحافظ محمد بن حبان بن احمد التميمي البستي (٣٥٤ هـ/٩٦٥ م) يحذر من الرواية عنه ، ويوردحديثا مرويـا بسنده على النحـو التالي :

« روي عن مالك عن ابي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اذا كان يوم عرفة غفر الله للحاج ، فاذا كان ليلة المزدلفة غفـر الله عز وجل للتجار ، فاذا كان يوم منى غفر الله للحمامين ، فاذا كان يوم جمرة العقبة غفر الله عز وجل للسؤال ، فلا يشهد بذلك الموضع أحد الا غفر له »(١٧) . ويورد محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م) ، حديثا برواية الحسن الازدي المعاني هذا ، بالنص التالي :

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انا الشجرة وفاطمة أصلها وعلي لقاحها ، والحسن والحسين ثمرها »(١٨) .

فقدت معان مكانتها واهميتها بحيث أن المصادر لم تعد تذاكرها . فاذا ما عدنا الى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، عندما كانت بلاد الشام الجنوبية تحت الحكم الفاطمي ، نجد أن المنطقة وقعت تحت سيطرة عشائر طيء . الا أن فروع جذام حافظت على وجودها في منطقة مدين وايلة ومعان وأذرح والشراة . لكنها في ذات الوقت لم تكن صاحبة نفوذ سياسي على غرار ما بلغت عشائر طيء التــي يتزعمها آل الجراح بقيادة حسان ابن الجراح(١٩) . ومما يذكره الامير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن احمد المسبحي (ت ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ م) ، في أخبـار سنة ٤١٥ هـ/١٠٢٤ م ، أن حسان نهب أيلة « وأخذ منها نحو الثلاثة آلاف دينار وما وجده بها من غلة وسبى نساءها وأطفالها » . زيادة على ذلك تعرضت العشائر العربية على طريق الحاج المصري لقائد الحاج من المغاربة والمصاروة بحيث اضطر « للعودة الى القاهرة على اقبح صورة وبطل حجهم وحج غيرهم من مصر في هـذه السـنة »(٢٠) .

بقيت المنطقة تعاني من الاضطرابات على يد العشائر العربية الى أن قامـت امارة الايوبيين في بلاد الكرك . عند ذلك بدات حدتها تخف تدريجيا ، خاصـة بعد القضاء على الوجود الافرنجي سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م في تلك الديار(٢١) . وعلى الاغلب ان الأيوبيين قد نجحوا في وضع حد لتعاون العشائر العربية في تلك المنطقة

مع الفرنجة(٢٢) . كما وانهم تمكنوا أيضا من ضبط تعديات هذه العشائر على قوافل الحاج والتجار وهي في طريقها الى مصر أو الى الحجاز .

وعندما آل الامر الى المماليك ابقوا التقسيمات الادارية لبلاد الشام على ما هي عليه ، ومنها نيابة الكرك أو مملكة الكرك(٢٣) ، كما تسميها بعض المصادر . والمعروف ان معان كانت تشكل ، في ذلك الوقت ، العمل الرابع في نيابة الكرك . الا أن المصادر المملوكية الموسوعية منها تؤكد على أن معان قد « خربت هي وعملها ولم يبق بهـا أحـد »(٢٤) .

ويستفاد من كتب الانساب ان سكان المنطقة في العهد المملوكي كانوا من عشائر جذام التي ينتسب اليها بنو صخر ، وكذلك من عشائر بني عقبة الجذامية ايضا التي كانت منازلها تمتد من الكرك الى الازلم في برية الحجاز . كما وتشير المصادر ايضا الى وجود عشائر بني لام(٢٥) .

وتجيء اخبار المصادر عن معان وما جاورها من الاماكن على شكل نتف متفرقة. فعلى سبيل المثال يذكر أبو الفداء اسماعيل بن عمر الشافعي المعروف بابن كثير (ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٢ م) ، في أخبار سنة ٦٩٢ هـ/١٢٩٢ م ، أن ريحا عاتية كانت قد هبت على الحجاج في معان « مات بسببها جماعة وحملت الريح جمالا عن اماكنها وطارت العمائم عن الرؤوس واشتغل كل أحد بنفسه » ، والجدير بالذكر أن الشيخ تقي الدين احمد بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨ هـ/١٣٢٨ م) كان من المرافقين للقافلة في تلك السنة (٢٦) . ويورد شمس الدين محمد بن طولون (ت ٩٥٣ هـ/١٥٤٦ م) ، في اخبار ٨٨٥ هـ/١٤٨٠ م ، أن تاجرا شاميا كان قد فقد في معان عند عودته مـن الحجاز مع قافلة الحاج(٢٧) . وتكرر مثل هذا الامر ، ولكن على نطاق واسع سنة ٩٠٠ هـ/١٤٩٤ م ، حيث هاجمت الاعراب الحجاج قرب معان و « قبض العرب عليه (الحاج) وعلى أكابره . اما أمير الركب قاتله الله فكابر وبرز بحريمه وجماعته من الحاج ، فطمع فيه ، ثم اشترى الحاج نفسه بمال كبير ثم لما وصلوا الى الحسا نهب المال والحريم ولم يدخل الى دمشق جمل من الحاج ، ومات نساء كثير ، بردا وجوعا وكذلك الاطفال وذهب جماعة منهم الى الشوبك ولم نسمع بمثل ما جرى عليهم ولا قوة الا بالله »(٢٨) . وعن هذا الاعتداء يقول مجير الدين العليمي الحنبلي (ت ٩٢٧ هـ/١٥٢٠ م) : « وكان عدة جمال الركب ثلاثة عشر الف جمل لم يسلم من ذلك سوى ستة عشر جملا من غير أحمال وهلك من الرجال والنساء والاطفال خلق لا يحصيهم الا الله تعالى واخذت الاموال وسبى الحريم وكانـت حادثـة فاحشـة ... »(٢٩) .

نظرا للهجمات المتكررة التي قام بها البدو على قافلة الحاج فان نائب الشام جان بلاط قام بشن حملة(٣٠) على عرب بني صخر سنة ٩٠٥ هـ/١٤٩٩ م ، ولكنها لم تكن رادعا كافيا لهم ، اذ أن هذه العشائر عادت في العام التالي وهاجمت الحجاج عند الحسا . لذا ، رات الدولة أن تعمد الى أسلوب جديد يتمثل في ارسال عساكر الى كل من الحسا ومعان لاستقبال قافلة الحاج وحراستها في طريق عودتها .

اضافة الى ذلك قامت الدولة المملوكية بتكثيف حملاتها على العشائر العربية لتضع حداً لاعتداءاتها المستمرة على القوافل . ففي سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م وصلت انباء إلى نائب الشام تفيد بأن أمير العرب المعروف باسم جفيمان قد أقام على معان بنية مهاجمة قافلة الحاج أثناء عودتها . فبادر نائب الشام ، بمؤازرة نائب القدس ، بالاعداد لمباغتة أمير العرب . وعندما علم جفيمان بوصول النائب قرب معان ، هرب بعربة الى بلاد الجوف . الا أن النائب تمكن من الظفر ببعض عرب جفيمان وغنم اعدادا من الجمال والغنم ، وعاد برفقة القافلة(٣١) .

ومن أجل قطع دابر الاعراب خرجت سنة ٩١٢ هـ/١٥٠٦ م قوات من كل من دمشق والقاهرة لتأديب العشائر العاصية . وتمكنت جيوش السلطنة من الانتصار عليها . وما أن وصلت اخبار هذا الانتصار الى القاهرة حتى « أمر السلطان بدق الكوسات بالقلعة وكانت القاهرة مزينة من حين دخل العسكر فصارت الفرحة فرحتان »(٣٢) .

لقد تميز القرن السادس عشر الميلادي ، من مطلع العهد العثماني في بلاد الشام ، بالاستقرار وبضبط حركات العشائر العربية واعتداءاتها على قافلة الحاج الشريف ، وذلك بانشاء شبكة من القلاع الممتدة على موازاة طريق القافلة . فيذكر نجم الدين محمد الغزي (ت ١٠٦١ هـ/١٦٥٠ م) عن الاجراءات التي قام بهاالسلطان سليمان القانوني في سنة ٩٦٧ هـ/١٥٥٩ م ما يلي :

« وصل أمر شريف من قبل المرحوم السلطان سليمان ... الى دمشق بتعمير قلاع بطريق الحاج الشامي وتعيين صنجق لكل قلعة وفي صحبته سباهية ومعلمون وفعول ومعهم ما يكفيهم من الزاد ، واحدة بالقطرانة وثانية بمعان وثالثة بذات حج ورابعة بتبوك ، فعمرت وبقي الانتفاع بها الان »(٣٣) .

كما ويذكر حجيج بن قاسم الوحيدي الحلبي (تح ٩٩٢ هـ/١٥٨٤ م) في رحلته الى مكة المكرمة سنة ٩٩٢ هـ/١٥٨٤ م) في رحلته الى مكة المكرمة سنة

٩٩٢ هـ/١٥٨٤ م ، اسماء عدد من المواقع التي مر بها فيقول : « ... ثم سرنا الى المفرق ، ثم الى الزرقاء وبها قصب المواصيل يذهب به الى سائر البلاد وبها نهر عظيم ماؤه يشفي السقيم ... ثم سرنا منها الى الزيزة ثم الى القطرانة وبها بركة عظيمة تروي الظمآن والظمآنة » « ثم سرنا الى غدير السلطان ثم الى الحسا ولها ثلاث قليات عظيمات ... وبها ماء طيب ، ثم الى عنزة وبها بركة وقلعة ، ثم الى معان وبها بركة وقلعة ثم الى عبارة وهي ظهر العقبة ولهذا يقال ما بعد عبارة قرية تحذيرا » للحجاج(٣٤) .

ويذكر الشيخ حسن بن محمد البوريني (ت ١٠٢٤ هـ/١٦١٥ م) وكان قاضيا لقافلة الحاج الشامي لسنة ١٠٢٠ هـ/١٦١١ م ، منازل الحج من بينها انه مر بالمفرق والزرقاء حيث يشير لقصر شبيب ، ومن هناك توجه الى البلقاء فالقطرانة ليصل بعد ذلك مع القافلة الى الحسا ثم توجه منها الى أرض عنزة ، ويذكر معان بقوله(٣٥) :

وجئنا معانا منشدين لما أتى ... به قبلنا في الشعر شيخ المعرة

اما في المصادر التاريخية المعاصرة فقد ورد ذكر قلعة معان اثناء الحديث عن اخبار الامير علي بن فخر الدين المعني . حيث ورد انه في سنة ١٠٢٢ هـ/١٦١٣ م تحالف الامير علي مع كل من الامير حمدان بن قانصوه الغزاوي ــ امير عشير عجلون، والشيخ عمر بن جبر ــ شيخ عرب المفارجة للقضاء على منافسهم الشيخ رشيد بن سلامة بن نعيم ــ شيخ عرب السردية . فسارع عرب الكرك الى مساندة الشيخ رشيد بعد أن علموا أن فروخ بك مرجان ، اغا صوباشي الكرك من المعاضدين له . الا أن الامير علي بن فخر الدين وحلفاءه انتصروا على الشيخ رشيد وأعوانه .

على اثر هذا الانتصار بادر والي دمشق الشام الى تنظيم قوة من عشير جبل عجلون تساندهم قوات نظامية بقيادة كل من امير لواء عجلون ، وفروخ بك امير الحاج . وانضم الى فروخ هذا عشائر البلقاء وكذلك الامير مدلج الحياري . وتوجهوا جميعا الى الكرك لحماية قراها من هجمات الامير علي بن فخر الدين وحلفائه من عشائر منطقة الكرك ، أمثال عشائر بني عطية والوحيدات .

وما أن علم الامير علي بعظم القوة المتجهة اليه حتى ادرك انه ليس بمقدوره التصدي لها لمجابهتها . فاتجه الى معان حيث تزود بالماء من قلعتها ، ومنها قصد الجفر حيث سار من هناك الى بئر باير ومنها الى قلعة الكاف ثم اتجه منها الى حوران(٣٦) . من هنا يمكننا القول أن عشائر الوحيدات وبني عطية قد برزت لتلعب دورا على الساحة المحلية في منطقة معان والكرك .

ان ما ذكره الوحيدي والبوريني عن معان جاء موجزا . الا أن هناك ثلاثة من الرحالة الذين مروا بمعان واطنبوا في توفير المعلومات عنها . أحدهم محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي المعروف باسم ابن كبريت المدني (ت ١٠٧٠ هـ/١٦٥٩م) وكان قد مر ١٠٣٩ - ١٠٤٠ هـ/١٦٢٩ - ١٦٣٠ م بهذه المواقع أثناء عودته من القسطنطينية الى مكة المكرمة ، فيذكر ما يلي :

« ثم اتينا على القطراني ... وهو واد فيه قلعة وبركة ماء تفيض على مثلها . ثم أتينا على الحسا من أعمال الكرك وفيه نهر لطيف وملاقاه ، ثم أتينا على عنيزة وهناك البرد الشديد وبه خان قديم ، ثم أتينا على معان من أعمال الكرك به ضيعة وقلعة وآبار ماؤها ليس بالجيد ، ثم أتينا على عقبة الصوان .. »(٣٧) . أما الرحالة ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني (ت ١٠٨٣ هـ/١٦٧٢ م) فقد وصف معان بدقة أكثر ، خاصة عندما يذكر :

« فاذا قرية مشتملة على بويتات وبسيتينات وقلعة قائمة البناء يسكنها جماعة من أهل البلاد لا طائفة من العسكر كغيرها من القلاع لعدم الاعتناء . واذا بها سوق قائمة وخيرات عامة أكثر ما فيها يباع الشعير والمعبوك والتين وما يناسب الجمال والاتباع . وبها الغنم السمان من المعز والضأن والبيض الكثير والالبان وبها بعض الفاكهة كالعنب الكمثري والتوت وغيرها لم يدرك زمن ينوعها ... فجيء لنا بالكمثري صغارا لم تنضج وبالكرم حصرما » . ويصفها بقوله أيضا « وهو واد عذب الهواء حلو الماء ماؤها يوجد نبعا واستنباطا من الوهاد بحيث اذا حفر نحو الذراع أو اكثر قليلا ظهر الماء ونبع » . كما ويشير الى انه اثناء وجوده في معان وصل جماعة كثيرون يحملون الميرة والمؤن من الخليل ويعود ليؤكد على أنه « أعمر البنادر للبيع والشراء » . ولا يفوته هنا أن يشير الى ما كان يهدد الحجاج من غارات البدو ، خاصة عشائر المفارجة الذين كانوا يهددون سلامتهم . وفي احدى السنين ، لم يحددها ، يذكر انهم لم يسمحوا للحاج بالمرور الا بعد أن قبضوا ثلاثة وثلاثين ألفا من القروش الاسدية .

ويذكر الخياري انه بعد مغادرته مع قافلة الحاج الى معان مر بالحسا ، فيذكر ماءها ويشير الى الأعراب الذين كانوا ينقلون الميرة من الدقيق والشعير والمعبوك لعلف الجمال . أما القطرانة فيذكر قلعتها وأن « بها جماعة من اهلها مقيمون بها يبيعون منها التبن وما يشابه بالتدلي من أعلاه . والى جانبها بركة عظيمة الوضع كثيرة النفع اخبرني بعض من ذرع جهاتها الاربع انه تسعون ذراعا بذراع العمل وأن عمقها سبعة أذرع » ويذكر مرة اخرى ان الميرة والمعبوك والدجاج واللبن كانت

تباع عندها . من خلال استقراء معلومات الخياري نجد أنه يؤكد على النشـاط التجاري المرتبط بقافلة الحاج ، كما ويكثر الاشارة الى البرك وما فيها مـن ماء ، ومثل هذه الاشارة لها ما يبررها نظرا لقلة الينابيع هنالك . الا انه من الملاحـظ غياب العناصر العسكرية العثمانية الرسمية من القلاع حيث نجد أن الاهالي يحلون محلهم في حراسة القلاع(٣٨) .

اما الشيخ عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣ هـ/١٧٣١ م) فقد مر بمعان برفقة قافلة الحاج عائداً من اداء فريضة الحج الشريف سنة ١١٠٥ ـ ١١٠٦ هـ/١٦٩٣ ـ ١٦٩٤ م ، ويذكر ما يلي :

« فاشرفنا على قلعة معان وعلى بساتينها ودورها وبيوتها الحسان ، وهناك آبار ماء كثيرة ، ومياه غزيرة فجاء أهل القلعة وباعوا على الحجاج من المأكل والفواكه وعلف الدواب وما هو بقية المحتاج ، وحصل هناك كمال السرور وتمام الحضـور وقلنا في ذلك من النظام على حسب ما اقتضاه المقام .

في طريق الحجاز من نحو شام	قلعة مرسها الشهير معـان
كل من جاءها على قصـد حج	فهو من مالك الملـوك معـان

فلما طلع صباح يوم الخميس التاسع والسبعين وتلثمائة وهو اليوم الخامس والعشرون من المحرم صلينا صلاة الصبح ولم نزل هناك الى ان صلينا صلاة الظهر ، ثم ركبنا وسرنا في ذلك الوادي المسمى بوادي المسوخ (بالخاء المعجمة) وهو واد صلب كثير الاحجار ، الكبار والصغار ، على صور الرؤوس الممسوخة ... » . والجدير بالذكر أنه عند مروره بعنيزة يصفها بقوله « وهي برية واسعة ليس فيها ماء ولا بيوت ولا دور » . أما فيما يتعلق بقلعة القطرانة فيروى أنه كان فيها « طائفة من عسكر الشـام ينظرون الماء فيها »(٣٩) .

حرص العثمانيون على أن يوفروا كل أسباب الراحة والطمأنينة لقافلة الحاج الشريف في ذهابها وايابها الى ومن المدينة ومكة المكرمة ، وذلك بارسالهم حملـة عسكرية لملاقاة الحجاج في طريق عودتهم ، اطلقوا عليها مصطلح الجردة . وبالرغم من كل تلك الاحتياطات الا أن قافلة الحاج تعرضت سنة ١١٧٠ هـ/١٧٥٦ م لهجوم مخطط له من قبل العشائر العربية بقيادة بني صخر وبزعامة شيخها قعدان الفايز . ويصف لنا رسلان بن يحيى القاري تفاصيل هذا الهجوم ، ويذكر أن عدد القبائل التي شاركت فيه كان خمسـة وثلاثين قبيلة . « كل قبيلة تزيد على الفي فارس » .

وكان الهجوم موجها ضد الجردة الخارجة من دمشق بقيادة أمير الامراء موسى باشا المعراوي . ووقع التصادم بينهما قرب الحسا وتمكنت القبائل من الاجهاز على افراد الجردة . « وقد دارت عليهم العرب من كل مكان وهم يضربون بهم بالسنان حتى قتلوا اكثرهم وشلحوا الباقين والجردة من اخرهم »(٤٥) .

أما وقع الخبر في دمشق ، فيصفه لنا مشاهد عيان هو أحمد بدير البديري الحلاق (ت ١١٧٥ هـ/١٧٦١ م) بقوله : « لما وصلوا (العناصر العسكرية) في الجردة الى القطرانة خرجت عليه (موسى باشا المعراوي ، قائد الجردة) العرب شلحوه ونهبوا الجردة وكل ما فيها ، حتى شلحوه لباسه وخاتمه من اصبعه وانزلوه من تخته وركبوا مكانه في التخت ، واخذوا طبوله واطواخه ومدافعه »(٤١) . أما من كتبت له الحياة فقد هرب اما الى معان او الى غزة وبعضهم الى القدس . ومن الذين تمكنوا من الوصول الى معان ابن أمير الجردة الذي هرب والده الى قرية داعل بحوران حيث توفي هناك ونقل جثمانه ليدفن في دمشق الشام(٤٢) .

عندما وصلت انباء ذلك الهجوم الى دمشق وعلموا بما حصل لتلك الجردة ، ارسلت على الفور جردة ثانية برئاسة شيخ الشام ، الا انها لم تتجاوز البلقاء وذلك لوصول انباء تفيد بأن العشائر قد تجمعت في الطريق متربصة بالجردة الثانية تربصها بالجردة الاولى . اثناء ذلك وصلت الانباء الى قافلة الحاج وكانت بأمرة والي الشام حسين باشا ابن محمد مكي ابن فخر الدين فجمع الحجاج في بلدة العلا لمدة واحد وعشرين يوما . وكان طبيعيا أن يلحق بالحاج الضنك والخوف والمشقة بسبب قلة المؤونة والعلف . فلجأ حسين باشا الى اعتماد عنصر المفاوضة ، فعرض على قعدان مبلغا من المال لم يقبله قعدان الذي كان قد نفذ صبره ، فأمر قبائله بالهجوم فورا على القوات المرافقة للقافلة ، فهاجمتها والحقت بها هزيمة كبيرة . ثم تحولت على الفور لنهب قافلة الحاج نفسه « واما العرب فانهم غنموا غنيمة لم يغنموها قبل . ولم يتركوا كبيرا ولا صغيرا » . وهرب الاحياء من الحجاج على وجوههم الى عدة جهات ، قسم منهم ، كأمين الصرة والبلطجية وشقيقه السلطان عثمان هربوا مع خمسماية امراة الى غزة ولم يظهر لهم فيما بعد أي اثر . وهرب قسم اخر من الحاج الى معان حيث لاقى الامرين . ويصف البديري الحلاق ذلك بقوله :

« ثم اقام الحجاج اربعة ايام جوعا وعطشا لا ماء ولا زادا ومنهم من مات جوعا وعطشا وبردا وحرا . . . وما كفى جور العربان بل زاد عليهم جور أهل معان » (٤٣) . كما وصلت مجموعة من الحجاج الفارين الى القدس . ويصف لنا محمد أبو النصر الملقب بمنجا الطرابلسي (ت ١١٧٧ هـ/١٧٦٣ م) وصول الحجاج الهاربين

من تلك الغارة بقوله : « لما وردت الحجاج من كل فج وطريق مشلحين بلا زاد ولا رفيق ، وكنت اذ ذاك في القدس الشريف لدى حضرة ذي القدر المنيف (عبد اللطيف ابن عبد الله بن عبد القادر القدسي والد المؤلف) ... السيد عبد اللطيف نقيب الاشراف بالقدس وشيخ حرمه ... فرايت الحجاج ياتون اليه افواجا ويأمون فردا وازواجا ، وهو يتلقاهم بصدر رحيب ويوسع لهم الحبا ويمنحهم التقريب حتى غدت داره لهم دارا ومنزله محلا لهم وقرارا يطعم الجائع ويكسو العاري ولسان كل حال ينشد ويماري .

ماذا اقول لسيد متفضل   لما اساء الي دهري احسنا(٤٤)

أما أمير القافلة ووالي الشام حسين باشا ابن مكي فانه قدهرب متخفيا الى قلعة تبوك ومنها تسلل الى غزة حيث اقام فيها الى ان عين واليا برتبة وزير على مدينة مرعش . الا ان مقامه فيها لم يطل اكثر من عام ، اذ اعيد تعيينه مرة اخرى في غزة. لكن غزة عادت وتعرضت سنة ١١٧٩ هـ/١٧٦٥ م لغزوة من عشائر الوحيدات وبني صخر ، فهب حسين باشا لمقاتلة تلك العشائر الغازية . الا انه قتل اثناء ذلك في يوم الخميس ٢٥ ربيع الاول من العام ذاته/١١ أيلول سنة ١٧٦٥ م وتم ضبط أمواله لجهة الدولة(٤٥) .

لا شك ان تلك المجزرة التي لحقت بالحجاج لم تكن لتمر دون أن تحدث ردة فعل لدى المسؤولين العثمانيين . ففي العام التالي ، ١١٧٢ هـ/١٧٥٩ ، قام والي الشام الجديد عبد الله باشا الشتجي على راس مجموعة كبيرة من العساكر مزودة بمدفعين لفتح قلعة الكرك ، فتم له ذلك ، واقام فيها جزءا من القوة الانكشارية(٤٦) . كما وانه عند عودة الحاج ارسل جردة قوية ومعززة بقيادة عبد الرحمن باشا ابن الكوبريلي لحراستها . ولم يتوقف الامر عند ذلك الحد فقد قام والي الشام المعروف باسم عثمان باشا بتعمير سبع قلاع على امتداد طريق القافلة ، ومهد المناطق الصعبة لازالة العقبات من طريق الحاج . ويذكر بأن « ... له في طريق الحاج تسع عشرة خيرية ما بين عمارة قلاع وتعزيل وقطع صخر وانفق مالا لا يعد ولا يحصى »(٤٧) . وعندما جاء والي الشام محمد باشا العظم (ت ١١٩٧ هـ/١٧٨٢ م) حذا حذو سابقه عثمان باشا ، فعمر بير الزمرد على طريق الحاج(٤٨) . ويلاحظ ان المسؤولين في تلك الفترة حرصوا على تزويد الجردة بالماء والغذاء والكساء . كما وان بعض امراء الجردة كان يصل جنوبا حتى هدية في سبيل دفع اذى الاعراب عن الحاج(٤٩) .

يتضح لنا من المعلومات المتوفرة ان معان كانت تعتمد في وجودها الى حد بعيد ، على مرور قافلة الحاج الشريف بها ، حيث تنتعش تجارتها وتزداد مواردها

لقاء تقديمها الخدمات للقافلة . فعندما توسع القائمون على أمر الحركة السلفية التي توصف عادة بالحركة الوهابية ، كان توسعهم على حساب الحجاز مما ترك آثارا سلبية على معان . كما وأنه عندما قامت قوات الامام سعود بن عبد العزيز (ت ١٢٢٩ هـ/١٨١٣ م) بمهاجمة الحجاز واحتلال بعض اطرافه ، انقطعت قافلة الحاج المصري والشامي سنة ١٢٢٣ هـ/١٨٠٨ م عن المرور بمعان ، وأدى ذلك الى نتائج سيئة على المدينة وأهلها .

ويذكر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي (ت ١٢٣٧ هـ/١٨٢٢ م) في اخبار تلك السنة ما يلي : « ومنها انقطاع الحج المصري والشامي وانقطع عن اهل المدينة ومكة ما كان يصل إليهم من الصدقات والعلائف والصرر التي كانوا يتعيشون منها ، خرجوا من أوطانهم باولادهم ونسائهم ولم يمكث الا الذي ليس له ايراد من ذلك واتوا الى مصر والشام ومنهم من ذهب الى اسلامبول يتشكون من الوهابي ويستغيثون بالدولة في خلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التي كانوا عليها من اجراء الارزاق .. »(٥٠) . ويشير الرحالة السويسري جون لويس بيركهارت (ت ١٨١٧ م) عند مروره بمعان في شهر آب سنة ١٨١٢ م الى الخراب الذي أصاب المنطقة بسبب تحركات الوهابيين واغتنام القبائل البدوية لتلك الفرصة للقيام بالغزو والنهب . ويذكر أن جميع القلاع ما بين الطريق بالقرب من المفرق شمالا وما بين المدينة المنورة جنوبا باستثناء معان كانت مهجورة . ويبين أن معان كانت جنة بسبب الينابيع الموجودة فيها . وأن اهاليها كانوا يشترون السلع من الخليل وغزة ويبيعونها ، مع ما يجمعون من معان من اعشاب برية وفواكه ، على الحجاج . ويذكر بشكل خاص مشمش ودراقن ورمان معان الذي استحوذ على انتباهه حتى ان حبة الرمان الواحدة كانت تباع بقرش

ان توقف قافلة الحاج عن المرور بمعان احدث تذمرا لدى أهاليها وبدأوا يضيقون بأنفسهم ، حتى أن الكثير منهم تحولوا الى باعة متجولين يذهبون الى القرى المجاورة للمدينة . كما وهاجر بعضهم اما الى الطفيلة او الى الكرك .

وان الخطر الذي كان يواجه الحجاج كان فعليا بحيث أن قافلة الحاج المغربي التي قامت باداء فريضة الحج قد تعرضت للفتك وتوفي عدد من افرادها . وكان مرورها بمعان قد أوجد بعض النشاط التجاري . ومما يعود اليه بيركهارت ليذكره من جديد ، هو أنه اذا استمر انقطاع مرور القافلة عن معان ، فان معان ، بلا ريب ، مهددة بالاندثار .

ومن حسن الحظ فان بيركهارت يذكر لنا ان عدد سكان البلدة كانوا مائة بيت ، موزعين ما بين تلتين تفصل بينهما طريق الحاج ، التلة الشرقية تعرف بالشامية

والغربية تذكر باسم معان الحجازية . كما وانه لاحظ أن عددا من ابناء البلـدة يعرفون الكتابة والقراءة وأن عددا من الافراد كانوا يجودون القرآن الكريم ، وأن قسما من الذين يعرفون القراءة والكتابة كان يعمل لدى شيوخ البدو في ضبط حساباتهم وكتاباتهم . والظاهر أن عناية الاهالي بزراعة المحاصيل كانت ضئيلـة فبجانب التجارة كانت عنايتهم مركزة على اشجار الفواكه من الرمان والتين والخوخ . اما حبوبهم فكانوا يشترونها من الكرك لتقوم نساء معان بجزشها ويباع قسم منها للحجاج . ويشير بيركهارت الى عرب الحويطات الذين كانوا يسيطرون على منطقـة العقبة وكانوا على اتصال مصر . كما يشير الى وجود عرب الحجايا في منطقة الحسا حيث كان الفلاحون يفلحون قطعا من الاراضي هناك ، وتأخذ عرب الحجايا نصـف محصولهم . ولا يفوته أن يذكر بان قلعة القطرانة كان يحرسها جنود نظاميون من انكشارية دمشق وأن رئيس تلك الفئة العسكرية كان يشتري القمح من الكرك ويبيعه على الحجاج بربـح وفير(٥١) .

كانت بلاد الشام قد خضعت لمحمد علي باشا (١٨٣١ ـ ١٨٤٠ م) . وعني ابراهيم باشا بتعمير القلاع والبرك والمنازل الواقعة على امتداد طريق الحاج الشامي . ونجد في وثائق عابدين تقريرا مقدما في ٢٧ صفر سنة ١٢٥١ هـ/٢٤ حزيران ١٨٣٥ م الى محمد علي باشا متضمنا عدد المنازل والبرك والقلاع التي نالها الترميم أو اجرى عليها الكشف مثل : الرمثة ، عين الزرقاء ، البلقاء ، القطرانة ، الحسا ، ظهـر عنيزة ومعان ، التي يصفها التقرير بما يلي :

« معان : اسم لمرحلة تقع على مسافة ١٠ ساعات من قلعة ظهر العنيزة وتقوم على هضبتين . وهناك قريتان الواحدة تجاه الاخرى بنيتا بالطوب التي على شكل القلاع وهذه المرحلة بالنسبة الى البادية معمورة وينتج فيها من انواع الفاكهة الرمان، والسفرجل والتين وتوجد بجوار هاتين القريتين فيبطن واد هنالكعدة ينابيع صغيرة. كما يوجد في القرية الثانية عدة آبار تقعبينها بركة ماء طولها ٣٥ ذراعا وعرضها ٢٥ ذراعا وعمقها ١٥ ، تغذى بالماء من الابار بواسطة الشواديف وليس ثمة ايةضائقة والحمد لله من ناحية الماء في هذه المرحلة » .

ويصف بعد ذلك قلاع العقبة ، المدورة ، تبوك ، الاخيضر ، بركة المعظم ، الدار الحمراء ، مدائن صالح ، بئر الزمزد ، بئر الوالدة ، الهدية ، النخلتين ، أبيـار نظيف ثم المدينة المنورة . فاذا ما دققنا في المعلومات الواردة في ذلك التقرير فاننا نجدها تلخص لنا الوضع العمراني للقلاع والبرك وتوافر المياه ، وعن الترميم الذي قام بن الموكولون بأمر الكشف(٥٢) .

كانت معان وما جاورها ، من ضمن المناطق التي شملتها اجراءات ما يعرف اصطلاحا باسم التنظيمات العثمانية التي طبقت في بلاد الشام وفي غيرها من بلدان السلطنة العثمانية . فبموجب سالنامة سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٤ م ، العائدة لولاية سورية ، نجد أن معان كانت تشكل مركزا لناحية تابعة لسنجق (لواء) البلقاء . وكان لهذه الناحية مدير يعرف باسم محمد علي أفندي يساعده معاون له اسمه الشيخ علاء الدين أفندي . اضافة الى هؤلاء كان هناك مجلس مهمته معاونة المدير مؤلف من اربعة أشخاص من أهالي البلدة(٥٣) .

وبموجب سالنامة سنة ١٣١١ هـ/١٣٩٣ م ، لم تعد معان ناحية بل تحولت الى مركز متصرفية (سنجق) يتبع لها كل من قضاء الطفيلة وقضاء الكرك . وبجانب المتصرف ، حسين حلمي أفندي ، كان هناك محاسب يعرف باسم جمال بك(٥٤) .

أما سالنامة العام التالي فانها تبين لنا أن مركز المتصرفية تحول الى الكرك ، الا ان اللواء بقي معروفا باسم معان واصبحت معان نفسها مركز قضاء يديره قائمقام يساعده نائب ومدير مالي ومدير تحريرات . وكان هناك مجلس ادارة القضاء المؤلف خصيصا الى أصحاب المناصب الآنف ذكرهم يعاونهم ثلاثة من الاهالي هم : خليل افندي الشلبي وعبد الغني النسعة وعلي أفندي كريشان . أما من حيث الخدمات فيشار الى وجود مكتب للبرق (تلغراف) في معان(٥٥) .

وتشير السالنامات الاحدث من السالنامات المذكورة سابقا الى وجود أمين صندوق ومأمور تحصيلات وكاتب للمحكمة الشرعية . والاهم من ذلك فانها تشير الى وجود مدرسة (مكتب) ابتدائية في معان ، اضافة الى وجود عيادة طبية (خستة خانة) مناطة بوكيل طبيب اسمه شوكت أفندي . ومن المراكز الاخرى التي تذكرها السالنامات وجود ثلاثة جوامع في البلدة ومسلخ وقشلة (سجن) . ولا يفوت هذه المصادر الرسمية أن تدون لنا أن عدد سكان معان كان ٣٣٠ خانة موزعين ما بين معان الحجازية والشامية . وأن قسما من أهاليها كانوا يتعاطون زراعة الحنطة والشعير . وأن تسع قرى تتبع لها . كما وتعدد لنا العربان القاطنين حولها والتابعين لها ؛ وهي عربان : الرشايدة ، العمارين ، السعيديين ، النعيمات ، البدول وبنو عطية(٥٦) .

كان مطلع القرن العشرين مرحلة جديدة في تاريخ معان ، اذ دخلت المدينة في طور النمو والاتساع . وارتبط ذلك بانشاء الخط الحديدي الحجازي . ففي أيلول من عام ١٩٠٤ م تم وصلها مع عمان ودمشق بخط طوله ٤٥٩ كم . وبعد ذلك بسنتين

ثم ربط المدورة بمعان . وكان طبيعيا ان تفيد معان من تدفق الاعداد الكبيرة عليها من العمال والفنيين والمهندسين والاطباء ، الذين قدر عددهم بالف شخص واتخذوا منها مركزا لهم . وبذلك توسعت اتصالاتها التجارية اصبحت حاجاتها من السلع والبضائع تأتي من الخليل والعقبة والكرك ودمشق . ودخلت الى معان سلعة جديدة هي السياحة ، فازداد عدد الزوار الى البتراء ، وادى ذلك الى انشاء فندق فيها ومستشفى . هذا بالاضافة الى بناء مستودع لقطع الغيار والصيانة . وكان هذا الازدهار كفيلا باستقطاب عدد من أهالي دمشق للقدوم الى معان والاقامة فيها .

لم تكن كل تلك الحقبة من الزمن سعادة وهناء ، بل ان المنطقة تعرضت للامراض الفتاكة ، منها الكوليرا التي اودت سنة ١٩٠٢ م بحياة عدد كبير من العمال ومن اهالي المنطقة . زيادة على ذلك ، وبالرغم من كل الاحتياطات الامنية فان غارات العناصر البدوية على العمال والفنيين وسكان القرى لم تتوقف نهائيا . اذ رات تلك العناصر ان في الخط الحديدي تهديدا لموارد رزقهم المتحصلة لهم من وارد تأجير الجمال وتقديم بعض الخدمات . لذا ، بادرت الدولة العثمانية الى تعيين قوات عسكرية لحماية العاملين في تمديد الخط الحديدي(٥٧) . بل زيادة على ذلك ولتبيان أن هذا العمل شرعي قام أحد علماء دمشق ، السيد محمد عارف ابن السيد أحمد المنير الحسيني الدمشقي (ت ١٣٤٢ هـ/١٩٢٣ م) وعلى الاغلب ، وبناء على تكليف من الدولة نفسها سنة ١٣١٨ هـ/١٩٠٠ م بوضع كتاب سماه : كتاب السعادة النامية الابدية في السكة الحجازية الحديدية . يذكر فيه صراحة وبعنوان بارز احد مواضيعه « في بيان ما يستفيد بدو الشام من انشاء هذه السكة »(٥٨) . ومن الملاحظ انه بعد انجاز تمديدات الخط الحديدي اخذت اعداد كبيرة من العمال والفنيين بمغادرة المدينة(٥٩) . وبذلك بدأت معان تفقد تدريجيا بعضا من ازدهارها ورخائها .

وكانت اكبر ضربة تلقتها معان هي تخريب الخط الحديدي وتوقف مرور الحجاج بها من بلاد الشام وبلاد الاناضول ، وذلك بعد اعلان الشريف حسين الثورة على رجال الاتحاد والترقي الذين اغتصبوا السلطان العثماني سلطاته الشرعية(٦٠) . وعلى اثر ذلك وجه الشريف حسين جيشه بقيادة ابنه فيصل نحو بلاد الشام ، فتحولت معان عندئذ الى نقطة تجمع للعساكر العثمانية .

تمكن الجيش الشمالي للشريف الحسين بن علي بقيادة ابنه الثالث الامير فيصل من ان يحتل الوجه في شمالي الحجاز وذلك في ٢٤ كانون الثاني عام ١٩١٧ ، ويتخذ من جيدا مركزا لقيادته(٦١) . ومن هنا بدأ فيصل باجراء اتصالات مكثفة مع زعماء المناطق في جنوبي بلاد الشام ، خاصة زعماء عشائر الحويطات والرولة

وعنزة وبني صخر(٦٢) . وكان أبرز هؤلاء الرؤساء ، بلا شك ، عودة ابو تايه من زعماء عشيرة الحويطات ، الذي استطاع أن يحرز انتصارا سريعا على القوات التركية في ٢ تموز سنة ١٩١٧ م في موقع أبي اللسن . اما خسائر الاتراك فقد قدرت بنحو ثلاثمائة جندي بالاضافة الى اسر ما يقرب من مائة وستين عنصرا عسكريا منهم(٦٣) . وبعد ذلك بأربعة أيام تمكن من احتلال العقبة بعد ان قصفها الاسطول البريطاني مرتين . وكانت خسائر الاتراك جسيمة اذ انها قدرت بستماية قتيل وسبعماية وثمانين اسيرا . وكان طبيعيا ان يتحول الامير فيصل الى العقبة فدخلها في ٢٣ آب من العام ذاته . ومن العقبة بدأ فيصل باعادة نشر قواته النظامية منها والمتطوعة خاصة من العناصر البدوية ، لمهاجمة الخط الحديدي الحجازي بهدف ايقاف وصول المؤن الى القوات التركية المحصورة في المدينة المنورة وفي معان ذاتها . كما وانه أرسل قوات لتطويق كل من الطفيلة والشوبك . ولقد تمكنت قواته من احتلال الطفيلة في ١٤ كانون الثاني ١٩١٨ م ، الا أن الاتراك عادوا واستعادوها في ١٧ آذار لتسترجعها قوات فيصل مرة اخرى في اليوم التالي(٦٤) .

بالرغم من المحاولات العديدة التي قام بها فيصل شخصيا وغيره من قادته ، الا انه لم يتمكن من احتلال معان التي كان يتحصن فيها القائد التركي علي وهبي . ويرجع ذلك الى ان القوات الركية كانت متفوقة على الجيش الشمالي عددا وعدة ونوعية . وقد اوردت التقارير(٦٥) تعداد الفوات على النحو التالي :

العساكر الشريفية	العساكر التركية	البلدة/الموقع
٣٥٠٠	٤٠٠٠ (بالمتاريس)	معان
٧٠٠	—	الوهيدة
٨٠٠	١٥٠	جرذون
٦٠٠	٤٠٠	جرف الدراويش
٧٠ (مع الشريف ناصر)	—	الحسا
٤٠٠ بدوي	٥٠٠	عنيزة
—	٨٠٠٠	عمان

نقل الامير فيصل مركز قيادته من العقبة الى القويرة ، لوصول الاخبار اليه بانسحاب الاتراك من ابي اللسن ، فاستبشر فيصل بذلك خيرا . وجاء في رسالة له وجهها الى اخيه الاصغر الامير زيد بتاريخ ١٩١٨/١/٣ م ، أنه يعتبر ذلك حسن توفيق الله ويطلب منه في رسالته هذه القدوم عليه « لان الشغل قد ابتدأ وابتدات

الحركات »(٦٦٦) . وبعد ذلك بخمسة ايام كان وصول الامير زيد الى اخيه فيصل في القويرة حيث سافر من هناك الى وادي موسى فالشوبك ومنها الى الطفيلة حيث وصلها وباشر بمحاصرتها في السابع عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩١٨(٦٧) . وفي شهر شباط من العام نفسه كان الامير فيصل قد فشل في احتلال مركز فصوعه الواقع على بعد ٤٠ كم الى جنوبي معان ، وذلك بسبب تراكم الثلوج وشدة البرد اللذين لم يكن جيشه قد اعتادعليهما . ويذكر في احد تقاريره الى والده انه لـم يوفق « من شدة البرد وضياعنا قسم مهم من وسائط نقلنا »(٦٨) .

وبعد مهاجمة الجيش البريطاني للسلط ، نجد ان القوات التركية تحاول ان تحد من انتشارها وان تتجمع في مراكز رئيسية . فكان تجمعها في كل من معـان والكرك(٦٩) . عندئذ اضطر فيصل الى تكثيف تجمع عساكره حول معان ليتمكن من مهاجمتها على عدة محاور ومن عدة جهات . فانضم اليه الامير زيد بأبي اللسن ، وذلك في الاول من شهر نيسان من ذلك العام . وانتقلت قوات الجيش الشمالي بقيادة فيصل من القويرة الى وهيدة . وكان الهجوم الاول على القوات التركية في الحادي عشر من نيسان عام ١٩١٨ م ، بقيادة الشريف فهد ونوري السعيد والحويطات بقيادة عودة ابو تايه ، تعاونهم مفرزة فرنسية قوامها ٣٠٠ جندي نظامي . ولقـد تمكنت هذه القوات من احتلال موقع غدير الحاج الى جنوبي معان ونجحت في ان تأسر ١٥٠ جنديا تركيا بالاضافة الى تخريبها ٢٣ كم من السكة . وعادت بعد ذلك الى مقر القيادة في وهيدة(٧٠) .

اما الهجوم الثاني فكان بقيادة كل من الامير زيد وجعفر العسكري على رأس قوة قوامها ٥٠٠ جندي نظامي ، تساندهم اربعة مدافع ، وركزوا هجومهم على محطة ابو الجرذون الواقعة على بعد عشرين كيلومترا الى الشمال من معان . وغنمـوا في ذلك الهجوم ٣٠٠ بندقية و (٣) رشاشات كبار ، ووقع في ايديهم مائة وعشرون أسيرا من القوات التركية . والهجوم الثالث كان موجها الى تلول السمنات حيث تم أسر عشرة جنود اتراك وتم الاستيلاء على مابة بندقية ورشاشين : وخربت هذه القوات مـرة اخرى ، جزءا من سكة الحديد(٧١) .

اما الهجوم الكبير على معان فتم ما بين ١٥ ــ ١٧ نيسان بقيادة الامير فيصل نفسه . وبالرغم من الجهود التي بذلها فيصل الا انه لم يتمكن من دخول معان ، اذ ان القوات التركية المستحكمة استطاعت ان ترد فيصل الى تلول السمنات مرة اخرى بعد ان فقد ثلاثماية من جنوده ما بين قتيل وجريح ، اضافة الى نفاذ ذخائره . وحسب ما جاء في رسالة مـن الكولونيل لورانس : « ... وما يمكن لاي قائد اليـوم

ان يهجم على قوة مستحكمة الا اذا عنده على الاقل نوبتين او ثلاث توبات قد القوة المحضورة » . اما راي لورنس بالعناصر البدوية في جيش فيصل فكان على النحو التالي ، وفقا لما جاء في نفس الرسالة : « اما البدو ما ينفعوا للمداومة على الحصار ولا يبغون يهجمون على استحكامات ، والحويطات وبني صخر وغيرهم من العربان اللي عند سيدي فيصل ما اشتركوا في معان »(٧٢) . ونتيجة لهذا الانتصار الذي احرزه الاتراك فقد تمكنوا من اصلاح وترميم ما تخرب من الخط الحديدي ، وبذلك أصبح بمقدورهم ان يحصلوا على المؤن والعتاد من الشام الى معان(٧٣) .

لم يكتف الاتراك بهذا النصر بدفع فيصل بل بدأوا بقصف مخازن الوقود ومستودعات المؤن والذخائر بالمدفعية . ويلاحظ في الرسائل المتبادلة ما بين الامير فيصل والقائد التركي المحصور علي وهبي وورود اتهامات متبادلة حول اساءة التصرف . فيرجو القائد التركي من فيصل أن يكف عن قصف معان « التي ليس فيها سوى الاطفال والنساء وهذا ما أتمناه من شرافتكم »(٧٤) . أما جواب فيصل فقد نفى ذلك وبين المعاملة السيئة التي يلقاها أسرى جيشه على يد القوات التركية، حتى أن الجنود الاتراك كانوا يمثلون بالاسرى العرب . وبالمقابل فانه يطلب من علي وهبي أن يسأل الاسرى الاتراك حول المعاملة الطيبة التي يلقونها من جيش فيصل . ويعود ويؤكد لعلي وهبي ما يلي :

« اننا سنداوم على ضرب معان حتى تقلعوا عن ضرب مضارب البدو بالطائرات وعلي جميع اسلحتكم وعبدي أفندي وجنوده أن يبادروا لاخلاء معان »(٧٥) . ولم يتوقف الاتراك عن تعزيز مواقعهم بالرغم من استمرار قصف معان ، حتى انهم تمكنوا من استعادة طابية الحمراء ، ما بين معان والجرذون(٧٦) . ولا شك أن الوضع النفسي لقوات فيصل قد تحسن بعد سقوط المدورة بتاريخ ١٩١٨/٨/٨ بيد قائد الهجانة البريطانية الموجودة هناك ، بيك باشا(٧٧) . الا أن المعركة تحولت لصالح الجيش التركي ، فاستطاع بعد قتال دام ثلاثة أيام مستمرة من استرجاع الحسا في ١٩١٨/٩/٦ م ، لتنسحب القوات العربية المرابطة هناك الى الشوبك(٧٨) . وبعد ذلك بيومين نجح الاتراك في احتلال موقع السمنتين . الا أن الامير زيد استطاع ، فيما بعد ، استرجاعها(٧٩) .

ازاء هذا الوضع على جبهة معان ، وبسالة مقاومة الاتراك ، وجد الامير فيصل نفسه مضطرا للتوجه الى الشمال حيث كانت الامور افضل نتيجة للانتصارات التي أحرزها الجيش البريطاني في منطقة البلقاء واحتلاليه كل من العفولة ، طولكرم ، بيسان ، الناصرة وحيفا بالاضافة الى عمان والسلط . وترك فيصل المسؤولية على

جبهة معان لاخيه الامير زيد الذي استطاع ، مع عشائر الجازي من الحويطات وعشائر ابن هداية(٨٠) ، من اشغال القوات التركية التي بدأت في الانسحاب لانقاذ نفسها من خطر تطويق العساكر البريطانية والعناصر البدوية لها . فانسحب الاتراك من الرشادية والقطرانة والطفيلة في ١٩١٨/٩/١٦ م . ثم ما أن علموا بسقوط عمان حتى انسحبوا في ١٩١٨/٩/٢٤ من معان ، فدخلها الامير زيد في اليوم التالي وغنم ما تركه الاتراك من اسلحة .

ولقد جاء في وصف الامير زيد للاستحكامات التركية ما يلي : « وقد وجدنا استحكامات معان مبنية على اخر طراز من الفن »(٨١) . وتلى سقوط معان استسلام القوات التركية في تبوك ، للامير زيد في الخامس عشر من شهر تشرين الاول ١٩١٨ م(٨٢) .

وبعد ان أمن زيد الجبهة الجنوبية ، غادر معان يوم التاسع من تشرين الثاني ومر في طريقه بالكرك ، ومنها الى عمان التي وصلها يوم السابع عشر من الشهر ذاته ليتركها في اليوم التالي الى درعا حيث تابع سيره الى دمشق فوصلها في ١٥ صفر ١٣٣٧ هـ/١٩ تشرين الثاني ١٩١٨ م ، ليجتمع هناك مع اخيه الامير فيصل(٨٣) .

يلاحظ من خلال استقراء أوراق كل من الاميرين فيصل وزيد أنهما كانا دوما بحاجة الى العتاد والمؤن ، اضافة الى المال وذلك لاستجلاب خاطر العشائر ، ولضمان ولائها لكثرة تقلب مواقفها من ثورة الشريف الحسين بن علي . ومما زاد في الصعوبات التي واجهها فيصل عدم الانسجام ما بين اكبار ضباطه مما أضعف روح الضبط والربط العسكري في جيشه . كما أن العناصر البدوية لم تكن معدة ومهيأة للقتال الطويل ، بل كانت أميل الى مبدأ الغارة السريعة . زيادة على ذلك لم يكن يتوفر لفيصل أجهزة للاتصال المباشر مع والده في مكة المكرمة بل كانت معظم الاتصالات بينهما تتم عن طريق المعتمد البريطاني بجدة . ومن هنا يتضح لنا انه لم يتيسر لفيصل أن يحافظ على سرية حركاته العسكرية ، فأصبح الانكليز على اطلاع شبه كامل عليهما(٨٤) .

ويجب أن نتذكر هنا الحملة الاعلامية التي شنها القائد التركي جمال باشا الكبير ضد الثورة . كما وانه لم يكتف بذلك بل قام باجراء اتصالات مع ضباط فيصل محاولا ثني عزمهم عن الاستمرار في الخدمة مع جيش الثورة العربية . ونراه يستمر في خطته حتى انه كاتب فيصل نفسه على أمل اقناعه بالعودة عن الثورة(٨٥) .

بعد قيام المملكة العربية في دمشق بقيادة فيصل كانت معان وما جاورها تعتبر جزءاً من تلك المملكة . وعين فيصل لها قائمقام اسمه عبد السلام كمال . الا انه بعد سقوط مملكة فيصل ، على اثر انتصار الفرنسيين في معركة ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠م ، فقد اعتبر الشريف حسين معان والعقبة جزاء من مملكة الحجاز ، وعين لهما منير عبد الهادي كقائمقام . وشارك منير هذا في استقبال الامير عبد الله عند قدومه الى معان في ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٠ م(٨٦) .

بقيت كل من العقبه ومعان تابعتين للحجاز حتى بعد قيام امارة الشرق العربي ، الى أن تم الحاقهما بهذه الامارة سنة ١٩٢٥ م .

عندما اندلعت الاضطرابات في حوران وجبل الدروز ، ونجم عن ذلك مقتل اثنين من الوزراء السوريين ، استأذن الامير عبد الله ، الابن الثاني لشريف مكة ، والده في أن يسافر الى بلاد الشام لتنظيم المقاومة ضد الفرنسيين ، ولقد جاء في مذاكرات الامير عبد الله ما يلي : « وطلب أهل الاخلاص من المشتغلين في القضية العربية في سوريا ارسال من ينوب عن الملك فيصل من الشخصيات الملكية في البيت الهاشمي . فاستأذنت والدي وطلبت ان يحملني تبعات هذه الحركة شخصيا ، فأذن لي . وتوجهت من مكة المكرمة الى المدينة المنورة ومنها بالخط الحديدي الى معان فوصلنا بعد شهر وبعد مشقة شديدة بسبب خراب السكة . وكان الوصول في ١١ ربيع الاول سنة ١٣٣٩ هـ الموافق ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ م . واستقبلني أهل معان وباديتها بكل محبة وحماسة »(٨٧) . ومن معان بدأ الامير عبد اللهباجراء اتصالاته مع مختلف الزعامات المحلية السورية . ودعا الضباط للالتحاق به ، وكانت الاستجابة لدعوته ، كما يذكر الامير عبد الله ، ضعيفة سواء من شيوخ العشائر أو الضباط ، وذلك لقلة المال من جهة ولتخوفهم من اخفاق الحركة من جهة ثانية . « ولكن الامر كان على خلاف ذلك في شرق الاردن . فقد هرع الناس الي يدعونني الى عمان وكنت أجيبهم بأنني فاعل ان شاء الله »(٨٨) .

والجدير بالذكر أن الامير عبد الله اصدر ، أثناء وجوده في معان (٢١/١٠/١٩٢٠ — ٢٨/٢/١٩٢١) جريدة سماها « الحق يعلو » جريدة عربية ثورية تصدر مرة في الاسبوع » . وتضمنت الجريدة خطاب الامير عبد الله الذي القاه في معان . وكذلك نشرت فيها اشعار للامير واخبار الوفود التي قدمت عليه . ولم يصدر من تلك الجريدة الا خمسة أعداد فقط(٨٩) .

غادر الامير عبد الله معان يوم الاثنين في ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٣٣٩ هـ/ ٢٨ شباط ١٩٢١ م متوجها الى عمان حيث توقف في القطرانة ليتلقى وفود الكرك

والطفيلة . كما وتوقف أيضا في الجيزة حيث كانت عشائر بني صخر وعشائر العجارمة واهالي تلك المنطقة في استقباله أيضا . أما وصوله الى عمان فكان بعد ظهر يوم الاربعاء الموافق ٢٢ جمادى الثانية ١٢/١٣٣٩ آذار ١٩٢١ م(٩٠) .

بعد تنازل الملك الحسين بن علي عن عرش الحجاز لابنه الامير علي ، غادر مكة المكرمة الى العقبة واقام فيها قرابة ثمانية اشهر ، ثم غادرها في ٢٦ ذي القعدة ١٣٤٣ هـ/١٧ حزيران ١٩٢٥ م الى قبرص . بعد ذلك باسبوع (١٩٢٥/٦/٢٤ م) ، اصدر الامير عبد الله ارادته بضم كل من العقبة ومعان الى امارة شرقي الاردن . وجاءت ارادته على النحو التالي :

« نظرا لتنسيب صاحب الجلالة الهاشمية الملك علي المعظم ملك البلاد المقدسة الحجازية ضم ولاية معان والعقبة الى امارتنا اقتضى اصدار ارادتنا اليكم اعلانا بذلك مع الشكر الدائم لجلالته الملوكية الهاشمية منا ومن شعبنا ومن حكومتنا » . وفي اليوم التالي قام الامير عبد الله يرافقه رئيس نظاره آنذاك رضا باشا الراكابي ، وتراس مراسيم الانضمام الرسمي واعتبر يوم ٢٥ حزيران التاريخ الرسمي لانضمام العقبة ومعان الى امارة شرقي الاردن(٩١) . والجدير بالذكر أن سلطان نجد عبد العزيز بن سعود لم يعترف رسميا على هذا الضم ، وانما اضطر للسكوت عليه نظرا لتوقيعه معاهدة جدة في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩٢٥ م التي بينت الحدود ما بين شرقي الاردن ونجد ، والتي بموجبها أعطيت قرية الكاف للسعوديين . كما أن شرقي الاردن ضمن اتصال حدوده مع مملكة العراق ، بالرغم من اصرار السعوديين في أن يكون لهم حدود مباشرة مع سورية . كما وضمنت بريطانيا لنفسها خطا جويا دون أن يضطر الانكليز الى المرور فوق اراض نجدية ، حيث أن بريطانيا كانت تفاوض ، في حينها ، نيابة عن الاردن بوفد يراسه السيد جلبرت كلايتون(٩٢) يعاونه جورج انطونيوس(٩٣) .

وبانضمام معان الى امارة شرقي الاردن بدأ فصل جديد من تاريخها المعاصر يدرس ضمن اطار التكوين السياسي الجديد .



الهوامش والملاحظات

(١) ايلة : حول تاريخ هذه البلدة التي تذكرها المصادر الجغرافية العربية على انها مدينة على شاطىء بحر القلزم وبانها كانت ملتقى « يجتمع فيها حجيج الشام ومصر ومن جاء بطريق البحر » ، انظر هذه النصوص لدى الاب .ا.س.مرمرجي الدومنيكي ، بادانية فلسطين العربية ، مطبعة جان دارك ، بيروت ، ١٩٤٨ ، ص ١٤ – ١٦ ، كذلك راجع مقالة

H. W. Glidden, « al-Akaba », EI. 2, vol.1,pp314-315

ومقالة نفس المؤلف المعنونة باسم :

« Ayla, » EI. 2, vol. i., pp 783 - 784.

(٢) حول النصوص المتعلقة بمعان في عدد من المصادر الجغرافية العربية ، راجع ما جمعه عنها الاب مرمرجي الدومنيكي ، المرجع نفسه ، ص٢٢ ، كذلك انظر المادة المذكورة لدى جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب ، مادة « معن » .

(٣) حول المادة العائدة لكل من الشوبك والطفيلة،الكرك في المصادر الجغرافية العربية ، انظر عنها ما جمعه الاب مرمرجي الدومنيكي ، المرجع نفسه ، ص ١٢٦ ، ص ١٩٢ – ١٩٧ ، كذلك راجع محمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك في العهد المملوكي ، مطبعة الجمعية العلمية الملكية ، عمان ، ١٩٧٦ ، وراجع ايضا يوسف درويش غوانمة ، تاريخ شرقي الاردن في عصر دولة المماليك جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ، ١٩٧٩ ، ص ٣٢ .

(٤) من المعروف ان الصنم المعروف باسم « هبل »كان قد جيء به من بلاد مؤاب ونصب في جوف الكعبة، كما ان عددا من الاصنام كان قد جيء بها قبل ذلك من البلقاء بالشام ونصبت حول الكعبة ، حول ذلك انظر هشام ابن محمد بن السائب الكلبي، (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩م) ، كتاب الاصنام حققه احمد زكي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب(١٩٢٤) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة، ١٩٦٥ ، ص ٨ ، ص ٢٧ – ٢٨ . وانظر ايضا مقالة :

T. Fand « Hubal » E.I.2 vol. III, pp. 536 - 537

ويورد احمد بن يحيى بن جابر بن داوود البغدادي البلاذري ، (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) ، على لسان عثمان بن عفان الخبر التالي :« وقال عثمان يا رسول الله قدمت حديثا من الشام، فلما كنت بين معان وموضع سماه اذ منادينادي ، ايها النيام هبوا ان احمد قد خرج بمكة فقدمنا فسمعنا بك فلم اتمالك أن جئتك »هذا بالاضافة الى ان شاعر الرسول حسان بن ثابت (ت ح ٤٠هـ/٦٦٠م)، قال يمدح جبلة بن الايهم صاحب التاج الغساني بقوله :

« لمن الدار اوحشت بمعان — بين اعلا اليرموك فالخمان
فالقريات من بلاس فداريا — فسكاء فالقصور الدواني
فقفا جاسم فاودية الصفر — مغنى قنابل وهجان »

انظر ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق سيد حنفي حسنين ، راجعه حسن كامل الصيرفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ، ص ٢٤٢ ، كذلك انظر البلاذري ، انساب الاشراف ، ق٤ ، ج١ ، تحقيق احسان عباس ، منشورات جمعية المستشرقين الالمان ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م ، ص ٤٨٢ .

(٥) حول الغساسنة وهم فرع من عشائر الازد منجنوبي الجزيرة ، راجع مقالة
Irfan Shahid « Ghassan » E.I.2, II, pp. 1020 - 1021
وراجع ايضا مادة « غسن » في لسان العرب .

(٦) لخم من القحطانية كانت مساكنها متفرقــة واكثرها بعد الاسلام ما بين الرملة ومصر ومنها في الجولان ، وحول نوى ، ومن مراكزها في فلسطين حول رفح وحدس ونزل قسم منهم بمنطقة القدس ، راجع مخطـوط المختصر من جمهرة النسب ، لمؤلف مجهول ، راغب باشا ، اسطنبول ، رقـم ٩٩٩ تاريخ ، ص ٢٤١ ، كذلك راجع محمد بن جرير الطبري(ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) ، تاريـخ الرسل والملوك ، ١٠م ، تحقيق محمد ابـو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، م ٤ ، ص ٣٧٧ ، كذلك راجع عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثـة ، المكتبة الهاشميـة ، دمشق ، ١٩٤٩ – ١٩٧٥ ، م٣ ، ص ١٠١١ – ١٠١٢ .

(٧) جذام : قبيلة من قضاعة من القبائل اليمنية ديارها حول ايلة ، كانت لهم رئاسة في معان وما حولها ومن بطونها فرعان بنو عائد في اعمال مصر الشرقية والبطن الثاني يعرف ببني عقبة ، وهم من الكرك الى الازلم عرفت حسمى بهم « حسمى جذام » ، انظر مخطوط النسب الكبير ، رقم 1698 لهشام ابن محمد الكلبي مكتبة الاسكوريال ، ص ١٣٥ – ١٣٨ ، الطبري ، المصـدر نفسه ، م٧ ، ص ٢١٦ ، C. E. Bosworth, « Djudham » E.I.2, vol. ii, p. 573
انظر لسان العرب مادة « جذم »

(٨) باقين : من قبائل العرب المستعربة انضمت الى هرقل سنة ٨هـ/٦٢٩ م في غزوة مؤته ، عمر رضا كحالة ، المرجع نفسه ، م١ ، ص ١٠٤ .

(٩) بلي : من قبائل اليمن من قضاعة كانت قدنزلت بتيماء وتهودوا ، وحدد مساكنها « ما بين المدينة ووادي القرى من منقطع دار جهينة الى حد دار جذام بالمنبك على شاطيء البحر ، ثم عينونا من خلفها ثم لها حياض البر الى حد تبوك ثم الى جبال الشراه ثم الى معان ثم راجعا الى ايله الى ان نقول المغار وهو منزل للخم » . انظر : هشام بن محمد الكلبي ، النسب الكبير ، مخطوط الاسكوريال رقم 1698 ص ٥٠٤ – ١١٥ ، عبد الله بن عبد العزيز البكري الاندلسي (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤ م) ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ٤م ، حققه مصطفى السقا ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ – ١٩٥١ ، م١ ، ص ٢٧ – ٢٩ ، لسان العرب ، مادة « بلا » ومقالة J. Schliefer. عن قبيلة بلي ، دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، م٤ ، ص ١٦٨ – ١٧٠ .

(١٠) حول اخبار فروة واسلامه وما ارسله للنبي من هدايا راجع عبد الملك بن هشام بن ايوب المعافري (ت ٢٠٣ هـ / ٨٢٨م) ، السيرة النبوية ، ٤م ، تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الإبياري ، وعبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى الحلبي البابي ، ١٩٣٦ ، م٤ ، ص ١٦ – ١٨ ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ ، الطبري ، المصدر نفسه ، م١ ، ص٣٧ – ٣٨ ، عز الدين علي بن ابي الكرم الشيباني المعروف بابن الاثير ، (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) ، الكامل في التاريخ ، ١٣م ، تحقيق Carolus Johannes Tornberg بريل ١٨٥٣ ، اعيد نشر هذه الطبعة وتنقيحها من قبل دار صادر ، ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٥ – ١٩٦٧ ، م٢ ، ص ٢٢٥ ، وكذلك انظر

محمد ابن عبد المنعم الحميري (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦ م؟) الروض المعطار في خبر الاقطار ، حققه احسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت،١٩٧٧، ص ٥١٧ ، ص ٥٥٧ ، ص ٥٦٥ ، ص ٦١٨ ، وانظر ايضا حول نص الرسائل محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ط٣ ، دار الارشاد ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٩٦ (رسالة رقم ٣٥ – ٣٦) .

(١١) انظر ديوان عبد الله بن رواحه الانصاري الخزرجي دراسة وجمع وتحقيق حسن محمد باجوده ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ،١٩٧٢، ص ١٠٢ – ١٠٣ ،

(١٢) راجع البلاذري ، انساب الاشراف ، ج٤ ، ق٢، حققه Max Schloessinger القدس ، ١٩٣٨ ، ص ١٤٨ .

(١٣) انظر على سبيل المثال ما ذكره ابراهيم بن محمد الاصطخري المعروف بالكرخي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) ، مسالك الممالك تحقيق M. J. De Goeje ليدن ، بريل ، ١٩٢٧ ، صورته كتابخانة بطهران ، لا . ت، ص ٤٨ ، محمد ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧) ، صورة الارض ، ص ١٥٤ ، ص ١٦٩ – ١٧٠ ، حيث يذكرها بقوله : « ومعان مدينة صغيرة على شفير البادية ايضا سكانها بنو امية وفيهم لبني السبيل مرفق ومفوته » راجع ايضا البكري ، المصدر نفسه م٤ ، ص ١٢٤١ – ١٢٤٢ ، ويلاحظ انه ضبطها بضم الميم ، وراجع كذلك النصوص التي جمعها الاب مرمرجي الدومنيكي ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٠ .

(١٤) حول ذلك انظر اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده ، لمؤلف مجهول من القرن الثالث الهجري ، تحقيق عبد العزيز الدوري ،وعبد الجبار المطلبي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٩٧ ، ص ٣٩٢ ، ويلاحظ ان ياقوت لا يذكر كداد في معجمه .

(١٥) حول هذه القلاع والقصور الصحراوية راجع فواز احمد طوقان ، الحائر ، بحث في القصور الاموية في البادية ، عمان ١٩٧٩ .

(١٦) انظر حول ذلك شمس الدين محمد بن ابي طالب الانصاري المشهور باسم شيخ الربوة (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧م) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، نشره م مهرت ، المطبعة الاكاديمية ، بطرسبرغ ، ١٨٦٥ ، ص ٢١٣ وراجع كذلك عماد الدين اسمعيل ابن الملك الافضل نور الدين ابن ايوب المشهور بابي الفداء ، (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١) ، كتاب تقويم البلدان ، حققه م. رينود والبارون ماك كوكن دى سلان ، المطبعة الملكية ، بارس ، ١٨٤٠م ، ص ٢٢٩ ، وانظر ايضا احمد القلقشندي ، (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ١٤م ، نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب ، ١٩١٣ – ١٩١٩ . م٤، ص ١٠٧ ، وراجع كذلك النصوص التي جمعها الاب مرمرجي الدومنيكي ، المرجع نفسه ، ص٢٢٠ .

(١٧) محمد بن حبان بن احمد التميمي البستي (٣٥٤هـ / ٩٦٥ م) كتاب المجروحين ، حققه عزيز بيك القادري ، المطبعة العزيزية ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ، م١ ، ص ٢٣٥ .

(١٨) محمد بن احمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، ٤م تحقيق علي محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، م١ ، ص ٥٠٥ .

(١٩) راجع مصطفى الحيارى ، الامارة الطائية في بلاد الشام ، منشورات وزارة الثقافة والشباب ، عمان ، ١٩٧٧ ، ص ٢٤ – ٣٥ .

(٢٠) راجع عز الملك محمد بن عبيد الله بن احمد المسبحي ، (ت ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م) تاريخ المسبحي، تحقيق ايمن فؤاد السيد ومسيو بيانكه ، منشورات المعهد الفرنسي ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٢ – ٢٣ ، ص ٣٤ – ٣٥ ، ص ٧٥ .

(٢١) حول الامارة الايوبية في الكرك ، راجع يوسف درويش غوانمة ، امارة الكرك الايوبية ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ، ١٩٨٠ ، ص ١٥٩ – ١٦٢ .

(٢٢) انظر بدر الدين ابن قاضي شهبه (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩ م) الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٢١٦ ، حيث جاء في اخبار سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢ م ، ما يلي : ((وكان جماعة من العربان نازلين بارض الكرك ينقلون الاخبار الى الفرنج ، واذا اغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين ، فنهبهم صلاح الدين وقتل بعضهم واجلى من بقي عن ارض الكرك ، ثم عاد الى مصر)) .

(٢٣) حول هذه النيابة او المملكة راجع محمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك في العهد المملوكي ، عمان ، ١٩٧٦ ، وكذلك راجع يوسف درويش غوانمة، شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى (القسم الحضاري) منشورات وزارة الثقافة ، عمان ١٩٧٩ ، وكذلك القسم السياسي – ونشر في نفس العـام .

(٢٤) راجع القلقشندي الذي ينقل عن احمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م) ، عن كتابه مسالك الابصار في ممالك الامصار ، صبح الاعشى ، م٤ ، ص ١٥٧ ، ص ٢٤٢ ، ويلاحظ انه يوردها بضم ميمها ((معان)) .

(٢٥) حول العشائر في تلك المنطقة ، راجع محمـد عدنان البخيت ، مملكة الكرك في العهد المملوكي ، ص ٢٣ – ٢٥ ،

(٢٦) ابو الفداء اسماعيل بن عمر الشافعي ابن كثير ، (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢) ، البداية والنهاية في التاريخ ، ١٤م ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩ – ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م ، م١٣ ، ص٢٣٣.

(٢٧) شمس الدين محمد بن طولون الصالحي ، (ت ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦) ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، ٢م ، حققه محمد مصطفى ، المؤسسة المصرية للتاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢ – ١٩٦٤م ، م١ ، ص ١٠ .

(٢٨) ابن طولون المصدر نفسه ، م١ ، ص ١٦١ .

(٢٩) مجير الدين العليمي الحنبلي (٩٢٧هـ /١٥٢٠ م) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ٢م ، نشرته مكتبة المحتسب ، عمان ، ١٩٧٣ ، م٢ ، ص ٣٧٢ .

(٣٠) راجع ابن طولون ، المصدر نفسه ، م١ ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٣١) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٢٧٧ ، م٢ ، ص ٩١ ، وانظر كذلك لنفس المؤلف ، اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م ،

(٣٢) محمد بن احمد بن اياس (ت ٩٣٠ هـ/١٥٢٢م) بدائع الزهور في وقائع الدهور ، م٢ – م٥ ، حققه محمد مصطفى المنشورات الاسلامية لجمعية المستشرقين الالمانية ، ١٩٦٠ – ١٩٦٥ ، م٤، ص ١١٧ .

(٣٣) نجم الدين محمد الغزي (ت ١٠٦١هـ/١٦٥٠م)، الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة ، ٣م ، حققه جبرائيل جبور ، بيروت ، ١٩٤٥ – ١٩٥٩ ، م٣ ، ص ١٥٧

(٣٤) انظر حجيج بن قاسم الوحيدي الحلبي (تح ٩٩٢هـ/١٥٨٤م ؟) رحلته المحفوظة في مكتبة معهد الاستشراق بلننغراد ، تحت رقم 8800 ورقة ٢٧ ب ، ٢٨ أ ، انظر ملاحظات اغناطيوس كراتشكوفسكي عن هذه الرحلة في كتابه : تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ٢م ، نقله الى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٩٦٥ ، م٢ ، ص ٦٨٩ – ٦٩٠ .

(٣٥) حسن بن محمد البوريني (ت ١٠٢٤هـ/١٦١٥م) ، تراجم الاعيان من ابناء الزمان ، الجزء الاخير من الكتاب والذي ما يزال مخطوطا ، نسخة فينا Cod. Arab. Mixt 346 ورقة ١٢٣ ب – ١٢٥ أ .

(٣٦) احمد بن محمد الخالدي الصفدي ، (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤م) تاريخ الامير فخر الدين المعني ، المنشور باسم لبنان في عهد الامير فخر الدين المعني الثاني ، حققه اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢٦ – ٢٧ ، حول رشيد بن سلامة بن نعيم ، انظر ايضا البوريني ، المصدر نفسه ، حققه صلاح الدين المنجد ، ٢م ، منشورات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٣ ، م٢ ، ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

(٣٧) محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي ، الشهير بابن كبريت المدني ، (ت ١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩م) ، رحلة الشتاء والصيف ، حققها وقدمها وفهرسها محمد سعيد الطنطاوي ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥م ، ص ٢٣١ – ٢٣٢ .

(٣٨) ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني (ت ١٠٨٣هـ / ١٦٧٢ م) ، تحفه الادباء وسلوة الغرباء، ٣ م ، سلسلة الكتب والتراث وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٦٩ – ١٩٨٠ ، م١ ، ص ٨١ – ٨٦ .

(٣٩) عبد الغني النابلسي ، (ت ١١٤٣هـ/١٧٣١)، الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، مخطوط مكتبة اسعد افندي رقم ٢٣٧٦ ، توجد عنها صورة مصورة بمكتبة مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الاردنية ، تحت رقم ٥٧٢ ، ورقة ٢٨٣ أ – ٣٨٣ ب ،

(٤٠) رسلان بن يحيى القاري الشافوري (لا تذكر كتب التراجم تاريخ وفاته وهو من اهالي القرن الثالث عشر الهجري) « الوزراء الذين حكموا دمشق » ، نشرها صلاح الدين المنجد مع كتاب الباشات والقضاة لمحمد بن جمعة المقار باسم ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٤٩ ، ص ٨٠ – ٨١ .

(٤١) الشيخ احمد البديري الحلاق (ت ١١٧٥هـ / ١٧٦١م) ، حوادث دمشق اليومية ١١٥٤هـ – ١١٧٥هـ ، نقحها الشيخ محمد سعيد القاسمي (ت ١٣١٧هـ / ١٨٩٩ م) ، حققها احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

(٤٢) رسلان القاري ، المصدر نفسه ، ص٧٩ – ٨٠.

(٤٣) البديري ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ – ٢١١ ، ولمزيد من المعلومات راجع ايضا ترجمة حسين باشا بن محمد مكي بن فخر الدين الذين اشتهر نسبهم بالفخر الغزي ، لدى السيد محمد خليل المرادي (ت ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١م) سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، ٤م ، تصوير مكتبة المثنى ، بغداد ، لا . ت ، م٢ ، ص ٦٠ – ٦٢، راجع كذلك المعالجة الوافية لهذا الهجوم لدى
A. Rafeq, **The Province of Damascus 1723 - 1873**, Bayrut, 1970, p. 213
Karl k. Barbir, **Ottoman Rule In Damascus 1708 - 1858** Princeton University Press N. J. 1980, p. 175

(٤٤) حسن بن عبد اللطيف الحسيني ، تراجم اهل القدس في القرن الثاني عشر ، مخطوط المتحف البريطاني OR 3047 ورقة ٣٠ أ ، ومخطوط المتحف الفلسطيني (القدس) ، ص ١٢٣ – ١٢٤ وكذلك المرادي ، المصدر نفسه م٤ ، ص ٢٤.

(٤٥) المرادي ، المصدر نفسه ، م٢ ، ص ٦٠ – ٦٢ .

(٤٦) القاري المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

(٤٧) القاري ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(٤٨) القاري ، المصدر نفسه ، ص ٨٤ – ٨٥ .

(٤٩) يلاحظ ان عددا من الولاة قادوا قافلة الحاج من امثال احمد باشا الجزار ، كما اولى الولاة عناية فائقة لسلامة الحجاج ، انظر القاري : المصدر نفسه ، ص ٨٥ – ٨٦ ، ص ٨٨ .

(٥٠) عبد الرحمن بن الحسن بن ابراهيم الجبرتي (ت ١٢٣٧ هـ / ١٨٢٢ م) تاريخ عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، ٣م ، دار الفارس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، م٣ ، ص ٢٤٧ – ٢٤٨، انظر ايضا النصوص التي جمعها محمد اديب غالب ، من اخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي ، منشورات دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٧٥ ، ص ١١٥ – ١١٨ ، ص ١٥٥ ، راجع ايضا سليمان بن محمد الغنام ، قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية (١٨١١ – ١٨٤٠) في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا ، دار تهامة ، جدة ١٩٨٠ ، ص ٢٦ – ٣٤ .

(٥١) John Lewis Burckhart, **Travels In Syria and The Holy Land**, London, 1822. pp. 436 - 437.

كان بيركهارت قد تسمى باسم ابراهيم بن عبد الله ، وزار مكة المكرمة حيث ادى فريضة الحج، توفي بالقاهرة في ١٦ ذي الحجة ١٢٣٢ هـ ، راجع خير الدين الزركلي ، الاعلام ، م٩ ، ص ٣٥٠.

(٥٢) التقرير مفصل وتاريخه ٢٧ صفر سنة ١٢٥١هـ/٢٤ حزيران ١٨٣٥م ، ومحفوظ ضمن وثائق عابدين، محفظة رقم ١٨ ، وهو مقدم الى محمد علي باشا .

(٥٣) انظر : سالنامة ولايت سورية ، سنة ١٣٠٢هـ، ص ١٧٣ ـ ١٨٠ ، حول اهمية السالنامات في بحوث تاريخ الجزيرة ، راجع مقالة ، محمد حرب ، « السالنامة العثمانية واهميتها في بحوث الخليج والجزيرة العربية » ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، عدد ٣٣ ، السنة التاسعة (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ، ص ١٤٥ ـ ١٧٥ .

(٥٤) سالنامة ولايت سورية ، سنة ١٣١١ هـ ، ص ٢١١ ـ ٢١٦ .

(٥٥) سالنامة ولايت سورية ، ١٣١١هـ ـ ١٣١٢ هـ ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٨ .

(٥٦) انظر سالنامة سنة ١٣١٦ هـ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٣٠ ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٤ ، سالنامة سنة ١٣١٧ هـ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٦ ، ص ٢٧٦ ـ ٢٨٠ ، ص ٢٩٩ ص ٣٦٧ ، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .

(٥٧) راجع منيب الماضي وسليمان موسى ، تاريخ الاردن في القرن العشرين ، عمان ، ١٩٥٩ ، ص١٣ ـ ١٥ ، انظر ايضا :
William Ochsenwald, **The Hijaz Rail Road**, University Press of Virginia, 1980, pp. 135 - 136.

(٥٨) راجع السيد محمد عارف ابن السيد احمد المنير الحسيني الدمشقي ، (ت ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م) السعادة النامية الابدية في السكة الحجازية الحديدية ، حققه وترجمه الى الانجليزية Jacob M. Landau ونشرته مطبعة جامعة ، Wayne state University, في ديترويت ١٩٧١ ، ص ٧ ـ ٢٨ ، ص ١٥ ، ص ٤٤ ، ص ٧٤ ، ص ٧٨ من النص العربي .

(٥٩) William Ochsenwald, **The Hijaz Rail**, 1980, pp. 135 - 136.

(٦٠) راجع منشور الثورة الاول ٢٦ حزيران ١٩١٦ حيث جاء فيه « ... الى ان نشات في الدولة جمعية الاتحاد وتوصلت للقبض على ادارتها وجميع شؤونها بقوة الثورة فحادوا عن صراط الدين ومنهج الشرع القويم ، ومهدوا السبل للمروق منه واحتقار ائمته وسلبوا شوكة السلطان المعظم ما له من حق التصرف الشرعي القانوني ايضا .. » انظر : الثورة العربية الكبرى وثائق واسانيد ، تحرير سليمان موسى ، منشورات دائرة الثقافة والفنون ، عمان ١٩٦٦ ، ص ٦٧ وما بعدها .

(٦١) راجع التفاصيل لدى سليمان موسى ، الحركة العربية : سيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة ، ١٩٠٨ ـ ١٩٢٤ ، دار النهار للنشر، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨ .

(٦٢) سليمان موسى ، المرجع نفسه ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ .

(٦٣) سليمان موسى ، المرجع نفسه ، ص ٣٠٢ .

(٦٤) سليمان موسى ، المرجع نفسه ، ص ٣٠٢ ـ ٣١٠ .

(٦٥) التقرير مرسل من الكولونيل لورنس بتاريخ ١٧ رمضان ١٣٣٦هـ/٢٥ حزيران ١٩١٨م والرسالة بخط لورنس نفسه ، وباللغة العربية ، راجع سليمان موسى ، المراسلات التاريخية ١٩١٤ - ١٩١٨ ، عمان ١٩٧٣ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

(٦٦) سليمان موسى ، المراسلات التاريخية ١٩١٤ - ١٩١٨ ،ص ١٦٢ ، نص الرسالة موجه من فيصل الى زيد من القويرة تاريخها ٢٠ ربيع الاول ١٣٣٦هـ/٣ كانون ثاني ١٩١٨ ، وهي اصلا ماخوذه عن اوراق الامير زيد .

(٦٧) انظر يوميات الامير زيد التي نشرها مع قسم من اوراقه ، سليمان موسى تحت عنوان الثورة العربية الكبرى ، الحرب في الاردن ١٩١٧ - ١٩١٨ ، مذكرات الامير زيد ، عمان ، ١٩٧٦ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٦٨) راجع المراسلات التاريخية ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ص ١٨١ - ١٨٢ ، ص ١٨٥

(٦٩) انظر المراسلات التاريخية ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ص ١٨٥ .

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ .

(٧١) المصدر نفسه ، ص ١٩٠ - ١٩١ ، اوراق الامير زيد ، ص ١١٦ ، جاءت تفاصيل هذه الهجمات في رسالة صادرة من سمنه ٢ رجب ١٣٣٦هـ/ ١٣ نيسان ١٩١٨ موجهه من الامير فيصل الـى الملك حسين .

(٧٢) المراسلات التاريخية ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

(٧٣) راجع تقرير باست الى الملك حسين تاريخ ٢٦ شوال ١٣٣٦هـ/٣ اب ١٩١٨ ، حـول سير المعارك ، المراسلات التاريخية ١٩١٤ - ١٩١٨، ص ٢٠٩ .

(٧٤) راجع المراسلات التاريخية ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ص ١٩٩ . رسالة علي وهبي صادره عن معان بتاريخ ١٤/٦/٣٤ رومي ، ١٩١٨/٦/١٨ .

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ وهي اصلا موجودة ضمن اوراق الامير زيد .

(٧٦) المراسلات التاريخية ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ص ٢٠٩ ، كان احتلال الاتراك لطابية الحمراء في ٢٦ تموز سنة ١٩١٨ وفي ١٩١٨/٨/١ قصفت الطائرات التركية معسكر زيد بالقرب من الطاحونة الحمراء، راجع اوراق الامير زيد ، ص ١٢٣ .

(٧٧) اوراق الامير زيد ، ص ١٢٣ .

(٧٨) اوراق الامير زيد ، ص١٢٥ .

(٧٩) اوراق الامير زيد ، ص ١٢٥ .

(٨٠) اوراق الامير زيد ، ص ١٢٧ .

(٨١) اوراق الامير زيد ، ص ١٢٨ .

(٨٢) اوراق الامير زيد ، ص ١٣٠ .

(٨٣) اوراق الامير زيد ، ص ١٣٢ .

(٨٤) راجع المراسلات التي اوردها سليمان الموسى في كتاب المراسلات التاريخية ، ص ١٧٣ ، ص ١٨٤ ، ص ١٨٦ — ١٨٧ ، ٢٠٩ .

(٨٥) المراسلات التاريخية ، ص ١٥١ ، ص ١٥٢ — ١٥٣ ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٦ ، ص ١٥٧ ، ص ١٥٨ ، ص ١٩٥ ، ص ١٩٦ ، ص ٢١٠ .

(٨٦) خير الدين الزركلي ، عامان في عمان ، المطبعة العربية بمصر ، ١٩٢٥ ، ص ٩ — ١٤ .

(٨٧) عبد الله بن الحسين ، الآثار الكاملة ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ ص ١٥٦ .

(٨٨) المصدر نفسه ، ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٨٩) المصدر نفسه ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٩٠) المصدر نفسه ، ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٩١) ارتجل علي رضا باشا الركابي خطابا في عمان تورده جريدة الشرق العربي : الجريدة الرسمية لحكومة شرقي الاردن ، بعددها رقم ١٠٩ ، تاريخ ٢٤ ذي الحجة ١٣٢٣ هـ / ١٥ تموز ١٩٢٥ ، وكان هذا الخطاب بمثابة بيان لعمل وزارته ، وينصح بمراجعته لاهميته .

(٩٢) Sir Gilbert Falkingham Clayton, An Arabian Diary UCLA Press, 1969 pp. 99 - 129.

راجع نصوص المعاهدة في جريدة الشرق العربي، عدد ١١٩ ، تاريخ ١٩٢٥/١٢/١٥ ، ص ١٢ — ١٤ ، وكذلك راجع غالب ابو جابر ، المعاهدات الاردنية ، ٢م ، عمان ١٩٧٥ ، م١ ، ص ١٢ ، انظر ايضا علي المحافظة ، العلاقات الاردنية البريطانية ، من تاسيس الامارة حتى الغاء المعاهدة ١٩٢١ — ١٩٥٧ ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٦٢ — ٦٣ .

(٩٣) حول حياة جورج انطونيوس (١٨٩٣ — ١٩٤٢م) ، صاحب كتاب يقظة العرب ، راجع خير الدين الزركلي ، الاعلام ، م٢ ، ص ١٤٢ — ١٤٣ .



الدولة الرستمية في تيهرت

د. سهيل زكار

جامعة دمشق

بعدما قامت الخلافة العباسية ، وقعت هذه الدولة اسيرة لمشاكل الشرق الاسلامي ، مما اضطرها في كثير من الاحيان الى عدم الاهتمام بمشاكل الغرب الاسلامي ، ولهذا نلاحظ أن قوى كثيرة نشطت في اجزاء من الغرب ، واستطاعت اقامة دول مستقلة عن الخلافة العباسية .

ومن الملاحظ ان الغرب الاسلامي ، بعدما دخل في الاسلام ، قامت فيه حركات كبيرة معارضة للحكم الاموي ، وكان جل هذه الحركات في بداية القرن الثاني يؤمن بافكار الخوارج ، وينتسب الى احدى فرقهم ، وقد نجم عن حركات الخوارج نتائج كبيرة ، كان ابرزها قيام دولة الائمة الرستميين في تيهرت (بعمالة وهران الحالية في الجزائر) ودولة بني مدرار في سجلماسة في المغرب الاقصى ، ويمكن أن نضيف اليهما دولة برغواطة في المغرب الاقصى على شواطىء الاطلسي ، ايضا .

ودولة الائمة الرستميين الخارجية ، هي أول دولة « فارسية » تأسست في الاسلام ، وقد اسس هذه الدولة سنة ١٤٤ هـ/٧٦١ م عبد الرحمن بن رستم ، الذي كان ايراني الاصل ، قدم المغرب بعد فتحه ، والتحق بجماعات الاباضية من خوارج المغرب ، وكان راسهم يعرف بأبي الخطاب ، وقد استقر أبو الخطاب في وقت تأسيس الدولة العباسية في طرابلس العرب .

وفي هذا الوقت كان قد تغلب على جزء كبير من المغرب حبيب بن عبد الرحمن الفهري ، وظل هكذا حتى قهرته قبيلة ورفجومة البربرية ، وغلبته على أمره ، وقامت هذه القبيلة بزعامة عاصم بن جميل باقتحام مدينة القيروان ، فقتلت كل قرشي كان فيها ، واستباحتها واستهانت بحرمة مساجدها .

واغضبت هذه الفعلة الشنعاء أبو الخطاب الاباضي ، فتحرك من طرابلس الى القيروان فاحتلها ، وجاء هذا في وقت وصلت فيه أخبار افريقية الى مسامع أبي

جعفر المنصور ، فقام بارسال جيش كبير بقيادة محمد بن الاشعث ، نحو المغرب ، وكلفه بابعاد خطر الخوارج عن مصر ، والعمل على تشتيت قواهم في المغرب .

وحين علم ابو الخطاب بأخبار حملة ابن الاشعث ، غادر القيروان نحو طرابلس ، واناب في القيروان عبد الرحمن بن رستم ، وبعد معارك طاحنة هزم ابن الاشعث جيوش الاباضية ، وقتل زعيمهم ابو الخطاب ، ثم توجه نحو القيروان ، فخرج منها ابن رستم فارا مع ثلة من رجال الاباضية ، ولاحقته قوات ابن الاشعث ، ولم يكن معه ورجاله الا فرس واحد ، فمات ببعض الطريق ، ودفنوه مخافة ان يقتفى اثرهم ، فيطمع فيهم من يتبعهم ، ويجتهد في طلبهم ، ان علم بموت فرسهم ، وقد ضعفت قوة الشيخ عبد الرحمن فصار يحمله عبده تارة وابنه تارة ، فـاذا حمله العبد قال له عبد الوهاب : ان ادركنا العدو فلا تضمن ابي الا دون خمسمائة أو نحوها ، فاذا أعيا العبد حمله عبد الوهاب ، فقال له العبد مثل ذلك » .

وتابع عبد الرحمن فراره حتى التجأ الى جبل اسمه « سوف أجج » وكـان جبلا منيعا ، ومن هناك راسل بقايا اباضية افريقية واباضية نفوسة طرابلس ، فلحقوا به ، وكثر من جديد عدد أتباعه « وتسامع ابن الاشعث بخبر عبد الرحمن ، واجتماع الناس عليه فأقبل مجدا في طلبه ، فأخبر انه في جبل منيع يقال له سوف اجج ، فقصده حتى وصله . وحاصر عبد الرحمن بن رستم واحدق على عسكره في حصاره اياه ، مخافة أن يفاجئهم عبد الرحمن ومن معه . . . ويطرق عليهم بليل ، فأطال المقام تحته ، فوخم عسكر ابن الاشعث ، ووقع فيه الجدري ، فمات منهم بشر كثير ، وجمع ابن الاشعث أصحابه وقال لهم : أن هؤلاء القوم في جبل منيع . . لا يدخله ألا دارع ، أو مدجج ، ماذا ترون فاشار عليه بعضهم بالاقامة ، واشـار عليه آخرون بالارتحال عنهم ، فأخذ برأي الذين أشاروا عليه بالارتحال ، فارتحل الى مدينة القيروان ، وقد أيس من عبد الرحمن وأصحابه » .

وبعد رحيل ابن الاشعث نزل عبد الرحمن بن رستم من الجبل ، وشـرع بارتياد مكان في الداخل يتخذه الاباضية مقرا لهم ، بعيدا عن القيروان وغيرها من الحواضر ، قريبا من منازل القبائل . لذلك اتجه نحو الغرب ، وأرسل رجالا مـن ذوي المعرفة وفرقهم في الجهات ، ولدى استكمال عملية البحث هذه نزل كما هو مرجح سنة ١٦١ هـ/٧٧٨ في غيضه في سفح جبل جزول ، فاختار منها موضعا مربعا لا شعراء فيه ، فنزل فيه ، فقالت البربر : نزل تيهرت (وتفسيره الدف لتربيعه) . واختط عبد الرحمن موضع مدينة جديدة ، أو بشكل أدق موضع معسكر جديد للاباضية ، واستعمل خشب الغابة في بناء المسجد واكواخ المعسكر ، وسرعـان

ما تطور هذا المعسكر وتحول الى مدينة ذات منازل واسعة وقصور واسواق ، وطارت شهرتها .

وفي الادب التاريخي للاباضية روايات ضافية التفاصيل حول تأسيس تيهرت ، متأثرة بالروايات التي تحدثت عن تأسيس القيروان من قبل عقبة بن نافع ، ففي كتاب طبقات المشايخ للدرجيني ، أن الاباضية عندما « اتفقوا على عمارتها (تيهرت) أمروا مناديا ينادي بسباعها ووحوشها وهوامها أن اخرجوا ، فانا أردنا عمارة هذه الارض ، فأجلوها ثلاثة أيام ، وبلغنا انهم راوا وحوشها تحمل اولادها خارجة بها منها ، فكان ذلك مما رغبهم في عمارتها ، وقوى عزمهم على انشائها » . ولعل الذي سبب خروج الحيوانات من وسط الغابة التي اختيرت لتكون أرض معسكر ، ثم مدينة جديدة ، هو ان الاباضية « أطلقوا النيران فاحترقت أشجارها » والطريف هنا ما تجمع المصادر المبكرة في الحديث حوله : مسالة التخلص من جذور الاشجار بعد احراق جذوعها ، فقد جاء أن الاباضية « عمدوا الى حيس (دقيق) فلثوه بعسل وجعلوا تحت أصل كل شجرة منها شيئا قليلا ، فلما جن الليل طرقت الخنازير تلك الاصول ، فجعلت تتبع رائحة الحيس ، وتحفر تحت الاصول ، حتى اتت على آخرها ، فلما أصبحوا وجدوها مقتلعة ، فعمدوا الى مكان فأصلحوه لصلاتهم ، فلما أرادوا بناءه ، وقع اختيارهم على أربعة مواضع فاقرعوا عليها ، أيها يجعل المسجد الجامع ، فوقعت القرعة على المكان الاول ، الذي أصلحوا الصلاتهم ، فبنوا الجامع به» .

وعندما وقع الاختيار على موقع المدينة الجديدة ، روعيت مسالة توافر المياه ، ولهذا وصفت فيما بعد بأنها واقعة « على نهر يأتيها من جهة القبلة ، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع ، تسمى (نافس) ومنها شرب بساتينها ، وهي في شيء ، وفيها جميع الثمار ، وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم ، والثلج » وقد وصف أحد شعراء تيهرت مدينته في القرن الثالث بقوله :

ما أحسن البرد وريعانه	واطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم اذا ما بدت	كأنها تنشر من تحت
فنحن في بحر بلا لجة	تجري بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس اذا ما بدت	كفرحة الذمي بالسبت

وبرد تيهرت مرده الى انها تقع على ارتفاع /١١٠٠ م/ وكانت تشرف على منطقة سهول منداس ، وعلى الطريق الموصلة من هذه المنطقة الى ساحل البحر الابيض المتوسط ، عابرة لسهول وادي شلف . وجعل منها وجودها قرب منطقة سباسب

شاسعة صالحة للرعي ، مركزا لاتصال مستمر بين البدو الرحل ؛ وسكان المدن والبلدان والقرى . وكان هذا من العوامل التي ساعدت فيما بعد على ازدهار الحركة التجارية فيها . يضاف الى هذا انه انتهى قرب تيهرت طرف جبل ونشريس ، الذي سكنته قبائل من البربر كثيرة .

خطط للمدينة الجديدة أربعة ابواب ، وواضح أن عبد الرحمن بن رستم لم يؤسس مدينته الجديدة في بقعة غير مأهولة ، بل في منطقة كثيفة السكان ، لكن بلا حواضر كبيرة ، يضاف الى هذا أن اختيار عبد الرحمن لموقع مدينته لم يأت بدعا ، فعلى بعد خمسة أميال فقط من مدينته الجديدة ، كان يوجد بقايا مدينـة عرفت في عهود ما قبل الاسلام ، وربما في العصر الروماني ، وباتت تدعى الان باسم تيهرت القديمـة .

لحسن الحظ أن الادب الاباضي غني بالكتابات التاريخية المفيدة ، لكن من المفيد أن نبين هنا انه على أهمية المواد الاباضية ، فان أحسن المواد عن تيهرت وتطور تاريخها نجده لدى واحد من المؤرخين الافارقة من غير الاباضية ، وهو ابن الصغير المالكي القيرواني . عاش ابن الصغير بين الاباضية ، وجمع أخبار دولة تيهرت ، وتحرى في سردها الصدق والحياد ، بعدما أخذ على نفسه : « لا أحرفها عـن معانيها ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها اذ النقص في الخبر والزيادة فيه ليس مـن شيم ذوي المروءات ، ولا من أخلاق ذوي الديانات ، وان كنا للقوم مبغضين ، ولسيرهم كارهين ، ولمذاهبهم مستقلين ؛ فنحن وان ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا ، وعدلهم فيما ولوه فلسنا ممن تعجبه طلاوة أفعالهم ، ولا حسن سيرهم ، لما نعلمه من براءتهم ممن والاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه » .

وبعدما استقرت أحوال الاباضية في تيهرت « اجتمع رؤساؤهم فقالـوا : قد علمتم أنه لا يقيم امرنا الا امام نرجع اليه في احكامنا ، وينصف مظلومنامن ظالمنا ، ويقيم لنا صلاتنا ، ونؤدي اليه زكاتنا ، ويقسم فيئنا ، فقلبوا امرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان ، أو أكثر يدبر امر القبيل ، ويستحق امر الامامة ، وقال بعضهم لبعض انتم رؤساء ولا نأمن من أن يتقدم واحد علـى صاحبه فتفسد نيته ، ولعل المقدم أن يرفع اهل بيته وعشيرته علـى غيرهم ، فتفسد النيات ، ويكثر الاختلاف ، ويقل الائتلاف ، ولكن هذا عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ، ولا عشيرة له تحميه ، وقد كان الامام أبو الخطاب رضي لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا ، فقلدوه أموركم ، فان عدل فذلك الذي أردتم ، وأن سار فيكم بغير عدل عزلتموه ، ولم تكن له قبيلة تمنعه » .

وهكذا قام خوارج تيهرت بمبايعة عبد الرحمن بن رستم بالامامة ، وعلى هذا اسس ابن رستم في آن واحد مدينة جديدة ، ودولة جديدة ، وحتى أسرة حاكمة جديـدة .

وانتشرت بسرعة اخبار تأسيس الامامة الجديدة مع قيام تيهرت ، فنالت الولاء من خوارج المغرب الادنى والاوسط ، خاصة من سكان جبال نفوسة واهل جزيرة جربة ، وبلغت هذه الاخبار مسامع الخوارج في المشرق ، خاصة في البصـرة وعمان ، فجمع خوارج البصرة « أموالا عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم ، وقال بعضهم لبعض : قد ظهر بالمغرب امام ملاه عدلا ، وسوف يملك المشرق ويملأه عدلا ، فانهضوا اليه بما معكم من هذه الاموال . حتى تردوا المدينة التي سكنها ، فان كان على ما نقل لنا من حسن طريقته ، وصحة سيرته ، فادفعوها اليـه ، وان كان على غير ذلك فانظروا الى أفعاله وما يتولاه من الاحكام بين رعيته ، ثـم اتونا بذلك كله ، فمضى القوم حتى اتوا المدينة ... فأناخوا جمالهم ، ووضعـوا أحمالهم ، وتقدموا .. يسألون كل من لقوه من الناس عن دار الامام عبد الرحمن حتى وقفوا عليها ، واصابوا عند بابها غلاما يعجن طينا . ورجلا على سطح يصلـح شقاقا فيه ، والغلام يناوله ما يصلح به ، فسلموا على الغلام ، فرد السلام ، ثـم قالوا : هذه دار الامام ؟ فقال : نعم ، فقالوا له : استأذن لنا ، وأعلمه أنا رسل اخوانه اليه من البصرة ، فرفع الغلام راسه الى سيده . وقد علم انه سمع كلامهم ، فقال قل للقوم يصبرون قليلا ، ثم أقبل على ما كان عليه من اصلاح عملـه ، حتى انقضى ، والقوم ينظرون اليه ، وهم شاكون فيه هل هو صاحبهم أم لا ، حتى نزل عن سطحه الى داره ، فغسل ما كان بيديه من اثر الطين ، ثم توضأ وضوء الصلاة فأذن للقوم ، فدخلوا عليه ، فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد ، وليـس في بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه ، وفرس مربوط فيناحية من داره ، فسلموا عليه وأعلموه انهم رسل اخوانه اليه ، فأمر غلامه باحضارطعامه، فأتاه بمائدة عليها قرص سخنت وسمن وشيء من ملح ، فأمر بتلكالقرص فهشمت ، وأمر بالسمن فلثت به ، ثم قال على اسم الله ادنوا ، وكلوا ، ثم اكل معهم بأكلهم ، فلما انقضى طعامهم قال : ما مرادكم ، وما جاء بكم ؟ » وقبل ان يجيبوه « استأذنوا للتنحي عنه للنجوى . فأذن لهم ، فتناجوا واتفقوا أن يدفعوا له المال ، وانهم بمـا عاينوه من أحواله راضون » فلما وصلت الاموال أعطيت لعبد الرحمن ، فقام بناء على مشورة أصحابه بتوزيع بعضها على الفقراء واشترى بالباقي سلاحا ومعدات .

وكان لهذه الصورة العمرية بمثاليتها عظيم الآثار ، حيث لما رجعت الرسـل الى المشرق طارت اخبار عبد الرحمن وامامته ومدينته ، فقصدها مجموعات كبيرة

من خوارج المشرق ، مع جماعات من الايرانيين ، الى دعاة لمختلف احزاب وفرق العالم الاسلامي ، وخاصة الواصلية من المعتزلة ، الى بعض التجار واصحاب الصناعات وارباب الحرف .

ونشطت حركة الهجرة الى هذه المدينة الناشئة ، وعظم عدد المهاجرين اليها من غير الخوارج ، وصار المهاجرون والتجار يبنون فيها البيوت الضخمة والقصور والاسواق ، والمتاجر . وصحيح أن المدينة قامت في الاصل لتلبية حاجات الاباضية ، لكن سرعان ما استقر بها فئات من السنة والمعتزلة ، خاصة الواصلية ، وبنى هؤلاء مساكنهم ومساجدهم . ويقول ابن الصغير واصفا سرعة تطور تيهرت : « وأتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار ، وأقاصي الاقطار ، فقال ليس أحد ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين اظهارهم لما يرى من رخاء البلد ، وحسن سيرة امامه وعدله في رعيته ، وأمانه على نفسه وماله ، حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي ، وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القروي ، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم ، وهذا مسجد البصريين ، وهذا مسجد الكوفيين ، واستعملت السبل الى بلد السودان والى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الامتعة» .

وبسرعة مدهشة تحولت المدينة الجديدة من معسكر عبد الرحمن الى مدينة كبيرة ، ومن مقر امامة مثالية زاهدة الى مقر دولة ودار ملك فخم ، وكثرت الاموال وعظمت الثروات ، وبينما هذا كله يحدث في المغرب ، كان خوارج المشرق يعيشون مع الصورة التي حملها اليهم الرسل ، وكانوا يقولون بعضهم لبعض : « امامكم بالمغرب ، خلف من ابي بلال مرداس بن ادبه ، ومن ابي حمزة الشاري » . واستمرت أعمال جمع الاموال لتبعث الى تيهرت للمساعدة ، وبالفعل تجمعت لدى خوارج البصرة كمية من المال قرروا مجددا ارسالها الى المغرب .

وحين قرر البصريون بعث المال : « أرسلوا الى رسلهم الاولين وأعلموهم بما جمعوه من المال ، وأن ذلك كله في سر وخفاء من العمال والاجناد ، لئلا يطلعوا عليهم ، فيهلكوهم . وسألوهم كتمان ذلك . فأجابتهم الرسل الى ما دعوهم اليه من حمل الاحمال وتوجيههم بها الى عبد الرحمن ، فلم تزل بذلك حتى اتت البلد ، ونزلت بالموضع الذي نزلت به أولا ، ثم توجهت نحو عبد الرحمن ، فوجدوا الامور قد تبدلت ، وأحوال المدينة والاشياء قد حالت ، وذلك أنهم نظروا الى قصور قد بنيت ، والى بساتين قد غرست ، والى ارحاء قد نصبت ، والى خيول قد ركبت ، والى حفدة قد اتخذت الستور والعبيد ، والخدام قد كثرت ، فلما راوا ذلك تحولت نياتهم » . ومع ذلك قصد الرسل دار عبد الرحمن فوجدوها قد تحولت

الى قصر منيف ، ومع هذا فقد لقوا عبد الرحمن « على ما عرفوا من التواضع » وتيقنوا بعد السؤال أنه « ما تغير ولا تبدل » فعند ذلك اعلموه بسبب قدومهم ، وما حملوه معهم من الاموال ، فرفض قبولها ، وطلب ردها لتصرف بين فقراء خوارج المشرق وقال : « انما كنا قبلنا ما قبلنا ... للحاجة التي كانت بنا .. والفاقة التي لزمت عوام اخواننا ، فالان اننا مستغنون عن أموال غيرهم » .

وتبعا لما لحق تيهرت من تطور تطورت فيها الحياة الاجتماعية ، وقام فيها نشاط تجاري وزراعي كبير ، وازدهرت فيها الحياة الاقتصادية ، وتطورت بها في نفس الوقت حركة ثقافية واسعة ، فغدت مركز اشعاع حضاري نحو قلب أفريقيا ، وباتت تعرف باسم « عراق المغرب » و « بلخ المغرب » .

وسادت الحرية الدينية في عاصمة الاباضية ، ومع ذلك لم ينس عبد الرحمن ابن رستم تعاليم دعوته ، والمخاطر القادمة من القيروان ، لذلك استمر يحارب حكام القيروان ، وقام بانشاء حلف مع خوارج بسجلماسة على أطراف صحراء المغرب الاقصى ، وحقق بذلك ، وبحسن سياسته ، وبفضل سلوكه الشخصي ، وتقشفه في ملبسه ومأكله ومسكنه وتواضعه ، وكفاءة ادارته ، الاستقرار والقوة لدولته ، فتألفت عليها القلوب ، وتجمعت فيها فرق اسلامية مختلفة النزعات والاصول ، فكان بها خوارج من اباضية وصفرية ، كما كان فيها شيعة وسنة ومعتزلة ، يمثلون مختلف قبائل البربر مع جماعات من العرب والعجم .

ولما أدركت عبد الرحمن الوفاة سنة ١٦٨ هـ/٧٨٤ م جعل الامر من بعده «شورى في ستة نفر كصنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه» وكماادخل عمر بن الخطاب ابنه عبد الله معالشورى له حق الترجيح دون الترشيح ، أدخل عبد الرحمن ابنه عبد الوهاب انما مع حق الرشيح والانتخاب . فلما توفي عبد الرحمن ، وتداول القوم فيما بينهم ، أختار اكثريتهم ابنه عبد الوهاب وهكذا تغلبت فكرة التوريث على فكرة الانتخاب . وانكر بعض الاباضية ذلك ، فانفصلوا عن اباضية تيهرت ، فعرفوا بعد ذلك بالنكار . وسيكون لهؤلاء دور كبير جدا فيما بعد في الثورة ضد الخلافة الفاطمية في المهدية .

وفي عودة الى الادب التاريخي الاباضي ، وهو ادب غني فيه مواد رفيعة ، نجد ان النكار أعلنوا أولا عن معارضتهم لبيعة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كلاميا فقالوا : « نبايعه على شرط ان لايقضي امرا دون جماعة معلومة » فقيل لهم « لانعلم في الامامة شرطا غير ان يحكم فينا بكتاب الله وسنة نبيه » . ولم يقنع النكار وأثاروا

جدلا طويلا حول مسألة الامامة واحقية الوصول اليها ، والشروط التي ينبغي أن يتمتع بها الامام . لقد كان الصراع بين الاباضية صراع بين الخوارج « الجمهوريين » والخوارج « الملكيين » ، ومثل الفئة الاولى رجال القبائل ، ومثل الفئة الثانية غالبية اهل مدينة تيهرت .

وكان من عادة قبائل البربر الانتجاع في مطلع الربيع من كل سنة نحو تيهرت . فلما كان ربيع السنة التي اختير فيها عبد الوهاب انتجعوا « اكمل انتجاع انتجعوه قط » وكان على رأس القبائل المنتجعة مزاته وسدراته ، ودخل زعماء هذه القبائل الى تيهرت فاجتمع اليهم زعماء المعارضة ، وقالوا لهم : « ان الامور قد تغيرت ، والاحوال قد تبدلت ، قاضينا جائر ، وصاحب بيت مالنا خائن ، وصاحب شرطتنا فاسق ، وامامنا لايغيرن من ذلك شيئا » وذهب زعماء القبائل الى الامام عبد الوهاب ورفعوا اليه ما سمعوه فتجاوب معهم واظهر أنه على استعداد لتغيير سياسته وعزل من رغبوا بعزله ، وقال لهم : « قدموا من رأيتم واخروا من رايتم ، فدعوا له وأثنوا عليه ، فقالوا خيرا ، ثم انصرفوا ، فلما انصرفوا دخل على عبد الوهاب وجوه رجاله وقواده وأهل بطانته ، فقالوا : ما بال اخواننا أتوك اليوم باجمعهم ، فأخليت لهم مجلسك ، وحجبت من سواهم ، فذكر لهم ما قالوا له ، وما اشاروا عليه ، فقالوا له : وما أجبتهم به فذكر لهم جوابه ، فقالوا له : أسأت الى نفسك والينا ، والى جميع اخوانك ورجالك ، فقال : وكيف ذلك ، وما سألوا شططا ، وما قالوا الا خيرا فقالوا : ليس نظرهم عندما قلت ، ولا معناهم عندما رايت ، ولكن سألوك أن تعزل قاضيك وصاحب بيت مالك ، والقائم بشرطتك ، فاذا فعلت ذلك شكروك وحمدوك ، ثم أتوك بعد ذلك ، فقالوا لك : ان المسلمين قد نقموا عليك أشياء ، أو على ولديك ، فان أجبتهم الى ذلك شكروك وحمدوك ، وان ابيت لهم من ذلك خلعوك ونبذوك ، ثم لا تأمن ، ولو اجبتهم الى كل ما سالوك أن يأتوك فيقولوا لك : ان المسلمين في ابتداء امرك لم يجتمعوا عليك ، فانخلع واردد اليهم امرهم ، فان اجتمعوا عليك جملة فزت بحظك ، وكان ذلك زيادة لك في شرفك » .

وانصت عبد الوهاب لهذه الآراء وبدل مواقفه ، وهكذا اشتد الجدل بين الاباضية وقاد ذلك الى انشطارهم الى فئتين : وهبية ، ونكارية ، وتزعم النكارية احد رجال الستة من الشورى واسمه يزيد بن فندين ، وكان يزيد هذا من كبار شيوخ الخوارج ، وممن عارض بيعة عبد الوهاب ، وطالب بتأسيس مجلس من اهل الحل والعقد يعهد اليه بمهمة اختيار الامام ، الذي عليه أن يخضع لاوامره ، وهكذا لما رفض رأيه ، واخفقت ضغوطه القبلية حمل هو وانصاره السلاح في وجه عبد

الوهاب وشيعته . والمدهش في هذا النزاع هو تورط الفئات الاخرى من غير الاباضية فيه .

فقد كان من أكبر الفئات في ضواحي تيهرت جماعة الواصلية من المعتزلة ، وقد راى الواصلية ما رآه النكار وابن فندين ، وجرت بين ابن فندين وبين عبد الوهاب معارك طاحنة قتل فيها ابن لعبد الوهاب ، وكاد ابن فندين أن ينتصر فيها ، لولا أن تجارب التاريخ الاسلامي أعادت هنا نفسها ثانية بشكل غريب جداً ، فمسألة الشورى العمرية نالها بعض التعديل ، لكن المسألة الان هي أن الاباضية استعاروا تجربة التحكيم ، وهي تجربة رفضت من قبل أسلاف الخوارج ، لقد لجأ عبد الوهاب ابن رستم الى التحكيم ، ناسيا وشيعته أو متناسيا أن الاصل في قيام الخوارج ، هو الخروج على قرار التحكيم يوم صفين . وكما حدث في التحكيم الاول حين رجحت كفة البراعة السياسية المدعومة بالقوة المنظمة ، رجحت الان كفة عبد الوهاب ، وانهزم المنشقون مستنكرين لما حصل ، متنكرين لامامة عبد الوهاب ، وانعزلوا عن الامامة الرستمية ، وهكذا غلب عليهم اسم « النكار » .

لقد انتصر عبد الوهاب بن رستم ، بدهائه وحنكته وقوته ، على خصومه ، وكما قال ابن الصغير : « استملك الامر لعبد الوهاب ، وبقيت حزازات النفوس في قلوب عشائر من قتل ، ثم اشتد أمر عبد الوهاب ، وقوى عليه ، وانتقل من حال الامامة الى حال الملك » . .

ومع تحول عبد الوهاب « من حال الامامة الى حال الملك » عمل على معالجة مشكلة القبائل البربرية التي اشار ابن الصغير الى بقاء حزازات في قلوبها ، معالجة سياسية بارعة ، فسعى الى اخضاع جميع القبائل التي ، رغم هزيمتها ، رفضت الاعتراف به ، وظلت شاهرة السلاح في وجهه . وحسب الاعراف البدوية فان القبائل تتكتل باحلاف مصالح ومصاهرة لا بعقائد ، وكان عبد الوهاب يدرك هذا ، وكان يعرف الوضع القبلي حول تيهرت . فقد كانت أعظم القبائل حول المدينة كل من : هوارة ولواته. وعرف عبد الوهاب بمحاولات لانشاء حلف بين هاتين القبيلتين، فخاف ذلك ، وعلم أيضا أن زعيم هوارة خطب ابنة زعيم لواته لنفسه ، فسارع عبد الوهاب ، فأحضر شيخ لواته « وخطب اليه ابنته ، فزوجه اياها » واغضب هذا زعيم هواره « فقال : عمل علي في جارية خطبتها ورضي الى بتزويجها ، فانتزعها مني بسلطانه ، لاسكنت بأرض هو بها ، وغضبت عشيرته لغضبه ، فارتحل نحو المغرب حتى نزل بوادي هوارة ، وبينه وبين المدينة نحو من عشرة أميال أو أكثر » .

اقامت هوارة معسكرا كبيرا انحشرت اليه جميع فروع القبيلة ، وتحول هذا المعسكر الى شبه مدينة جديدة مهددة لحياة ووجود تيهرت . وقام عبد الوهاب بحشد الجيوش ضد هوارة ، وزحف ضد معسكرها ، وكانت معركة دموية . ويقول ابن الصغير الذي شهد هذه الاحداث : « فكان قتال شديد ، له غبار سد ما بين الخافقين ، قال : وعبد الوهاب ينظر يمينا وشمالا أو قلبا ، فاذا صرف نظره ذات اليمين رأى فارسا ، فيقول : من الفارس هذا قد جفل الناس ؟ فيقال له : ابنك افلح ، قال : واذا صرف بصره ذات اليسار راى مثل ذلك ، فيقول : من الفارس ، فيقال له : ابنك أفلح ، قالوا : اذا صرف بصره في القلب راى مثل ذلك فيقول : من الفارس ، فيقال له : ابنك أفلح ، قال : لقد استحق أفلح الامامة ، فكان أول يوم عقدت له الإمامة » ، وبعد طول قتال انتصر عبد الوهاب ، « وقتل في ذلك اليوم خلق كثير وأمم من الامم ، وكان القتل في هوارة افضح واشنع » .

لقد رأينا حتى الان كيف تطور الحال بهذه الدولة ، فبعد ماكان عبد الرحمن بن رستم قد بدأ بمثالية عمرية ، تحول وتغير ، انما ظل يختار لدولته ذوي المقدرة والكفاءة من الرجال المتصفين بالعدل والانصاف ، صار ابنه عبد الوهاب لا يهمه من هذا كله الا ما كان فيه التدعيم لسلطانه ودولته التي قبض على ناصيتها بكلتا اليدين ، ومع انه كان في عهد أبيه مثالا للرجل الصالح ، لدرجة انه كان قد رشح الى منصب الامامة عن جدارة منذ أيام ابيه ، لكنه ما ان ولي الحكم ، وقامت في وجهه اعمال المعارضة والثورات حتى خلع عن نفسه جلباب المثالية ، وتحول من الامامة الى الملك ، فتذرع بدرع السياسة الفولاذي الذي لا مكان للعواطف لديه . ولا يتأثر الا بما تمليه المصلحة ، ولا تنفذ فيه سهام الخلق والضمير وغير ذلك من أسلحة الضعفاء ، فبرز عبد الوهاب على المسرح رجلا جبارا عنيدا ، وسياسيا قويا لا يتريث ولا يتردد في ضرب الرؤوس بعضها ببعض ، ولا يتورع عن الاعتماد على سياسة فرق تسد ، فهو على هذا حين حول الامامة الرستمية الى ملك مثل غيره ، سهل عليه السير على طريق الملوك الذين ترتبط سياستهم بمصالح الملك لا بمبادىء العقيدة ، ذلك أن السياسة لدى الائمة مفترض انها ترتبط بمثل العقيدة ، وهذا التحول يجعل المؤرخ يواجه مشكلة تحتاج الى حل مقنع وتفسير مسوغ بشكل منطقي : هل تحول السلطة الرجال وتقلبهم مما يشبه الايمان الى مايشبه الكفر ، من الاستقامة الى الاعوجاج ، من المثل الى الدهاء والبراعة ؟

المفترض أن السلطة وسيلة لتنفيذ المبادىء وطريق نحو العدالة والمساواة ورفع الحيف ! واذا كان التأريخ تدوين اخبار ما وقع لا ما يتمناه المرء لو أنه وقع ، فهذا ماحصل في تجربة الامامة الاباضية ، وقد حدث نظيره في مختلف بقاع وادوار تاريخ العرب والاسلام ...

لقد حارب عبد الوهاب بن رستم المنشقين عليه من الاباضية ، وهادن في نفس الوقت السلطات العباسية في القيروان ، فوادع روح بن حاتم بن قبيصة المهلبي سنة احدى وسبعين ومائة (٧٨٧ م) . وبذلك امن على دولته من ولاة افريقية، وتفرغ لجمع جيش خاص به ولتنظيمه ، حتى « اجتمع له من أمر الاباضية وغيرهم مالم يجتمع للاباضية قبله ، ودان له مالم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفدة مالم يجتمع لاحد قبله » وامتد ملكه من طرابلس الى تلمسان ، فكان ملكه « ملكا ضخما وسلطانا قاهرا » .

ولدى شعور عبد الوهاب بأنه بات لديه ما يكفي من القوة والاستقرار ، تخلى عن موادعة أمراء افريقية ، وكان قد تأسس في القيروان ملك الاغالبة ، فقام عبد الوهاب سنة ١٦٩هـ/٨١٢م بمداهمة أبي العباس عبد الله بن ابراهيم الاغلبي أمير افريقية ، وحاصره في مدينة طرابلس ، وشدد عليه الحصار وأطاله حتى توفي الامير ابراهيم الاغلبي ، فقام ابنه وخليفته المحاصر بالتفاوض مع عبد الوهاب ، وتم الاتفاق على رفع الحصار عن طرابلس على أن تبقى المدينة وبحرها للاغالبة ، وما وراء ذلك لعبد الوهاب . وعاد عبد الوهاب بعد ذلك الى جبال نفوسة ، وقد امتد سلطانه ، وانطوت القبائل البربرية تحت سلطانه ، حتى قبيلة هوراة نفسها التي كانت تحاربه أخذت تستنجد به في حروبها ضد الاغالبة . وعلى الرغم مما حققه عبد الوهاب من انتصارات على الاغالبة . فقدظل يخشاهم ، لذلك سعى الى حصار دولتهم بعدد من التحالفات : فمد يده أولا الى دولة بني مدرار في سجلماسة ، ثم راسل الدولة الاموية في قرطبة الاندلس واتفق معها ضد الاغالبة ، وأرسل سفارة من لدنه الى قرطبة ، استقبلت لدى وصولها استقبالا حافلا .

وكانت مملكة الادارسة قد تأسست في المغرب الاقصى سنة اثنتين وسبعين ومائة (٧٨٨م) وفي سنة / ١٧٣هـ / استولى ادريس الاول على تلمسان ووصل الى تخوم دولة تيهرت ، وفي هذا الوقت قامت بعض فروع قبيلة زناته البربرية بالعرض على عبد الوهاب بأن ينضم الى المولى ادريس ، ويوحد دولته ويدمجها في الدولة الادريسية الجديدة ، فرفض ذلك ، وكان بعد ما وصل ادريس الى منطقة جبال زرهون في المغرب الاقصى ، وصل أخوه سليمان من مصر ، وحل بتلمسان ، وأنشأ امارة صغيرة ، وشغلت دولةتلمسان وظيفة الحجز ما بين الدولةالرستمية ودولة الادارسة، اي كانت أشبه بما يسمى الان **Buffer state** لذلك لم يسجل لنا المؤرخون اخبار مصادمات بين الرستميين والادارسة ، وعلى العموم دام أيضا السلم بين عبدالوهاب بن رستم وأمير القيروان أبو العباس عبد الله الاغلبي .

لقد توسطت دولة تيهرت الان بين الاغالبة والادارسة وآل سليمان ، وتحالفت مع الامويين الذي راوا في نشاط هذه الدولة ما يدفع عنهم خطر الاغالبة ولاة الدولة العباسية ، وكان الاغالبة بدورهم وسط حصار بربري قبلي وسياسي دولي ، فدول المغرب الاربع : الرستميون . بنو مدرار ، السليمانيون ، الادارسة ، لم تدن بالولاء للعباسيين ، وكان بنو الاغلب قد مارسوا البربر في حروبهم ضدهم ، فادركوا منها ان لا طاقة لهم بحصد شوكة القبائل البربرية ، لذلك تركوها وشأنها ، وانصرفوا عن محاربتها ، مما اعطى الفرصة بعد فترة لدعاة الاسماعيلية للنشاط وسط كتامة ، القبيلة القوية ، واثارتها لاسقاط دولة الاغالبة ، واقامة الخلافة الفاطمية .

لقد انصرف الاغالبة الى اصلاح شؤون دولتهم في الداخل ، بدلا من اضاعة جهودهم في وسط المغرب بدون جدوى ، وتوجهوا باهتماماتهم ، كما فعلت قرطاج من قبل ، نحو البحر الابيض المتوسط ، وركزوا خططهم على فتح جزيرة صقلية وكان لهم ذلك ، وكانت الخلافة العباسية في بغداد راضية عن سياسة الاغالبة ، قانعة بدورها بأن تظل سدا بين ولاياتها في المشرق وبين الاندلس والدويلات المغربية الخارجة عن سلطانها ، لهذا شجع العباسيون الاغالبة ، وسمحوا لهم بالحكم على قاعدة قريبة من الاستقلال ، وفي هذا الوسط السياسي المتداخل كان وجود الدولة الرستمية لازما للحفاظ على التوازن بين دول المغرب وقبائله ، وعلى هذا الاساس نفهم رغبة عبد الوهاب بن رستم في موادعة حكام القيروان ومشاركة الاغالبة له في نفس الرغبة ومشاطرتهم له .

وكان عبد الوهاب بن رستم كأبيه عالما متضلعا في شؤون الدين ، وبذلك احتفظ بمركزه في امامة الاباضية ــ ماعدا النكار ــ وقد صنف كتابا اسمه « مسائل نفوسة الجبل » وكان هذا الكتاب اساسا للمدرسة الاباضية الرستمية ، وكان الى جانب ذلك يشجع الحركة العلمية في دولته ، ويجلب الكتب من الشرق ، وصار لديه مكتبة زاخرة بنفائس الكتب المتعددة الشاملة لمختلف الفنون والعلوم .

وبعد ماقضى عبد الوهاب ايام حكمه ــ وكانت زاخرة بجلائل الاعمال ــ توفي سنة ثمان ومائتين (٨٢٣م) فبويع ابنه ميمون ابو سعيد الافلح بالامامة بعده ، وكان كذلك مرشحا للامامة في حياة ابيه ، فلم يكن يقل عنه دهاء ومكرا وسعة حيلة ، وعلى ذلك استطاع ــ باتباع تعاليم ابيه وسياسته المتقلبة ــ أن يقبض على زمام الملك طيلة خمسين سنة .

وفي البداية سالم الافلح جيرانه الاغالبة ، لكن أبا العباس محمد بن الاغلب بن ابراهيم تصور أن بامكانه التغلب على دوله تيهرت ، ووفقا لذلك أقدم على بناء مدينة

بجوارها وسماها « بالعباسية » نسبة اليه ، واراد منها ان يأخذ بمخنق تيهرت ، فتوجه اليها الافلح واخربها سنة سبع وعشرين ومائتين (٨٤٢ م) .

لقد سلف واشرنا الى أن الاغالبة بعدما مارسوا البربر في الحروب الرستمية والادريسية ادركوا أن لاجدوى من محاربة هؤلاء ، وانه من الانفع لهم مسالمتهم والانصراف نحو اصلاح شؤونهم الداخلية ، فعملوا على ذلك ، ووطدوا العزم على إقرار دولتهم التي صارت تستقل عن بغداد شيئا فشيئا ، وتخلل ذلك بعض الفتن داخل البيت المالك ، لكن هذه القلاقل لم يطل بها الامد ، وسرعان ما رجعت الامور الى نصابها ، واستعاد الاغالبة نشاطهم ، وثبتوا دعائم دولتهم من جديد ، وهنا امتدت أنظارهم عبر البحار ، وصارت اساطيلهم تداهم بعض جزر البحر المتوسط مع شواطىء ايطاليا ، وقلبها حتى روما احيانا ، ونشطت اساطيل الاغالبة القوية ضد صقلية فسردينية وكورسيكا ولا شك أن هذا النشاط بعث السرور لدى العباسيين ونال رضاهم سيما والعلاقات العباسية البيزنطية كانت في غاية السوء ، والحروب بين الطرفين شديدة .

وفي هذا الوقت تمكنت جماعة اندلسية الاصل من احتلال جزيرة كريت ، واعترفت بسلطان الخليفة العباسي ، لكراهتها للحكم في قرطبة الذي أجبرها على الهجرة منها اثر حادثة الربض المشهورة .

وكان للنشاط الاغلبي في البحر المتوسط ردات فعل حذره لدى الامويين في الاندلس ، فهم باتوا يخشون على شواطئهم ، وخافوا ان يستولي الاغالبة على جزر البليارد التي دانت بالطاعة لهم ، لهذا نجد الامير الحكم الربضي واصل الادارسة فبعث بوفد الى المولى ادريس الثاني هنأه بمبايعته بالخلافة والامامة ، وفاتحه بالتحالف ضد الاغالبة والعباسين ، لكن العلاقة بين الادارسة والامويين لم يتح لها التطور والتعمق ، فالمولى ادريس الثاني قام بانشاء مدينة فاس في بقعة كانت موطنا لجماعات من أهل ربض قرطبة الذين ثاروا على الامير الحكم وطردوا من الاندلس . ثم ان مدينة فاس ــ أو بالحري شطر من شطريها ــ صار دار هجرة لجماعات قدمت من القيروان (هي التي اسست جامع القرويين الشهير) ، وقد عادى هؤلاء الحكم الإموي في قرطبــة .

وبعد وفاة الحكم الربضي (٢٠٦هـ/٨٢١م) ثم المولى ادريس الثاني (٢١٣هـ/ ٨٢٨م) تحسنت العــلاقات بين الاندلس ودول الشمال الافــريقي : الادارســة ، الرستميون ، برغواطه ، سجلماسة ، النكور ، وصار هناك تفاهم سياسي ضد الاغالبة ، وكان الوضع الداخلي في الاندلس يعاني من الاضطرابات ، ولم يكن الامويون يملكون

قوة بحرية تعادل قوة الاغالبة ، وباتت شواطىء الاندلس معرضه لخطر الاغالبة ، وخطر اوربي جديد جاء مع أساطيل الفيكونغ ، لهذا جهدت قرطبة في الضغط على الاغالبة من داخل المغرب .

ويروى انه عندما اخرب الرستميون مدينة العباسية سارعوا الى اخبار قرطبة وزفوا اليها البشرى ، فبعثت بمعونة مالية قدرها /مائة الف دينار/ للامير الرستمي مكافأة له على الايقاع بالاغالبة .

وسلف بنا القول بأن افلح بن عبد الوهاب كان لايقل في دهائه عن أبيه ، ومفيد ان نضيف الى هذا انه كان لايقل عنه علما ، وانه اشتهر بالادب وتذوقهاكثرمنه. وتحدث الدرجيني في كتابه طبقات المشايخ عن هذا بشكل مفصل ، واثبت له الباروني قصيدة طويلة في فضل العلم ومزاياه والحض على نيل العلم واكتساب المعرفة ، وبعلمه صار افلح رأسا للخوارج الاباضية والصفرية بالمغرب ، وبالعلم ايضا صار راسا للواصلية المعتزلة .

ووادع أفلح جيرانه ماوادعوه وتقرب من حكام الاندلس ، واعتمد في سلطانه وادارته على الفرس الذين كثرت أعدادهم في تيهرت ، واسند لهؤلاء الفرس قيادة قواته مع أسمى المناصب في الدولة ، كما ان المرافق الاقتصادية والتجارية والاموال صارت حكرا على الفرس ، وكون الفرس في هذا الوسط الغريب نوعا من الاستقلال الخاص ، حتى أن احد التجار منهم واسمه ابن وردة بنى سوقا سماه باسمه ، وكان له حرسه الخاص ، وتمتع في نفس الوقت بمنصب رئيس الشرطة لذلك سخر فرقة من الشرطة لحمايه سوقه وحراسته .

واعتماده على الفرس أفاده كثيرا ، ومكنه من النجاح السياسي والاستقرار الداخلي ، فنعم بالهناء والرخاء في قصده ، وشمل هذا الهناء شعب تيهرت ، واتباع الدولة فراكنوا الى الراحة والدعة ، وانتشر في تيهرت البذخ ، وعم الترف ، فقاد ذلك الى حياة اللهو والمجون ، وانغمس الناس في هذه الحياة ، مما كان له سيء الآثار . فقد بدات بوادر الانحلال تلوح في الافق ، ولحق هذا ظهور الخصومات خاصة بين الفرس ورجال قبائل زناته ، وهنا عادت تلك السياسة التي خطها أبوه عايه وعلى الدولة بالوبال ، ذلك أنه لم يتمكن من الافادة منها كما فعل أبوه ، لانه كان يعوزه تلك الشخصية القوية التي تركب الصعاب وتواجه معقدات الامور بعزم وقوة وثبات وصرامة ، فالدهاء لوحده مدعوما بالمكر غالبا مايأتي على صاحبه بأسوأ العواقب ، ومع هذا واجه أفلح بدايات المشاكل واستطاع أن يؤجل انفجارها لكنه ما ان قضى

نحبه حتى ثار بركان الفتن ، وصار ملوك تيهرت في وسط تيار الخصومات تتقاذفهم الامواج وتعبث بهم ايدي المتخاصمين والمتآمرين ، وانبعثت الخصومات القبلية من جديد وبشكل حاد ، وقويت القبائل بعضها على بعض ، ففرض المنتصر ملكا جديدا بعدما عزل واحدا قديما ، وذلك بصرف النظر عما تمتع به هؤلاءالملوكمن مواهب، ان وجدت المواهب ، لهذا عجز ملوك تيهرت بعد افلح عن السيطرة على المواقف ولم يستطيعوا الصمود في وجه الحوادث والتصدي لها .

توفي ابو سعيد ميمون الافلح سنة ٢٥٨هـ/٨٧٢م ، فقام بالامر من بعده ابنه أبو بكر ، وكان هذا الامام ميالا الى الراحة والدعة مولعا بالادب ، لهذا ترك لاخيه أبي اليقظان وصهره محمد بن عرفة أمر تسيير دفة الدولة ، فكانت النتيجة عدم رضا رؤساء الدولة من المشايخ ، فعملوا على اغتياله ، بعدما فجروا ضده فتنة اخرجته من تيهرت ، فاستولى عليها محمد بن مسالة الهواري بعد حروب شديدة ، وكان أصل هذه الفتن أن حاشية أبي بكر وبطانته نفسوا على صهره ابن عرفة مكانته من الدولة ، فأوعزوا الى أبي بكر أن يتخلص منه بحجة الخيانة ، فلما كان في احد الايام في صلاة المغرب طعنه خادم لابي بكر ، فاستفظع الناس هذه الفعلة ، وثاروا بأبي بكر ، وقامت الحرب بين انصار الحكومة وخصومها ، وكان بجانب الحكومة قبيلة نفوسه الجبل والفرس ، فتغلب عليهم خصوم الحكومة ، وعليه تفرق رجال الدولة في اقاصي البلاد، واستولى ابن مسالة على تيهرت ، فأجلى لواته عن المدينة ، فاجتمعت هذه القبيلة بقواها حول أبي اليقظان ، فذهب بهم مع انصاره نحو تيهرت ، وانضمت اليه نفوسه طرابلس ، فتقوى بها ، وحاصر المدينة التي فتحت له ابوابها بعد سبع سنين من الحصار ، وبذلك فقد أبو بكر امامته بعدما مكث بها مدة عامين .

وتولى الامامة ابو اليقظان ، وكان ابو اليقظان قد ذهب في ايام ابيه الى المشرق بقصد الحج ونيل المعرفة ، فقبضعليه العباسيون، واودعه الخليفة الواثق في السجن، وهناك تعرف الى المتوكل ، فلما آلت الخلافة الى المتوكل اطلق سراحه واحسن اليه ، نعاد الى تيهرت ، واستولى عليها كما رأينا ، وامسك مجددا بزمام السلطة ، وظل في مركز الامامة مدة اربعين سنة ، كان خلالها مثلا اعلى للعلماء الزهاد ، فافتتنت به نفوسة الجبل ، وصار رجالها يعتقدون فيه اعتقادات ساعدته على أن يحتفظ بمنصبه ومكنته من صيانة الدولة ، وهكذا مكث مقدسا مبجلا حتى توفي سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م بعد ماعمر مائة سنة .

وبويع ابنه ابو حاتم يوسف بالامامة ، وكان ابو حاتم يوسف كثير المروءة واسع الاحسان ، ومع ذلك اضطربت عليه الامور ، فأخرج من المدينة ، ثم عاد اليها ، وائتمر

به بعض قرابته فقتلوه سنة ٢٩٤هـ / ٩٠٧م ، وكان بكر بن حماد ، وهو من أكبر علماء عصره ، ممن أوضعوا في الفتنة اول الامر ، لكنه عاد واعتذر اليه بقصيدة وذلك بعدما عاد الى تيهرت ، كما نازعه عمه يعقوب في الحكم ، فارتحل الى قبيلة زواغة ، رافضا بيعة ابن أخيه ، وبعد ما اخرج ابو حاتم من تيهرت استقدم أهل المدينة العم يعقوب وبايعوه ، فوقعت الحرب بينه وبين ابن أخيه ، وتدخل شيوخ الاباضية بين الامام وعمه فتوقف القتال ، وتألف الإمام الناس فتمكن من العودة الى تيهرت التي غادرها يعقوب الى زواغة مرة جديدة بعدما اقام اميرا اربع سنوات ، وكان يوسف بعيد الهمة ، نزيه النفس ، عاش حتى استولى الفاطميون على تيهرت ، فارتحل الى برقة وهناك عرض عليه أهلها البيعة فرفض قائلا « لا يستتر الجمل بالغنم » ، ثم توجه الى مصر ليستقر نهائيا بعدما أقام بجبال نفوسه وافريقية ضاربا في البلاد متنقلا . ولم تطل الحياة بأبي حاتم حيث قتله بعض قرابته سنة ٢٩٤هـ / ٩٠٧ ، فخلفه بالامامة اخوه ابو اليقظان بن ابي اليقظان الذي لاحقته الجيوش الفاطمية حتى تمكنت من قتله سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م وبذلك انطوت آخر صفحات تاريخ الامامة الرستمية في تيهرت ، انما كدولة فقط ، حيث انتشرت فلول الرستميين في انحاء البلاد ، واحتفظ بعضهم بمكانة دينية وقدسية خاصة .

لقد انطوت صفحة دولة الائمة الرستميين في تيهرت انما ليس معنى هذا ان السلالة الرستمية قد اندثرت وانقضى أمرها من الشمال الافريقي ، لكننا نجد افرادا منها يتجهون ، بسبب الملاحقة الفاطمية ، نحو الشرق ، حيث تمركزوا واتباعهم في واحة ورجلة ، وظل نشاطهم مستمرا هناك حتى داهمتهم جيوش المرابطين ، فهجروها واستقروا في « مزاب » حيث شمروا عن سواعد الجد ، وحفروا الابار وبنوا الدور ، فحولوا تلك الصحراء الى واحات غنية ، ولم يمض طويل وقت حتى صارت واحات الاباضية أشبه بالقرى العظيمة وبذلك نالت اسم « سبع مدن » .

ونجد ابن خلدون يتحدث عنهم في أكثر من مكان من تاريخه ، ويستخلص من كلامه انهم في ايامه كانوا قائمين في بعض الجهات يعيشون في شبه استقلال ، وفي القرن التاسع هـ/الخامس عشر م نجد بعض الرحالة يسميهم « المرتجين المحمديين » ويسجل لهم أن « الامانة هي الطابع الخلقي في تجارتهم ، والايمان يجعل من لهجتهم ومن حياتهم الاجتماعية مغزى نبيلا » وما زالت دول : ليبيا ، تونس والجزائر فيها أعداد كبيرة من الاباضية ، لهم نشاط متميز ، وادوار خاصة .

لقد كانت دولة الائمة الرستميين اباضية المنشأ والعقيدة ، ومع هذا آمنت بحرية المعتقد ، فتألفت حولها القوب ، وتجمعت فيها فرق اسلامية مختلفة النزعات

والجنسيات ، فكان فيها خوارج من اباضية وصفرية ، كما كان فيها شيعة وسنة ومعتزله مثلوا جميعا قبائل من البربر كان على راسها زناته مع جماعات من الفرس والعرب عاش الجميع في وئام ، حتى رأينا بعض الائمة الرستميين لاتقتصر امامتهم على الاباضية بل تزعموا الصفرية والواصلية من المعتزلة في ذات الوقت .

ولقد كان الدور الحضاري للدولة الرستمية عظيما ، لم يقتصر تأثيره على الشمال الافريقي بل امتد الى قلب القارة الافريقية .

ومن المفيد ان نشير في نهاية هذا البحث الى انه في الوقت الذي كانت فيه المملكة الرستمية تلفظ انفاسها تحت ضربات جيوش الخلافة الفاطمية الناشئة ، كانت جماعات النكار الاباضية تجمع قواها وتلتف حول زعيم لها اسمه أبو يزيد مخلد بن كيداد الملقب « بصاحب الحمار » فقد ثار أبو يزيد على الفاطميين أيام القائم ، الخليفة الفاطمي الثاني واستولى على معظم الاراضي الفاطمية ، وحصر الفاطميين في مدينة المهدية ، وحاول اعادة بناء الدولة الاباضية ، وبعد جهود تمكن المنصور اسماعيل الخليفة الفاطمي الثالث من القضاء على هذه الثورة ، حيث قبض على زعيمها فقتله وشتت أتباعه . وفي الحقيقة ان الحديث عن ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد موضوع مستقل ، يحتاج الى مكان مستقل غير هذا المكان ، ولربما يتاح لنا ذلك في المستقبل ان شاء الله تعالى ويسر(*) .



---

* اخبار الدولة الرستمية موزعة في التواريخ العامة للشمال الافريقي وخاصة تاريخ ابن خلدون انما نجد في الادب الاباضي كتابات تاريخية عالية القيمة تقدم لنا صورة مشرفة لتاريخ الدولة الاباضية في تيهرت ، ويتقدم المصادر الخاصة لهذه الدولة ما كتبه ابن الصغير القيرواني ، ويلي ذلك كتاب سير الائمة واخبارهم لابي زكريا يحيى بن أبي بكر ، ثم كتاب طبقات المشاريخ للدرجيني ، ثم السير للشماخي ، وكلها مطبوعة ، ولدى الباروني وهو كاتب حديث ، مواد جيدة عن الرستميين اودعها في اكثر من كتاب تاريخي له .

الوطن العربي
بين الاتجاه القومي وواقع التجزئة
في الفترة بين الحربين العالميتين

د . خيرية قاسمية

جامعة دمشق

عاش العرب في اطار الدولة العثمانية الاجنبية عنهم ، لانها ظلت في اذهانهم استمرارا للتاريخ الاسلامي العام . واستمرت الوحدة قائمة نوعا ما خلال الحكم العثماني ، نظرا لوجود منظمة سياسية مركزية واحدة تجمع الاقطار العربية في آسية واقعا ، وفي افريقية اسما(١) . مع ذلك وجد عند العرب احساس غامض مستمر بانهم شعب يتميز عن سواه من شعوب الدولة العثمانية باللغة والتراث والتقاليد التاريخية المشتركة . واتسم هذا الاحساس منذ منتصف القرن التاسع عشر بطابع ثقافي اخذ يدعو الى احياء اللغة العربية والتاريخ العربي ويؤكد على الحضارة العربية(٢) .

ومع التدهور المستمر في قوة الدولة العثمانية في الجبهات الخارجية ، شارك المفكرون العرب في الحركة الاصلاحية الداعية الى تبني مبادىء جديدة ، تتيح للدولة استعادة القوة اللازمة لمواجهة التفوق الاوروبي ، ولكن دون تمزيق للوحدة العثمانية او فصل الاراضي العربية عن الدولة العثمانية(٣) ، بل بخلق التماسك في دولة متعددة الاجناس والثقافات ، وذلك لمواجهة سيطرة الغرب ، واستعادة العالم الاسلامي لعظمته المهددة بالعدوان الاوروبي(٤) .

ويعتبر الكواكبي ، نموذجا للتيارات الاسلامية المجددة ، وكان اكثر المفكرين تطرفا في انتقاد الحكم العثماني ، فانطلق يؤكد دور العرب الخاص ويطالب باستعادة مكانتهم في الخلافة(٥) . وترافقت الفكرتان الاسلامية والعربية عند الكواكبي ، ولكن

(*) اعد البحث للمؤتمر الثاني للعلاقات العربية التركية تصفية الترسبات الاستعمارية في تاريخ العلاقات العربية التركية) طرابلس ، الجماهيرية العربية الليبية ، ١٣–١٨ كانون أول ١٩٨٢ .

الواضح هو تأكيده على ضرورة القيادة العربية للفكرة الاسلامية دون قطع للوحدة العثمانية(٦) . كما ان نجيب عزوري الذي دعا الى تحرير العرب من الحكم العثماني قبل ارتباطا بالوحدة العثمانية بشكل ما ، فقد اقترح تقسيم الاراضي العربية الى قسمين : الجزيرة العربية ، التي هي مقر الخلافة ، وتصبح دولة اسلامية ، والهلال الخصيب ويصبح دولة علمانية حديثه(٧) .

واخذ النفور القومي يستحكم بين العرب والحكام الجدد الاتحاديين بعد ١٩٠٨ ، حين تبنى هؤلاء مبدأ العقيدة العثمانية لجمع عناصر السكان في الدولة ، وبالتالي لصهرهم في بوتقة الطورانية ، وكانت هذه المحاولة فاشلة نظرا لان التطورات المحلية في البلاد كانت تسير في اتجاه معاكس لا يأتلف مع هذه السياسة الجديدة ، كما أن اثارة المشاعر القومية كانت لعبة خطرة في امبراطورية متعددة العناصر والقوميات(٨) . واثارت محاولات الدمج مخاوف العرب من فقدان هويتهم الثقافية وبدات ردود الفعل العربية ضد حركة التتريك تظهر بالتدريج ، كما بدات حركة التململ والتذمر من الحكم العثماني تتخذ طابعا سياسيا ، وظهرت على شكل جمعيات واحزاب عربية وضعت مناهج محددة واضحة(٩) .

في هذه المرحلة من الحركة القومية ، ورغم تعدد الشكاوى ، لم تراود العاملين فيها فكرة الانفصال ، ولم تظهر الا في نداءات متفرقة ، بل كان همهم طاب الاصلاح الذي يضمن للعرب كيانهم القومي في الدولة ويعيد للعرب دورهم الذي فقدوه وهم اهل له ، وكان ذلك حرصا على الوحدة الاسلامية العثمانية لا اضعافا لها وخوفا من الاطماع الغربية التي بدات تنفذ الى اجزاء كثيرة من الوطن العربي . ولم يكن لدى عرب الدولة العثمانية في ذلك الوقت مؤهلات كافية للاستقلال ولا وسائل كافية لحماية الوطن من غارات دول الغرب(١٠) .

وتجسد برنامج العمل القومي في مؤتمر باريس ١٩١٣ بطلب اجراء اصلاحات في الدولة العثمانية لمصلحة الجميع ، واعادة الاعتبار الى العنصر العربي . وكان العرب على استعداد للتعاون مع الزعماء الاتراك لو قبل هؤلاء بعض التنازلات ، ولربما اعطى اساسا لقيام دولة ثنائية القومية(١١) .

والملاحظ ان الفكرة القومية التي تبنتها الجمعيات والاحزاب العربية قبل الحرب الاولى لم تأخذ شكلا محددا ، فلم توضع الاشارات المتكررة الى الامة العربية بتعابير قومية واضحة او نظرية فكرية منظمة . ولم يكن الخط الفاصل بين الفكرة العربية والفكرة الاسلامية واضحا . واستمد المفكرون العرب - مسلمون ومسيحيون،

في هذه الفترة الالهام من اللغة العربية والتراث العربي لتطوير الوعي القومي والدعوة الى هوية عربية متميزة عن الهوية العثمانية ، ونظروا الى الاسلام باعتباره ثمرة من ثمار التراث العربي ، كقوة روحية وكمجموعة من القيم الاخلاقية الضرورية للحياة لا يمكنهم الانفصال عنه(١٣) .

وكان هذا العنصر الثقافي الهام هو الذي دفع المفكرين العرب لاعتبار الاسلام كجزء مكون للقومية العربية . ويمثل الشيخ رشيد رضا التيار الفكري الذي كان مخلصا لكلا الولائين الاسلامي والعربي مؤمنا ان وحدة احدهما تدعم الاخرى . وكان الهدف النهائي لفكر رشيد رضا السياسي هو اعادة بناء دولة اسلامية حقيقية ورفض كل المحاولات لخلق دول في العالم الاسلامي لا تقوم على وحدة الدين ، رغم ذلك فان عنصر الشعور القومي في كتاباته كان قويا . ونظرا للمكانة الخاصة التي يحتلها العرب في « الامة » يرى ان القومية العربية يمكن ان تتفق مع الوحدةالسياسية بل ان احياء «الامة » يحتاج الى احياء العرب ، ولا يمكن للفكر الاسلامي أن يزدهر ما لم يزدهر اللسان العربي ، ولا يمكن الوصول الى وحدة « الامة » الا بوحدة اللغة . فاللغة العربية هي الخير المشترك لكافة المسلمين .

اقتصرت الدعوة القومية خلال الحكم العثماني على العرب المقيمين في منطقة الهلال الخصيب والجزيرة العربية (غربيها على الاقل) اي المناطق التي كانت لا تزال تحت الاشراف العثماني المباشر ، واعتبر بعض المفكرين ان مفهوم الوحدة يشمل سكان آسيا « الناطقين بالضاد » وبنوع خاص سكان سورية والعراق الذين كانوا اكثر استعدادا لتحقيق كيانهم السياسي واستقلالهم القومي . وظلت البلدان العربية في شمالي افريقية خارج نطاق اهتمامهم كقوميين عرب رغم كل العوامل الموحدة القائمة على عوامل الانتماء المشتركة للامة العربية من اطار تاريخي واحد وتراث مشترك ولغة مشتركة وشخصية عربية مشتركة ، ولم يكن ذلك الا بسبب احداث خاصة مرت في تلك الاجزاء من الوطن العربي في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين وفصلتها عن الحكم العثماني واوقعتها في قبضة التدخل الاوروبي وابعدتها عن الاندماج في الحراكة العربية(١٤) .

ويمكن اعتبار موقف اوروبا من محاولة محمد علي توحيد جزأين من الوطن العربي، ابان النصف الاول من القرن التاسع عشر ، بداية الشقاق العقائدي بين الاجزاء الاسيوية والافريقية وله نتائج بعيدة المدى لانه وقع في زمن كان العرب يجتازون فيه تجربة تجدد شامل(١٥) ، وفرضت اوروبا على مصر منذ هذا الحادث انقطاعا نسبيا

عن الاجزاء العربية الاخرى ، واخذ بعض المفكرين في مصر يبحث عن مشكلات بلده ، وزادت حدة التيار بعد الاحتلال البريطاني لمصر ١٨٨٢ وانفراد مصر بمعركة تحرير وطني متميزة ضد الاحتلال البريطاني اتجهت الى ان تصبح مصرية من الناحية السياسية والفكرية تنظر الى كفاحها وتنظيمها وعملها انه كفاح وتنظيم وعمل مصري(١٦) .

وكذلك الامر بالنسبة الى بقية الاجزاء العربية في شمالي افريقية التي وقعت في قبضة التدخل الاوربي ، الفرنسي خاصة ، بمزيج من القوة والدبلوماسية(١٧) (الجزائر ١٨٣٠ ، تونس ١٨٨١ ، ليبيا ١٩١١ ، مراكش ١٩١٢ – ١٩١٤) ، ووضع الاحتلال هذه البلدان امام قضية خاصة بها ، بعد ان كانت قد بدأت تسهم في التيار الرئيسي للفكر العربي كحركتي الاصلاح والتفكير العصري اللتين عرفتهما تونس أواسط القرن التاسع عشر وكان لهما تأثير في المشرق العربي (١٨) . وفصلت هذه الاحداث الخاصة الاجزاء العربية في افريقية عن الحكم العثماني وابرزت فيها شعورا وطنيا خاصا اشبه بدعوة « الجهاد » السياسي لصد التدخل الاوربي ، وامتزج هذا الجهاد طبيعيا بالشعور الديني الاسلامي(١٩) ، واصبحت الجماهير الثائرة المنظمة تحت قيادة زعماء دينيين شديدة التعلق بالاسلام في اصفى مظاهره وانقاها ، اندفاعا منها في رد فعل الغاصب الاوروبي « المسيحي »(٢٠) .

وقد ظلت مصر وسائر بلدان شمال افريقية تعلق آمالها حتى الحرب العالمية الاولى على الدولة العثمانية للتخلص من الاجنبي ، ولم تنظر الى الحركة الوطنية في الاجزاء الاسيوية ضد العثمانيين بعين الرضى ، ووقفت الى جانب الوحدة العثمانية ضد التدخل الاجنبي(٢١) . هذه الظروف الخاصة لا الشقاقات العرقية ولا الخلافات العقائدية ولا النزاعات التاريخية ، هي التي عملت على انماء حركات وعقائد متضاربة في شطري العالم العربي الاسيوي والافريقي . وكان مقدرا لهذه التيارات في المشرق والمغرب ان تلتقي لتصبح قوة موحدة ، لولا الظروف التي اكتنفت سنوات الحرب العالمية الاولى .

المواجهة الوطنية مع قوى الغرب المستعمر :

انتهت الحرب العالمية الاولى والغرب يسيطر على اكثر البلدان العربية في آسيا وافريقية : فقد تقرر خلال السنتين اللاحقتين للحرب مصير المشرق العربي على اوجه بعيدة كل البعد عما كان العرب يرتقبونه ووجد الذين ايدوا الاتفاق مع بريطانيا اثناء الحرب ١٩١٦ ان التسوية مخالفة للتعهدات الغامضة التي قطعت لهم .

ووقعوا في مأزق لا مفر منه ، وهو المأزق الذي يقع فيه كل ضعيف معتمد على دولة عظمى لتحقيق مآربه اذ يكون بحاجة الى قوة تلك الدولة وهو لا يستطيع ان يحملها على تفضيل مصالحه على مصالحها(٢٢) . وجرى التقسيم الاعتباطي للمشرق العربي الى دويلات تقع تحت سيطرة الدولتين الكبيرتين ، فرنسة وبريطانية بما لهما من مصالح مختلفة وحتى متناقضة(٢٣) . واطلق على هذه السيطرة اسم « انتداب » وهو حسب ميثاق عصبة الامم « وصايات مقدسة للتحضر والتمدن » ولم يمنع رفض هذه الوصاية اسداءها جبرا .

اما مصر ، فقد خابت آمالها بعد ثلاث سنوات من المظاهرات والتوتر السياسي ومع ان بريطانية وافقت على ان تغدو مصر دولة مستقلة ذات سيادة في الظاهر الا انها ظلت تحتفظ بقواتها فيها وتشرف على شؤونها الخارجية . وخرجت الاجزاء الاخرى من شمال افريقية وهي لا تزال ترزح تحت حكم الدول الكبرى ، اسبانية وفرنسة وايطالية ، دون اهتمام كاف بآمال العرب وطموحاتهم بل كانت الدول الاستعمارية متأثرة بمصالحها الاستراتيجية والتجارية والثقافية(٢٤) .

واتبعت تلك الدول اهداف واساليب واحدة من افقار وحرمان وترفع عنصري واستغلال اقتصادي ، ولم يمنع اختلاف تلك الدول وتناقضها عن تعاونها وتضامنها ضد العرب .

لقد كان في الامكان لولا التدخل الاجنبي ، ان يعيد العرب بناء حياتهم كلها على اسس قومية شاملة ، وان تتخذ خريطة الوطن العربي شكلا مختلفا . ولو اتيحت للعرب ، على الاقل عرب المشرق ، الظروف المناسبة ، لتمكنوا من ملء الفراغ الذي احدثه زوال الدولة العثمانية بدولة عربية موحدة لها مقومات الدولة الكبيرة ومواردها وامكانياتها ، حتى ضمن الحدود التي طلبها الشريف حسين ، فقد كان انشاء الدولة العربية هدفا اساسيا من اهداف الثورة العربية لا يقل اهمية عن التحرر من الحكم الاجنبي ، ولكن الذي حدث هو « بلقنة » الوطن العربي(٢٥) .

وكان لاصرار الغرب على السيطرة السياسية وعلى انكاره حق العرب بالوحدة والاستقلال وسعيه لخلق دول عربية صغيرة ضعيفة يسهل السيطرة عليها ، ان تميزت العلاقات بين الغرب والعرب بموقف من الشك المتبادل وعدم الثقة وضعت بذورهما من قبل . ومهما كانت الدرجة التي نجحت فيها القوى الغربية في الحفاظ على ما تملكه ، احيانا بمنح تنازلات متأخرة ، وفي اغلب الاوقات باستثمار اتجاهات انفصالية بين العرب من اجل ان تكسب اعجاب او دعم فئة ضد اخرى ،

فان هذه الحقيقة كان مقدرا لها ان تؤثر على موقف الشعب العربي نحو الغرب لمدة طويلة (٢٩) . وكان ما يجعل العرب ، وخاصة في المشرق منهم ، يحسون بهول صدمة اخضاعهم للاجنبي ، هو انهم كانوا جزءا من العنصر المسيطر في الدولة العثمانية وانهم لعبوا دورا كبيرا في حكومتها طيلة نصف القرن السابق لزوالها(٣٠) . وقد حلت الخيبة والمرارة في اعقاب الحرب العالمية الاولى محل التفاؤل المتوهج الذي كان يفعم الحركة القومية العربية في بداية انطلاقها ، وراح المراقبون الغربيون يعزون هذه الظاهرة الى ما يفترضونه في الروح العربية من عداء غريزي للغرب ، ولكن هذا التأويل يعجز عن تفسير هذا الامر وهو : لماذا لم يحدث هذا العداء للغرب قبل ان يفرض الغرب على العرب استعماره(٣١) .

وتعبيرا عن الرفض التام لحكم القوى الاوروبية شهدت السنوات التالية لاعلان الهدنة ثورات شعبية وحركات وطنية توالت واحدة بعد اخرى للتخلص من الاستعمار الاجنبي ومقاومة ارهاب قوات الاحتلال الغربية وانضوت تحت قيادة رجالات الثورة ، ولعل افضل تعبير عن ذلك ما قاله المارشال ليوتي في وصفه الوطن العربي بانه « صندوق اصوات متجاوبة » (٣٢) . وكانت ثورة العراق ١٩٢٠ رد الفعل الاول الجاد لتسوية ما بعد الحرب ، وتبعتها ثورات سورية ١٩٢٠ و ١٩٢٥ واستمر التوتر في مصر بعد ثورة ١٩١٩ وحتى عام ١٩٢٣ ، وظل تاريخ فلسطين حافلا في العشرينات والثلاثينات باخبار الانتفاضات ، وقامت في الريف المغربي ١٩٢١ اعنف ثورة على الغرب اجبرت الاسبان على اخلائه وكان هذا اكبر نصر حازه جيش عربي على جيش اوربي ، واستمرت الثورة في ليبيا عشر سنوات . فعل العرب ذلك وهم محرومون من جميع اسباب القوة ، تسيطر عليهم عوامل ومؤثرات داخلية وخارجية لا طاقة لهم بها (٣٣) ، ولكن القوة العسكرية الغربية كانت اضخم من طاقتهم فخضع العرب للقوة ومكن الغرب لنفسه في بلادهم . وكانت هناك ارضية مشتركة بين القوى الاستعمارية اذ كان لا يمكن لاي منها وحدها ان تحافظ على موقعها الاستراتيجي بدون الوصول الى اتفاق عمل مع القوى الاخرى (٣٤) .

وهكذا لم يقدر للثورات الوطنية ان تحقق نجاحا عسكريا ولم تصمد طويلا امام الضربات التي وجهتها اليها القوى الاستعمارية ، وطال أمد الاحتلال العسكري حتى خيل للناس في فترة من الزمن انه احتلال ابدي لا طاقة للشعوب العزلاء بدفعه . ويعزو البعض النتائج الضئيلة التي اسفر عنها هذا الكفاح الى الاخطاء التي ارتكبت في التخطيط والاعداد من قبل الزعامات السياسية(٣٥) ، والى اسلوب البطش والتفتيت واضطهاد الزعامات الوطنية .

ويمكن أن يعزى فشل الثورات الوطنية الى التغير التدريجي في موقف الغرب المسيطر ، وموقف القيادات السياسية العربية : فقد واجهت الغرب المعارضة العربية للسيطرة الاجنبية ،ووجد أن سياسةالقوة والاحتفاظ بالجيوش المحتلةوالردع المسلح غالية التكاليف ضعيفة النتائج ، فلجأ الى التهدئة والمفاوضة والتسكين في محاولة للتوفيق بين الراي القائل بكسب ثقة العرب وبين الانتداب والحماية ، فحصل على مكاسب أكبر مما حصل عليه عن طريق العنف(٣٦) .

وكان لادراك القيادات المحلية الوطنية التي شاركت في صفوف الحركة الوطنية خلال الحرب وبعدها ، حدود امكاناتها العملية في مواجهة القوى الاستعمارية وصعوبة التخلص من قبضة السلطة الاوربية ، وعدم قدرة تلك القيادات على فهم طبيعة الاستعمار الغربي ومتطلباته الاستراتيجية والعسكرية ، ان جعلها اكثر تقبلا لصيغة المشاركة(٣٧) . ولم يكن لهذه القيادات ان تختار بين الاستعمار وبين الاستقلال الحقيقي ، بل بين درجات وانواع مختلفة من السيطرة ، فاصبح مفهوم الاستقلال بعد عام ١٩٢٥ في العراق ومصر وسورية محدوداً ، ويعني الحصول على الحكم الذاتي الداخلي والانتماء الى عصبة الامم . لكنه لم يكن لينفي بقاء رابطة دائمة مع الدول المحتلة على شكل معاهدة تكون اقل اذلالا من الوصاية المباشرة ، تعطي بعض الحرية السياسية ولا تمس بمصالح الغرب(٣٨)، دون أن يمنع ذلك بروز نقاط خلاف بين حين وآخر يتجلى بقيام التظاهرات والانتفاضات ورفض التعاون واثارة الراي العام .

واتخذ النضال في الجزائر وتونس طابعا سلميا عبرت عنه تلك الفئات المشبعةبالفكر الفرنسي ، واستهدفت اولا اسماع صوت البلدين في مؤتمر الصلح وكسب الاحزاب اليسارية في فرنسا ، ثم اقتصرت مطالبها على المساواة في الحقوق مع المقيمين الفرنسيين وفتح ابواب الوظائف للمواطنين(٣٩) ، ولم يكن مبتغاها الاستقلال التام بل مركزا افضل تحت نظام الحماية . الا ان هذه الفئات اتجهت بعد ان فقدت الامل « بالعدالة » اتجاها قوميا وبدأت في تنظيم حركات ثورية ضد الفرنسيين(٤٠) .

لقد خيل للساسة « المعتدلين » في عالم مابين الحربين ان السبيل الوحيد الذي يتيح للدول العربية فرصة الانضمام الى مجموع الامم هو اتباع اسلوب التريث والمهادنة والنفس الطويل والنقاش المنطقي مع ساسة الغرب وتصوير أماني العرب في صورة لا تثير مخاوف الغرب ومناشدة الوجدان الليبرالي الغربي والدعوة الى تقبل المنافع المادية للغرب ومحاولة اقتباس النظم والمؤسسات السياسية الغربية . ولم تكن هذه السياسة مقبولة لدى جماهير الشعب التي لم تعرف لها دوراً غير دور النضال في سبيل ازالة النفوذ الاجنبي وتحقيق الاستقلال ، وساء موقف انصار

« الاعتدال » ولم تمنح الثقة الا للذين ربطوا اهدافهم بالمصالح القومية وهاجموا النفوذ الاجنبي بعنف(٤١) .

معوقات العمل القومي الوحدوي :

نكبت الامة العربية باستعمار دول عديدة انشب مخالبه في مختلف الاجزاء في ازمنة مختلفة وظروف متباينة واشكال متنوعة من الاستعمار المباشر الى الانتداب والوصاية ، وكان اخطر ما في هذا الاستعمار تجزئة البلاد الى دويلات وفصلها بحدود مصطنعة وحواجز اقتصاديةهيحدود « الحبس الانفرادي »و« الاقامةالجبرية(٤٢) .» وجاءت هذه التقسيمات السياسية لتهدد الوحدة التي كانت قائمة نوعا ما في الفترة العثمانية ، ولتضع فكرة الامة العربية موضع التساؤل وتهددها بفكرة الامة السورية والمصرية والتونسية وغيرها(٤٣) .

رفضت بعض الافكار الغربية تحميل اوربة مسؤولية تجزئة الوطن العربي الى مجموعة دول منفصلة ، وعبرت عن « خرافة » الوحدة العربية مع اعترافها بوجود روابط ثقافية وعاطفية وتاريخية بين العرب . ودعواها انه لم يكن بامكان أي سلطة عربية حاكمة ان تجمع البلاد العربية في دولة واحدة ، وأن تحوز قبولا شاملا او تنشىء ادارة موحدة ، نظرا لعدم توافر شعور الالتحام السياسي ، ولان الولاء الاقليمي والمحلي لا يزالان اقوى من الشعور العربي العام(٤٤) . ولكن لا يشك احد ان المشاعر القومية التي كانت قد اخذت بالانتشار في الفترة التي سبقت الحرب كان بامكانها أن تصبح قوة موحدة لو تركت للتطور في ظروف طبيعية ، الا ان الدول الاوربية هي التي حالت دون قيام هذه الوحدة لانها تنظر للحركة القومية كمؤامرة لحرمانها من مصالحها (٤٥) ، ولان التجزئة كان من شأنها أن تخلق دويلات يسهل التحكم بمصيرها ومصير ابنائها .

ادت التقسيمات السياسية الى اقامة انظمة ادارية وتشريعية وتربوية متباينة ، أو بمعنى آخر نشوء نظام « الكيانات » ، حيث جعل لكل كيان نظام ودولة واسلوب في الحكم يختلف من مكان لاخر ، ولكل منها سلسلة من المعالم المادية تجسدت في رموز ملموسة وشعارات خاصة وجيوش خاصة وادارات وعملات وغيرها ، وبالنتيجة تهيئة البيئة الصالحة لتنمية الروح الاقليمية لكل منها بحيث اصبح اهالي كل دولة يعتبرون انفسهم « امة » قائمة بذاتها ومتميزة عن غيرها وتولد في كل واحدة منها نوازع المحافظة على الكيان السياسي القائم أو ما يسمى روح « الاقليمية » التي ليست الا مجموعة من النوازع تعمل في اتجاه يخالف مقتضيات الوحدة العربية ، ويعرقل

انطلاقها . وزاد في ازدهار الولاءات الاقليمية ان الاقطار العربية كانت قد وقعت تحت حكم دول اجنبية شتى تختلف لغاتها وتتباين مصالحا وتتغاير انظمتها وقوانينها وثقافاتها ، وانعكس هذا التباين على الاجزاء العربية في مرحلة تكونها(٤٦).

وقد وجدت مصالح قوية استثمرت الحدود السياسية ، التي هي من خلق اجنبي استعماري ، وارتبطت بدوام الكيانات الاقليمية : يمثلها فريق من الساسة استمدوا حياتهم من حقيقة وجود الكيانات ، وتقاعسوا بعد تسلم المسؤولية عن هدف الوحدة ، ومنهم تجار حصلوا على دخلهم من وجود حواجز جمركية وغيرها من عوامل التجزئة وضمنوا دوام المصالح الاجنبية والهيمنة الاستعمارية على ثروات المنطقة(٤٧). وبتآمر قوى خارجية مع قوى داخلية على الحس القومي أصبحت العلاقات قائمة بين الكيانات العربية على اساس المنافسات بين الاسر الحاكمة وعلى النفوذ على الكيانات العربية المجاورة(٤٨) .

وكان من الوسائل السياسية التي اتبعتها الدول الاجنبية لتقوية النزعات الاقليمية هي اثارة وتشجيع الانقسامات بين الفئات العرقية والدينية المختلفة وحماية العناصر الموالية من اقليات دينية وطائفية وتدعيم المواقف الانعزالية الانفصالية وفكرة القوميات الضيقة ، وتقوية اللغات واللهجات المحلية على حساب اللغة الام والهدف من ذلك توطيد سيطرة تلك الدول وعرقلة الوعي القومي(٤٩) .

وكان اخطر ما في التجزئة السياسية هي تجزئة الحركة العربية ايضا فتوزعت قوة المقاومة الى جبهات عديدة القي على عاتق كل منها مهمات مباشرة تختلف الواحدة عن الاخرى ، وشغلت بمشاكلها الخاصة وقضاياها المحلية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، « فهانت قواها مادة ومعنى وهان عليها بالتالي تطبيق خطط الاستعمار »(٥٠). ونظرا لان كل جزء عربي اخذ يكافح الاستعمار منفردا وبأوقات مختلفة تبعا للفرص المتاحة ضمن مشاكل الاستعمار المفروض ، اصبح مركزا لوحدة وطنية خاصة معتمدة على الوطن الجغرافي الاقليمي ، دون ان تدرك الاوطان الصغيرة انها جزء من وطن اكبر هو الوطن العربي وان الوطنيات المحدودة جداول من قومية كبرى(٥١) .

النضال من اجل الوحدة :

لقد تعثر الطموح التوحيدي بسبب المشاكل السياسية الناجمة عن الحدود التي فصلت كل قطر عربي عن جاره ، وما تولد عن ذلك من مصالح اقليمية ذاتية باعدت بين العرب ، وجعلت من المصير العربي الموحد تمنيات واحلاما . الا ان المحن ،

عوض ان تفشل المطامع العربية ، زادتها متانة ورسوخا ، ورأى شكيب ارسلان في تلك المحن خيرا عائدا على الوطن العربي(٥٢) : ذلك انه تحت وقع النكبات والنكسات يزداد الشعور بان المصلحة المشتركةتستلزم قيام تعاون وثيقينتظمه عملموحد(٥٣). وحين كان الوطن العربي تحت السيطرة الاجنبية لم يشك أي قومي عربي بصلاح قيام الوحدة ، وحدة تتجاوز الحدود الضيقة الى حدود اوسع دفاعا عن ذات الامة ووجودها ضد عدو مشترك ، لان التفرقة كانت العامل الاساسي في ضعف العرب وفي جعلهم فريسة سهلة للحكم الاجنبي الذي يحول بدوره دون قيام الوحدة .

وهكذا ، ورغم كل المعوقات ، وردا على واقع التجزئة والاحتلال ، كانت محاولة ابقاء فكرة الوحدة حية ، هي احدى سمات العمل القومي في الفترة بين الحربين ، شغلت الجماهير والزعماء وقادة الفكر(٥٤) . وتجلت هذه المحاولة في تبادل المساعدة والعطف بين الاجزاء العربية في صراعها مع الاجنبي ، واصبح الحدث السياسي الحاسم في قطر ما يثير الجماهير في الاقطار الاخرى اثارة عفوية وبدون تفكير في الحدود والكيانات القطرية ، فتهب للعمل ولو بمجرد التظاهر والاضراب وجمع التبرعات أو في انتفاضات متتالية ومتجاوبة مع بعضها ، لان هذه الجماهير تحس وتدرك انها جماهير واحدة رغم اختلاف الانظمة وارتفاع الحدود ، واصبحت هوية النضال الوطني هوية عربية ونال بهذه الهوية كل مناضل عربي الحق بأن ينضم الى المواقع الوطنية في أي جزء آخر(٥٥) .

صحيح ان كل قطر كان يناضل على حدة في سبيل التدرج نحو الاستقلال وله مع العدو الاوربي معاركه القاسية وذكرياته الحية وله تضحياته ، الا ان دعاة القومية والوحدة وجدوا في النضال فيسبيل الوحدةامتدادا للجهاد في سبيلالاستقلال(٥٦)، وشعر زعماء الحركات الوطنية وهم يناضلون في سبيل الاستقلال المحلي ان الحاجة ماسة لاعتبار المنطقة العربية وحدة متكاملة ، فجعلوا همهم ، في كل ما يصدر من توجيهات ونداءات التشديد على وجود الامة العربية وعلى وحدتها ، وان النضال في سبيل الاستقلال (أو على الاقل الحكم الذاتي) هو خطوة ضرورية اولى نحو تحقيق الوحدة . وكان من المفهوم ضمنا ان استقلال اي جزء عن المستعمر هو توحيده تلقائيا مع غيره ، وان كل دولة عربية ستستخدم ، حين تتحرر وتستقل ، حريتها واستقلالها في مساعدة الدول التي لاتزال في مرحلة النضال ، وفي توثيق علاقاتها بالدول التي تكون قد تحررت ونالت استقلالها(٥٧) .

وكان المظهر الثاني لمحاولة ابقاء فكرة الوحدة حية ، هو القيام بتأسيس عدد من الاحزاب القومية ذات امتدادات فوق الحواجز والحدود وجهت دعوتها الى ابناء

الجيل اللاحق من القوميين وكان لها عضوية مشتركة بين البلدان العربية كما ان لها عقيدة قومية وبرنامج عمل قومي ، بعد ان لم تعد وسائل التنظيم والعمل القديمة ترضيها ، كانصراف الزعماء المحليين ، رغم اهتمامهم المبدئي بالوحدة العربية ، الى القضايا المحلية والاتفاقات مع الدول المسيطرة(٥٨) . قامت هذه الاحزاب الجديدة الى جانب الاحزاب والتكتلات القطرية التي شهدتها الساحة العربية في الفترة بين الحربين ، والتي كانت اقليمية المبادىء والاهداف والنشاط ، رغم حديث بعضها عن الامة العربية والوحدة العربية(٥٩) .

في مطلع الثلاثينات قامت العناصر القومية من زعامات حزب الاستقلال « القديم » (الذي تشكل ١٩١٨ كواجهة علنية للعربية الفتاة) ، قامت بمحاولة جديدة لتجميع الصفوف بعد ان اثار قلقها انشغال الاجزاء العربية بقضاياها المحلية واستشراء الاتجاهات الاقليمية ، وانتهزت فرصة انعقاد المؤتمر الاسلامي في القدس (كانون اول ١٩٣١) لتتفق خلاله على « ميثاق عربي » يؤكد وحدة الامة العربية ويرفض التقسيم المصطنع لاقاليمها ، ويرى ضرورة العمل على تكريس الجهود ليحقق هدفي الاستقلال والوحدة (٦٠) . وشكلت لجنة تنفيذية لوضع خطة العمل في المستقبل فاقرت الدعوة لعقد « مؤتمر عربي عام » ، لمناقشة أفضل السبل لتحقيق هذه الغاية التي تضمنها الميثاق العربي ، وتبنى الملك فيصل (ملك العراق) فكرة عقد المؤتمر بعد ان اتاحت له معاهدة ١٩٣٠ فرصة اكبر للاهتمام بالقضايا العربية ، وارسل بمبعوث له الى القدس ومصر للدعوة اليه . ولكن جهوده اصطدمت بمعارضة شديدة من جانب بريطانية ، وانهارت أول محاولة جديه بعد الحرب العالمية الاولى لترتيب عقد مؤتمر عربي عام لبحث سبل تحقيق الوحدة العربية ، وكان موقف بريطانية السلبي من أهم اسباب هذا الفشل ، بقدر ما أسهم فيه التمزق العربي وغلبة الاطماع الشخصية للزعماء العرب انفسهم(٦١) .

وتعتبر « عصبة العمل القومي » مثالا آخر للاحزاب السياسية التي قدمت برنامجا قوميا عربيا . ولدت العصبة بمبادرة من بعض الشباب المثقف من سورية ولبنان الذين دعوا الى مؤتمر عقد في قرنايل (لبنان) ١٩٣٣/٨/٢٤ ، اصدروا بعده بيانا مفصلا ، اوضحوا في مقدمته ان هدفهم انقاذ العرب من التدهور ، والانحلال السائرين اليهما . وكان للعصبة هدفان : هما سيادة العرب واستقلالهم المطلقين والوحدة العربية الشاملة . وقد تبينت العصبة ان نوال السيادة والاحتفاظ بها موقوف على وحدة البلاد العربية ، كما ان ازدهارها الاقتصادي ونهضتها الاجتماعية تتوقفان عليها ويستحيلان بغيرها . لذلك اعتبرت « الوحدة العربية » القائمة على

وحدة التاريخ والتقاليد والعادات واللغة والغايات والوضع الجغرافي ، اعتبرتها جزءا غير منفصل عن هدفها في السيادة والاستقلال . ودعت الى مقاومة كل عصبية غير العصبية القومية والقضاء على العصبيات العائلية والمذهبية أو المحلية . وادركت خطر الاستعمار وخبث خططه وبحثت في وسائل مقاومته ، ورأت « بحكم منطق الدفاع تنظيم جهود العرب في كل صقع وتوحيد حركة المقاومة القومية في الاقطار العربية والقضاء على النعرات الاقليمية بمعناها القاصر ووصل ما انقطع من الراوبط بين الصفوف المجاهدة في كل قطر ». وهذا يقضي اشراك الشعب وطبقاته باسرها والتعاون مع الهيئات العربية المخلصة العاملة في مختلف الاقطار ، ولا تعني العصبة من خطتها في توحيد حركة المقاومة ترك الجهاد المحلي ، « فتعدد المستعمرين وتعدد طرائقهم الاستعمارية في مختلف الاقطار العربية جعل لكل قطر ظرف خاص يتطلب وضع برامج محلية تراعى فيها الظروف القطرية ضمن نطاق ضوابط محدودة تمنع خروج العمل السياسي عن الاهداف العليا » ، فالعمل القومي ، بنظر العصبة ، « يستهدف تشكيل جبهات جهاد موحدة الجهد متساعدة تابعة لقيادة واحدة تجعل القضايا القطرية او الاقليمية اجزاء للقضية العربية الكبرى » .

وقد سجلت العصبة في سياستها الاقتصادية تطورا كبيرا آنذاك اذ اعتبرت البلاد العربية وحدة اقتصادية ودعت الى توحيد الجهود الاقتصادية في مختلف الاقطار العربية وضم رؤس الاموال الصغيرة للقيام بمشاريع كبيرة ، وازالة الحواجز الجمركية بين البلاد العربية عن المنتوجات والصناعات العربية ، واعتبار مصلحة المجموع فوق المصالح الخاصة ، ونظرا لان ظروف العرب الاقتصادية غير واحدة ، وهي خاضعة للظروف السياسية ، فقد ارتأت العصبة « وضع برامج اقتصادية لكل قطر تستلهم من ظروفه وقابلياته شرط ان لا تخرج على المبادىء العامة » .

لم تكن فكرة الوحدة شاغل السياسيين وحدهم ، فقد شهدت فترة الثلاثينات اهتماما متزايدا لدى قادة الفكر لتحديد اسس ايديولوجية للفكرة القومية ، ودراسة ميزاتها وبيان مقوماتها وتحديد اتجاهاتها واهدافها ووضع رؤية واضحة للمستقبل . ومنذ نهاية الحرب وحتى مطلع الثلاثينات لا نجد الا مادة قليلة في كتابات بعض المفكرين البارزين حول الفكر القومي العربي تطالب بالاستقلال والوحدة العربية(٦٢) . الا انه منذ منتصف الثلاثينات جاء رد المفكرين على التجزئة والاحتلال ، الظاهرتين المترابطتين ، بتعميق مفهوم القومية العربية وبتحديد معالم النظرية القومية . وجعل قسطنطين زريق « وضع فاسفة قومية مؤثرة فاعلة تصور روحها ، وتحدد اتجاهها ، وتنصب لها الاهداف . وتعين لها السبل والوسائل » شرطا اساسيا لقيام

اية نهضة قومية ، ذلك انه « ما من نهضة قومية تحررية قامت في العالم الا وسبقتها او لازمتها نهضة فكرية مهدت لها الطريق ورسمت امامها الغاية واوضحت لها المعالم والحدود ، وانه اذا كان للنهضة القومية العربية ان تستكمل شروطها وتؤتي ثمارها فلا بد من بناء الاساس الفكري الذي تقوم عليه هذه النهضة القومية ، وتحديد معنى الامة والقومية واثبات خصائص الامة العربية ومميزاتها واظهار مقامها الفريد بين الامم والنصيب الذي كان لها في الماضي والذي يرجى لها في المستقبل في تقدم التمدن والحضارة البشرية » .

استقى المفكرون العرب في صياغة مسلمات القومية العربية من مصدرين : الاول الفكر الغربي ، ليس اعجابا بمفاتن ثقافة مجتمعات متفوقة او مرآة تعكس مقولات الفكر القومي الغربي بل لفهم التجارب الوحدوية والفكر القومي في الغرب وتطويعها لخصوصيات الوضع العربي(٦٤) . اما المصدر الثاني ، وهو الاهم ، فهو تراث الماضي من لغة وتقاليد وتجارب تاريخية بوصفها القاسم المشترك بين ابناء الامة العربية . واختيار هذه المعايير لم يكن اتفاقا ، القصد منه ابراز العوامل المشتركة التي يمكن ان تفضي اكثر من غيرها الى التقريب والتاليف بين ابناء الامة من جهة ، والاستغناء عن العوامل المفرقة التي تغذي الشحناء من جهة اخرى(٦٥) . فاللغة العربية هي الدعامة الرئيسية للقومية العربية التي تتخطى الحدود القطرية وتشكل عامل اتصال رئيسي ووحدة في الشعور والتفكير . والتاريخ هو تعبير الامة عن ذكرياتها ووعيها لذاتها يخلق نوعا من القرابة المعنوية بين ابناء الشعب العربي ، والتاريخ الحي الذي تتذكره الامة هو الذي يمثل امجاد الماضي ويخلق الامل بالمستقبل ، ولن تستعيد امة وعيها القومي الا بالعودة الى تاريخها . فاللغة الواحدة والتاريخ المشترك هما ينبوع للذكريات التاريخية وللشعور بالاعتزاز وللتطلع نحو تنسيق الجهود ، وهما ركنا الوجود القومي لاية امة كما اوضح ذلك ساطع الحصري(٦٦) ، الذي وضع نظرية منهجية ومنسجمة في القومية العربية باسلوب اكثر وضوحا واتساقا من اسلوب اي كاتب آخر ، ونذر نصف قرن من حياته العريضة (١٨٧٧ — ١٩٦٨) في سبيل قضية واحدة هي الدفاع عن الفكرة القومية العربية ودراسة قضاياها في اطار ظواهر انسانية اكثر شمولا . ولا ينفي هذا اهمية مساهمة عدد كبير من المفكرين من امثال محمد كرد علي وشكيب ارسلان وقسطنطين زريق ، في تعميق المفهوم القومي عند العرب ، الا ان الحصري كان المفكر الاكثر شمولا والداعية الاكثر استمرارية والتزاما بمقومات النظرية التي وضعها ، ففي حين ان معظم من سبقه من مفكرين مشرقيين في بداية القرن العشرين اختلطت لديهم فكرة العروبة بالدعوة للجامعة الاسلامية ثم بالدعوة للامركزية الادارية والسياسية ، وفي نهاية الحرب الاولى بالدعوة لانشاء دولة عربية مقتصرة

على المشرق كان الحصري اكثرهم حسما ، اذ اتجه ليحدد بوضوح الاجابة على عدد من الاسئلة النظرية المطروحة : ما هي القومية ؟ ما هي مقومات الامة العربية ؟ ما علاقة القومية بالدولة ؟ اين تقف القومية العربية من الدعوات الدينية والاممية والاقليمية(٦٧)؟

وتستند آراء الحصري في طبيعة القومية وعناصرها على فرضية اساسية هي مفهومه للعرب على ان يضم كل من يتكلم العربية ، وآمن بأن فكرة القومية العربية تعني الايمان بوحدة هذه الامة من المحيط الى الخليج ، فالعرب امة واحدة ويجب اقامة دولة عربية واحدة وسعادة كل امة ان تعيش في دولتها القومية(٦٨) ، واعتبر الحصري ان توحيد الثقافة من أهم العوامل التي تهيىء سائر انواع التوحيد فكتب : « اضمنوا لي وحدة الثقافة وانا اضمن لكم كل ما بقي من ضروب الوحدة(٦٩) ، وظل يرفض الاعتراف بالحدود والكيانات التي اعتبرها وليدة الانقسام والمناورة والمساومة . واضطر الحصري من اجل اثبات نظريته الى أن يخوض معارك فكرية مع غير واحد من المفكرين العرب في مصر ولبنان الذين يعارضون الوحدة العربية كانتقاده « القومية السورية » والمدافعين عن قومية مصرية صرفة(٧٠) . وكان من النتائج المنطقية لنظرية الحصري في القومية العربية ، التي ارسيت على ارضية ثقافية وتاريخية ، أن تشمل الوحدة العربية المنشودة مصر وسائر بلاد شمال افريقيه(٧١) .

ويلاحظ ان مفكري القومية العربية في تأكيدهم على الروابط القومية التي توحد العرب بغض النظر عن معتقداتهم الدينية ، كانوا يرغبون في تجريد الغرب من سلاحه في اثارة التعصب الطائفي وحماية الاقليات الدينية ، ومواجهة الصهيونية على أساس قومي لا على أساس العداء الديني . الا انه كان لا يمكنهم فصل القومية عن الاسلام تماما ، فالاسلام هو الذي وحد العرب واعطاهم شريعتهم وثقافتهم وهو جزء من تراثهم الروحي التاريخي وموضع اعتزازهم ، ومن عالج هذه الفكرة أدرك اهمية الاسلام في الحركة القومية العربية . ويرى زريق أن القومية الحقيقية لايمكنها بحال من الاحوال ان تناقض الدين الصحيح « اذ ليست في جوهرها سوى حركة روحية ترمي الى بعث قوى الامة الداخلية وتحقيق قابلياتها العقلية والنفسية ، ولكي تقدم قسطها من تمدن العالم وحضارته . فلا بد للقومية اذن — وهي حركة روحية — من أن تلاقي الدين وان تستمد منه القوة والحياة والرفعة والسمو . كذلك هي القومية العربية في وجهها الصحيح لا تعارض دينا من الاديان ولا تنافيه ، بل تقبل على الاديان جميعا لترتشف من منابعها الفياضة كؤوس الصفاء والخلوص ، والقوة والخلود ... لذلك يترتب على القوميين العرب ان يعودوا الى مصادر دينهم ، فيستمدوا منها السمو النفسي والمتانة الروحية .. كذلك يجدر بهم ان يربطوا

ما يستمدون من هذه المعاني الروحية بالفكرة القومية التي يعيشون لها ويقفون نفوسهم على تحقيقها »(٧٢) .

ولم يشتمل تحديد المفكرين لمفهوم القومية في تلك الحقبة على افكار حول الاصلاح الاجتماعي والتنمية الاقتصادية ، وغابت عن الفكر القومي القضيةالاجتماعية والاقتصادية . ويمكن تفسير ذلك ان المهمة الرئيسية للقومية العربية كانت مقاومة الاستعمار للحصول على الاستقلال السياسي ثم الوحدة القومية ، وكان من المسلم به أن الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي ، وان كان بحد ذاته امرا مرغوبا فيه يمكن ويجب ان يؤجل الى ما بعد الاستقلال الذي يمكن تحقيقه بوسائل سياسية(٧٣)

الموقع الجغرافي لانطلاق الجهد الوحدوي :

ظل مفهوم الوحدة العربية حتى أواسط الثلاثينات هو مفهوم الفترة الممتدة بين ١٩٠٨ ـ ١٩٢٠ ، اي اعتبار الامة العربية لا تشمل مصر وبلدان شمال افريقية وحتى في هذه الاجزاء كان الامل ببداية متواضعة لتحقيق الوحدة تبدأ بتوحيد سورية الطبيعية ويتبع ذلك اقامة اتحاد بين سورية والعراق ، ومن ثم انشاء ترابط مرن مع اقطار عربية اخرى ، وكان هذا هو برنامج المؤتمر السوري ١٩٢٠ كمرحلة اولى وليس على حساب الوحدة القومية(٧٤) .

وبقيت سورية مركزا قويا للحركة العربية حتى ١٩٢٠ امتدادا لدورها أواخر الحكم العثماني ، وبعد ميسلون وجه العرب انظارهم شطر العراق الذي اطلقوا عليه اسم « بيامونتي العرب » وعقدوا على مساعدته الادبية والمادية آمالهم لتحقيق استقلالهم ووحدتهم . واصبحت بغداد ، كما كانت دمشق ، ملتقى لزعمائهم ومفكريهم ، واكان عددا كبيرا منهم لايزال يعتبر فيصل زعيما لحركتهم(٧٥)، بالاضافة الى أن العراق كان قد حصل على استقلال نسبي قبل غيره ، وكان القوميون العرب يعتبرون النظام القائم في العراق خلقا بريطانيا مصطنعا وان النظام العربي الحقيقي هو الذي يصبح فيه العراق جزءا من دولة عربية موحدة(٧٦) .

واخذت العراق المبادرة في السياسة العربية حيثما تمكنت من ذلك ، ووضعت في بغداد في تلك الفترة خطط وبرامج ترمي الى استرداد استقلال سورية وانقاذ فلسطين وتأمين حرية البلاد العربية ووحدتها ، وكانت جميع الجهود التي بذلت في تلك الفترة ترمي الى ايجاد مركز قوي للاشعاع العربي يجذب الامة اليه(٧٧) . وعارضت كل من بريطانية وفرنسة والصهيونية اي جهد وحدوي ، وحالت بريطانية

دون تبني فيصل الدعوة الى عقد مؤتمر عربي عام في بغداد ١٩٣١ قد ينبثق عنه مشروع لتوحيد المشرق العربي تحت الزعامة الهاشمية(٧٨) ، وذلك لتخوفها التقليدي من وحدة عربية اشمل ، ولخشيتها من ان يصل الى السلطة دعاة القومية العربية « المتطرفة » وأشارت في نفس الوقت الى انها تنظر بعين العطف لاي تعاون بين الدول العربية في المجالات الثقافية والاقتصادية(٧٩) .

وبعد وفاة فيصل ١٩٣٣ توقف مؤقتا الرعاية العراقية لنشاطات الوحدة العربية ، وبدأت الزعامة السعودية تفرض نفسها على مجريات الامور في المنطقة العربية وتجذب فريقا من القوميين العرب ، وبعض المصلحين من مدرسة رشيد رضا(٨٠) ، وتطرح أساليب جديدة من أجل التضامن العربي . ورحب القوميون العرب باللون الوحدوي لتحركات الملك عبد العزيز بن سعود وعلقوا عليها الآمال نقد وحد الجزيرة العربية ، وعقد معاهدات اخوة وتحالف مع كل من العراق ١٩٣٦ واليمن ١٩٣٧ وبدأ بعد ذلك يتخذ دورا قياديا في الشؤون العربية(٨١) .

عاد العراق بعدة فترة توقف الى قيادة الحركة العربية منذ منتصف الثلاثينات بعد ان أصبحت مجموعة من الضباط بقيادة صلاح الصباغ القوة الموجهة في بغداد ، وكانوا هم ومؤيدوهم خارج وداخل الجيش ، يمثلون الجيل الجديد من القوميين العرب الذين يتوقون للتغيير بعد ان ساءهم فشل الحكومات في الارتفاع الى مستوى التوقعات القومية ، وتوجهت انظارهم الى الوطن العربي كله . وناصر الراي العام فكرة الوحدة واصبح ينظر الى العراق وكأنه البلد المؤهل للعب دور « بروسياالعرب» لتحقيق الوحدة العربية والاماني القومية بالقوة العسكرية . وانتشرت هذه الافكار على نطاق واسع في الأوساط المدنية والعسكرية عن طريق الجمعيات القومية وعلى ايدي المعلمين الوطنيين في المدارس ، ونشرت حولها الكتب والمقالات . وافضل شرح لها ما جاء في كتاب بعنوان « هذه اهدافنا ، من آمن بها فهو منا » ، نشره في بغداد نادي (المثنى) وهو تنظيم قومي اسس ١٩٣٧ عبر ايديولوجيا عن فكرة القومية العربية ودعا الى سياسة القوة لمجابهة الامبريالية والدفاع عن شرف الامة حتى الشهادة(٨٢) .

وظلت مصر ، رغم مكانتها في الثقافة العربية واهميتها السياسية ، ولجوء كثير من قادة الحركات الوطنية اليها ، ظلت كما كانت قبل الحرب ، منصرفة الى قضية استقلالها الوطني العربي الذي هو وليد ظروفها الخاصة ، وسادت العزلة تفكير قطاع كبير من الزعامة السياسية والثقافية لفترة طويلة(٨٣) . واقلقت هذه العزلة كثيرا من زعماء الحركة العربية وكانوا على اقتناع منذ اجتماعات « المنتدى

الادبي » في استامبول قبل الحرب ، بان الامة العربية في حالتها الحاضرة لا يمكن ان تسترد مكانتها في التاريخ اذا ظلت مصر بعيدة عنها ، لان مصر اكثر الاقطار العربية سكانا واعظمها ثروة واشدها رقيا وحضارة وهي واقعة في قلب البلاد العربية تملك امكانيات وكفاءات ليست لغيرها(٨٤) . وبدأوا في تعميم الفكرة العربية وترسيخها في مصر بالاعتماد على مقتضيات القومية والتاريخ ووحدة اللغة والمصالح والاماني والآمال ، واخذت الفكرة تكسب المؤيدين في مصر الا انها لم تكن مقبولة من كل الفئات(٨٥) . ومع تبلور الخطر الصهيوني في فلسطين اواخر العشرينات طرح الحوار حول الهوية القومية لمصر حيث نما اتجاهان واحد يتطور نحو الجامعة العربية والآخر ينادي بالجامعة الاسلامية وكان الاتجاهان متميزين ومختلطين ويتفقان في السعي لانتماء سياسي اشمل لمصر ، لان درء الخطر عن مصر لا يكفله الا الانتماء الى جامعة سياسية أعم : الدين أو اللغة والعادات والتراث والارض . وفي مطلع الثلاثينات ظهر « حزب مصر الفتاة » وعرف باتجاه عربي منذ تكوينه وتضمن برنامجه هدفا عن تحالف مصر مع الدول العربية(٨٦) . وتوضح الاهتمام المصري الحقيقي بالحركة العربية بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ التي اعطت مصر حرية نسبية فيسياستها الخارجية ، فاتجهت بانظارها مجدداً الى المنطقة العربية المحيطة بها لتعمل على تعزيز علاقاتها وعلى دعم الوحدة العربية واستقلال العرب . وكان لجمعية « الاتحاد العربي » و « الوحدة العربية » اثر في تنمية الوعي ، كما ان الصحافة المصرية بوجه عام كرست نفسها لهذه المهمة . واخذ الزعماء العرب يتطلعون الى مصر كموجه للعمل القومي وكملجأ للحركات الثورية ، ويأملون في امكان مساعدة مصر لقضاياهم الوطنية وخاصة قضية فلسطين(٨٧) .

وبخلاف معظم بلدان المشرق العربي التي وقعت تحت السيطرة البريطانية ، فرضت ثلاث دول كبرى سيطرتها على ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، وبفعل التجزئة السياسية والتأثيرات الاجنبية المتغايرة والنضال من أجل الاستقلال الذاتي الاقليمي اصطبغت الحركات النضالية فيها بالصبغة الوطنية كثر مما كانت قومية بالمعنى الواسع(٨٨) . كما اقيم حاجز يمنع تسرب الافكار السياسية وحركات الاصلاح من بلدان المشرق العربي ، واخذت السيطرة الاجنبية في هذه الاجزاء العربية طابع استعمار استيطاني يهدد الارض العربية والمؤسسات التقليدية ومركز اللغة العربية ، واستنفد السعي لمواجهة هذه الاخطار جهود عرب شمال افريقيا وابعدهم الى حين عن الاسهام في بناء الفكر القومي(٨٩) . ومنذ أواخر العشرينات اخذت روح الحركة العربية تنتشر في بلدان المغرب العربي عن طريق الكتب والصحافة والطلاب الذين تخرجوا من معاهد مصر أو سورية او الذين تعرفوا في أوروبا برفاقهم في المشرق العربي أو عن طريق اسفار الحجاج ايضا . وكان لذلك اثره على مجرى الحركات

الوطنية في اقطار المغرب العربي . ولعب شكيب ارسلان دورا كبيرا في انتشارالافكار الوحدوية العربية في تلك الاقطار منذ ان عين في جنيف على رأس الوفد الدائم للجنة السورية الفلسطينية التي تشكلت بالقاهرة ١٩٢١ . ووطد ارسلان صلاته الوثيقة مع زعماء الحراكات القومية في المغرب ، كعبد العزيز الثعالبي زعيم الحركة الدستورية في تونس ، ومصالي الحاج رئيس جمعية « نجم شمال افريقية » ، وحاول تقريب الشقة بين « نجم شمال افريقية » وبين « العلماء الاصلاحيين الجزائريين » ، كما كانت له صلاته مع المجموعات القومية الاولى في المغرب الاقصى التي قامت ضد « الظهير البربري » ، واصبح مرشد أعضاء « لجنة العمل المغربية »(٩٠) . ولم يقتصر دور شكيب ارسلان على تشجيع الوطنيين المحليين في المغرب ، بل كان فعلا الصلة بينهم وبين التيار العام للحركة القومية العربية في المشرق(٩١) . وشارك نواب من المغرب في المؤتمرات التي عقدت في جنيف (ايلول ١٩٣٠) وفي القدس (كانون أول ١٩٣١) وفي القاهرة (اكتوبر ١٩٣٨) . وكانت معركة المغرب الحقيقية هي معركة اللغة العربية ، فقد الح الاستعمار الحاحا غريبا ومريبا على استئصال شأفة اللغة(٩٢) ، ولذا كان هم الزعامات الوطنية في اقطار المغرب العربي ربط الصلة بين اقطارهم وبين البلاد العربية الاخرى لمواجهة سياسة التذويب القومي .

ولعبت قضية فلسطين دورا هاما في الفترة بين الحربين كعامل تجمع قومي واسهمت في بلورة المشاعر القومية في الوطن العربي ، وفي دفعه نحو الوحدة . وكان ذلك استمرارا لما شغلته القضية الفلسطينية منذ البداية في اذهان الامة العربية نظرا للمكانة التي تحتلها فلسطين في قلب الوطن العربي بوجودها الجغرافي وتراثها التاريخي ولان الاطماع الصهيونية جاءت تحديا مباشرا للفكرة العربية وحاجزا في وجه الوحدة ، بل وقاعدة اساسية لترسيخ التجزئة في المنطقة العربية . وخلال ثورات فلسطين المستمرة لم تفتر الدعوة للعروبة ، وعبّر عرب فلسطين عن أن نضالهم ضد انشاء الوطن القومي اليهودي ليس مجرد نضال محلي وانما هو موقف عام ضد الصهيونية التي تهدد الوطن العربي ككل ، وان وحدة فلسطين مع جاراتها العربية هي الهدف الابعد للنضال ضد البريطانيين والصهيونية ، وان بوسعهم بمساعدة العرب ان يقاوموا بنجاح اكبر . والتقت الحركة الوطنية في فلسطين مع القوى الوطنية العربية التي كانت تعمل على تحرير بلادها من الوجود الاجنبي حيث تعتبر الصهيونية اخطر اشكاله في المنطقة(٩٣) . واثارت احداث الثورات العربية المجاورة اهتماما عاما في فلسطين وبالمقابل اثارت احداث فلسطين وانتفاضاتها اهتماما عربيا عاما ، وكان لاعتداء الصهيونيين على حائط البراق ١٩٢٩ صدى واسع خارج فلسطين فقامت المظاهرات ونظمت حملة لجمع التبرعات . والمرت جهود الحركة الوطنية لاثارة اهتمام العالمين الاسلامي والعربي بقضية فلسطين الى عقد

مؤتمر اسلامي عالمي في القدس في كانون اول ١٩٣١ تقرر فيه اعلان خطورة قضية فلسطين واستنكار السياسة البريطانية الاستعمارية والصهيونية فيها وتشكيل شركة اسلامية كبرى لانقاذ أراضيها وارسال وفود الى البلاد الاسلامية لجمع التبرعات(٩٤) ، وكان عبد العزيز الثعالبي ، وهو همزة الوصل بين مغرب الوطن العربي وشرقيه ، أحد الاقطاب الذين قاموا بالتحضير للمؤتمر ووضع نظامه والسهر على نجاحه :.

واتفق بعض رجال « الرعيل الاول » من الحركة القومية العربية المتواجدين في القدس خلال المؤتمر الاسلامي على « ميثاق عربي » يؤكد وحدة البلاد العربية وتكاملها ورفض التقسيم المصطنع لاقاليمها وضرورة العمل على تكريس الجهود لتحقيق هدفي الاستقلال والوحدة ورفض الاستعمار بكل صوره ومواجهته بكل وسيلة(٩٥) . وفي تموز ١٩٣٢ تشكل في فلسطين « حزب الاستقلال » واتفق منهج الحزب مع « الميثاق العربي » على وحدة عربية وانكار للتجزئة . وشجب بيان الحزب كل المحاولات التي تتناول تحطيم الامة العربية . « ونظرا لان للامة العربية في مختلف اقطارها غاية مقدسة عليا هي الاستقلال والوحدة والتخلص من أي سيطرة اجنبية مباشرة أو غير مباشرة والوقوف موقف الحزم في وجه الغزوة الصهيونية ، ولذا فانها لن تقبل اي مشروع او تدبير يتعلق ببلادها الا اذا كان صادرا عنها ومتفقا مع غاياتها واَمانيها ، وتستنكر كل دسيسة تؤدي الى وقوع الفتنة في أي قطر من الاقطار العربية أو توسيع شقة الخلاف بين قادتها لان ذلك يؤدي الى ترسيخ سيطرة الاجنبي فيها وعرقلة وصول الامة العربية الى غايتها المقدسة»(٩٦) . وكان « حزب الاستقلال » يرقب تطور الاوضاع في الاقطار العربية باهتمام ويبدي رأيه فيها باعتبار ان القضية العربية في فلسطين جزء من القضية العربية العامة(٩٧) .

وقد زاد الاهتمام العربي بتطور الاوضاع في فلسطين مع تزايد الوجود الصهيوني بعد عام ١٩٣٣ ، الى درجة تثير القلق بالنسبة لمستقبل العرب فيها ، وتأسس في دمشق « المكتب العربي للدعاية والنشر » من أجل خدمة القضيةالعربية العامة بما فيها قضية فلسطين(٩٨) ، وعقد في نابلس مؤتمر كبير ١٩٣٥ بمناسبة ذكرى تصريح بلفور نال تأييد الوطن العربي ومشاركته وعبرت قرارات الاجتماع عن عطف العالمين العربي والاسلامي(٩٩) .

وكانت ثورة ١٩٣٦ اخطر تعبير عن القلق العربي تبدّى حتى الان ، واسهمت في دفع قضية الوحدة ، لما اكدته من ردود الفعل الشعبية المتعاظمة في الاقطار العربية المجاورة ، وبدات الجمعيات والمنظمات في كل مكان حملة نشطة لتعبئة الدعم الشعبي

لعرب فلسطين ، واتخذ العطف شكل مظاهرات احتجاجية واضرابات ونداءات في جميع انحاء المنطقة العربية ، وخرجت البلاد العربية الى موقف ايجابي بارسال المتطوعين للمشاركة في القتال الى جانب اخوتهم الفلسطينيين(١٠٠) . وكان اكثر ما لفت النظار « اللجنة الملكية للتحقيق » في فلسطين هو الطريقة التي اثارت بها احداث ١٩٣٦ مشاعر العرب ضد الصهيونية والمدافعين عنها(١٠١) .

واعلن الحكام العرب رغم ما بينهم من خلافات ، عن استنكارهم للسياسة البريطانية في فلسطين ، فاصدروا تصريحات علنية تندد بالسياسة الاستعمارية وقاموا بالسعي مع بريطانية لاقرار تسوية سلمية ترضي مطالب عرب فلسطين (١٠٢) . وكان لمشروع التقسيم وانشاء « دولة يهودية » في فلسطين اثر بالغ في الوطن العربي شعوبا وحكومات ، فقامت المظاهرات واعلنت الهيئات والاحزاب استنكارها لانشاء دولة يهودية ، ووردت الى اللجنة العربية العليا في القدس برقيات الاستنكار من انحاء الوطن العربي بما فيه المغرب . وقدمت الحكومات العربية احتجاجاتها الى الحكومة البريطانية ، وكان لممثلي العراق ومصر مواقف قوية امام عصبة الامم ضد مشروع التقسيم ودفاعا عن حقوق العرب في فلسطين(١٠٣) . وشبّه كثير من زعماء الحركة الوطنية في فلسطين « قضية فلسطين بالمحرك الكهربائي للاقطار العربية والمكثف لكهربائها »(١٠٤) .

ونظمت لجنة الدفاع عن فلسطين في دمشق « مؤتمر بلودان العربي » في ٨ ايلول ١٩٣٧ لتاكيد ارتباط مصلحة العرب العامة بما كان يجري في فلسطين(١٠٥) ، واختير لرئاسة المؤتمر ناجي السويدي (عراقي) ، ولنيابة الرئاسة محمد علي علوية (مصري) والامير شكيب ارسلان (سوري) والمطران حريكة مطران حماه (لبناني) ولامانة السر عزة دروزة (فلسطيني) . وأكد الحاضرون أن فلسطين للعرب جميعهم وليست لاهلها فقط ، وهي صلة الوصل بين العرب في آسية وافريقية وليس على أهل فلسطين ان ينفردوا بالدفاع عنها أو تقرير مصيرها لانها اذا انقطعت انفرط عقد العرب ، وانه لا بد من الوقوف صفا واحدا لمقاومة نشوء دولة يهودية وتنفيذ فكرة التقسيم . وتعاهد المؤتمرون ان يستمروا في النضال في سبيل فلسطين الى ان يتم انقاذها وتتحقق السيادة العربية(١٠٦) .

وكان لتجدد الاعمال الثورية في فلسطين أواخر ١٩٣٧ اثرا بالغا في الاقطار العربية على المستويين الشعبي والرسمي فتشكلت لجان للجهاد وللدفاع عن فلسطين في كل من سورية ولبنان والعراق ومصر . واحتج المجلسان النيابيان في العراق ومصر لدى بريطانية على اعمالها الوحشية ضد عرب فلسطين وطالبا بحل عادل .

ودعت اللجنة البرلمانية المصرية الى مؤتمر برلماني عربي عقد في القاهرة في تشرين ثاني ١٩٣٨) حضرء نواب وشيوخ من البلاد العربية يمثلون مختلف الاحزاب ، قرر التمسك بابقاء فلسطين قطرا عربيا . وتبع المؤتمر البرلماني « المؤتمر النسائي العربي » الذي حذا حذو المؤتمر البرلماني في قراراته(١٠٧) .

وقد ادركت بريطانية ثقل ردود الفعل العربية المجاورة في وضع عالمي خطر واضطرت الى تغيير اسلوبها التقليدي الذي ظلت تتمسك به حتى منتصف الثلاثينات، وهو عزل فلسطين عن التأثيرات العربية المجاورة وابقاء العرب خارج فلسطين غير مبالين بمصير اشقائهم فيها ، وتجلت مظاهر التحول بعد ترك وزير المستعمرات (اورمسبي غور) منصبه ، وهو الذي كان يرى في قيام كيان يهودي في فلسطين اسفينا في قلب أي تجمع عربي اسلامي ضد الوجود الاجنبي في المنطقة(١٠٨) ، وقبلت بريطانية تدخل الحكام العرب لدى شعب فلسطين لتهدئة الامور ، ثم تخلت عن مشروع التقسيم وبدأت في التفكير الجدي لايجاد تسوية للقضية الفلسطينية في اطار اتحاد عربي يسمح بقيام كيان يهودي منفصل . واتفقت المشروعات المقدمة على ان ارضاء تطلعات العرب نحو الوحدة قد يهدىء مخاوفهم من التسلط اليهودي على فلسطين ويزيل معارضتهم للهجرة اليهودية(١٠٩) .

وتخلت بريطانية عن فكرة تسوية القضية الفلسطينية من خلال ايجاد اتحاد عربي ، رغم ان الفكرة ظلّ لها مؤيدوها داخل بعض الاوساط السياسية البريطانية التي اصبحت تنظر للقضية الفلسطينية والاتحاد العربي من خلال المجال الاوسع للعلاقات العربية البريطانية . وكان من أهم أسباب التراجع البريطاني خشية بريطانية من قيام اي شكل من اشكال الوحدة العربية لانه سيؤدي الى دعم عربي اقوى للفلسطينيين ضد السياسة الصهيونية وبالتالي يضعف وجود بريطانية في المنطقة(١١٠) .

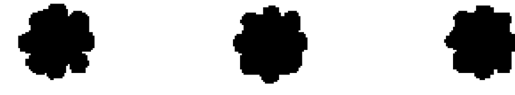
وفي كانون اول ١٩٣٨ اعترفت الحكومة البريطانية رسميا بمصلحة البلدان العربية الاخرى في قضية فلسطين ، حين عبر وزير المستعمرات « مالكولم مكدونالد » عن استحالة الوصول الى اية تسوية لقضية فلسطين في عزلة عن جيرانها ، وأقر تشمبرلن رئيس الوزارة بان فلسطين اصبحت قضية عربية(١١١) ، فاتبعت خطوة لاسترضاء العرب ، كانت ضرورة لتخفيف عدائهم وضمان المصالح البريطانية في المشرق العربي في وضع دولي متفجر . ووجهت الدعوة الى عدد من الحكومات العربية (مصر والعراق والاردن والعربية السعودية واليمن) لارسال مندوبين عنها على أعلى مستوى الى « مؤتمر المائدة المستديرة » في لندن شباط / فبراير ١٩٣٩ ، الذي

سيحضره ممثلون عن اللجنة العربية العليا في فلسطين . وباقتراح من اللجنة العربية العليا تبنى محمد محمود باشا رئيس الوزارة المصرية فكرة دعوة الوفود الى مصر للاجتماع والمداولة قبل السفر لوضع خطة مشتركة ، بحيث يجتمع ممثلو العرب على مائدة واحدة لبحث قضية فلسطين كفريق واحد بغض النظر عن نجاح المؤتمر أو فشله(١١٢) . وكانت الاجتماعات التمهيدية للوفود العربية في القاهرة قبل المؤتمر اول اجتماعات رسمية على مستوى عال ، للتفاهم على الخطة التي ستسير عليها الوفود ، وتقرر تبني « الميثاق الفلسطيني العربي » وعدم الجلوس مع الوفد اليهودي كطرف ثان .

ودارت مناقشات المؤتمر في طريق ملتو ، وقبلت الحكومة البريطانية في النهاية وجهة نظر العرب في حل القضية ووافقت على مبدأ انهاء الانتداب وقيام دولة مستقلة في فلسطين ترتبط معها بمعاهدة بعد فترة انتقال عشر سنوات . ولم يوافق العرب على جعل احتمال تجديد فترة الانتقال تحت رحمة السياسة البريطانية والموافقة اليهودية ، فأدى ذلك الى انفضاض المؤتمر بدون اتفاق ، بعد أن دللت محاضر المؤتمر على الهوة التي تفصل وجهتي النظر العربية والبريطانية . واستكملت المشاورات بشأن المقترحات البريطانية بعد عودة الوفود العربية الى القاهرة ، ورغم ميل تلك الوفود للمقترحات ، خاصة بعد أن اسر لها مالكولم مكدونالد بانه يستحيل على الحكومة البريطانية ان تسير أبعد من ذلك لان الجو حافل بالسحب ، فقد شاعت النصيحة والتوسط لدى وفد فلسطين لقبول الاقتراحات دون ابداء الرأي(١١٣) . وقد تم الاتفاق على صيغة أبلغت للسفير البريطاني تتضمن ان الحكومات العربية ستنصح عرب فلسطين بقبول الخطة البريطانية اذا قدمت الحكومة البريطانية ضمانات لصالح القضية الفلسطينية ، ولكن الحكومةاهملت الصيغة العربيةواصدرت حلا من جانب واحد (الكتاب الابيض مايو/أيار ١٩٣٩) . وتكمن أهمية مؤتمر لندن ، رغم فشله في الوصول الى اتفاق ، في انه اتاح للوفود العربية فرصة لعقد صلات أوثق في مواجهة بريطانية ، وان يمثلوا رغم كل شيء ، جبهة موحدة حيال القضية الفلسطينية .

خاتمــة :

يمكن القول ان التجزئة التي فرضها الاستعمار على الامة العربية ، حتمت على القوى العربية ان تناضل اولا وقبل كل شيء من أجل التخلص من الاستعمار المباشر، الا انها ادركت أن تجزئة البلاد العربية هي أهم مظاهر الهيمنة الاستعمارية في هذه المنطقة وان الوطن العربي الموحد هو نقيض تلك الهيمنة ، فكان العمل من أجل الوحدة هو الهدف الثاني من أهداف الحركة القومية . ورغم ما تعرضت له هذه الحركة القومية من تكسات خلال فترة ما بين الحربين فقد استطاعت ان تفرض نفسها على جميع القوى الخارجية المتصارعة كعامل يحسب حسابه عند صياغة سياستها تجاه المنطقة ، ومن ثم فقد أكدت احدى المذكرات التي اعدتها الخارجية البريطانية في ايلول ١٩٣٩ ان حركة الوحدة العربية قد غدت ظاهرة لا يمكن تجاهلها بل وينبغي عـدم مناصبتها العـداء .



الهوامش :

(١) حازم ونسيبه ، القومية العربية : فكرتها وتطورها ونشاتها ، ص ١٦ ، وهو ترجمة كتاب
The Idéas of Arab National movement, Ithaca, 1959

(٢) حول تفاصيل القضية العربية يمكن مراجعة
Ziene, N. Z., Arab-Turkish relations and emergence of Arab Nationalism Beirut, 1959

(٣) Khadduri, M., Political trends in the Arab world , John Hopkins Press, 1970, pp. 14-16

(٤) Dawn, C. E., The Rise of Arabism in Syria, Middle East Journal XVI 1962 Spring, p. 145

(٥) الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي القاهرة الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر سنة ١٩٧٠

(٦) Hourani, A., Arabic theught in the liberal age, Oxford University press 1970 pp. 271 - 73

(٧) أصدر عزوري عام ١٩٠٥ كتابا باللغة الفرنسية بعنوان : Réveil de la Nation Arabe

(٨) Zeine, p. 93

(٩) Dawn, p. 146

(١٠) خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ، ١٩١٨ــ١٩٢٠ ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص٢٢

(١١) Khadduri, p. 18

(١٢) Khadduri, p. 181

(١٣) Hourani, pp. 200 - 300
وقد بدا رشيد رضا في مجلة المنار (القاهرة) منذ عام ١٨٩٩ وحتى عام ١٩٣٢ بالدعوة الى نزعة دينية ودعوة سياسية مستترة .

(١٤) نسيبه ص ٦٠

(١٥) المصدر السابق ، ص ٥٧

(١٦) طارق البشري ، مصر في اطار الحركة العربية ، مجلة المستقبل العربي تموز ١٩٧٨ ،ص١٤

(١٧) Barbour, N., Variations of Arab National feeling in French North Africa, Middle East Journal (1954) - p. 30

(١٨) Hourani, p. 361

(١٩) عبد العزيز الاهواني ، ازمة الوحدة العربية بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢٤-٢٥

(٢٠) جوليان ، شارل اندري ، افريقيا الشمالية تسير : القوميات الاسلامية والسيادة الفرنسية ص ٢٤-٢٥ مترجم - تونس ١٩٧٦ عن كتاب
Julien, C. A., L'Afrique du Nord en marche

(٢١) Khadduri, p. 20

(٢٢) Hourani, p. 290

(٢٣) وليد قزيها ، القومية العربية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين ، مجلة المستقبل العربي ، يناير ١٩٧٩ ، ص ٥٩

(٢٤) تشايلدرز ، ارسكين ، الحقيقة عن العالم العربي ، ص ٧٢ مترجم عن كتاب :
Childers, E. Common Sense about the Arab World

(٢٥) حازم نسيبه ، بحث الثورة العربية الكبرى ومستقبل العمل القومي في كتاب :
دراسات في الثورة العربية الكبرى ، مجموعة من المؤلفين ، عمان ١٩٦٧ ، ص ٢٢٤

(٢٩) Agwani, The United States and the Arab World, p. 9

(٣٠) Hourani, p. 298

(٣١) نسيبه ، ص ٧٠

(٣٢) انيس صايغ ، كلمة المستقبل ، مجلة المستقبل العربي ، نوفمبر ١٩٧٨

(٣٣) اسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٧

(٣٤) Agwani, p. 15

(٣٥) داغر ، ص ٧

(٣٦) عبد الكريم غرايبه ، الثورة العربية الكبرى والعالم العربي ١٩١٨-١٩٢٥ ، ص ١٠٢ بحث في كتاب دراسات في الثورة العربية الكبرى مصدر سابق ، ص ١٠٢

(٣٧) قزيها ، ص ٥٩

(٣٨) Hourani, p. 298

(٣٩) غرايبـه ، ص ١٤٣
وقد اسس خالد بن الهاشمي بن عبد القادر كتلة المنتخبين المسلمين الجزائريين واصدر بالتعاون مع الشيوعيين الجزائريين جريدة في باريس ١٩٢٤ وشكل معهم لجنة الدفاع عن شمال افريقيا ، كذلك اسس الثعالبي حزب الدستور التونسي .

(٤٠) Hourani, pp. 362 - 363

(٤١) غرايبه ، ص ١٠٢

(٤٢) ساطع الحصري ، مقدمة كتاب العروبة اولا ، بيروت ، ١٩٥٥

(٤٣) Hourani, pp. 292-93

(٤٤) Longrigg H. S. Syria and Lebanon under French Mandate Oxford 1958 p. 108
و
Siegman, H. Arab Unity and disunity, Middle East Journal 16, 1962, pp. 48 - 49

(٤٥) Agwani, p. 18

(٤٦) ساطع الحصري ، الاقليمية جذورها وبذورها ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ١٢-١٣

(٤٧) تشايلدرز ص ٨٤

(٤٨) المصدر السابق ، من امثلة الخلافات الخلاف السعودي الهاشمي ، الذي بدا ١٩١٦ واستمر حتى ١٩٣٦ والحرب اليمنية السعودية ١٩٣٤ .

(٤٩) Morrison, Arab Nationalism and Islam Middle East Journal, 2, 1948, pp. 150 - 152

(٥٠) بيان المؤتمر التاسيسي لعصبة العمل القومي المنعقد في قرنايل (لبنان) ١٩٣٣ ، ص ٢

(٥١) الاهوانـي ، ص ١٢٤

(٥٢) جوليان ، افريقية تسير ، ص ٢٩

(٥٣) الاهواني ، ص ١١٨

(٥٤) Hourani, p. 292

(٥٥) صايغ ، كلمة المستقبل العربي ، نوفمبر ١٩٧٨ .

(٥٦) الاهواني ، ص ٧٢-٧٦

(٥٧) Hourani, pp. 293 - 294

(٥٨) Ibid, p. 307

(٥٩) غرايبه ، ص ١٠٢

(٦٠) عزة دروزة ، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، الجزء الاول صيدا ١٩٥٩ ملحق ٥ « نص البيان الذاع عن المؤتمر العربي القومي في ١٩٣١/١٢/١٣ ».

(٦١) حول المؤتمر العربي الاول : انظر المصدر السابق ص ٨٧ وداغر ص ١٨٦ــ١٩٤

(٦٢) Khadduri, p. 176

نقلا عن الريحاني، امين، القوميات، بيروت ١٩٥٦، جزء ٢، ص ٥ــ٤٩، ٨ــ٥٦، ٨٦ــ٨٧، ١٤٢ــ١٤٦.

(٦٣) قسطنطين زريق ، الوعي القومي نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي ، بيروت ١٩٣٩ ص ٦ ــ ٨.

(٦٤) فزبها ص ٦١ ــ ٦٢

(٦٥) نسيبة ص ٨١

(٦٦) الحصري ، دفاع عن العروبة ، بيروت ١٩٥٦ بحث « نظرات الى تاريخ الامة العربية »حول القومية العربية بيروت ١٩٦١ بحث « وعود الى مسالة من هو العربي ».

(٦٧) فزبها ، ص ٦٠

(٦٨) جاء في مقدمة كتاب آراء واحاديث في القومية العربية ، القاهرة ١٩٥١ « ماأسعد الامم التي حققت وحدتها العربية واستكملت شخصيتها السياسية فاستطاعت ان تجعل حدودها الدولية منطبقة على حدودها القومية » .

(٦٩) من رسالة الى طه حسين نشرت في مجلة «الرسالة» (القاهرة) ١٩٣٨.

(٧٠) الحصري ، آراء واحاديث في القومية العربية بحث « التيارات الفكرية حول القومية العربية ، حديث عن الصراع بين القومية والاقليمية » وبحث « مصر والعروبة : رد علـى بعض المصريين المترخصين على فكرة الوحدة العربية ».

(٧١) Hourani, p. 316

(٧٢) زريق ، ص ١١٢ ــ ١١٤

(٧٣) Khadduri, p. 22

(٧٤) Hourani, p. 294

(٧٥) داغــر : ص ٨ ــ ٩
وكان فيصل قد تعهد قبل اعتلائه العرش ان يقصر جهوده على العراق ويمتنع عن اي نشاط معــاد لبريطانية انظر :
Goma'a, A., The foundation of the League of Arab States, London, 1977, p. 5

نقــلا عــن
F. O. 371/16355, memorandum on British attitude towards Arab Unity, June 1933

(٧٦) Khadduri, M. Independent Iraq, London, 2nd ed. 1966, p. 162

(٧٧) داغــر ، ص ٩

(٧٨) المصدر السابق ١٨٦ – ١٩٤ بشان المساعي المختلفة لاعداد المؤتمر العربي وفشلها .

(٧٩) Goma'a, p. 7
نقلا عن الوثيقة السابقة رقم F.O. 371/16855 المذكورة في حاشية (٧٥)

(٨٠) Hourani, p. 295
وقد وضع رشيد رضا كتابا بعنوان « الوهابيون والحجاز » القاهرة ٢٤٤ (١٩٢٥ــ١٩٢٦)

(٨١) داغــر ، ص ١٩٩

(٨٢) Khadduri, Independent Iraq, p. 166-167

(٨٣) A. G., Egyptian attitudes towards pan-Arabism, Middle East Journal, XI 1957, Summer pp. 253 - 56
Cheine,

(٨٤) داغر ص ٩ ، وكان ساطع الحصري قد كتب في جريدة البلاد في بغداد ١٩٣٦/٤/١٩ مقالا عنوانه «دور مصر في النهضة القومية العربية » تضمن افكارا مماثلة .

(٨٥) Cheine, p. 258

(٨٦) طارق البشري ، ص ١٤ ــ ١٦

(٨٧) Hourani, p. 295

(٨٨) Barbour, p. 319

(٨٩) Hourani, pp. 361 - 62

(٩٠) جوليان ، افريقيا تسير ، ص ٣٢-٣٤ وكان ارسلان ينشر مجلة (الامة العربية) باللغة الفرنسية ولها انتشار واسع في العالم الاسلامي بين النخبة المثقفة .

(٩١) Hourani, p. 306

(٩٢) عبد العزيز الثعالبي ، تونس الشهيدة ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٥٨ ، ٦١ مترجم عن الفرنسية :
La Tunisie martyre, Paris, 1925

(٩٣) اميل الغوري ، فلسطين عبر ستين عاما ، بيروت ١٩٧٩ ، جزء ١ ص ٧٦

(٩٤) دروزه ، ص ٧٩ - ٨٦

(٩٥) عوني عبد الهادي، اوراق خاصة(اعداد خيرية قاسمية)، بيروت ١٩٧٤ . وقد عقد الاجتماع في داره ، نص البيان والميثاق ، دروزه ملحق ٥ ، ص ٣٠٦ .

(٩٦) دروزه ، ملحق ٦ ص ٣٠٩ ، وعوني عبد الهادي، ص ٦٦-٦٧ وكانت مسودة بيان حزب الاستقلال قد وضعت بخط يده .

(٩٧) زعيتر ، أكرم ، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٩ اعداد بيان نويهض الحوت، بيروت ١٩٧٩ وثيقة ١٨١ (١٩٣٢/٩/٥) ، ١٨٧ (١٩٣٣/١/١٦)١٩٣،(١٩٣٣/٥/١٦)١٩٥،(١٩٣٣/٩/٢)

(٩٨) المصدر السابق وثيقة ٢٠٤ (١٩٣٤)

(٩٩) المصدر السابق ، وثائق ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١، ٢١٢ ، ٢١٣ (نوفمبر ١٩٣٥)

(١٠٠) يوسف هيكل ، القضية الفلسطينية ، تحليل ونقد ، يافا ١٩٣٨ من مقدمة محمد حسين هيكل

(١٠١) Report of the Royal Commission (Peel) Cmd. 5479, HMSO, London, July 1937, p. 67

(١٠٢) نداء الحكام العرب لوقف اعمال الثورة ، واستجابة اللجنة العربية العليا ، انظر زعيتر ، وثيقة ٢٦٢ (١٩٣٦/١٠/١١) ، و ٢٦٥ (١٩٣٦/١٠/١٢)

(١٠٣) عوني عبد الهادي ص ٩١.

(١٠٤) دروزه ص ١٦٨

(١٠٥) Hourani, p. 293

(١٠٦) وقائع جلسات المؤتمر وقراراته صادر عن المكتب العربي للدعاية والنشر دمشق ايلول ١٩٣٧

(١٠٧) زعيتر ، وثيقة ٢٢٦ (١١/١٠/١٩٣٨ عن قرارات المؤتمر البرلماني العربي ووثيقة ٢٢٧ (١٥ - ١٨/١٠/١٩٣٨) عن قرارات المؤتمر النسائي العربي

(١٠٨) Goma´a, p. 9
نقلا عن الوثيقة البريطانية رقم F. O. 371/21862 بتاريخ ١٩٣٨/١١/٩ (رسالة الى تشمبرلن)

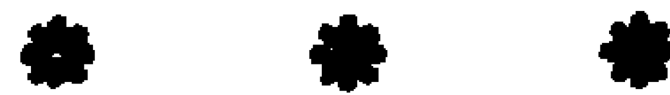
(١٠٩) من المشاريع المقدمة مشروع هربرت صموئيل ونوري السعيد ، والامير عبد الله انظر :
Goma´a, pp. 11-13

(١١٠) Ibid, pp. 13-14 نقلا عن الوثيقة البريطانية رقم F.O. 371/20806
(رسالة لامبسون السفير البريطاني في القاهرة)

(١١١) Ibid, p. 9 نقلا عن الوثيقة البريطانية رقم F.O. 371/21865
(وقائع الجلسة الاولى للجنة الوزارية بشان فلسطين)

(١١٢) عوني عبد الهادي ، ص ١٠٧-١٠٨ مراسلات بين عوني عبد الهادي (القاهرة) وعزة دروزة (دمشق)

(١١٣) المصدر السابق ص ١١٦ ، وكان هو من المؤيدين لقبول المقترحات البريطانية .



بعض مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في جزيرة صقلية

د . فائزة بكر الصواف
جامعة الملك عبد العزيز
مكة المكرمة

تقع جزيرة صقلية في الحوض الاوسط من البحر المتوسط . وهي ذات موقع ممتاز من الناحيتين الحربية والتجارية ، اذ انها تتحكم في الاتصال بين الحوضين الشرقي والغربي لهذا البحر . وقد غلب على الجزيرة الطابع الحربي ، فاكثر مدنها شيدت على رؤوس الجبال على شكل قلاع او حصون ، ومن اهم هذه المدن بلـرم التي كانت قصبة الجزيرة ، وسرقوسة . يضاف الى ذلك ان صقلية تمتعت بخيرات كثيرة لكثرة انهارها وعيونها ومعادنها(١) .

فتـح صقلية :

اتجهت انظار المسلمين منذ العصر الاسلامي الاول صوب جزيرة صقلية لانها كانت قاعدة الروم البحرية يغيرون منها على سواحل ومدن البحر المتوسط . وكانت اولى محاولات غزو جزيرة صقلية في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما ارسل معاوية بن ابي سفيان ــ والي الشام ــ قائده معاوية بن حديج الكندي عام ٣٤ هـ/(٦٥٤) م على رأس عدة سفن لمهاجمة صقلية . ووصل معاوية بن حديج الى صقلية واحرز عدة انتصارات على الحامية البيزنطية في الجزيرة وعادت سفنه محملة بالغنائم والاسرى(٢) . وتتابعت الغزوات الاسلامية بعد ذلك على صقلية ، ولكنها لم تؤد الى الاستقرار بالجزيرة بقدر ما كان هدفها الاغارة ، فلم يترتب عليهـا سوى الحصول على الغنائم والعودة بأصناف من ذهب وفضة مكللة بالجواهر على حد تعبير البلاذري(٣) .

(*) اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦-٢٢ جمادى الآخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠-٢٦ نيسان ١٩٨١ م

وبعد أن استتب الامر لولاة افريقية ، واسسوا مدينة القيروان ، واقاموا في تونس دارا للصناعة (صناعة السفن) فكروا في غزو جزيرة صقلية . ومما شجعهم على ذلك قرب الجزيرة من شاطىء شمال افريقية وما نعمت به تلك الجزيرة من خيرات وثمار ، وكذلك انشغال اباطرة الدولة البيزنطية بمشاكلهم الداخلية مما ادى الى اهمالهم امر الجزيرة وبالتالي ضعف الحامية البيزنطية بها . على ان اغارات المسلمين على صقلية لم تتصف بصفة الاستقرار في هذه المرحلة لصعوبة ارسال الامدادات الى المحاربين(٤) .

واستمر هذا الوضع قائما حتى عام ١١٦ هـ/(٧٣٤ م) ففي هذا العام جهز عبيد الله بن الحبحاب جيشا واسطولا كبيرين وجههما الى صقلية . ولم تلبث ان دارت معركة كبيرة بين الاسطولين البيزنطي والاسلامي وكان النصر حليف الاسطول الاسلامي مما اعطى لابن الحبحاب ثقة كبيرة في مدى قوة الاسطول الاسلامي وهذا ما جعله يفكر جديا في غزو جزيرة صقلية وفتحها والاستقرار بها(٥) .

وجهز ابن الحبحاب عام ١٢٢ هـ حملة كبيرة وضع على راسها القائد حبيب ابن ابي عبيدة ابن عقبة بن نافع ومعه ابنه الجسور عبد الله بن حبيب فنزل ارض صقلية وظل يقاتل ويجاهد حتى اذعن الروم لعقد الصلح ، وبذلوا في سبيله جزية كبيرة للمسلمين . وعزم حبيب وابنه عبد الله على البقاء في صقلية وانجاز فتحها ، غير أن سوء الاحوال في افريقية اضطرهما الى العودة (٦) .

وعاود عبد الرحمن بن حبيب الفهري واخوه عبد الله الكرة لغزو صقلية ، التي كان الروم قد حصنوها ، وانشأوا بها اسطولا بغرض مهاجمة مراكب المسلمين وسفنهم . وعلى الرغم من ان ابن حبيب نجح في تحطيم كثير من سفن الروم ، الا انه عاد بخفي حنين مكتفيا بالغنائم . وبعد ذلك لم تتعرض جزيرة صقلية لخطر المسلمين لمدة تزيد عن خمسين عاما .

ثم قامت دولة الاغالبة في تونس بمأثرتها الخالدة على صفحات الوجود الا وهي فتح صقلية ونصب الوية الاسلام فوقها عالية خفاقة . وقصد الاغالبة من فتح تلك الجزيرة تمهيد السبيل لفتح البلاد الاوروبية ومهاجمتها من الوسط بعد ان اخفق المسلمون في الهجوم عليها شرقا وغربا ، ومحاولة قطع دابر القرصنةالبيزنطية التي اتخذت صقلية مركزا لها(٧) .

وحدث في عام ١٩٠ هـ/٨٠٥ م ان عقد ابراهيم بن الاغلب مؤسس دولة الاغالبة هدنة لمدة عشر سنوات مع حاكم صقلية(٨) . وبعد وفاة ابراهيم جدد خليفته ابو

العباس عبد الله الاول (١٩٦ ـ ٢٠١ هـ) ذلك الصلح في عام ١٩٨ هـ / ٨١٣ م . وفي سنة ٢٠١ هـ/٨١٦ م تولى حكم دولة الاغالبة زيادة الله بن ابراهيم ، وهو الذي وصل حكم الاغالبة في عهده اقصى درجات الاستقرار ، وتم فتح صقلية .

ففي عام (٢١١ هـ/٨٢٦ م) جاءت زيادة الله فرصة ذهبية من داخل جزيرة صقلية للقيام بفتحها . فتروي المصادر العربية انه وفد على زيادة الله بن ابراهيم الاغلبي القائد البيزنطي (افيميوس) مستصرخا ومستنجدا به ضد بعض المنافسين له . وتفصيل ذلك : انه حدث في عام ٢١١ هـ / ٨٢٦ م ان حاكم صقلية قسطنطين عهد الى القائد افيميوس بقيادة الاسطول ومهاجمة شواطىء افريقية وقام افيميوس بمهمته خير قيام ، وعاد الى صقلية . غير ان افيميوس وقع في خطأ فاحش عندما اختطف احدى الراهبات وتزوج بها ووصل ذلك الى اسماع الامبراطور البيزنطي ، الذي امر قسطنطين بالقبض على قائد الاسطول (افيميوس) وارساله الى القسطنطينية لمحاكمته . وعندما علم افيميوس بذلك رفع راية العصيان ، واستقل بمدينة سرقوسة (سيراكوز) غير ان احد قادته (يدعى بلاطه) ما لبث ان ثار عليه وانزل به هزيمة ساحقة اضطر معها افيميوس الى التوجه الى تونس طالبا مساعدة زيادة الله بن الاغلب واعدا اياه « بملك جزيرة صقلية »(٩) .

وجمع زيادة الله وجوه اهل القيروان وفقهاءها وفيهم القاضي اسد بن الفرات واستشارهم في الامر وانتهى الامر بضرورة فتح جزيرة صقلية ونشر الاسلام فيها(١٠)

ولم تلبث ان جاءت الاخبار الى افيميوس بانه تقرر مساعدته ، وامر بالتوجه الى مرسى سوسة والانتظار به الى حين وصول الاساطيل الاسلامية .

وبعد ان اتم زيادة الله اعداد جيش قوي ، قوامه عشرة آلاف مجاهد وسبعمائة فرس عهد بقيادته الى قاضي القيروان اسد بن الفرات وتجمعت السفن في ميناء سوسة ، لتحمل ذلك الجيش الى صقلية وكان ذلك الجيش مكونا من العرب والبربر والفرس والاندلسيين . وفي يوم السبت الموافق الخامس عشر من ربيع الاول عام ٢١٢ هـ/(٨٢٧) م اقلعت الحملة وفي معيتها افيميوس متجهة نحو صقلية ، حيث وصلوا الى مدينة (مازر) احدى مدن صقلية . وتقابل جيش المسلمين مع جيش القائد (بلاطة) الذي مني بالهزيمة وفر هاربا ، في حين « غنم المسلمون اموالهم ودوابهم » على حد قول المؤرخ ابن الاثير(١١) . وتابع الجيش الاسلامي بقيادة اسد بن الفرات زحفه داخل صقلية ، فاستولى على بعض الحصون المنيعة ، وضرب الحصار على مدينة سرقوسة واستطاع ان يضيق عليها الخناق ويحرق سفنها ويقتل جماعة

من اهلها مستعينا بامداد من افريقية والاندلس . وحدث ان وصل اسطـول بيزنطـي من القسطنطينية لنجدتها ، فضلا عن ان الوباء تفشى في المسلمين ومات مـن جرائـه كثيرون منهم اسد بن الفرات نفسه(١٢) .

ثم ما لبث ان تولى محمد بن ابي الجواري قيادة الجيش الاسلامي بصقلية بعد وفاة اسد بن الفرات . وعدل ابن ابي الجواري عن فكرة العودة الى افريقية وصمم على البقاء بصقلية ومعاودة القتال من جديد . فبدا باحراق سفن الاسطول البيزنطي المحاصر لصقلية ، وساعده في ذلك نجدات بحرية من القيروان . كمااشتد في قتال البيزنطيين حتى استطاع الاستيلاء على حصن جرجنت ، مما ترتب عليـه ارتفاع الروح المعنوية في الجيش الاسلامي بهذا الفتح الجديد(١٣) .

وهكذا تحمس افراد الجيش الاسلامي لاستكمال فتح حصون صقلية ، واخذوا في احكام الحصار على تلك الحصون المختلفة ، وسقطت هذه القلاع والحصون واحدة تلو الاخرى في ايدي المسلمين على الرغم من الامدادات المتواصلة من القسطنطينية فسقطت (بالرمو) عام ٢١٦ هـ (وقلورية) عام ٢٢٥ هـ ، وفتحت (قصريانة) ٢٤٤ هـ وقلعة (بلاطو) ٢٤٦ هـ (ومسيني) عام ٢٦٥ هـ (١٤) . وهكذا دانت صقلية للعرب بعد أن كانت تحت حكم الامبراطورية البيزنطية . وكان النصر حليف الاسـلام الذي امتد سلطانه عام ٨٤٦ م الى رومية نفسها ، وذلك على حد قول المؤرخ الانجليزي سنجر(١٥) .

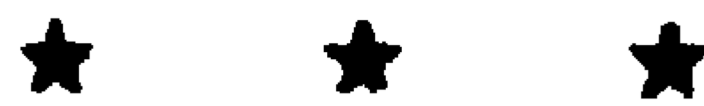
الحضارة الاسلامية في جزيرة صقلية

حكم العرب جزيرة صقلية في الفترة الممتدة مـن عـام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م حتى عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م . والواقع أن الحكم العربي لصقلية مـر بفترتين أو مرحلتيـن اولاهما حكمت فيها صقلية من قبل ولاة الاغالبة حكام افريقية ، وامتدت من سـنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ حتى ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م . وثانيتهما : حكم صقلية خلالها ولاة مـن قبل الخلفاء الفاطميين ، وامتـدت من عـام ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م الـى سـنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م . واصبحت جزيرة صقلية مركزا هاما من مراكز الحضارة الاسلامية فما هو السر وراء ذلك التيار الحضاري الجارف الذي نعمت به صقلية في ظل الحكم الاسلامي لها ؟ لاشك في ان السر وراء ذلك هو ما اشتهر به المسلمون من حبهم للحضارة وتشجيعهم لها ، وما اشتمل عليه الدين الاسلامي من مقومات واسس حضارية وما اتسم به من تسامح مع غير المسلمين ، حيث عاش المسلمون الى جانب سكان صقلية الاصليين دون اثارة للفتن . وترك فاتحو صقيلة من العرب لاهاها عاداتهم وتقاليدهم ، وقوانينهم وحريتهم الدينية المطلقة ، واكتفوا منها بجباية الجزية وكان مقدارها أقل

بكثير مما كانت عليه على عهد البيزنطيين واعفوا منها الرهبان والنساء والاولاد وحافظوا على الكنائس التي وجدوها ولكنهم لم يسمحوا بانشاء غيرها(١٦) .

كما ان العرب المسلمين لم يكونوا مثل العناصر الجرمانية البربرية مثل القوط والوندال التي انسابت داخل الامبراطورية الرومانية . وفي الوقت الذي نسمع فيه بما أحدثته اغارات الهون والوندال والقوط من تخريب شامل لكثير من اقاليم أوربا وافريقية ، اذا بالبلاد التي فتحها المسلمون واستقروا فيها تتحول الى مراكز حضارية كبرى يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف انحاء العالم المعروف وتتذاك للتزود والاستنارة . وحسبنا ان نوازن بين احوال بعض البلاد الاوروبية مثل اسبانيا وصقلية قبل فتح العرب لها واحوالها بعد استقرارهم فيها . اذ تبدلت اوضاعها من جهل وتأخر وانحلال وخراب ، الى نشاط فكري وتقدم اقتصادي وعمران شامل وازدياد مطرد في السكان والامــوال (١٧) .

وقد ساعد على التطور الحضاري في جزيرة صقلية ماتمتعت به الجزيرة من موقع متوسط جعلها ، على رأي بعض الباحثين، بوتقة جمعت كثيرا من مقومات الشرق والغرب . فموقع جزيرة صقلية في الحوض الغربي للبحر المتوسط وقربه من شاطىء افريقية من جهة الجنوب وشاطىء ايطاليا من جهة الشمال جعلها حلقة وصل بين العالم الاسلامي من جهة وبين اوربا من جهة اخرى . وساعد على التطور الحضاري أيضا ما تمتعت به جزيرة صقلية من خيرات كثيرة ورخاء اقتصادي(١٨) ، فازدهرت الحضارة الاسلامية في صقلية ازدهارا كبيرا ، ونافست حضارات الشرق الاســلامي وحضارة الاندلس .



بعد ان استقر المسلمون في جزيرة صقلية بدأوا عهد التنظيم والترتيب . فبعد ان كانت الجزيرة متسمة قسمين أو ولايتين في عهد البيزنطيين وهمـا : بالرمه (بالرمو) وسرقوسة (سيراكوز) ، قسمها المسلمون الى ثلاث ولايات تمشيا مع الوضع الجغرافي للجزيرة . وكان تحت أمرة حاكم كل من هذه الاقاليم الثلاثة طائفة من القواد يحكمون النواحي(١٩) ، وخضع الحكام الثلاثة لوال واحد مقــره مدينــة بلرم التي اتخذها العرب حاضرة لهم .

وكان الوالي في صقلية يخضع للاغالبة في تونس زمن حكم الاغالبة لها وبعد انتقال الحكم الى الفاطميين كان لزاما على الوالي ان يحصل على تقليد الخليفة الفاطمي ، الذي يستمد منه سلطاته الادارية والحربية(٢٠) .

وبالاضافة الى الوالي كان هناك « المفتي » أوقاضي القضاة الذي يقيم في مدينة بالرمو. وكان يوجد في كل مدينة من المدن قاض وكاتب ومستخلص الضرائب أو العشور. وهنالك في بالرمو « مجلس كبير يدعى الديوان » كان من خصائصه ضبط اموال الدولة وفحص الحسابات العامة(٢١) واتخذ المسلمون بصقلية بعض دواوين الحكم التي كانت سائدة في مصر وفي شمال افريقية ، ومن ذلك ديوان المظالم ، وديوان التحقيق وديوان الطراز(٢٢) .

وشهدت صقليه في ظل الحكم الاسلامي نهضة زراعية وصناعية وتجارية كبرى. ففي مجال الزراعة : تمثلت النهضة في استخدام الاساليب الزراعية الجديدة وفي استغلال كل أرض صالحة للفلاحة وفي ادخال أنواع جديدة من المزروعات لم تكن معروفة من قبل .

فقبل الفتح الاسلامي للجزيرة وفي ايام البيزنطيين لم يهتم أهل صقلية سوى بزراعة القمح واستيراد الزيتون والزيت من شمال افريقية(٢٣) . اما المسلمون فقد ادخلوا الى صقلية كثيرا من انواع المحاصيل الزراعية كالبرتقال والليمون والقصب والارز والنخيل والقطن والفستق والكتان والبردى والزعفران والقنب(٢٤) . وترتب على ذلك أن نشأ في صقلية أساليب زراعية جديدة تتلاءم مع بيئتها . فأصبحنا نسمع في كتاب الفلاحة لابن العوام الاشبيلي بما يسمى بطريقة أهل صقلية في زراعة البصل ، او عادة اهل صقلية في زراعة القطن(٢٥) هذا فضلا عن التوسع في زراعة بعض المحاصيل القديمة مثل القمح حيث اصبحت حقول القمح والشعير تبسط على اكثر اقسام الجزيرة وشاحا من الذهب الابريز .

واكثر الناس في صقلية من زراعة الخضروات والفاكهة . وادخل المسلمون الى الجزيرة بعض انواعها فكانت بلرم (بالرمو) عامرة ببساتين الخضروات والفاكهة ، ويذكر المقدسي كثرة الفواكه والخيرات والاعشاب في بلرم وضواحيها . والحق ان خير كتاب لتصوير الحالة الزراعية في صقلية في العصر الاسلامي هو كتاب الادريسي « نزهة المشتاق في اختراق الافاق » ، فما من بلد أورد ذكرها الادريسي الا واقترن اسمها بالبساتين والمياه والمزارع الطيبة ، مثل بلرم وجفلوذ ومسيني او مسينه وقطانية وغيرها . وقد ازدهرت زراعة الورود ايضا ولا سيما البنفسج ذو الرائحة الفائحة العطرة ، والذي انتشرت زراعته حول سنت ماركو(٢٦) .

وقد اهتم المسلمون ايضا بحفر الترع والقنوات ، واقاموا المجاري المعقوفة وكانت غير معروفة قبلهم(٢٧) . كما ازالوا تلك الاشجار غير المثمرة الضخمة التي ملأت جزيرة صقلية وزرعوا مكانها بعض المحاصيل الجديدة التي احضروها معهم من شمال

افريقية ، ونتيجة لاعتناء المسلمين بالثروة الزراعية في صقلية انتعش الانتاج الزراعي انتعاشا كبيرا واصبح بجزيرة صقلية « الخصب والسعة والزروع والمواشي مايفضل على سائر ممالك الاسلام المتاخمة للبحر » واصبحت ايضا كلها خيرات ورياضا وبســاتين .

والى جانب اهتمـام المسلمين بالزراعـة في صقلية فقـد نهضـوا بالصناعـة ايضا . فنشطت في صقلية بعض الصناعات القائمة على الانتاج الزراعي ، مثل صناعة قصب السكر كما امتلأت صقلية بمصانع النسيج لنسج الثياب الحريرية والكتانية والقطنية . فقد عام المسلمون أهل صقلية صناعـة الحرير بعد ان ادخلوا دود القز اليها وزادت بالتالي أهمية نساجي الحرير . وقيل ان بعض عباءات من قماش رقيق كانت ترسل من صقلية الى مصر ، خاصة عباءات ابناء الخليفة الفاطمي المعز(٢٨) .

وفي نورمبرج اليوم رداء حرير كان لملوك صقلية وعليه كتابة بحروف كوفيـة يحمل تاريخ سنة ٥٢٠ هـ (١١٣٣) م . وهذا ما يدعو الى الاعتقاد بأن صناعـة الثياب انتقلت من صقلية الى اوربا(٢٩) .

واشتهرت صقلية بنسج الثياب الكتانية الممتازة التي نافست مثيلاتها في مصر والشام ويشير ابن حوقل في كتابه صورة الارض الى ان الثياب الكتانية المصنوعة بصقلية لا نظير لها جودة ورخصا ويباع مستعملها مما يقطع قطعين من الخمسين رباعيا الى ستين رباعيا فيزيد على ما يشترى من امثاله بمصر بالخمسين والستين دينارا كثيرا(٣٠) ويؤكد الرحالة ناصري خسرو هذه الحقيقة بقوله : ويجلبون منها ــ اي من صقلية ــ كتانا رقيقا وثيابا يساوي الثوب منها في مصر عشرة دنانيـر مغربيـة(٣١) .

والى جوار صناعة المنسوجات ، نقل المسلمون الى صقلية صناعة القراطيس أو الطوامير من نبات البردي الذي قاموا بزراعته في صقلية . وذكر ابن حوقل ان بصقلية بقاعا قد غلب عليها زراعة البردي ويصنع منه الطوامير ، واكثره يفتـل حبالا للمراكب واقله يعمل للسلطان منه طوامير لا يزيد على قدر كفايته(٣٢) .

وازدهرت صناعة دبغ الجلود في صقلية ازدهارا كبيرا ويرجع ذلك الى شهرة صقلية بالمواشي كما في اشعار بندار ، وكذلك انواع المعزى . وبعض الماعز الموجودة في صقلية اليوم من ذوات الاذن المتدلية مما يرجح أن العرب هم الذين جاءوا بهـا . وكان للخيول الصقلية شهرة واسعة في العصر البيزنطي اذ كانت تربى بكثرة في

اقطاعات البابا ويستمد منها البابوات خيولهم . ولما دخل المسلمون صقلية دخلتها الخيول العربية ، وطمست شهرة الخيول المحلية . وكذلك جاء المسلمون بالجمل الى صقلية ولكنه انقرض منها(٣٣) .

واهتم المسلمون أيضا بصناعة السفن ، التي قامت على وفرة الخشب والحديد في الجزيرة . ويرجع اهتمام المسلمين بتلك الصناعة الى كثرة الاحتياج اليهـا ، باعتبارها السلاح الاول لهم سواء في حياتهم الاقتصادية او الحربية . ووجد بجزيرة صقلية اكثر من دار لصناعة السفن(٣٤) . كذلك استخرج المسلمون بعض الثروات المعدنية في صقلية ، منها معدن الفضة ، والنحاس ، والنوشادر ، والكبريت ، ومعدن الصب ، والنفط ، والحديد ، والرصاص ، والذهب . ومن الجدير بالذكر أن الذهب كان يوجد بجبل كبير بصقلية اطلق عليه جبل الذهب ، وقد استخدم المسلمون تلك المعادن في صناعات راقية .

ونتيجة لوفرة الانتاج الزراعي والصناعي واستخراج المعادن ، نشطت حركة التجارة في صقلية نشاطا كبيرا أبـان الحكم الاسـلامي ، بعد أن بلغت درجة كبيرة من التدهور زمن الحكم البيزنطي واستفاد المسلمون من موقع صقلية الجغرافي ، الذي جعلها تلعب دورا خطيرا في النشاط التجاري في البحر المتوسط . وأصبحت معظم مدنها الساحلية مراكز تجارية هامة ، خاصة تلك المدن التي اشتهرت بسهولة اقلاع السفن منها ورسوها فيها(٣٥) . ومن امثال تلك المدن مدينة مسيني التي قال عنها الادريسي : « السفر منها واليها قصدا ، وهي دار الانشـا ، وبها الحط والاقـلاع وبها الارساء مع جميع بلاد الروم الساحلية ، وبها تجتمع السفن الكبار ، والمسـافرون والتجار من بلاد الروم والاسلام والقاصدون اليها من جميع الاقطار ، واسواقها رائقة وسمعتها نافقة وقاصدها كثيـر »(٣٦) .

ونتيجة للعوامل السابقة تبوات صقلية في العصر الاسلامي قمة النشاط البحري التجاري ، وجابت الاساطيل الاسلامية الصقلية عرض البحر المتوسط حاملة تجارة جميع البلاد المطلة على شواطئه سواء في الشرق أم في الغرب . وقد اشار المقدسي الى انه شاهد كثيرا من التجار الصقليين في موانىء مصر والشام والقسطنطينية وكذلك في موانىء الغرب الاوروبي (٣٧) .

وتنوعت السلع التجارية المجلوبة على سفن صقلية . فمن الشرق حملت التوابل والمنتجات الشرقية الفاخرة ، ثم تعود محملة من صقلية بمختلف منتجاتها سواء اكانت حريرية أو كتانية من الاقمشة المحلاة بالجواهر والطنافس المصورة ام محملة بالمنتجات

الزراعية والحيوانية ، مثل الجوز والفستق والبندق والجلد المدبوغ . ونقلت سفن صقلية المنتجات الفنية والتحف الخشبية والعاجية والمعدنية والاواني الخزفية والزجاجية من مصر والشام الى اوروبا(٣٨) .

وفي نفس الوقت نشطت الحركة التجارية في داخل الجزيرة نفسها ، وليس ادل على ذلك من امتلاء الاسواق الداخلية بالبضائع والسلع وبالتجار . ويلاحظ انه كان لكل طائفة سوق خاص بها وقد اشار ابن حوقل الى ذلك بقوله : سوق للزباتين بأجمعهم والدقاقين والصيارفة والحدادين والصياقلة ، واسواق القمح والطرازين والسماكين وطائفة القصابين وباعة البقل واصحاب الفاكهة والريحانيين والجزارين وطائفة من العطارين والدباغين والنجارين(٣٩) .



أما عن مظاهر الحياة الثقافية في صقلية في العصر الاسلامي فقد شهدت جزيرة صقلية ابان حكم المسلمين لها - في عهدي الاغالبة والفاطميين ، نشاطا ثقافيا واسع النطاق . ومن مظاهره انتشار الدين الاسلامي والثقافة الاسلامية واللغة العربية(٤٠) . وقد لاحظ ابن حوقل في كتابه صورة الارض صورتين متلازمتين هما : كثرة المساجد وكثرة المعلمين . وبالنسبة للظاهرة الاولى وهي كثرة عدد المساجد الموجودة في صقلية يقول : وبصقلية من المساجد في مدينة بلرم والمدينة المعروفة بالخالصة والحارات المحيطة من وراء سوريها عامرة اكثرها قائمة على عروشها بحيطانها وابوابها نيف وثلثمائة مسجد(٤١) . ويعلل ابن حوقل كثرة المساجد بقوله : « كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه ، ولا يحب ان يشاركه فيه اهله وحاشيته ، وربما كان اخوان منهم متلاصقة دارهما متصاقبة الحيطان فعمل كل واحد منهما مسجدا لنفسه ، ويكون جلوسه فيه وحده »(٤٢) وربما كان هذا التعليل صحيحا ، لانه يصور تلك الروح الفردية التي كانت تغلب على الحياة الاسلامية هنالك . كما ان الاكثار من بناء المساجدخير مايقنع بانتصار الجماعة الاسلامية على كل موروث صقلي ، وخير مايطمئن الاذهان الى تثبيت الصبغة الاسلامية في تلك البلاد(٤٣) .

اما بالنسبة الظاهرة الثانية وهي كثرة المعلمين ، فيقول ابن حوقل « الغالب على البلد المعلمون والمكاتب في كل مكان ، وكان في بلرم (بالرمو) نفسها مالا يقل عن ثلاثمائة معلم »(٤٤) . وكان المعلم في هذا العصر شخصية طاغية الاثر في حياة الناس . اما عن نظرة أهل صقلية للعلماء او للمعلمين فكانوا يرون فيهم « اعيانهم ولبابهم وفقهاءهم ومحصولهم وارباب فتاويهم وعدولهم وبهم عندهم بقول الحلال والحرام ، وتعقد الاحكام وتنفذ الشهادات ، وهم الادباء والخطباء »(٤٥) . وتدل تلك الكثرة من المساجد

والمكاتب او الكتاتيب والمعلمين على نشاط تعليمي واسع وعلى ان مسلمي صقليـة اهتموا بتنشئة ابنائهم وتثقيف عقولهم . ومما يدل على انمدارس المساجد والكتاتيب كانت تعج بالتلاميذ المسلمين في صقلية لتلقى مبادىء القراءة والكتابة التي كانت ضرورة لازمة لمن يتصدى لحفظ القرآن الكريم الذي يعتبر اساس الثقافة في البلاد الاسلامية ماذكره الرحالة ابن جبير الذي زار الجزيرة في عام ٥٨٠هـ \ ١١٨٤م : اما المساجد فكثيرة لاتحصى واكثرها محاضر لمعلمي القرآن .

وكانت طريقة التدريس في صقلية على نظام الحلقات بالمساجد ، وهو نظام كان سائدا في مختلف الجوامع في البلاد الاسلامية وتعرف كل حلقة باسم شيخها وتأخذ حظها في الشهرة والنيوع بقدر ما يتمتع به استاذها أو شيخها من حيث علو كعبه في مادته .

وكان يقوم بالتدريس في مدارس الجوامع نخبة من العلماء المتبحرين الصقليين الذين عرفتهم كتب الطبقات والمعاجم ائمة في العلوم الشرعية واللغوية كالقراءاتوالفقه والحديث والتفسير واللغة والادب والنحو والعروض وتفسير الرؤيا ، وكذلك علوم الاوائل كالطب والجغرافيا والطبيعة والكيمياء والفلسفة والتنجيم ، وغيرها من مختلف العلوم والفنون .

وقد شجعت سياسة المسلمين الفاتحين لجزيرة صقلية العلماء والفقهاء على الاقامة بالجزيرة ، كما أن سهولة الاتصال بصقلية ادت الى كثرة عدد من زار صقلية من العلماء والادباء والرحالة من مختلف بلدان العالم المعروف وقتذاك ، في حين كان لاستمرار حكم المسلمين للجزيرة طوال ثلاثة قرون اثر كبير في تعميق الثقافة العربية الاسلامية بها(٤٦) . يضاف الى ذلك أن تبعية جزيرة صقلية لحكم الاغالبة بالقيروان ومن بعدهم للفاطميين بالقيروان ثم مصر كان له اثره في انتقال كثير من المعارفوالعلوم من شمال افريقية ومصر الى صقلية وبالعكس صحبة العلماء المتنقلين بين تلك البلاد من جهة ، وصحبة التجار من جهة اخرى ، وكانت النتيجة أن ازدهرت بصقلية مختلف الدراسات الدينية من فقه وحديثوتفسير وقراءات وغيرهما، وعلوم الطب والجغرافيا والكيمياء ، وكذلك انجبت صقلية عددا كبيرا من العلماء والفقهاء والادباء العارفين بشتى نواحي المعرفة .

ولنتناول بالحديث بعض هذه الدراسات الدينية التي ازدهرت في جزيرة صقلية ، مع ذكر اشهر العلماء والفقهاء والمحدثين الذين انجبتهم الجزيرة أبان الحكم الاسلامي لها ، وذلك لايضاح مدى ماساهمت به صقلية في مضمار الثقافة العربية الاسلاميـة .

ففي مجال الفقه لم يكن بصقلية مدرسة فقهية من ابنائها الا في اواخر القرن الرابع الهجري ، حين نجد امثال ابي بكر الصقلي الفرضي ، الذي كان عليه اعتماد الطلبة الصقليين في دراسة الفرائض ، وابي بكر بن ابي العباس الفقيه الذي كان يشتغل بالتدريس ، وكل هؤلاء استمدوا ثقافتهم من اساتذة في صقلية او غيرها ، ثم كان لهم الفضل في تعليم اكبر فقهاء صقلية ومحدثيها في القرن الخامس الهجري خاصة ابن يونس ، وعبد الحق الصقلي والسمنطاري(٤٧) .

وذاعت شهرة ابن يونس ، وعبد الحق والسمنطاري خارج حدود صقلية، فتناول ابن يونس الفرضي المدونة الكبرى لسحنون التنوخي ، واضاف اليها ، وجعل ذلك كتابا كان عليه اعتماد الفقهاء حتى انتقل الكتاب الى المغرب والاندلس .

وكان عبد الحق ايضا اكبر فقيه صقلي احرز شهرة في وطنه وفي خارجه . فقد قام عبد الحق بالتدريس في صقلية والقيروان ومكة والاسكندرية . ودرس عليه في القيروان ابن الخياط ، ومحمد بن نعمة الاسدي ، ولقيه بمكة ابن قطري الزبيدي وعبد الرحمن بن المعافري . وكان من تلامذته ، في صقلية نفسها ، طلبة اندلسيون كما كان فمن لقيه أثناء رحلاته جماعة من الاندلسيين أيضا . وهذا يظهر الى اي مدى ذاعت شهرة عبد الحق خارج صقلية(٤٨) . وليس لدينا من مؤلفات عبد الحق مايوضح لنا اثره الصحيح في الفقه ، ولعله كان متشددا في احكامه وفتاويه مثل قوله بعدم جواز الصلاة خلف من يظهر في قراءته النون الخفيفة أو التنوين عند الياء والواو ، وعد هذا من اللحن قياسا على من يتكلم في الصلاة متعمدا(٤٩) .

أما ثالث المشهورين وهو عتيق السمنطاري ، فقد انصرف الى تدريس الحديث النبوي الشريف وتلقى ثقافته على ابن يونس الفرضي بصقلية ، وسكن بلرم ، أي انه هجر قريته سمنطار ولزم حلقات الدرس في المدينة بلرم . وكانت له رحلة زار فيها الحجاز وساح في البلدان من ارض اليمن والشام الى ارض فارس وخراسان ، ولقى بها الكثير من اصحاب الحديث والزهاد ، فكتب عنهم جميع ما سمع وصنف كل ما جمع . وقد الف في الفقه تآليف وصفت بانها في غاية الترتيب والبيان . وفي عام ٤٦٤ هـ توفي السمنطاري ، وهاجر بعض تلامذته من صقلية الى مصر ، واهمهم عبد الكريم بن عبد الله بن محمد المقري الواعظ(٥٠) .

وتقدمت علوم الحديث والتفسير والقراءات تقدما ملحوظا في صقلية . فالحديث كانت دراسته تدور حول كتاب الموطأ للامام مالك أو ملخصات منه . ومن اشهر علماء الحديث في صقلية عبد الحق الصقلي والسمنطاري . وبرع في التفسير والقراءات

علماء أجلاء اهمهم محمد بن عبد الله المقري الذي اقام في صقلية وكان من اهل القرآن والتفسير . وكان اسد بن الفرات من العلماء البارزين في دولة زيادة االله بن الاغلب . وابن الفرات فقيه مالكي ومحدث ، اصطحب معه الى صقلية رهطا كبيرا من العلماء والفقهاء شاركوا في حركة الانتعاش الثقافي في الجزيرة(٥١) .



اما عن علوم الاوائل فقد شهدت صقلية الى جانب الدراسات الدينية انتشارا لعلوم الاوائل وتحدثنا المصادر عن سعيد بن فرحون المعروف بالحمار السرقسطي الذي دخل صقلية بعد محنة اصابته في ايام المنصور بن ابي عامر ، وظل فيها الى أن توفى . وبرع ابن فرحون في اللغة والنحو والموسيقى والمنطق . فهو صاحب رسالة في المدخل الى علوم الاوائل سماها «شجرة الحكمة» ولدينا شواهدنستطيع أن نحكم منها بأن المغاربة عامة والصقليين خاصة ، عرفوا في وقت متأخر كتب ابي حيان التوحيدي ؛ سواء أكان ذلك بالهجرة الى الشرق أم بارتحال تلك الكتب الى الغرب . فقد كتب أحد أهل صقلية على ظهر كتاب الامتاع « ابتدأ ابو حيان كتابه صوفيا ، وتوسطه محدثا وختمه سائلا ملحفا »(٥٢) .

ولا تمدنا المصادر التاريخية المتداولة بمعلومات وافية عن علوم الطب والفلك والتنجيم في صقلية وقد عنيت بعض المصادر بنسبة الطب الى ابي عبد الله بن الطوبي، ووصف احيانا بأنه اربى في الطب على نظرائه . وذكره العماد في خريدته فقال : انه كان طبيبا مترسلا وشاعرا ، ومدحه ابن القطاع وأشار الى مهارته الطبية بقوله :

ايها الاستاذ في الطب	واعراب الكلام
لك في النحو قياس	لايساميه مسام
ثم في الطب علاج	دافع الداء العقام

وكان هناك من الاطباء في صقلية من يستعملون بعض العقاقير الطبية أو غير الطبية في العلاج منها الشب والحلتيت والصبر ... الخ(٥٣) .

وبالنسبة لعلم الهندسة ، تخبرنا بعض المصادر أن الكاتب أبا الفضل أحمد بن دابق كان عالما بالهندسة ، وان عمر بن محمد بن الحسن الصوفي كان كاتبا ومنجما ومهندسا .

اما عن انتشار اللغة العربية في جزيرة صقلية فمن المعروف ان اللغة العربية دخلت الجزيرة مع افواه الفاتحين ، وظلت فترة من الزمن لغة المنتصرين وحدهم ، حتى تطورت الحياة الاجتماعية بالجزيرة ، واعتنق اهلها الاسلام ، واصبحت اللغة العربية لغة رسمية وشعبية في وقت واحد . ومن الجدير بالذكر ان العرب تركوا الفاظا كثيرة من لغتهم في اللغة الصقلية ، ولا تزال عدة اماكن بصقلية تحمل اسماء عربية ولا سيما اسماء القلاع والمراسي والشوارع ، وتبدأ اسماء القلاع بلفظ (قلتا) أي قلعة ومنها ما أصبح اليوم مدنا مثل قلعة النساء وقلعة نيمي وقلعة الحسن ، وكذلك المراسي مثل كلمة مرسى على ، مرسى المينا وغيرها(٥٤) .

واذا تركنا اثار المسلمين في صقلية من الناحية الثقافية ، الى آثارهم في الناحية المعمارية فيجب ان نذكر تلك العبارة التي ذكرها القزويني في كتابه آثار البلاد واخبار العباد « كانت صقلية قليلة العمارة خاملة الذكر الى ان فتحها المسلمون في أيام بني الاغلب » والحق ان القزويني صادق في عبارته هذه الى حد كبير ، فقد ادت هجمات القوط الى خراب صقلية بما كانت تحمله من همجية وعدم تقدير للحضارة . وحاول الاباطرة البيزنطيون امثال قنسطانز الثاني الاهتمام بتلك المدينة وتعميرها ، ولكنه فشل في ذلك واستمرت عمارة صقلية مهملة تماما حتى الفتح العربي لها فأقام بها العرب المباني الفاخرة والقصور العامرة(٥٥) . ومما يؤكد ذلك وصف الادريسي لمدينة بالرم بقوله : « لها حسن المباني التي سارت الركبان بنشر محاسنها في بناءاتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها ، وهي قسمان قصر وربض ، فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد واقليم . وهو في ذاته على ثلاثة اسمطة ، فالسماط الاول يشتمل على قصور منيعة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار ، والسماطان الباقيان فيها أيضا قصور سامقة ، ومبان فاخرة عالية ، وبهما من الفنادق والحمامات الكثير الكثير ، وبه الجامع الاعظم »(٥٦) . ولنتناول في شيء من التفصيل بعض قصور مدينة بالرم التي بلغت أوج عزتها وسدرة منتهى رونقها وبهائها ابان العصر الاسلامي . من تلك القصور: قصر النوارة وقصر العزيز وقصر القبة والقصر الملوكي . اما عن قصر النوارة فهو من أهم اثار بالرم الاسلامية ولقد ترنم بذكر محاسنه الشاعر عبد الرحمن بن أبي العباس حينما يقول :

نوارة البحرين جامعة المنى ... عيش يطيب ومنظر يستعظم

ويقع هذا القصر الشامخ فوق جزيرة تحيط بها بركة صناعية من جهات ثلاث، وقد شاده وبالغ في تزويقه الامير جعفر ، من ملوك بني الحسن بين عامي ٩٩٧ و ١٠١٩م واتخذه هو وخلفاؤه من بعده مكانا للترف والنعيم(٥٧) .

اما « قصر العزيز » فيدعوه الاوربيون لازيزا Laziza وقد شيده ليتخذ منه مقرا لملكه وسلطانه الملك وليم الاول فيما بين سنتي ١١٥٤ ـ ١١٦٦ م بواسطة مهندسين وبنائين ونقاشين من المسلمين فكان القصر آية من آيات الفن المعماري الاسلامي . « وقصر القبة » وهو على شاكلة قصر العزيز اتم صنعه البناؤون المسلمون حوالي سنة ١١٨٠م ، وقد تحطم اكثره ولم تبق الا بعض جدرانه وقاعاته قائمة ، تذكر الايام بما سلف لها من مجد . اما عن « القصر الملوكي » فقد انشاه المسلمون واتخذوه مقرا للحكم والامارة . ثم استقر به ملوك النورمان بعد ذلك ، فزادوا في مساحته واضافوا اليه بواسطة البنائين المسلمين اقساما اخرى ، ولا يزال قائما حتى الآن(٥٨) .



على ان الحضارة الاسلامية في جزيرة صقلية لم تنته بانتهاء حكم المسلمين للجزيرة ، وانما وجدت في ملوك النورمان خير مشجع لها . فعندما دخل النورمان صقلية (١٠٦٠ ـ ١٠٩١ م) تركوا مسينا ، عاصمة الجزيرة قبل الفتح الاسلامي ، واتخذوا مدينة بالرم عاصمة للدولة النورمانية . وعاش النورمان في ظل الحضارة الاسلامية ، ونصبوا انفسهم رعاة وحماة لهذه الحضارة ، الامر الذي ادى الى استمرار الحضارة الاسلامية في عهدهم .

وتحت حكم النورمان عاش المسلمون عيشة المعلم ، واصبح النورمان المتنصرون تلاميذ للعرب المغلوبين واقبلوا على تحصيل الثقافة والعلوم الاسلامية . ومع ذلك فقد آلمت سيادة النورمان على عرب الجزيرة كثيرا من الشعراء امثال الشاعر عبد الجبار بن ابي بكر محمد بن حمديس الصقلي السرقوسي ، فقد هاله قدوم النورمان الى صقلية الاسلامية فرحل عنها الى اشبيلية ورثاها في شعر قال فيه :

ديار تمشت اليها الخطوب كما تتمشى الذئاب الضراء

ولكن جراح ودموع أولئك الذين بقوا في الجزيرة قد اندملت وجفت ، وخاصة بعد أن اذهلت الحضارة الاسلامية المتنصرين وشعروا بتفوق المسلمين الحضاري عليهم . فقد وجد النورمان انفسهم في بيئة حضارية جديدة ما كانت تجول بخاطرهم فكانوا اينما اداروا وجوههم لا يشاهدون الا الجمال والابهة وحياة اخرى ارفع وارقى من تلك التي كانوا يحيونها من قبل ، هذا الى جانب فن العمارة الاسلامي الذي ابدع فيه الفنانون والمزخرفون المسلمون ، والى جانب لغة وشعر بلغا منزلة ادبية وفنية عالية ، لذلك لا عجب اذا وجدنا النورمان يؤخذون بهذه البيئة الجديدة ويقعون اسراها عن طيب خاطر .

وكان النورمان اسبق من غيرهم الى اقتباس العادات والتقاليد والثقافة الاسلامية رغما من الاتفاقية المبرمة بينهم وبين البابا ، وتقول الكاتبة الالمانيةالدكتورة زيجفريد هونكه في ذلك « وقد اسرع هؤلاء الحكام وغيرهم من سكان صقلية المسيحيين في التحلل من التقاليد المسيحية حتى الطقوس الكنسية وشعروا بالسعادة عندما ساروا في طريق الامراء العرب »(٥٩) .

وقد اقام النورمان في هذه القلاع والقصور على الطراز العربي الاسلامي تحيط بها الحدائق الغناء ، حيث تتدفق فيها الينابيع الصناعية ، كما زخرفوا هذه القصور بالزخارف العربية والمياه المتفجرة من أعلى الكهوف والاقواس المدببة ، ولم يترددوا في تسميتها بأسماء عربية وان يدشنوها باسم الله الرحمن الرحيم حيث تجد على هذه القصور العبارات التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم قف ساكنا وتأمل عملا عظيما شامخا .

ويعتبر الملك النورماني روجر الثاني من اشهر ملوك النورمان حبا للثقافة الاسلامية ومشجعا لها ولذلك نجد الملك روجر يتصل بالمسلمين في صقلية ،ويتبادل معهم الراي والمشورة في اموره ومهام دولته ، بل لقد ذهب الملك روجر الى ان طلب من المسلمين ان يعلموه ما يجهل فتراه يحتفظ بعدد كبير من شعرائهم وعلمائهم في قصره . وكلف عددا منهم بترجمة المصادر العربية واليونانية الى لغته وشارك الملك روجر الثاني في المجادلات التي كانت كثيرا ما تقع بين المسيحيين والمسلمين ، وتعصب الملك للاسلام والمسلمين . والذي حمل الملك النورماني على هذا الموقف اعتقاده كما يروي ابن الاثير في ان المسلمين جديرون بالاحترام والتقدير ، ولذلك صادقهم وحماهم من الافرنج فأحبوه . وقد اشاد به العرب في اشعارهم وخلدوه في مؤلفاتهم وذكروه على انه الحاكم المثالي الذي عرفته العصور الوسطى ، وهو مؤسس الدولة والمشرع والسياسي ، وهو المهتم بالرياضيات والفلك والجغرافيا وعلم الطبيعة . والى المسلمين يرجع الفضل في الحالة الاقتصادية التي كان يعيش فيها الملك روجر والتي مكنته من أن يصبح من أغنى ملوك أوربا ، فالعرب كانوا مهرة في زراعة الارض ونشطوا في المجال الصناعي والبحري وكان لهم نظام مثالي في الاقتصاد والضرائب .

واستدعى روجر الثاني الى بلاطه العالم الجغرافي العربي الكبير ابا عبد الله محمد بن محمد الادريسي (٤٩٣ ــ ٥٦٠ هـ) والادريسي درس في مستهل حياته في قرطبة بالاندلس وقام برحلات طويلة بين آسيا والشواطىء الغربية لانجلترا ،

ثم تحول جنوبا الى افريقيا ورست به الحياة في صقلية وقضى خمسة عشر عاما في بالرم . وقد شارك الملك روجر المتعطش الى العلوم والمعرفة والجغرافية الادريسي في ولعه بالعلوم والمعارف ، وكلف الملك الادريسي برسم خريطة للعالم واخراج كتاب في الجغرافية يفرغ فيه الادريسي ما لديه من معلومات جغرافية نفيسة ، فقام الادريسي بوضع كتابه الجغرافي المشهور الذي يعد من أعظم الاعمال في ميدان الجغرافية ، حتى يذكر العلماء بأن احسن خريطة جغرافية وصلتنا هي تلك التي تركها لنا الادريسي ، وهي محفورة على كرة من الفضة قطرها متران وتزن ثقل رجلين مكتملين ، اما شرحها فعبارة عن هذا الكتاب القيم والمسمى لدى الغربيين باسم « كتاب روجر » نسبة الى الملك روجر والمعروف لدى العرب باسم كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » .

ويذكر لنا الادريسي سبب تأليفه هذا الكتاب بأمر الملك روجر الثاني فيقول :

« فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة انه لما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم اهل دولته واطاعته البلاد الرومية ودخل اهلها تحت طاعته وسلطانه احب ان يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا ، ففي اي اقليم هي وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ، ومعرفة غيرها من البلاد والاقطار في الاقاليم السبعة التي اتفق عليها المتكلمون ، واثبتها في الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل اقليم منها من قسم بلاد يحتوي عليه ويرجع اليه ... فأحضر اليه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه واخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علما اكثر مما في الكتب المذكورة ، فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث الى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة جمعا وافرادا فما اتفق فيه قولهم اثبته وابقاه وما اختلفوا فيه الغاه وارجاه ... وان يؤلفوا كتابا يصف احوال البلاد والاراضين في خلقها وبقاعها واماكنها وصورها وبحارها وجبالها وانهارها ... ومزروعاتها وغلاتها واجناس ابنائها وخواصها والاستعمالات التي تستعمل بها والصناعات التي تنبثق بها ، والتجارات التي تجلب اليها وتحمل منها والعجائب التي تذكر عنها وتنسب اليها ... وذكر احوال اهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم » .

وقد اتم الادريسي هذا العمل العظيم في بلاط الملك روجر الثاني ، ووضع خريطة للعالم على شكل طبق من الفضة ، وهو اول من نادى بكروية الارض في هذه البلاد ، فالذي كان معروفا في كثير من الاديرة ان خريطة العالم عبارة عن قطعة من الارض تحيط بها المياه وفي وسطها تقع الجنة . وخريطة الادريسي تختم هذه القرون

المظلمة ، وهي اول مجهود علمي شخصي . ووصف الادريسي جزيرة صقلية في كتابه فقال : ان جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلا ومحاسن ، ووحيدة البلدان طيبا ومساكن ، وقديما دخلها المتجولون من سائر الاقطار والمترددون بين المدن والامصار وكلهم اجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها واعجبوا بزاهر حسنها ، ونطقوا بفضائل ما بها ، وما جمعته من مفترق المحاسن وضمته من خيرات سائر المواطن » . وقد اعجب روجر بالادريسي اشد الاعجاب بعد ان انجز له العمل الذي طلب منه واراد ان يبقيه في بلاده قائلا له : « انت في بيت الخلافة ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ومتى كنت عندي امنت على نفسك » فاجابه الى ذلك(٦٠) .

ولقد زار ابن جبير الرحالة العربي الغرناطي مدينة بالرم ، وسحرته بمناظرها وحضارتها سنة ١١٨٥ م ولقد ترك لنا في رحلته وصفا دقيقا عن صقلية وبالرم العاصمة وقصرها الملكي والشيء الجدير بالانتباه والذي لفت نظر الرحالة العربي الغرناطي هي تلك الصلة القوية بين الحاكم النورماني ورعاياه المسلمين . فقد كان الرحالة يعتقد انه يزور بلدا يحكمه الافرنج ، الا انه سرعان ما تبين مقدار الثقة العظيمة التي يوليها الملك للمسلمين والمعاملة الحسنة التي يتمتع بها عماله المسلمون فهو كثير الثقة بهم سكن اليهم في احواله والهام من اشغاله . يقول ابن جبير :

« وكان يشرف على طعامه رجل من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين ... وللمسلمين في هذه المدينة رسم باق من الايمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم ارباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والاسواق معمورة بهم وهم التجار ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الاعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسي ولهم فيها قاض يرجعون اليه في احكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه واما المساجد فكثيرة لا تحصى يقوم فيها معلمو القرآن بالتدريس لاولاد المسلمين » .

ويقول ابن جبير عن ملك النورمان « وليام الثاني » انه يقرأ ويكتب اللغة العربية وعلامته كما يذكر أحد خدمه المختصين به « الحمد لله حق حمده » وكانت علامة ابيه « الحمد لله شكرا لانعمه » ويذكر ان الجواري في القصر مسلمات ، ومن أعجب ما حدثه به بعض خدمه وهو يحيى من فتيان الطراز الذي يطرز بالذهب في طراز الملك ، ان الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتصبح مسلمة بواسطة الجواري الموجودات بالقصر ، وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله ولهن في فعل الخير امور عجيبة ومما يذكر ايضا انه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع الا ذاكرا لله ولرسوله صلوات الله وسلامه

عليه من نسائه وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم : « ليذكر كل احد منكم معبوده » تسكينا لهم ، واما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته فهم مسلمون يصومون الاشهر تطوعا ، ويتصدقون تقربا الى الله ، ويفكون الاسرى ، ويربون الاصاغر ويفعلون الخير ما استطاعوا(٦١) .

ويعتبر الملك المستعرب فردريك الثاني من اشهر الملوك الذين تأثروا بالحضارة الاسلامية ، وفردريك الثاني هو حفيد روجر الثاني نشأ في بالرم يتيما مهملا ثم جلس على عرش صقلية بعد ابن عمه النورماني الملك وليام الثاني . وكان في صغره يتجول حرا بدون رقيب في مختلف الحواري والازقة واحياء الميناء اشباعا لرغبته في المعرفة ، وكان يذهب الى المساجد والإسواق وارصفة الميناء ، كما اختلط بسكان بالرم من المسلمين لذلك شب هذا الملك الطفل وترعرع بين الاثار العربية الاسلامية الجميلة ، وأحجار الفسيفساء البراقة والقلاع العربية الشامخة المتناهية في العظمة وهي وان كانت تحمل اسم الملك روجر ، الا أن العمال والمهندسين المعماريين الذين شيدوها كانوا عربا جنسا وفنا ومعمارا .

ونشأ فردريك الثاني في هذا الوسط العربي الاسلامي لا تقع عينه الا على صور عربية وخلق عربي وحياة عربية ، انها بيئة العروبة ولوحتها الخالدة التي لن ينساها من يشاهدها . وسمع الملك الطفل اغاني العرب في القصور وسمع اذان المؤذنين من اعلى المآذن الذي كان يحدد له نظام يومه . ولما توفيت امه النورمانية ابنة الملك روجر الثاني ساءت حاله ، وكان يأوي الى مواطنيه العرب المسلمين فمدوا له يد المساعدة فكانوا يعولونه ويطعمونه حتى بلغ الطفل السابعة(٦٢) .

وهكذا نجد ان الطبيعة العربية في صقلية هي التي تولت تربية هذا الملك ، الذي اصبح له شأن عظيم ففي ميادين بالرم والمساجد والحوانيت وفي السوق والشوارع كان يتلقى دروسه اليومية في اللغات والتي كانت متداولة في صقلية وكان يتكلم وهو طفل تسع لغات منها اللغة العربية ، ومن الجدير بالذكر ان قاضي المسلمين في بالرم كان يتولى تعليم هذا الشاب المتعطش الى العلم والمعرفة وكان يمده بالكتب العربية ارضاء لرغبته الجامحة الى العلم وتحصيل المعرفة .

والى جانب الثقافة العربية التي تشبع بها فردريك الثاني في صقلية والتي لعبت دورا هاما في حياته نجده تأثر بالطراز المعماري العربي الذي شاهده في الحصون العربية في بلاد الشام اثناء حملته على بيت المقدس والادلة على ذلك المباني التي شيدها في صقلية ، ذلك انه بعد عودته من بلاد الشام كان قد أمر بتحصين مراكز

الدفاع التي تصدعت وتهدمت في صقلية ، هذه المراكز الدفاعية التي ترجع الى العصرين العربي والنورماني ، كما استخدم التصميم العربي في مبانيه الجديدة التي امر بتشييدها ، ووضع خطة جديدة للبناء تطلب انجازها عشرات السنين ، كما اقام في طول البلاد وعرضها شبكة من الحصون اللازمة في الدفاع عن البلاد وادارتها وجميعها قد اخذت عن الحصون العربية في بلاد الشام ، فالتصميم والفن والاقواس المدببة وفتحات السهام كلها عربية ، هذا الى جانب الحيطان المربعة الضخمة وبعض الزخارف التي نشاهدها في مباني فريدريك والتي تبين بوضوح تصميمها العربي ، وكذلك الاسماء المنحوتة عليها تؤيد هذه التاثيرات العربية . ومن صقلية انتشر هذا الطراز العربي للحصون والقلاع ، الذي اقتبسه فردريك الثاني من بلاد الشام الى كافة البلدان الاوروبية(٦٣) .

وبعد ... فليس هناك ابلغ في الدلالة على شغف الامبراطور فردريك الثاني بالحضارة الاسلامية وعلى معرفة كل جديد في العلوم العربية من اعتزازه بالهدية التي قدمها له حليفه الملك الكامل الايوبي (٦٠٤ ــ ٦٣٥) هـ بعد الاتفاق الذي تم بينهما بخصوص مدينة القدس . هذه الهدية هي عبارة عن كرة من النحاس صورت عليها السماء بأبراجها ونجومها وكان قد قام بعملها للملك الكامل الايوبي عالم عربي هو الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف ، ان هذه الهدية تمثل قمة ما وصلت اليه الدراسات الفلكية على يد العلماء المسلمين في النصف الاول من القرن السابع الهجري ، بل تعتبر من اثمن النماذج المادية على تفوق الحضارة العربية . وهي لا تزال حتى يومنا هذا محفوظة في متحف بوجيا بمدينة فليترى بايطاليا(٦٤) .



ولعبت صقلية دورا هاما في انتقال الحضارة الاسلامية الى اوروبا . فمن المعروف ان الاستفادة من خلاصة الفكر الاسلامي لم تتم الا عن طريق حركة ترجمة واسعة على يد فريق من المستعربين ، نقلوا فيها كثيرا من المؤلفات العربية الى اللاتينية ، وبذلك امكن لاوروبا الاستفادة على نطاق واسع من انتاج العلماء المسلمين ، وكان اهم مراكز الترجمة عن العربية الى اللاتينية مركزان وهما : الاندلس وصقلية . وكانت الاندلس هي المركز الرئيسي للترجمة من العربية الى اللاتينية فاتجه اليها كثير من أعلام النهضة الاوروبية في القرن الثاني عشر الميلادي يطلبون الارتواء من فيض العلوم الاسلامية في مختلف العلوم والاداب . اما صقلية فقد اسهمت بنصيب كبير في حركة الترجمة عن العربية ، وساعد صقلية على القيام بهذا الدور موقعها المتوسط بين اوروبا وافريقية فضلا عن دخولها تحت حكم المسلمين فترة طويلة من الزمان ،

ثم احتفاظها بنسبة كبيرة من سكانها المسلمين وبحضارتها العربية في عصر النورمان الذين خلفوا العرب في حكم الجزيرة وقد ترجم في صقلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين كثير من الكتب العربية ، ففي سنة ١١٥٠ م ترجم ايوجونيوس البالرمي كتاب بطليموس السكندري في المرئيات عن اللغة العربية وفي سنة ١١٦٢ م ترجم عن اللغة العربية كتب اخرى في الفلك والرياضيات واشتهر من المترجمين في القرن الثالث عشر فرج بن سالم اليهودي المتوفى سنة ١٢٨٥ م وهو من أصل صقلي طلب العلم في سالرنو حيث ترجم كثيرا من كتب العرب الى اللاتينية ، وقد ساعد الامراء والحكام في صقلية في عهد النورمان العلماء والمترجمين وشجعوهم في حركة نقل الكتب الى اللاتينية .



هوامش البحث

(١) عن جزيرة صقلية انظر : ابن حوقل : صورة الارض ص ١١٣ – ١١٦
ياقوت : معجم البلدان ، الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الافاق (المكتبة الصقلية) ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ق ١ . ص ٢٧٨ .

(٣) البلاذري ، المصدر السابق القسم نفسه والصفحة نفسها ، فازليف : العرب والروم ص ٦٢ – ٦٤ ، صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط ص ٧٤ – ٧٥ ، ابراهيم علي طرخان : المسلمون في اوروبا ص ٥٦–٥٧ .

(٤) احمد توفيق المدني : الاسلام والحضارة العربية ص ٢٥٧ .

(٥) حامد زيان : تاريخ الحضارة الاسلامية في صقلية ص ١٧ .

(٦) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٥٨ – ٥٩ .

(٧) احمد توفيق المدني : نفس المرجع ص ٦٠.

(٨) السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٦٩ .

(٩) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٢٣– ١٢٤ .
حامد زيان : المرجع السابق ص ٢٠ .

(١٠) انظر : النويري نهاية الارب (المكتبة الصقلية ص ٤٢٧ – ٤٢٨) .
احسان عباس : المرجع السابق ص ٣٢ – ٣٣ .

(١١) ابن الاثير : الكامل ج ٦ ص ١٢٤ انظر ايضا: محمود اسماعيل عبد الرزاق في الاغالبة (١٨٤ – ٢٩٦ هـ) سياستهم الخارجية ص ١٩٠ – ١٩٢ .

(١٢) ابن عذاري : البيان المعجب في اخبار المغرب (المكتبة الصقلية ص ٣٥٥) وايضا ابن الاثير ص١٢٤

(١٣) النويري : نهاية الارب (المكتبة الصقلية ص ٤٢٩) .

(١٤) حامد زيان : المرجع السابق ص ٢٦ .

(١٥) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ص ٢٥٨ .

(١٦) محمد كرد علي : المرجع السابق ص ٢٦٣ .
احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢٠٩– ٢١٠ .

(١٧) سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٢٥

(١٨) حامد زيان : المرجع السابق ص ٤٥

(١٩) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢٠٩

(٢٠) حامد زيان : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢١) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢٠٩

(٢٢) حامد زيان : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢٣) احسان عباس : المرجع السابق ص ٧٢

(٢٤) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢١٠، سعيد عاشور النهضات الاوروبية ص٣٢٥ ، ارشيبالد لويس : القوى البحرية ص ٣٣١ .

(٢٥) ابن العوام الاشبيلي : كتاب الفلاح (المكتبة الصقلية ص ٥٤٥ - ٥٤٧) .

(٢٦) الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقلية ص ٧٣) .

(٢٧) سعيد عاشور : النهضات الاوروبية ص ٣٢٥ .
محمد كرد علي : المرجع السابق ص ٢٦٣ ، احمد توفيق المدني المرجع السابق ص ٢١١

(٢٨) ارشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٣٣١ - ٣٣٢ ، احسان عباس المرجع السابق ص ٧٤ .

(٢٩) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٢١١، محمد كرد علي المرجع السابق ص ٢٦٣ .

(٣٠) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ١٢١ .

(٣١) احسان عباس : المرجع السابق ص ٧٤ .

(٣٢) ابن حوقل : المصدر السابق ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٣٣) احسان عباس : المرجع السابق ص ٧٤ .

(٣٤) الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقلية ص ٢٢ - ١١١) .

(٣٥) حامد زيان : المرجع السابق ص ٥٠ - ٥١ .

(٣٦) الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقلية ص ٢٣ - ٢٤) .

(٣٧) حامد زيان : المرجع السابق ص ٥١

(٣٨) المرجع السابق ص ٥٢

(٣٩) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ١١٩ .

(٤٠) جمال الدين الشيال : في التاريخ (فصل من كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الاوروبية) ص ٣٧٩ .

(٤١) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٢٠ .

(٤٢) ان حوقل : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٤٣) احسان عباس : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٤٤) ابن حوقل : المصدر السابق ص ١٢٦ .

(٤٥) المصدر السابق ص ١٢٧ .

(٤٦) حامد زيان : المرجع السابق ص ٥٤ – ٥٥ .

(٤٧) احسان عباس : المرجع السابق ص ٩٨ .

(٤٨) المرجع السابق ص ٩٩ – ١٠٠ .

(٤٩) المرجع السابق : ص ١٠١ .

(٥٠) ياقوت الحموي : معجم البلدان (المكتبة الصقلية ص ١١٣ – ١١٤) .

(٥١) احسان عباس : المرجع السابق ص ١٠٣ – ١٠٤ احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٦٢ – ٦٣ .

(٥٢) احسان عباس : المرجع السابق ص ١٢٠ .

(٥٣) المرجع السابق ص ١٢١ – ١٢٢ .

(٥٤) محمد كرد علي : المرجع السابق ص ٢٧١

(٥٥) حامد زيان : المرجع السابق ص ٥٩ – ٦٠ .

(٥٦) الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقليةص ٢٨) .

(٥٧) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٤٢

(٥٨) احمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٤٢ – ٤٣ .

(٥٩) زيجفريد هونكه : شمس الله على الغرب ص ٣١١ .

(٦٠) انظر : الادريسي : نزهة المشتاق (المكتبة الصقلية) جمال الدين الشيال : في التاريخ ص ٣٧٩ – ٣٨٠ محمد كرد علي : المرجع السابق ص ٢٦٨ .

(٦١) ابن جبير : الرحلة ص ٢٧١ عبد القدوس الانصاري : مع ابن جبير في رحلته ص ٢٧٣ .

(٦٢) زيجفريد هونكه : المرجع السابق ص ٣٢٩ .

(٦٣) المرجع السابق ص ٣٥١

(٦٤) بول كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، ترجمة وتقديم احمد دراج ص ٩٤ – ٩٥ عن العلاقات بين الامبراطور فردريك الثاني والملك الكامل انظر مقال دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١١ سنة ١٩٦٣ م ص ١٩٥ – ٢١٣ .



فهرس الموضوعات

المنشورة بمجلة دراسات تاريخية

١٩٧٩ – ١٩٨٢

ـ مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام — د. عبد الكريم رافق

ـ الحركة العربية خلال الحرب العالمية الثانية وفي اعقابها — د. خيرية قاسمية

ـ العرب في شرق افريقية ـ جزر القمر — عبد الرحمن بدر الدين

ـ ملوك اوغاريت من خلال الوثائق — د. علي أبو عساف

العدد الثاني : رمضان ١٤٠٠ هـ / حزيران « يونيه » ١٩٨٠ م

ـ عود على بدء — د. شاكر الفحام

ـ التدمريون في الدنيا الرحيبةخلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين — د.عدنان البني

ـ النشاط التبشيري الالماني في فلسطين بين عامي ١٨٤١ ـ ١٩١٨ — د.علي محافظة

ـ التشريع الاقتصادي الاسلامي ودور الامام محمد بن الحسن الشيباني في ارساء دعائمه — د. سهيل زكار

ـ بين التاريخالجغرافي والجغرافية التاريخيةللوطن العربي — مصطفى الحاج ابراهيم

ـ اضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الايوبية وجمهورية البندقية ١١٧١ ـ ١٢٥٠ — د. عادل زيتون

ـ كتابة تاريخ العرب « مشروع اللجنة التحضيرية »

العدد الثالث : صفر ١٤٠١ هـ / كانون اول « ديسمبر » ١٩٨٠ م

ـ منهجية ابن خلدون التاريخية وتأثيرها في المقدمة وكتاب العبر — د. محمد الطالبي

ـ التراث العربي وعناصر الصالحة لنهضة عربية حديثة — عبد العزيز بنعبد الله

ـ ابن خلدون والمادية التاريخية — د. أحمد ماضي

ـ بعض من ملامح الصراع الطبقي في التاريخ العربي — د. نبيه عاقل

ـ البصرة اول قاعدةللتوسع العثماني فيالخليج العربي — د. مصطفىعبد القادرالنجار

ـ مطالعات في تاريخ العلوم في العصر الاموي — د. احمد سليم سعيدان

ـ الحياة الإقتصادية في بلاد الشام بين سنتي ١٣٢ ـ ٣٥٩ هـ   د. امينه بيطار

ـ مع المجلات العربية ـ مجلتان تاريخيتان   د. شاكر الفحام

العدد الرابع : جمادي الثانية ١٤٠١ هـ / نيسان « ابريل » ١٩٨١ م.

ـ مع بدايات السياسة الامريكية في الشرق العربي   د. خيرية قاسمية

ـ مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني   د. عبد الكريم رافق

ـ بعض احداث الدولة العباسية والدور العباسي الاول من خلال
منظور عنصري واقتصادي اجتماعي   د. نبيه عاقل

ـ حياة الناس في مدن الثغور ـ مدينة طرسوس   د. مصطفى علي الحياري

ـ اضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس   د. يوسف درويش غوانمة

ـ التنظيم العسكري عند العرب المسلمين ـ فترة النشأة والتكوين   د. احمد بدر

ـ مؤتمرات تاريخية . المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية
في بوخارست والمهمات المطروحة على عاتق المؤرخين العرب   د. مسعود ضاهر

العدد الخامس : رمضان ١٤٠١ هـ / تموز « يوليو » ١٩٨١ م.

ـ المسجد واثره في تطوير التعليم   د. حسين امين

ـ اثر صقلية في نقل الحضارة العربية الاسلامية الى الاوربيين   د. محمد كامل عياد

ـ نظام ملكية الارض في المغرب الاسلامي   د. الحبيب الجنحاني

ـ الواجهة العسكرية للحضارة العربية الاسلامية « فتح إفريقية
جذوره السياسية وابعاده الاستراتيجية »   د. عمر السعيدي

ـ الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في
الجزائر في اواخر العهد العثماني واوائل الاحتلال الفرنسي   د. ناصر الدين سعيدوني

ـ الرباط والمرابطون في ساحل الشام من الفتح الاسلامي حتى
الحروب الصليبية   د. عمر عبد السلام التدمري

ـ اجناد القبائل العربية في بلاد الشام في العهد المملوكي — امين الثفوري

ـ بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته — د. يوسف بكار

ـ دور الجمعيات الاصلاحية والنوادي الثقافية في مجابهة السياسة التعليمية في عدن خلال تبعيتها للهند ١٨٣٩ ـ ١٩٣٧ — سلطان ناجي

ـ الردة وموقف ابي بكر منها — نجدة خماش

ـ وثائق تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العهد العثماني — د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

العدد السادس : ذو الحجة ١٤٠١ هـ / تشرين الاول « اكتوبر » ١٩٨١ م

ـ قافلة الحج الشامي واهميتها في الدولة العثمانية — د. عبد الكريم رافق

ـ مروان بن الحكم والخلافة — د. صالح الحجارنه

ـ في اصول الكتابة العربية — محمد محفل

ـ الصورة التاريخية والحضارية للقطر العربي السوري في العصور الشرقية القديمة — قاسم طوير

ـ حول مصادر تاريخ العرب القديم — د. مفيد رائف العابد

ـ مملكة بيت بحياني الارامية — د. علي ابو عساف

العدد السابع : ربيع الاول ١٤٠٢ هـ / كانون الثاني « يناير » ١٩٨٢ م

ـ معالم الحضارة العربية الاسلامية في افريقية — د. محي الدين صابر

ـ مساهمة المغرب العربي في ازدهار الحضارة العربية الاسلامية — د. عبد الحميد حاجيات

العدد الثامن : رجب ١٤٠٢ هـ / نيسان « ابريل » ١٩٨٢

العددان التاسع والعاشر « عدد مزدوج » : محرم ١٤٠٣ هـ/تشرين الاول « اكتوبر » ١٩٨٢

ـ فصل من تاريخ سورية الحديث ـ صور من حوران في القرن التاسع عشر - د. ليندا شيلشر

ـ المستشرقون وبعض قضايا التاريخ العربي الاسلامي د. نبيه عاقل

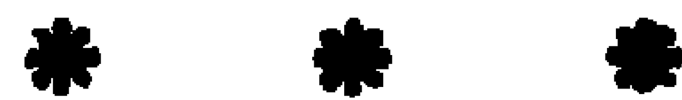
العدد الحادي عشر : ربيع الثاني ١٤٠٣ هـ/كانون الثاني ١٩٨٣ م

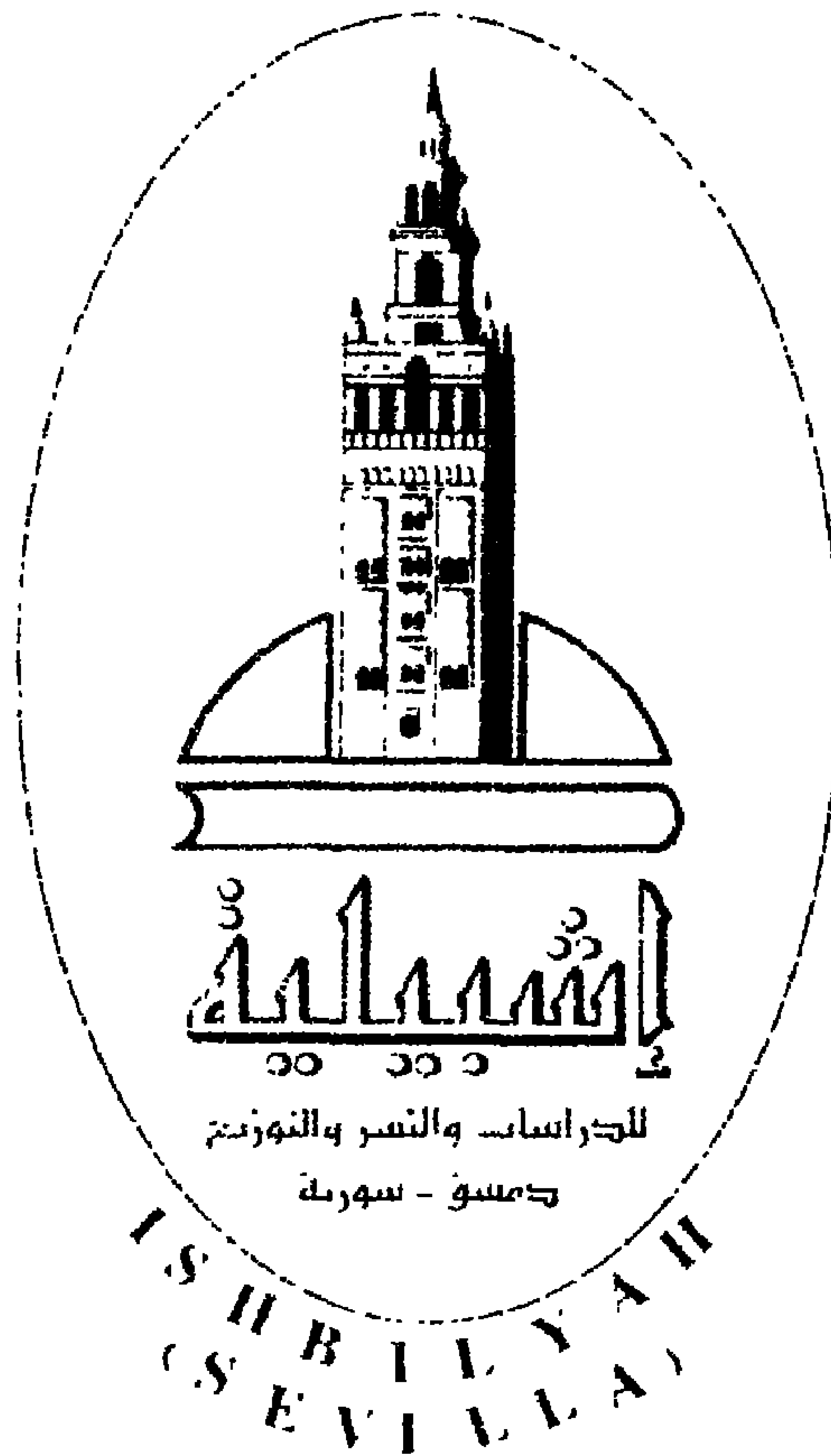
ـ الثقافة والاتجاه الاشتراكي العلمي في الفكر العربي المعاصر د. احمد ماضي

ـ الردافة ـ على ضوء بعض العلاقات القبلية في شمال شرق الجزيرة العربية قبل الاسلام في القرن السادس ومطلع السابع الميلادي (مع ملحق) د. صالح درادكه

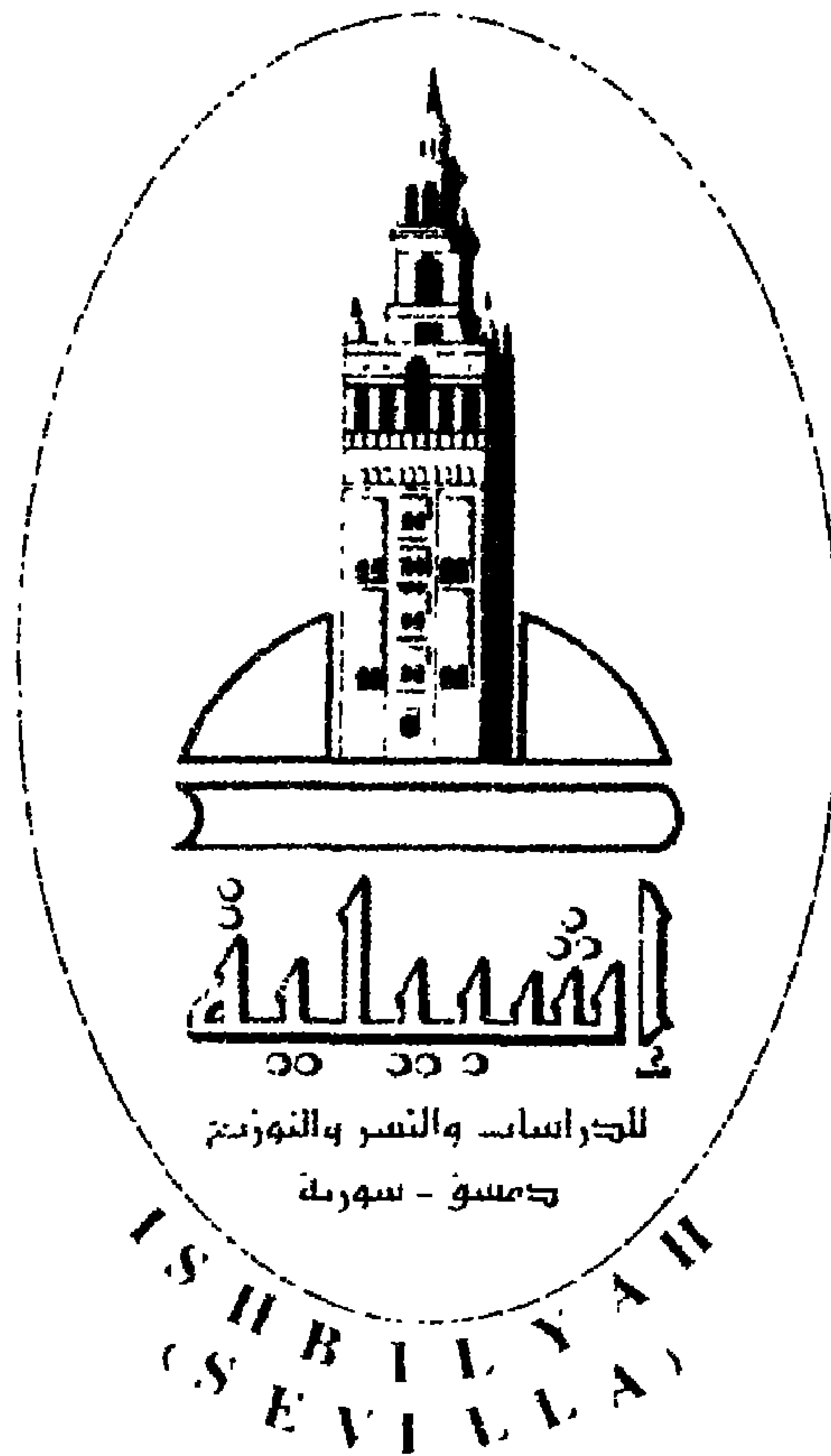
ـ المقاومة العربية للصهيونية أواخر العهد العثماني ١٩٠٨ ـ ١٩١٧ الاتجاهات الرئيسية د. خيرية قاسمية

ـ مرافق الامن والتعليم والاشغال العامة في فلسطين كما يكشف عنها موظف كبير في الادارة الانتدابية د. احمد طربين





Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS P O Box 4363, SYRIA



Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS P O Box 4363, SYRIA



